محمد قاسم الهاشمي



المصابيح الساطعة الأنوار

تفسير أهل البيت عليهم السلام

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

الطبعة الثالثة
١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

منشورات
مكتبة التراث الإسلامي
الجمهورية اليمنية - صعده
ت: ٥١٣١٥٠

المصابيح الساطعة الأنوار

تفسير أهل البيت عليهم السلام

الامام زيد بن علي(ع) | الامام القاسم بن ابراهيم(ع) | الامام محمد بن القاسم(ع)
(٧٢هـ - ١٢٢هـ) | (١٩٦هـ - ٢٤٦هـ) | (٢٨٤هـ)

الامام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين(ع) | الامام ابو الفتح الديلمي(ع) | الامام الحسين بن القاسم العياني(ع)
(٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ) | (٤٥٠هـ) | (٣٧٦هـ - ٤٠٤هـ)

الجاثية ــ ص

جمع وتأليف

العلامة عبدالله بن أحمد بن إبراهيم الشرقي (١٠٦٢هـ)

الجزء الثالث

تحقيق

محمد قاسم الهاشمي　　　عبد السلام عباس الوجيه

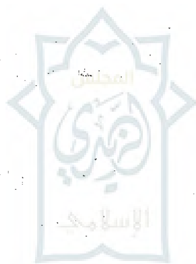
أشرف عليه

السيد العلامة صلاح بن محمد الهاشمي

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية ــ صعدة ــ مفرق الطلح

بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الجاثية

تسع وثلاثون آية في الكوفي ، وست في عدد الباقين (مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله : ﴿حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ قد مر تفسيره في السورة الأولى ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلَب ، القادر على ما يشاء من تنزيل الكتاب وغيره ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي لا يفعل شيئا مع اقتداره إلا بحكمة وصواب وتنزيل الكتاب من جهة حكمته ، ورحمته لعباده

وإن جعلت حم تعديدا للحروف [1] كان ﴿تنزيل الكتاب﴾ مبتدأ وما بعده الخبر ويجوز أن تكون ﴿حم﴾ قسما ، وتنزيل الكتاب مبينا له ، وجواب القسم ﴿إنّ في السموات﴾ والتقدير : وحم الذي هو تنزيل الكتاب إن الأمر كذا وكذا .

وقوله : ﴿العزيز الحكيم﴾ يجوز جعلهما صفة للكتاب [2] ويجوز جعلهما صفة لله تعالى

ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : عبر ودلائل على قدرة خالقها ، والمراد للمؤمنين ولغيرهم ، وإنما خصهم لأنهم أهل الاعتبار .

((١) لم يذكر الوجه الأول ، حتى يستقيم حرف العطف في قوله:(وإن جعلت حم تعديدا) الخ ، والوجه الأول كما ذكره الزمخشري هو : إن جعلت حم اسما مبتدأ مخبرا عنه بـ﴿تنزيل الكتاب﴾ لم يكن بد من حذف مضاف ، تقديره : تنزيل حم تنزيل الكتاب ، ومن الله صلة للتنزيل . الكشاف ٢٨٤/٤ . ويصح أيضا أن يكون حم خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : هذه حم،وتنزيل الكتاب مبتدأ وخبره محذوف تقديره : واقع من الله

(٢) فإذا كانا صفة للكتاب كان المعنى (هو : كتاب عزيز ممتنع ، ولا يصل إليه بتحريف وتبديل ومعارضة ، وهو حكيم يشتمل على الحكمة . (التهذيب للحاكم خ) .

وفي التجريد : يجوز أن لا يقدر خلق مضافا ، ويجوز أن يقدر ، ويدل عليه ﴿وفي خلقكم﴾ حيث أظهر لفظ خلق ، فعلى الأول تكون الآيات في ما خلق في السموات والأرض ، كالنيرات ، والأنهار والأشجار ، والملائكة والثقلين ، وعلى الثاني تكون الآيات خلق السموات والأرض(١).

---

(١)وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :
أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعا
لى : وما يبث من دابة﴾ معناه : يفرق .
وقوله تعالى ﴿من ورائهم جهنم﴾ معناه : بين أيديهم . وقوله تعالى ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾ معناه : يخافون . وقوله تعالى ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر﴾ معناه : على طريقة وسنة .
وقوله تعالى ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ معناه : اكتسبوها ، وقوله تعالى ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ معناه : يبعث المؤمن على إيمانه ، والكافر على كفره . وقوله تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ قال : كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا في الجاهلية ، فيجد حجرا أحسن منه فيعبد الآخر ، ويترك الأول
وقوله تعالى ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ معناه : قد جثت على الركب .
وقوله تعالى ﴿إنا كنا نستنسخ﴾ معناه : نكتب . وقوله تعالى ﴿اليوم ننساكم﴾ معناه : نترككم .
وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه : بسم الله الرحمن الرحيم
تأويل قول سيدنا عز وجل : ﴿وما ينث من دابة﴾ فالبث : هو النشر والتكثير، قال الحسين بن علي صلوات الله عليه:

عظيم هوله والناس فيه   حيارى ، مثل مبثوث الفراش

﴿وتصريف الرياح﴾ أي : تقليبها وترديدها .
ومعنى ﴿ثم يصر مستكبرا﴾ والإصرار : هو الإقامة على المعصية ، ومعنى ﴿عذاب من رجز أليم﴾ أي : من غضب وجيع ، قال الشاعر :

جعلنا القتل جزاء عليهم فأصبحت   ديارهم للطعن منهم بلاقعا

ومعنى ﴿سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره﴾ أي : سهل لكم ويسر ، قال الشاعر:

وسخر لكم من جن الملائك تسعة   قياما لديه يعملون بلا أجر

والفلك : هي السفن ، ومعنى ﴿على شريعة من الأمر﴾ أي : على ملة ومذهب من أمر الله .

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي: أجسامكم، وما فيها من عجائب الحِكَم والصور والألوان، والتنقل من حال الطفولية، إلى الاكتهال والشيخوخة

قال في التجريد: وفي خلقكم من تراب، ثم من نطفة إلى أن يصير إنسانا، وغير ذلك من تفاصيل خلق الإنسان وحواسه ﴿وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ على وجه الأرض من أصناف الحيوانات المختلفة في الصور والهيئات[1]، والبث: هو النشر والتكثير، قال زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام:

عظيم هوله والناس فيه　　حيارى مثل مبثوث الفراش

وقوله تعالى: ﴿آيَاتٌ﴾ أي: دلائل ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بخالقهم لا يشكُّون فيه، أي: يعلمون علما لا يخالطه شك، فيعلمون أنه تعالى موجود قادر عالم حيٌّ واحد وسائر صفاته.

ومعنى ﴿الذين اجترحوا السيئات﴾ أي: اكتسبوها ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾ من قرأ (سواءً) بالنصب فالتأويل: أن الله لا يجعل محياهم ومماتهم محيا أوليائه، أو حياتهم لا تنفعهم، وموتهم لا ينفعهم، فحياتهم موت لا يكسبون فيها طاعة، ولا يخرجون من معصية، ومعنى ﴿اتخذ إلهه هواه﴾ يعني: من هوى عبادة الأصنام.

ومعنى ﴿فأضله الله على علم﴾ أي: يعلم أنه يستحق أن يَسِمَهُ بالضلالة. ومعنى ﴿لا ريب فيه﴾ أي: لاشك ﴿يخسر المبطلون﴾ قد مضى تفسير الخسران في غير السورة، وقد تجاوزنا كثيرا من التفسير لما قدمنا في أوله مما هو شبيه بما تركنا، وفيه كفاية عن الترديد والتكرير.

ومعنى ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي: مجتمعة، والجثا: هي الجمائع، والعرب تسمي التراب إذا اجتمع وارتفع: جثوة، وكومة، قال سيد العابدين صلوات الله عليه:

فما إن ترى إلا جثاً قد ثووا بها　　مسنمة تسفي عليها الأعاصر

ومعنى قوله عز وجل: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: تدعى إلى حسابها، ومعنى قوله: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ النسخ: هو الكتاب لما كانوا يفعلون، ومعنى ﴿بمستيقنين﴾ أي: بموقنين، وأيقن واستيقن أمرهما واحد في اللغة. ومعنى ﴿هزؤا﴾ أي: لعبا ولهوا، ومعنى ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي: لا يستغاثون ولا يستعطفون، قال الشاعر: ويبقى الود ما بقي العتاب. ومعنى ﴿وله الكبرياء﴾ أي: العظمة والقوة.

(١) وهو معطوف على المضاف الذي هو خَلْق، وليس على المضاف إليه الذي هو الضمير، وذلك لأن المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه، استقبحوا أن يقال: مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو، وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا: مررت بك أنت وزيد. انظر الكشاف ٢٨٤/٤. ولهذا طعنوا في قراءة حمزة ﴿تسآلون به والأرحامِ﴾ بالجر.

ثم قال تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وفي قراءة عبد الله (وفي اختلاف الليل والنهار) وهذا الاختلاف يقع على وجوه أحدها : تبدل النهار بالليل ، وبالضد منه وثانيها : أنه تارة يزداد طول النهار ، وتارة بالعكس ، وبمقدار ما يزداد في النهار الصيفي يزداد في الليل الشتوي ، وثالثها : اختلاف مطالع الشمس في أيام السنة[١] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ أي : المطر ؛ لأنه سبب الرزق ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بالجدب ، وهو يدل على صحة القول بالفاعل المختار من وجوه أحدها : إنشاء السحاب ، وإنزال المطر منه ، وثانيها : تولد النبات من تلك الحبة الواقعة في الأرض ، وثالثها : تولد الأنواع المختلفة ، وهي ساق الشجرة وأغصانها ، وأوراقها ، ثم تلك الثمرة منها : ما يكون القشر محيطا باللب كالجوز واللوز ، ومنها : ما يكون اللب محيطا بالقشر كالمشمس والخوخ ، ومنها: ما يكون خاليا عن القشر كالتين ، فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها ، وتباين أقسامها ـــ يدل على صحة القول بالفاعل المختار ، الحكيم الرحيم ، وبطلان قول من يقول بالعلل والطبع ، ونحو ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ أي : تقلبها وتعاقبها جنوبا وشمالا ، وقبولا ودبورا ، منها الحارة والباردة ، ومنها : الرياح النافعة والرياح الضارة[٢] .

ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الكثيرة من الدلائل قال سبحانه: إنها ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : يكون لهم عقول ؛ لأن النظر في هذه الحوادث من المنصفين يخلص معه اليقين ، ويحكم به العقل والعلم ؛ لأنه لابد له من صانع حكيم ، وإنما عجز الأولى بالمؤمنين ، والثانية بيوقنون ؛ لأن الثانية تكون أجلى [إما بانضمامها إلى ما قبلها ، وإما لأن معرفة الإنسان بأحوال نفسه أجلى ، وعجز الثالثة بيعقلون ؛ لأنها

---

(١) ذكر الحاكم في التهذيب بدلا عن الوجه الثالث فقال : وقيل : اختلاف أحدهما نور ، والآخر ظلمة .

(٢) ومثله في التهذيب فقال :(جعلها مرة شمالا ، ومرة صبا ، ومرة جنوبا ، ومرة دبورا عن الحسن ، وقيل : يجعلها مرة عذابا ، ومرة رحمة عن قتادة ، وقيل : رخاؤها وعصوفها ، وحرارتها ، وبرودتها) .

أجلى][1] مما تقدم لانضمامها إليه ، والله أعلم

قال الرازي : إنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاث مقاطع أولها : ﴿ يؤمنون ﴾ وثانيها : ﴿ يوقنون ﴾ وثالثها : ﴿ يعقلون ﴾ وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل : إن كنتم مؤمنين ، فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ، ولا من الموقنين فلا أقل أن تكون من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل[2]. اهـ

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة ، ومعنى ﴿ نَتْلُوهَا ﴾ نقرؤها ﴿ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : تلاوة ملتبسة بالحق ، والغرض الصحيح ، وهو هداية العباد ، وإنذارهم ، وقيل : المراد من قوله : ﴿ بالحق ﴾ هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية ، وإذا كان كذلك كان قوله : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ من أعظم الدلائل على الترغيب في علم الأصول ، وتقرير المباحث العقلية .

ثم قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : بعد آيات الله ،

---

١) ما بين القوسين نقص في النسخة أ ، وهو موجود في النسخة ب .

(٢)انظر تفسير الرازي الكبير ٢٧/٢٥٩، ٢٦٠ .

قال الحاكم الجشمي في تفسير التهذيب ، في أحكام هذه الآيات :

(يدل قوله: ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ على حدث القرآن ، لأن ما كان قديما ، يستحيل عليه الإنزال ، ويدل جميع ما ذكر على صانع حكيم ، ووجه الدلالة من وجهين : أحدهما ـــ أن ما يختلف من الأحوال ويتجدد ، ولا يقدر عليها الواحد منا ، فلا بد لها من صانع حكيم.

والثاني : أن هذه الأشياء محدثة ، لأنها لا تخلو من المحدثات ، ولا تتقدمها ، وإذا كانت محدثة ، فلا بد لها من محدث قادر عالم ، حي ، سميع ، بصير ، قديم ، ليس بجسم ولا عرض ، ولا يشبهه شيء ، ولا يجوز عليه بما يختص الجسم كالجوارح والأعضاء ، ولا يدرك بشيء من الحواس ، وأنه واحد ليس معه قديم ، وأنه حكيم لا يفعل إلا الحسن ، ولا يفعل القبيح ، فيعلم أن القبيح فعل غيره ، وإذا كلف فلا بد له أن يجازي ، وإذا علم أن الشريعة لطف فلا بد له أن يبين بأفعاله كما ذكر ، ويدل على جميع صفاته ، إما بنفسه ، أو بواسطة ، وتفصيل ذلك يطول ، وهو مذكور في كتب المشائخ . وتدل على أن المعارف مكتسبة ، إذ لو كانت ضرورية لكان نصب الدليل عبثا).

كقولهم : أعجبني زيد وكرمه ، أي : كرم زيد ، والمعنى : أحسن الحديث حديث الله وآياته ، فإن لم يؤمنوا به فلا حديث إلا ما هو دونه ، يعني : أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شئ بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف،وبيّن أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله .

ثم اعلم أنه تعالى لما بين الآيات للكفار ، وبين أنهم بأي حديث بعدها يؤمنون إذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها ــ أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الويل : الهلاك ، والأفاك : الكذاب ، والأثيم : المبالغ في اقتراف الآثام .

واعلم أن هذا الأثيم له مقامان الأول : أن يبقى مصرا على الإنكار والاستكبار فقال تعالى : ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ من إصرار الحمار على العانة [1] وهو أن ينحي عليها صاراً أذنيه ، أي : يقيم على كفره ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ عن الإيمان بها معجبا بما عنده ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ بشارة توبيخ واستهزاء .

قيل : نزلت في النضر بن الحارث [2] كان يشتري من أحاديث العجم يشغل الناس بها عن استماع القرآن ، والآية عامة في من كان مضارا للدين .

---

١) قال في حاشية : العانة : هي جماعة الأتن الوحشية ، وفي لسان العرب (ترتيب يوسف خياط) ٢/٩٣٤ ، والعانة : القطيع من حمر الوحش ، والعانة : الأتان ، والجمع منه عون ، وقيل : وعانات ، وانظر الكشاف ٣/٤٣٧.

(٢) انظر الكشاف ٣/٤٣٧ . والنظر بن الحارث بن علقمة ، بن كلدة ، بن عبد مناف ، من بني عبد الدار ، من قريش ، صاحب لواء المشركين ببدر ، كان من وجوه قريش وشياطينها ، له إطلاع على كتب الفرس وغيرهم ، وقرأ تاريخهم في الحيرة ، قيل : هو أول من غنى على العود بألحان الفرس ، ولما ظهر الإسلام استمر على الجاهلية ، وآذى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا ، وكان إذا جلس النبي مجلسا للتذكير بالله ، والتحذير من مثل ما أصاب الأمم الخالية من نقمة الله جلس النضر بعده ، فحدث قريشا بأخبار ملوك فارس ، ورستم وإسفنديار ، ويقول : أنا أحسن منه حديثا ، إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين ، شهد بدرا مع المشركين فأسره المسلمون ، وقتلوه بالأثيل قرب المدينة ، بعد انصرافهم من الوقعة ، وهو أبو قتيلة صاحبة الأبيات المشهورة التي منها :

ما كان ضرك لو مننت وربما   مَنَّ الفتى وهو المغيض المحنق

والثاني : أن ينتقل من مقام الإصرار إلى مقام الاستهزاء ، فقال تعالى :﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا ﴾ أي : بعضا منها ﴿ اتَّخَذَهَا ﴾ كلها ولم يقتصر على ما بلغه في كونها ﴿ هُزُوًا ﴾أي : مهزوأ بها ، والمعنى : إذا وجد ما يتطرق إليه الاحتمال طعن به على جميع الآيات كما فعل (ابن الزبعرى) [١] في ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ [٢] ومغالطته رسول الله [٣] ، وقوله : خصمتك .

وقيل : اتخذ ما سمع منها هزءواً ، أي : سخر منه ، كما فعل أبو جهل لما نزل ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ [٤] فدعا بتمر وزبد ، وقال : تزقموا فما يعدكم محمد إلا هذا ، ويجوز أن يؤنث الراجع إلى شئ بتأوله بمؤنث ؛ لأنه في معنى آية ، فيكون المعنى : أن يتخذ الذي يسمع هزؤا من غير نظر إلى سائر الآيات .

ثم قال تعالى :﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذل مديد لهم ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى ﴿ كل أفاك أثيم ﴾ لشموله جميع الأفاكين .

ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال عز وجل :﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : من قدامهم جهنم ، ووراء اسم للجهة التي توارى بها الشخص من خلف أو قدام ، ثم بين أن ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال :﴿ وَلَا يُغْنِي ﴾ أي : لا ينفع ويدفع ﴿ عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا ﴾ من الأموال وغيرها ﴿ شَيْئًا ﴾ من الإغناء ، أي : النفع .

ثم بين أيضا أن أصنامهم لا تنفعهم فقال تعالى :﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وهي قصيدة رثته بها قبل إسلامها . الأعلام ٣٣/٨.

(١) عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمي ، القرشي ، أبو سعد ، شاعر قريش في الجاهلية ، كان شديدا على المسلمين ، إلى أن فتحت مكة ، فهرب إلى نجران ، ثم عاد فأسلم ، واعتذر ومدح النبي ﷺ فأمر له بحُلّة . توفي سنة ١٥هـ الأعلام ٨٧/٤ .

٢) الأنبياء : ٩٨ .

٣) أما مغالطته فهي أنه قال في هذه الآية : إن من جملة ما نعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ، فهؤلاء في جهنم كما تقول هذه الآية .

٤) الدخان : ٤٣ ، ٤٤ .

أَوْلِيَاءَ﴾ من الأوثان ، وهي أصنامهم التي يزعمون أنها تشفع لهم ، فلا تنصر ولا تشفع ثم قال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يدفعه ما اتخذوه أولياء وشفعاء ، بل إنما عظم بسببهم فجاءهم الخوف من حيث أمنوا .

فإن قيل : إنه قال قبل هذه الآية :﴿ ولهم عذاب مهين﴾ فما الفائدة في قوله بعده : ﴿ ولهم عذاب عظيم﴾ ؟ قيل له : كون العذاب مهينا يدل على حصول الإهانة مع العذاب ، وكونه عظيما يدل على كونه بالغا إلى أقصى الغايات في كونه ضررا .

ثم إنه تعالى أشار إلى القرآن أو إلى ما ذكر أولا في هذه السورة فقال :﴿ هَٰذَا هُدًى﴾ أي : الكامل في الهداية لمن قَبِلَهَا[1] :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز : أشد العذاب ، وأليم : مبالغة أخرى في وصف العذاب بشدة الألم

ثم قال تعالى :﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي : ذلّله ، والتسخير : التذليل ﴿ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ أي : السفن ﴿ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي : بتسهيله ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة ، أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، واللحم الطري وغيرها ﴿ وَلَعَلَّكُمْ﴾ أي : ولإرادة أنكم ﴿ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم .

اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر ، وذلك لا يحصل إلا بتسخير ثلاثة أشياء : أحدها الرياح التي تجري على وفق المراد ، وثانيها : خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك ، وثالثها : خلق الخشبة على وجهٍ تبقى طافية على وجه الماء ، ولا تغوص فيه ، وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها أحد من البشر ، فلا بد من موجد قادر عليها ، وهو الله تعالى .

---

(١) قوله: الكامل في الهداية لمن قَبِلَهَا . مستفاد من الأخبار عنه بأنه هدى ؛ لأن من شأن الكتب السماوية الهداية فإذا أخبر عن الكتاب بأنه هدى وجب أن يكون المعنى أنه كامل الهداية حتى يفيد ، ويمكن أن يستفاد المعنى من التنكير الذي جاء للتعظيم بحسب المقام . وانظر حاشية العلوي مخطوط .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ من شمس وقمر ونجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، ومطر وثلج وبرد وغير ذلك ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من دابة ونبات وأنهار ، وغير ذلك من منافع الأرض التي لا تحصى ، والمراد أنه خلق ذلك لانتفاعنا إما في أمر الدين ، وإما في أمر الدنيا ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ أي : حاصلا من عنده ، أي : هو مكونها بقدرته وحكمته .

قال في التجريد : وقوله : ﴿ منه ﴾ في موضع الحال ، كأنه قيل : كائنا منه ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي : كل ذلك منه ، أو خبر عن ﴿ وما في الأرض جميعا ﴾ . و﴿ ما في السموات ﴾ مفعول ﴿ سخر ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أي : دلائل على قدرة الصانع الحكيم ونعمته على عباده ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : ينظرون بعقولهم في دلائله الواضحة على توحيده ، وعلى عظم قدرته ، وبدائع حِكَمِه وجلائل نِعَمِه

ثم اعلم أنه تعالى لما عَلَّمَ عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ــ أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة ، والأفعال الحميدة بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ المقول محذوف[1] دل عليه الجواب ، أي : قل لهم ﴿ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿ يغفروا ﴾ فهو يعرضوا عن عبادتهم ومقالتهم وشركهم[2] ومعنى ﴿ للذين لا يرجون أيام الله ﴾ فهم الذين لا يصدقون بوعد الله ووعيده ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ هو إخبار منه تعالى أنه سيجزيهم بأعمالهم ، أي : ذرهم حتى يقع الجزاء عليهم ، وعلى صدق ما أنكروا من وعد ربهم[3] . اهـ

كأنه قال : لا تكافوهم أنتم لنكافهم نحن ، وقيل : معنى ﴿ لا يرجون أيام الله ﴾

(١) والمعنى : قل لهم اغفروا ، دل عليه الجواب ﴿ يغفروا للذين ﴾ ..

(٢) مجموع تفسير القرآن (ويتركوهم) ، بدلا عن (شركهم) .

(٣) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

أي : لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه ، ومنه : أيام العرب لوقائعها ، وقيل : لا يأملون الأوقات التي وعد الله المؤمنين فيها بالثواب ، قال ابن عباس : لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ، ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية[1] .

قيل : نزلت قبل آية القتال ، ثم نسخ حكمها ، قالوا : ونزلت الآية في عمر وقد شتمه رجل من غفار فهم أن يبطش به[2] والأقرب أن يقال : إنه محمول على ترك المنازعة في المحقرات على التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية ، والأفعال الموحشة ، فلا تنافي آية القتال .

ثم قال تعالى :﴿ليجزي قوما﴾ أي : مخصوصين بالفضل لصبرهم على ما يجرعهم أعداؤهم من الغصص ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الثواب بكظم الغيظ ، وقوله :﴿ليجزي﴾ تعليل للأمر بالمغفرة ، أي : إنما أمروا أن يغفروا لما أراد الله من توفيتهم أجر مغفرتهم .

---

(١) وفي التهذيب للحاكم الجشمي (قيل : لا يرجون نعمة وثوابه ، في الآخرة عن أبي علي ، وقيل : لا يخافون عقابه ، ونقمته بالعصاة ، وقيل : لا يرجون في الدنيا نصرته ، ولا في الآخرة جنته عن أبي مسلم)

٢) أخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ص ٢٥٦ عن ابن عباس ، وفي سنده جويبر الأزدي ،وهو ضعيف جدا ، والقول بأنها منسوخة مروي عن ابن عباس من غير هذا الطريق ، ومجاهد وقتادة والضحاك وأبي صالح ، ذكره ابن جرير ١٤٤/٢٥، ١٤٥ (الواحدي ٩٨٩/٢) .

وفي التهذيب للحاكم (قال ابن عباس ومقاتل ، نزل قوله﴿قل للذين آمنوا﴾ في عمر بن الخطاب ، وذلك أن رجلا من بني عفان شتمه ، فهم عمر أن يبطش به ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأمر بالعفو عنه .

وعن ابن عباس ﴿لما نزل قوله:من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ قال يهودي بالمدينة يقال له : فنحاص : احتاج رب محمد . فسمع عمر ذلك ، فأخذ سيفه ، وخرج في طلبه ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله﴿قل للذين آمنوا﴾ فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدعا عمر ، وأمره بالعفو .

قال القرظي والسدي : نزلت في ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أهل مكة ، كانوا في أذى كبير من المشركين ، قبل أن يؤمر بالقتال ، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت الآية ، ثم نسختها آية القتال)

فإن قيل : ما الفائدة في التنكير في قوله :﴿ليجزي قوما﴾ مع أن المراد بهم هم المؤمنون المذكورون في قوله :﴿قل للذين آمنوا﴾ ؟ قيل : التنكير يدل على تعظيم شأنهم كأنه قال : ليجزي قوما ــ وأي قوم ــ من شأنهم الصفح عن السيئات والتجاوز عن المؤذيات ، وتحمل الوحشة ، وتجرع المكروه .

ثم ذكر الحكم العام فقال تعالى :﴿من عمل صالحا فلنفسه﴾ أي : لا يعود نفع العمل إلا إليه فقط ، وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون ﴿و من أساء فعليها﴾ فلا يضر غيرها ، وهو مثل ضربه الله للكفار الذين كانوا يقدمون في إيذاء الرسول والمؤمنين على ما لا يحل فبين تعالى أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله ، وأنه تعالى أمر بهذا ، ونهى عن ذلك لحظ العبد فقط .

ثم قال سبحانه :﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي : لا ترجعون إلا إلى جزائه في الآخرة ، فيجزي كل عامل بحسب عمله[1] .

ثم إنه تعالى أخبر أنه أنعم بنعم كثيرة على بني إسرائيل . واعلم أن النعم على قسمين : نعم الدين ، ونعم الدنيا ، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا ، فلهذا بدأ الله

---

(١) قال الحاكم في التهذيب في ما يستفاد من هذه الآيات من أحكام :

(تدل الآيات على أنه سخر البحر ، وما في السموات والأرض لمنافع خلقه ، وذلك هو الغرض فيه بخلاف قول المجبرة ، ومتى قيل : كيف التسخير ، وكيف الانتفاع ، ومن المقصود ؟قلنا: تسخيره خلقه على وجه أراد ذلك ، ويتعلق به منافع عباده ، والانتفاع قد يقع للدين لا للدنيا ، والمقصود المكلفون ، وماعداهم تبع لهم خلق لأجلهم .

ويدل قوله: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أنه أراد من الجميع الشكر خلاف قولهم ، ويدل قوله: ﴿يتفكرون﴾ على وجوب التفكر في الأدلة ، ويدل قوله: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا﴾ أنه تعالى أمر بالرفق معهم ، ثم اختلفوا ، قيل إنه منسوخ عن ابن عباس والضحاك ، وقتادة وابن زيد ، ومنهم من قال : ليس بمنسوخ ، لأن مع وجوب القتال نسخ أن يؤمر بالرفق وحسن المقال ، ويجوز أن ينهى عن القتال في حال ، ويكل المجازاة إلى الله تعالى ، ولأنه لا بين الآيتين فلا معنى لدعوى النسخ ، ويدل قوله: ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ أن العقاب جزاء مستحق على الأعمال ، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿من عمل صالحا﴾ الآية ، وكل ذلك ترغيب في الطاعة ، وتحذير من المعصية).

بنعم الدين فقال سبحانه : ﴿و لقد آتينا بني إسرائيل الكتاب﴾ هو التوراة ﴿و الحكم﴾ الحكمة، أي: الفقه والسنة ، أو فصل الخصومات بين الناس ؛ لأن الملك ﴿و النبوة﴾ كان فيهم إذ كان الأنبياء فيهم أكثر من سائر الناس .

وأما نعم الدنيا فهي المراد من قوله تعالى :﴿و رزقناهم من الطيبات﴾ أي : ما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ، وذلك أن الله وسع عليهم في الدنيا فأورثهم أموال آل فرعون وديارهم ، ثم أنزل عليهم المن والسلوى .

ولما بين تعالى أنه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيبا وافرا قال : ﴿و فضلناهم على العالمين﴾ حيث لم يؤت غيرهم مثلهم .

ابن عباس : لم يكن أحد في زمانهم أكرم على الله منهم .

والمراد : لم يؤت غيرهم مثلهم من الآيات والنعم ، ولم يرد تفضيلهم بكثرة الثواب ، فإن أمة محمد أفضل ، أي : أكثر ثوابا[(١)] ذكر معناه في التجريد .

ثم قال تعالى :﴿و آتيناهم بينات من الأمر﴾ وفيه وجوه الأول : أنه آتاهم بينات من الأمر أي : أدلة على أمور الدين ، الثاني : قاله ابن عباس . يعني : بين لهم من أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ، ويكون أنصاره أهل يثرب ، الثالث : المراد ﴿وآتيناهم بينات﴾ معجزات باهرة على صحة نبوتهم ، والمراد معجزات موسى .

ثم قال :﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ الذي يوجب زوال الخلاف ﴿بغيا بينهم﴾ أي : لأجل الحسد والعداوة ، أو لبغي وحسد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجيب من هذه الحالة ؛ لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وهاهنا جاز مجيء العلم سببا لحصول الاختلاف ، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرئاسة

---

(١) قال الجشمي في التهذيب :(قيل : عالمي زمانهم عن الحسن ، وقيل : على جميع العالمين بكثرة النبيين فيهم ، وفضل أمة محمد بكثرة العلماء فيهم ، والعالمين بالحق منهم) .

والتقدم ، ثم هاهنا احتمالات يحتمل أن يريد أنهم علموا ثم عاندوا ، ويحتمل أن يريد بالعلم الأدلة التي توصل إلى العلم ، فالمعنى : أنه تعالى وضع الدلائل والبينات التي لو تأملوا فيها لعرفوا الحق ، لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا النزاع .

ثم قال تعالى : ﴿ إن ربك يقضي ﴾ أي : يحكم ﴿ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ وقضاؤه إثابة المحقين ومعاقبة المبطلين في أمر الدين ، والمراد : أنه لا ينبغي أن يغتر المبطل بنعم الدنيا ، فإنها وإن ساوت نعم المحق أو زادت عليها ، فإنه سيرى في الآخرة ما يسوؤه ، وذلك كالزجر لهم .

ولما بين تعالى أنهم أعرضوا عن الحق لأجل البغي والحسد ــ أمر رسوله بأن يعدل عن تلك الطريقة ، وأن يستمسك بالحق ، وأن لا يكون له غرض سوى إظهار الحق ، وتقرير الصدق فقال سبحانه : ﴿ ثم جعلناك على شريعة ﴾ أي : على طريقة ومنهاج ﴿ من الأمر ﴾ من أمر الدين ، أي : على ملة ومذهب من أمر الله ﴿ فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ وهم قريش ، فدينهم مبني على هوى وبدعة ، لا على دليل وبرهان ، كشريعتك ، ولذلك قالوا : اتبع دين آبائك .

قال الكلبي : إن رؤساء قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بمكة : ارجع إلى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] .

ثم قال تعالى : ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ﴾ لا ينفعونك ولا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا إن اتبعتهم ﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ فلا تواهم إنما يواليهم من هو مثلهم ، والموالاة : المودة والمناصرة ﴿ والله ولي المتقين ﴾ وهم موالوه ، وما أبين الفرق[2] بين الولاءين .

ولما بين الله تعالى هذه البيانات الشافية النافعة قال سبحانه : ﴿ هذا ﴾ أي :

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/٢٦٥.

(٢) في الرازي (وما أبين الفرق بين الولاءين) وفي المصابيح : وما أبين الفضل بين الولاءين ، وحيث أن لا فضل في ولاء الظالمين بعضهم لبعض ، فقد أثبتنا ما في الرازي ٢٧/٢٦٦.

القرآن ﴿ بصائر للناس ﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب ، والبصيرة : نور القلب ﴿ و هدى ﴾ من الضلالة ﴿ و رحمة ﴾ من العذاب لمن آمن به وأيقن ، وهو معنى قوله : ﴿ لقوم يوقنون ﴾ .

ولما بين الله تعالى الفرق بين الظالمين والمتقين من الوجه الذي تقدم ، بينهما من وجه آخر فقال: ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ أم : منقطعة بمعنى بل والهمزة ، أي : بل أحسبوا ﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ﴾ هذه جملة بدل من ﴿ كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي : بيان له ، أي : حسبوا أن نجعلهم سواء محياهم ومماهم ، كما تقول : ظننت زيدا أبوه منطلق ، والمعنى : إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا ، وأن يستووا مماتا ؛ لافتراق أحوالهم ، [محيا]حيث عاش هؤلاء على الطاعة ، وأولئك على المعاصي . ومماتا ــ حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والرضوان ، وأولئك على اليأس منهما ، وقيل : معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة وفي الرزق والصحة

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام : من قرأ (سواء) بالنصب فالتأويل أن [الله لا يجعل محياهم ومماهم مثل محيا أولياء الله ومماهم ، ومن قرأ (سواء) بالرفع فالتأويل أن] [1] محيا أعداء الله مثل موهم في قلة الانتفاع ، أو حياهم لا تنفعهم ، وموهم لا ينفعهم فحياهم موت لا يكسبون فيها طاعة ، ولا يخرجون من معصية . اهـ

قال الرازي : ﴿ أم ﴾ كلمة وضعت للاستفهام عن شئ حال كونه معطوفا على شئ آخر ، سواء كان ذلك المعطوف مذكورا أو مضمرا ، والتقدير هاهنا : أفيعلم المشركون هذا ، أم يحسبون أنا نتولاهم كما نتولى المتقين ، والاجتراح : الاكتساب ومنه : الجوارح ،وفلان جارحة أهله،أي : كاسبهم، قال تعالى : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ [2].

---

١) ما بين القوسين ساقط في أ ، وهو موجود في ب .

٢) الأنعام : ٦٠

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في علي عليه‌السلام وحمزة ، وعبيدة بن الحارث ، وفي ثلاثة من المشركين عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شئ ،ولو كان ما تقولون حقا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما أنا أفضل حالا منكم في الدنيا . فأنكر الله عليهم هذا الكلام ، وبين أنه لا يكون حال المؤمن المطيع مساويا لحال الكافر والعاصي في درجات ومنازل السعادات .

واعلم أن لفظ حسب تستدعي مفعولين ، فأحدهما : الضمير المذكور في قوله : ﴿ أن نجعلهم ﴾ والثاني الكاف في قوله : ﴿ كالذين آمنوا ﴾ والمعنى : أحسب هؤلاء المجترحون أن نجعلهم أمثال الذين آمنوا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾ [(١)] ونحو ذلك[(٢)] .

وفي **التجريد** : وقرئ (سواء محياهم ومماتهم) بنصب ﴿ سواء ﴾[(٣)] ورفع ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ على أن سواء مفعول لحسب ، ورفع محياهم ومماتهم به ، وقرئ بنصب سواء مع نصب محياهم ومماتهم ، على أن محياهم ومماتهم ظرفين ، أو يكونان بدلا من ضمير ﴿ نجعلهم ﴾ بدل اشتمال .

وروي أن تميما الداري كان يصلي ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية فجعل يبكي ويرددها إلى الصباح[(٤)] .

---

(١) السجدة : ١٨

(٢) انظر الرازي ٢٧/٢٦٦، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٣) قال الجشمي في التهذيب : (قرأ حمزة والكسائي ، وحفص عن عاصم ﴿ سواء محياهم ﴾ بالنصب الباقون بالرفع ، أما النصب فعلى تقدير نجعلهم سواء ، ومن رفع فعلى الابتداء والخبر .
القراءة الظاهرة ﴿ مماتهم ﴾ بالرفع ، وعن الأعمش بنصب التاء على الظرف ، أي : في محياهم ومماتهم)

(٤) تميم الداري : هو تميم بن أوس بن خارجة الداري ، أبو رقية المتوفى سنة ٤٠ هـ ، والداري : نسبة إلى الدار بن هاني ، من لخم ، أسلم سنة ٩ هـ فأقطعه النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قرية (حبرون) الخليل الفلسطينية ، وكان يسكن المدينة ، ثم انتقل إلى الشام ، بعد مقتل عثمان ، فنزل بيت المقدس ، وهو أول من سرج السراج بالمسجد ، وكان زاهد أهل عصره ، وعابد أهل فلسطين ، وللمقريزي فيه كتاب سماه (جنود الساري في معرفة خبر تميم الداري) مات بفلسطين . انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين ، وبقية المصادر هناك .

وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددها وهو يبكي ، ويقول : يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت[١] .

ثم ذمهم عز وجل فقال : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي : بئس الحكم حكمهم[٢] هذا واعلم أنه تعالى لما أخبر بأن المؤمن لا يساوي الكافر في درجات السعادات أتبعه بالدلالة الظاهرة على صحة هذه الفتوى فقال : ﴿ و خلق الله السماوات والأرض بالحق ﴾ أي : بالغرض الصحيح ، وهو الدلالة على الصانع وقدرته ، قال الرازي : ولو لم يوجد البعث لما كان ذلك بالحق ، بل كان بالباطل ؛ لأنه تعالى لما خلق الظالم وسلطه على المظلوم الضعيف ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالما ، ولو كان ظالما لبطل أنه ما خلق السموات والأرض إلا بالحق .

---

(١) الفضيل : هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي ، أبو علي الخراساني ، الزاهد ، العابد ، المشهور ، شيخ الحرم المكي من العباد ، وكان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق فيهم الإمام الشافعي ، ولد في سمرقند ، ونشأ بأبيورد ، ودخل الكوفة ، وهو كبير ، ثم سكن مكة ، وتوفي بها . ذكره السيد صارم الدين في الشيعة المحدثين . روى عن منصور ، والأعمش ، وسليمان التميمي ، وصفوان بن سليم ، وحصين ، وليث ، وقتادة ، وجعفر الصادق . وعنه : القطان ، وابن مهري ، والسفيانان ، وابن المبارك ، وطائفة . خرج له السيد أبو طالب ، والموفق بالله ، والمرشد بالله ، وأبو الغنائم ، والجماعة . انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين ، وبقية المصادر هناك .

(٢) ما يستفاد من هذه الآيات قال الجشمي في التهذيب :

تدل الآيات على بطلان قول المجبرة من وجوه منها : أنه لا اختلاف بعد مجيء العلم احتجاجا عليهم أن عند العلم لا ينبغي أن يختلفوا،فلو كان الخلاف الذي هو خلقه فيهم لم يكن للذم والاحتجاج معنى ،ولا لكونه بعد العلم أو قبله فرق ، ومنها قوله: ﴿ للناس ﴾ أن اختلافهم للبغي ، وعندهم يخلق الاختلاف فيهم.

ومنها: قوله: ﴿ يقضي بينهم ﴾ ولو كان جميع أفعالهم خلقا له لكان يحكم لنفسه على نفسه.

ومنها : قوله: ﴿ فاتبعها ولا تتبع أهواء ﴾ ولو كان خلقا له لم يكن للأمر والنهي معنى ،لأن الأمر موقوف على خلقه ، ويدل قوله: ﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾على أن لا ناصر للظالمين ، فتدل أنه لا شفيع لهم ، ويدل قوله: ﴿ هذا بصائر ﴾ أن القرآن حجة يجب تدبره، ويدل قوله: ﴿ أم حسب ﴾ أنه لا يستوي المطيع والعاصي ، ومن قال : هما سواء فحكمه بئس الحكم ، فدل على قولنا في الوعيد والمنزلة بين المنزلتين) .

المعنى : أن المقصود من خلق هذه العالم إظهار العدل والرحمة ، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة ، وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين .

وقوله تعالى :﴿و لتجزى كل نفس بما كسبت﴾ عطف على ﴿ بالحق﴾ لأن فيه معنى التعليل ، أي : وليجعلها مساكن لعباده يتعبدهم فيها ، فيجزي كل نفس بما عملت في السموات أوفي الأرض من طاعة أو معصية﴿و هم لا يظلمون﴾ بنقص شئ من أجورهم.

قال الرازي : في قوله :﴿ولتجزى﴾ وجهان الأول : أنه معطوف على قوله : ﴿ بالحق﴾ فيكون التقدير :وخلق [الله] السموات والأرض لأجل إظهار الحق، ولتجزى كل نفس .

الثاني : أن يكون العطف على محذوف ، والتقدير : وخلق السموات والأرض ليدل هما على قدرته ، ولتجزى كل نفس.

ثم عاد تعالى إلى شرح أحوال الكفار ، وقبائح طرائقهم فقال :﴿أ فرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ كأنه قيل : قد علمت أنه لا يستوي من ضل فأساء ، ومن اهتدى فأحسن ، فأخبرني عمن اتخذ إلهه هواه فهو مطواع لهوى نفسه ، فكأنه يعبده كما يعبد الإله

قال الهادي عليه‌السلام : عمن عبد ما يهواه من الأشياء فجعل الآلهة هواه . اهـ

يعني: تركوا متابعة الهدى ، وأقبلوا على متابعة الهوى ، قيل : كان أحدهم يستحسن حجرا فيعبده ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رفضه إليه ، فكأنه اتخذ هواه إلهه .

ثم قال سبحانه :{و أضله الله على علم﴾ أي : يعلم أنه يستحق أن يسميه بالضلالة ، أو حكم بضلاله حين هداه الله فترك هداه واتبع هواه .

قال الهادي عليه‌السلام : معنى ﴿على علم﴾ فهو على علم منا بأفعاله واختياره وعبادته ما يهوى من الأشياء دون ربه ، فلما أن علم منه ذلك أضله ، ومعنى

﴿أضله﴾ فهو خذله ، وسماه بالضلال ، وأخبر عنه به ، ومعنى ﴿**و ختم على سمعه**﴾فلا يسمع الحق ﴿**و قلبه**﴾ فلا يقبله ﴿**و جعل على بصره غشاوة**﴾غطاء لا يبصر الحق ، فهو بالخذلان ، وترك التسديد لله لما سدد له المؤمنين ؛ لا أنه فعل به شيئا من ذلك ، ولا حال بينه وبين الاهتداء ، تقدس الله تعالى عن ذلك وتعالى[1]. اهـ

وإنما هو مثل ضربه الله مجاز عن سلبه للطف والهداية ﴿**فمن يهديه من بعد الله**﴾ يقول : من يوفقه للصواب إن يخذله الله ، أو يرشده إن تركه ﴿**أ فلا تذكرون**﴾ في ذلك فتعلموا في ذلك أنه لا هادي لمن خذله الله ، ولا مرشد لمن لم يرشده الله ، ذكره الهادي عليه‌السلام .

أو المعنى : أفلا تفكرون فتعرفوا أن عبادة أهوائكم وطاعتها من أعظم الضلال[2] .

---

(١) في مجموع تفسير الأئمة ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ فهو بالخذلان له ، وترك التسديد له لما يسدد له المؤمنين ، لا أنه فعل به شيئا من ذلك ، ولا حال بينه وبين الاهتداء ، تقدس الله تعالى عن ذلك ﴿فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ يقول : من يوفقه للصواب إن يخذله الله ، أو يرشده إلى ترك الله أفلا تذكرون في ذلك فيعلمون في ذلك أنه لا هادي لمن خذله الله ، ولا مرشد لمن لم يرشد الله . مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٤ .

(٢) **قال الجشمي في تهذيبه** : قوله تعالى : ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ إلى قوله: ﴿ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ القراءة

قرأ حمزة والكسائي ﴿غشوة﴾ بفتح الغين ، وسكون الشين بغير ألف على معنى رقعة ، وقرأ الباقون بالألف وكسر الغين، وفتح الشين ، والمعنى واحد ، وهو الغطاء ، يقال: غشيت الشيء غطيته ، ومنه الغاشية للسرج

اللغة

الهوى : هوى النفس مقصور ، والهواء : الجو ممدود ، وهو النفس : هو الميل على من تحبه ، وهو مذموم على الإطلاق ، ويقال فيما يضاف إلى ما لا يذم ، فيقال: هواي مع صاحب الحق ، أي : ميلي ، وهوت الناقة تهوى هويا إذا جرت شديداً ، والهواء : الجو ، أصله من الجو ، والدهر : الزمان.

وروى في حديث ابن مسعود (وما يهلكنا إلا دهر يمر) وهذا محمول على التفسير ، وفي الحديث (لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر) فمعناه : أن العرب كانت تقول عند النوازل : أصابنا الدهر ، فقيل لهم : لا تسبوا فاعل ذلك ، فإن الله فاعله ، ويقال: دهر دهير ، ودهرهم أمر : نزل بهم ، وأما قول سطيح : (الدهر أطوار دهارير) فالدهارير : جمع دهور ، وهو الدهر ، أراد أن الدهر ذو حالين بؤس ونعيم . الإعراب .

الإعراب

آياتنا بينات : آياتنا قام مقام الفاعل ، وبينات مقام المفعول ، فوقع ذلك اسم ما لم يسم فاعله ، لإسناد الفعل إليه ﴿حجتهم﴾ نصب لأنه خبر كان . ﴿إلا أن قالوا﴾ الاسم تقديره ما كان حجتهم إلا قولهم.

النزول

سعيد بن جبير ، كانت العرب تعبد عزى وهو حجر أبيض حينا ، وكانوا يعبدون الحجارة والذهب والفضة ، فإذا وجدوا شيئا أحسن من الأول رموه أو كسروه ، أو ألقوه في بئر ، وعبدوا الثانية ، فأنزل الله تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ الآية.

وعن مقاتل : نزلت الآية في الحرث بن قيس السهمي أحد المستهزئين ، كان يعبد ما تهواه نفسه

المعنى

ولما بين تعالى أنه لا يستوي المحق والمبطل أكد ذلك فقال سبحانه ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق﴾ قيل : الحق هو الجزاء ، وقيل : لغرض صحيح حق : لو لم يكن جزاء ما كان ذلك حقا ، فاعلموا أنه للجزاء ﴿ولتجزى كل نفس﴾ يكافي كل أحد ﴿بما كسبت﴾ عملت ﴿وهم لا يظلمون﴾ ببخس ثواب مستحق ، أو زيادة عقاب ، غير مستحق ﴿أفرأيت﴾ يا محمد ﴿من اتخذ إلهه هواه﴾ قيل : أتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئا إلا ركبه ، لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه ، ولا يبني أمر دينه على حجة فاتبع هواه في أموره ، لا بحجة تقوى عن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وقيل : من اتخذ معبوده هواه ، فيعبد ما يهوى دون ما دلت الدلالة على أن العبادة تحق له ، وهواه معناه ما يهواه ، وروي عن الحسن اتخذ إلهه هواه ، وعن الشعبي : إنما سمي الهوى ، لأنه يهوي بصاحبه في النار . ﴿وأضله الله على علم﴾ قيل : وجده الله ضالا على علم أنه يضل قبل ظهور الضلال منه ، ونظيره قول عمرو بن معدي كرب : قاتلناهم فما جبناهم ، وسألناهم فما أبخلناهم ، وقاولناهم فما أفحمناهم ، أي : ما وجدناهم كذلك ، وقيل : حكم بالضلالة على علم منه ، أي : هو عالم بأنه ضال ، وقيل : أضله عن ثوابه وجنته ، وهو عالم بأنه لا يستحق ذلك عن أبي علي ﴿وختم على سمعه وقلبه﴾ قيل : وسم عليها سمة الأعداء علامة للملائكة لتلعنه ، وقيل : خذله وخلاه وما اختاره ، حتى استحكم عادة السوء في قلبه ، فلم يسمع الحق ولا يفهمه ، إعراضا واستقلالا ، كمن لا يسمع ولا يفهم حقيقة ، وإذا ألف الفسق والدرع لم ينجع فيه الحق ، فكأنه مختوم على قلبه وعينه ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ أي : غطاء يعني يصير كأنه كذلك من حيث لا يبصر الحق تشبيها ، عن أبي علي ﴿فمن يهديه﴾ إن لم يهتد بهدي الله ، فمن يهديه سواه ، وقيل : إذا لم يهده الله إلى الجنة فمن يهديه عن أبي علي ﴿أفلا تذكرون﴾ يعني أفلا تتفكرون في هذا حتى تفهموه ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي : لا دار سوى هذه الدار ﴿نموت ونحيا﴾ أي : نموت فيها ونحيا نحن من غير صانع ، واختلفوا فقيل : هو على التقديم والتأخير ، أي : نحيا ونموت من غير إعادة ، وقيل : نموت ويحيا أولادنا ، وقيل : يموت بعضنا ، ويحيا بعضنا ، كقوله: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي : بعضكم بعضا {وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي : ما يقتلنا إلا مرور الزمان ،

واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبههم في إنكار القيامة ، وفي إنكار الإلــه القادر ، أما شبهتهم في إنكار القيامة فهي قوله سبحانه :﴿ **و قالوا ما هي إلا حياتنــا الدنيا** ﴾ ولا حياة بعدها في الآخرة ، كما يزعم محمد وأصحابه .

﴿ **نموت ونحيا** ﴾ قال في البرهان : يقول القائل : كيف قال :﴿ نموت ونحيا ﴾ وهم يكذبون بالبعث ؟ فإنما أرادوا : نموت ويأتي بعدنا أبناؤنا ، فجعل فعل أبنائــهم كفعلهم ، وهو في العربية كثير .اهــ

أو يموت بعض منا ويحيا بعض ، أو نكون نطفا في الأصلاب ونحيا بعد ذلــك ، أو يصيبنا الأمران الموت والحياة ، يريدون الحياة في الدنيا والموت بعدها ، وليس وراء ذلك حياة . وأما شبهتهم في إنكار الإله الفاعل المختار فهي قوله حكاية عنـــهم : ﴿ **و ما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ أي : مرور الأيام والليالي ، وكانوا يزعمون تأثير الدهــر ، وينكرون ملك الموت ، وينكرون قبضه الأرواح بأمر الله ، كانوا يضيفون كـــل حادثة إلى الدهر والزمان ، وترى أشعارهم ناطقة بشكواه ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم :(لا تسبوا

وطول العمر ، إنكارا منهم للصانع ﴿ومالهم بذلك من علم﴾ أي : ما تقولونه ليس ذلك عن حجة وعلم بل ظنا وتقليدا ﴿ إن هم إلا يظنون وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ حججنا ﴿ بينــات ﴾ واضحــات ﴿مــا كــان حجتهم﴾ على رسلنا ﴿ إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا أن كنتم صادقين ﴾ يعني آباءنا الذين ماتوا أحيــاء حــتى نصدقكم ، إن كنتم صادقين في دعواكم

الأحكام :

يدل قوله: ﴿ولتجزى﴾ على أن الثواب والعقاب جزاء على الأعمال ، وتدل أن أفعالهم حادثة من جهتــهم ، ليصح الجزاء ، ويدل قوله: ﴿ لا يظلمون﴾ أنه لا يعذب أحدا بغير ذنب ، وكل ذلك يبطل قــول المجــبرة ، ويدل قوله: ﴿ أفرأيت ﴾ أن الواجب إتباع الدليل ، دون الهوى والتقليد ، ويدل قوله: ﴿ مالهم بذلــك مــن علم﴾ أن المعارف مكتسبة ، وكذلك قوله: ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ وتدل على أن الظن مذمــوم في أصــول الدين ، ويدل قوله: ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ على جهل القوم من وجوه منها : أنهم لم يعلموا أن الجزاء في الآخــرة ، وأنه لا بعث في الدنيا.

الدهر فإن الله هو الدهر ﴾ [١] أي : هو الذي يضيفون إليه الحوادث لا الدهر

ثم قال سبحانه :﴿ و ما لهم بذلك ﴾ الذي تقولوه ﴿ من علم إن هم إلا يظنون ﴾ ظنا فاسدا غير صحيح ، والمعنى : أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها قائمة ، فالذي قالوه محتمل ، وضده أيضا محتمل ، وذلك فهو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقا ، وإن يكون القول بوجود الإله الحكيم حقا ، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية في أن هذا الاحتمال الثاني باطل ، ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الأول فجزموا به ، وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة ، فثبت أنه ليس لهم علم ولا جزم ولا يقين في صحة القول الذي اختاروه ، وأنهم اختاروه بسبب الظن والحسبان ، وميل القلب إليه من غير موجب ، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل ، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى .

ثم قال تعالى :﴿ و إذا تتلى ﴾ أي : إذا قرئت ﴿ عليهم آياتنا ﴾ الناطقة بالبعث والجزاء ﴿ بينات ﴾ ظاهرات الصحة ﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا ﴾ أي : ادعوا الله أن يبعثهم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أنا نبعث بعد الموت ، والاستثناء منقطع ، وسمي قولهم حجة تهكما ؛ لأنهم أدلوا به كما يدلي صاحب الحجة ، وساقوه مساقها ، كقوله : تحية بينهم ضرب وجيع [٢]

---

١) ـــ أخرجه بمعناه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، فتح الباري ٤٧٥/٨، ومسلم كتاب الأدب برقم ٢٢٤٦ ، وأخرجه النسائي في تفسيره ٢٨٣/٢، وابن جرير ١٥٢/٢٥ عن أبي هريرة . (حاشية تفسير الواحدي ٩٩١/٢) .

والحديث أيضا مع التفسير في الكشاف ٤٣٩/٣ ، قال في تخريج الكشاف : متفق عليه من حديث أبي هريرة ، واللفظ لمسلم .

٢) قال في الكشاف : فإن قلت : لم سمي قولهم حجة ، وليس بحجة ، قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته ، وساقوه مساقها ، فسميت حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة ، أو لأنه في أسلوب قولهم : تحية بينهم ضرب وجيع . الكشاف ٤٣٩/٣ .

وفي المقاليد : قرئ (حجتهم) بالنصب على تقديم خبر كان . اهـ

والرفع شاذ ، والمعنى : ليس حجة إلا قولهم هذا ، وليس هو بحجة ، والمراد نفي أن يكون لهم حجة البتة .

ثم قال تعالى : ﴿ **قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب** ﴾ أي : لاشك ﴿ **فيه** ﴾ لمنصف منقاد للحق ، لما كذبوا الرسل بالبعث ، وحسبوا أنهم قد بكتوهم بطلب آبائهم ـــ ألزموا ما هم مقرون به من أن الله الذي يحييهم ثم يميتهم ، وضم إلى هذا الإلزام ما هو واجب عليهم الإقرار به إن أنصفوا ، وهو جمعهم إلى يوم القيامة ، ومن قدر على ذلك قدر على الإتيان بآبائهم .

قال الرازي : فإن قيل : هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ فهذا القائل كان منكرا لوجود الإله ، ولوجود يوم القيامة ، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله : ﴿ قل الله يحييكم ﴾ ؟ وهل هذا إلا إثبات الشيء بنفسه وهو باطل ؟ .

قلنا : إنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مرارا وأطوارا ، فقوله هاهنا : ﴿ قل الله يحييكم ﴾ إشارة إلى تلك

وهو من قصيدة لعمرو بن معد يكرب صاحب ريحانة أخت دريد بن الصمة ، التمس منه زواجها فأجابه ومطله ، وقيل : ريحانة اسم موضع بعينه ، وهي من أبيات مطلعها :

أمن ريحانة الداعي السميع   يؤرقني وأصحابي هجوع

وسوق كتيبة دلفت لأخرى   كأن زهاءها رأس صليع

وخيل قد دلفت بها بخيل   تحية بينهم ضرب وجيع

انظر شواهد الكشاف .

الدلائل التي بينها وأوضحها مرارا ، فليس المقصود من ذكر هذا الكلام إثبات الإله بقول الإله ، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع في نفس الأمر[١] .

ثم قال تعالى في الكفار : ﴿ و لكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم ؛ لغفلتهم وإعراضهم عن النظر المؤدي إلى العلم ، ولا يعلمون أيضا أنه تعالى لما كان قادرا على الإيجاد ابتداء وجب أن يكون قادرا على الإعادة ثانيا .

ثم اعلم أنه تعالى لما احتج بكونه قادرا على الإحياء في المرة الأولى على كونه قادرا على الإحياء في المرة الثانية ــ عمم الدليل ، فقال : ﴿ و لله ملك السماوات والأرض ﴾ لا شريك له في خلقها ، ولا فيمن فيها ، والمراد أن لله القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السموات أو من الأرض ، فإذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحياة في هذه الذات ممكن ؛ إذ لو لم يكن ممكنا لما حصل في المرة الأولى فيلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادرا على الإحياء في المرة الثانية[٢] .

ولما بين تعالى إمكان القول بالحشر والنشر بهذين الطريقين ــ ذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة ، فأولها : قوله : ﴿ و يو م تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ عامل النصب في ﴿ يوم تقوم ﴾ ﴿ يخسر ﴾ ، و﴿ يومئذ ﴾ بدل من ﴿ يوم تقوم ﴾ والمبطلون : كهؤلاء الجاحدين للبعث .

وفي قوله : ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ معنى الاحتجاج بثبوت البعث ، أي : فكما أنه متوحد بخلق السموات والأرض ومن فيهن ، فكذلك حكم الإعادة

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/٢٧٠ ، وزاد الرازي : ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى ، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول ، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله ، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة ، وثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها ، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها ، فوجب القطع بكونها حقه .

(٢) تفسير الرازي ٢٧/٢٧١، ٢٧٢.

والبعث ، بل هي أهون في القياس ؛ لأن إعادة الشيء أهون من إنشائه ، ولأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس .

ثم قال :﴿ و ترى كل أمة جاثية ﴾ قال في البرهان : أي كل أهل دين [ومعنى] ﴿ جاثية ﴾ مجتمعة [من الجثوة وهي الجماعة ، وجمعها : جثي ، وهو قول ابن عباس] للحساب [مترقبة لما يعمل بها] .

ثم قال :﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ أي : إلى حسابها ، وهو من قوله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ...وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾[1] .

وقال الهادي عليه‌السلام : معنى ﴿ جاثية ﴾ هو : باركة على ركبها منتظرة لما يكون من حكم الله فيها ، ومعنى ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ هو توقف عليه وتدعا إلى جزاءه إن خيرا فخيرا أو شرا فشر[2]. اهـ

قيل : الجاثين من المبطلين ، وقيل : بل هو عام .

[بيان حال المؤمن يوم القيامة]

وروى الثعلبي والواحدي : أن في القيامة ساعة هي عشر سنين ، يخر الناس فيها جثاة على ركبهم من الخوف حتى إن إبراهيم الخليل ينادي لا أسألك إلا نفسي اليوم

قلت : وهذا غير صحيح لقوله عز وجل في أوليائه :﴿ لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾[3] وقوله جل وعلا :﴿ تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾[4] وهذا بشارة من الله لأوليائه في الحياة الدنيا ,

---

(١) إلى هنا انتهى ما في البرهان ، وما بين أقواس الزيادة موجود في المصابيح ، وغير موجود في البرهان . انظر البرهان مخطوط ٣٤٤.

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٤ ، وفيه : ومعنى ﴿كتابها﴾ فهو ما علم من فعلها ، تجازى عليه ، وتدان به

٣) الزخرف : ٦٨ .

٤) فصلت : ٣٠ .

وستبشرهم الملائكة عليهم السلام عند الموت ، ويوم القيامة بما أعد الله لهم من الكرامة ، هذا قول المرتضى عليه السلام ، أو معناه .

وذلك لأن الله عز وجل أخبر عنهم أنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر ؛ لأن الآخرة هي دار الجزاء لا دار التكليف ، وإيصال الغم والحزن إنما يجوز في دار التكليف ؛ ولأنه قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أن الملائكة تبشر في القبر من كان من أهل الثواب بالجنة) وكذلك القول في حال المعاينة ، فكيف يجوز أن يردوا القيامة وهم شاكون في أمرهم ، وإنما تؤثر هذه الأهوال في أهل النار ؛ لأنهم يعلمون كونهم من أهل النار والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي : جزاء أعمالكم التي في الصحف ﴿ هذا كتابنا ﴾ أضافه إليه تعالى ؛ لأنه مالكه ، والذي أمر بالكتابة فيه ﴿ ينطق ﴾ يشهد ﴿ عليكم بالحق ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ، قيل : هو كتاب الأعمال الذي تكتبه الحفظة ، قاله ابن السائب ، وقيل : هو اللوح المحفوظ عن مقاتل ، وقيل : هو القرآن ونحوه من الكتب المنزلة على الأمم ، والمعنى : أنهم يقرؤنه فيدلهم ويذكرهم ، فكأنه ينطق عليهم ﴿ إنا كنا نستنسخ ﴾ أي : نأمر الملائكة بكتب ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ .

قال في البرهان : والاستنساخ : ملكان يرفعان عمل الرجل صغيره وكبيره ، فيثبت الله ما كان من عمله له ثواب أو عقاب ، ويطرح منه اللغو الذي لا ثواب فيه ولا عقاب ، كقوله : هلم ، اذهب ، وتعال ، فذلك الاستنساخ[1] . اهـ

وقال الواحدي : أكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ يستنسخ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم ، فيجدون ذلك موافقا لما يعملونه ، قالوا : فالاستنساخ لا يكون إلا من أصل .

---

(١) البرهان مخطوط ٣٤٤.

قلت : والآية تهدم قول المجبرة ؛ لأنه سبحانه ذكر بعد وصفهم الإيمان كونهم عاملين الصالحات ، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغائرا للإيمان ، زائدا عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ جنته ونعمته ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ أي : الظفر البين[1] .

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لقوله تعالى : {قل الله يحييكم﴾ إلى هنا :

القراءة

قرأ يعقوب {جاثية كل أمة﴾ بالنصب ، لقوله:{وترى﴾ وهو مروي عن الأعرج ، والقراءة السبعة على الرفع على الابتداء.

اللغة

الخسران ذهاب رأس المال ، والجثي : مصدر جثا يجثو جثوا وجثوا وجثيا ، وقوم جثي ، وهو جاث. والاستنساخ : الاستكتاب ، وقال الزجاج : لا يكون إلا من اصل كتاب إلى كتاب ، والنسخ : إزالة الشيء وإقامة غيره مقامه ، وفي الحديث (لم تكن نبوة للأنبياء نسخت) يعني : حولت من حال إلى حال ، أي : أمر الأمة.

المعنى

ثم رد الله تعالى عليهم قولهم ، واحتج لصحة البعث ، فقال سبحانه : ﴿قل﴾ يا محمد لهم ﴿الله يحييكم﴾ في الدنيا ﴿ثم يميتكم﴾ فيها ، يعني : من أحياكم ابتداء وأماتكم هو الذي يحييكم ثانيا ، فليس الثاني أعجب من الأول ﴿ثم يجمعكم إلى يوم القيامة﴾ لفصل القضايا ، وإيفاء الجزاء {لا ريب فيه﴾ أي : لاشك ﴿ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ قيل : لا يعلمون الله حق معرفته ، حتى يعلموا صحة البعث ، وقيل : لا يعلمون الحق من الباطل ، وقيل : لا يعملون أن حسن التكليف بالإعادة والجزاء ﴿ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة﴾ أي : القيامة ﴿يومئذ يخسر المبطلون﴾ وهو القائل بالباطل ، والمعتقد له ، والعامل به ، وإنما كان خاسرا ، لأنه يدخل النار فيهلك نفسه ، قيل : المبطل خاسر في الأحوال كلها ، ولكن نظمه الخسران يوم القيامة ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي : جماعة ، قيل : الملل المختلفة عن ابن عباس ، وقيل : أرباب الملل الباطلة والعصاة ، عن الحسن ، وأبي علي ، وهو الوجه ، وقيل : بل كل الأمم ، المؤمن والكافر يجثو على ركبتيه للخصومة ، فالمؤمن يفعل ذلك ليخاصم الظلمة ، فيظهر المحق من المبطل فيزداد سرورا ، والظالم يزداد غما ﴿جاثية﴾ باركة على ركبها عن مجاهد ، والضحاك ، وابن زيد ﴿كل أمة﴾ من أمم الأنبياء ﴿تدعى إلى كتابها﴾ قيل : الكتب التي فيها أعمالهم ، كتبها الحفظة ليجازي عليها عن الحسن ، وقيل : كتابها المنزل على رسولها ، ليسألوا عما عملوا به ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ من الخير والشر ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ قيل : ديوان الحفظة المعقود عليهم ، وفيه شهادة الملائكة ، وأضاف النطق إلى الكتاب توسعا من حيث يفهم منه كما يفهم بالحي من النطق ، وعن علي (أن لله ملائكة ينزلون في كل

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[1] جواب ﴿ أما ﴾ محذوف ، أي : وأما الذين كفروا فيقال لهم : ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ فحذف فيقال لهم ، ومثله ﴿ فأما

يوم يكتبون أعمال بني آدم) عن ابن عباس ، وقيل : ثبتت عن الضحاك ، وقيل : تكتب عن السدي ، وقيل : تحفظ عن الحسن ، يعني : تثبت منه ، ثم تعارض ما كتبوه ما في اللوح المحفوظ ، فما كان مناط أمر يمحوها ، وما كان طاعة أو معصية أثبتوها ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم في رحمته ﴾ أي : نعمته ، وهي الجنة ﴿ ذلك الفوز ﴾ الظفر ﴿ المبين ﴾ الظاهر.

الأحكام

يدل قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن المحق في كل زمان هم الأقل ، والأكثر مقلدة ومبطلة ، وتدل على أن المعارف مكتسبة ، ويدل قوله ﴿ اليوم تجزون ﴾ على أن الثواب والعقاب جزاء على الأعمال ، وأن تلك الأعمال فعل العبد ليس بخلق الله تعالى ، ويدل قوله ﴿ هذا كتابنا ﴾ أن أعمالهم مكتوبة محفوظة ، وأنهم يشهدون عليهم ، وفيه لطف للمكلف لأن علمه بذلك يدعوه إلى التحرز عن المعاصي.

(١) قال الحاكم في تفسيره من هذه الآية إلى آخر السورة :

القراءة

قرأ حمزة {والساعةَ ﴾ بالنصب عطفا على قوله:{إن وعد الله ﴾ وروي نحوه عن يعقوب وأبي رجاء العطاردي .

وقرأ الباقون {والساعةُ ﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره فيما بعده ، يؤيده قوله :{إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة ﴾ بالرفع لا غير.

وقرأ حمزة والكسائي {يَخرجون ﴾ بفتح الياء ـ أضاف الخروج إليهم ، الباقون بضمها على ما لم يسم فاعله

قراءة العامة {رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴾ بالكسر على أنه نعت لله ، وعن ابن محيصن بالرفع على تقدير هو رب السموات.

اللغة

الاستكبار : استدعاء التعظيم ، ونظيره التكبر ، وهو الإعراض عن الحق أبية وتعظما ، والجرم : القطع ، والإجرام : الانقطاع إلى الفساد ، وأيقن واستيقن وعلم بمعنى ، وهو أن تسكن النفس إلى أن معتقده على ما اعتقده عليه ، والبدو : الظهور ، بدا يبدوا بدوا ، والحيق : ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله ، حاق به الأمر يحيق إذا لزمه ووجب عليه . والاستعتاب : الإقالة ، استعتبه إذا استقال فأقاله ، وعتب عليه إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فأعتب عليه عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب ، والاسم العتبى.

الإعراب

يقال: ما جواب أما في قوله: ﴿وأما الذين كفروا﴾ قيل : في قوله: ﴿أولم تكن آياتي﴾ إلا أن الألف تقدمتها ، لأن لها صدر الكلام ، والمراد به التقرير ، وقيل : جوابه محذوف ، والفاء في قوله﴿ أفلم﴾ دليل عليها ، تقديره فقال لهم ﴿ألم﴾ عن الزجاج، فأما قوله:{فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم﴾ فجوابه محذوف ، وتقديره يقال لهم : أكفرتم

المعنى لما تقدم الوعد عقبه بالوعيد ، فقال سبحانه ﴿وأما الذين كفروا أفلم﴾ أي : يقال لهم توبيخا وتهجينا إذا عاينوا العذاب ﴿أفلم تكن آياتي﴾ حججي في التوحيد والعدل ، وقيل : القرآن وسائر الأحكام ﴿تتلى عليكم﴾ أي : تقرأ ﴿فاستكبرتم﴾ أي : ترفعتم عن استماعها ، وأنفتم عن قبولها ، وأعرضتم عن النظر فيها ﴿وكنتم قوما مجرمين﴾ مصرين على الآثام ﴿وإذا قيل إن وعد الله﴾ بالجزاء ﴿حق﴾ وصدق ﴿والساعة لا ريب فيها﴾ أي : لاشك في كونها ﴿قلتم﴾ أيها الكافرون ﴿ما ندري ما الساعة﴾ أي : لا ندري حديث القيامة أنه حق ﴿إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين﴾ يعني لا نعم يقينا أنها كائنة {وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ قيل : ظهر أعمالهم القبيحة فكانوا يظنونها حسنة ، وقيل : ظهر جزاء أعمالهم السيئة ، وكانوا يعدونها طاعة ﴿وحاق بهم﴾ قيل : حل بهم ، وقيل : وجب ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ من العذاب ، وقيل : وبال استهزائهم ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ قيل : نترككم في العذاب عن ابن عباس ، والنسيان لا يجوز عليه تعالى ، لأنه عالم لذاته ، ولكن تركناهم في العذاب كما تركتم الإيمان بيومكم هذا ، وقيل : كما لم تحفظوا ما أنذرتم من لقاء هذا اليوم ، كذلك لا يحفظون اليوم ، ويطرحون ، والنسيان : ضد الحفظ ، والحفظ : مراعاة الشيء عن أبي مسلم ، وقيل : نترككم في العذاب بمنزلة المنسي عن أبي علي ﴿ومأواكم النار﴾ أي : منزلكم ومقامكم فيها ﴿ومالكم من ناصرين﴾ ينجيكم من العذاب ﴿ذلكم﴾ يعني : هذا العذاب الذي انزل بكم ، لأنكم ﴿اتخذتم آيات الله هزؤا﴾ أي : استهزاء ولعبا ﴿وغرتكم الحياة الدنيا﴾ أي : ملاذها وزينتها ، وأضاف الغرور إليها توسعا ، لأنها سبب الغرور ﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ أي : من العذاب ﴿ولاهم يستعتبون﴾ أي : لا تقبل منهم العتبى ، وهو إعطاء الرضاء ، لأنهم في حال إلجاء ، وقيل : لا يستوصون بل يطلب منهم الخروج مما وجب عليهم العتب لأجله ، وهو التوبة ، أي : لا يطلبون التوبة عن أبي مسلم ، وقيل : لا يراجعون إلى مكالمتهم ﴿فلله الحمد﴾ أي : الشكر في أنعمه ، الجزاء ، والإنصاف ، والانتصاف ، وتمييز المحسن من المسيء ﴿رب السموات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء﴾ أي : العظمة والعلو والرفعة ، وقيل : أراد عظيم .... على أهل السموات والأرض ﴿وهو العزيز﴾ أي : القادر على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء ﴿الحكيم﴾ قيل : العالم ، وقيل : المحكم لأفعاله فلا يعاب في شيء منه ، ولا يفعل إلا الحسن الجميل.

الأحكام

يدل قوله﴿ فاستكبرتم﴾ أن المانع من جهتهم ، وهو التكبر ، والأنفة ، خلاف قول المجبرة : إن الله منعهم ، ويدل قوله﴿ إن نظن﴾ أن المعارف ليست ضرورية ، ويدل قوله: ﴿ومالكم من ناصرين﴾ أن الكفار لا

الذين اسودت وجوههم أكفرتم ﴾[١] والمعنى : ألم تأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم ، فحذف المعطوف عليه ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان بها ، والانقياد للحق ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على جرائم الكفر والمعاصي .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ وهو البعث والجزاء ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : لاشك في وقوعها .

قرئ (الساعة) رفعا ونصبا ، قال الزجاج : من نصب فعلى الوعد ، ومن رفع فعلى معنى ، وقيل : الساعة لا ريب فيها ، قال الأخفش : الرفع [أجود] في المعنى ، وأكثر في كلام العرب إذا جاء بعد ظرف[٢] لأنه كلام مستقل بنفسه بعد مجيء الكلام الأول بتمامه

﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ قيل : معناه إن نحن إلا نظن ذلك ظنا ، فقدم الفعل قبل ﴿ إلا ﴾ وأخّر المصدر لعدم اللبس .

وقيل : معناه إن نظن ذلك إلا ظنا ضعيفا ، والمعنى : أن قيام الساعة متوهم عندهم غير معلوم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ لصدق قولكم فيها ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أي : أظهر لهم قبائح أعمالهم ، أو عقوبات أفعالهم السيئة[٣] ، فيجوز أن يقدر مضاف ، أي : جزاء سيئات ما عملو' ، ويجوز أن يراد ظهور السيئات مكتوبة ، وصحائف أعمالهم .

﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي : رجع وأحاط ونزل بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ أي : جزاء الاستهزاء بالقرآن ، والمرسل به .

شفاعة لهم ، وأجمع المسلمون على ذلك ، ويدل قوله ﴿ غرتكم ﴾ أن الواجب على العاقل أن لا يغتر بالدنيا ، وأن يتفكر في العاقبة ، ويدل قوله: ﴿ فلله الحمد ﴾ أنه لا يفعل القبيح إذ لو كان كل قبيح منه لما استحق الحمد.

١) آل عمران : ١٠٦ .

(٢) أي : بعد خبر . كما جاء في تفسير الرازي ٢٧٤/٢٧.

(٣) هذا من باب وضع السبب الذي هو السيئات موضع المسبب الذي هو العقوبات .

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ بترككم في العذاب ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ أي : كما تركتم عُدَّةَ ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ ﴾ أي : كما تركتم العمل للقاء يومكم ﴿ هَذَا ﴾ أو نجعلكم بمنزلة المنسي غير المبالى به ، كما لم تبالوا بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال ، كالشيء الذي يطرح نسيا منسيا ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ مصيركم الذي تأوون إليه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ يدفع العذاب عنكم ، أو يخففه ، فجمع الله عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة أشياء فأولها: قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية ، وثانيها : أنه يصير مأواهم النار ، وثالثها : أنه لا يحصل لهم أحد من الأعوان والأنصار .

ثم بين تعالى أنه يقال لهم : إنكم إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد لأجل أنكم أتيتم بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة ، فأولها : الإصرار على إنكار الدين الحق ، وثانيها : الاستهزاء به والسخرية منه ، وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى :﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ أي : مهزؤا بها وكذبتموها ، وثالثها : الاستغراق في حب الدنيا ، والإعراض بالكلية عن الآخرة ، وهو المراد من قوله تعالى :﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بزهرتها فبطرتم وغفلتم .

ثم قال تعالى :﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ قراءة حمزة والكسائي (يَخرجون) بفتح الياء ، والباقون بضمها ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : يراجعون الكلام بعد دخولهم النار ، ولا يجابون إلى مطلبهم ، وهو إزالة العتب ، أي : قبول الاعتذار بالتوبة ، وقيل : لا يطلب منهم أن يُعتبوا ، أي يُرضُوا ربهم ، والاستعتاب : طلب إزالة العقاب ، وعقاب الله غضبه ، وعقابه فلا يطلب منهم إزالته ذلك اليوم لزوال التكليف

ولما تم الكلام ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال :﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فاحمدوه ، فإن مثل هذه الربوبية العامة توجب أن يحمد على كل مربوب .ثم قال تعالى :﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أي : العظمة والسلطان ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ القوي الغالب ، القاهر لكل شئ ، القادر عليه

سورة الدخان

تسع وخمسون آية في الكوفي ، وسبع في البصري ، وست في الحجازي والشامي

(مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل: ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إن جعلت ﴿حم﴾ تعديدا للحروف كان واو ﴿الكتاب﴾ واو القسم ، وإن جعلت ﴿حم﴾ اسما للسورة مقسما بها كانت الواو العاطفة ﴿والكتاب المبين﴾ هو القرآن المبين ، أو المبين لما فيه من العلوم ، وفي قوله : ﴿حم والكتاب المبين﴾ وجوه من الاحتمال .

أولها : أن يكون التقدير : هذه حم والكتاب المبين ، كقولك : هذا زيد والله .

وثانيها : أن يكون الكلام قد تم عند قوله : ﴿حم﴾ ثم يقال : ﴿والكتاب المبين إنا أنزلناه﴾ فيكون ذلك في التقدير قسَمَين على شئ واحد[1] وقوله سبحانه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ جواب القسم[2] .

---

(١) ويكون التقدير على هذا : وحم والكتاب المبين ، بتقدير حرف قسم قبل حم .

(٢) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ معناه : يقضي ويدبر في الليلة المباركة ، وهي ليلة القدر ، يقضي فيها أمر السَّنة من الأرزاق وغير ذلك إلى مثلها من السنة الأخرى .

وقوله تعالى : ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ معناه : فانتظر يوم تأتي السماء بدخان مبين .

وقوله تعالى : ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ معناه : يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿أن ترجمون﴾ معناه : تقتلون .

وقوله تعالى : ﴿واترك البحر رهوا﴾ معناه : ساكن ، ويقال : طريق بالنبطية .

وأما قوله :﴿ في ليلة مباركة ﴾ فقال في التجريد : فيها قولان : أحدهما وعليه الأكثرون : أنها ليلة القدر ، والثاني عن عكرمة : أنها ليلة النصف من شعبان ، والصحيح الأول .

[كيفية نزول القرآن وترتيبه]

قال إمامنا المنصور بالله رحمة الله عليه في جواب من سأله ، حيث قال : سألت أرشدنا الله وإياك فقلت : ذكروا أن القرآن نزل جميعه في ليلة القدر جملة واحدة فكيف كان تفصيلة من بعد ، وترتيبه ؟ أبوحي من الله ، أم باصطلاح الأمة ؟ قال عليه‌السلام : الجواب والله الموفق أن القرآن نزل جميعه دفعة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر بدليل قوله تعالى :﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾[1] وقوله تعالى :﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾ وقوله تعالى :﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ثم نزل نجوما ودفعات في أوقات شتى في شهر رمضان وغيره ، وكان بعضه متوقفا على أسباب فنزل ما كان على سبب عند حدوث سببه ، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة ، وأئمة النقل مجمعون على نقل ذلك من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وعن الصحابة الذين كانوا يعلمون نزول القرآن عند نزول الحوادث وغيرها .

وقوله تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ يقال : إنه ليس من مؤمن إلا وله باب يصعد فيه عمله وكلامه ، وباب يخرج منه رزقه ، فإذا مات وفقد بكيا عليه أربعين صباحا ، ولم يكن لآل فرعون أعمال صالحة تبكي ذلك عليهم

وقوله تعالى : ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ معناه : بمبعوثين يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ لا يغني مولى عن مولى شيئا ﴾ فالمولى : ابن العم .

وقوله تعالى : ﴿ إن شجرت الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ فشجرة الزقوم : شجرة في النار ، والمهل : صديد أهل النار ، والأثيم : أبو جهل بن هشام .

وقوله تعالى : ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ معناه : سوقوه ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي : وسطه .

(١) البقرة : ١٨٥ .

وأما ترتيب السور والآيات فذلك توقيف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤيد ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا نزلت السورة أو الآية قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا، قال عثمان: وتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبين لنا أين نضع براءة، وكانت قصتها شبيهة بقصة الأنفال، فلذلك قرنت بها، وكانتا تدعيان القرينتين. وقال بعضهم: سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة كلتاهما نزلت في القتال بعدان السابعة من الطول، وأول الطول البقرة، وهاتان السورتان أعني الأنفال وبراءة آخرها وبعدها، قال بعضهم: هما سورتان وضعت كل واحدة موضعها، يريد أن ذلك بوضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكل هذا الخلاف في براءة يحكى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاعلم ذلك.

قال عليه السلام: والراجح أنها سورة وحدها، وما كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتركها من غير بيان، لقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾[1] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من شيء يقربكم إلى الجنة إلا دللتكم عليه، ولا شيئ يقربكم إلى النار إلا حذرتكم عنه) ولو اصطلحت الأمة على ذلك، فعندنا أنه لا يكون إلا عن مستند إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يصح إجماعهم من غير مستند؛ لأنه يؤدي إلى الخطأ كما ذكره القاسم بن إبراهيم عليه السلام، كإجماعهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أخذ الفداء من الأسرى من غير مستند لهم من الوحي، فخطأهم الله سبحانه وتعالى، فقال تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾[2] وهذا مذهبي في الأصول فاعلم ذلك. اهـ[3]

---

١) المائدة: ٣.

٢) الأنفال: ٦٨.

(٣) في تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه:

تأويل قول مولانا العظيم الجليل عز وجل ﴿في ليلة مباركة﴾ أي: فيها خير ورزق، والبركة: هي الرزق والسرور، قال: الشاعر:

أهوى لها غائض كفا مباركة فانحاز عنه طباق الماء فانقشعا

ومعنى ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ معنى ﴿يفرق﴾ هو يقطع ويفصل ، حتى يتبين ويتفصل للناظرين ، ومعنى ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ قيل : إن السماء إذا انشقت يوم القيامة ورجعت إلى أصلها ، الذي هو الدخان ، فعادت كالغمام الذي هو مثل الدخان ، قال : الله عز وجل : ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾ أي : تشقق بسحاب من الدخان ، والله أعلم . وإنما سمي الغمام غماما ؛ لأنه يغم ويستر ، ويغطي الأشياء حتى لا تبصر . ﴿وقالوا معلم مجنون﴾ أي : علمه بعض السحرة ـ وكذب أعداء الله فيما زعموا ـ بل عموا عن نور الحق ، وتوهموا .

﴿إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون﴾ أي : نحن نكشف العذاب عنكم إلى حين ﴿إنكم عائدون﴾ أي : راجعون إلينا في يوم البعث والدين . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا على مصر[أي مكة] لما كثر تكذيبهم له وعداوتهم إياه ، فقال : اللهم اشدد وطأتك على مصر بسنين كسنين يوسف ، فجاعوا حتى أكلوا العظام ، وثارت الأرض والأهوية والسماء عليهم بدخان عظيم ، حتى قالوا : هذا عذاب عظيم نزل بنا من السماء ، فقال : ﴿إنا منتقمون﴾ ومعنى ﴿إنا منتقمون﴾ أي : مجازون ومعذبون ، قال : الشاعر :

القوس زوراء بها شقوق بمثلها تنتقم الحقوق

أي : تقتضي وتجزى . وقال : آخر :

يقوم على الرغم في قومه فيعفو أو يسامح أو ينتقم

أي : يجازي ويعذب .

﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ أي : عذبنا ، ومعنى ﴿وجاءهم رسول كريم﴾ أي : رفيع عظيم متحنن ، متعطف ، رحيم ، ودود ، حسن الأخلاق ، حليم ، يعني موسى عليه السلام ، ومعنى ﴿لا تعلوا على الله﴾ أي : لا تكبروا على الله ﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾ أي : بحجة بينة .

قوله : ﴿واترك البحر رهوا﴾ أي : خاليا من الماء هواء ، قال : الشاعر :

وعانقته والخيل رهوا كأنها جداول زرع أرسلت فاستطرت

ومعنى ﴿رهوا﴾ أي : خالية عن الركبان حين يسقط أصحابها عن سروجها ، ومعنى {ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ أي : مسرورين معجبين ، ومعنى ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي : ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض .

ومعنى ﴿كان عاليا من المسرفين﴾ أي : طاغيا مجاوزا لقدره ، متكبرا عن حده ، متعديا لمحل نفسه ، مسرفا في كل أمره . ومعنى ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ يعني الرسل ، أي : بعلم على الناس أجمعين لما رأينا في قلوبهم من محبة اليقين ، ومعنى ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ أي : فضل وعطاء مبين ، قال : الشاعر :

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

أي : أعطاهما وتفضل عليهما .

﴿وما نحن بمنشرين﴾ أي : بمبعوثين ، والنشور : هو الحياة بعد الموت والبعث ، قال : الشاعر :

فليت الجليسين الكريمين أنشـــرا غداة التقينا والنحـــور دوامـــي

ويا ليت عبد الله يجلـــس ســـاعة فينظر بـــالعينين بعـــد حـــمام

أي : ليتهم بعثوا فينظروا كيف قتلنا بهم من قتلهم ، وقال : مولانا عز وجل :{انظـــر إلى العظـــام كيـــف ننشرها﴾ أي : كيف نحييها ، ومعنى {لا يغني مولى عن مولى﴾ أي : لا يدفع ولي عن وليـــه ، ولا ينجـــي حبيب عن حبيبه ، ومعنى {كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾ المهل : هو صفو القطران {يغلي﴾ أي : [يفور] ويتحرك ويحترق وينضج ، كما يغلي الحميم ، وهو الماء الحار .

ومعنى {خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم﴾ أي : إلى وسط النار ، قال : الشاعر :

رماهم بسهم فاستوى في ســـوائها وكان قتولا للهوادي الطـــوارق

ومعنى﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ هذا تبكيت وتقريع وتوبيخ ، قال : الشاعر :

قال : البقية يا قيسا فقلـــت لـــه ذق يا حذيف فأنت السيد الصمد

أي : بزعمك على وجه التبكيت والتوبيخ ، ولم ترد مدحه ، ومعنى ﴿ما كنتم به تمترون﴾أي : فيه تشكون ومعنى ﴿ في مقام أمين} أي : في محل إقامة وثبات ودوام .

قال : الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه السورة ـــ إلى قوله تعالى :﴿ ورب آبائكم الأولين﴾ :

القراءة

قرأ حمزة وعاصم والكسائي ﴿ رب السموات﴾ بكسر الباء مـــن رب ردا علـــى قولـــه :﴿ رحمـــة مـــن ربك﴾ تقديره رحمة من ربك ، رب السموات ، وقرأ الباقون بالرفع ردا على قوله :﴿ إنـــه هـــو الســـميع العليم﴾ وقيل : على الابتداء.

اللغة

البركة : نماء الخير ، ونقيضه الشؤم نماء الشر ، والإنذار الإعلام بمواضع الخوف لتتقى ، وبموضع الأمن ليجتنى أنذر فهو منذر ، والله تعالى أنذر عباده بأتم الإنذار ، والفرق : الفصل بين الشيئين ، ومنه الفرقان ، ومنه طلـــع الفرقان ، أي : الصبح ، يفرق بين الليل والنهار. واليقين : سكون النفس إلى الشيء ، ومثله العلم ، ونقيضـــه الشك والجهل.

الإعراب

﴿حم} محله كسر للقسم ﴿ أمرا} قيل : نصب على المصدر ، وقيل : على المدح عن أبي مسلم ، وقيـــل : نصب على معنى يفرق كل أمر فرقا ، وأمرا ، فوضع أمرا موضع فرقا فهو نصب على المصدر عـــن الفـــراء ، وقيل : نصب على الحال ﴿ رحمة﴾ نصب على تقدير رحم رحمة ، وهو مصدر وضع موضع الحال.

المعنى

﴿حم﴾ قد بينا ما قيل فيه وأنه اسم السورة ، أو إشارة إلى أنه معجز حيث ألف القرآن من الحروف التي يتكلمون بها ، وعجزوا عن مثلها ، أو إشارة إلى حدث القرآن ، أو مفاتيح أسماء الله تعالى . ﴿والكتاب المبين﴾ قيل : أقسم بالكتاب ، وهو القرآن ، وسورة حم ، وقيل : برب الكتاب ، ومنزله عن أبي علي ، ثم وصف الكتاب فقال : ﴿المبين﴾ الذي يبين الأحكام ، والمبين هو الله تعالى إلا أنه لما بين في الكتاب أضافه إليه توسعا ، وقيل : بين مصالح المخلوق ، وما يحتاج إليه في الدين ﴿إنا أنزلناه﴾ يعني القرآن ﴿في ليلة مباركة﴾ قيل : ليلة القدر عن ابن عباس وقتادة وابن زيد ، وأبي علي ، وأبي مسلم ، وقيل : ليلة النصف من شعبان ، عن عكرمة ، والأول الوجه . واختلفوا فقيل : أنزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل نجوما على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل : ابتدأ بإنزاله في ليلة القدر ﴿مباركة﴾ لأن فيها يقسم الله نعمه بين عبادة من السنة إلى السنة ، وقيل : يعفوا ويقسم الرزق عن ابن عباس ﴿إنا كنا منذرين﴾ مخوفين لهم أن نقضي لهم بالعقاب ، وقيل : مخوفين بما بينا في الكتاب من تعذيب العصاة عن أبي علي ، وقيل : أنزلنا الكتاب إنذارا به عن أبي مسلم ﴿فيها﴾ أي : في هذه الليلة ﴿يفرق﴾ يقضى ويفصل ﴿كل أمر حكيم﴾ قيل : مبرم في ليلة القدر من شهر رمضان كل أجل وعمل ورزق ، وما يكون في تلك السنة عن الحسن وقتادة ومجاهد ، وقيل : يفعل ذلك ليلة النصف من شعبان عن عكرمة ﴿أمرا من عندنا﴾ يعني : الفصل يكون بأمرنا ، وقيل : بفعلنا ، والأمر يكون بمعنى الفعل ، وقيل : أمرا أردنا بإرسال الرسل عن أبي مسلم ﴿إنا كنا مرسلين﴾ قيل : مرسلين بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أبي علي ، وقيل : مرسلين الأنبياء إلى الخلق على حسب المصلحة ، وقيل : مرسلين الملائكة إلى الأنبياء ، وقيل : لمرسلين محمدا عليه السلام إلى الخلق ﴿رحمة﴾ قيل : أنزلناه رحمة ، وقيل : أرسلناه رحمة ، وقيل : فعلنا ذلك في هذه الليلة رحمة ، وقيل : الرحمة النعمة العظيمة.

ومتى قيل : إذا قال : مباركة ورحمة فكان يجب بأن يكون كلها الخير فلم قال : ﴿منذرين﴾ ؟ قلنا: لأن فيه كما تقسم الأرزاق والنعم ، تقسم الآجال والموت ، فحذر بذلك لئلا يأتيه بغتة ، ليتأهب له ، وذلك أيضا رحمة منه ﴿إنه هو السميع العليم﴾ لما يقوله المحق والمبطل عند إرسال الرسل ﴿العليم﴾ بالخلق يرسل من يصلح ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ يعني خالقهما ومالكهما ﴿إن كنتم موقنين ﴾ قيل : أيقنوا أن الله ربكم ، وأن محمدا رسوله ، والقرآن تنزيله ، وقيل : معناه إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، وإنما أراد إيجاب العلم والمعرفة ، كقولهم : فلان منجد ومتهم ، يريد نجدا وتهامة ، عن أبي مسلم ﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾ أي : هو المختص بالقدرة على الموت والحياة ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي : خالق الجميع.

الأحكام

يدل قوله : ﴿إنا أنزلناه﴾ على حدوث القرآن ، ويدل قوله : ﴿في ليلة﴾ أنه اختص إنزاله بتلك الليلة ، ويدل قوله : ﴿فيها يفرق﴾ على اختصاص تلك الليلة بتدبير الله أمر عباده ، وقسمة الآجال ، وما يكون في

والليلة المباركة : كثيرة الخير والمنافع لما يقضى فيها من مصالح العباد في دينهم ودنياهم ، وكفى بنزول القرآن فيها بركة .قال الرازي : قالوا هذا يدل على حدوث القرآن لوجوه الأول : أن قوله : ﴿ حم ﴾ تقديره : هذه حم ، يعني هذا شئ مؤلف من هذه الحروف ، والمتألف من الحروف المتعاقبة محدث ، الثاني : أنه ثبت أن الحلف بهذه الأشياء لا يصح ، بل بإله هذه الأشياء فيكون التقدير : ورب حم ، ورب الكتاب المبين ، وكل ما كان مربوبا فهو محدث ، الثالث : [أنه] وصفه بكونه كتابا والكتاب مشتق من الجمع ، ومعناه : مجموع ، والمجموع محل تصرف الغير ، وما كان كذلك فهو محدث ، وقد ذكرنا مرارا أن جميع هذه الدلائل تدل على أن الشئ المركب من الحروف المتعاقبة والأصوات المتوالية محدث والعلم بذلك ضروري بديهي لا ينازع فيه إلا من كان عديم العقل[1] .

ثم قال بعدها : وإنما الذي ثبت قدمه شئ آخر سوى ما تركب عن هذه الحروف والأصوات

قلت : وهذا تحكم محض ، وإثبات لمن لا يعقل ، وميل عن الحق بعد بيانه ووضوح برهانه . والله أعلم .

ومعنى ﴿ إنا كنا منذرين ﴾[2] أي : محذرين عبادنا من العقوبة بإنزال الكتاب ، وكان مقتضى بركتها أن لا يقضى فيها شئ من المكروه من أجل وغيره ؟ .

تلك السنة من الحوادث ، وإنما فعل ذلك مصلحة للملائكة ، وفي الخبر عنه مصلحة لنا ، ويدل قوله : ﴿ موقنين ﴾ أن فيهم من لا يوقن ، وذلك يبطل قول أصحاب المعارف.

(١) بقية كلام الرازي : لا ينازع فيه إلا من كان عديم العقل ، وكان غير عارف بمعنى القديم والمحدث ، وإذا كان كذلك فكيف ينازع في صحة هذه الدلائل ، إنما الذي ثبت قدمه ..الخ الرازي ٢٣٧/٢٧.

(٢) قال : السيد العلوي في حاشيته : قال : صاحب الكشف : جواب القسم ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ دون قوله: ﴿ إنا أنزلناه ﴾ لأنك لا تقسم بالشيء على نفسه ، لأن القسم تأكيد حين يجبر بآخر ، وقوله : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه ، وقال : أبو البقاء : الجواب ﴿ إنا أنزلناه ﴾ ﴿ وإنا كنا ﴾ مستأنف وقيل : هو جواب آخر من غير عاطف ، والجواب عن قول صاحب الكشف : أنا لا نسلم أنه إقسام بالشيء

والجواب : أن الإنذار نعمة لما فيه من التحذير لئلا يأتي الموت بغتة فيتأهب له ، وهذا من بركتها .

﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ أي : محكم من أرزاق العباد ، وآجالهم ، وجميع أمورهم منها إلى الليلة الأخرى القابلة ، وعن بعضهم : يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على ألسنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته .

قال في التجريد : قال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في كل ليلة قدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق ، والآجال حتى الحاج ، وإنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبريل ، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت . اهـ

وفي الكشاف : فإن قلت ﴿ إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان[1] فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله :﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ كأنه قال : إنا أنزلناه ؛ لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصا . اهـ

ومعنى ﴿ أمرا من عندنا ﴾ أي : أنزلناه حال كونه أمرا من عندنا بما يجب أن يفعل ،

على نفسه ، لأن المقسم به الكتاب المبين ، والمقسم عليه إنزاله في ليلة مباركة ، بل هو من باب تناسب القسم والمقسم عليه كما في قوله : "وثنايا كأنها إعريض" كما ذكره في أول سورة الزخرف ؛ ولأنا لو سلمنا أن ﴿ إنا أنزلناه ﴾ نفس المقسم به منعنا من وقوعه اعتراضا ؛ إذ لا يعترض بين الشيء وغيره بنفس ذلك الشيء .

(١) قوله : ملفوفتان : قال : **السيد العلوي في حاشيته على الكشاف** : وهو نوع غريب من اللف والنشر ، لف أولا في قوله :﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ معنيين ، إنزال القرآن ، واختصاصه بليلة مباركة ، ثم علل المعنى الأول بقوله :﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ ولما كان المعنى الثاني ملتبسا بالمعنى الأول غير مستقل بنفسه كما عليه النشر المتعارف ؛ لأنه لا يتم إلا بأن يقال : إنما خصص إنزاله في هذه الليلة لأنه من الأمور المحكمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم ، فناسب إنزاله فيها ،قال:جملتان مستأنفتان ملفوفتان، فاعجب بنشر فيه لف

أو بمعنى : أنزلناه آمرين .

وفي التجريد : ﴿ أمرا من عندنا ﴾ أراد أمرا عظيما من عندنا [أي : كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ، ونصبه على الاختصاص بتقدير أعني أمرا ، أي : شأنا [1]،أو معناه: يفرق كل أمر حكيم فرقا من عندنا] [2]فوضع الأمر موضع الفرق [3]؛ لأنه أمر .

وقوله :﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ يجوز أن يكون بدلا من ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ و﴿ رحمة من ربك ﴾ مفعولا له على : إنا أنزلنا القرآن ؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم ، وأن يكون تعليلا لـ﴿ يفرق ﴾ أو لقوله :﴿ أمرا من عندنا ﴾ و﴿ رحمة ﴾ مفعولا به قاله في الكشاف[4] .

قال الرازي في بيان نظم هذه الآيات : اعلم أن المقصود منها بيان تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه أحدها : بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته ، الثاني : بيان تعظيمه بحسب شرف الوقت الذي نزل فيه ، والثالث : بيان تعظيمه بسبب منزله .

أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه أحدها : أنه تعالى أقسم به ، وذلك يدل على شرفه .

وثانيها : أقسم به على كونه نازلا في ليلة مباركة ، وقد ذكرنا أن القسم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف .

وثالثها : أنه تعالى وصفه بكونه مبينا ، وذلك يدل على شرفه في ذاته .

وأما النوع الثاني : وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه فهو قوله:

---

(١) قوله :منصوب على الاختصاص ، فإنه جعل كل أمر جزلا فخما ، فأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال : أعني بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا

٢) ـــ ما بين القوسين ساقط من أ ، وهو موجود في ب .

(٣) فهو منصوب بـ﴿ يفرق ﴾ على المصدرية .

(٤) انظر الكشاف ٢٧١/٤ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ ثم نقول : إن قوله :﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ يقتضي أمرين أحدهما : أنه تعالى أنزله ، والثاني : كون تلك الليلة مباركة ، فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجري مجرى البيان لكل واحد منهما .

أما بيان أنه تعالى لم أنزله ؟ فهو قوله :﴿إنا كنا منذرين﴾ يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم إلا به .

وأما [بيان] أن هذه الليلة مباركة فهو أمران أحدهما : أنه يفرق فيها كل أمر حكيم والنوع الثاني : أن ذلك الأمر الحكيم مخصوصا بشرف أنه إنما يظهر من عنده ، وإليه الإشارة بقوله :﴿أمرا من عندنا﴾ .

وأما النوع الثالث : فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله ، وذلك هو قوله :﴿إنا كنا مرسلين﴾ فبين أن ذلك الإنذار والإرسال إنما حصل من الله .

ثم بين أن ذلك الإرسال إنما كان لأجل تكميل الرحمة ، وهو قوله :﴿رحمة من ربك﴾ وكان الواجب أن يقال : رحمة منا ، إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير إيذانا بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين .

ثم بين أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين ؛ لأنه تعالى يسمع تضرعاتهم ، ويعلم أنواع حاجاتهم ، فلهذا قال سبحانه :﴿**إنه هو السميع**﴾ لكل مسموع ﴿**العليم**﴾ بكل معلوم .

ثم قال تعالى :﴿**رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين**﴾ [أي : إن كان إقراركم عن علم وإيقان لأنهم كانوا يقرون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما][1] ، المقصود من هذه الآية أن المنزل إذا كان موصوفا بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة[2] .

---

(١) ما بين هذين القوسين ليس من كلام الرازي . وإنما هو من كلام المصنف .

(٢) إلى هنا انتهى ما نقله المصنف عن الرازي انظر الرازي ٢٧/٢٣٩،٢٤٠،٢٤١.

﴿لا إله إلا هو﴾ لا شريك له في الإلهية ﴿يحي ويميت﴾ أي : لا يحيي الأموات إلا هو ، ولا يميت الأحياء غيره ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ .

ثم إنه تعالى رد أن يكونوا موقنين بقوله : ﴿بل هم في شك يلعبون﴾ فليسوا موقنين بأن الله رب السموات والأرض بل إقرارهم بربوبيته مخلوط بهزوء ولعب لإشراكهم به ، وتكذيبهم برسله ، واللعب : ما لا يفيد ، وهو العبث ﴿فارتقب﴾ أي : انتظر يا محمد ، يقال ذلك في المكروه ، والمعنى : انتظر يا محمد عذابهم[1] .

---

(١) يريد هنا أن مفعول الارتقاب محذوف لدلالة ما بعده عليه ، وهو قوله : ﴿هذا عذاب أليم﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ مفعول ارتقب .

قال : الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ﴿نبطش﴾ بضم الطاء ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان ، وهو أخذ بشدة بطش يبطش بطشا فهو باطش ، وبطش يبطش مثل عرش يعرش ويعرش.

اللغة

الارتقاب: الانتظار ، ومنه الرقبى بين اثنين ، لأن كل واحد منهما ينتظر موت صاحبه ، والارتقاب الحفظ أيضا من ذلك ، ومنه : الرقيب الحافظ ، وسواء قولك : ترقب ويرتقب ، والغشي : اللباس ، ومنه الغشيان ، وغاشية السرج . والألم : عرض يدرك لا يحصل من فعلنا إلا متولدا من ..... ومن فعل الله تعالى يحصل مبتدأ ومتولدا ، فأما الذي يحصل عند تناول الأشياء المرة والكريهة فليس بمعنى عندنا ، وإنما هو إدراك ما ينفر عنه طبعه ، آلمه يؤلمه إيلاما ، وألم يألم ألما.

الإعراب

كاشفوا : معناه كاشفون فحذف النون.

المعنى

لما تقدم ذكر القرآن ، وأحوال المؤمنين عقبه بذكر أحوال الكفار ، فقال : سبحانه ﴿بل هم﴾ يعني الكفار ﴿في شك﴾ من القرآن والنبوة ﴿يلعبون﴾ قيل : يشتغلون ويترددون في أحوال الدنيا ، وقيل : يستهزئون بك وبالقرآن إذا قرئ عليهم ، ويلعبون عن أبي علي ، والمراد أنهم أهملوا أنفسهم ، و لم ينظروا وسلكوا طريق الشك في أمر الآخرة ، وأقبلوا على اللعب ﴿فارتقب﴾ انتظر هؤلاء ومجازاتهم ﴿يوم تأتي السماء بدخان

مبين ﴾ يغشاهم يقولون : يا رب هذا عذاب أليم فاكشفه عنا ﴿ إنا مؤمنون ﴾ وقيل : الارتقاب بمعنى الحفظ ، والمراد استشهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عذاب أنزله بهم فاستكشفوه بإظهار الإيمان يقول: فاحفظ ، أي : اشهد أيها النبي عليهم واحفظ قولهم ، فإنا سنكشف عنهم العذاب مدة ، ثم يعودون إلى كفرهم عن أبي مسلم ، وذكر الوجه الأول أيضا ، وقيل : الدخان الظلمة التي كانت تغشى أبصار المشركين بشدة الجوع حين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال : اللهم ﴿ سنين كسنين يوسف ﴾ عن ابن مسعود والضحاك .

وقيل : كانوا يرون شبه دخان ينزل من السماء ، وقيل : كان ذلك قبل بدر ، وقيل : الدخان من أشراط الساعة تدخل في مسامع الكفار والمنافقين ، وهو لم يأت بعد وسيأتي عن ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن ، وزيد بن علي ، وأبي علي ، وقيل : يصيب المؤمن كهيئة الزكام ، وعن النبي أول الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، وقيل : يوم يأتي الدخان امتلأ بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام ، وأما الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه ، وأذنيه ودبره ، وقيل : إن هذا الدخان يكون يوم القيامة عن أبي مسلم ، والوجه أن يكون يوم القيامة ، أو يكونَ من علامات الساعة ، لأنه تعالى أخبر أن دخانا يأتيهم ، وهو عذاب ، وفي سنين القحط ، ما كان هناك دخان في الحقيقة ، ولا غشيهم دخان ليبوسة الهواء يتراءى لهم الغبار دخانا لشدة الجوع ، ويدل عليه قوله : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾

وقيل : إن أبا سفيان تضرع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى دعا فكشف الله تعالى ذلك ﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ قيل :ـ كيف ـ لهم الذكرى والاتعاظ عن ابن عباس ، وقيل : لا تنفعهم التوبة في الآخرة ، بعد زوال التكليف عن الحسن ، هذا إن حمل الدخان على أنه يكون بعد زوال التكليف ، وإن حمل على الدنيا ، فمعناه : لا يتذكرون ولا يتعظون ﴿ ثم تولوا عنه ﴾ أي : أعرضوا عن محمد ﴿ وقالوا ﴾ هو ﴿ معلم ﴾ يعلمه بشر وليس بمنزل ﴿ مجنون ﴾ أي : تعترضه الجن بما يزول به عقله ، واعتقدوا في الجن ما يعتقده العوام عن أبي علي ، فقال : سبحانه ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ قيل : في العذاب عن قتادة ، وقيل : في الضلال . ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ أي : نأخذ الأخذ الأعظم ، قيل : هو في يوم بدر عن ابن مسعود ومجاهد وابن عباس وأبي العالية ، وأبي بن كعب والضحاك ، وابن زيد ، وقيل : هو يوم القيامة عن ابن عباس والحسن ، وأبي علي ، وأبي مسلم ، وهو الوجه ، لأن البطش الشديد يكون فيه ﴿ إنا منتقمون ﴾ أي : نعذبهم جزاء أعمالهم.

الأحكام

يدل قوله : ﴿ بل هم في شك ﴾ على بطلان قول أصحاب المعارف ، ويدل قوله : ﴿ فارتقب ﴾ على وعد المؤمنين ، ووعيد الكفار ، وتدل الآية أن من أشراط الساعة الدخان ، ويدل قوله : ﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ أن الإيمان عند زوال التكليف لا ينفع ، ويدل قوله : ﴿ إنا منتقمون ﴾ أنه يعذبهم بأعمالهم ، ويدل قوله : ﴿ إنا كاشفوا ﴾ أنه لو كشف عنهم العذاب في الدنيا لعادوا إلى الضلال ، فيعودون إلى العذاب.

﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ عظيم الألم ، ومعنى ﴿ مبين ﴾ أي : ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان ، فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذكر بعده عليه ، وهو قوله : ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ .

واختلف في وقت ذلك على قولين أحدهما : عن علي عليه‌السلام : أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة ، يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ ، ويعتري المؤمن كهيئة الزكام ، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس له خصاص ، أي : موضع يسير يخرج منه الدخان من خصاص الباب ، وهو الخلل والثقب الذي يكون فيه .

وفي الحديث (أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر) قال حذيفة : يا رسول الله وما الدخان ؟ فتلى الآية ، وقال: يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كالزكام ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره .

وعن ابن عباس أنه قال ذات يوم : ما نمت الليلة حتى أصبحت ، فقيل له في ذلك فقال : طلع ذو الذنب ، فخشيت أن يطرق الدخان ، وهذا المعنى مروي أيضا عن ابن عمر وأبي هريرة والحسن .

القول الثاني عن ابن مسعود أن المراد في الآية قد مضى لما دعا النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على قريش وأصابهم الجوع حتى أكلوا الجيف ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان الرجل يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان ، فمشى

إليه أبو سفيان ونفر معه فناشدوه الله والرحم ، وواعدوه إن كشف عنهم أن يؤمنوا ، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم)[1] وإلى نحو هذا ذهب مجاهد وأبو العالية ، والضحاك ، ومقاتل ، كذا في التجريد وغيره .

وقال الهادي إلى الحق عليه‌السلام ما لفظه : اليوم الذي تأتي به السماء بدخان مبين هو يوم القيامة ، وإتيانها بالدخان فهو عروجها ومصيرها إليه ، وذلك أنها عند تبديل الله لها في ذلك اليوم تعود إلى ما منه خلقت ، وهو الدخان فتصير بعد هذا التجسيم والعظم إلى حالة الدخان ، ومعنى قول من يقول : ﴿هذا عذاب أليم﴾ فهو قول الكافرين إذا رأوا السماء قد صارت إلى ذلك الحال ، وأيقنوا بالجزاء قالوا حينئذ : هذا يوم عذاب اليم ، فطرح الله اليوم وأقام العذاب مقامه فصار مرفوعا ، والعرب تفعل ذلك تقيم الشئ مقام ما كان من شبهه ، كقوله :﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ [2] أراد أهل القرية ، وأهل العير فطرح الأهل وأقام العير والقرية مقامهم . اهـ

قلت : ومثل هذا بعينه ذكر الإمام الحسين بن القاسم عليه‌السلام في تفسيره .

وقوله عز وجل :﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب** ﴾ هذا من جملة قولهم[3] :﴿ **إنا مؤمنون** ﴾ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب .

---

(١) متفق عليه ، وقد رواه النسائي والحاكم ، والطبراني من حديث ابن عباس ، قال : جاء أبو سفيان .. انظر تخريج الكشاف ٤/٢٧٢.

٢) يوسف : ٨٢ .

(٣) فهو على هذا منصوب على أنه مقول القول .

ثم قال تعالى : ﴿ أنى لهم الذكرى ﴾ أي : كيف يتذكرون ويتعظون ويعدون بالإيمان المشروط ﴿ و قد جاءهم رسول مبين ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما ظهر على يديه من الآيات البينات ، والدلائل النيرات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات فلم يذكروا ﴿ ثم تولوا عنه ﴾ أي اعرضوا ﴿ و قالوا ﴾ هو ﴿ معلم ﴾ يعلمه عداس غلام أعجمي لبعض ثقيف ، ولم يكف ذلك حتى قالوا : ﴿ مجنون ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ إلى شرككم عقيب العذاب بلا مهلة ، لا تثبتون على هذا التضرع إلا قدر كشف العذاب .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام وغيره : المراد أنكم عائدون إلى العذاب في الآخرة وعلى القول بأن الدخان من أشراط الساعة ، فالمعنى : أن المنافقين والكفار يستغيثون هناك فيكشف عنهم بعد أربعين يوما ، ثم يعودون إلى كفرهم سريعا ، وقلل وقت الكشف لقرب يوم القيامة ، وتقديره وقتا قليلا إلى أن تقوم الساعة .

ثم قال عز وجل : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ البطش : الأخذ بشدة ، أو أكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع ، ثم صار بحيث يستعمل في إيصال الآلام ﴿ إنا منتقمون ﴾ أي : منتصرون منهم ، والانتقام الأخذ بسبب جرم .

واختلف في المراد بهذا اليوم فقيل : المراد به يوم القيامة عن الحسن ، وقيل : يوم بدر ، قالوا : لما كشف عنهم الجوع عادوا إلى التكذيب ، فانتقم الله منهم يوم بدر ، والقول الأول أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم ؛ ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ ولأن هذه البطشة لما وصفت بكونها كبرى على الإطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش ، وذلك لا يكون إلا في القيامة ، والله أعلم .

ثم لما أخبر تعالى أن كفار مكة مصرون على كفرهم أخبر سبحانه أن كثيرا من المتقدمين أيضا كانوا كذلك ، فبين حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون ، فقال سبحانه : ﴿و لقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ أي : عذبناهم على معصيتهم بالغرق [(١)]

---

(١) قال : الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿إنهم جند مغرقون﴾ :

القراءة

﴿إني آتيكم﴾ فتح نافع وابن كثير وأبو عمرو ، وأبو جعفر الياء ، و لم يفتحها الآخرون ، وأثبت الياء في قول: ﴿ترجمون﴾ و ﴿اعتزلون﴾ ورش عن نافع ، ويعقوب ، وحذف الباقون الياء تخفيفا ، مع دلالة الكسرة عليه. ﴿وإن لم تؤمنوا لي﴾ فتح ورش عن نافع الياء ، و لم يفتحه غيره.

اللغة

الفتنة الامتحان والاختبار ، ولا يجوز عليه تعالى الامتحان ، لأنه عالم بجميع الأشياء لم يزل ، وإنما يعامل معاملة المختبر ، فيجازي ليظهروا ما يعلم ، والكريم : الحقيق بأن يكرم ، وكل شيء يكرم عليك فهو كريمك والرجم : الرمي بالحجارة ، والرمي بالشم ، يقال: رجمه إذا رماه ، ومنه رجم الزنى.

والاعتزال : الانقطاع عن الشرك ، وترك ملابسته ، ومنه ﴿فلما اعتزلهم﴾ ومنه سميت المعتزلة ، والسرى : سير الليل ، سريت أنا ، وأسريت غيري ، وأسريت به ، قال : الله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا﴾ قال : الشاعر:

إني سريت وكنت غير سرور وتفوت الأحلام غير بعيد

والرهو : الساكن ، وقيل : المفتوح المنكشف عن أبي مسلم ، يقال: عشي راه ساكن ، وأره على نفسك أي : ارفق بها

الإعراب

(عباد الله) نصب عباد بأدوا ، نظيره ﴿أرسل معني بني إسرائيل﴾ وقيل : على النداء ، أي : يا عباد الله أدوا ما أمركم الله به عن الفراء ﴿وإني عذت بربي﴾ تدغم الذال في التاء لقرب المخرج ، فتصير تاء.

المعنى

لما تقدم تكذيب قومه عقبه بقصة موسى ، وتكذيب فرعون ، تسلية له وبشارة ، بالفرج ، ووعيدا لهم فقال : سبحانه ﴿ولقد فتنا﴾ أي : شددنا التكليف عليهم ، وتفسيره عاملناهم معاملة المختبر ، وقيل : عذبناهم عن أبي مسلم ، ومتى قيل : فأي تشديد يفيد في بعثة موسى عليه السلام ؟ قلنا: أمرهم بطاعته ، وتعظيمه مع عظم حالهم ، وضعف حاله في الدنيا ، وقيل : بمفارقة دينهم ، وقيل : لكونهم أتباعا بعد كونهم متبوعين ، فيلحقهم مشقة عظيمة ، وقيل : لترك ملكهم ، ويحمل على الجميع ﴿قبلهم﴾ أي : قبل قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قوم فرعون﴾ وهم القبطية ﴿وجاءهم رسول﴾ يعني موسى ﴿كريم﴾ قيل : شريف وسبط في قومه من بني

إسرائيل ، وقيل : كريم عند الله بما استحق بطاعته من الإكرام والإجلال ﴿أن أدوا إلي﴾ أي : قال : لهم موسى : أدوا إلي ، ادفعوا إلي ﴿عباد الله﴾ ما أمركم به أي : اسلموا عن الفراء ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أنصحكم ، وقيل : أمين على وحي الله أؤديه إليكم ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ قيل : لا تعلوا على الله بافتراء الكذب عليه عن ابن عباس ، وقيل : لا تبغوا عليه بكفر نعمه عن قتادة ، وقيل : لا تتكبروا على الله بترك طاعته ، واتباع أمره عن الحسن ، وقيل : لا تعلوا على أولياء الله ، بالبغي عليهم فذكر نفسه ، وأراد أولياءه تفخيما ، كقوله : ﴿إن الذين يؤذون الله﴾ وقيل : لا تعلوا على أمره فتردوه ولا تقبلوه ، وقيل : لا تتكبروا علي ، ولا تسمعوا كلام ربي ورسالته ﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾ قيل : ظاهر ، وهو العصا واليد ، وقيل : بين صحة نبوتي ، وصدق مقالتي ، وتوعدوه بالقتل ، والرمي بالحجارة ، فقال : ﴿إني عذت بربي﴾ أي : اعتصمت بربي وربكم ﴿أن ترجمون﴾ قيل : بالحجارة عن قتادة ، وقيل : أراد بالشتم بالقول ، فقالوا: ساحر كذاب عن ابن عباس ، وقيل تقتلون ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ يعني جئتكم برسالة من ربكم ، فإن لم تصدقوني فاعتزلون بصرف أذاكم عني ، ولا تقتلوني ولا تشتموني فاعتزلون خلوا سبيلي غير مقتول ولا مسبوب ﴿فدعا ربه﴾ يعني موسى لما أيس منهم دعا ربه ، وقال : ﴿إن هؤلاء قوم مجرمون﴾ فانتقم منهم ، وكان أمر بالدعاء ، ومعنى مجرمون مصرون على كفرهم ، وقيل : مجرمون إلي فتبادروني بالمكروه ، فأجيب وأوحى الله تعالى إليه ﴿أن اسر بعبادي﴾ أي : بالمؤمنين إلى الموضع المأمور به من ناحية النهر على خفية من قوم فرعون عن أبي علي ، وقيل : أراد بعبادي بني إسرائيل ، ومن آمن معهم بموسى عليه السلام ﴿ليلا إنكم متبعون﴾ يتبعكم فرعون وقومه ﴿واترك البحر رهوا﴾ إذا قطعته أنت وأصحابك ، قيل : ساكنا ، كما كان ، وكان ضرب بالعصا فانفلق لبني إسرائيل ، فأمره أن يترك كما هو ليغرق فرعون وقومه عن ابن عباس ، ومجاهد ، وأبي علي ، وقيل : منفتحا منكشفا حتى يطمع فرعون في إتباعه ، عن أبي مسلم ، وقيل : طريقا يابسا عن قتادة ، وقيل : رهوا واسعا ما بين الطاقات ، وقيل : رمثا وهو السهل الذي ليس برمل ، ولا بحزن عن الضحاك ، وقيل : قوله : ﴿رهوا﴾ يحتمل أن يكون من نعت البحر ، ثم معناه ما ذكرنا مما قيل فيه ، ويحتمل أن يكون من نعت موسى ، أي : على هيئتك .

ومتى قيل : ما الفائدة في قوله : ﴿واترك البحر رهوا﴾ والله تعالى يسكنه ويحركه وموسى عليه السلام لا يقدر على شيء من ذلك ؟ قلنا: هو إشارة منه إلى أمنه ، كما يقال : لمن خاف دخول دار : ادخل الدار آمنا ، واترك الباب مفتوحا كما هو ، أي : لا تخف ، وقيل : لأن موسى عليه السلام كان إذا أظهر معجزة بضرب العصا فإذا أراد عوده إلى حالته الأولى ضربه ضربة ثانية ، فأمر الله تعالى أن لا يضرب البحر ، ويتركه كما هو وقيل : أن قومه سألوه أن لا يترك البحر مفتوحا ، لئلا يدخله فرعون ، فأمره تعالى أن يتركه كما هو ﴿إنهم جند مغرقون﴾ هو إخبار عن العاقبة ، وقيل : مغرقون في سابق قضائي، فبقي البحر كما كان ودخل فرعون وقومه فغرقوا جميعا .

الأحكام

وقال في التجريد : فتنا أي : اختبرنا ، ويجوز أن يراد أمهلناهم ، ووسعنا عليهم حتى افتتنوا ، أي : وقعوا في الفتنة التي هي الشرك ، فيكون مجازا .

﴿ **و جاءهم رسول كريم** ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : ﴿ كريم ﴾ أي : رفيع عظيم متحنن متعطف بر رحيم ، ودود حسن الأخلاق حليم ، يعني موسى عليه‌السلام .اهـ

والمراد : كريم على الله ، وعلى المؤمنين ، وكريم لأن الله لم يبعث نبيا إلا من كرام قومه .

ثم قال : ﴿ **أن أدوا إلي عباد الله** ﴾ هو من كلام موسى عليه‌السلام لفرعون وقومه ، وأن هي المفسرة[1] ، أي :يقول : أطلقوا بني إسرائيل من العذاب والتسخر ، فإنهم أحرار عباد الله لا لكم ، و﴿ عباد الله ﴾ مفعول ﴿ أدوا ﴾ وقيل : هو منادى ، والمعنى : أدوا إلي ما أمركم به من طاعة الله يا عباد الله ، وقيل : إنها المخففة من الثقيلة ، ومعناه : وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا إلي[2] ، و﴿ عباد الله ﴾ مفعول به ، وهم بنو إسرائيل ، يقول : أدوهم إلي وأرسلوهم معي ، وهو كقوله :﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾[3] .

يدل قوله :﴿ إني آتيكم بسلطان ﴾أن الطاعة إنما تجب عند بيان المعجز ، ويدل قوله :﴿ إني عذت ﴾أن الواجب على العبد عند الخوف أن يعتصم بالله تعالى ، ويدل قوله :﴿ فدعا ﴾أن موسى عليه السلام دعا بإذن الله وأجيب

(١) لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول ؛ لأنه لا يجيئهم إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله .

(٢) قال : السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف : قوله : أو المخففة من الثقيلة . قال : بعضهم : لا يجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، لعدم حرف التعويض ، ويجوز أن تكون التي معها الفعل في تأويل المصدر ، وأقول : إن أن المخففة لا توصل بالطلب إجماعا كما لا توصل المثقلة به ، فامتناع كونها مخففة لهذا ، لا لعدم حرف التعويض ؛ لأن حرف التعويض إنما يؤتى به لئلا تلتبس بالمصدرية ، ولو جاز دخول أن المصدرية على فعل الطلب فلا التباس ، لأن أن المصدرية لا تولى بالطلب على الأصح ، وإن جوز وصلها به سيبويه ، وأبو علي ، ذكر جميع ذلك نجم الأئمة الرضي في شرحه على الكافية ، والعهدة عليه .

(٣) طه : ٤٧ .

ثم علل ذلك فقال: ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ غير متهم ، قد ائتمنه الله على وحيه ﴿ و أن لا تعلوا على الله ﴾ تتكبروا عن طاعته ، والإيمان برسله ، أو على تقدير مضاف ، أي : لا تعلوا على رسول الله بالاستهزاء به ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ بحجة بينة ، وهي العصا ، موضحة لصدقي ، فلما قال لهم هذا توعدوه بالقتل فقال: ﴿ و إني عذت بربي وربكم أن ترجمون ﴾ أي : اعتصمت بربي أن تقتلوني بالرجم قال في التجريد : وفي معناه قولان :

أحدهما : أنه سألهم أن لا يقتلوه ، وإن لم يؤمنوا به اعتزلوا أذاه عن ابن عباس ، وأن يتركوه كفافا لا عليه ولا له ، فليس الرجم جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم .

والثاني : أنه أراد أنه غير مبال بمكرهم وما يحاولونه من رجمه وقتله ؛ لأنه قد التجأ إلى الله وتوكل عليه .

ومعنى ﴿ و إن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ لا موالاة بيني وبين من لم يؤمن فتنحوا عني واقطعوا أسباب الوصلة عني .

قال بعض العلماء [1] : إن المعتزلة يتصلفون ويقولون : إن لفظ الاعتزال أينما جاء في القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لاعن الحق ، فاتفق حضوري في بعض المحافل ، وذكر بعضهم هذا الكلام ، فأوردت عليه هذه الآية وقلت : المراد من الاعتزال في هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه‌السلام وطريقته ، وذلك لاشك أنه اعتزال عن الحق فانقطع الرجل .

---

١) بعض العلماء : هو الرازي ، وذكره في تفسيره ٢٧/٢٤٥،٢٤٦.

ثم قال تعالى: ﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ من فتح ﴿ أن ﴾ فتقديره بـأن هؤلاء، قيل: دعا ربه بذلك، كان دعاؤه: اللهم عجـل لهـم مـا يستحقونه بإجرامهم، وقيل: دعاؤه قوله: ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ لكن الله ذكر سبب الهلاك فقط[1]. ومن كسر ﴿ إن ﴾ فتقدير القول أي: فدعا ربه فقال: ﴿ إن هؤلاء ﴾. ﴿ فأسر بعبادي ليلا ﴾ أي فاستجبنا له، وقلنا له: اسر[2].

قرئ بقطع همزة ﴿ أسر ﴾ على أنه رباعي، وبوصلها على أنه ثلاثي، ابن كثـير ونافع فاسر موصولة بالألف، والباقون مقطوعة الألف، يقال: أسرى وسرى لغتان

﴿ إنكم متبعون ﴾ أي: فقد دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده، فينجـي المتقدمين، ويغرق التابعين.

﴿ واترك البحر رهوا ﴾ أي: خاليا من الماء هواء، قال الشاعر:

فعانقته والخيل رهـوا كأنهـا   جداول زرع أرسلت فاسـتطرت

فقال: والخيل رهوا، أي: خالية من الركبان حين تسقط أصحابها عن سروجها قاله الحسين بن القاسم عليه‌السلام.

وفي التجريد: ﴿ رهوا ﴾ أي: ساكنا، وقيل: متسعا منفتحا، وذلك أن الله تعالى فرق لموسى البحر وجعله طرقا متسعة يابسة، فلما عبره بنو إسرائيل أراد موسـى أن يضربه بعصاه فينطبق لئلا يلحقهم فرعون، فأمر بتركه على حاله لما دبـر الله مـن دخول فرعون والقبط وإطباقه عليهم.

﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ أي: قوم فرعون.

---

(١) وهو كونهم مجرمين.

(٢) قال: في الكشاف: وفيه وجهان إضمار القول بعد الفاء فقال: اسر بعبادي، وأن يكون جواب شـرط محذوف، كأنه قال: قال: إن كان الأمر كما تقول فاسر. الكشاف ٤/٢٧٥.

ثم قال تعالى: ﴿كم تركوا من جنات﴾[1] بساتين ﴿و عيون﴾ أنهار جارية ، وكم للتكثير ﴿و زروع ومقام كريم﴾ ما كان لهم من المزارع والمجالس والمنازل الحسنة ،

---

(١) قال : الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ :

القراءة

قرأ أبو جعفر ﴿فكهين﴾ بغير ألف ، يعني أشرين بطرين ، الآخرون بالألف ﴿فاكهين﴾ ناعمين متنعمين ، يقال: فكه يفكه فكها ، فهو فاكه.

اللغة

الجنة : البستان ، وجمعه جنات ، وأصله من الستر ، ولا يسمى جنة حتى يكون فيه من الأشجار ما يستره ومنه الجن والجنون والجنين والمجن ، ونحوها ، والنعمة : بفتح النون التنعم ، والتلذذ ، والنعمة : بكسر النون هي المنفعة التي يستحق بها الشكر ، والمسرف : المجاوز للحد ، والسرف : ضد القصد ، والاصطفاء والاجتباء نظائر ، والبلاء : النعمة ، والبلاء : الشدة ، وهو من الأضداد.

المعنى

ثم بين تعالى حال قوم موسى وقوم فرعون بعد هلاك فرعون ، فقال : سبحانه ﴿كم تركوا من جنات وعيون﴾ إشارة إلى التكثير ، يعني لما أهلكنا آل فرعون تركوا بساتين كثيرا ، وأموالا جمة ﴿وعيون﴾ جارية ﴿وزروع ومقام كريم﴾ قيل : بمجلس شريف ، وقيل : مقام الملوك والأمراء ، وقيل : المنازل الحسنة عن قتادة ، وقيل : المنابر ، ومجالس الملوك عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والمقام موضع الإقامة ، وإنما يستعمل في الغالب في مقام الجمال والهيئة ، وقيل : المقام المزخرف بالزينة المأهولة بكثرة الحشم والخدم ﴿ونعمة﴾ أي : غبطة وسرور ، وعيش كما كانوا فيها ﴿فاكهين﴾ قيل : لاعبين ناعمين ، وقيل : ضاحكين ، مستبشرين ﴿كذلك﴾ قيل : :ذلك كان الأمر فيهم ، وقيل : كذلك فعلنا بهم ، ونفعل بأمثالهم ، وقيل : كذلك كان المال والجاه فيهم ، وقيل : كذلك نفعل بمن نهلكه ، وننتقم منه عن أبي علي ، وقيل : كذلك يكون حال الكفرة والظلمة يجمعون من غير حله ، وينفقون في معصية الله ، ثم يتركونها لمن لا يمدحهم ﴿وأورثناها قوما آخرين﴾ أي : أعطيناها بني إسرائيل عن قتادة ، فلما قاموا مقامهم سماه إرثا ، قال : الحسن : رجع بنوا إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون ، وحازوا أموالهم ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض} فيه عشرة أقوال : أولها قيل : أهل السماء والأرض لأنهم لما عصوا الله ، وغضب عليهم ـــ صاروا في موضع جزاء لا في موضع ترحم ، فيبكى عليهم .

قال الحسن وأبو علي : ما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم فرحين مسرورين.

وثانيها : لو كانت السماء والأرض ممن يبكي على أحد لم تبك على هؤلاء ، لأنهم ليسوا ممن يحزن عليهم بل يفرح بهلاكهم.

وثالثها : أنه لم يبك عليهم ما يبكي على المؤمن ، إذا ما ت من مصلاه ، ومصعد عمله عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير يعني لم يك موضع طاعة يظهر حاله عند موته ، والمراد بظهور الحال لأن الجماد لا يبكي.

ورابعها : كان أمرهم أهون من أن يبكي عليهم باك ، يعني لم يكن هلاكهم حزنا على أحد عن أبي مسلم ، فهو مثل في تحقير المصيبة ، وتوسع في الكلام.

وخامسها : أنه كان يدعي الإلهية ، فلما هلك لم يترك سماء ولا أرضا كما يقال: ما ت فلان و لم يترك ولدا يبكي عليه ، يعني لم يترك ولدا أصلا.

وسادسها : لم يمطر عليهم سبحانه ، ولانبت لهم نبات ، ولا جرت العيون في بساتينهم ، بل صارت كلها لغيرهم ، وهم همود تحت التراب ، فالبكاء عبارة عن المطر والنبات.

وسابعها : ما بكت عليهم ، يعني ما لحقهم رحمة ، والعرب تدعو للميت ، تقول : سقته الغوادي ، وسقاه المزن ، ويريدون به الرحمة.

وثامنها : قال : عطاء : بكاء السماء والأرض حمرة أطرافها ، قال : السدي : لما قتل الحسين بن علي عليهما السلام ، بكت عليه السماء ، وبكاؤها حمرتها ، وعن ابن سيرين أن الحمرة التي مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين عليه السلام.

وتاسعها : أي : لم ينتصر لهم ، ولا طلب بثأرهم ، كما يفعل قوم من العرب في البكاء على القتيل ، يبكونه بعد قتل قاتله ، أو من يساويه ، ولا يبكون قبل طلب الثأر ، عن أبي مسلم.

وأوضح الوجوه ما قاله الحسن وأبو علي ، لأنه حمل البكاء على حقيقته .

﴿ولقد نجينا﴾ خلصنا ﴿بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ وهو ما ينالهم من فرعون من الأعمال الشاقة ، والإهانة من فرعون ﴿إنه كان عاليا﴾ قيل : متكبرا ، وقيل : مستعليا على العباد ، يريد أن يجعلوه إلها عن أبي علي ﴿من المسرفين﴾ يعني مجاوزا للحد ، ولا إسراف أعظم من ادعاء الربوبية ، وقتل النفس بغير حق ، وظلم المؤمن بالمال والنفس ﴿ولقد اخترناهم﴾ أي : اجتبيناهم ﴿على علم﴾ أي : وأنا عالم بحالهم وإنهم أهل للاصطفاء ﴿على العالمين﴾ قيل : عالمي زمانهم عن الحسن ، وقتادة ومجاهد ، بدليل قوله : ﴿كنتم خير أمة﴾ وقيل : اخترناهم على جميع العالمين بكثرة الرسل ، وقيل : أراد به الرسل ، وهو عام والمراد به الخصوص يعني اخترناهم الأنبياء ، ولذلك قال : ﴿وآتيناهم من الآيات﴾ وذلك لا يليق إلا بالأنبياء ﴿وآتيناهم} أعطيناهم ﴿من الآيات﴾ من الحجج ﴿ما فيه بلاء مبين﴾ أي : نعمة ظاهرة ، قيل : البلاء النعمة عن الحسن وجماعة ، وقال : قتادة : هو ما فعل بهم من المن والسلوى والغمام ، وفلق البحر ونحوه ، وقيل : البلاء العذاب عن الفراء، وقيل : الابتلاء الشدة والرخاء عن ابن زيد ، وقيل : الآيات المعجزات،وفيه نعمة على الأنبياء وعلى قومهم .

وقيل المنابر [١] ﴿ونعمة﴾ بالفتح من التنعم ، وبالكسر من الإنعام ﴿و نعمة كانوا فيها فاكهين﴾ ملتذين مسرورين معجبين ، دلت هذه الآية على أنه تعالى أغرقهم ، ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام ، وأخبر تعالى أنهم تركوا هذه الأشياء الخمسة ، وهي الجنان ، والعيون ، والزروع ، والمقام الكريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .

قال علماء اللغة : نعمة العيش بفتح النون حسنه ونضارته ، ونعمة الله : إحسانه وعطاؤه .

وقوله : ﴿كذلك﴾ معناه : تقرير الكلام وتأكيده ، أي : الأمر كذلك ما وصفنا من إخراجهم من ممالكهم [٢]، أو مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿و أورثناها قوما آخرين﴾ على خلاف صفتهم ودينهم ليسوا منهم في شئ من قرابة ولا دين ، ولا ولاء ، وهم بنو إسرائيل ، وكانوا قبل ذلك متسخرين مستعبدين في أيديهم ، فأهلكهم الله على أيديهم ، وأورثهم ملكهم وديارهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي : ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض .

قال في التجريد : وفي معناه ثلاثة أقوال أحدها : أنه على حقيقته ، روى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ما من مسلم إلا وله في السماء بابان ، باب يصعد فيه عمله ، وباب يترل منه رزقه ، فإذا مات [فقداه و]بكيا عليه، وتلى هذه الآية ﴿فما بكت﴾) [٣] .

تدل الآية على التحذير من مثل حالهم إذا جمعوا الأموال ، وتركوها وصاروا إلى العذاب ، وتدل على أنهم لما استمروا على الضلال فأهلكوا لم يحزن بهلاكهم ، ولم يترحم ، وفيه تحذير من المعصية ، ويدل قوله : ﴿اخترناهم﴾على أنهم خصهم بالإرسال والمعجزات ، ويدل قوله :﴿إنه كان عاليا من المسرفين﴾أن العلو والسرف كان فعله ليس بخلق الله تعالى حتى نجى الله عباده منهم ، ولو كان خلقه لما كان ينجيهم من فعل نفسه

(١) وزاد في الرازي : وقيل : المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها .

(٢) فمحله على هذا رفع ، وعلى الوجه الثاني محله النصب .

(٣) والحديث ذكره أيضا الرازي في تفسيره ، ٢٧/٢٤٦ .

وقال علي عليه‌السلام : (إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مصلى ولا في السماء مصعد ، فقال الله تعالى ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾) وإلى نحو هذا ذهب ابن عباس ، والضحاك ومقاتل ، وقال ابن عباس : الحمرة التي في السماء بكاؤها ، وقال مجاهد : (ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحا) .

والثاني : أن المراد أهل السماء وأهل الأرض قاله الحسن .

قلت : وهذا هو تفسير الحسين بن القاسم عليه‌السلام وغيره ، ومن ذلك قول المرتضى عليه‌السلام حيث قال : فما بكى عليهم أهل السماء ولا الصالحون من أهل الأرض ولا افتقدوهم ، ولا أسفوا ساعة عليهم ، إذ كانوا غير مطيعين ، ولله سبحانه غير خائفين ، فقامت السماء والأرض مقام من فيهما ، ونسب ما يكون من أهلهما إليهما ، وهذا في لغة العرب كثير موجود ، وفي ذلك دليل على أن الملائكة وسكان الأرض من الصالحين إذا كانوا في الأرض قوما مطيعين لله خائفين له مصلحين في أرضه متبعين لأمره يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ثم تلفوا أو نزلت بهم مصائب الدنيا من ظالم أو غيره ـ جزع عليهم أهل السماء وأهل الأرض وحزنوا لفقدهم ، فأخبر الله أن الكافر الفاسق غير مفقود ، ولا محزون عليه ، بل يسر أهل السموات والأرض بذهابه ، ويستريحون من حياته المؤذية ، ومعاشرته المشقية . اهـ

والثالث : أنه تمثيل وتخييل للمبالغة في لسان العرب ، حيث يقولون في تعظيم مهلك العظيم : بكت عليه السماء والأرض والريح ، وأظلمت له الشمس على طريق التمثيل مبالغة في وجوب الجزع عليه .

وفي الحديث (ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض) وقال جرير :

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وفيه ما يشبه السخرية بهم . وعلى الثالث يحمل ما روي من الحديث ، ونفي ذلك في قوله: ﴿فما بكت عليهم السماء﴾ على أنه كان تهكما واستهزاء بحالهم المنافية لحال من يعظم فقده ، فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض .

وقوله : ﴿و ما كانوا منظرين﴾ أي : لما جاء وقت هلاكهم لم يمهلوا إلى وقت آخر ولا إلى الآخرة بل عجل في الدنيا من العذاب .

ثم اعلم أنه تعالى لما بين كيفية هلاك فرعون وقومه بين كيفية إحسانه إلى موسى وقومه فقال سبحانه : ﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ المذل ، وهو قتل الأبناء واستخدام النساء ، وتسخيرهم للأعمال ، وقوله : ﴿من فرعون﴾ بدل من ﴿العذاب المهين﴾[1] .

ومعنى ﴿ إنه كان عاليا﴾ أي : جبارا كبيرا رفيع الطبقة ، فائقا في إسرافه ، وهو معنى قوله : ﴿من المسرفين﴾ أي : الزائدين في المعصية .

وقال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : معناه متكبرا طاغيا متجاوزا لقدره مترفعا عن حده متعديا لمحل نفسه ، مسرفا في كل أمره ، ومن إسرافه أنه على حقارته ادعى الإلهية

ولما بين تعالى كيفية دفع الضرر على بني إسرائيل بين كيف أوصل إليهم الخير فقال : ﴿و لقد اخترناهم﴾ أي : الرسل ﴿على علم﴾ أي : بعلم ﴿على العالمين﴾ أي : على الناس أجمعين ، لما رأينا في قلوبهم من محبة اليقين . اهـ

وقيل : ﴿اخترناهم﴾ أي : بني إسرائيل ﴿على علم﴾ منا بأنهم أحقاء بأن يختاروا ، أو على علم بأنهم يزيغون ، وتفرط منهم الفرطات في بعض الأحوال ﴿على العالمين﴾ عالمي زمانهم ، وقيل : على الناس جميعا لكثرة الأنبياء فيهم .

﴿و آتيناهم من الآيات﴾ من نحو فلق البحر ، وتضليل الغمام لهم في التيه ، وإنزال

---

(١) كأنه في نفسه كان عذابا مهينا ؛ لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم . ويجوز أن يكون حالا ، والمعنى حينئذ : من العذاب المهين واقعا من فرعون .

المن والسلوى عليهم فيه ، وغير ذلك من الآيات التي لم يظهر لغيرهم مثلها .

أما قوله تعالى : ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ فقال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : بلاء مبين : نعمة بينة ، وفضل وعطاء مبين ، قال الشاعر :

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

أي : أعطاهما ، وتفضل عليهما . اهـ

لأن الله يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة ، أو اختبار ظاهر لينظر كيف يعملون ، وهاهنا آخر الكلام في قصة موسى عليه‌السلام .

ثم رجع إلى ذكر كفار مكة ، وذلك لأن الكلام فيهم حيث قال : ﴿ بل هم في شك ﴾ من البعث والقيامة ، ثم بين كيفية إصرارهم على كفرهم ، ثم بين أن قوم فرعون كانوا في الإصرار على الكفر على هذه القصة ، ثم بين كيف أهلكهم ، وكيف أنعم على بني إسرائيل ، ثم رجع إلى الحديث الأول وهو كون كفار مكة ومن نحا نحوهم منكرين للبعث ، فقال سبحانه : ﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ [1] دون الثانية التي ذكرتم أن الموت موتة تعقبها حياة ، أي في قوله: ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ﴾ [1]

---

(١) قال : الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ :

اللغة

النشر : ضد الطي ، والنشور بعث بعد الموت ، ومنه يقال: نشر الله الميت ، وأنشر ، ومنه نشرت الأرض أصابها الربيع فأنبتت ، وهي ناشرة ، والنبات هو النشرة.

والتبع : ملك من ملوك اليمن ، والجمع تبابعة ، وقيل : سمي تبعا ، لأنه يتبع من قبله من الملوك ، وقيل : لأنه إذا مات واحد منهم تبعه الأخر ، فكان لابد منه ، يقال: أتبعه بالتخفيف ، واتبعه بالتشديد ، حذا حذوه ، ويقال: ما زلت أتبعه حتى اتبعته ، حتى لحقته.

الإعراب

لاعبين : نصب على الحال ، أي : لم يخلقهما في حال اللعب.

المعنى

ثم عاد الكلام إلى ذكر النبي فقال : سبحانه ﴿إن هؤلاء﴾ يعني قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم مشركوا العرب ومكة ﴿ليقولن إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ يعني نموت أولا ثم لا بعث ، ولا نشور ، ولا دار سوى الدنيا ﴿وما نحن بمنشرين﴾ أي : بمبعوثين ﴿فأتوا بآبائنا﴾ أحياء ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنا نبعث أحياء بعد الموت ، يعني : إن صح النشور في الآخرة صح النشور في الدنيا ، فاحيوا آباءنا ، وهذا جهل من وجوه : أحدها : أن النشور للمجازاة ، وهي في الآخرة دون الدنيا ،ولا تجتمع المجازاة والتكليف ، ومنها : أن الإحياء في دار الدنيا إنما يكون للمصلحة ، فربما يكون مفسدة ، فذلك غير موقوف على اقتراحهم ، ومنها: أنه يجوز ذلك في الدنيا ، إلا انه لا يفعله . ومنها : بأي معنى جمعوا بين الأولى والأخرى وهذا من أضعف الشبه ، فلما تركوا الحجة ، وعدلوا إلى الشبهة ، جهلا عدل الكلام إلى الوعيد والوعظ ، فقال : سبحانه ﴿أهم﴾ يعني مشركي مكة ﴿خير﴾ أعز وأمنع ، وأكثر مالا وعددا ﴿أم قوم تبع﴾ قيل : هو تبع الحميري من ساق الجيوش وهدم سمرقند ، وبناها عن قتادة ، وقيل : ذم الله قومه ولم يذمه عن كعب ، وقيل : لا تنسوا تبعا ، فإنه رجل صالح عن عائشة ، وقيل : هو الذي كسا البيت عن سعيد بن جبير ، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لا تسبوا تبعا فإنه قد كان أسلم) وإنما ذكر تبعا ،لأنهم عرفوا أخباره لانتشاره ، وقرب زمانه ، ومكانه منهم ، وكان أتى مكة والمدينة ، والطائف ، وأجرى أنهارا ، وأبر آبارا ، وفتح بلادا ﴿والذين من قبلهم﴾ من الأمم الماضية ﴿أهلكناهم لما كفروا وكانوا مجرمين﴾ مذنبين كافرين ، فليحذروا أن ينالهم مثل ما نال أولئك ، وقيل : لولا أن أكثر أهل مكة آمنوا لكان يحل بهم ما حل بقوم تبع ، وثم بين الدلالة على صحة البعث ، ووجوبه فقال : ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ عابثين ، يعني لو لم يكن الجزاء مع التخلية في الدنيا لكان جميع ذلك عبثا ، وإنما خرج من كونه لعبا ، لأنه خلقهم للتكليف ، ويبعثهم للجزاء ، وقيل : ما خلقناهما إلا بالحق ، قيل : إلا بداعي الحكمة ، وقيل : إلا على الحق الذي يستحق به الحمد دون الباطل الذي يستحق به الذم ، وقيل : للحق الذي صار إليك في دار الجزاء أي : الحسن ، وقيل : إلا لغرض صحيح ، وهو أن يطيعوه ،فيستحقوا الثواب ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ الحق لتركهم النظر ، ،قيل : لا يعلمون الغرض الذي له خلقنا الأنبياء.

الأحكام

تدل الآيات على جهل القوم في إنكار البعث ، ولو تفكروا لعلموا أن من يقدر على ابتداء الإحياء يقدر على إعادتها ، وتدل إنما خلق بالحكمة وأن الباطل ليس من خلقه ، ولا يكون كذلك إلا وفيه غرض صحيح ، وتدل على نفي العبث ، وتدل أنه ليس من خلق الله ، ويدل قوله :﴿لا يعلمون﴾ أن المعارف مكتسبة.

(١) البقرة : ٢٨ .

قال في التجريد : إن قلت : النزاع في الحياة بعد الموت فلم لم يقل : إن هي إلا حياتنا الأولى ؟ قلت : كأنه قيل لهم : تموتون ميتة تعقبها حياة ، كما تقدم منكم ميتة تعقبها حياة ، قال تعالى :﴿وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ فقالوا :﴿إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ يريدون ما الموتة التي تعقبها حياة إلا الموتة الأولى ﴿**وما نحن بمنشرين**﴾ أي: بمبعوثين ، يقال : أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم ، والنشور : هو الحياة والبعث قال الشاعر :

فيا ليت الكريمين أنشرا[1] غداة التقينا والنحور دوامي

ويا ليت عبد الله يجلس ساعة فينظر بالعينين بعد حمام

أي : ليتهم بعثوا فينظروا كيف قتلنا بهم من قتلهم .

ثم قال تعالى حاكيا :﴿**فأتوا بآبائنا**﴾ أي : ادعوا الله أن يحيي آباءنا ليكون ذلك دليلا على ما تعدونه من البعث ، يخاطبون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحده ، أي : ائت بآبائنا يا محمد ، وهو مثل قوله :﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ وهو كثير في كلام العرب ، أن يجمع فعل الواحد ، وقيل : كانوا يطلبون أن ينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه ، فإنه كان رئيسهم ، وكان يشاور في النوازل ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أي : فيما تعدوننا من النشور .

---

١) في نسخة (فياليت الجليسين أنشرا)

ولما حكى الله عنهم ذلك قال سبحانه : ﴿ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم ﴾ كقوم نوح وعاد وغيرهم ﴿ أهلكناهم ﴾ وكذلك نهلك هؤلاء ﴿ إنهم كانوا مجرمين ﴾ لأجل إجرامهم بالكفر والمعاصي ، والمراد بالخيرية القوة والمنعة ؛ لأنه لا خير في الفريقين ، ونظيره ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾[1] والمعنى : أن كفار مكة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة ثم يحتاج إلى الجواب عنها ، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار ، فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد ، فقال : إن سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء ، ثم إن الله تعالى أهلكهم ، فكذلك يهلك هؤلاء فقوله : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ [استفهام على سبيل الإنكار ، وتبع اسم ملك

من ملوك اليمن ، لأنه يتبع صاحبه ، أو لأنهم يتبعون وموضع][2] تبع في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام قاله ابن الجوزي ، والمراد بتبع هاهنا : هو ملك معين من ملوك حمير ، كان مؤمنا وقومه كافرين ، ولذلك ذم الله قومه و لم يذمه .

قال الثعلبي : واسمه أسعد أبو كرب آمن بالنبي قبل أن يبعث بسبعمائة سنة .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لا تسبوا تبعا فإنه [كان]قد أسلم)[3] وعنه صلى الله عليه وآله وسلم :(ما أدري أكان تبع نبيئا أو غير نبئ)[4] وعن ابن عباس : كان نبيئا ، حكى هذا في التجريد .

---

(١) القمر : ٤٣ .

٢) ما بين الأقواس ساقط من أ ، وموجود في ب .

(٣) أخرجه أحمد والطبراني ، والطبري، وابن أبي حاتم من حديث سهل بن سعد ، وفيه ابن لهيعة ، عن عمرو بن جابر ، وروى حبيب عن مالك عن أبي حازم ، عن سهل مثله ، قال : الدار قطني : تفرد به حبيب وهو متروك ، وله شاهد من حديث ابن عباس ، أخرجه الطبراني في معجمه ، وابن مردويه ، قال : محمد بن زكرياء : عن أبي حذيفة عن سفيان .

(٤) أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن المقبري ، عن أبي هريرة بهذا ، والمعروف بهذا الإسناد (ما أدري العيني هو أم لا ، وما أدري أعزير نبي أم لا) أخرجه أبو داود ، وكذا الحاكم ، لكن قال : ذو القرنين بدل عزير ، قال : الدار قطني تفرد به عبد الرزاق وغيره أرسله . انظر تخريج الكشاف ٢٨٠/٤.

ثم إنه تعالى ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة ، فقال سبحانه : ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ أي : عابثين لغير شيء ، بل لمنافع العباد ، والنظر ، والاعتبار ، ولإقامة الحق من توحيد الله ، وإلزام طاعته ، ولأنهما مساكن عباده ، ومعادن منافعهم ، وذلك معنى قوله : ﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ يريد الجزاء ، وهو الثواب على الطاعة ، والعقاب على المعصية ، ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبا وعبثا ، وإنما قال : ﴿ بينهما ﴾ بالتثنية لأنه أراد ما بين الجنسين ﴿ و لكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ الغرض بخلقهما لإعراضهم عن النظر فيهما . ولما كان المقصود من قوله : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ إثبات القول بالبعث والقيامة لا جرم ذكر عقبه قوله تعالى: [1] ﴿ إن يوم الفصل ﴾ وهو يوم القيامة ؛ لأنه يفصل فيه بين الأشقياء والسعداء ﴿ ميقاتهم ﴾ أي : وقت حسابهم ﴿ أجمعين ﴾ يريد الأولين والآخرين .

---

(١) قال : **الحاكم الجشمي في التهذيب** في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ :

القراءة

قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ، ويعقوب ﴿ يغلي ﴾ بالياء ، والباقون بالتاء ، الأول على تذكير المهل ، والثاني على تأنيث الشجرة ، وقرأ أبو جعفر وعاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ فاعتلوه ﴾ بكسر التاء والباقون بضمها ، وهما لغتان . قرأ الكسائي وحمزة ﴿ أنك ﴾ بفتح الهمزة على معنى لأنك ، الباقون بكسرها على الابتداء

اللغة

الفصل بين الشيئين : الفرق بينهما ، ومنه الفصل الحاكم ، لأنه يفصل الأمور ، والفصيل : ولد الناقة ، لأنه انفصل عن أمه ، والمفاصل: مفاصل العظام ، ومنه ﴿ تفصيل كل شيء ﴾ أي : بيانه ، والفرق بينه وبين غيره ، ويوم الفصل : يوم القيامة يفصل بين المحق والمبطل ، والوقت : الزمان ، والموقوت : الشيء المحدود ، والميقات : مصير الوقت ، وسميت القيامة ميقاتا ، لأنه وقت للجزاء ، والمولى: الصاحب والصديق ، والمولى : ابن العم ، والمولى : المعتق المنعم عليه ، والمولى : الولي ، والمولى : الأولى من ذلك ، والمهل : شيء يذاب بالنار حتى يذوب ، والحميم : الحار ، والعتل : الذهاب بشدة وعنف ، ومنه العتل الجافي الغليظ ، عتله يعتله عتلا ، وقيل : هي أن تأخذ لباب الرجل فتجره ، وقيل : العتل السريع إلى الشيء .

الإعراب

اختلفوا في محل (إلا من رحم الله) فقد رفع بدلا من الاسم المضمر في (ينصرون) وإن شئت جعلته ابتداء ، وأضمرت خبره ، تقديره: إلا من رحم الله فيغني ، وقيل : محله نصب على الاستثناء والانقطاع ... الكلام .
﴿ لا يغني مولى عن مولى ﴾ الأول والثاني كسر ، وأصله موليا ، لأن الياء لما .....وقبلها حرف مفتوح قلبتها ألفا ساكنة.

النزول

قيل : نزل قوله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ في أبي جهل ، وكان يقول : "ما بين جبليها أعز وأكرم مني" عن قتادة ، فيقال : له يوم القيامة توبيخا : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ كما زعمت ، ولما سمع هذه الآية أتى بتمر وزبد قال : نحن نتزقم هذا ، أي : ملاقوا هذا فلا يضرنا ، وروي أنه قال : ، إذا كان محمد يوعدنا بالزقوم فتزقموا ، فإنا لا نعرف ذلك إلا هذا ، وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيد أبي جهل وهزه ، وقال : ﴿ أولى لك ثم أولى لك فأولى ﴾ فقال : تهددني يا محمد ، والله يا محمد ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه ، فنزلت فيه ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ .

المعنى

ثم عقب الوعيد بذكر القيامة ، فقال : تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ يعني : يوم القيامة ، وفيه يفصل الله بين الخلق أمورهم ﴿ ميقاتهم أجمعين ﴾ يعني : وقتهم الذي أمهلهم إليه ، ثم وصف ذلك اليوم ، فقال : تعالى : ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ﴾ من العذاب الذي نزل به ﴿ ولاهم ينصرون ﴾ أي : لا ينصره أحد عن ذلك ، أي : لا يدفع صديق عن صديق ، ولا ابن عم عن ابن عمه ، ولا ولي عن وليه شيئا ﴿ إلا من رحم الله ﴾ الاستثناء من النفي إثبات ، يعني من رحمة الله من المؤمنين ، أي : أنعم عليهم ، وأنه يغني ويشفع ، والرحمة : النعمة على المحتاج ، وقيل : لا يشفع أحد لأحد إلا من رحم الله ، فأذن له في الشفاعة ، ﴿ إنه هو العزيز ﴾ الغالب القادر الذي لا يمتنع عليه شيء ، وهو مع ذلك رحيم ، يرحم عباده ، وينيل بعضهم نفع بعض في الشفاعة ، ولما كان .... للقضاء بين المحق والمبطل ، بين ما لكل واحد منهما ، فذكر ما أعده لأهل جهنم ، فقال : سبحانه ﴿ إن شجرة الزقوم ﴾ وهي شجرة طلعها يأخذ بحلوقهم ، ويحرق أجوافهم ، وقد تقدم ذلك ﴿ طعام الأثيم ﴾ أي : طعام الفاجر العاصي ، ثم وصف الشجرة فقال : ﴿ كالمهل ﴾ قيل : ما أذيب بالنار ، كالفضة عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وقيل : المهل دردي الزيت عن ابن عباس بخلاف ﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ الماء الحار المنتهي في الحرارة ﴿ خذوه ﴾ أي : ويقال: خذوا الأثيم ﴿ فاعتلوه ﴾ قيل : بشدة وعنف وجروه إلى الجحيم ، وقيل : ادفعوه بسوقه إلى النار ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي : وسط النار عن قتادة ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ الماء الحار ، ثم يقال : له ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ قيل : هو تهجين ، أي : أنت الذي ادعيت العز والكرم ، وما كنت كذلك ، وقيل :

ثم وصف ذلك اليوم فقال سبحانه :﴿ **يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا** ﴾ من الغناء وهو النفع ، أي : لا ينفع مولى ، أي مولى كان من قريب أو صديق أو مالك ؛ لأن المولى يطلق على ابن العم ، وعلى المود ، وعلى الناصر ، وكل ذلك صحيح هنا .

﴿ **و لا هم ينصرون** ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿ **إلا من رحم الله** ﴾ من المتقين ، فهو منصور وفي التجريد : ﴿ إلا من رحم الله ﴾ وهم المؤمنون ، يشفع بعضهم في بعض ﴿ **إنه هو العزيز** ﴾ القوي الغالب في انتقامه ممن عصاه ، ولا ينصر من عاداه ﴿ **الرحيم** ﴾ عظيم الرحمة لمن أطاعه.

واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على أن القول بالقيامة حق ، ثم أردفه بوصف ذلك اليوم ذكر عقيبه وعيد الكفار ، ثم بعده وعد الأبرار ، أما وعيد الكفار فهو قوله تعالى :﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم** ﴾ عظيم الإثم ، والأثيم : كثير الآثام ، والزقوم : من التزقم ، وهو أخذ الشيء بكره ، وأهل النار يكرهون على تناولها ، ذكر معناه الواحدي .

نزلت في أبي جهل ، روي أنه لما نزل ﴿ أذلك خير أم شجرة الزقوم ﴾ وقال [ابن] الزبعرى : إن أهل اليمن يسمون أكل الزبد والتمر التزقم ، فدعا أبو جهل بتمر

أنت العزيز في قومك الكريم عليهم فاليوم أنت في هذا الهوان ، لا ينصرك منهم أحد ، وقيل : هو على النقيض كأنه قيل : أنت الذليل المرتهن ، إلا أنه قيل ذلك على وجه التبعيد منه استخفافا به ، وقيل : أنت الذي كنت تطلب العز في قومك ، والكرم بمعصية الله تعالى ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ أي : تشكون ولا تؤمنون به ، فقد رأيتموه عيانا

الأحكام

يدل قوله :﴿ ولاهم ينصرون ﴾ أن أهل النار لا ناصر لهم ، ولو كان يشفع النبي لكان ذلك أعظم نصرة ، فيبطل قول المرجية في الشفاعة لأهل الكبائر ، ويدل قوله :﴿ تمترون ﴾ أن الشك في الدين مذموم ، والشاك مستحق للعقاب ، فتدل على بطلان قول من يقول : إن المعارف ضرورية ، وتدل على أن الشك فعلهم لذلك وبخهم وعاقبهم.

وزبد ، وقال : تزقموا ، فهذا الذي يخوفكم به محمد ، فنزلت ، والأثيم : الفاجر .

ثم قال :﴿ كالمهل ﴾ بضم الميم وفتحها ، وهو دردي الزيت ، أي : عصارته كعصارة السليط ، يوضح هذا التفسير قوله :﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾[1] مع قوله : ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾[2] حمراء ، والدهان : جمع دهن ، أي : كدهن الزيت ، وهذا مطابق لدردي الزيت ، وقيل : هو ذائب الفضة والنحاس ، وتم الكلام هاهنا .

ثم أخبر عن غليانه في بطون الكفار فقال سبحانه :﴿ يغلي في البطون ﴾ من قرأ (يغلي) بالياء جعلها للطعام ، أو للمهل ، ومن أنثها ذهب إلى تأنيث الشجرة، ومثله ﴿ أمنة نعاسا يغشى ﴾[3] و﴿ يغشى ﴾ التذكير : النعاس ، والتأنيث : الأمنة ﴿ كغلي الحميم ﴾ الماء الذي انتهى غليانه .

ثم قال :﴿ خذوه ﴾ يا زبانية ، أي : خذوا الأثيم ﴿ فاعتلوه ﴾ قرئ بضم التاء وكسرها ، وهما لغتان بمعنى واحد ، أي : قودوه بعنف ، والعتل : أن يؤخذ بتلبيب[4] الرجل فيجر لحبس أو قتل ، وقوله :﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ وسطها ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ المصبوب هو الحميم لا عذابه ، إلا أنه إذا صب عليه الحميم فقد صب عذابه عليه وشدته ، فهو أبلغ في المعنى[5] .

---

(١) المعارج : ٨ .

(٢) الرحمن : ٣٧ .

(٣) آل عمران : ١٥٤ .

(٤) تلبيب الرجل : قال الجوهري : لببت الرجل تلبيبا إذا جمعت ثيابه عند صدره في الخصومة وجررته .
وفي الرازي : أن يؤخذ بمنكب الرجل . وهذا هو قول الليث ، ومنه : أخذ فلان بزمام الناقة يعتلها ، وذلك إذا قبض على اصل الزمام عند الرأس وقادها قودا عنيفا ، وقال ابن السكيت : عتلته إلى السجن أعتله إذا دفعته دفعا عنيفا ، هذا قول جميع أهل اللغة في العتل ، وذكروا في اللغتين ضم التاء وكسرها ، وهما صحيحان مثل يعكفون ، ويعكفون ، ويعرشون ويعرشون .

(٥) لأنه من باب الاستعارة ، فهو كقوله تعالى :﴿ أفرغ علينا صبرا ﴾ فذكر العذاب معلقا به الصب مستعارا له ، ليكون أهول وأهيب .

قال مقاتل : نزلت في أبي جهل ، يضربه الملك بقمعة من حديد على أم رأسه فتنقب عن دماغه ، فيجري دماغه على جسده ، ثم يصب الملك في النقب ماء حميما قد انتهى حره ، فيقع في بطنه ، ثم يقول له : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ هذا تبكيت وتقريع وتوبيخ على طريق التهكم والاستهزاء بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه ، قال الشاعر :

قال البقية يا قيسا فقلت له اصبر حذيف فأنت السيد الصمد

أي : بزعمك على وجه التبكيت والتوبيخ ، ولم يرد مدحه .

روي أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما بين جبليها[1] أعز مني ولا أكرم ، وما تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئا .

روي في البرهان عن الحسن بن علي عليه السلام أنه كان على المنبر يقول : ذق أنك أنت ، بفتح الألف ، والمعنى في فتح الألف ، ذق هذا القول الذي قلته في الدنيا ، ومن كسر حكى عن قوله

ثم قال : ﴿ **إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾ أي : تشكون في الدنيا ، أو تتمارون وتتلاحون ، والمراد منه ما ذكر في أول السورة حيث قال : ﴿ **بل هم في شك** ﴾ .

ثم اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في هذه الآيات ذكر بعدها الوعد فقال سبحانه : ﴿ **إن المتقين في مقام أمين** ﴾[2] فعقب الترهيب بالترغيب ، والإنذار بالتبشير ،

---

(١) أي : جبلي مكة ، وهما الأخشبان ، أبو قيس ، وأبو ثور .

(٢) **قال : الحاكم الجشمي في تفسيره** لهذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة : **القراءة :**
قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ في مقام ﴾ بضم الميم ، الباقون بفتحها ، قيل : هما بمعنى واحد ، وهو اسم لموضع الإقامة ، وقيل : الضم هو المصدر ، أي : في إقامة ، وبالفتح موضع الإقامة ، يقال: أقام بالمكان إقامة ومقاما ومقامة.
اللغة : الاتقاء : أصله الاجتناب عن الشيء،والتقي: الخائف يجتنب موضع المخافة ، اتقى اتقاء ، ومنه التقوى وهو في الشرع اسم مدح ، كاسم المؤمن ، والتقي : هو اسم لمن اجتنب ما نهي عنه ، وهو على ضربين اجتناب عن ترك الواجبات ، واجتناب عن فعل القبائح ، يقال: رجل تقي ، ورجل متق . والإستبرق :

الديباج قيل له : الإستبرق لشدة بريقه ، وقيل : اسم معرب ، ولا يقال: إنه فارسي ، لأنه ليس في القرآن غير العربي ، ولأنه ليس في لغة الفرس إستبرق ، والحور : جمع حوراء ، وهو شدة البياض ، ومنه الحواري لشدة بياضه ، وحورته بيضته ، والعيناء : واسعة العين الحسنة ، والوقاية : حفظ الشيء ، وقاه الله وقاية ، والارتقاب : الانتظار

الإعراب

﴿ فضلا ﴾ نصب على المصدر ، أي : فضل الله فضلا ، وقيل : بنزع حرف الصفة ، أي : ذلك الفضل منه وقيل : نصب على الحال

المعنى

ثم عقب الوعيد بذكر ما أعد للمتقين ، فقال : سبحانه ﴿ إن المتقين ﴾ الذين يتقون معاصي الله ﴿ في مقام ﴾ في موضع إقامة ﴿ أمين ﴾ قيل : أمنوا العذاب ، وقيل : أمنوا زوال النعمة ، وقيل : أمنوا كلما يخاف ويخشى خلاف حال الدنيا ﴿ في جنات ﴾ أي : بساتين فيها أشجار ﴿ وعيون ﴾ أنهار جارية ، فيها ﴿ يلبسون من سندس وإستبرق ﴾ قيل : نوعان من الحرير ، وقيل : السندس الحرير ، والإستبرق الديباج الغليظ عن الحسن وقتادة ، وقيل : إنما خاطب العرب بذكره الثياب ، لأنها أعظم عندهم ، واشتهته أنفسهم ﴿ متقابلين ﴾ أي يقابل بعضهم بعضا ، ويقبل بعضهم على بعض ، وهم متقابلون بالمحبة ، لا متدابرين بالبغضة ، وقيل : متقابلين حال الزيادة ، وأن تفاوتوا في الدرجات ، ﴿ كذلك ﴾ قيل : كذلك فعلنا بهم ، وقيل : كما أكرمناهم بالجنان ، أكرمناهم بأن زوجناهم ، وقيل : كذلك على تلك الحالة ، وقيل : كذلك الأمر في فريقين ، وقيل : :ذلك نفعل بكل واحد منهم ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ وهي النساء النقيات البياض ، وقيل : الحور البيضاء ، والعين : واسعة العين ، وقيل : العيناء : الشديدة السواد سواد العين ، الشديدة بياضها عن الحسن ، وقيل : حار فيهن الطرق لبياضهن ، وصفاء لونهن عن قتادة ﴿ يدعون فيها ﴾ في الجنة ﴿ بكل فاكهة ﴾ يشتهون ﴿ آمنين ﴾ من نفادها وعدمها ومضرتها ، وقيل : آمنين من الموت والأوصاب ، ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ قيل : إلا بمعنى سوى ، وقيل : بمعنى لكن ، كأنه قيل : لكن الموتة قد ذاقوها ، وقيل : بعد الموتة الأولى ، وإنما استثنى ، لأنه أخبر بذلك في الدنيا ، فيصح الاستثناء فيها عن القاضي ، ومتى قيل : لم كان هذا نعمة عليهم مع مشاركة غيرهم من الحيوانات ؟ قلنا : لأن فيه بشارة بدوام النعم ، فالحياة هنية في الجنة ، وأهل النار معاينون ، فيزيدهم بذلك غما ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ أي : خلصهم عنها ﴿ فضلا من ربك ﴾ أي : ذلك فضل من الله.

ومتى قيل : إذا كان مستحقا فكيف يكون فضلا ؟ قلنا: سبب للاستحقاق هو التكليف والتمكين ، وهو فضل منه ، وقيل : لأنه خلق وأنعم فاستحق أن يعبد ويشكر ، فإذا جازى على الفعل كان فضلا ، وقيل : لأنه أعطى المستحق ، وزاد أعطى على القليل كثيرا ، وقيل : إن هذه الأفعال لا منفعة فيها للقديم سبحانه ، فإذا أثاب عليها ثوابا مؤبدا كان فضلا ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ الظفر العظيم الشأن ﴿ فإنما يسرناه ﴾ أي :

والمقام بالضم : موضع الإقامة ، والمراد مكانهم الواسع في الجنة ، أي في محل إقامة وثبات ودوام ، وقرئ بفتح الميم ، وهو موضع القيام في الأصل [1]، ثم استعمل عموما لكل مكان ، والأمين : من قولك : أمن الرجل أمانة فهو أمين ، وهو ضد الخائن ، فوصف به المكان استعارة [2]؛ لأن المكان المخيف كأنه يخون صاحبه بما يلقى فيه من المخاوف ، وقيل : أمين بمعنى مأمون فيه الغير والحوادث والانقطاع .

﴿ في جنات ﴾ بساتين ﴿ و عيون ﴾ أنهار جارية ﴿ يلبسون من سندس ﴾ هو ملرق من الحرير والديباج ﴿ و إستبرق ﴾ ما غلظ منه ﴿ متقابلين ﴾ لا ينظر بعضهم إلى أقفاء بعض .

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ تحقيق للكلام وتأكيد له ، أي : الأمر كما وصفنا فتكون الكاف مرفوعة . أو منصوبة والتقدير : آتيناهم مثل ذلك ، ثم قال : ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ قال كثير من المفسرين : المراد وقرناهم بحور ، وليس من عقد التزويج

سهلناه ، يعني : القرآن كناية عن غير مذكور ، وقيل : كناية عن الكتاب ، وقد تقدم ذكره في أول السورة ، ومعنى يسرناه أي : جعلناه بالعربية ليسهل عليك ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي : ليتذكروا ما فيه من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ﴿ فارتقب أنهم مرتقبون ﴾ أي : ارتقب المجازاة فإنهم مرتقبون يعني في حكم المرتقب ، من حيث يأتيه في عاقبة أمره ، فالمحسن يرتقب عاقبة الإحسان ، والمسيء عاقبة الإساءة ، وقيل : أنتظرهم عذاب الله فإنهم ينتظرون بك الدوائر ، وقيل : انتظر النصر ، والقهر ، فإنهم ينتظرون بزعمهم قهرك.

الأحكام

تدل الآية أن غير المتقي لا يكون في الجنة ، ويدل قوله : ﴿ ووقاهم ﴾ أن أصحاب الجنة قط لا يدخلون النار خلاف قول المرجئة ، ويدل قوله : ﴿ فإنما يسرناه ﴾ أنه يقدر على قراءة القرآن ، وتدل على أنه تعالى قادر على أن يجعله بلسان آخر ، دل أنه مقدوره ، ومجعوله خلاف من يقول إنه قديم ، ولأنه عربي والقديم لا يكون عربيا ، ويدل قوله : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أنه أراد من الجميع أن يتذكروا خلاف قول المجبرة ، ويدل قوله : ﴿ فارتقب ﴾ على وعد له ، ووعيد لهم ، وتدل أن التذكير فعلهم .

(١) أي : أنه من الخاص الذي وقع مستعملا في معنى العموم ، وأصله موضع القيام ، ثم عم واستعمل في جميع الأمكنة ، حتى قيل لموضع القعود ، مقام ، وإن لم يقم فيه أصلا ، ويقال : كنا في مقام فلان ، أي بمجلسه

(٢) أي : استعارة مكنية .كما علل المصنف بقوله : لأن المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره .

قال أبو عبيدة : جعلنا ذكور أهل الجنة أزواجا لهن كما يزوج البعل بالبعل ، أي : جعلناهم اثنين اثنين ، ونحوه .

قال الأخفش : وإنما حملهم على ذلك دخول الباء ، قال يونس : العرب لا تقول : تزوج بفلانة ، بمعنى عقد النكاح ، إنما يقولون تزوجها ، وقواه الفارسي ، واحتج له بأن التتريل جاء به ، نحو ﴿ زوجناكها ﴾ ولو كان المراد تزوجت بها لقال : زوجناك بها ، وقال ابن قتيبة ، يقال : زوجته امرأة ، وزوجه بامرأة ، بمعنى عقد النكاح ، وأما الحور : فهو جمع حوراء من الحور ، وهو البياض الخالص ، قال مجاهد : الحور: النساء النقيات البياض ، ومثله عن الفراء ، قال أبو عبيدة : الشديدة بياض بياض العين ، الشديدة سواد سوادها ، والعين : جمع عيناء ، وهي واسعة العينين .

قال في البرهان : وفي قراءة عبد الله (بعيس عين) والعيساء : البيضاء من الإبل ، والعين : عظام الأعين .

ثم ذكر سبحانه من تنعمات أهل الجنة المأكول ، فقال : ﴿ يدعون فيها ﴾ أي : الجنان المذكورة ﴿ بكل فاكهة ﴾ وهي المستلذات ﴿ آمنين ﴾ من كل مخوف وكدر ، من التخم والأمراض . ولما وصف الله تعالى أنواع ما هم فيه من الخيرات أو الزوجات أخبر سبحانه أن جناتهم دائمة فقال :﴿ لا يذوقون فيها الموت ﴾ ذوق الموت مجاز استعير للإحساس به ﴿ إلا الموتة الأولى ﴾ التي ذاقوها في الدنيا .

وفي الاستثناء قولان : أحدهما وهو الظاهر : أنه منقطع كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها ، وهو من باب التعليق بالمحال .

قال في البرهان : وهذا مثل قوله :﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾[1] وإلا في هذا الموضع بمترلة سوى ، كأنه قال : لاتفعلوا سوى ما فعل آباؤكم ، وكذلك قوله :﴿ لا يذوقون فيها الموت ﴾[1] سوى الموتة الأولى ،

---

(١) النساء : ٢٢ .

وكذلك {خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك }[1] لهم من الزيادة لهم على مقادير الدنيا من الخلود . اهـ

وثانيهما : أنه متصل باعتبار مجازي ، ذكره ابن قتيبة ، وهو أن المؤمنين حين يموتون يصيرون الى الروح والريحان ، وأسباب من الجنة ، ويرون منازلهم منها ، فإذا ماتوا في الدنيا فكأنهم ماتوا في الجنة لاتصالهم بأسبابها ، قاله في التجريد .

فإن قيل : أليس أهل النار أيضا لا يموتون ، فلم بشر أهل الجنة بهذا مع أن أهل النار شاركوهم فيه ؟ قيل له : إن البشارة ما وقعت بدوام الحياة ، بل بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات والسعادات ، فظهر الفرق .

ثم قال تعالى : {ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك} عطاء منه وثوابا ، أي : كلما أعطى المتقين من نعيم الجنة ، والنجاة من النار فهو تفضيل الله ؛ لأنه تعالى تفضل بالتكليف وغرضه منهم أن يصيرهم إلى هذه المنزلة إن أطاعوه .

ثم قال تعالى :{ذلك هو الفوز العظيم } أي : ذلك هو العطاء الباهر .

ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال : {فإنما يسرناه بلسانك} أي : سهلناه ، أي : الكتاب المبين المذكور أول السورة ، حيث أنزلناه عربيا بلسانك ، أي : بلغتك {لعلهم يتذكرون} أي : لإرادة أن يفهمه قومك ويتذكروا ، والمعنى : أنه تعالى وصف القرآن في أول هذه السورة بكونه كتابا مبينا ، أي : كثير البيان والفائدة ، فذكر في خاتمتها ما يؤكد ذلك ، فقال : إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك ، أي : إنما أنزلناه عربيا بلغتك ؛ لعلهم يتذكرون .

ثم قال سبحانه : {فارتقب} أي : انتظر ما يحل بهم من العذاب ، ومن نصرتك عليهم {إنهم مرتقبون} ما يحل بك من الدوائر والله أعلم .

---

(١) هود : ١٠٧ ، ١٠٨ .

سورة الزخرف

تسع وثمانون آية ، وثمان وثمانون في الشامي (مكية) إلا قوله :﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك ﴾ عن مقاتل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى :﴿ حم ﴾ قيل : تعديد للحروف ، وقيل : اسم للسورة ، وقيل : اسم من أسماء الله عن ابن عباس ، قالوا : والاحتمال فيه على وجهين ، الأول : أن يكون التقدير : هذه حم والكتاب المبين ، فيكون القسم واقعا على أن هذه السورة هي سورة حم [1]، ويكون قوله :﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ابتداء لكلام آخر .

والثاني : أن يكون التقدير : هذه حم ، ثم قال :﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فيكون المقسم عليه هو قوله :﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ .

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام : حم حرف لم يتعبد الله أحدا بعلمه ، ليس فيه فرض من الله على عباده .

﴿ والكتاب المبين ﴾ فهو كتاب محمد صلى الله عليه وآله ، ومعنى ﴿ المبين ﴾ بَيْنَ الحق ، وبين الباطل. اهـ

والمعنى : أقسم بالكتاب المبين ، أي : البين ، الذي أنزل عليهم ؛ لأنه بلغتهم ، أو الواضح للمتدبرين ، أو الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلال .

---

(١) أي : أنه جواب القسم مقدما على القسم ، ويكون قوله :﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ ابتداء لكلام آخر .

واعلم أن وصفه بكونه مبينا مجاز ؛ لأن المبين هو الله تعالى : وسمي القرآن بذلك توسعا من حيث أنه حصل البيان عنده .

وقوله ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾ جواب القسم ﴿لعلكم تعقلون﴾ لإرادة أن تعقلوا ، أو لئلا تقولوا : هلا فصلت آياته ﴿وإنه﴾ أي القرآن ﴿في أم الكتاب﴾ أم الكتاب : محكمه ، ومعنى ﴿لدينا﴾ أي : عندنا ، وقوله : ﴿لعلي حكيم﴾ أي : لرفيع القدر في الكتب لإعجازه [1]، محكم الأمر ، أو ذو حكمة [2].

---

(١) وقيل : معنى قوله : ﴿لعلي﴾ كونه عاليا عن وجوه الفساد والبطلان ، وقيل : المراد كونه عاليا على جميع الكتب بسبب كونه معجزا باقيا على وجه الدهر .

(٢) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام ما لفظه :

حدثنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله عز وجل : ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا﴾ وأم كل شئ : أصله ، والكتاب : القرآن ، وأمه : هي نسخته التي هي عند الله ، ولدينا : معناه عندنا .

وقوله تعالى : ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾ معناه : نترككم فلا تحاسبون .

وقوله تعالى : ﴿وما كنا له مقرنين﴾ معناه : مطيقون .

وقوله تعالى : ﴿وجعلوا له من عباده جزءا﴾ معناه : نصيب ، ويقال : عدل .

وقوله تعالى : ﴿واصطفاكم بالبنين﴾ معناه : امتن عليكم بهم .

وقوله تعالى : ﴿ظل وجهه مسودا وهو كظيم﴾ معناه : مكروب .

وقوله تعالى : ﴿أو من ينشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : هن النساء ، فرق بين زيهن وزي الرجال ، ونقصهن في الميراث والشهادة ، وأمرهن بالعدة ، وسماهن الخوالف .

وقوله تعالى : ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ معناه : على ملة واستقامة .

وقوله تعالى : ﴿إنني براء مما تعبدون﴾ معناه : بريء ، وهما لغتان .

وقوله تعالى : ﴿إلا الذي فطرني﴾ معناه : خلقني .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : هي قول : لا إله إلا الله .

وقوله تعالى : ﴿ لولا نـزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال : القريتين ـ مكة والطائف ، والرجلان : عمرو بن مسعود الثقفي من الطائف ، ومن مكة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، ويقال : الوليد بن المغيرة المخزومي .

وقوله تعالى : ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ والمعارج : هي الدرج ، ويظهرون : معناه يعلون ويصعدون .

وقوله تعالى : ﴿ وزخرفا ﴾ معناه : ذهب .

وقوله تعالى : ﴿ نقيض له شيطانا ﴾ معناه : نهيئ له ﴿ فهو له قرين ﴾ معناه : صاحب .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ معناه : شرف ، وهو أن يقول الرجل : أنا من العرب ، فيقال : من أي العرب ؟ فيقول : من قريش ، فيكون يملك منها الشرف في الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ معناه : بل أنا خير ، والمهين : الضعيف .

وقوله تعالى : ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ معناه : رفقاء .

وقوله تعالى : ﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ معناه : من مضى وسلف . وقال : جعلناهم سلفا ، معناه : أهواء مختلفة

وقوله تعالى : ﴿ إذا قومك منه يصدون ﴾ وتقرأ يصدون ، فمن قرأ بضم الصاد ، فإنه الإعراض والصدود ، ومن قرأ بكسر الصاد أراد أنهم يصيحون .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ معناه : خروج عيسى بن مريم عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تمترن بها ﴾ معناه : لا تشكن فيها .

وقوله تعالى : ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ معناه : كل الذي تختلفون فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ معناه : تكرمون ، وقال : تسرون بالسماع في الجنة

وقوله تعالى : ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ﴾ فالصحاف : القصاع ، واحدها صحفة ، والأكواب : الأباريق التي لا آذان لها ، واحدها : كوب . وقوله تعالى : ﴿ أم ابرموا أمرا ﴾ معناه : أحكموا .

وقوله تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ معناه : يظنون أنه تخفى علينا أسرارهم فيما بينهم .

وقوله تعالى : ﴿ إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ معناه : الآنفين ، والرادين له .

وقوله تعالى : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ معناه : شهد ألا إله إلا الله ، وهو يعلم أنه ربه .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه :

﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ أم الكتاب : محكمه ، ومعنى ﴿ لدينا ﴾ عندنا ﴿ لعلي حكيم ﴾ أي : لرفيع القدر محكم الأمر . ومعنى ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ أفنضرب المواعظ والتذكير وشفا إلى غيركم على وجه التقرير ، والعرب تقول : صفح عنه ، أي : أعرض عنه و لم يقابله بالعداوة و لم يقصده ، ومعنى قوله : ﴿ أشد منهم بطشا ﴾ أي : حركة وفعلا ، قال الشاعر : ونبطش حين نبطش قادرينا

ومعنى ﴿ ومثل الأولين ﴾ أي : قد خلا ما وصفنا لهم ومضى في أول كلامنا الذي أوحينا إليك.

ومعنى ﴿ من السماء ماء بقدر ﴾ أي : مقدار الكفاية ، ومعنى ﴿ ويقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ أي : وما كنا له مطيقين ، ولا مماثلين في القوة ، والعرب تقول : إنك لا تقرن بفلان ، أي : لا يماثله ، ولا يكون له قرنا ، وهو مأخوذ من قرن الشيء إلى الشيء لا ينبغي أن يقرن ويجمع إلى غير شكله ، قال الشاعر :

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

يريد : أنه إذا قرن إليهن لم يقدر ؛ لأنه ليس من شكلهن ، وإنما أراد الله عز وجل من العباد أن يشكروه على تسخيره ، وتسهيله للفلك والأنعام حتى يركبوها ، وليسوا في القوة مثلها ، ولا هم في الشدة أقرانها ولا شكلها ، ومعنى ﴿ وهو كظيم ﴾ أي : لازم لسانه مغموم ، قال الله عز وجل : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ أي : اللازمين ، قال الشاعر:

ويقول مالك لا تقول مقالتي ولسان ذا طلق وذا مكظوم

﴿ أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ يريد : كيف يكون مثل الملائكة ، وهذا توقيف واختصار ، والذي ينشأ في الحلية يعني الإناث اللواتي ينشأن ويتهيأن ويكبرن في الزينة ، وهن في الخصام غير مبينات لعينهن وضعفهن ، فكيف تكون الملائكة الذين اصطفاهم الله واختارهم ؟! هذا من غيكم أيها الجاهلون وكذبكم ، وفاحش جهلكم وضلالكم ، ومعنى قوله : ﴿ ءأشهدوا خلقهم ﴾ يقول : هل شهدتم وحضرتم عند خلقنا لهم أيها الكاذبون .

ومعنى ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ يريد : على دين وملة ، قال الشاعر:

حلفت فلم أترك لنفسي ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

وقال آخر :

ءأدخل نحو أمتكم بزور وأترك أمتي حاشا مليكي

والأمة على وجوه أخر سنذكرها إنشاء الله تعالى ، ومعنى قولهم : إنهم مهتدون ، أي : تابعون ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي : انتصرنا منهم ، وجازيناهم على فعلهم قال الشاعر : (بمثلها تنتقم الحقوق) ،

أي : يقتضى وينتصر .

ومعنى ﴿إنني براء مما تعبدون﴾ أي : متبرئ مقاطع لما تعبدون ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ يعني : البراءة من عبادة الأصنام ، باقية في ذريته ونسله إلى يوم القيامة ، أي : لا يزال في نسله وذريته وعقبه من يوحد الرحمن ، ويهجر الأوثان و﴿لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ روي أنهم قالوا : لو أنه أنزل على الوليد بن المغيرة بمكة ، أو ابن مسعود الثقفي بالطائف ، وقيل : قائله الوليد بنفسه لعنه الله ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ تبكيت لهم أنهم مماليك لا حيلة لهم .

ومعنى ﴿ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ والتسخير : هو التسهيل ، والمعونة بالتيسير بذلك ، ولولا ذلك لما انتفع بعضهم ببعض . ومعنى ﴿ومعارج عليها يظهرون﴾ المعارج : هي الدرج والمطالع ، ومعنى ﴿يظهرون﴾ أي : يطلعون ويعلون .

قال سيدنا ومولانا عز وجل : ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ أي : تطلع وتعلو إلى السماء وتظهر ﴿وزخرفا﴾ أي : زينة ، قال الشاعر : رسومه والمذهب المزخرفا.

﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾ أي : وكل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ، و(لمّا) هاهنا صلة للكلام ، قال الله عز وجل : ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ والمعنى جند هنالك ، قال الشاعر :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

والمعنى : قالت ألا ليت هذا الحمام لنا ، فأدخل ما تزيين للكلام ، وصلة للنظام .

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾ العشي : ظلمة البصر ، قال الشاعر :

نظرة بعين لم تخنها غشاوة ولا رمد والطرف غير كليل

أي : لم تخنها ظلمة ولا ضعف .

ومعنى ﴿نقيض له شيطانا﴾ أي : نخلي بينه وبين شيطان من الشياطين ، قال الشاعر :

وألفينا مزاحمكم هوانا وقيضنا له عمرا قريبا

وقال آخر : (وقيض الله لي عذاقرة) أي : ترك لي رحله ﴿فإما نذهبن بك﴾ أي : فإن نذهبن بك ، و(ما) صلة وزينة وحلية للكلام ، قال الهادي إلى الحق صلى الله عليه :

إمـا يؤخــر في المنيــة فينبــة إن المنيــة قــد تغــول وتصــرع

يريد عليه‌السلام : إن يؤخر في المنية ، فأدخل ما تزيينا للكلام ، ومعنى ﴿ فاستمسك بالذي أوحينا إليك ﴾ أي : التزم به .

ومعنى ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ أي قيل : إنه شرف لك ولقومك يذكرون به ، ويحمدون من أجله ، ويحتمل أن يكون لتذكير وموعظة لك ولقومك ، أي : عشيرتك وأقاربك .

ومعنى ﴿ إلى فرعون وملائه ﴾ أي : قومه ، ومعنى ﴿ بما عهد عندك ﴾ أي : بما أوصى إليك ، قال مولانا عز وجل : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ﴾ يريد : ألم أوص إليكم ، والعهد على وجوه أخر سنذكرها ، ومعنى ﴿ الذي هو مهين ﴾ أي : ليس له همة في الملك ، وكان يُحْسَبُ زهده في الدنيا عجزا ووهنا ، جهلا من عدو الله وظلما ﴿ فلولا ألقي عليه أساور من ذهب ﴾ وحلية من التبر تكون في الأيدي للنساء والملوك ، والله أعلم .

ومعنى ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي : مجتمعين ، ومعنى ﴿ فلما آسفونا ﴾ أي : أغضبونا ، ومعنى غضب الله : فهو سخطه ، ومعنى أسخطونا : أي : أغضبونا ، وأسف الله غضبه وعقابه ، وأسف المخلوق عرض حادث في قلوب المحدثين .

﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ أي : سالفين ، ومعنى سالفين أي : ماضين ، قال مولانا عز وجل ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ أي : عما مضى وتقدم وخلا ، قال الإمام عليه‌السلام : (أخذوا بمنهاجي على نهج السلف) .

أي : من مضى من آبائه صلوات الله عليهم أجمعين ، ومعنى قوله : ﴿ ومثلا للآخرين ﴾ أي : مثلا من الأمثال ، وخبرا ومعتبرا وتذكرة لمن تذكر .

ومعنى ﴿ ولما ضرب بن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ أي : لما ضربه النبي مثلا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام ، وقال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : لولا أن يقول الناس فيك يا علي ما قيل في عيسى بن مريم لتكلمت فيك بكلام لا تمر بملأ من الناس إلا أخذوا من تراب قدميك ، فغضب المشركون من ذلك حسدا لأمير المؤمنين ، فرد الله عليهم وأكذبهم في قولهم ، وقال : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ﴾ فكيف لا يضرب به المثل لرجل من إخوانه الوصيين ، وخلفاء الله بعد النبيئين .

ومعنى قوله : ﴿ مثلا لبني إسرائيل ﴾ أي : مثلا لبني آدم يهتدي به بنو إسرائيل ، ولكنه اختصر ؛ لأن الله خلق آدم صلوات الله عليه من غير ذكر ، وكذلك عيسى عليه‌السلام ، وفي ذلك ما يقول مولانا عز وجل : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ .

ومعنى قوله : ﴿ آلهتنا خير أم هو ﴾ هذا الكلام فيما روي راجع إلى عيسى عليه السلام ، وروي في ذلك أنهم خاصموا رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا : أتنهانا يا محمد عن عبادة الأصنام ، وقد عبدت النصارى عيسى ، وأنت تزعم أنا وآلهتنا في النار ، فتقول : إن عيسى ومن عبده في النار ، فرد الله عليهم ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ يريد عز وجل : أنهم لا يستفهمون عن التمييز بين عيسى وآلهتهم إلا جدلا وخصاما بغير يقين ولا حق ، وإنما وعدهم الله بالنار هم ومن عبدوهم وأطاعوا من الشياطين ، ولم يرد عيسى ولا غيره من النبيئين .

ويحتمل التفسير ــ والله أعلم ــ أن يكونوا أرادوا علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقالوا فيما بينهم : آلهتنا خير أم علي بن أبي طالب ؟ بل آلهتنا خير من علي ومن طاعته ، وهذا أحسن المعنيين عندي ــ والله أعلم وأحكم .

ثم قال عز وجل بعد ذكره لعيسى عليه السلام : ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا يمترن بها ﴾ يريد فيما روي أن ظهور مولانا عيسى عليه السلام علم ودليل على الساعة إذا ظهر مع المهدي عليه السلام في آخر الزمان . والله أعلم وأحكم ، ويمكن في قدرة الله ما هو أكثر ، من ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويحتمل الكلام وجها آخر : وهو أن عيسى عليه السلام علم يدل على الساعة أنها حق يقين ، وأنها على الحقيقة حق مبين .

ومعنى ﴿ فلا يصدنكم الشيطان ﴾ أي : لا يصرفنكم ، ولا يعدلنكم عن الحق ، وهذا على وجه التحذير .

ومعنى ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي : الجمائع واحدهم حزب ، قال الشاعر :

نعود بدينار ولا نشتري القنا ... إذا أحزبتنا من عدانا النذائر

أي : جمعتنا النذر من خوف العدو . ومعنى ﴿ من بين أيديهم ﴾ أي : في ذات بينهم ، ومعنى ﴿ أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ أي : تسرون ، قال الشاعر :

ومحبور برؤيتنا يرجي ... لقاي فلا أراه ولا يراني

أي : مسرور . ومعنى ﴿ الجنة التي أورثتموها ﴾ أي : سكنتموها وتركتم فيها وملكتموها ، وقيل : أورثوها: أصابوا منازل الكافرين فيها مع منازلهم ، والجميع جائز .

ومعنى ﴿ لا يفتر عنهم ﴾ أي : لا ينقص عليهم ولا يسهل ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ يريد : أنهم يائسون ، أي : لا يرجون ، قال سيد العابدين عليه السلام :

أحاطت به آفاته وهمومه ... وأبلس لما أعجزته المعاذر

ومعنى ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ هو : سيدنا الملك الذي وكله الله بعذاب أهل النار ، وقمع رؤوس الظلمة الأشرار ، ومعنى قولهم : ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ يريدون : يا مالك ادع لنا

ثم قال تعالى[1] : ﴿أ فنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين﴾ هذا استفهام على سبيل الإنكار ، يعني : أنا لا نترك هذا الإعذار بسبب كونكم مسرفين

ربك يقض علينا بالموت حتى نتخلص من العذاب ، فقال مولانا مالك ــ صلوات الله على روحه وأرواح أخوته المقربين ــ : ﴿إنكم ماكثون﴾ أي : مقيمون .

ومعنى ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون﴾ والإبرام : هو الإحكام ، والعرب تقول : أبرمنا الرأي وأحكمناه وأتقناه ، والمعنى في ذلك واحد .

ومعنى قوله : ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أي : فأنا أول الآنفين الغاضبين ، قال الشاعر :

وأعبد أن تهجى كليبا بدارم

يريد : أغضب وآنف . ومعنى ﴿رب العرش﴾ أي : سيد الملك والخلق ، والعرش : على وجوه قد ذكرناها في كتاب الصفات . ومعنى ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي : خلهم ودعهم يلعبون ، ويهذروا ويمتروا على وجه الوعيد لهم والتهدد .

ومعنى ﴿تبارك﴾ أي : تعالى وعظم ، قال الشاعر : تبارك رب علا فاقتدر

أي : علا . ومعنى الشفاعة : هي الطلبة والسؤال .

﴿وقيله يا رب﴾ أي : قوله : ﴿يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا قول النبي صلى الله عليه وآله . قال الله عز وجل : ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ وعيد وتهديد بالجزاء .

(١) **قال الحاكم الجشمي في تفسيره** لأوائل هذه السورة إلى قوله تعالى : ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون﴾ :

سورة الزخرف سبع وثمانون آية ، قال القاضي ، وهي مكية فيما روي عن الحسن وغيره ، وروى أبي بن كعب عن النبي أنه قال :من قرأ سورة حم الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة : يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ادخلوا الجنة بغير حساب﴾ .

ولما ختم سورة ﴿حم عسق﴾ بذكر القرآن والوحي افتتح هذه السورة بذلك أيضا: .

بسم الله الرحمن الرحيم حم والكتاب المبين ...

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي ﴿إن كنتم﴾ بكسر الألف على الاستقبال ، تقديره إن كنتم قوما مسرفين لانصرف عنكم الذكر صفحا، وقيل: إن بمعنى إذ كقوله ﴿وذروا ما بقي من الربا أن كنتم مؤمنين﴾

وقرأ الباقون بفتح الألف على التعليل ، أو لأن كنتم مسرفين ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿مهدا﴾ بغير ألف ، وفتح الميم . الباقون بالألف ، وكسر الميم ، وهما لغتان يقال للأرض : مهد ومهاد أي : بساط ، يقال: مهدت لنفسي ، ومهدت بالتشديد والتخفيف ، جعلت مكانا وطيئا سهلا.

اللغة

البيان : هو الدلالة يظهر بها المعنى للنفس ، وأصله من القطع ، يقال: بان ـ فارَق ، وأبان فصل بين الشيء وغيره ، وبان لك الشيء ، وأبان ، واستبان ، وبين ، وتبين ، بمعنى . واختلفوا في البيان ، قيل: هو الدلالة التي بها بين الحق عن أبي علي ، وأبي هاشم ، وقيل: هو العلم الحادث عن أبي عبد الله ، والأول الوجه ، وقيل: هو ما يخرج الشيء عن حد الإشكال إلى حد التجلي.

والصفح : الإعراض ، صفحت عنه أعرضت ، والأصل فيه أن من أعرض عن صاحبه ، ولاّه صفحة عنقه ، وصرف عنه وجهه ، يقال : صفح عني بوجهه ، وبالصفوح ـ من أسماء الله تعالى ـ : العفو عن الذنب ، كأنه أعرض عن مجازاته تفضلا ، والصفوح ـ من نعت النساء ـ : التي تريك إحدى جانبي وجهها صدا وإعراضا ، والإسراف مجاوزة الحد في العصيان ، والسرف : ضد القصد ، والبطش : الأخذ بشدة.

الإعراب

والكتاب : أي : ورب الكتاب ، فكسر لأجل الإضافة ، وقيل: للقسم ، والواو فيه واو القسم.

كم : كلمة تكثير ، وصفحا: مصدر أقيم مقام الفاعل ، ونصب على الحال تقديره : أفنضرب عنكم بذكر آبائكم صافحين . (جعلناه) الكناية ترجع إلى الكتاب ، ومحله نصب بجعلنا، وكذلك ﴿قرآنا عربيا﴾ عن الأخفش ، وقيل: بل هو كلام مبتدأ والجواب مضمر.

المعنى ﴿حم﴾ قيل: قسم أقسم الله بالقرآن ،وقيل: اسم للسورة عن الحسن وأبي علي ، وقيل: إشارة إلى أنه مؤلف من هذه الحروف ، فيكون محدثا عن أبي بكر الزبيري ، وقيل: الحاء من حكيم ، والميم من ملك ﴿والكتاب﴾ يعني القرآن ، سمي به ، لأنه يكتب ﴿المبين﴾ قيل: مبين الحق من الباطل ، أي : فاصل بينهما مظهر ، وقيل : مابان خيره وبركته ، أي : ظهر ، وقيل: أبان طريق الهدى والضلالة ، وأبان كلما يحتاج إليه من أمور الدين ﴿إنا جعلناه ﴾ أي : أحدثنا ، وأنـزلناه قرآنا عربيا ، أي : بلغة العرب ، وقيل : سميناه ووصفناه بأنه عربي ، والأول الوجه ، لأنه حقيقة ، وهذا توسع ومجاز ، ولأنه لو لم يسمه عربيا ، لما خرج من كونه عربيا ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي : لتعلموا ذلك ، وقيل: يتلوه النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجاء استماع وقبول منكم عن أبي مسلم ﴿وإنه﴾ يعني القرآن ﴿في أم الكتاب﴾ في اللوح المحفوظ ، وإنما سمي أما لأن سائر الكتب تنسخ منه ، وقيل: لأنه أصل الكتاب وجملته عن قتادة ، وقيل: أم الكتاب : الآيات المحكمة ، والمراد نفس الكتاب ، إنه محكم منـزل بالحكمة عن أبي مسلم ، وقيل: الكتاب الإيجاب ، يعني حين أوجب إنزال الكتب

على الأنبياء أوجب أن يكون هذا الكتاب عليا عن أبي مسلم ﴿لدينا﴾ عندنا ، يحتمل أن يريد اللوح المحفوظ ، ويحتمل القرآن للتشريف ، والتخصيص ﴿لعلي﴾ يعني القرآن علا ، قيل: يعلو كل كتاب بما خصه من كونه معجزا ، أو آخر الكتب ووجوب إدامة العمل به ،وما فيه من أنواع الفوائد ، وقيل: علي ، أي : عظيم الشأن رفيع الدرجة ، تعظمه الملائكة والمؤمنون ﴿حكيم﴾ دلالة على كل حق وصواب ، فهو بمنزلة الحكيم ، الذي لا ينطق إلا بالحق والصفتان توسع ، لأن حقيقة العلي القاهر الغالب ، وحقيقة الحكيم العالم ، وكلاهما من صفة الحي ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾ اختلفوا في معناه ، قيل: معناه العرض عنكم ، ولا يدعوكم إسرافكم ، وترككم القبول ، فلفظه للاستفهام ، والمراد به الخبر ، أي : لم يكن إسرافكم موجبا أن نضرب عن تذكيركم صفحا، ولا ننزل القرآن ونترككم من أجل كفركم بل لرحمته يتابع الحجج ، فيتابع البيان ، ولا يخليهم عن الإنذار حجة عليهم عن قتادة وابن زيد ، وأبي مسلم ، وقيل: هو وعيد ، يعني إسرافكم لا يمنع من مؤاخذتكم إذا أعرضتم عن الذكر الذي هو القرآن ، تقديره : أنعرض عنكم ، ونترككم فلا نعاقبكم ، فالألف استفهام ، والمراد الإنكار عن مجاهد ، والسدي ، قال ابن عباس : معناه أفحسبتم أن نصفح عنكم ، و لم تفعلوا ما أمرتم ، وقيل: أنترككم ما نأمركم ولا ننهاكم عن الكلبي ، وقيل: أنطوي عنكم الذكر طيا ، فلا تدعون ، ولا توعظون ، عن الكسائي ، وهذا من فصيح الكلام و لم يفصلوا ، قال شيخنا أبو علي رحمه الله : هذا الكلام يحتمل معنيين الأول : الرحمة ، يعني لا نترككم وسوء اختياركم ، ولا نقابل الإعراض إعراضا ، بل نذكركم ونعظكم ، وندعوكم ، ولا ننظر إلى إسرافكم ، لكن رحمة منا فعلنا ذلك.

والثاني : المبالغة في التغليظ ، يعني : أتظنون وان كنتم سادة ورؤساء أنكم تتركون وما تفعلون ، كلا بل يلزمكم العمل ، وندعوكم إلى الذين ، ونؤاخذكم متى أخللتم بالواجب ، وأقدمتم على القبيح ﴿إن كنتم قوما مسرفين﴾ قيل: مجاوزين الحد في المعصية ، وقيل: مشركين ، والأول الوجه لعموم اللفظ ، ثم أكد الوعيد فقال سبحانه ﴿وكم أرسلنا من نبيئ في الأولين﴾ يعني الأمم الماضية ، ﴿وما يأتيهم من نبيء إلا كانوا به﴾ برسولهم ﴿يستهزئون﴾ استهزاء قومك بك ، وقيل: لما استهزأوا أخذوا بعذاب الاستئصال ، كذلك أنتم تؤخذون إن فعلتم مثل ذلك ، وقيل: مع استهزائهم لم يضرب عنهم صفحا ، بل كررنا الوعظ ، وأعدنا الرسل ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشا﴾ قيل: أشد قوة من قومك عن الحسن ، يعني أهلكنا من أولئك الأمم بأنواع العذاب من كان أشد من هؤلاء قوة ، ومنعة ﴿ومضى مثل الأولين﴾ قيل: صفتهم ، وقيل: خبرهم ، وقيل: أنفسهم ، وما نالهم من العذاب صار مثلا لمن بعدهم ، وتقدير الكلام ، وهو مثل لهؤلاء الباقين إن لم يؤمنوا ، لكان حالهم كحال من تقدم ﴿ولئن سألتهم﴾ يا محمد ﴿من خلق السموات والأرض﴾ أي : ابتدأها ، وأنشأها ، و الكناية إلى من ترجع ، اختلفوا فيه ، قيل: لئن سألت الأنبياء الماضين أو لقيتهم ، أو سألت من يدين بدينهم ، أو يمسك بطريقتهم ، أو سألت عن كتبهم ، وقيل: لو سألت كفار قريش عن ابن عباس ، لأنهم كانوا يقرون بالله ، وأنه خالق السموات والأرض ، وعبدوا مع ذلك الأوثان متوسطا بينهم وبينه

، أي : أننحي القرآن عنكم جانبا ، أي : في جانب ، من قولهم : نظر إليه بصفح وجهه ، أي : بجانبه ، أي نعرض بالقرآن عنكم ، والفاء للعطف على محذوف ، أي : أهملكم فنضرب عنكم الذكر ، على معنى إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزاله الكتاب ، وجعله قرآنا ليعقلوه ، و﴿صفحا﴾ مصدر من صفح عنه إذا أعرض ، وهو تعليل بمعنى أفنعزل القرآن الذي ألزمناكم به الحجة لأجل الإعراض عنكم ، أو بمعنى الجانب ، كما مر قريبا[1] .

قال في التجريد : وهذا من المجاز ، وأصله أنهم يضربون غرائب الإبل إذا أرادت الورود مع إبلهم على الحوض ، قال الحجاج : لأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، وقال الواحدي وابن الجوزي ، يقال : ضربت عنه وأضربت عنه ، أي : أمسكت عنه وتركته[2] .

، ﴿ليقولن خلقهن العزيز﴾ القادر على كل مقدور ﴿العليم﴾ بكل معلوم ، يعني إذا أقروا بهذا لزمهم ألا يعبدوا سواه ﴿الذي جعل لكم الأرض مهادا﴾ أي : فراشا ، يستقرون عليها ﴿وجعل لكم فيها﴾ في الأرض ﴿سبلا﴾ أي : طرقا ، إلى مقاصدكم ﴿لعلكم تهتدون﴾ قيل: لتهتدوا في أسفاركم إلى مقاصدكم ، وقيل: لتهتدوا إلى الحق في الدين بالاعتبار الذي جعل لكم.

الأحكام يدل قوله ﴿جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ على أشياء منها : أن القرآن محدث ليصح وصفه بالجعل ، ومنها : أن كلامه دليل على مراده ، ولا يحتاج فيه إلى الإمام ، ومنها : أن المعارف مكتسبة ، ومنها : أنه شاء أن يتذكر فيه ، ومنها : أن مراد به أن يفعل ما فيه خلاف قول المجبرة أن مراده من بعضهم أن لا يفعل ويكفر ، ويدل قوله ﴿وإنه في أم الكتاب﴾ أن القرآن مؤلف في اللوح ، وأنه أنزله حالا بعد حال ، على حسب المصلحة ، ويدل قوله ﴿وكم أرسلنا﴾ أن أكثر الأمم سلكوا مع أنبيائهم طريقة الاستهزاء ، والتكذيب ، وفيه تسلية للنبي عليه السلام ، ووعيد للكفار ، ويدل قوله ﴿ولئن سألتهم﴾ أن القوم كانوا مقرين بالخالق ، فعد نعمه وما يدل على توحيده ، حثا على عبادته ، ويدل قوله ﴿لعلكم تهتدون﴾ أنه أراد من الجميع الاهتداء ، وتدل أن الاهتداء فعلهم ، فيصح قولنا في المخلوق والإرادة

(١) فينتصب على الظرفية .

(٢) وكذلك قال الفراء والزجاج مثل قول الواحدي وابن الجوزي . قال في الكشاف : وقال طرفة :

قال الهادي عليه السلام في تفسيره لهذه الآية : هذا على معنى الاحتجاج عليهم ، والتقريع لهم لما هم عليه من إسرافهم ، يقول : أئذا كنتم قوما مسرفين أيجوز لنا أن نضرب عنكم الذكر ، أي : نتركه ونصرفه عنكم ، ولا نقيم به الحجة عليكم ، هذا ما لا يكون من فعلنا ؛ لأن مع إسرافكم نزول النقم عليكم ، والنقم منا فلا تنزل إلا على من ثبتت عليه حجتنا ، فكيف نضرب عنكم الذكر صفحا بإسرافكم ، وقلة قبولكم ، ونحن فلا نتزل النقمة بكم إلا من بعد ثبات الحجة عليكم . اهـ

ومعنى ﴿ مسرفين ﴾ زائدين في الكفر والمعاصي ، قرئ بفتح أن ، أي لأن كنتم ، وبكسرها عن الشرط الذي يقع عن المدل[1] بصحة الأمر المتحقق لثبوته ، كقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفني حقي ، وهو عالم لكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في حقه فعل الشاك في الاستحقاق ، مع وضوحه وفائدته ـ استجهال[2] المخاطب به .

ثم قال تعالى : ﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ أي : في الأمم الماضين ، وكم للتكثير ﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ﴾ هذه حكاية حال ماضية ، أي كانوا على ذلك ، وهي تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم عن استهزاء قومه به ، والمعنى : أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء ، فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء ؛ لأن المصيبة إذا عمت خفت.

ثم قال تعالى : ﴿ فأهلكنا أشد منهم ﴾ أي : من قومك ، فالضمير للمسرفين في قوله : ﴿ إن كنتم قوما مسرفين ﴾ وهم قريش وأضرابهم ، ومعنى قوله : ﴿ بطشا ﴾ أي :

أضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

(١) المدل : أي الواثق .

(٢) استجهال : متعلق بقوله : يخيل

حركة وقوة ، قال الشاعر : ونبطش حين نبطش قادرينا
أو أكثر عددا وجلدا .

ثم قال تعالى : ﴿ و مضى مثل الأولين ﴾ أي : قد خلا وصفنا ، ومضى في أول كلامنا الذي أوحينا إليك ، يريد ذكر قصصهم العجيبة في الإهلاك في غير موضع من القرآن التي حقها أن تسير مسير المثل ، أو مضى شبه ما يترل بهؤلاء ، وهو ما نزل بالأولين ، أو مضى شبه حال الأولين لهؤلاء في التكذيب ، فستقع المشابهة بينهم في الإهلاك والله أعلم

ثم بين تعالى أنهم مقرون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله ، فقال سبحانه : ﴿ و لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ الغالب ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم ، وهو من كلام الله إجراء للصفات الجليلة عن[1] الله تعالى ، لا من كلام قريش وسائر الكفرة ، والمعنى : لينسبن خلقها إلى من هذه أوصافه العزة والعلم وما بعدهما ، والمقصود أن مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره ، وينكرون قدرته على البعث، وقد تم الإخبار عنهم .

ثم إنه تعالى ابتدأ دالا على نفسه بذكر مصنوعاته فقال : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا ﴾ أي : فراشا ﴿ و جعل لكم فيها سبلا ﴾ طرقا ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ لإرادة أن تهتدوا فتبلغوا مقاصدكم ﴿ و الذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾[2] أي : بمقدار الكفاية ، أو بمقدار تسلم معه البلاد والعباد من الغرق ، ولم يكن كطوفان نوح .

---

(١) ويمكن أن يكون اللفظ : إجراء للصفات الجليلة على الله تعالى .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لكفور مبين ﴾ القراءة : قرأ أبو جعفر ﴿ بلدة ميتة ﴾ بالتشديد كل القرآن. قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت ﴾ ﴿ من بلد ميت ﴾ مشددة في آل عمران ، والأنعام والأعراف ،

ويونس والروم ، وفاطر ، وزاد نافع ﴿أومن كان ميتا﴾ و﴿لحم أخيه ميتا﴾ و﴿الميتة أحييناها﴾ فشددها كلها.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ، في رواية أبي بكر ﴿جزءا﴾ بضم الزاي ، مهموزا كل القرآن ، الباقون ساكنة الزاي ، مهموزا كل القرآن ، وكلها لغات صحيحة.

اللغة النشر : ضد الطي ، ومنه نشر الله الموتى ، أي : أحياهم بعد إماتتهم ، كأنه كان مطويا بالموت من النماء والتصرف ، وأقبل واستوى استقر ، واستوى استولى ، وقدر ، والمقرن للشيء المطيق له ، أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق ، وقوي عليه ، ومنه فلان قرن فلان ، إذا كان له من القوة مثل ما له ، وقد قيل: في قوله ﴿الشمس تطلع من قرني الشيطان﴾ أي : تطلع من قوة الشيطان حتى يتحرك ويتسلط ، فنهى عن الصلاة في ذلك الوقت لما يلحقه من الوسوسة والأذى.

الإعراب ظهوره : أضاف الظهور إلى الواحد ، لأنه في معنى الجمع لا الجنس ، والرهط ، ونحوها من أسماء الجنس ، وقيل: أراد الإبل ، إذ لا يقال للسفينة ظهر ، وقيل: الآية كناية عن بعض الأنعام ، لأن كلها لا تركب ، وقيل: تقديره لتستووا على ظهور ما ذكرنا ، وقيل: كناية عن المركوب ، أي : استووا على المركوب ، وقيل: لأنه ذكر الظهور بلفظ الجمع ، فاكتفى به عن جمع الآخر ، ويقال : لم قال : ظهوره ، فذكر ، والأنعام جمع ؟ قلنا: على بعض ما ذكرناه لا سؤال ، وإن حمل على الأنعام فإنه يذكر ويؤنث ، وقيل : رده إلى ما في قوله ﴿ما تركبون﴾ ﴿تذكروا﴾ نصب لأن المعنى لتستووا ثم لتذكروا ، وعلامة النصب ذهاب النون ، ﴿وتقولوا﴾ معناه ولتقولوا سبحان.

المعنى ثم بين أدلة أخرى مؤكدة لما تقدم فقال سبحانه ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ قيل: من جهة السماء ، وإنما هو من السحاب ، وقيل: كل ما علا فهو سماء ، واصله من السمو ، قالوا: أنزل من السحاب فهو من السماء ، وقيل: من السماء نفسه ينزله إلى الغيم ثم إلى الأرض ولا مانع من هذا ، وهو الظاهر ، فلا معنى لقطع الكلام عن حقيقته ﴿ماء﴾ يعني المطر ﴿بقدر﴾ يعني مقدار ما يحتاج إليه حتى لو نقص لأخل ، ولو زاد لأفسد ، فتجري الأنهار على هذا التدبير ، ليعلم أنه من مدبر حكيم ﴿فأنشرنا به﴾ أي : أحيينا بالماء وإخراج النبات ﴿بلدة ميتة﴾ يابسة ، لم يكن عليها النبات ، ثم بين وجه الدلالة على الإعادة فقال ﴿كذلك تخرجون﴾ يعني كما إلا حيا البلدة الميتة بإخراج النبات يحييكم ، ويخرجكم من قبوركم ، لأن كل واحد منهما متعذر إلا على قادر للذات لا يمتنع عليه شيء ، لأن الإعادة إنما تجوز على أفعاله الباقية دون أفعال غيره ، كما أنه يقدر على إخراج النبات ، وهي جواهر وأعراض لا يقدر عليها غيره ﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ يعني أزواج الحيوان ذكرا وأنثى ، وقيل: الأصناف من الحيوانات . وقيل: الأزواج الشتاء والصيف والحر والبرد والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والأرض والجنة والنار ، عن الحسن ، وقيل: أراد الأشياء المتشاكلة ، ﴿وجعل لكم من الفلك﴾ أي : السفن ﴿والأنعام﴾ الإبل ﴿ما

تركبون﴾ فجعل الفلك مركبا في البحر ، والأنعام مركبا في البر ، ثم بين الغـرض فيـه ، فقـال سـبحانه ﴿لتستووا على ظهوره﴾ أي : لتركبوها ، والاستواء إشارة إلى انه خلق ذلك ، وذلك ليستوي الراكب علـى ظهره ، وينتفع بهما في البر والبحر ، ثم تذكروا نعمة ربكم عليكم﴾ في خلقه وغير ذلك ﴿إذا اسـتويتم﴾ استقررتم ﴿وتقولوا﴾ شاكرين لنعمه ﴿سبحان﴾ منزه عن شبه المخلوقين ، وفعله عن كل قبيح ﴿الـذي سخر لنا هذا﴾ أي : ذلل لنا حتى ركبناه مع عظمه وقوته ، ﴿وما كنا له﴾ لولا فضله بتذليله ﴿مقرنـين﴾ أي : مطيقين مقاومين في القوة رابطين له قاهرين ، فالفيل مع قوته مذلل للصبي ، وكذلك البعـير ، والبقـر ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ هذا من تمام التنزيه أي : من عدله وفضله ، إعادة الخلق للجزاء ، فنحن إليه نصـير في المعاد فسخر لنا هذا لمصالحنا ، ومنافعنا ، ثم يعوضه في الآخرة ، ما يوفي على ما يلحقه من التعب في الدنيـا ، وأمرنا بالشكر ، ليستحق الثواب لولا ذلك لما جاز التكليف ، والتسخير لأن جميع ذلك تبـع للتكليـف ، والتكليف إنما حسن ، لأنه تعريض لمنـزلة لا يصح استحقاقها ، إلا بالعمل ، وهو الثواب لمقارنة التعظيم لـه ، ومتى قيل: ليس فيه ذكر للأنعام ؟ قلنا: قوله ﴿لنا﴾ إشارة إلى الراكب والمركوب فلا بدلا من إعادة الكـل ، ثم ذكر كفرهم مع الدلالة الظاهرة ، فقال سبحانه ﴿وجعلوا له من عباده جزأ﴾ قيل: نصيبا ، ،بعضا ، وقيل عدلا عن قتادة ومقاتل ، وقيل: زعموا أن الملائكة بنات الله ، فيكونون بعضه ، كما أن الابن بعـض الأب ، عن الحسن ، وقيل: جزأ من عباده والكل عبيده ، وقيل: الجزء اسم للبنات ، يقال : لفلان جزء من العبـاد أي : بنات ، وأجزأت المرأة ولدت بنات قال الشاعر:

إن أجزأت حرة يومـا فـلا عجـب قد تجـزيء الحـرة المذكـار أحيانـا

يعني إن ولدت أنثى ، وليس هذا بالظاهر ، فلا يحمل عليه ، كلامه تعالى ﴿إن الإنسان لكفـور﴾ أي : جحود لنعمه اعتاد ذلك ﴿مبين﴾ أي : ظاهر الكفران.

الأحكام تدل الآيات أنه تعالى ينبت النبات عند إنزال المطر ، وذلك مما أجرى الله به العادة ، وإلا فهو قـادر على إنباته ، من غير مطر ، وتدل على أنه كما قدر على الإنبات يقدر على إخراج الأموات ، أحياء ، فشبه به هذا ، وقد بينا أن كل واحد منهما مقدور له خاصة ، وقيل: وجه الشبه كما يخرج النبات من الأرض يخـرج الأموات من القبور ، وقيل: كما يخرج الولد بسبب النطفة والنبات لسبب المطر ، كذلك يعيد الخلق ، وتـدل على وجوب شكر المنعم بما هيأ لنا من المراكب في البر والبحر وتسخيرها ، مع عظم قوتها ، ولولا تسخيره لمـا أطقناه ، فيعلم عند ذلك أن مسخرا سخره ، يجب عليه شكره ، وتدل على تعليم كيفية الشكر ، وروي عـن النبي أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنـا لمنقلبون وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا﴾ وقال قتادة في هذه الآية ، كيف تقولون إذا ركبتم في الفلك تقولون : بسـم الله مجراها ومرساها ، فإذا ركبتم الإبل قلتم : سبحان الذي سخر لنا هذا الآية ، وإذا نـزلتم مـن الفلـك والأنعام ، قلتم : اللهم أنـزلنا منـزلا مباركا ، ويدل قوله ﴿لكفور﴾ أن الكفر فعله.

وقوله : ﴿من السماء﴾ ظاهر الآية أن الماء ينزل من السماء ، فهل الأمر كذلك ؟

أو يقال : إنه ينزل من السحاب ، وسمي نازلا من السماء لأن كل ما سماك فهو سماء؟ قلت : وهذا الآخر قول الهادي وغيره من أئمتنا عليهم السلام ، وقد مر كلامه في سورة نوح.

ومعنى ﴿فأنشرنا﴾ أي : أحيينا ﴿به بلدة ميتا﴾ بالجدب ﴿كذلك تخرجون﴾ أي : مثل إحياء البلدة بالنبات نحييكم بعد موتكم ، ونخرجكم من القبور ، يعني أن هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته ، فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ، ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإماتة ، كهذه الأرض التي انتشرت بعد ما كانت ميتة .

وقال بعضهم : بل وجه التشبيه أنه يعيدهم ويخرجهم من الأرض بماء كالمني ، كما تنبت الأرض بماء المطر ، وهذا الوجه ضعيف ؛ لأنه ليس في ظاهر اللفظ إلا بيان الإعادة فقط ، دون هذه الزيادة .

ثم قال تعالى : ﴿و الذي خلق الأزواج كلها﴾ أي : الأصناف كلها مما خلق الله تعالى

ثم قال ﴿و جعل لكم من الفلك﴾ السفن ﴿و الأنعام﴾ الإبل ؛ لأنها سفن البر ﴿ما تركبون لتستووا على ظهوره﴾ أي : ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ، ولذلك ذكر الضمير في ظهوره لرجوعه إلى ما قال .

في البرهان : يقول القائل : كيف أضاف الظهور إلى واحد ؟ قال فيه : يقال : ذلك للواحد في معنى جميع ، مثل جند وجيش ، فتقول : كثرت فينا الجند ، ورفع الجند أعينه ، ولا تقول : عينه ، وكذلك كل ما أضفت من الأسماء الموضوعة ، فأخرجها على الجمع ، فإذا أضفت إليه اسما في معنى فعل جاز جمعه وتوحيده ، مثل قولك : رفع العسكر صوته ، وأصواته ، وجاز هذا لأن الفعل لا صورة له في الاثنين إلا كصورة الواحد . اهـ

وقوله تعالى : ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ المراد بذكر النعمة شكرها

وذكرها بالقلب بالاعتراف بها ، والاستعظام لموليها ، ثم الحمد لله بألسنتهم عليها .

قال في التجريد : وعن الحسين بن علي عليهما السلام أنه رأى رجلا ركب دابة فقال : ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا﴾ فقال : بهذا أمرتم ، فقال الرجل : فبم أمرنا ؟ قال: أن تذكروا نعمة ربكم [١] ، كأنه قد أغفل التحميد فنبهه عليه ، وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله .

ويروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فإذا استوى على الدابة قال : الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا ـ إلى قوله ـ لمنقلبون ، وكبر ثلاثا ، وهلل ثلاثا [٢] .

وقال : إذا ركب السفينة قال : ﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾ [١] .

---

(١) أخرجه الطبري والطبراني في الدعاء من طريق مجلس ، عن الحسين بن علي عليه السلام . وقد رواه الزمخشري ، والرازي عن الحسن بن علي ، قال الرازي : وروى القاضي في تفسيره عن أبي مخلد عن الحسن بن علي عليهما السلام (رأى رجلا ركب دابة ، فقال : سبحان الذي سخر لنا هذا ، فقال له : ما بهذا أمرت ، أمرت أن تقول : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، الحمد لله الذي من علينا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، و الحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، ثم تقول : سبحان الذي سخر لنا هذا) الرازي ١٩٩/٢٧.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم من حديث علي عليه السلام ، وأسنده الثعلبي باللفظ المذكور هنا ، ولمسلم من طريق الأرزي عن ابن عمر عن ابن عمر (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ، ثم قال : سبحان الذي سخر لنا هذا ..) الآية . تخريج الكشاف ٢٣٩/٤.

وقال الواحدي : ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم﴾ بتسخير ذلك المركب في البر والبحر، قال مقاتل : هو أن يقول : الحمد لله الذي رزقني هذا ، وحملني عليه ، ويقول :

سبحان الذي سخر لنا هذا .

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا استوى على بعير خارجا في سفره كبر ثلاثا ، وقال : سبحان الذي سخر لنا هذا [وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا] لمنقلبون ، ثم قال : اللهم إنا نسألك في سفرنا هذه البر والتقوى ، والعمل بما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، اللهم : أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم : إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال . وإذا رجع قال : آيبون تائبون لربنا حامدون) رواه مسلم . اهـ

ثم قال سبحانه :﴿ **و تقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا** ﴾ أي : ذلله ﴿ **و ما كنا له مقرنين** ﴾ .

واعلم أنه تعالى عين ذكرا معينا لركوب السفينة ، وهو قوله : ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ وذكرا آخر لركوب الأنعام وهو قوله :﴿سبحان الذي سخر لنا هذا﴾ وذكر عند دخول المنازل ذكرا آخر ، وهو قوله :﴿رب أنزلني مترلا مبلوكا وأنت خير المترلين﴾ [٢] .

وتحقيق القول فيه : أن الدابة التي يركبها الإنسان لابد وأن تكون أكثر قوة من الإنسان بكثير ، وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان ، ولكنه سبحانه خلق تلك

---

(١) في الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس رفعه (أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك أن يقولوا : بسم الله ، وما قدروا الله حق قدره ـــ الآية بسم الله مجراها ومرساها) ورواه في الدعاء من حديث الحسن بن علي عليهما السلام . تخريج الكشاف ٢٣٩/٤.

٢) المؤمنون : ٢٩ .

البهيمة على وجوه مخصوصة في خلقها الظاهر ، وفي خلقها الباطن ، يحصل منها هذا الانتفاع ، أما خلقها الظاهر فلأنها تمشي على أربع قوائم ، فكان ظاهرها كالموضع الذي يحسن استقرار الإنسان عليه ، وأما خلقها الباطن ؛ فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحيث تصير منقادة للإنسان ، مسخرة له ، فإذا تأمل الإنسان في هذه العجائب ، وغاص بعقله في بحار هذه الأسرار عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة ، والحكمة الغير المتناهية ، فلا بد وأن يقول : ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ أي : وما كنا مطيقين ، ولا مماثلين في القوة ، يقال : أقرن الشيء إذا أطاقه ، والعرب تقول : لا تقرن بفلان ، أي : لا تماثله ، ولا تكون له قرنا ، وهو مأخوذ من قرن الشيء إلى الشيء ، أي : لا ينبغي أن يقرن ويجمع إلى غير شكله ، قال الشاعر :

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل

يريد : أنه إذا قرن بهن لم يقدر ؛ لأنه ليس من شكلهن ، وإنما أراد الله من العباد أن يشكروه على تسخيره وتسهيله للفلك والأنعام حتى يركبوها ، وليسوا في القوة مثلها ، ولا هم في الشدة من أقرانها ولا شكلها ، ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام[1]

وقوله : ﴿و إنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ يريد إلى جزائه راجعون ، وصائرون في الآخرة إليه .

وجه اتصال هذا بما قبله أن الركوب أمر خطير فربما يكون سبب الهلاك في البر والبحر ، فكان حق الراكب المباشر لهذا الخطر ألا ينسى يومه ، وأنه هالك لا محالة ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه ، حتى يكون مستعدا للقاء الله بإصلاح نفسه ، وحذرا من أن يكون ركوبه سبب موته ، واعتصاما من مخاوف الركوب .

ثم اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن

---

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام أول هذه السورة .

الله﴾ بين أنهم مع إقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزأ فقال سبحانه : ﴿و **جعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين**﴾ والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة محصولهم .

وفي هذه الآية يقول الهادي عليه‌السلام : هذا إخبار من الله سبحانه بكفر من جعل لله من عباده شريكا في العبادة ، فيعبد من دونه شيئا من خلقه ، كمن عبد الملائكة من دون الله ، وكذلك كل من أطاع كافرا فيما يأمره به من معاصي الله ، وترك أمر الله فقد عبد من أطاعه ؛ لأن أكبر العبادة هي الطاعة ، ومن أطاع عبدا من عباد الله في معصية الله فقد جعل لله جزأ من عمله ، بل قد أخلص التوبة لغير ربه ، إذ أخلص الطاعة لمن هو مستسلم في يده من أعداء ربه وخالقه . اهـ

ومعنى الجعل هذا : الحكم والتسمية ، وجزأ : أي بعضا منه ، ولدا : وهو قولهم : الملائكة بنات الله ، وقيل : إن الجزء هو النصيب ، والمعنى جعلوا له نصيبا من عباده ، وهو الإناث ، أو نصيبا من الولد وهو الإناث ، وهذا متصل بقوله : ﴿ولئن سألتهم﴾ إلى آخره كما مر ، أي : يعترفون به ، وقد جعلوا له جزأ لأن الولد بعض من والده وجزء له ، ومعنى : ﴿لكفور﴾ أي : جحود للنعمة ، ومعنى ﴿مبين﴾ ظاهر جحوده ؛ لأن نسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصل الجحود لكل نعمة.

ثم قال تعالى : ﴿**أم اتخذ مما يخلق بنات**﴾[1] أم :هي المنقطعة ، بمعنى بل وهمزة الإنكار .

---

(١) قال الحاكم الجشمي في التهذيب في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون﴾ :

القراءة

قرأ حمزة والكسائي ، وحفص عن عاصم ﴿ينشؤ﴾ بضم الياء ، وفتح النون ، وتشديد الشين ، على ما لم يسم فاعله ، أي : يربى ، وقرأ الباقون بفتح الياء ، وسكون النون ، وتخفيف الشين ، أي : ينبت ويكبر ،

وقرأ أبو جعفر ، ونافع وابن كثير ، وابن عامر ويعقوب ﴿عند الرحمن﴾ بالنون ، وهو اختيار أبي حاتم ، قال : لأن هذا مدح لهم ، والخلق كلهم عباده ، ولأنه يوافق قوله ﴿أن الذين عند ربك﴾ .

وقرا أبو عمرو وعاصم ، وحمزة والكسائي ، ﴿عباد الرحمن﴾ بالباء والألف جمع عبد ، وقيل: جمع عابد كقائم وقيام ، وصائم وصيام ، ونائم ونيام ، عن أبي مسلم ، وجوز وجه الأول أيضا ، وهي قراءة ابن عباس ، واختيار أبي عبيد ، لأنه تعالى رد عليهم قولهم : بنات الله ، وأخبر أنهم عبيده ، قال سعيد بن جبير : قلت لأبن عباس : إن في مصحف عند الرحمن ، قال : امحها ، واكتبها عباد الرحمن ، ويؤيد هذه القراءة قوله ﴿بل عباد مكرمون﴾ قرأ أبو جعفر ونافع ﴿أءشهدوا﴾ بهمزة ممدودة ، والشين ساكنة ، وروي عن نافع غير ممدود على ما لم يسم فاعله ، أي : احضروا خلقهم حين خلقوا من أشهدت.

وقرأ الباقون ﴿أشهدوا﴾ بفتح الألف والشين من شهدت ، يعني أحضروا، وأضاف الفعل إليهم.

اللغة : الكظم : إمساك على غيظ ، يقال: كظيم ومكظوم ، أي : مملوء غيظا ، وكربا ، وأصل النشؤ للإحداث ، الواحد ناشيء ، ومنه نشأ الله الخلق ، أي : ابتدأهم ، ومنه أنشأ الشاعر ، وينشأ في الحلية يربى ويرشح ، وأصله من نشأ إذا ارتفع.

والخصام يكون جمعا ، ويكون مصدرا ، وأصله من الخصومة ، ويقال: للواحد وللاثنين وللجماعة ، والذكر والأنثى خصم ،ونظيره عدل . والخصم مبالغة فيه ، كالخطيب ، ونحوه ، والخرص : الكذب ، خرص واخترص ، وتخرص ، إذا افترى الكذب ،ومنه الخراصون ، الكذابون ،وكل من قال بالظن فهو خارص ، والاستمساك بالشي ، التمسك به ، يقال: تمسك بالشيء ، وأمسك ،وامتسك واستمسك ، قال زهير : ﴿بأي خيل جوار كنت أمتسك﴾

الإعراب

قوله ﴿أو من ينشؤ﴾ قيل: في محل من ثلاثة أوجه ، أولها رفع على الابتداء ، كأنه قيل: من ينشأ فأولئك ولده على ما قالوا ، الثاني : النصب على الإضمار تقديره أومن ينشؤ يجعلونه ربا ، الثالث : الكسر على قوله ﴿مما يخلق﴾ وقوله ﴿بما ضرب﴾ .

المعنى

ثم زاد في توبيخهم ، بسوء اعتقادهم ، فقال سبحانه ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾ أي : كيف خصكم بالبنين ، واتخذ لنفسه البنات ، وليس بحكيم من اختار لنفسه الأدون ، ولغيره الأعلى ، فلو جاز عليه الولد لما اختار البنات على ما تزعمونه ، فقد غلطوا من وجهين : أحدهما : جواز اتخاذ الولد في الأصل ، الثاني : اتخاذ البنات مع أنهم يكرهون ذلك لأنفسهم ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا﴾ يعني البنات التي أضافوها ، إليه ﴿ظل وجهه مسودا﴾ في ذلك مبالغة في الكراهة ، وهذا توسع ، والمراد به يسوء ما

يسمع حتى تتغير بشرته ولونه ، بخلاف ما يسر ، فيتهلل وجهه ﴿وهو كظيم﴾ مملوء كربا وغيظا ، ثم بين قصور حال النساء فقال سبحانه ﴿أومن ينشأ في الحلية﴾ في زينة النساء ﴿وهو في الخصام﴾ في المنازعات والخصومات في أمور الدين والدنيا ﴿غير مبين﴾ أي : لا يبين ولا يظهر الحجة لضعفهن ، وذكر أنسه في مصحف ابن مسعود ، ﴿وفي الكلام غير مبين﴾ ويحمل على أنه فسر به.

واختلفوا في المراد به ، فقيل: أراد به النساء عن قتادة ، وأبي مسلم ،وأبي علي ، وقيل: أراد الأوثان كانوا يعبدونها ، وهي لا تتكلم ،وقيل: تماثيلهم المضروبة من ذهب وفضة عن ابن زيد ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾ أي : الملائكة بنات الله ﴿أشهدوا خلقهم﴾ أي : أحضروا خلق الملائكة حتى شهدوا أنهم بنات ، وقيل: شهدوا صورهم ، وخلقهم فعلموا أنهم إناث عن أبي مسلم ﴿ستكتب شهادتهم﴾ فيما زعموا ﴿ويسألون﴾ عنها يوم القيامة ، وهو سؤال توبيخ ، وقيل: تعجيز عن إيراد حجة على ما فعلوه ، وكما بين تعالى خطأهم في التوحيد ، بين خطأهم في العدل ، فقال سبحانه ﴿وقالوا﴾ يعني الكفار ﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ أي : لو شاء أن لا نعبدهم ما عبدناهم بمشيئته ، واختلفوا فقيل: عبدناهم يعني الملائكة عن قتادة ومقاتل ، والكلبي ، وأبي مسلم ، وقيل: الأوثان عن مجاهد ﴿مالهم بذلك من علم﴾ أي : لم تقولوا ذلك عن حجة وعلم ، أشار أن ذلك باطل لما لم يقدر على دليل وعلم ، ثم كذبهم في ذلك ، فقال : إن هم إلا يخرصون ، أي : يكذبون ، ثم أكد ذلك فقال سبحانه ﴿أم آتيناهم كتابا من قبله﴾ أي : من قبل القرآن ﴿فهم به مستمسكون﴾ وهذا استفهام والمراد الإنكار ، أي : ما أنزلنا كتابا ، وآتينا أعطيناهم كتابا يتمسكون به ، ويرجعون فيما يدينون به إليه ، وقيل: هذا يتصل بقوله ﴿أشهدوا خلقهم﴾ يعني قولهم : الملائكة إناثا ، غلط منهم ، لأنهم لم يشهدوا خلقهم ، ولا نص في كتاب ولا دليل في العقل ، وقيل: بل يتصل بقوله ﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ يعني إضافة الكفر إلى مشيئة الله لا حجة عليه عقلا ولا نص عليه في كتاب ، وإنما هو كذب اخترصوه.

الأحكام تدل الآيات على أنهم أخطأوا في الدين من وجوه:

منها: إضافة الولد إلى الله ، وذلك لا يجوز لأنه من صفة الأجسام ، ومنها: أنهم أضافوا البنات إليه ، وإنما اختار لنفسه الأدون ، وهذا ينافي الحكمة، ومنها: أنهم أضافوا إلى ربهم ما لو أضيف إليهم لكرهوه ، فتدل على أنه لا يجوز إضافة القبائح إلى خلقه وإرادته ، ومنها أن الخصام في الدين ، وبيانه مدح ، فإذا لم تكن هذه صفة البنات كيف أضافوها إليه ، ومنها: أنهم جعلوا الملائكة إناثا ، ومنها: أنهم زعموا جميع ذلك بلا حجة ومشاهدة ، أو خبر أود ليل ، ومنها: أنهم أضافوا الكفر إلى

مشيئته ،ومنها: أنهم قالوا ذلك بغير علم وحجة ، وكل قول هذا سبيله فهو باطل ، ومنها : إقدامهم على الكذب في الدين ، فكان شيخنا أبو حامد رحمه الله يقول: إنما أنكر الله تعالى عليهم ، وكفرهم لأنهم أنكروا

قال الهادي عليه‌السلام : هذا تقريع من الله تبارك وتعالى للمشركين في قولهم ، وإثبات الحجة عليهم ، إذ زعموا أن الملائكة بنات الله ، وأن الملائكة إناث ، فأنزل الله [تبارك وتعالى] ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات﴾ .

﴿وَأَصْفَاكُمْ﴾[1] أي : أكرمكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾ فأعطاكم الصفوة ، وهي الخيار من الشيء ، يقال : أصفيت فلانا بكذا ، أي : آثرته إيثارا حصل له على سبيل الصفاء ، من غير أن يكون له فيه مشاركة ، فهذا كله إنكار عليهم ، وتجهيل لهم ، وتعجب

من اختيارهم له جزأ ، ثم شر الجزأين وهو الإناث اللاتي هم أنفر الخلق منهن ، ولذلك وأدوهن ، وهو معنى قوله : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا﴾ أي : بشر بالجنس الذي جعله له مثلا ، أي شبها ؛ لأن الولد مماثل للوالد ، ومشابه له ، وهم الملائكة بزعمهم أنهم بناته ، فإذا قيل لأحدهم : ولدت لك بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ مغتما من الغيظ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي : مكظوم ، أي مملوء غيظا ، وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت :

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا ... ليس لنا من أمرنا ما شئنا

وإنما نأخذ ما أعطينا

التوحيد ، والعدل ففارقوا التوحيد بإضافة الولد إليه ، وفارقوا العدل بإضافتهم الكفر إلى مشيئته ، وقيل: إن قوله ﴿أومن ينشؤ في الحلية﴾ يدل على جواز التحلي للنساء بالذهب وغيره عن أبي العالية وقتادة.

(١) في مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥١ ، بعد قوله ﴿وأصفاكم بالبنين﴾ :﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم﴾ يريد سبحانه أن قولهم فيما زعموا من أن الملائكة إناث ، وأنهم لله بنات ، فقال : كيف يصفيكم أنتم بالبنين ، ويتخذ هو البنات لنفسه ، فلو كان كما تقولون إذاً لم يتخذ إلا البنين ، إذ البنون أفضل من البنات ، فكيف تنسبون إلى الله ما تكرهون ، وتجعلون له ما منه تنتفون من البنات اللواتي إذا بشر بها أحدكم ظل وجهه مسودا ، وهو كظيم مستحى خجلا منهم واغتماما لولادتهن .

وقوله : ﴿ظل﴾ أي : صار ، وكما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة [بمعناها] يريد سبحانه إن كان قولهم فيما زعموا من أن الملائكة إناث ، وأهم لله بنات ، فقال : كيف يصفيكم بالبنين ، ويتخذ هو البنات لنفسه ، فلو كان كما يقولون إذا لم يتخذ إلا البنين ، إذ البنون أفضل من البنات ، فكيف تنسبون إلى الله ما تكرهون ، وتجعلون له ما منه تنتفون ، من البنات اللواتي إذا بشر بها أحدكم ظل وجهه مسودا وهو كظيم : مستحي خجلا منهم واغتماما بولادتهن .

ثم قال سبحانه منكرا عليهم ، ومبينا نقصان البنات ﴿أ ومن ينشأ في الحلية﴾ (والذي ينشأ في الحلية فهن البنات اللاتي تربين في الحلي ، وتزين به ، يعني ، أو يجعل للرحمن من الولد من الصفة صفته ، وهو أنه ليتربى في الزينة والنعمة ، وكذلك فهن اللواتي قال الله :﴿و هو في الخصام غير مبين﴾)[1] إذا احتاج إلى مخاصمة الرجل لا يأتي بدليل بين يحج به خصمه ، معناه : هو في الخصام غير قائم بحجته لضعفهن ، وقلة معرفتهن بما لهن وعليهن ، يقال : قيل ما أرادت امرأة أن تكلم بحجة لها إلا تكلمت بحجة عليها .

المعنى : أو من كان هكذا في الصفة كالبنين الذكور ، وأهل البيان في الخصام ، وأهل الخير والتمام لا يكون ذلك كذلك أبدا ، فأضمر الذكور لعلم المخاطب به ، ذكر معنى هذا الهادي عليه‌السلام[2] .

والمعنى : أن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى عنه علوا كبيرا .

---

(١) ما بين القوسين مثله للهادي . أنظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٥١

(٢) وزاد في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام : (فقال :﴿أو من ينشؤ في الحلية﴾ والذي ينشؤ في الحلية فهن البنات اللواتي يزين به في الحلى ، وتتزين به ، وكذلك فهن اللواتي قال الله :﴿وهو في الخصام غير مبين﴾ يقول في الخصام غير قائم بحجته لضعفهن وقلة معرفتهن بما لهن وعليهن .

ثم قال سبحانه :﴿ و جعلوا ﴾ أي : سموا ﴿ الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا ﴾ معنى ﴿ عند الرحمن ﴾ [1] أي : مكرمون ، وهذا مثل لكرامتهم واختصاصهم بـه ، وعلو مترلتهم لديه ، وأصله أن الذين يكونون عند الملك أقرب من يتصل به .

ثم قال :﴿ أ شهدوا خلقهم ﴾ فأخبروا عن مشاهدة ، وهذا تهكم بهم ؛ لأنهم لم يتطرقوا إليها بعقل ولا نقل ، فلم يبق إلا أن يخبروا عن مشاهدة .

قرأ نافع وحده (ءآشهدوا) همزة ومدة وضمة بعدها خفيفة لينة[2] ، والباقون (أشهدوا) بفتح الألف .

والمعنى : أشهدوا خلقهم فرأوهم إناثا ، أي : أحضروا وأحضروا على القرآتين .

ثم إنه تعالى تهددهم فقال :﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ على الملائكة بأنهم إناث ، وأنهم بنات الله ﴿ و يسألون ﴾ عن ذلك سؤال توبيخ .

قال مقاتل والكلبي : لما قال الله ﴿ أؤشهدوا خلقهم ﴾ سألهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ما يدريكم أنهم بنات الله ؟ فقالوا : سمعنا من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا ، فقال الله تعالى :﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ في الدنيا ﴿ ويسألون ﴾ عنها في الآخرة .

وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر ، وأن التقليد يوجب الذم العظيم ، والعقاب الشديد .

ثم إنه تعالى حكى عنهم نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم ، فقال سبحانه : ﴿ و قالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ هو بنو مليح كانوا يعبدون الملائكة ، زعموا أن عبادتهم إياهم بمشيئة الله ، كما يزعم إخوانهم المجبرة ، ولقد جمعوا خمس

---

(١) هذا على قراءة من قرأ ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثا ﴾ وهي قراءة نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وهو اختيار أبي حاتم .

(٢) وعن نافع أيضا غير ممدود على ما لم يسم فاعله .

كفرات : جعلهم لله ولدا ، وجعلهم له أخس النوعين من الولد وهـن الإناث ، وجعلهم الملائكة الذين هم أفضل عباد الله إناثا فاستخفوا بهم ، وعبادتهم الملائكة ، وزعمهم أن المعاصي يريدها الله كما هو مذهب إخوانهم المجبرة ، وقد رد الله عليهم فقال : ﴿ **ما لهم بذلك من علم** ﴾ كون عبادتهم بمشيئة الله ﴿ **إن هم إلا يخرصون** ﴾ أي : يكذبون ، وهذا رد على المجبرة في قولهم : المعاصي يريدها الله ـــ تعالى الله عما يفترون ـــ علوا كبيرا .

ثم قال : ﴿ **أم آتيناهم كتابا** ﴾ بينا فيه أن الكفر ، وعبادة غير الله بمشيئتنا ، وقوله : ﴿ **من قبله** ﴾ أي : من قبل القرآن ، أو من قبل محمد ﴿ **فهم به مستمسكون** ﴾ أي : فهم بالكتاب الذي زعموا فيه نسبة الولد إلى الله تعالى وعبادة الملائكة ، وأنه تعالى يريد ذلك ، فهم بذلك الكتاب محتجون ، بما فيه من الوحي بلا حجة لهم .

والمعنى : أنهم هم وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل ، قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه ، وأن يتمسكوا به ، والمقصود منه ذكره في معرض الإنكار .

ولما ثبت أنه لم يدل عليه دليل عقلي ، ولا دليل نقلي ، وجب أن يكون القول به باطلا . ثم قال تعالى : ﴿ **بل قالوا** ﴾ لا مستمسك لهم إلا قولهم : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة** ﴾ [1] أي : على دين وطريقة وملة ، قال الشاعر:

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ القراءة : قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ قال أولو جئتكم ﴾ بالألف على الخبر ، وقرأ الباقون ﴿ قل ﴾ على الأمر ، وقرأ أبو جعفر ﴿ ولو جئناكم ﴾ بالنون والألف ، وقرأ الباقون ﴿ جئتكم ﴾ بالتاء بغير ألف ، فالأول حكاية عن الجماعة ، والثاني واحد يعني الرسول قال لهم.

القراءة : قراءة العامة ﴿ أمة ﴾ مضمومة الألف وهي الملة والدين ، وعن مجاهد وعمر بن عبد العزيز إمة بكسر الألف قيل: هي الطريقة التي تقصد من قولهم : أممت ، وقيل: هما لغتان.

اللغة الأمة : الجماعة على طريقة واحدة ، كأنهم أموا جهة واحدة ، وأصله القصد ، والمترف الذي أثر طلب الترفه على طلب الحجة ، والنظر ، وأصل الإرفاه المنعم والدعة.

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يؤتمن ذو أمة وهو طائع

وقال آخر :

أأدخل نحو أمتكم بزور وأترك أمتي حاشا مليكي

والأمة على وجوه أخر[1] .

﴿ و إنا على آثارهم ﴾ أي : سبيلهم الذي سلكوا ﴿ مهتدون ﴾ مقتدون بفعلهم ، والمقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل لهم على صحة ذلك القول البتة ، بين أنه ليس لهم حامل يحملهم عليه إلا التقليد المحض .

المعنى ثم بين تعالى أن مبنى أمرهم على التقليد ، فقال سبحانه ﴿ بل قالوا ﴾ يعني المشركين ، وهو جواب الاستفهام ، وردا لمقالتهم ، يعني لم يشهدوا خلقهم ، ولا رجعوا إلى كتاب بل قالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ قيل: ملة عن ابن عباس ومجاهد ، وقتادة وأبي مسلم ، والسدي ، وقيل: الأمة الجماعة، أي : كانوا مجتمعين موافقين على هذا الذي نحن عليه عن أبي علي ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ فلا نخالفهم ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك ﴾ يا محمد ﴿ في قرية من نذير ﴾ أي : نبي ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ أي : رؤساؤها ومنعموها ، وإنما خصهم بالذكر وإن كانت العامة موافقة لهم ، لأن الخطاب يتوجه إليهم ، ولأن العامة تبع لهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ على طريقة ، وقيل: وجدناهم مجتمعين على هذا ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ نقتدي بهم فلا نخالفهم ﴿ قل ﴾ يا محمد أتتبعون آباءكم وإن ﴿ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ يعني أصوب وأولى لما عليه من الدليل فلا ﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم ﴾ قيل: عذبناهم بكفرهم كالمنتقم ، وقيل: انتقمنا للمؤمنين منهم ، ومن إيذائهم ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾.

الأحكام : تدل الآيات على ذم التقليد وبطلانه ، وأن الواجب إتباع الدليل ، لأن التقليد لا يميز الحق من الباطل ، وتدل على أن الواجب التفكر ليعلم الهدى فيتبعه ، وتدل على صحة الحجاج في الدين ، وتدل على أنه يعذب العصاة ، وأنه كالانتقام منهم ، وتدل على أن التكذيب فعلهم.

(١) قال في الكشاف : ﴿ أنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ على دين ، وقرئ (على إمة) بالكسر وكلتاهما من الأم وهو القصد ، فالأمة : الطريقة التي تؤم ، أي تقصد ، كالرحلة للمرحول إليه ، والأمة : الحالة التي يكون عليها الآم ، وهو القاصد ، وقيل : على نعمة ، وحالة حسنة . الكشاف ٢٤٥/٤.

ثم أخبر أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلا من قديم الدهر فقال : ﴿ و كذلك ﴾ أي : ومثل قولهم هذا الذي واجهوك به قال الذين من قبلهم لرسلهم ثم فسره بقوله : ﴿ ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير ﴾ ينذر أهلها ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ أي : مترفوا القرى من قبلهم ، كما قال هؤلاء ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ أي : على دين وعبادة ، ومترفوها : الذين أترفتهم النعمة ، أي : أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات ، ويعافون مشاق الدين ﴿ و إنا على آثارهم مقتدون ﴾ أي : تابعون .

قال الرازي : لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد ، وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ، ولا بدليل نقلي ، ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين ، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل ، ومما يدل عليه أيضا من حيث العقل ، أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق ، وذلك [لأنه] كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة ، فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة ، فلو كان التقليد طريقا إلى الحق لوجب كون الشئ ونقيضه حقا ، ومعلوم أن ذلك باطل[1] .

ثم قال تعالى لرسوله : ﴿ قال أولو جئتكم بأهدى ﴾ أي : أرشد ﴿ مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ أي : قل أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ، وإن جئتكم بأهدى منه ، فردوا على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث ﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به ﴾ أيها الرسل ﴿ كافرون ﴾ وإن كان أهدى مما كنا عليه ، فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة ، فلهذا قال تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فانظر ﴾ أيها الإنسان ﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ للرسل ،

---

(١) تفسير الرازي ٢٠٦/٢٧ .

والمراد منه تهديد الكفار والله أعلم .

وقال في التجريد : ثم رجع إلى الأمم الخالية ، قال :﴿ فانتقمنا منهم ﴾ هذا تفسير الواحدي وابن الجوزي .

وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم (قال أو لو جئتكم) قال أبو علي : فاعل ﴿ قال ﴾ النذير ، وعلى هذه القراءة الكلام ظاهر النظم ، وعلى قراءة (قل) وأن المراد محمد صلى الله عليه وآله يختلف فينظر . اهـ

لأن الفاء في ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ للتعقيب ، والانتقام من الأمم المكذبة ، كان قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وجوابه أن يجعل فانتقمنا متصلا بقول الأمم مقدما في التقدير على ﴿ قل أولو جئتكم ﴾ فيصير النظم ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ... فانتقمنا منهم} والله أعلم .

ومعنى : ﴿ انتقمنا ﴾ أي : انتصرنا للدين والرسل بإهلاكهم .

قوله تعالى :﴿ و إذ قال إبراهيم ﴾ أي : واذكر وقت قال إبراهيم ﴿ لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ﴾[1] من الأوثان ، وبراء : مصدر يستوي فيه الواحد والاثنين

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى :﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ القراءة : قراءة العامة ﴿ براء ﴾ بالألف وفتح الباء على الواحد ، وعن ابن مسعود ﴿ بري ﴾ بالياء ، قيل: هما بمعنى ، وقيل: براء مصدر أقيم مقام الاسم ، وبري اسم.

قراءة العامة ﴿ معيشتهم ﴾ بغير ألف ، وعن ابن عباس ﴿ معائشهم ﴾ على الجمع.

قراءة العامة : ﴿ سخريا ﴾ بالضم ، وعن ابن محيصن بالكسر ، قيل: ما كان بالضم فهو بالكسر ، وما كان من جهة الكسر فهو بالضم ، وهو الصحيح من القراءة ، لأن عليه عامة القراء ، ولأن معنى الكلام عليه

اللغة

براء : مصدر لا يثنى ولا يجمع ، ولا يؤنث ، تقول : برئت براءة وبراءة ، وتقول : أنا منك براء ، ونحن منك براء ، والتسخير التذليل.

الإعراب

يقال: ما العامل في قوله ﴿وإذ قال إبراهيم﴾ ؟ قلنا: فيه قولان : أحدهما محذوف واذكر إذ قال . والثاني : مذكور بتقدير فانظر كيف كان عاقبة أولئك إذ قال إبراهيم.

ويقال: ما الاستثناء في قوله ﴿إلا الذي فطرني﴾ ؟ قلنا: قيل: تقديره إنني براء مما تعبدون من شيء إلا الذي فطرني ، وقيل: من كل معبود إلا الذي فطرني.

النظم

يقال: كيف تتصل قصة إبراهيم بما قبلها ؟ قلنا: لما ذم التقليد ، وأوجب إتباع الدليل عقبه بذكرهم إبراهيم حيث خالف أباه ، واتبع الحجة ، وأنكر ذلك أبو ه ، وأهل بلده ، وقيل: لما أمر بمناظرتهم بقوله ﴿قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ وهو ما دل عليه الدليل ، فإن أبو ا إلا التقليد ، فتقليد إبراهيم أولى ، لأنهم من أولاده ، يعظمونه ، ويدعون أنهم على طريقته.

ويقال: كيف يتصل قوله ﴿بل متعت﴾ بما قبله ؟ قلنا: لما عولوا على تقليد الآباء ،و لم يتفكروا في الحجة ، اغتروا بطول الإمهال ، وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا ، فأعرضوا عن الحق ، وقيل: لما ذكر إعراضهم بين أنهم أتوا من جهتهم ، وأنه أزاح العلة ، وأمهل ومنع ، وأمر وهى كي يتفكروا ويؤمنوا.

المعنى

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه﴾ آزر ﴿وقومه إنني براء مما تعبدون﴾ يعني الأوثان لا أعبدها ، والنجوم ،فإن قومه كانوا يعبدون النجوم ﴿إلا الذي فطرني﴾ خلقني ابتداء ، وهو الله تعالى عن قتادة ، قال : كانوا يقولون : الله ربنا مع عبادتهم الأوثان ﴿فإنه سيهدين﴾ إلى الحق بما نصب لي من الأدلة ، وفيه بيان ثقته بالله ، ودعا أموره ويطلب الهداية من ربه ، وقيل: سيهدين إلى جنته وثوابه ، وقيل: سينجيني من عذابه ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ يعني إبراهيم جعل هذه الكلمة باقية في ذريته لم يزل منهم من يقولها . واختلفوا فقيل: الله تعالى جعلها باقية ، يعني بأمره ولطفه ، وقيل: إبراهيم جعلها باقية بأن يوصي بها ، وأكد الأمر بالتكرير ، واختلفوا في الكلمة قيل: كلمة التوحيد لا إله إلا الله عن مجاهد وقتادة والسدي ، وقد جرى ذكره في قوله ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ ، وقيل: براءته من الشرك عن أبي علي ، والكلمة قوله ﴿إنني بريء مما تعبدون﴾ وقيل: وصيته التي أوصى بنيه على ما ذكره في سورة البقرة عن محمد بن كعب القرظي ، وقيل: هو قوله ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ عن أبي زيد وأبي مسلم ، وقيل: هو تسميته إياهم بالمسلمين.

واختلفوا في عقبه ، قيل: من خلفه عن ابن عباس ، وقيل: ذريته ، وولده عن مجاهد ، وقال الحسن : عقبه وولده إلى يوم القيامة ، وقيل: في آل محمد عن السدي ﴿لعلهم يرجعون﴾ إلى دين إبراهيم عن الفراء

والجماعة ، والمذكر والمؤنث ، يقال : نحن البراء منكم ، وقرئ (بـــرئ) ككـــريم ، وهمـــا بمعنى ﴿ إلا الذي فطرني فإنه سيهديني ﴾ إلى مصالحي ومنافعي الدينية والدنيوية .

والحسن ، ومعنى لعل قيل: ارجعوا ، قيل: وصاهم أن يرجعوا.

﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم ﴾ أي : أنعمت عليهم بالنعم ، ولم أعاجلهم بالعقوبة فتمتعوا ﴿ حتى جـــاءهم الحق ﴾ قيل: القرآن عن السدي ، وقيل: الإسلام عن الضحاك ، وقيل: التوحيد ، وقيل: الآيات الدالة علـــى صدقه ﴿ ورسول مبين ﴾ بين الحق ، وهو محمد ﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ القرآن ﴿ قالوا هذا ســـحر ﴾ أي : تمويه ﴿ وإنا به كافرون وقالوا لولا نـــزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ اتفقوا أن القريتين مكـــة والطائف ، واختلفوا في الرجلين ، قيل: الوليد بن المغيرة من مكة ، وحبيب بن عمرو في الطائف عـــن ابـــن عباس ، وقيل: عتبة بن ربيعة من مكة ، وأبو عبد الله الثقفي من الطائف عن مجاهد ، وقيل: الوليد بن مغـــيرة من مكة ، وأبو مسعود الثقفي من الطائف عن قتادة وأبي علي ، وقيل: وليد بن مغيرة من مكة وكنانة بن عـــد بن عمرو من الطائف عن السدي ﴿ عظيم ﴾ أي : عظيم الشأن في الدنيا بالمال والجاه ، فغلطوا من وجـــوه : أحدها: جعلوا العظيم بالمال والجاه ، والثاني : جعلوا إليهم الاختيار في المبعوث ، والثالث لم يعرفوا الغـــرض بالبعثة ، وأنه للاستصلاح ، فيبعث من يصلح له ﴿ أهم يقسمون ﴾ استفهام والمراد الإنكار ، أي : ليس لهـــم قسمة الرحمة حتى يجعلوا النبوة لمن شاؤا ﴿ رحمة ربك ﴾ أي : رزقه ونعمته بين عباده دينا ودنيـــا ﴿ نحـــن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ يعني لم نرض قسمتهم أسباب الدنيا ، لأنهم لا يصلحون لها ، ومـــن لا يصلح لقسمة دنياه كيف يصلح لقسمة النبوة ، فنحن قسمنا ذلك بينهم بحسب ما علمناه مـــن مصالحـــهم ، فبعضهم غني وبعضهم فقير ، وبعضهم مالك وبعضهم مملوك ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعـــض درجـــات ﴾ في المال والقوة والحرية ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ قيل: يتخدم بعضهم بعضا

وقيل: هو تسخير الفقير للغني بماله ، وأرباب الحاجات لأصحاب الصناعات بصناعتهم يستعملهم بأموالهم ويستخدمونهم فيكون سببا لمعاش هذا بماله ، ونفع هذا بأعماله ، وكل واحد يحتاج إلى صاحبه من وجه عن السدي وابن زيد ، وقيل: ليملك بعضهم بعضا ، ويتخذهم عبيدا عن قتادة والضحاك ﴿ ورحمة ربك ﴾ قيـل: ثواب الآخرة ، وقيل: الجنة خير مما يجمعون من أموال الدنيا ، لأنها باق ، وهذا فان ، وقيل: رحمة الله بالنبي لما أعطاه من النبوة خير من أموالهم التي جمعوها عن أبي مسلم.

الأحكام تدل الآية أن أبا إبراهيم كان كافرا ، وهو آزر ، ولا مانع منه ، فلا يصلح العدول عنه إلى أنه كان عمه ، وقد نطق القرآن بذكر الأب في مواضع ، ولا يحمل على المجاز إلا بدليل ، وتدل على أنه تعالى قســـم الأرزاق بحسب المصلحة ، وأنه قسم النبوة على ما هو الأصلح لعباده ، وتدل على أنه دبر العالم على أن يحتـاج بعضهم إلى بعض ، ليستدلوا بذلك على أن لها صانعا ، لا يجوز عليه الحاجة ، وتدل أن طلب الآخرة خير من جمع الدنيا .

قال الهادي عليه السلام : هذا قول من إبراهيم صلى الله عليه لقومه تبرأ فيه من كل ما يعبدون من دون الله ، وأثبت التولي منه لرب العالمين ، الذي فطره ، ومعنى قوله: ﴿ سيهدين ﴾ فهو : سيوفقني ويهديني إليه ويبينه لي . اهـ

والاستثناء منقطع ، أي : لكن الذي خلقني ، أو متصل مستثنى من ﴿ مما تعبدون ﴾ لأنهم كانوا يعبدون الله مع الأصنام .

ثم قال سبحانه : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ معنى ﴿ جعلها ﴾ أي : أن إبراهيم عليه السلام شهرها فيها ، فأوصاهم بها إبراهيم بنيه[1] ، كقوله : ﴿ وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾

قال الهادي عليه السلام : والتي جعلها باقية في عقبة فهي كلمة الإخلاص ، ودين الحنيفية الباقية في عقبة إلى يوم الدين . اهـ

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ معناه : لعل من أشرك منهم يرجع إلى التوحيد ، بدعاء من وحد منهم ، وقيل : لعلهم يرجعون إلى التوحيد من حيث أنه دين إبراهيم ، وقيل : الجاعل هو الله ، أي : وجعل الله كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم .

ثم قال تعالى : ﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم ﴾ وهم قريش وآباؤهم ، متعتهم بالمد في العمر ، والنعمة فعصوا ، واغتروا ، وشغلوا عن كلمة التوحيد ، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ، ثم يقبل على نفسه فيقول : أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك إليه ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسئ لا تقبيح فعل نفسه ، والمعنى : أجزلت لهم النعمة ، ولم أعاجلهم بالعقوبة والنقمة ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ وهو القرآن ﴿ ورسول مبين ﴾ للرسالة بالآيات الواضحة والحق المبين ، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكان من حقهم أن يقابلوا النعمة بالشكر والطاعة ، لكنهم عصوا وخالفوا

---

(١) قوله : إبراهيم بنيه : هو تفسير للضمير الفاعل والمفعول في أوصاهم . والتقدير فأوصى إبراهيم بنيه .

﴿و لما جاءهم﴾ أي : وحين جاءهم ﴿الحق قالوا هذا سحر وإنا به كـافرون﴾ أي : بادروا إلى الكفر ، ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم .

ثم حكى سبحانه عنهم من أنواع الكفر فقال تعالى : ﴿و قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي : على رجل من إحدى القريتين ، كقوله : ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ قالوا : وإنما يخرجان من أحدهما ، وقيل : التقدير من رجلي القريتين ، والقريتان : مكة والطائف ، واختلف في رجليهما فقيل : هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، وحبيب بن عمر بن عمير الثقفي ، وقيل : الوليد ، وعروة بن مسعود الثقفي ، وقيل : هما عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد يا ليل الثقفي .

وقوله : ﴿عظيم﴾ يعني في دنياه ، أرادوا ذا مال وجاه ، وفاتهم أن العظيم من عظم عند الله . وزعموا أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ليس بعظيم .

قال المفسرون : والذي بمكة هو الوليد بن المغيرة ، والذي بالطائف : هو عروة بن مسعود الثقفي .

ثم أبطل الله هذه الشبهة فقال سبحانه : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ ويدبرون أمر النبوة ، والتخير لها ، ويتولون القسمة لرحمة الله من كل خير من رزق ، وعافية ، وغير ذلك التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته ، وبالغ حكمته ، والهمزة للإنكار الدال على التجهيل والتعجيب من إعراضهم وتحكمهم .

ثم ضرب لهذا مثالا فقال سبحانه : ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم﴾ أي : أرزاقهم ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي : نحن لا هم القاسمون للرحمة ، بل هم عاجزون عن تدبير ما يصلحهم في المعيشة في الدنيا الفانية ، فكيف تدبير الدين الموصل إلى الملك الدائم، حتى يتخيروا للنبوة من شاؤا ، ولو كانوا القاسمين لنفوسهم لما فضل بعضهم على بعض في المعيشة والرزق ؛ لأن المفضول يريد لنفسه ، فإذا كنا نحن الرازقين القاسمين فكذلك النبوة نعطيها من نشاء ، ولا نشاء إلا من فيه مصلحة ، فكيف يتخيرون

لها من أرادوا .

ثم قال عز وجل : ﴿ و رفعنا بعضهم ﴾ في الرزق بالغنى والفقر ، وفي القوة والضعف ، ونحو ذلك من المنازل ﴿ فوق بعض درجات ﴾ فمنهم أغنياء ومحاويج ، وأقوياء وضعفاء ، وموالي وخدم ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ ليسخر الغني الضعيف ، والقوي الفقير ، أي : يستخدمهما حتى يتعايشوا ويصلوا بذلك إلى منافعهم ، فلو ولاهم تدبير دنياهم لعجزوا ، فهم عن تدبير دينهم أعجز .

ثم قال تعالى : ﴿ و رحمة ربك ﴾ يا محمد ، وهي النبوة والقرآن ، أو دين الله والفوز بالآخرة ﴿ خير مما يجمعون ﴾ من حطام الدنيا .

ثم أعلم أنه تعالى أجاب عن الشبهة التي ذكروها بناء على تفضيل الغني على الفقير بوجه ثالث ، وهو أنه تعالى بين أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله ، وبين حقارتها بقوله سبحانه : ﴿ و لولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ [1] الأمة : الجماعة ، أي

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾

القراءة : قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ﴿ سقفا ﴾ بفتح السين ، وسكون القاف على واحد ، وأراد الجنس ، ولقوله ﴿ فخر عليهم السقف ﴾ ، الباقون ﴿ سقفا ﴾ بضم السين والقاف على الجمع ، واختلفوا فيه ، فقيل: هو جمع سقف كرهن ، ورهن ، قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما ، وقيل: السقف جمع سقوف كرهن ورهون ، وزبر وزبور فهو جمع الجمع ، وقرأ عاصم وحمزة ﴿ لما متاع ﴾ بتشديد لما ، على معنى وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا فتكون أل الابتداء وما صلة.

القراءة الظاهرة ﴿ ومعارج ﴾ وعن أبي رجاء العطاردي ﴿ معاريج ﴾ وهما لغتان نحو مفاتح ومفاتيح.

اللغة

المعارج : الدرج واحدها معرج ، وأصله الصعود ، عرج يعرج عروجا إذا صعد على وزن نصر ينصر ، وعرج يعرج صار اعرج ، على وزن حمد يحمد ، ويقال: ظهر عليه علا وصعد ، قال الشاعر

بلغنا السماء مجدنا وفعالنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وظهر على الشيء غلبه ، كأنه علاه ، ومنه فأصبحوا ظاهرين ، أي : غالبين ، والسرر جمع سرير ، ويجمع أسرة أيضا ، وما كان على بناء فعيل فجمعه على أفعله ، أو فعل كسرير وسرر ، وأسرة ، ونظيره حصير وحصير ، وقليب وقلب ، وسوار ، وأسورة ، وبناء وأبنية ، وغطاء وأغطية ، وقد يجمع على البناءين ، وقد يجمع على أحدهما.

والزخرف كلما حسن الشيء ، ومنه قيل: للذهب والفضة زخرف ، ويقال: زخرفته زخرفة أي : حسنته ومنه قيل: للنقوش والتصاوير زخرف على ما جاء في الحديث أنه لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنحي ، وقيل: نقوش وتصاوير يزين بها الكعبة ، وكانت بالذهب.

الإعراب

في نصب زخرف قولان قيل: لجعلنا ، أي : لجعلنا لبيوتهم سقفا ولجعلنا لهم زخرفا ، وقيل: من فضة وزخرف ، فلما نزع الخافضة أنتصب ، واللام في قوله ﴿لمن يكفر﴾ قيل : صلة ، وفي الآية تقديم وتأخير تقديره لجعلنا لبيوت من يكفر ، وقيل: اللام بمعنى على ، أي : على بيوت من يكفر ، وقيل: هي لام الإضافة ، وما في قوله ﴿لما متاع﴾ صلة كقوله ﴿فبما رحمة من الله﴾ .

المعنى

ثم نبه بأنه ليس للدنيا عند الله من الخطر ما عظموه ، حتى جعلوا أهلها بمحل النبوة ، فقال سبحانه ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ أي : جماعة واحدة ، قيل: كلهم على الكفر عن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وقيل : على طلب الدنيا ، واختيار ما على العقبى عن ابن زيد ، وإنما لم يفعل ذلك لكونه مفسدة ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج﴾ قيل: درجا وسلاليم عن ابن عباس وقتادة وهي المراقي ﴿عليها يظهرون﴾ يقعدون ﴿ولبيوتهم أبوابا﴾ من فضة ﴿وسررا﴾ من فضة

﴿عليها يتكئون وزخرفا﴾ قيل: هو الذهب عن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك ، وقيل: الفرش ومتاع البيت عن ابن زيد ، وقيل: الزخرف النقوش عن الحسن ﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾ أي : لو جعل جميع ذلك لكان متاع الحياة الدنيا يتمتع بها قليلا ، ثم يزول ، ويفنى ، ولا يدوم نعيمها ، ثم بين ما أعده لأوليائه ، فقال تعالى ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ أي : الثواب والجنة التي هي دائمة باقية لمن اتقى معاصي الله.

الأحكام تدل الآيات أن الدنيا لا تنال بالاستحقاق ، وإنما هي قسمة على حسب الصلاح ، وتدل على قولنا في اللطف ، لأنه بين أنه قصد بما قسم الاستصلاح ، وتدل أنه لا يفعل المفسدة ، وما يدعو إلى الكفر ، فإذا لم يفعل ما يؤدي إلى الكفر ، دل على أنه لا يفعل الكفر ، ولا يريده ، وتدل على أن ثواب الآخرة معد

ولولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر ويتفقوا عليه ، ويرغبوا فيه ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم ﴾ هو بدل اشتمال من قوله : ﴿ لمن يكفر ﴾ ﴿ سقفا من فضة ومعارج ﴾ جمع معرج ، وهو السلم من فضة ﴿ عليها يظهرون ﴾ أي : يعلون السطوح على المعارج ، أي : المصاعد إلى العالي ، يقال : ظهرت على البيت إذا علوت على سطحه .

قال في التجريد : بين الله تعالى حقارة الدنيا ، وهوانها عليه لما قالوا : لا تكون النبوة إلا لعظيم في الدنيا بالمال والجاه عند الناس فقال : ولولا كراهة أن يصير الناس أمة واحدة ، أي يتفقون على ملة واحدة ، وهي ملة الكفر لوسعنا على الكفرة حتى يكون لبيوتهم سقفا من فضة ﴿ و لبيوتهم أبوابا وسررا ﴾ جميع سرير ، كلها من فضة ﴿ عليها يتكئون ﴾ من الإتكاء ، الذي هو عادة المترفين ، المنعمين ﴿ و زخرفا ﴾ أي : زينة من كل شئ ، والزخرف أيضا الذهب ، أي : لولا كراهة الإطباق على الكفر والرغبة فيه لجعلنا حقارة الدنيا للكفار سقفا ومصاعد وأبوابا وسررا كلها من فضة ، وجعلنا لهم زخرفا .

قال المرتضى عليه‌السلام : يقول لبسطنا لهم في الرزق ، وأملينا لهم في العمر ، حتى تكون سقفهم فضة ، ومعارجهم فهي درج الدور ، فأراد بذلك سبحانه الإملاء لهم على كفرهم ، وإقامة الحجة عليهم في شركهم كما قال عز وجل ﴿ إنما نملي لهم

للمتقين دون الفاسقين ، فيبطل قول المرجية ، ومتى قيل: إذا قلتم إنه لا يفعل ما عنده يكفر لأنه مفسدة ، أو ليس قد أعطي القدرة والآلة ، التي عندها يكفرون ؟ قلنا: ذاك تمكين به يتمكن من الإيمان

أيضا ، وليس بمفسدة ، ومتى قيل: فهلا فعل اللطف ليؤمنوا ؟ قلنا: لأنه لا لطف لهم . ومتى قيل: أليس هو تعالى قادر على كل شيء ، فكيف لا يلطف ؟ قلنا: بلى ولكن هذا الكافر لا لطف له ، ولو كان له لطف في المعلوم لفعل ، ومتى قيل: أليس أصحاب اللطف يزعمون ذلك ؟ قلنا: بينا بطلان قولهم : إنه لو كان لطفا لهم ، و لم يفعله لصح منه ، ولكان نقضا للغرض ، ولكان بمنزلة منع التمكين والآلات.

ليزدادوا إثما}[1] إذ هو لا يضره كفرهم ، ولا يدخل عليه نقص في ردهم ، فلما كان ذلك كذلك لم يكن الضرر والهلكة إلا عليهم في أنفسهم لردهم لحجج ربهم ، فذكر سبحانه لولا أن يتأسى الناس بعضهم ببعض حتى يدعوهم ما يرون من الإملاء والملك لمن خالف الحق فضاده ، لجعل لهؤلاء المعاندين ما ذكر ليكون عند انقضاء مدتهم أشد في الحسرة عليهم ، وأثبت للحجة فيهم في رقابهم ، فهذا معنى الآية ؛ لأن الله عز وجل إذا أنعم على العبد وأعطاه فلم يشكر وازداد كفرا وعتوا ، كان أعظم لذنبه ، وأشد لعذابه عند خالقه . اهـ

وفيه تنبيه للمؤمنين على ترك الافتتان بما يقع في أيدي الكفار من الأموال الجليلة ، فلولا المفسدة لزادهم ، إذ الدنيا لا خطر لها ، وقد أوضح ذلك تعالى بقوله : ﴿و إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾ أي : منفعتها اليسيرة الفانية ، وما زائدة أو موصولة ، واللام الفارقة بين المخففة والنافية ، وقد دلت الآية على أن التوسعة على الكفار مفسدة لئلا يطبق الناس على الكفر ، لحبهم الدنيا ، ولا يلزم أن التوسعة للمسلمين مصلحة ليطبق الناس على الإسلام ؛ لأن التوسعة مفسدة أيضا تؤدي إلى الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، وذلك دين المنافقين ، فالواجب على المسلم العاقل أن يحترز من طلب فوق الكفاية ؛ لأنه تعالى قد صرح بأنه في معلومه يؤدي إلى الطغيان ، أعني طلب فوق الكفاية ، وقوله الذي لا مرية فيه ، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم :(أنت فيما يكفيك وتطلب ما يطغيك) و(الطغيان حلال عاجل وحتف قاتل) فأي جهل أعظم من جهل من سعى في تحصيل أمر قد قام له الدليل بأن فيه هلاكه ، وفي تركه فكاكه

ثم أخبر سبحانه عن من جعل الجنة له فقال :﴿و الآخرة﴾أي : الجنة التي لا يوصف نعيمها ، ولا يظعن مقيمها ﴿عند ربك للمتقين﴾ خاصة بهم فقط .

---

(١) آل عمران : ١٧٨ .

ثم وصف عز وجل المعرضين عن القرآن بالعشي والعمى فقال : ﴿و من يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ [(١)] ملازم لا يفارقه .

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾ القراءة : قراءة العامة ﴿ يعش﴾ بضم الشين ، يعني يعرض ، وعن ابن عباس ، بفتح الشين ، يعني يعم ، يقال: عشي يعشى إذا عمي ، ورجل أعشى ، وأمرأة عشواء . وقرأ عاصم في بعض الروايات ﴿ يقيض﴾ بالياء ، رجع الكناية إلى اسم الرحمن . الباقون بالنون . قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم حتى إذا جاآنا بالألف بعد الهمزة على الاثنين يعني الكافر ، وقرينه ، وقرأ الباقون ﴿ جاءنا﴾ على واحد ، يعني الكافر ، واختاره أبو عبيد ، لأن الكلام في ذكره.

اللغة

العشو: أصله النظر ببصر ضعيف ، كذا قاله الخليل ، يقال: عشي يعشو عشوا إذا ضعف بصره ، وأظلمت عينه ، ونظر نظرا ضعيفا ، كان عليها غشاوة ، فإذا ذهب بصره ، قيل: عشي يعشي عشى مثل عمي يعمى عمى ، قال الحطيئة : متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد قال أبو عبيده : يقال: عشى إلى النار ، قصد ، وعشى عنها أعرض ، ونظيره ما ل عنه ، ومال إليه ، وأنكر القتيبي عشوت عن الشيء أعرضت ، قال : وإنما الصواب تعاشيت ، والصحيح الأول لإجماع أهل اللغة والتفسير .والقيض : المثل ، وهما قيضان ، أي : كل واحد منهما عوض عن إلا خر ، ومنه المقايضة في البيع ، وقيض الله الشيء أتاحه ، وسببه ، يقال: هذا قيض لهذا ، وقياض أي : مساو ، وقوله تعالى ﴿ نقيض له شيطانا﴾ منه ، كأنه جعل الشيطان له عوضا مما تركه من ذكر الله.

المعنى

لما تقدم ما أعد للمتقين وعدا لهم عقبه بذكر الوعيد والعقاب ، فقال سبحانه ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾ يعرض عن قتادة والسدي ، وقيل: يعم عن ابن زيد وأبي علي ، قال أبو علي : هذا توسع ، شبههم بالأعمى لما لم يبصروا الحق ، وقيل: العشو السير في الظلم ، فلما كان الذاهب عن ذكر الله يتردد في الضلالة خرج الكلام في ذهابه على السائر في الظلمة ، عن ذكر الله تعالى عن أبي مسلم ، واختلفوا في الذكر قيل: الإيمان ، والأدلة ، وقيل: القرآن ﴿ نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ قيل: من أعرض عن ذكر الله تعالى يخلي بينه وبين الشيطان ، فيصير قرينه عوضا عن ذكر الله عن الحسن ، وأبي مسلم ، وإنما جاز التخلية لما علم أنه يفلح ، وإن لم يكن الشيطان له قرينا ، وقيل: يقرنه في الآخرة ليذهب به إلى النار عن قتادة ، كما أن المؤمن يصير قرينه ملك يذهب به إلى الجنة ، وقيل: يقرنه في النار حتى يكون قرينه عن أبي علي ، وقيل: هو قرين له

في الدنيا ، يوسوس له ، ويزين له سوء عمله ، ويقرن به في الآخرة ، ويبعث بهما إلى النار ، وقيل: أراد شياطين الإنس نحو علماء السوء ، ورؤساء الضلالة ﴿يصدون عن سبيل الله﴾ ويمتنعون عن إتباع الحق ﴿وإنهم ليصدونهم﴾ أي : يصرفون هؤلاء الكفار ﴿عن السبيل﴾ أي : طريق الحق ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ يعني يحسب الكافر أنه مهتد لحسن ظنه واغتراره ، بمن يدعوه إلى الضلال ﴿حتى إذا جاءنا﴾ يعني جاء عرصة القيامة التي لا حكم إلا لله فيها ﴿قال﴾ يعني : الكافر الذي هو تابع للشيطان المتبوع ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ قيل: بعد المشرق والمغرب ، فغلب أحدهما على الأخر ، كما يقال: للشمس والقمر قمران ، ولأبي بكر وعمر عمران ، والحسن والحسين حسنان ، قال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

وقال آخر:

وبصرة للأزد منا والعراق لنا والموصلان ومنا مصر والحرم

يعني الموصل والجزيرة ، وقيل: مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ، والأول الوجه ، والمعنى : ليت بيني وبينك من البعد ما بين المشرق والمغرب ، وهي كلمة حالة ـ دالة ـ على الندم والحسرة ، وقيل: جاآنا في سلسلة واحدة ، عن ابن عباس ﴿فبئس القرين﴾ قيل: في الدنيا ، حيث أضللتني ، وقيل: في النار ، وقيل: فيهما ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم﴾ عصيتم ربكم ﴿أنكم في العذاب مشتركون﴾ قيل: إن اشتراككم في العذاب لا يوجب التسلي ، ولا ينفع كما كان في الدنيا ، لأنه يرى بنفسه ما يرى من شدة العذاب ، ولكل واحد نصيب وافر ، وهذا محكي عن شيخنا أبي الهذيل ، وهو قول أبي علي ، وقيل: لن ينفعكم كون قرنائكم معكم في العذاب ، إذ ينقص لكونهم في النار من عذابكم شيء عن أبي مسلم ، وقيل: لاينفعكم الاعتداد ، لأنكم وقرناءكم مشتركون في العذاب اليوم كما كنتم مشتركين في الكفر في الدنيا ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي﴾ يعني من لا يبصر الحق بمنزلة الأعمى ، والأصم ، فكما يتعذر إدراك الأعمى ، واستماع الأصم ، كذلك يتعذر عليك هذا هؤلاء ، لأنهم لا يتفكرون ولا ينظرون ، ولا يسمعون ، ويتعامى ويتصامم عن الحق فيبعد عن الاهتداء ﴿ومن كان في ضلال مبين﴾ بين ظاهر أنه لا يهتدي ولا يقبل.

الأحكام

الآية تدل على أن العصاة يقرن بهم الشيطان ، وقد بينا ما قيل فيه ، وروي عن النبي عليه السلام ﴿اللهم إني أعوذ بك من مقاربة الشيطان﴾ ويدل قوله ﴿ويحسبون﴾ أن المعارف مكتسبة ، وتدل على أن أهل النار يجدون خفة بكثرة أهلها وعذابهم ، وإن كان كل واحد مشغولا بحاله ، بخلاف حال الدنيا ، أن الاشتراك في البلاء لا يوجب التسلي ، وفيه تحذير عن المعصية ، وتدل على أن حال من لا يبصر الحق ولا يسمعه ، بمنزلة الأعمى ، والأصم ، وذلك توبيخ لهم ، ويدل قوله ﴿ومن كان في ضلال﴾ أن الضلال فعلهم ، ومتى قيل :

قال في التجريد : قرئ (نعش) بضم الشين وفتحها ، وفتحها شاذ ، فإذا فتحت فهو من عشي يعشى ، إذا حصلت الآفة في بصره ، التي هي العشى ، وهو ضعف البصر ، فإذا ضمت فمن عشا يعشو إذا نظر نظر من هو أعشى ، ولم يكن به آفة ، ونظير ذلك عرج يعرج لمن به آفة العرج ، وعرج يعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج ، ومعنى قراءة الفتح : ومن يعم عن ذكر الرحمن ، وهو القرآن ، كقوله : ﴿صم بكم عمي﴾ ومعنى قراءة الضم : ومن يتعام عن ذكره ، أي : يعرف أنه الحق ، وهو يتجاهل ويتعامى ، كقوله : ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾[1].

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : العشى : ظلمة البصر ، قال الشاعر :

نظرت بعين لم تخنها عشاوة ولا رمد فالطرف غير كليل

أي : لم تخنها ظلة ولا ضعف .

وقال الهادي عليه‌السلام : من ﴿يعش﴾ أي : يصد ويترك ويعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾ ويعم عنه ﴿نقيض له شيطانا﴾ أي : نخلي عليه شيطانا ، لا أن الله تعالى أمر الشيطان بذلك ، ولكنه خلاه وإياه ، ولم يمنعه ، فلما أن كان ذلك منه كذلك جاز أن يقول : ﴿قيضنا﴾ أي : تركنا وخلينا بينه وبينه ، ولم يكن منا حاجز له عنه ، ولا مانع له منه . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿و إنهم ليصدونهم﴾ أي : وإن الشياطين ليصدون العاشين ﴿عن السبيل﴾ عن طريق الهدى والحق ﴿و يحسبون﴾ أي : الكفار ﴿أ نهم مهتدون﴾ فيما زينه لهم الشيطان ، وذكر الكناية عن الإنسان والشيطان بلفظ الجمع ، لأن قوله

قوله ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل﴾ يدل على أن القرين في الدنيا ؟ قلنا: هكذا قال بعضهم ، غير أن شيخنا أبا علي يختار أن يكون في الآخرة ، وإليه ذهب القاضي ، والكلام يحتمل أن يكون بعضه خبرا عما ينسالهم في الآخرة ، وبعضه عن أحوال الدنيا

(١) النمل : ١٤ .

:﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا﴾ يفيد الجمع ، وإن كان اللفظ عن الواحد ، ثم عاد إلى لفظ الواحد فقال :﴿حتى إذا جاءنا﴾ قرئ بضمير الواحد للعاشي فقط ، وقرئ بضمير الاثنين له وللشيطان ، أي : لا يزال ، أو لا يزالا في الضلالة إلى وقت المجيء ، إلى جزائنا في الآخرة ﴿قال﴾ العاشي لشيطانه ، لما رأى من الشقاء بسببه :﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ أي : المشرق والمغرب ، فغلب المشرق علي المغرب ؛ لأن في المشرق وجود الشمس فهو أقوى من موضع ذهابها ، ومعناه تباعدهما ، والأصل بعد المشرق من المغرب ، والمغرب من المشرق ، وقيل : أراد بالمشرقين ما بين مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ، والصواب الأول ؛ لأن العرب تجمع الأول على تسمية أشهرهما ، كما قيل : العمران والقمران ، ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما ، قال الفرزدق :

لنا قمراها والنجوم الطوالع

يريد الشمس والقمر ، ويقولون للكوفة والبصرة : البصرتان ، وللغداة والعصر : العصران ، وللماء والتمر : الأسودان .

ثم قال تعالى حاكيا قول العاشي ﴿فبئس القرين﴾ أي : أنت يا شيطان .

قال الرازي : والمقصود من هذا الكلام بيان تحقير الدنيا ، وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة ، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشى عن مطالعة ذكر الله ، ومن صار كذلك صار جليسا للشيطان ، ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق ، وبقي جليس الشيطان في الدنيا ، وفي القيامة ، ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد في القيامة ، بحيث يقول الكافر :﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ فثبت بما ذكرنا أن كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان في الدين والدنيا .

[(1)]ثم قال تعالى :﴿ و لن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ﴾هذا كلام من الله ، أي : يقال لهم

يوم القيامة توبيخا : لن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب أنتم والشياطين كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه للتعاون في تحمل أعبائه ؛ لأن كلا في عذاب لا تبلغه طاقته ، ولا تنفعه مشاركة مثله ، وذلك معنى قوله :﴿ أ نكم في العذاب مشتركون ﴾فقوله :﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾فاعل ﴿ ولن ينفعكم ﴾قال المبرد : منعوا من روح التأسي الذي من شأنه تسهيل المصيبة ، والسبب فيه أن الناس يقولون : إن المصيبة إذا عمت هانت ، قالت الخنساء في هذا المعنى :

ولولا كثرة الباكين حـــولي على إخواهم لقتلت نفســـي
ولا يبكون مثل أخي ولكـــن أعزي النفس عنهم بالتأســـي

فبين تعالى أن حصول الشركة في ذلك العذاب لا يفيد التخفيف ، كما كان يفيده في الدنيا ، ويجوز أن يكون فاعل ﴿ ولن ينفعكم ﴾ضمير التمني ، و﴿ أنكم ﴾تعليل مجرور بلام مقدرة ، أي : ولن ينفعكم قولكم : ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾لأنكم في العذاب مشتركون أنتم وقرناؤكم ، ويقويه قراءة ابن عامر بكسر ﴿ إنكم ﴾أي : لن ينفعكم تمنيكم ؛ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وشركاؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر .

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالعشى وصفهم بالصمم والعمى فقال تعالى :﴿ أ فأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ﴾كان صلى الله عليه وآله وسلم يجد ويكد روحه في دعاء قومه ، ولا يزيدهم إلا تصميما على الكفر ، فأنكر عليه سبحانه بقوله :﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾إنكار تعجيب من أن يكون قادرا على هدايتهم ، وأراد

---

(١) إلى هنا انتهى ما نقله عن الرازي ، انظر تفسير الرازي ٢٧/٢١٣.

تعالى أنه لا يقدر على ذلك إلا هو وحده على طريق الإلجاء ، وشبههم في عدولهم عن الإصغاء إلى استماع الحق بالصم ، وفي عدم نظرهم إليه بالعمي ، ووصفهم بأنهم في ضلال عن الحق مبين ، لا أبين منه .

ولما بين تعالى أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم قال : ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ أي : نقبضك قبل أن ننصرك عليهم ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ [1] في الآخرة ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ في حياتك من العذاب النازل بهم ، وهو يوم بدر قاله ابن عباس ﴿ فإنا عليهم مقتدرون ﴾ أي : هم تحت قدرتنا لا يفوتوننا ، وقوله : ﴿ فإما ﴾ زائدة .

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ﴾ اللغة : الذهاب : ضد المجيء ، وهو لازم ، ومتعد ، بالياء ، والهمزة ، يقال: ذهب به ، وأذهبته ، والانتقام : المعاقبة على شيء تقدم منه ، وكرهه ، وأصله من النقمة ، وهو العقاب ، ونقمت الأمر أنكرته ، والاقتدار :القدرة على الشيء ، غير أن في الاقتدار مبالغة ، اقتدر اقتدارا فهو مقتدر ، والقدرة كلها مختلفة متماثل فيها ، و متضاد ، ومقدوراتها محصورة في الجنس ، وفي كل وقت في محل واحد من جنس واحد ، والله تعالى قادر لذاته ، تنحصر مقدوراته بوجه ، ورجل ذو قدرة ، ومقدرة ، أي : قادر.

الإعراب

النون في قوله ﴿ نذهبن ﴾ نون التأكيد ﴿ أو نرينك ﴾ عطف على قوله ﴿ فإما نذهبن ﴾ وهو جزم ، إلا أن الجزم لا يظهر فيه لأجل النون الثقيلة حركت ما قبلها لسكونها ، ولئلا يلتقي ساكنان ﴿ آلهة ﴾ جمع اله.

النزول

عن ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعرض نفسه على القبائل لينصروه ، فإذا قالوا لمن الملك بعدك ؟ أمسك لأنه لم يوح إليه حتى نزلت هذه الآية ﴿ وإنه لذكر لك ﴾ فكان بعد ذلك إذا قيل له : لمن الملك بعدك ؟ قال لقريش ، و يجيبونه ، وقبلته الأنصار على ذلك.

المعنى

ثم زاد في توبيخهم الوعيد ، فقال سبحانه ﴿ فإما نذهبن بك بأن نميتك فإنا منهم منتقمون ﴾ أي : نعاقبهم على فعلهم ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ أو نتوفينك حتى ترى ما يفعل بهم من العذاب الذي وعدناهم ، قيل: أراد المشركين والاستعلاء عليهم ، وقيل: هو القتل ، والأسر يوم بدر ، فإنهم مع كثرتهم ، ووفور عددهم

، والنبي عليه السلام في قلة قتلهم وأسرهم ، وظهر مصداق الموعود . وقيل: أراد به أهل الإسلام ، وقد كان بعد نبي الله نعمة شديدة أكرم الله بدينه بأن يزيد في أمته ، و لم ير في أمته إلا ما قر به عينه عن الحسن ، وقتادة فإنا على هلا كهم ، وتبقيتهم مقتدرون ، قادرون ﴿فاستمسك﴾ أي : تمسك ﴿بالذي أوحي إليك﴾ من القرآن والشرائع علما وعملا ﴿إنك على صراط مستقيم﴾ طريق واضح ﴿وإنه﴾ يعني القرآن ﴿لذكر لك ولقومك﴾ قيل: شرف بك عن ابن عباس والسدي ، وقيل: في التمسك به والعمل بمقتضاه شرف لك ، ولمن عمل مثل عملك ، وقيل: ذكر لك تذكر به أمر دينك ، وقيل: أمر ووعظ ذكركم به عن أبي مسلم ، ولقومك : قيل: لجميع أمتك عن الحسن ، حيث عرضهم به للشرف ، وذكرهم بالمواضع ، وقيل: لقومك ، من قريش حيث كنت منهم ، وأنزل بلغتهم ، وقيل: للمؤمنين حيث تمسكوا به ، فشرفوا في الدارين ﴿وسوف تسألون﴾ عما تفعلون من قبوله ، والعمل به ، ومن الإعراض عنه والرد ، وقيل: وسوف تسألون من هذه النعمة ، وقيل: عما لزمكم من القيام بحقه والعمل به ، وقيل: تسألون عن أعمالكم وتجازون عن أبي علي ﴿واسأل﴾ اختلفوا في المخاطب به ، قيل: النبي ﷺ وكان في ابتداء النبوة ، وقيل: النبي ﷺ ولكن المراد إقامة الحجة على غيره ، وقيل: المخاطب به المشركون المنكرون للتوحيد ، واختلفوا في المسئول ، قيل: هم مؤمنوا أهل الكتابين عن ابن عباس ، والحسن ومجاهد ، وقتادة والضحاك والسدي ومقاتل ، قالوا: وهي قراءة ابن مسعود ﴿واسأل الذي أرسلنا رسلا من قبلك﴾ وتقديره سل أمم من أرسلنا من قبلك ، وقيل: المسئول هم أهل الكتاب أمم الأنبياء ، وإن كانوا كفارا ، لأن تواتر خبرهم تقوم به الحجة عن أبي علي ، وأراد أن يخبروا المشركين بأن الأنبياء دعوا إلى التوحيد ، فكيف ينكرون ذلك ، وقيل: المسئول الأنبياء أنفسهم ، وجمعوا له ليلة أسري به إلى بيت المقدس عن سعيد بن جبير ، وابن زيد ، وقيل: أراد سل عمن أرسلنا ، وعن كتبهم ، وآثارهم ، كقوله ﴿إن العهد كان مسؤلا﴾ أي : مسؤلا عنه عن أبي مسلم ، أي : ارجع إلى إخبار الأنبياء وكتبهم ، وآثارهم ، هل كان فيه عبادة الأصنام ، وقيل: المسئول جبريل أي : سل من أرسلناه ، وأقيم مقام إلى ... الحجة ـــ وقيل: المراد بالسؤال المطالبة بالحجة ، يقال: سألت فلانا حقي أي : طالبته به ، أي : طالبهم بالحجة عن تصحيح قولهم ، وقيل: ليس المراد السؤال ، وإنما أراد تقرير التوحيد في النفوس ، بذكر اجتماع الرسل على التوحيد ﴿من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ أي : أمرنا بعبادة غيره ، هو استفهام ، والمراد الإنكار ، لأن لم يبعث نبيا ، إلا ودعا إلى التوحيد ونهى عن خ فه

الأحكام

يدل قوله ﴿فإما نذهبن بك﴾ أن المعلوم قد يكون مطلقا ، وقد يتعلق بشرط ، فأعلم تعالى أنه لو فعل بهم في حياته كيف يكون ، والعلم أنه يفعل كيف كان يكون ، لأنه بين أنه منتقم منهم في حياته ، فإن لم ينتقم

واعلم أن هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنه تعالى بين أنه لا تؤثر فيهم دعوته ، واليأس إحدى الراحتين .

ثم بين أنه لابد وأن ينتقم لأجله منهم ، إما حال حياته ، أو بعد وفاته ، وذلك أيضا يوجب التسلية فبعد هذا أمره أن يتمسك بما أمره الله تعالى فقال : ﴿ فاستمسك بالذي أوحي إليك ﴾ أي : سواء عجلنا لك الظفر ، أو أخرناه ، أي كن عاملا به ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ أي : ثابت وهو دين الإسلام ، الذي لا يميل عنه إلا ضال .

ولما بين تأثير التمسك بهذا الدين في منافع الدين بين أيضا تأثيره في منافع الدنيا فقال : ﴿ و إنه لذكر لك ﴾ ضمير ﴿ إنه ﴾ لما أوحي ، أي : فاستمسك بالذي أوحي ، وإن الذي أوحي إليك لذكر لك ولقومك .

قال الهادي عليه السلام : الذكر الذي له صلى الله عليه وآله وسلم ولقومه فهو كتابه ووحيه ، الذي نزل على رسوله . اهـ

أي : شرف لك ولهم ، ويحتمل أن يكون أراد لتذكير وموعظة ﴿ و لقومك ﴾ أي: عشيرتك وأقاربك ، قيل : قومه : قريش ، وقيل : العرب قاطبة ، وقيل : أمته الذين آمنوا به .

قال الرازي : واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لابد وأن يكون عظيم الرغبة في الثناء الحسن ، والذكر الجميل ، ولو لم يكن الذكر الجميل أمرا مرغوبا فيه لما من الله [به] على محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ ولما طلبه إبراهيم عليه السلام حيث قال : {واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ ولأن الذكر

فبعد وفاته ، ويدل قوله ﴿ وإنه لذكر لك ﴾ أن القرآن يعرف به الأحكام ، وتدل على حدث الكلام لأن السؤال كلام ، ويدل قوله ﴿ واسأل ﴾ على جواز الرجوع إلى قول الغير للاحتجاج على الخصم .

الجميل قائم مقام الحياة الشريفة ، بل الذكر أفضل من الحياة ، لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في مسكن ذلك الحي ، وأما أثر الذكر فإنه يحصل في كل [مكان وكل] زمان[1]
ثم قال تعالى :﴿ و سوف تسألون ﴾ يوم القيامة عن القيام بحقه ، وشكر النعمة عليه

قال في التجريد : في السؤال قولان ، أحدهما : عن القرآن وما عملتم به ، والثاني: عموم كل عمل وترك .

قال الهادي عليه‌السلام : يعني بالسؤال عن من أعرض عن الحق ، وعن الذكر وقبوله يسأل بأي حجة كذب وصدق ، وبأي معنى أعرض عن الحق . (اهـ) فيسأل سؤال توبيخ .

واعلم أن السبب الأقوى في إنكار الكفار لرسالة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ولبغضهم له أنه كان ينكر عبادة الأصنام ، فبين تعالى أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، بل الأنبياء والرسل كانوا مطبقين على إنكاره فقال سبحانه :﴿ و اسأل ﴾ يا محمد ﴿ من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ﴾ أي : أوثانا يستحقون العبادة .

[قال في البرهان : يعني واسأل كتب الرسل] [2] التي جاؤا بها ، فإذا سأل الكتب فكأنه سأل الأنبياء . اهـ

لأن سؤال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع ، فسؤاله إياهم مجاز عن النظر في أديانهم وكتبهم ، هل جاءت عبادة الأوثان في ملة نبي من الأنبياء ؟ وإذا كان هذا كالأمر المتفق عليه بين كل الأنبياء والرسل ، وجب أن لا يجعلوه سببا لبغض محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

---

(١) انظر تفسير الرازي ٢٧/٢١٥ ، وما بين أقواس الزيادة من الرازي .

(٢) ـــ ما بين القوسين ساقط من أ ، وثابت في ب .

وقيل : جمع له صلى الله عليه وآله وسلم الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس ، وقيل له : سلهم ، فلم يشك و لم يسأل[1] .

قلت : والأول هو تفسير أئمتنا عليهم السلام ، وفي ذلك يقول الهادي إلى الحق عليه السلام : معناه : فهو اسأل كتبهم وافتش أخبارهم ، واسأل عما فرضنا عليهم مما أتوا به ذاعنين ، فانظر هل تجد في هذه الكتب التي أتوا بها منا شيئا ، مما عليه من أشرك بنا ، واتخذ آلهة من دوننا ، وعبد شيئا من دون عبادتنا ، فلن تجد ذلك أبدا في شئ من كتبنا ، ولا مما جاءت به رسلنا ، وإنما ذلك خطأ من فاعله ، واجتراء ممن يعبد شيئا من دون خالقه ، وقد نهاهم سبحانه عن عبادة غيره ، وأمرهم بالعبادة له . اهـ

ثم قال تعالى :﴿ و لقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾[2] هي المعجزات ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ هم أشراف قومه ﴿ فقال إني رسول رب العالمين ﴾ إليكم وجوابه

---

(١) قال عطاء عن ابن عباس :(لما أسري به صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد الأقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده فأذن جبريل ثم أقام ، فقال : يا محمد تقدم فصل بهم ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصلاة ، قال له جبريل عليه السلام : واسأل يا محمد ﴿من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ الآية فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (لا أسأل لأني لست شاكا فيه) . تفسير الرازي ٢١٦/٢٧ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى :﴿ فجعلناهم سلفا ﴾

القراءة

قرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم ، وحفص عن عاصم ﴿ أسورة ﴾ بغير ألف ، وسكون السين ، على جمع السوار ، وعن ابن مسعود ﴿ أساوير ﴾ ، وعن أبي بن كعب ﴿ أساور ﴾ وقراءة القراء ﴿ أساورة ﴾ بالألف وفتح السين ، وبالهاء ، وهي جمع الأسورة ، وأسورة جمع سوار ، فهو جمع الجمع ، قال أبو عمرو : واحد الأساورة والأساور أسوار ، وهي لغة في السوار . قرأ حمزة والكسائي ، والأعمش ، ويحي ﴿ سلفا ﴾ بضم السين واللام ، قال الفراء : هو جمع سليف ، قال أبو حاتم : سلف وسلف ، نحو خشب وخشب ، وعن القاسم بن مغني : تقول العرب : مضى سليف من الناس ، وعن ابن مسعود ﴿ سلفا ﴾ بضم السين وفتح اللام ، وهي جمع سلفة ، نحو طرفة وطرف ، وغرفة وغرف ، وقرأ أهل الحجاز والشام والبصرة وعاصم بفتح

السين واللام جمع سالف ، مثل حارس وحرس ، وراصد ورصد ، وفتح الياء من ﴿ تحتي ﴾ نافع وابن كثير ، وأبو عمرو و لم يفتحه ابن عامر وعاصم ، وحمزة والكسائي.

اللغة

النكث ، بفتح النون والنقض واحد ، وهو مصدر نكث نكثا ، و النكث والنقض بكسر النون الاسم ،وهو ما نكث من نسائج الصوف ، والجمع أنكاث ، ومنه من بعد قوة أنكاثا .استخف قومه: حملهم على الخفة ، والجهل ، يقال: استخفه من رأيه إذا حمله على الجهل ، وأزاله عما كان عليه من الصواب ، واستخفه ، وأخفه : أزال حلمه ، وحمله على الخفة . والأسف : الغضب ، والأسف الحزن ، يقال: أسف يأسف أسفا ، أي : تغضبه فغضب ، وأحزنه فحزن ، والسلف نقيض الخلف ، وهو المتقدم على غيره ، قبل مجيء وقته ، ومنه السلف في البيع.

الإعراب

أم بمعنى بل ، وليس بعطف عند الأكثر ، وعن الفراء و...الوقف على قوله ﴿أم﴾ على تقدير أتبصرون أم تبصرون ، وتمام الكلام عنده ـــ ثم ـــ أبتدأ فقال ﴿أنا خير﴾ على الإخبار ، وقيل: أم بمعنى الاستفهام ، وفيه محذوف ، أي : أنا خير أم موسى ، وقيل: أم عطف على المعنى تقديره ، لي ملك مصر ، وهذه الأنهار ، فبهذا تعرفون فضلي ، وأنا خير من هذا عن أبي مسلم . ﴿فلو ألقي﴾ ه . ﴿مقترنين﴾ أي : في حال الاقتران

النظم

يقال: كيف تتصل قصة موسى بما قبلها ؟ قلنا: قيل: لما تقدم السؤال عن أحوال الرسل ، وما جاؤا به اتصل به حديث موصى وعيسى ، لأن أهل الكتابين ، إليهما ينسبون ،وكتابيهما أظهر وأشهر ، وقيل: لما تقدم ذكر تكذيب قومه له ، ذكر حديث موسى تسلية له ، أي : حالك مع قومك كحال موسى مع قومه ، وآل الأمر إلى ظهوره ، كذلك أمرك ، وقيل: تقديره ليست بأمر مكذوب ، وقد كذب موسى والأنبياء قبلك.

المعنى

ثم ذكر حديث موسى عليه السلام فقال سبحانه ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي : بالحجج والمعجزات ﴿إلى فرعون وملائه﴾ أي : الجماعة من قومه ، وقيل: ليس بعقوبة ﴿فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا﴾ أي : أظهر معجزاته ، وهو اليد والعصي ﴿إذا هم منها يضحكون﴾ استهزاء واستخفافا ، وهذا فعلوه بعد غيبة موسى تلبيسا على العوام ، وإلا ففي حال ما رأوا لحقهم من الخوف والدهش ما لم يمكنهم معه الاستهزاء ﴿وما نريهم من آية﴾ معجزة ﴿إلا هي اكبر من أختها﴾ قريبتها وصاحبتها ، قيل: الحس عند الإدراك لها لما يقول من أمره ، فإن الأولى ماضية ، والثانية حاضرة ،وقيل: أهول في صدورهم ، وأعجب في أبصارهم من التي مضى قبلها ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ وقيل: بالسنين ،والطوفان والجراد والقمل

والضفادع ، والدم ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي : يرجعون إلى الحق عن الباطل ﴿وقالوا﴾ يعني قوم فرعون حين رأوا العذاب شملهم ، وأيقنوا أن فرعون يقدر على كشفها رجعوا إلى موسى متضرعين ﴿وقالوا يا أيها الساحر﴾ قيل: كان الساحر عندهم العالم ، ولم يكن صفة ذم عن أبي علي ، وقيل: قالوا له ذلك لجهلهم بصفته ، وقيل: قالوه استهزاء كقوله ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ عن الحسن ، وقيل: بل جرى على ألسنتهم ، على عادتهم فيه عن الزجاج ، وقيل: أرادوا تعظيمه لأن السحر كان عندهم علما عظيما ، فكأنهم قالوا: أيها الكامل في علمه ، الحاذق في عمله مدحا له ، وتوقيرا ، لأنه وقت حاجتهم ، وقيل: معناه يا أيها الذي غلبنا سحره ، كقول العرب خاصمته فخصمته ، أي : غلبته ، وحاججته فحججته ، وقيل: بل قالوه خطأ منهم ، قلنا: فنبههم موسى رجاء أن يؤمنوا ، وقيل: كانوا ينسبونه إلى السحر ، في كل معجزة ، أتى بها فصار ذلك اسما يعرف له ، والأصح أنهم أرادوا به تعظيمه ، لأنهم جاؤه متضرعين ، فكان لا يليق بتلك الحال الاستهزاء ، والخطيئة والمخالفة ﴿أدع لنا﴾ أي : لأجلنا ﴿ربك بما عهد عندك﴾ أي : أخبرك إذا آمنا كشف العذاب عنا عن مجاهد ، فسله يكشف عنا العذاب ﴿إننا لمهتدون﴾ نؤمن بما تدعو إليه ، ونهتدي بهداك ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ عهودهم مصرين على الكفر ، وفيه حذف ، وهو أن موسى سأل الله تعالى ذلك ، فكشف ، فلما كشف نكثوا ، فنادى فرعون في قومه لما رأى أمر موسى ، وأنه يظهر ، ويعلو خاف على مملكته ، فقصد الخداع ، فخطب الناس بعدما اجتمعوا ، وأظهر التفاضل ، بينه وبين موسى ، فيما يتعلق بأسباب الدنيا ، جهلا منه ومنهم ، فقال ﴿أليس لي ملك مصر﴾ وأراد البسطة في المال والملك ، ولم يتفكروا أنه كان لغيره فانتقل إليه ، وأنه سينتقل إلى غيره ، وأنه لا يدل على فضل ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ قيل: أنهار النيل ، ومعظمها نهر الملك ، ونهر ريباط ، ونهر طولون ﴿تجري من تحتي﴾ قيل: في جناني وبساتيني ، وقيل: حولي عن ابن عباس ، وقيل: في قبضتي وملكي ، وقيل: بأمري ، وقيل: كان النيل يجري تحت قصره ، بين يديه ، وسريره ، ولم يعلم الجاهل أن تلك النعم خلقها الله تعالى ،ومكن منها فهو المستحق للعبادة دونه ﴿أفلا تبصرون﴾ قيل: أنتم بصراء تعلمون حالي وحاله ﴿أم أنا خير﴾ يعني أنا خير من موسى ، وهو مهين ، قيل: معناه بل أنا خير ، وقيل: أنا خير أم هو ، وهو مهين ، قيل: ضعيف حقير عن قتادة ، والسدي ، ليس له قوم و ما ل ، و ملك ، وقيل: مهين فقير يمتهن نفسه في جميع ما يحتاج إليه ، ليس له من يكفيه أمره ﴿و يكاد يبين﴾ يفصح بكمه ، وحججه ، قيل: للثغة في لسانه عن الزجاج ، وقيل: كان في لسانه ثقل ، فنسبه لما كان عليه أولا ، عن الحسن ، وقيل: كان في لسانه لثغة فرفعها الله تعالى ، وبقي ثقل في لسانه ، عن أبي علي ، وقيل: بل كذب عليه تلبيسا على العوام ، وقيل: قال ذلك استقل بكمه ، وقيل: سماه مهينا ، وغير مبين استخفافا حقيقة — وإلا — فهو كان من أكابر بني إسرائيل ، ويدعي النبوة ، ويظهر المعجزة ، وقد أفصح وبين ، وعجب . . . أن موسى عليه السلام دعاهم إلى عبادة الله تعالى ، وأظهر الحجج ، وهو أورد حديث موسى ، وذكر ما ينفرهم عن إتباعه لفقره ، وأعجب منه

... الفضل بأسباب الدنيا ، وموسى ... الفضل بأسباب الدين ، ولو عقلوا لقالوا: هذا الذي تذكر وتعد يوجب كونك محقا ، ولكن لبس عليهم فضلوا ﴿فلو ألقي عليه أساورة﴾ يعني : هلا إن كان صادقا ألقي عليه أساورة ﴿من ذهب﴾ تكون دلالة لسيادته ، فلذلك قال هذا عن مجاهد ، والسوار الزينة التي تلبس في اليد ، ﴿أو جاء معه الملائكة﴾ قيل: إنما ذكر أمر الملائكة لما كان يسمع من موسى من ذكرهم تكذيبا له عن أبي مسلم ﴿مقترنين﴾ قيل: متتابعين عن قتادة ، وقيل: يعاون بعضهم بعضا عن السدي ، وقيل: مجتمعين يمشون معه عن مجاهد ، يعني يشهدون له بالرسالة ، ويؤدون معه ، وهذا من اقتراح الجهال ، فإن الملك إن كان لا يرى فلا فائدة فيه ، وإن كان يرى فلا بد من معجز يعلم أنه ملك ، فيكفي المعجز في معرفة الرسول عن الملك ﴿فاستخف قومه﴾ يعني القبط وأتباعه ، وقيل: حملهم على الخفة والجهل ، وقيل: وجدهم جهالا ، خفيفي العقول ، ولولا ذلك ما أطاعوه ، وقيل: استخفهم أي : خفوا في طاعته ﴿فأطاعوه﴾ وقيل: قبلوا منه مخاريقه ، و لم يقبلوا من موسى حقائقه ، وهكذا حال العوام الجهال ، في كل زمان ، ﴿إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ خارجين عن طاعة الله تعالى إلى الكفر ﴿فلما آسفونا﴾ قيل: أغضبونا عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ، والسدي ، وابن زيد ، والله تعالى يغضب على العصاة ، ويرضى عن المطيعين ، وقيل: أسفوا رسلنا ، وأضافهم إلى نفسه ، تعظيما لشأنهم ، والأسف الحزن ، والتأسف يجوز على الله تعالى ، وقيل: الأسف غضب بعد طول الحلم والإمهال ، ففيه زيادة صفة على الغضب ، ولذلك قال تعالى في قصة موسى ﴿غضبان أسفا﴾ وقيل: خالفونا عن الحسن بن الفضل ، وليس بالظاهر في اللغة ، إلا أن يحمل على أنهم خالفوا أمرنا ، وفعلوا ما يوجب الأسف ، وفي هذا تعسف ﴿انتقمنا منهم﴾ أي : عاقبناهم بسوء فعلهم جزاء ، وقيل: انتقمنا لأوليائنا منهم ﴿فأغرقناهم أجمعين﴾ لم ينج منهم أحد ﴿فجعلناهم سلفا﴾ قيل: سلفا لكفار هذه الأمة إلى النار ، ولمن هؤلاء مثل حالهم يتقدمون إليها ، وقيل: سلفا يعتبر بهم ﴿ومثلا﴾ وعبرة وموعظة عن قتادة ، والسدي ﴿للآخرين﴾ قيل: لمن جاء بعدهم ، وقيل: لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتعظون به.

الأحكام

يدل قوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ أنه أراد من الجميع الرجوع إلى الحق ، فيبطل قول المجبرة في الإرادة والمخلوق ، لأنه لو خلق فيهم الكفر وأراده لم يكن لبعثة الأنبياء وإظهار المعجزات فائدة ، بل كان عبثا ، فتعالى الله عن ذلك ، ويدل قوله ﴿إننا لمهتدون﴾ أنهم يقدرون على الاهتداء ، ويدل قوله ﴿ينكثون﴾ أن النكث فعلهم ، ويدل قوله ﴿أليس لي ملك مصر﴾ أن القوم كانوا جهالا اعتقدوا الفضل برتبة الدنيا ، و لم يعلموا أنها قسمة وليست باستحقاق ، وعن أبي : الدرداء ﴿لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى منها فرعون شربة﴾ ويدل قوله ﴿سلفا ومثلا﴾ على وجوب التفكر في أحوالهم ، والاتعاظ بهم ، لئلا يسلك طريقتهم ، فيناله ما نالهم.

محذوف[١] دل عليه قوله : ﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ المصدقة له ﴿ إذا هم منها يضحكون ﴾ فاجؤا وقت ضحكهم منها[٢]، استهزؤا بها ، وسموها سحرا ، ومعنى مفاجأتهم مبادرتهم إلى الضحك حين جاءتهم .

قال الرازي : واعلم أن المقصود من إعادة قصة موسى عليه‌السلام وفرعون في هذا المقام تقرير للكلام الذي تقدم ، وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بسبب كونه فقيرا عديم المال والجاه ، فبين الله تعالى أن موسى عليه‌السلام ــ بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التي لا يشك في صحتها عاقل ــ أورد فرعون عليه هذه الشبهة الذي ذكرها كفار قريش ، فقال : إني غني ، كثير المال والجاه ، ألا ترون أنه حصل لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي ، وأما موسى فإنه فقير مهين ، وليس له بيان ولسان ، والرجل الفقير كيف يكون رسولا من عند [الله إلى] الملك الكبير الغني ، فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة، وهي قولهم : ﴿ لولا أنزل هذه القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قد أوردها بعينها فرعون على موسى ، ثم [إنا] انتقمنا منهم فأغرقناهم ، والمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين ، أحدهما : أن الكفار والجهال أبدا يحتجون على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة ، فلا تبال بها ، ولا تلتفت إليها ، والثاني : أن فرعون على غاية كمال حاله في الدنيا صار مقهورا باطلا ، فيكون الأمر في حق أعدائك هكذا ، فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة ، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة، وعلى هذا فلا يكون هذا تكريرا للقصة البتة ، وهذا من نفائس

---

(١) المحذوف : هو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية .وقد دل عليه بقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ .

(٢) هذا تبيين معنى المفاجأة ، كأنه قيل : كيف جاز أن يجاب عن لما بإذا التي تفيد المفاجأة ؟ قلنا : لأن فعل المفاجأة معها مقدر ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم .

الإيجاز[١] . والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ و ما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ أراد من الآيات التسع ، التي هي : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وسائرهن ، وستأتي إن شاء الله تعالى ، والمعنى : أن صفة كل واحدة منها يقال فيها : هي أكبر من أختها ، وليس المراد أن كل واحدة أكبر من كل واحدة ؛ لأنه تناقض يؤدي إلى أن كل واحدة فاضلة مفضولة في حالة واحدة ، وإنما الغرض أنهن موصوفات بالكبر ولا يكدن يتفاوتن فيه كالعادة في الأشياء المتقاربة ، فتارة يفضل هذا ، وتارة يفضل ذاك ، وهذا كقوله :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري[٢]

والمراد ﴿ بأختها ﴾ التي تقدمتها ، فكأنه قال : وما نريهم من آية إلا هي أكبر من التي تقدمتها لانضمامها إليها .

ثم قال تعالى : ﴿ و أخذناهم بالعذاب ﴾ بالقحط الذي أصابهم ، والجراد والطوفان وغيرها ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي : إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان .

ثم قال تعالى : ﴿ و قالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ عنوا به موسى صلى الله عليه وآله ، إنما سموه ساحرا ، مع قولهم : ﴿ إننا لمهتدون ﴾ لأنهم وعدوا بالاهتداء في المستقبل ، وهم في حال النداء غير مهتدين ، وقيل : الساحر عندهم : العالم الماهر لاستعظامهم علمه .

---

(١) في الرازي (وهذا من نفائس الأبحاث) وما بين أقواس الزيادة من الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه . انظر تفسير الرازي ٢١٧/٢٧.

(٢) وهذا أيضا مثل قول الخنساء في وصف بنيها : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

﴿ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي : بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة ، أو بما عهد عندك من النبوة ، وبما أوصى إليك ، كما قال عز وجل : ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾ [1] يريد ألم أوص إليكم ، والعهد على وجوه أخر سنذكرها إن شاء الله تعالى .

ثم قالوا : ﴿إننا لمهتدون﴾ بهداك الذي تدعونا إليه ، ووجه الجمع بين هذا وبين تسميتهم له ساحرا ، والساحر لا يهدي هو أنهم وعدوه الاهتداء وعدا منويا إخلافه وهو وعد مشروط فيه أن يكشف عنهم العذاب الذي في الأعراف ، فلا منافاة بين تسميتهم له ساحرا ، وبين قولهم : ﴿إننا لمهتدون﴾ .

ثم بين تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد فقال سبحانه : ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ أي : فاجؤا النكث ، وخلفوا الوعد أول وقت كشف العذاب .

ولما حكى الله تعالى معاملة قوم فرعون مع موسى ، حكى أيضا معاملة فرعون معه فقال : ﴿و نادى فرعون في قومه﴾ أي : أمر من ينادي في مجامع قومه تعجيبا للناس ، وتشهيرا لعظمته ، أو جمع رؤساء قومه ونادى فيهم بنفسه ﴿قال يا قوم﴾ أي : رفع صوته قائلا يا قوم ﴿أ ليس لي ملك مصر وهذه الأنهار﴾ يعني : أنهار النيل [2] ، ومعظمها أربعة ، نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس ﴿تجري من تحتي﴾ قيل : كانت تجري من تحت قصره ، وقيل : تحت سريره لارتفاعه ، وقيل : تحت يده ، أو تحت جناحه وبساتينه ﴿أ فلا تبصرون﴾ كأنه قال : أتجهلون هذه العظمة في ملكي أفلا تبصروها كأنكم لا أبصار لكم ، ولقد استعظم ملك مصر

---

١) يس : ٦٠ .

(٢) أي : الأنهار المتفرعة من نهر النيل .

حتى ادعى لأجله الربوبية ، وهذا من جهله ، لأن حاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله ، وقوة جاهه على فضيلة نفسه .

ثم قال : ﴿أم أنا خير﴾ أي : بل أنا خير ﴿من هذا الذي هو مهين﴾ .

وقال في التجريد : أم [هذه] متصلة لأن المعنى : أفلا تبصرون ، أم تبصرون ، إلا أنه وضع قوله : ﴿أنا خير﴾ موضع تبصرون ، لأنهم إذا قالوا له : أنت خير ، فهم عنده بصراء ، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب ، وقال أبو عبيدة ، وكثير من المفسرين : أم بمعنى بل من غير همزة [١] ، وقال الفراء وغيره من أهل المعاني : الوقف على قوله : ﴿أم﴾ وعنده تمام الكلام ، وفي الآية إضمار تقديره : أفلا تبصرون أم تبصرون ، ثم ابتدأ فقال : ﴿أنا خير﴾ حكاه الثعلبي [٢] . ومعنى ﴿مهين﴾ حقير ضعيف يعني موسى عليه السلام .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿مهين﴾ أي : ليس له همة في الملك ، وكان يحسب تزهده في الدنيا عجزا ، ووهنا ، جهلا من عدو الله وظلما .

ثم قال : ﴿ولا يكاد يبين﴾ في كلامه من الرتة ، أي : العقدة التي كانت في لسانه ، والبعد عن فصاحة الأنبياء عليهم السلام ، وكانوا كلهم بلغاء .

فإن قيل : أليس موسى عليه السلام سأل الله أن يزيل الرتة عن لسانه بقوله : ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ فأعطاه الله تعالى بقوله : ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ ؟ فكيف عابه فرعون بتلك الرتة ؟ والجواب من وجهين : الأول : أن فرعون أراد بقوله : ﴿ولا يكاد يبين﴾ حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي ، ولم

---

(١) وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله : ﴿أفلا تبصرون﴾ ثم ابتدأ فقال ﴿أم أنا خير﴾ بمعنى : بل أنا خير .

(٢) وهذا كما تقول لغيرك : أتأكل أم .. أي : أتاكل أم لا تأكل ، تقتصر على ذكر كلمة أم إيثارا للاختصار ، فكذلك هنا .

يرد أنه لا قدرة له على الكلام ، والثاني : أنه عابه بما كان عليه أولا ، وذلك أن موسى كان عند فرعون زمانا طويلا في لسانه حبسة ، فنسبه فرعون إلى ما عهد إليه من الرتة ؛ لأنه لم يعلم أن الله تعالى أزال ذلك العيب عنه .

ثم قال : ﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب﴾ أي : مسكا من الذهب ، وحلية من التبر ، تكون في الأيدي للنساء والملوك ، والله أعلم .

وأراد فرعون أنه لو كان نبيا لكان مسورا ؛ لأن ذلك دلائل الملك ، وكانوا إذا أرادوا تشريف الرجل سوروه وطوقوه بطوق من ذهب ، يقول : لو كان صادقا لجعل الله ذلك دليلا على ملكه ، أو أراد بإلقاء الأساورة عليه مقاليد الملك ، لا التسوير حقيقة .

ثم قال : ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ متابعين ، يشهدون له بالنبوة ، وقيل : أعضادا له وأنصارا ، وقال الزجاج : مقترنين ، أي : يمشون معه [فيدلون على صحة نبوته] [١] .

﴿فاستخف قومه﴾ استفزهم وحملهم على الخفة ، وترك التدبر ، أي : استخف أحلامهم ، وحملهم على خفة الحلم بكيده وغروره ﴿فأطاعوه﴾ في تكذيب موسى ﴿إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ أي : مجاوزين الغاية في الكفر .

﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾ أي : انتصرنا للدين وأهله ﴿فأغرقناهم أجمعين﴾ ومعنى ﴿آسفونا﴾ أغضبونا بكفرهم ، من أسف إذا اشتد غضبه ، وأسف الله : غضبه وعقابه [٢] ، وأسف المخلوق : عرض حادث في قلوب المحدثين .

---

(١) ما بين القوسين تمام قول الزجاج . تفسير الرازي ٢١٩/٢٧ .

(٢) اعلم أن ذكر الأسف في حق الله محال ، فبين هنا معنى الأسف والغضب في حق الله ، والفرق بينه ، وبين أسف المخلوق .

ثم قال تعالى: ﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ جمع سالف ، كخادم وخدم ، وقرأ حمزة والكسائي (سلفا) بضمتين جمع سليف .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : معنى ﴿ سلفا ﴾ أي : سالفين ، ومعنى سالفين أي ماضين ، قال عز وجل : ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ [1] أي : عما مضى وتقدم وخلا .

المعنى : جعلناهم مثل من قد مضى من المهلكين ، أو جعلناهم قدوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عذابهم ﴿ ومثلا ﴾ من الأمثال ﴿ للآخرين ﴾ أي : حديثا عجيبا عظيم الشأن ، سائرا مسير المثل في الناس ، يقال : مثلكم مثل قوم فرعون .

واعلم أنه تعالى ذكر أنواعا كثيرة من كفرياتهم في هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة ، فأولها : قوله : ﴿ وجعلوا له من عباده جزأ ﴾ .

وثانيها : قوله : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثا ﴾ .

وثالثها : قوله : ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ .

ورابعها : قوله : ﴿ لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ .

وخامسها : قوله : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ﴾ .

[سبب النزول]

قال المفسرون : سبب الآية أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لما قرأ على قريش ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [2] قال عبد الله بن الزبعرى : يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : للكل ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ، ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبيئا ، وتثني عليه وعلى أمه ، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما

---

(١) المائدة : ٩٥ .

(٢) الأنبياء : ٩٨ .

وعزير والملائكة يعبدون ، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا وضحكوا ، فسكت صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله : ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [1] الآية [ونزلت هذه الآية أيضا] .

قالوا : والمعنى لما ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلا ، وجادل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعبادة النصارى ﴿إذا قومك﴾ يا محمد ﴿منه﴾ من هذا المثل ﴿يصدون﴾ عن الحق ، بضم الصاد ، من أجل هذا المثل ، أي : يعرضون عنه ، وقرئ (يصدون) بكسر الصاد ، أي : يضحكون ، ﴿وقالوا آلهتنا خير أم هو﴾ أي : عيسى ، أرادوا ليست بخير من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا هينا ؛ لأنه أخف عندك .

[سبب النزول عند أهل البيت عليهم السلام]

قلت : وأحسن من هذه الرواية وأصح ، في سبب نزول هذه الآية ، ما رواه أئمتنا عليهم السلام ، من ذلك ما رواه الهادي إلى الحق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي عليه السلام ذات يوم : (يا علي لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح عليه السلام لقلت فيك مقالا ، لا تمر بملأ إلا أخذوا من أثرك التراب ، يبغون بك البركة ، غير أنك يكفيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) فقال المنافقون لما أن سمعوا ذلك : ما رضي محمد أن يضرب لابن عمه مثلا إلا عيسى بن مريم ، قالوا : والله لآلهتنا التي كنا نعبدها خير منه ، يعنون عليا ، فأنزل الله ما أنزل فيهم ، وهم الحارث بن حلزة ، وأصحابه من المنافقين .

---

(١) الأنبياء : ١٠١ .

ثم أخبر الله سبحانه بأهم إنما ذكروا هذا جدلا وطلبا للتعنت ، لا إعظاما لعيسى بن مريم صلى الله عليه ، ثم أخبر أن عيسى بن مريم عبد من عباد الله أنعم الله عليه ، فكيف لا يضرب الله به المثل لإخوانه المؤمنين . اهـ ومثل هذا ذكر الحسين بن القاسم عليه السلام .

ثم قال : ومعنى ﴿ و قالوا أآلهتنا خير أم هو ﴾ أي : قالوا فيما بينهم : آلهتنا خير أم علي بن أبي طالب .

ومن ذلك ما رواه في البلغة ، من طريق أهل البيت عليهم السلام ، وأصحاب الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام عند انصرافه من فتح خيبر :(لولا إني أخاف أن تقول طوائف من أمتي فيك كما قالت النصارى في المسيح لقلت اليوم فيك مقالا فلا تمر بملأ إلا أخذوا من تراب قدميك ، وفضل وضوؤك يستشفون به ، ولكن حسبك أن تكون مني بمترلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)

وروي بلفظ (لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي) فقال المنافقون في ذلك ، فأنزل الله الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا ﴾ أي : ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدال والغلبة ، لا لطلب التمييز بين الحق والباطل ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ مبالغون في شداد الخصومة ، عادهم اللجاج .

ثم قال تعالى : ﴿ إن هو ﴾ أي : عيسى عليه السلام ﴿ إلا عبد ﴾ كسائر العبيد ﴿ أنعمنا عليه ﴾ بخلقه آية من غير أب ، وبالنبوة ﴿ و جعلناه مثلا لبني إسرائيل ﴾ أي : آية عجيبة خلقه من غير أب ، فهو كالمثل السائر .

﴿ و لو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ قال في التجريد : في معناه قولان ، أحدهما : إنا قادرون على العجائب كما خلقناه من غير أب ، فنحن قادرون على أن نولد منكم يا رجال بني آدم ملائكة يخلفونكم في الأرض كما

يخلفكم أولادكم ، وثانيهما : لجعلنا بدلا منكم يا بني آدم ملائكة ، وأهلكناكم ، أو بدلا من كفار قريش ، و (من) هنا مثلها في قوله :﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾[1] .

وقوله :﴿و إنه لعلم للساعة﴾أي : وإن عيسى لشرط من أشراطها ، تعلم بـه ، سمي الشرط علما لحصول العلم عنده ، أي : يعلم به قرب مجيئها .

[نزول عيسى وصلاته بعد الإمام المهدي عليه السلام]

قال الهادي عليه السلام : يقول هبوطه إلى الأرض وظهوره دليل على قرب الساعة .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : المعنى فيما روي أن ظهور عيسى عليه السلام علم ودليل على الساعة ، إذا ظهر مع المهدي في آخر الزمان والله أعلم .

قال في البرهان :وفي قراءة أبي﴿لذكر للساعة﴾وذكر وعلم متقاربان في المعنى اهـ

وقيل : إن الضمير في ﴿إنه﴾ للقرآن ، أي : يعلم به قيام الساعة ؛ لأن فيه الإعلام بقربها ، وفي الحديث (إن عيسى يترل على ثنية في الأرض المقدسة يقال لها : أفيق ، وعليه ممصرتان ـ أي : ثوبان حمراوان ـ وشعر رأسه دهين ، وبيده حربه يقتل بها الدجال ، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح ، والإمام يـؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، يقتل الخنازير ويكسر الصليب ، ويخرب البيع والكنائس ، ويقتل النصارى ، إلا من آمن به)[2]

---

١) التوبة : ٣٨ .

٢) ذكر هذا الحديث الرازي في تفسيره ٢٢٢/٢٧. وقال في تخريج الكشاف : أخرجه الثعلبي بغير سند ، وهو موجود في أحاديث متفرقة ، فقوله :(ثنية أفيق) عند الحاكم من حديث عثمان بن أبي العاص ، وقوله :(وعليه ممصرتان) عند أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة ، وقوله :(والناس في صلاة الصبح) عند ابن ماجه من حديث أبي أسامة . وقوله :(فيقتل الخترير ويكسر الصليب) في الصحيح من حديث أبي هريرة . الكشاف ٢٦١/٤.

وقيل : إحياء عيسى الموتى دليل على البعث والساعة ، قاله ابن إسحاق .

قال في البلغة : إنما يترل عيسى عليه‌السلام بعد زوال التكليف .

وروى إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد بن رسول الله رحمة الله عليه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة فيترل عيسى عليه‌السلام فيقول أميرهم :تعال صل بنا ، فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء بكرم الله) أخرجه مسلم في صحيحه . اهـ

وقد روي أنه يصلي وراء المهدي أولا ، ثم يتقدم إعلاما بأنه لم يترل مستقلا بل تابعا ، مؤيدا حاكما بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . ثم قال عز وجل : ﴿ **فلا تمترن بها** ﴾ من المرية ، وهي الشك ، أي : لا تشكون فيها ﴿ **واتبعوني** ﴾ أي : اتبعوا هداي في رسلي ﴿ **هذا** ﴾ الذي دعوتكم إليه ﴿ **صراط مستقيم** ﴾ ثابت غير معوج

﴿ **ولا يصدنكم الشيطان** ﴾ على وجه التحذير ، أي : لا يصرفكم عن الحق والصراط المستقيم ﴿ **إنه لكم عدو مبين** ﴾ قد أبان لكم عداوته بإخراجه أباكم آدم من الجنة ، وقيل : هو أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوله ، ويجوز أن يكون حكاية كلام عيسى لقومه بدليل ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات** ﴾ أي : لما جاء قومه بالمعجزات ، أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات ﴿ **قال قد جئتكم بالحكمة** ﴾ أي : الإنجيل والشرائع ﴿ **ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه** ﴾ كانوا يختلفون في الديانات ، وما يتعلق بالتكليف ، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته ، والسؤال عنه ، فبعث لبيان الأول ، وهو ما احتاجوا إلى بيانه دون الثاني ؛ لأنه لا يعنيهم .

وقال بعض المفسرين : إن البعض هنا بمعنى الكل ، وضعف لأن البعض لم يرد بمعنى الكل ، وعن مجاهد : ﴿ بعض الذي تختلفون فيه ﴾ من تبديل التوراة ، وقال مقاتل : ﴿ بعض الذي تختلفون فيه ﴾ من أمر دينكم عموما في أمر دينهم ، وقال ابن جرير

: كان بينهم اختلاف في أمر دينهم ودنياهم ، فبين لهم أمر دينهم فقط ، وقال ابن عباس : ما تختلفون فيه من أمري وأمر دينكم ، وقال قتادة : يعني اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى .

ولما بين الأصول والفروع [1] قال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ بطاعته واحذروا الكفر به والإعراض عن دينه ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أبلغه إليكم من التكاليف ، فطاعتي من طاعة الله ﴿ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ﴾ لا تشركوا به شيئا ﴿ هذا ﴾ الذي دعوتكم إليه ﴿ صراط مستقيم ﴾ ثابت فالزموه .

﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ أي : الفرق المتحزبة بعد عيسى ، وهم الملكانية ، واليعقوبية والنسطورية ، وقيل : اليهود والنصارى ، زعمت اليهود أن عيسى لغير رشده ، وزعمت النصارى أنه ابن الله .

وقوله : ﴿ من بينهم ﴾ أي : في ذات بينهم ، والضمير لقومه الذين بعث إليهم عيسى ، أي : اختلفوا من بين الباقين الذين لم يختلفوا ﴿ فويل للذين ظلموا ﴾ أي : لهم ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ الويل : الهلاك ، وهو وعيد لهم .

وقوله : ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم ﴾ بدل من الساعة ، أي : بيان للمراد من الانتظار ، ومعنى ﴿ بغتة ﴾ أي : مفاجأة بلا استعداد ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ غافلون بأمور دنياهم ، فإن قالوا : قوله : ﴿ بغتة ﴾ يفيد عين ما يفيده قوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فما الفائدة فيه ؟ قيل في الجواب : يجوز أن تأتيهم بغتة ، وهم يعرفونه ، بسبب أنهم يشاهدونه .

---

١) ــ لم يسبق ذكر للأصول والفروع ، وقد ذكر الرازي هذا اللفظ بعد أن ذكر بأن الحكمة المراد بها أصول الدين ، وبعض الذي يختلفون فيه معناه فروع الدين ، الرازي ٢٢٣/٢٧.

ثم اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة﴾ ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة ، فأولها قوله سبحانه : ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾ [(١)] الإخلاء : الأحباء في الدنيا ، جمع خليل من الخلة ، وهي المحبة ، والصداقة ﴿يومئذ﴾ يوم تأتيهم الساعة ﴿بعضهم لبعض عدو﴾ متعادون ، تنقلب كل خلة عداوة وبغضاء في ذلك اليوم ؛ لأنها جرتهم إلى المعصية ﴿إلا﴾ أي: إلا خلة المتحابين في الله وفي تقواه فخلتهم باقية ؛ لأنها جرتهم إلى الثواب والطاعة .

نزلت في أبي بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وكان يكثر مجالسة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويجامله ، وصنع ضيافة ودعا إليها ، ودعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل ، وكان أبي بن خلف صديقا له فعاتبه على الشهادتين ، فقال عتبة : أبى أن يأكل من طعامي ، وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت ، والشهادة ليست في نفسي ، فقال له أبي : وجهي من وجهك حرام إن لم تلق محمدا فتطأ عنقه ، وتبزق في وجهه ، وتلطم عينه ، فوجد عقبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ساجدا في دار الندوة ، ففعل ما أمر به أبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فكان ممن أسر يوم بدر ، فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليا عليه السلام بقتله ، فقتله .

---

(١) قال الحاكم الجشمي في أحكام هذه الآية : تدل الآيات أن المودة في معصية الله تنقلب يوم القيامة عداوة ، حتى يتبرأ بعضهم من بعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، وتدل أن مودة المتقين ، باقية في الجنة ، ففيه حث على التواد في الطاعة ، وزجر عن التواد في المعصية ، ويدل قوله ﴿لا خوف﴾ أن المؤمن لا يلحقه يوم القيامة خوف ، وخلافا لما قاله بعضهم ، ويدل قوله ﴿أنتم وأزواجكم﴾ على تمام السرور لما يجمع بينه وبين زوجته ، والصحيح أنه الحور العين ، لأنه عم ، ويدل قوله ﴿ما تشتهي الأنفس﴾ على أن نعيمهم يزيد على حسب شهواتهم ، ويدل قوله ﴿بما كنتم تعملون﴾ أن ذلك جزاء على أعمالهم ، وأنها حادثة من جهتهم ، فيبطل قول المجبرة في المخلوق

قال في التجريد : الثاني منها : قوله تعالى : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ أي : يقال ذلك للمتحابين في الله تعالى ، والخوف : الغم لأمر متوقع ، والحزن : الغم لأمر قد وقع .

قال الرازي : وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح أولها : أن الحق سبحانه خاطبهم من غير واسطة .

وثانيها : أنه تعالى وصفهم بالعبودية ، وهذا شرف عظيم ، بدليل أنه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج قال سبحانه : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ﴾ .

وثالثها : قوله : ﴿ لا خوف عليكم اليوم ﴾ فأزال عنهم الخوف في يوم القيامة بالكلية ، وهذا من أعظم النعم .

ورابعها : قوله : ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ فنفى عنهم الحزن بالكلية .

ثم قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ صفة لعبادي ، أي : جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا ، وقيل : ﴿ الذين آمنوا ﴾ مبتدأ ، وخبره مضمر ، والتقدير : يقال لهم ادخلوا الجنة ، ويحتمل أن يكون المعنى : أعني الذين آمنوا .

وروي أنه إذا بعث الناس فزع كل أحد ، فينادي ﴿ يا عبادي ﴾ الآية فيرجوها كل أحد ، ثم يتبعها ﴿ الذين آمنوا ﴾ فييأس كل أحد غير المسلمين ، أي : المؤمنين .

الثالث من أحوال القيامة : أنه تعالى إذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن ، وجب أن يمر حسابهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها ، ثم يقال كما قال سبحانه : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم ﴾ قيل : نساؤهم ، وقيل : قرناؤهم ﴿ تحبرون ﴾ تسرون سرورا يظهر حباره ، أي : أثره على وجوههم ، وفائدة الجمع بينهم وبين أزواجهم كمال السرور ، وهذا من جملة ما يقال لهم .

ثم قال : ﴿ يطاف عليهم ﴾ الطائف : خدام لهم ﴿ بصحاف من ذهب ﴾ جمع صحفة ، وهي القصعة الواسعة العريضة من أطعمة الجنة ﴿ و أكواب ﴾ جمع كوب ، وهو إناء مستدير الرأس لا عروة له ، قال ابن الجوزي : وإنما كانت بغير عروة لشرب الشارب من أين شاء ؛ لأن العروة ترد الشارب عن بعض الجهات ، وروى الثعلبي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن أدنى أهل الجنة مترلة لمن له ثلاث مائة خادم ، ويغدى عليه ويراح بثلاث مائة صحفة ـــ لا أعلمه قال : إلا من ذهب ـــ في كل صحفة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلذ كما يلذ أوله ، ومن الأشربة ثلاث مائة إناء ، في كل إناء ما ليس في الآخر ، وإنه ليلذ آخره كما يلذ أوله ، وأن له في الحور لاثنتين وسبعين زوجه سوى أزواجه في الدنيا) فقوله : ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ إشارة إلى المطعوم ، وقوله : ﴿ وأكواب ﴾ إشارة إلى المشروب

ثم إنه تعالى ترك التفصيل ، وذكر بيانا كليا ، فقال سبحانه : ﴿ و فيها ﴾ أي : في الجنة ﴿ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ أي : تستلذ النظر إليه ، وهذا حصر لأنواع النعم ؛ لأنها إما مشتهيات في النفوس ، أو مستلذات في العيون ، وتمم ذلك بقوله : ﴿ و أنتم فيها خالدون ﴾ لأنها لو انقطعت لم تطب .

ثم قال تعالى : ﴿ و تلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أي : أسكنتموها ، وتُرِكْتُمْ فيها وملكتموها ، شبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة .

ولما ذكر الطعام والشراب فيما تقدم ذكر هاهنا حال الفاكهة فقال سبحانه : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : لا تأكلون إلا بعضا[1] ، وأعقابها باقية في الشجر زينة لها أبدا .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : (لا تنزع ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها)[1] .

---

(١) يعني أن من في قوله : ﴿ منها تأكلون ﴾ تفيد التبعيض .

واعلم أنه تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وآله وسلم إلى العرب أولا ، ثم إلى العالمين ثانيا ، والعرب كانوا في ضيق شديد ، بسبب المأكول والمشروب والفاكهة ، ولهذا السبب تفضل الله تعالى بهذه المعاني مرة بعد أخرى تكميلا لرغائبهم ، وتقوية لدواعيهم .

ثم اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعد أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر في القرآن فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [٢] المجرم : يعم الكافر والفاسق ﴿ لَا يُفَتَّرُ ﴾ لا يخفف ﴿ عَنْهُمْ ﴾ من قولهم : فترت عنه الحمى إذا نقص حرها ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي : ساكتون سكوت يأس ، والمبلس : الساكت عن يأسٍ مِنْ فَرَحٍ [٣]

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد أنهم يائسون لا يرجون ، قال سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام وأبلس لما أعجزته المعاذر

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بتعذيبهم بجهنم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم لارتكاب أسباب العذاب .

---

(١) أخرجه البزار عن ثوبان . الكشاف ٤/٢٦٣ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في أحكام هذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾

الأحكام

يدل قوله ﴿ إن المجرمين ﴾ أن كل مجرم في عذاب جهنم ، والفاسق مجرم ، وتدل أن الفساق يكونون في النار ، ومتى قيل: أراد به الكفار لذلك قال ﴿ولكن أكثرهم للحق كارهون ﴾ وقال ﴿ أم ابرموا أمرا ﴾ ؟ قلنا: اللفظ عام ، والفاسق يكره الحق عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفاسق يكيد المؤمنين أيضا ، فلا ما نع من حمل الآية على عمومها ، وتدل ﴿ لا يفتر ﴾ على اتصال العذاب ، ويدل قوله ﴿ وما ظلمناهم ﴾ الآية على أشياء منها : أن العقاب مستحق على أفعالهم ، ومنها : أن الكفر والظلم فعلهم ليس بخلق الله ولا إرادته ، ومنها أنهم قادرون على تركه إذ لو عاقبهم على ما لا يقدرون على تركه لكان ظالما ، ومنها : أنه قادر على الظلم لأنه تمدح بأنه لا يظلم ، ومالا يقدر عليه لا يصح التمدح بتركه ، وكل ذلك يبطل مذهب المجبرة في المخلوق والاستطاعة والإرادة ، ويدل قوله ﴿ ورسلنا ﴾ أن علينا حفظة يكتبون الأعمال ، فحذر بذلك من ارتكاب المعاصي ، وكذلك بقوله ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ لأنه من الوعيد العظيم .

(٣) وقال في الكشاف : المبلس : الساكت سكوت يأس من فرج .

﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ أي : ليمتنا فنستريح ، من قضى عليه إذا أماته ، ومالك : هو رئيس خزنة النار ، نادوا ، [فإن قلت كيف قال : ﴿ونادوا يا مالك﴾][1] وقد وصفهم بالإبلاس ؛ [قلت] :لأن عذابهم في أزمنة طويلة ، فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس ، ويستغيثون أوقاتا لشدة ما هم ، والمعنى : سل ربك أن يقضي علينا الموت ، فيسكت مالك عن جوابهم مدة طويلة ، واختلف فيها ، فعن ابن عباس : ألف سنة[2] . وعن كعب : مائة سنة ، وعن ابن عمر ومقاتل : أربعين سنة ، وفي وجه سكوته منهم قولان ، أحدهما : حتى يؤمر بإجابتهم ، والثاني : استخفافا هم ، وزيادة في غمهم ، ثم يرد عليهم كما حكى الله عز وجل :﴿ قال إنكم ماكثون﴾ أي : مقيمون في العذاب ، خالدون فيه ، وفيه استهزاء به .

ثم بين تعالى أن مالكا لما أجابهم بقوله:﴿ إنكم ماكثون﴾ ذكر بعده ما هو كالعلة لذلك الجواب ، فقال سبحانه ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ أي : التوحيد ، وشرائع الإسلام ، على ألسنة الرسل ، قيل : هذا من كلام الله تعالى لقريش في الدنيا ، وقيل: من كلام مالك لأهل النار .

---

(١) ما بين أقواس الزيادة غير موجودة في المصابيح ، وهي موجودة في الرازي والكشاف ، وقد أثبتناها ليتضح المعنى من كلام المصنف .

(٢) أخرجه الحاكم من رواية سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله :﴿ونادوا يا مالك﴾ قال : مكث عنهم ألف سنة ، ثم يقول :﴿ إنكم ماكثون﴾ وروى الترمذي من رواية قطبة بن عبد العزيز ، عن الأعمش ، عن سمرة بن عطية ، عن شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون ، فيغاثون بطعام من ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع) ــ الحديث ، وفيه قال الأعمش بين أن ينزل عليهم ، وإجابة مالك ألف عام ، وقال الترمذي : قطبة ثقة ، وبعض أهل الحديث كان يرفع هذا ، وهذا أخرجه الطبراني والبيهقي ، في الشعب ، ورواه الطبري من رواية شريك عن الأعمش موقوف ، ولم يفصل الكلام الأخير ، ثم رواه من طريق قطبة مرفوعا ، ولم يفصل أيضا . الكشاف ٢٦٥/٤.

ثم قال: ﴿ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ أي: ينفرون عنه؛ لأن معه التعب، ومع الباطل الدعة، وعبر عن الكل بالأكثر.

ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة، ذكر كيفية مكرهم وفساد باطنهم في الدنيا فقال سبحانه: {أم أبرموا} مشركوا مكة {أمرا} من كيدهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والإبرام: الإحكام ﴿فإنا مبرمون﴾ كيدنا، كما أبرموا كيدهم، وفي الأمر الذي أبرموه قولان، أحدهما: أنه أمر في إهلاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه، أو يخرجوه، أو يثبتوه، حين اجتمعوا في دار الندوة، وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أنه أمر في رد ما جاء به نحو قولهم في القرآن: شعر، أو سحر، أو أساطير الأولين، عن قتادة.

ثم قال تعالى: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾ والسر: ما كان خفية، أو أسروه في أنفسهم، والنجوى: ما دار بينهم من الكلام، وتناجوا به بينهم من كيده صلى الله عليه وآله وسلم ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ يريد بلى نسمع ونطلع عليها، وحفظتنا وهم الملائكة يكتبون سرهم ونجواهم، وهو وعيد لهم.

وعن يحي بن معاذ الرازي: (من ستر من الناس ما أبدى لمن لا يخفى عليه شئ في السموات ولا في الأرض، فقد جعله أهون الناظرين إليه، وذلك من علامات النفاق)[1].

ثم قال سبحانه: ﴿قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين﴾[2] قال الهادي إلى الحق عليه السلام: العابدون: هم الآنفون، يقول الله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: قل لمن

---

(١) في الكشاف والرازي: (من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شئ ...) إلخ ما ورد هنا.

(٢) قال الحاكم الجشمي في أحكام هذه الآية:

الأحكام تدل الآية على تتريه الله تعالى عن الولد وإبطال قول النصارى ومشركي العرب، وتدل على أنه اله في السماء والأرض، فتدل على نفي المكان، وتدل على أن أحدا لا يعلم وقت القيامة إلا هو.

زعم أن لنا ولدا ﴿إن كان للرحمن ولد﴾ كما تزعمون ، فأنا أول الآنفين ، المبغضين عن عبادة من له ولد ، ومثل هذا في تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام ، واستشهد بقول الشاعر : وأعبد أن يهجا كليب بدارم

يريد أغضب وآنف ، وذكر مثل هذا في البلغة ، قال ابن قتيبة عبدت من كذا ، أعبد عبدا ، فأنا عبد وعابد ، أي : أنف ، وهذا قول ابن السائب ، وأبي عبيدة [1].

وفي الكشاف : وأنا أول العابدين لذلك الولد ، والمعظمين له ، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ، وأسبقكم إلى عبادته ، وهذا [كلام]وارد على سبيل الفوض والتمثيل ، لغرض [وهو]المبالغة في نفي الولد ..." [2] وقد تكلف الناس تفسيرا آخر ، وأخرجوه من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعني بها محالا .

وقال في التجريد ﴿إن﴾ شرطية عند الأكثرين ، فالمعنى :فأنا أول الجاحدين لأن يكون له ولد ، أي : إن كان عندكم أن للرحمن ولد فأنا أول الجاحدين للولد ، وهذا مروي عن ابن عباس .

وروي أن أعرابيين اختصما إليه ، فقال أحدهما : كانت لي في يد هذا أرض فعبدنيها ، فقال ابن عباس : الله أكبر ﴿فأنا أول العابدين﴾الجاحدين أن لله ولدا .

وقيل : المعنى إن كان في زعمكم أن لله ولدا فأنا أول العابدين لله وحده ، بلا ولد ولا شريك .

وقيل : (إن) نافية ، أي : ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول من عبد الله على يقين أنه

---

١) ـــ في تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام (وقوله تعالى : ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ معناه : الآنفين ، والرادين له) وفي نسخة (الأبيين) ص٢٨٧.

(٢) لقد اختصر المصنف رحمه الله كلام الزمخشري. فقد ذكر كلاما كثيرا يبين فيه ويوضح دلالة هذا الوجه فراجعه . الكشاف ٤/٢٦٦ .

لا ولد له ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ نزه ذاته الموصوفة بربوبية ما ذكر من اتخاذ الولد ليدل أن الولد من صفات الأجسام ، ولو كان تعالى جسما لم يقدر على خلق هذه الخلق ، وتدبير أمره .

ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ في باطلهم ، الخوض: الدخول في الباطل ، وهذا أمر خذلان لا تخلية ، وإعلام أن قولهم جهل وخوض في باطل ، وأنهم مطبوع على قلوبهم ﴿ و يلعبوا ﴾ واللعب : ما لا يفيد ، أي : العبث ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ فيه الجزاء ، وهو يوم القيامة ، والمقصود منه التهديد ، يعني : قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا ، وهم لا يلتفتون إليها ؛ لأجل كونهم مستغرقين في طلب المال والجاه والرئاسة ، فاتركهم في ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذي وعدوا فيه بما وعدوا .

ثم قال تعالى : ﴿ و هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ التقدير : وهو الذي في السماء إله ، وهو في الأرض إله ، أي : المعبود فيهما ، لا إله يعبد فيهما غيره ، كقوله : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ [1] قال أبو علي الفارسي : المعنى على الإخبار بالإلهية ، لا على الكون في السماء .

قال الرازي : هذه الآية من أدل الدلائل على أنه تعالى غير مستقر في السماء ؛ لأنه تعالى بين بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالإلهية ، كنسبته إلى الأرض ، فلما كان إلها للأرض مع أنه غير مستقر فيها ، فكذلك يجب أن يكون إلها في السماء مع أنه لا يكون مستقرا فيها[2] .

---

١) الأنعام : ٣ .

٢) ـــ تفسير الرازي ٢٧/٢٣٢.

ثم قال تعالى :﴿ و هو الحكيم ﴾ الذي لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿ العليم ﴾ بكل شئ ، وبإشراك المشركين .

قال الرازي : وكونه حكيما عليما ينافي حصول الولد له .

ثم قال تعالى :﴿ و تبارك الذي له ملك السماوات و الأرض وما بينهما ﴾ معنى ﴿ تبارك ﴾ هو تعالى عن الولد والشريك ، ولما كان المقصود منه شرح كمال قدرته، شرح تعالى كمال علمه فقال :﴿ و عنده علم الساعة ﴾ لا يعلمها غيره ﴿ و إليه ترجعون ﴾ أي : إلى جزائه ، والمقصود التنبيه على أن من كان غنيا كاملا في الذات والعلم والقدرة امتنع أن يكون له ولد .

ولما أطنب الله تعالى في نفي الولد أردفه ببيان نفي الشركاء ، فقال :﴿ و لا يملك الذين يدعون ﴾ أي : يعبدون ﴿ من دونه ﴾ أي : من دون الله ﴿ الشفاعة ﴾ وهم الأصنام والملائكة ، وعزير ، وعيسى ، المعنى : أن آلهتهم لا يملكون الشفاعة لهم ، كما زعموا أنهم شفعاؤهم يوم القيامة ، ثم استثنى فقال :﴿ إ لا من شهد بالحق ﴾ أي : لكن من شهد بتوحيد الله تعالى ، فإنه يشفع ، وهم الملائكة وعزير والمسيح ، فأما الأصنام فلا تشفع ؛ لأنها لا توحد الله تعالى [١] .

ثم قال سبحانه ﴿ و هم يعلمون ﴾ صحة ما شهدوا به ، علم إيقان وإخلاص ، كالملائكة والأنبياء ، فهم الذين يملكون الشفاعة ، وهذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لا تفيد البتة ، وقال ﴿ هم ﴾ حملا على معنى من الجمع .

ثم قال تعالى :﴿ و لئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ هو حجة عليهم ، و لم

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة :

الأحكام : تدل الآيات على بطلان قول الكفار في إثبات الشفاعة للأوثان ، وتدل أن الشفاعة إنما تكون لمن شهد بالحق ، ويدل قوله ﴿ فاصفح ﴾ على تأديب منه لرسوله في الكف عن مجازاتهم على تكذيبهم ، فإن الله تعالى يجازيهم به.

يخرجوا منها بل عبدوا غيره ﴿فأنى يؤفكون﴾ أي : فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره من مخلوقاته .

قال الرازي : ظن قوم أن هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على أن القوم مضطرون إلى الاعتراف بوجود الإله للعالم ، [قال الجبائي]وهذا لا يصح ؛ لأن قوم فرعون قالوا : الإله لهم غيره ، وقوم إبراهيم [قالوا]: ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه﴾[1] فيقال لهم : لا نسلم أن قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله ، والدليل على قولنا قوله تعالى ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما﴾[2] وقال موسى لفرعون ﴿[لقد علمت] ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات﴾[3] والقراءة بفتح التاء تدل على أن فرعون كان عارفا بالله ، وأما قوم إبراهيم حيث قالوا :﴿إنا لفي شك مما تدعونا إليه﴾ فمصروف إلى إثبات القيامة ، وإثبات التكاليف ، وإثبات النبوة .

واعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وفي آخرها ، والمقصود التنبيه على أنهم [لما] اعتقدوا أن خالق العالم ، وخالق الحيوانات هو الله تعالى ، فكيف أقدموا مع هذه الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة ، وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع وهي جمادات محضة[4] .

ثم قال تعالى :﴿و قيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾قال الهادي عليه‌السلام : هذا خبر من الله سبحانه عن قول نبيئه لمن لا يؤمن به ، فأمره الله أن يصفح عنهم ، ومعنى يصفح عنهم أي : يتركهم ويرفضهم . اهـ

ومعنى ﴿وقيله﴾ أي : قول رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، كأنه قال : أقسم بقيله ، وهو

---

(١) هود : ٦٢ .

(٢) النمل : ١٤ .

(٣) الإسراء : ١٠٢ .

(٤) إلى هنا انتهى كلام الرازي ، وما بين أقواس الزيادة منه ٢٣٣/٢٧ .

قسم قرئ بالحركات الثلاث ، والجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه ، والرفع كقوله : لعمرك لأفعلن كذا ، وجواب القسم قوله :﴿إن هؤلاء﴾ كأنه قيل: أقسم بقيله يا رب ، أو قيله : يا رب قسمي ﴿إن هؤلاء﴾ إلى آخره ، وإقسام الله بقوله صلى الله عليه وآله وسلم رفع منه ولدعائه ، وتعظيم لالتجائه إليه .

وفي التجريد : في نصبه وجوه ، أحدها : أنه مصدر ، أي وقال قيله ، وشكا شكوه إلى ربه ، والثاني : أنه عطف على ﴿سرهم ونجواهم﴾أي : أم يحسبون أنا لا نسمع قيله ، ذكر القولين الفراء والأخفش ، والثالث : أنه منصوب على محل الساعة ؛ لأن محلها نصب بيعلم ، وهو اختيار الزجاج .

وفي الجر وجهان : العطف على لفظ ﴿الساعة﴾أي : وعلم قيله ، والثاني : أنه قسم أقسم الله تعالى بقول محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما أقسم بعمره .

وفي الرفع وجهان ، أحدهما : أنه مبتدأ خبره محذوف على أنه قسم تقديره : وقيله قسمي ، والثاني : أنه مبتدأ غير مقسم به ، وخبره يا رب ، أي : وقيله هو هذا اللفظ ﴿يا رب﴾ . اهـ

والمعنى : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما ضجر منهم ، وعلم إصرارهم أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون ، وهو قريب مما حكى الله عن نوح عليه السلام أنه قال :﴿رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا﴾ [1] ثم إنه تعالى قال له :﴿**فاصفح عنهم وقل سلام**﴾قال الهادي عليه السلام : أي قل أمرا حسنا جميلا ، تثبت به عليهم الحجة ، وتسلم به من أذيتهم ﴿**فسوف يعلمون**﴾يقول : قل لهم فسوف يعلمون صدق ما جئت به ، وحقيقة ما أعذرت وأنذرت منه . اهـ

والله أعلم

---

(١) نوح : ٢١ .

سورة الشورى

مكية ، وهي ثلاث وخمسون آية في الكوفي ، وخمسون في الباقين

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿حم عسق﴾ قال الهادي إلى الحق عليه‌السلام : ﴿حم عسق﴾ حروف تولى الله علمها ، لم يبينها لأحد من خلقه ، إذ ليس فيها أمر ولا نهي ولا فرض تعبد به عباده ، فيحتاجون إلى علمه ومعرفته[1] .

---

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿حم عسق﴾ قال الإمام زيد صلوات الله عليه : ﴿حم﴾ قضي هذا الأمر ﴿عسق﴾ العين : العذاب ، والسين : سنون ، والقاف : قذف .

وقوله تعالى : ﴿يتفطرن﴾ معناه : يتشققن .

وقوله تعالى : ﴿لتنذر أم القرى﴾ معناه مكة . وقوله تعالى : ﴿يذرؤكم فيه﴾ معناه : يخلقكم فيه .

وقوله تعالى : ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ معناه مفاتيحها .

وقوله تعالى : ﴿شرع لكم من الدين﴾ معناه : أظهر لكم من الدين ما وصى به نوحا من تحريم نكاح البنات والأخوات

وقوله تعالى : ﴿كبر على المشركين﴾ معناه : عظم عليهم . وقوله تعالى : ﴿يجتبي إليه من يشاء﴾ معناه يكرم و﴿ينيب﴾ معناه : يتوب . وقوله تعالى : ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ معناه : لا خصومة بيننا وبينكم

وقوله تعالى : ﴿إن الذين يمارون في الساعة﴾ معناه : يشكون فيها . وقوله تعالى : ﴿شرعوا لهم من الدين﴾ معناه : ابتدعوا لهم . وقوله تعالى : ﴿ومن يقترف حسنة﴾ معناه : يكتسب ، وكذلك : يجترح .

وقوله تعالى : ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ فالجواري : السفن ، واحدها جارية ، والأعلام :

الجبال ، واحدها : علم . وقوله تعالى :﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن ﴾ معناه : يمكثن . وقوله تعالى :﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ معناه : يهلكن . وقوله تعالى :﴿ والذين استجابو لربهم ﴾ معناه : أجابوا . وقوله تعالى: ﴿ من طرف خفي ﴾ معناه : أنما ينظر ببعض عينه ، وقال : يسارقون النظر إلى جهنم . وقوله تعالى : ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ﴾ أي : لا ذكور معهن ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ أي : لا أناث معهم . وقوله تعالى :﴿ أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ﴾ غلام وجارية ﴿ ويجعل من يشاء عقيما ﴾ معناه : لا يولد له . وقوله تعالى :﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ فالوحي : ما يراه النبي عليه السلام في المنام ، كما رأى إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح ابنه إسحاق ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى عليه السلام ، فقيل له استمع لما يوحى ﴿ أو يرسل رسولا ﴾ كما أرسل جبريل وغيره إلى النبي عليه السلام ، وغيره من الأنبياء عليهم السلام ، والوحي : الإشارة كما حكى تعالى عن زكرياء عليه السلام ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ والوحي : القذف في القلب ، والإلهام : كقوله تعالى :﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ . وقوله تعالى :﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ معناه : تدعو إلى ذلك ﴿ وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ معناه : دعوناهم إليه .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه : بسم الله الرحمن الرحيم :

معنى ﴿ حم عسق ﴾ أقسم ، وقيل : قرأ علي وابن عباس عليهما السلام (حم عسق) وقالا : السين ، كل فرقة ، والقاف ــ كل جماعة ، تكون ﴿ كذلك يوحي إليك ﴾ حم سق ﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ يقال : يعني أوحيت إلى نبي قبل محمد عليه وعليهم السلام ﴿ يتفطرن ﴾ أي : يتصدعن من أصوات الملائكة ، وجهرهم وقوتهم ، ومعنى ﴿ أم القرى ومن حولها ﴾ أي : مكة ، وما حولها من جميع الدنيا .

ومعنى ﴿ مقاليد السموات والأرض ﴾ أي : مفاتيح ، قال تبع :

إذ أقمنا به من الدهر حينا   وجعلنا لبابه إقليدا

أي : مفتاحا ، وقال آخر :

فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا   ألقوا إليه مقالد الأمر

﴿ يجتبي إليه من يشاء ﴾ أي : يقرب ويتولى ، ويرفع إليه من يشاء . ومعنى ﴿ يمارون في الساعة ﴾ أي : تخاصمون وتحاجون . ومعنى ﴿ حرث الآخرة ﴾ أي : عملها ، وكذلك ﴿ حرث الدنيا ﴾ ومعنى ﴿ كلمة الفصل ﴾ أي : كلمة الوعيد بالآخرة ، ومعنى ﴿ يقضي بينهم ﴾ أي : ليحكم بينهم ﴿ ومعنى ﴿ ومن يقترف ﴾ أي : يكتسب مالا ، ومعنى ﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ أي : يستجيب للذين آمنوا ، وسواء قال يستجيبهم ، أو يستجيب لهم ، المعنى واحد ، قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى النداء   فلم يستجبه عند ذاك مجيب

ومعنى {لبغوا في الأرض} أي لظلموا ، قال الشاعر :

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ إخبار من الله أنه الذي يوحي إليه وإلى جميع الأنبياء الذين

فلولا بغيه ما زلت أبكي عليه ما بدا ليل بهيم

أي: لولا ظلمه، ومعنى ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ أي: يقدر الكفاية، ومعنى ﴿من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾ يريد من بعد ما يئسوا، قال الشاعر:

ولا تقنطن من عظيم الذنوب فرب العباد رؤوف رؤوف

وقال آخر:

قد وجدوا الحجاج غير قانط

﴿وينشر رحمته﴾ أي: يبسطها، ومعنى ﴿الجواري في البحر كالأعلام﴾ أي: كالجبال، قال الخنساء في أخيها

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

أي: كأنه جبل في رأسه [نار] لرفعته، وشهرته بالنار.

ومعنى ﴿رواكد على ظهره﴾ أي: سواكن نوابت على ظهر البحر، ومعنى ﴿أو يوبقهن﴾ أي: يغرقهن، يعني السفن، ومعنى ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: مهرب ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي: تخابر وتحاور وتوازر وتشاور، ولا يتكبر منهم أحد على صاحبه، ولا يزدريه إن شاوره في أمره، ومعنى ﴿ما عليهم من سبيل﴾ أي: من عقوبة، ولا طريق لنقمة، ومعنى ﴿من طرف خفي﴾ أي: من نظر ضعيف ذليل، ومعنى ﴿وما لكم من نكير﴾ أي: منكر ينكر عذابكم، وينصركم، ومعنى ﴿يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا﴾ يعني: أو يجمعهم أتواما، والتزويج هاهنا، هو جمع الأتوام، قال الشاعر

زوجت خيلكم بخيل مجاشع يوم السديف فما استقامت عامر

ومعنى ﴿ويجعل من يشاء عقيما﴾ أي: عاقرا لا يلد ولدا، ولا يكون منه ولد أبدا، ومعنى ﴿إلا وحيا أو من وراء حجاب﴾ الحجاب هاهنا: هو المنام الصادق الذي يكون في الوحي من الله، وقد رأينا ذلك والحمد لله، ولولا شكر المنعم لما ذكرناه، لعلمنا بسوء ظنون الفاسقين، وقبيح ضمائر أعداء الله المنافقين، ولكن لا نترك الحسن من فعلنا، وما أوجب الله من الشكر علينا لعلمنا بقبح القبيح من فعل غيرنا، ولا نطيع أعداء الله في الكفر سيدنا، ومعنى ﴿روحا من أمرنا﴾ أي: قرآنا، فسماه روحا؛ لأنه يحيي من الجهالة بحياة علمه، ويوقظ من الوسن بعجائب حكمه ﴿وإلى الله المصير﴾ أي: نرجع ونؤول.

وقال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب):

الأحكام

يدل قوله ﴿كاد﴾ على عظيم معاصيه، وفيه حث على طاعته، ويدل قوله ﴿والملائكة﴾ على أنهم مكلفون، وعلى وجوب تنزيهه عن كل ما لا يليق به، {ويستغفرون} يدل على عظم محل الملائكة، حتى استغفروا، وكون ذلك محل الشفاعة

كانوا قبله ﴾ اهـ قال في الكشاف : ولم يقل : أوحي إليك ، ولكن [قال : ﴿ يوحي إليك ﴾]على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته[١] .

ومعنى ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل ذلك الوحي ، أو مثل ذلك الكتاب ﴿ يوحي إليك ﴾ يعني : إنما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحي إليك مثله في غيرها من السور .

ثم قال : ﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ أي : وأوحاه من قبلك إلى رسله ، بمعنى : أن الله كرر هذه المعاني[٢] في القرآن ، وفي جميع الكتب السماوية ، لما فيها من التنبيه ، واللطف لعباده الأولين والآخرين .

ولما ذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحي بين الموحي من هو ؟ فقال : ﴿ **الله العزيز** ﴾ ثم قال في الصفة الثانية ﴿ **الحكيم** ﴾[٣] قال المرتضى عليه السلام : فالعزيز : الذي لا يضام ، ولا يغلب ، وأمره النافذ ، وحكمه الماضي ، عز سبحانه ، فلا يغلبه شئ من الأشياء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[٤] .

﴿ الحكيم ﴾ فهو المحكم لأفعاله ، فليس شئ من خلقه إلا وهو يدل على حكمته وتدبيره ، لا يدخل ما خلق نقصان عما أراده . اهـ

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ **له ما في السماوات وما في الأرض** ﴾ أي : المختص بملك ما فيهما.

قال الرازي : وهذا يدل على كونه موصوفا بقدرة كاملة نافذة في جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتهما وسعتهما بالإيجاد والإعدام ، والتكوين والإبطال .

---

(١) الكشاف ٢٠٨/٤، وما بين قوسي الزيادة ليست من الكشاف ، ولكنها موجودة أيضا في الرازي نقلا عن صاحب الكشاف .

(٢) المعاني : المراد بها المماثلة في الدعوة إلى التوحيد والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وتقبيح أحوال الدنيا ، والترغيب في التوجه إلى الآخرة .

(٣) في نسخة أخرى للمصابيح (بين الموحي من هو ؟ فقال : إنه الله ، ثم قال في الصفة الأولى والثانية : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ .

(٤) يس : ٨٢ .

وعلى أن كل ما في السموات وما في الأرض فهو ملكه ومالكه ، ووجب أن يكون منزها عن كونه حاصلا في السموات وفي الأرض ، وإلا لزم كونه ملكا لنفسه، وإذا ثبت أنه ليس في شئ من السموات امتنع كونه أيضا في العرش ، لأن كل ما سماك فهو سماء ، فإذا كان العرش موجودا فوق السموات كان في الحقيقة سماء ، فوجب أن يكون كل ما كان حاصلا في العرش ملكا لله [وأن يكون] [1]مالكا له ، فوجب أن يكون منزها عن كونه حاصلا في العرش .

الصفة الرابعة والخامسة : قوله : ﴿وهو العلي العظيم﴾ الذي لا يشبهه شئ من خلقه ، عظيم الجلال والكبرياء ، فسبحان من لا يعلم قدره غيره ، ولا يبلغ صفته الواصفون.

ثم قال تعالى : ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ قال الهادي عليه السلام : معنى ذلك إجلالا وإعظاما وإكبارا لما فعل المكذبون بآيات الله ووحيه ، ووعده ، ووعيده، وما نزل من جميع أخباره ، فيقول سبحانه : لو كان في السموات تمييز وفهم لما قالوا ، وبه كذبوا لتفطرن إجلالا لله ، وإعظاما وإكبارا لما جاء به المشركون من تكذيب قول الله ، والصد عن آيات الله .

ثم أخبر بطاعة الملائكة وإعظامها أيضا لما يأتون به فقال : ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم﴾ يقول : لما أن فعل المشركون ما فعلوا سبحته الملائكة وهللته ، وعظمته ، إجلالا له عن قولهم ، وتقديسا له عن شركهم .

ثم أخبر بفعل الملائكة في المؤمنين المصدقين بما كذب به الكافرون ، المسلمين لما جحده المشركون ، المصدقين بوعد الله ووعيده ، الموقنين بحشره وثوابه وعقابه .

﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ يريد : لمن فيها من المؤمنين المصدقين المتقين .

---

(١) ما بين القوسين موجود في المصابيح ، وغير موجود في الرازي ، وكذلك اللفظ في المصابيح : وإذا ثبت أنه ليس في شئ من السموات امتنع أيضا كونه في العرش ، وفي الرازي على ما أثبتناه . الرازي ١٤٣/٢٧ ؟

(كذا لفظ الهادي عليه السلام) .

قال في البلغة : يتشققن استعظاما لكفر أهل الأرض ، مع عظم نعمته عليهم ، ووضوح آياته وحججه اللائقة بهم، وحذف ذكر ذلك لدلالة الكلام عليه ، وهو على جهة التوسع ، كما قال :﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾[١] .اهـ

وقوله :﴿ من فوقهن﴾ أي : من جهتهن الفوقانية ، لأن أعظم الآيات فوق السموات.

ومعنى ﴿ يسبحون بحمد ربهم﴾ هو ينزهون الله عن السوء ، ويقولون : سبحان الله ، والحمد لله ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض﴾ من المؤمنين ؛ لأن المغفرة قيدت في مثل ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا} ومن المقرر حمل المطلق على المقيد ، كما عرف ، لا أعداء الله فقد قال :{أولئك عليهم لعنة الله والملائكة} (٢) .

ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد ، والاستغفار لمن في الأرض ، ولم يحك عنهم أنهم يطلبون الرحمة لمن في الأرض فقال :﴿ **ألا إن الله هو الغفور**﴾ للتائبين ﴿ **الرحيم**﴾ بقبول توبتهم ، يعني أنه يعطي المغفرة التي طلبوها ، ويضم إليها الرحمة الكاملة التامة .

ثم قال تعالى :﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء**﴾ أي : شركاء في الإلهية ﴿ **الله حفيظ عليهم**﴾ معناه : رقيب على أعمالهم ، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم ﴿ **وما أنت**﴾ يا محمد ﴿ **عليهم بوكيل**﴾ أي : بموكل عليهم ، تقهرهم على الإيمان ، إنما عليك الإنذار[٣].

---

(١) الحشر : ٢١ .

(٢) التعليل رد لما يمكن أن يتوهم أن الاستغفار حاصل لكل من في الأرض من المؤمنين وغيرهم . فبين أن الاستغفار لا يحصل إلا للمؤمنين دون من عداهم .

(٣) **قال الحاكم الجشمي في تفسيره التهذيب :**

وقال الهادي إلى الحق عليه السلام : [(١)] ومعنى ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي : ما أنت على إخلاص ضمائرهم بوكيل ، إذ أنت غير عالم بذلك ، ولا تحيط به ، وإنما أنت وكيل على ظاهرهم ، معامل لهم عليه ، فأما الضمير فالله الحافظ له عليهم ، والعالم به منهم ، وإنما كلفناك ما تقدر على القيام به ، ولم نكلفك ما لا تستطيع مما لا تقدر عليه من علم ضمائرهم ، ولو فعلنا ذلك كذلك لكلفناك إذا شرا ، ولا افترضنا عليك عسرا ، ألا تسمع كيف بين في أول الآية ، وفي وسطها ما قلنا : من أنه سبحانه الحافظ لسرائرهم ، المعامل لهم عليها دون نبيئه ، وذلك قوله : ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم﴾ يقول : ﴿الذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ في السرائر ، وأعطوك يا محمد غير ذلك في الظاهر ، [الله] [(٢)] يحفظ ذلك عليهم ، ويعلمه منهم ؛ إذ لا تعلمه أنت من فعلهم حتى تجازيهم عليه في يوم حشرهم ، وتبدي فضائح ما كان في ضمائرهم .اهـ

الأحكام

يدل قوله قرآنا عربيا على أن جميع القرآن بلغة العرب خلاف ما قاله بعض الحشوية ، وتدل على حدوثه ، لأنه ما كان عربيا لا يكون قديما ، ويدل قوله ﴿لتنذر﴾ أن الغرض بالقرآن الإنذار ، وتدل على وجوب التدبر فيه ، وتدل على أنه يمكن معرفة المراد بظاهره ، أو بقرينة ليصح أن يقع به الإنذار ، ويدل قوله ﴿فريق﴾ على أن المكلفين على فريقين لا ثالث لهما ، ويدل قوله ﴿والظالمون﴾ لا يكون لهم ناصر ، وتدل على أنه لا شفاعة لهم ، وأنهم لا يدخلون الجنة خلافا لما يقوله بعضهم ، ويدل قوله ﴿وما اختلفتم﴾ أن الإختلاف في الديانات يصح فيوجب كون المعارف مكتسبة ، وتدل على أن عند الاختلاف يطلب التمييز بين الحق والباطل من جهته تعالى ، وذلك يبطل التقليد ، ويوجب الاعتماد على الأدلة الصادرة من جهته عقلا وسمعا ، وتدل على أن حال الاختلاف مفارق لحال الاجتماع ، فتدل على أن الإجماع حجة ، وتدل أن الاختلاف فعلهم ، فيصح قولنا في المخلوق.

(١) قال في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ، وسألته عن قول الله سبحانه : ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ فقلت : أو ليس قد كان صلى الله عليه وآله وسلم وكيلا عليهم ؟ ومأمورا بهم ؟ ومجاهدا لمن عند منهم ؟ فقال : معنى : ﴿وما أنت ..﴾ الخ ما ذكره هنا .

(٢) في نسخة من المصابيح : (إنه يحفظ ذلك عليهم) .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ إشارة إلى معنى الآية قبلها ، من أن الله هو الرقيب عليهم ؛ لأن هذا المعنى قد تكرر في القرآن ، أي : ومثل ما ذكرنا قد أوحيناه إليك في غير هذا الموضع .

ويجوز أن تكون الإشارة إلى مصدر أوحينا ، أي : ومثل ذلك الإيحاء البين الفهم أوحينا إليك ﴿ قرآنا عربيا ﴾ بلسانك العربي ، لتفهم ما يقال لك .

وفي البلغة : وأوحينا إليك يا محمد قرآنا بلغة العرب ، كما أوحينا إلى من كان قبلك من الأنبياء عليهم السلام ، فشبه الوحي بالوحي .

ومعنى قوله : ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ أي : لتنذر أهل أم القرى[1] ، ومن حولها من أهل البدو والحضر ، وأهل المدر والوبر .

قال الهادي عليه السلام ﴿ أم القرى ﴾ : هي مكة ﴿ ومن حولها ﴾ من القرى [فهي أعمال مكة ، وما قاربها من الحجاز كله .

ومعنى ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾][2] وإنما ينذر أهلها ، وأهل القرى [التي] حولها ، فلما أن كان الأهل من سبب القرى طرح الأهل ، وأثبت القرى ، وإنما يريد الأهل ، كما في ﴿ واسأل القرية [التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾[3] يريد: أهل القرية وأهل العير .

ومعنى قوله : ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ فهو أيضا على هذا المعنى ، أراد : وتنذر العذاب الذي يكون في يوم الجمع ، فطرح العذاب ، وأقام يوم الجمعة مقامه كما فعل في أم القرى و﴿ يوم الجمع ﴾ فهو يوم القيامة الذي يجتمع فيه الخلق إلى موضع الحشر ﴿ لا ريب فيه ﴾ يقول : لا شك فيه ، وأنه سيكون ﴿ فريق ﴾ من الخلائق المجموعين فيه ﴿ في الجنة وفريق ﴾ منهم ﴿ في السعير ﴾ يخبر أن ذلك اليوم يوم

---

(١) أم القرى : هي مكة ، وسميت بهذا الاسم إجلالا لها ؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم عليه السلام .

(٢) ما بين القوسين ساقط في المصابيح ، وثابت في مجموع تفسير الأئمة .

(٣) يوسف : ٨٢ .

يصير فريق من الناس في الجنة ، وفريق في السعير] .

[والإنذار : فهو إلى أم القرى ومن حولها ، وإلى جميع أهل الأرض ، غير أنه خص أم القرى بالذكر لعظيم ذكرها وأهلها ، وأنها كانت المبدأ في الإعذار والإنذار ، ثم بلغ إعذاره ﷺ جميع شرق الأرض وغربها ، وشامها ويمنها] [١] .

ثم قال سبحانه : ﴿ **ولو شاء الله** ﴾ أي : مشيئة قهر على الإيمان ﴿ **لجعلهم أمة واحدة** ﴾ أي : جماعة مؤمنين ، بدليل قوله : ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ [٢] وإدخال همزة الإنكار في ﴿ أفأنت ﴾ على المكره دون فعله دليل على أن الله وحده هو القادر على ذلك الإكراه دون غيره ﴿ **ولكن** ﴾ أي : لكنه شاء مشيئة حكمة ، فبنى أمر تكليفهم على الاختيار ، فهو ﴿ **يدخل من يشاء في رحمته** ﴾ أراد بـ ﴿ من يشاء ﴾ المؤمنين ، بدليل وصفهم في مقابلة الظالمين ، في قوله : ﴿ **والظالمون ما لهم من ولي** ﴾

يتولاهم بما ينفعهم ﴿ **ولا نصير** ﴾ يدفع عنهم العذاب .

﴿ **أم اتخذوا من دونه أولياء** ﴾ هي المنقطعة ، بمعنى بل وهمزة الإنكار ، إنكار لاتخاذهم من دونه أولياء ، أي : شركاء يتولونهم ﴿ **فالله هو الولي** ﴾ الفاء : جواب شرط مقدر ، تقديره بعد الإنكار ، إن أرادوا أولياء بحق ، فالله هو الولي ، الذي يجب أن يتولى وحده .

---

(١) من قوله : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾ إلى هنا منقول من مجموع تفسير الأئمة ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، واللفظ في المصابيح بتقديم وتأخير واختلاف . ولفظ المصابيح هو :(﴿ واسأل القرية ﴾ والإنذار : فهو إلى أم القرى ، ومن حولها ، وإلى جميع أهل الأرض ، غير أنه خص أم القرى بالذكر لعظيم ذكرها وأهلها ، أنها كانت المبدأ في الإعذار والإنذار ، ثم بلغ إعذاره ﷺ جميع شرق الأرض وغربها ، وشامها ويمنها ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ أي : تنذر العذاب الذي يكون في يوم الجمع ، فطرح العذاب ، وأقام يوم الجمع مقامه ، كما فعل في أم القرى ، ويوم الجمع : فهو يوم القيامة ، الذي يجتمع فيه الخلق إلى موضع الحشر ﴿ لا ريب فيه ﴾ يقول : لا شك أنه سيكون ﴿ فريق ﴾ من الناس ﴿ في الجنة وفريق في السعير ﴾ . اهـ

(٢) يونس : ٩٩ .

وقال ابن عباس : وليك يا محمد ، وولي من اتبعك .

﴿ **وهو يحي الموتى وهو على كل شيء قدير** ﴾ كأنه قيل : إن أرادوا أولياء بحق ، فالله هو الولي ، لا ولي سواه ؛ لأنه يحي الموتى ، وهو على كل شئ قدير ، فهو الحقيق بأن يتخذ وليا ، دون ما لا يقدر على شئ .

ثم قال سبحانه : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله** ﴾ هذه حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنين .

قال الإمام محمد بن القاسم عليهما السلام : نعم ، الله الحاكم فيه عليكم ، والفاصل فيه بينكم ، لست أحكم فيه إلا بالله ، عن أمر الله ، فما أمرني به من الحكم بينكم فيما اختلفتم فيه حكمت ، وما لم يأمرني بأن أحكم فيه بينكم لم أحكم وأمسكت ، وما لم أجر الحكم فيه بينكم إلى يوم القيامة كان مؤخرا ، حتى يحكم فيه سبحانه يوم البعث ، وفصل الحكومة [1].

قال في البلغة : معناه ما يختلفون فيه من أمور الدنيا والدين فيجب عليهم أن يرجعوا فيه إلى حكم الله دون غيره ؛ لأن حكم الله الحق في الدنيا والآخرة .اهـ

[والمقصود من التحاكم قطع الاختلاف ، والرجوع إلى نصوص الله تعالى .

أو : ما اختلفتم فيه من شئ ، واشتبه عليكم من تأويل آية فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله ، وسنة رسوله [2].

ثم قال تعالى : ﴿ **ذلكم الله ربي** ﴾ أي : الحاكم بينكم هو ربي ﴿ **عليه توكلت** ﴾ في دفع كيد الأعداء ، وفي طلب كل شئ ﴿ **وإليه أنيب** ﴾ أي : أرجع في كل المهمات .

---

(١) في نسخة من المصابيح (هذا تفسير محمد بن القاسم عليه السلام) مؤخرا هنا ، وفي نسخة أخرى مقدما كما هو ثابت هنا .

(٢) زيادة في بعض النسخ هنا :(لأن المقصود من التحاكم قطع الاختلاف ، والرجوع إلى نصوص الله عز وجل) وبعض النسخ ، ومنها نسخة المصنف ، هذه الجملة مقدمة كما أثبتناه .

وقوله : ﴿ عليه توكلت ﴾ يفيد الحصر ، يعني : لا أتوكل إلا عليه ، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله وليا .

ثم قال تعالى : ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ قرئ : بالرفع ، والجر ، فالرفع على أنه خبر ﴿ ذلكم ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، والمعنى : مبتدع خلقها على غير مثال ومبتدؤها [1] ﴿ جعل لكم من أنفسكم ﴾ من جنسكم من الناس ﴿ أزواجا ﴾ منكوحات ، وهي الإناث ﴿ ومن الأنعام أزواجا ﴾ وخلق للأنعام أيضا من أنفسها أزواجا ليقع التناسل ، وهي الغنم والبقر والإبل ، وخصها بالذكر مع الناس ، لعظم حاجتهم إليها ، والمنة فيها أبلغ .

﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي : في هذا التدبير [2] ، وقيل : ﴿ فيه ﴾ بمعنى : به [3].

---

(١) والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا ﴿ وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله ... فاطر السموات والأرض ﴾ وقوله : ﴿ ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ اعتراض وقع بين الصفة والموصوف .

(٢) معنى جعل التدبير ظرفا للذرء : أنه جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير .

(٣) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب)

الأحكام تدل الآيات الأولى أنه فاطر السموات والأرض ، فيبطل قول المفوضة ، وتدل على أنه لا مثل له ، فيبطل قول المشبهة والمجسمة ، ومن يثبت له جهة ومكانا ، ويدل قوله ﴿ له مقاليد السموات ﴾ أنه المنعم بالأرزاق وجميع النعم ، وأنه قادر على جميع الأشياء ، ويدل قوله ﴿ شرع ﴾ على أن الأنبياء كلهم بعثوا للدعاء إلى الدين ، لأن قوله ﴿ أقيموا الدين ﴾ كالتفسير له ، وهذا يليق إلا بالتوحيد والعدل دون الشرائع التي تختلف ، واستدل بعضهم بالآية على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان متعبدا بشرائع من تقدم ، وهو بعيد ، لأنه إذا حمل الآية على ما قدمنا فلا حجة لهم فيه ، وأيضا فموئل فقد الشرائع يدل على ما قالوا ، لأن كل واحد إنما يجيء بوحي مجدد ، فهو شرع مبتدأ فلا يكون بعضهم تبعا لبعض . ويدل قوله ﴿ الله يجتبي ﴾ أن الرسالة ليست بمستحقة وجزاء ، وإنما يبعث من يصلح ، ويدل قوله ﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ أنه يثيب المؤمنين دون غيرهم ، وقد استدل بعضهم بقوله ﴿ من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أن المعارف ضرورة ، وقد بينا ما قيل فيه فلا تعلق للقوم بها ، ويدل قوله ﴿ لفي شك ﴾ أن المعارف مكتسبة ، ويدل قوله ﴿ فلذلك فادع ﴾ أن الغرض بالبعثة الدعاء ، وتدل على عظيم حال الدعاء إلى الدين ، وتدل على أن الدعاء فعله ، ويدل قوله ﴿ و تتبع أهواءهم ﴾ على تحريم التقليد لأنه إتباع الهوى ، ويدل قوله ﴿ وقل آمنت ﴾ على وجوب الإيمان بسائر الكتب المنزلة ، وتدل على وجوب إظهار الإيمان لذلك قال : ﴿ وقل آمنت ﴾ ويدل قوله ﴿ لأعدل بينكم ﴾

وقال [الإمام] الهادي عليه‌السلام : معنى ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ فهو : خلق لكم من أنفسكم رجالا ونساء يتزاوجون ويتناسلون ، وكذلك قوله : ﴿ ومن الأنعام ﴾ أي : خلق أيضا من الأنعام إناثا وذكورا تتناسل .

ومعنى قوله : ﴿ يذرؤكم ﴾ فهو : يبثكم ، ويخرجكم ، ويخلقكم ، ويصوركم ، ويكثركم بالذرء والنسل الذي يكون منكم .اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ قال في البلغة : الكاف في ﴿ كمثله ﴾ صلة زائدة للتأكيد .

وفي التجريد ـ معناه : ليس مثل مثله شئ ؛ لأنه أبلغ في نفي المماثلة ، ومنه قولهم: مثلك لا يبخل ، نفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدا للمبالغة ، فسلكوا طريقة الكناية ؛ لأهم إذا نفوه عمن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه ، فلم يكن فرق بين : ليس كالله شئ ، وبين : ليس كمثله شئ ، إلا بما تعطيه الكناية من فائدها ، فكأهما عبارتان عن معنى واحد ، وهو نفي المماثلة عن ذاته ، ومنه قول المتنبي:

مثلك يثني الحزن عن صوبه ويسترد الدمع من غربه
ولم أقل مثلك أعني به سواك يا فردا بلا مشبه

وفيه هنا نظر ؛ لأنه لا مثل لله تعالى[1] .

قال في الضياء : هو أبو الطيب المتنبي ، أحمد بن الحسين الكندي ، والغرب : واحد الغروب ، وهي مجاري الماء ، وقيل : الغرب : الدمع حتى يخرج من العين .

أنه كما أوتي النبوة ، أوتي الحكم وفصل الخصومات ، وكان كثير من الأنبياء بخلافه ، وقيل: قوله : حجة بيننا أن الحجة متى ظهرت وعاند المبطل ، فالواجب المحاكمة إلى الله تعالى ، وقد قال بعضهم : نسختها آية السيف ، وليس بشيء ، وقد بينا معناه.

(١) يريد المصنف هنا أن أسماء الله سماعية ، فلا يصح إطلاق اسم على الله ، مما لم يرد السماع به ، فإطلاق المثل هنا على الله لا يجوز . وإن كان المراد به هو الله .

ثم قال : ﴿ وهو السميع ﴾ لكل مسموع ﴿ البصير ﴾ أي : الخبير بكل شيء ، كأنه يبصره لا يخفى عليه ، ومعنى كونه تعالى سامعا للمسموعات ، ومبصرا للمرئيات أي : عالم بهما .

ثم قال عز وجل : ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ المقاليد : المفاتيح ، قال الشاعر:

وأقمنا به من الدهر شيئا وجعلنا لبابه إقليدا

وهي عبارة عن ملكه للسموات والأرض ، وقدرته فيها على ما يشاء ، كما يفعل المتولي لمفاتيح الخزائن ، وقيل : مقاليد السموات الأمطار ، ومقاليد الأرض النبات .

ثم قال سبحانه : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ البسط [له] ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيق الرزق على من يشاء .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ فيغني العبد ، ويفقره على قدر ما يعلم له من المصلحة .

واعلم أن المراد من الآية الأولى أنه تعالى فاطر السموات والأرض ، والأصنام ليست كذلك ، وأيضا هو خالق أنفسنا وأزواجنا ، وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا والأصنام ليست كذلك ، وأيضا فله مقاليد السموات والأرض ، والأصنام ليست كذلك ، والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم ، فكيف يجوز جعل الأصنام التي هي جمادات مساوية له في العبودية [1] .

ثم اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ ذكر بعده تفصيل ذلك ، فقال عز وجل : ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ خطاب لأمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أي : جعله لكم شرعا وطريقا ﴿ ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ﴾ أي : ما وصيت به يا محمد

---

(١) ومثله في الرازي ١٥٤/٢٧

﴿وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ .

ومعنى ﴿شرع﴾ فرض ، وقيل : بين ﴿من الدين﴾ فالمعنى : شرع لكم دين هؤلاء المذكور ، ثم فسر المشروع الذي اشترك فيه هؤلاء فقال : **﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾** وفي ما شرع ثلاثة أقوال ــ أحدها : أنه تحليل الحلال ، وتحريم الحرام ، قاله قتادة.

والثاني : تحريم الأخوات والأمهات ، قاله الحاكم[1] .

والثالث : التوحيد ، وترك الشرك ، والمراد : أن هؤلاء الأنبياء وغيرهم متفقون ، مشتركون في شريعة ، وهي إقامة الدين ، والمراد بإقامته : التوحيد والعدل ، وطاعة الله ، والإيمان برسله وكتبه ، وبالبعث والجنة والنار ، ونحو ذلك مما لا يجوز فيه النسخ .

وأما الشرائع التي تختلف فيها المصالح ، فإنها مختلفة ، قال سبحانه : ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[2] حكى هذا في التجريد .

واعلم أن قوله : ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل .

قال إمامنا المنصور بالله عليه‌السلام : دلت هذه الآية على أن الله وصى كل نبي ، وألزم أمة كل نبي أن يقيموا الدين ، ولا يتفرقوا فيه ، فمن خالف ما عمله من هذه الآية كان باغيا ، ومخالفا لما أراد الله من الإتفاق .اهـ

ثم قال تعالى : **﴿كبر على المشركين﴾** أي : عظم عليهم وشق **﴿ما تدعوهم إليه﴾** من إقامة دين الله وتوحيده[3] .

---

(١) الحاكم : المراد به الحاكم الجشمي رحمه الله .

(٢) المائدة : ٤٨ .

(٣) هو الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي ، المتوفى سنة ١٠٢٩ ، وقد تقدمت ترجمته الجزء في الجزء الأول ، والعبارة في مقدمة كتابه الاعتصام .

ثم قال الله تعالى : ﴿ **الله يجتبي إليه من يشاء** ﴾ أي : يجتلب باللطف ويجمع ، من جبى الخراج جمعه ، والضمير في ﴿ إليه ﴾ للدين . ومعنى ﴿ من يشاء ﴾ فهو الذي ينفع فيه لطفه وتوفيقه ﴿ **ويهدي إليه** ﴾ أي : إلى دينه ﴿ **من ينيب** ﴾ من يرجع إلى طاعته ويتوب.

واعلم أنه تعالى لما بين أنه أمر كل الأنبياء والأمم ، بالأخذ بالدين المتفق عليه ، بين تفرقهم بعد أن وصاهم بترك الفرقة ، فقال : ﴿ **وما تفرقوا** ﴾ أي : أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿ **إلا من بعد ما جاءهم العلم** ﴾ أن الفرقة ضلال متوعد عليها ، على ألسنة الرسل ، وقيل : العلم بأن القرآن حق .

وفي البلغة (أي : العلم بصحة نبوته ودينه ﴿ **بغيا بينهم** ﴾ أي : حسدا عن المحق ، وتكبرا عن إتباعه ، وهو تعليل للتفرق ، يعني أنهم ما تفرقوا إلا بعد أن أعلموا[١] أن الفرقة ضلالة ، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي ، وطلبا للرئاسة ، فحملتهم الحمية على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ، ودعا الناس إليه ، وقبح ما سواه ؛ طلبا للذكر والرئاسة ، فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف .

ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل ، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب إلى وقت معلوم مسمى ، فقال عز وجل : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى** ﴾ وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة ، بقوله : ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾[٢]. ﴿ **لقضي بينهم** ﴾ أي : حكم بينهم في الدنيا حين افترقوا ـ لعظم ما افترقوا فيه ـ بعذاب من كفر ، ونعيم من آمن .

و الأجل المسمى : قد يكون في الدنيا ، وقد يكون في يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ **وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم** ﴾ أي : من بعد الأنبياء ، وهم من كان

---

(١) في نسخة المصابيح (نسخة المؤلف) إلا بعد أن علموا .

(٢) القمر : ٤٦ .

عهده ﷺ من أهل الكتاب ﴿**لفي شك منه**﴾ أي: من كتابهم ﴿**مريب**﴾ من أرابه: أوقعه في الريبة، وهي التهمة، ومعنى شكهم فيه: أنهم لا يؤمنون به حق الإيمان، وقيل: في شك من محمد.

وقال في البلغة: أي: وإن العرب الذين أوتوا الكتاب بعد اليهود والنصارى لفي شك مما أتاهم به محمد ﷺ من القرآن والشريعة ــ ليسوا كهؤلاء العلماء من اليهود والنصارى، الذين أنكروا عنادا وبغيا وحسدا .اهـ

ثم قال تعالى: ﴿**فلذلك**﴾ أي: فلأجل ذلك التفرق، وما حدث بسببه من تشعب الكفر ﴿**فادع**﴾ إلى الاتفاق، على الملة الحنيفية القديمة ﴿**واستقم**﴾ عليها أي: اثبت على الدعوة إليها ﴿**كما أمرت**﴾ في ما أنزل عليك ﴿**ولا تتبع أهواءهم**﴾ المختلفة الباطلة؛ لأنهم دعوه إلى دينهم ﴿**وقل آمنت**﴾ صدقت ﴿**بما أنزل الله من كتاب**﴾ أي: بأي كتاب صح أن الله أنزله، يعني: الإيمان بجميع الكتب المنزلة، لأن المتفرقين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض.

ثم قال تعالى: ﴿**وأمرت لأعدل بينكم**﴾ في الحكم إذا تحاكمتم إلي.

وقيل: في تبليغ الرسالة، ويجوز أن يراد بالعدل بينهم أنه يؤمن بكتبهم كلها؛ لأنها منزلة من الله.

ثم قال: ﴿**الله ربنا وربكم**﴾ لا رب لنا ولكم غيره ﴿**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم**﴾ أي: جزاؤها ﴿**لا حجة بيننا وبينكم**﴾ أي: لا خصومة بيننا وبينكم؛ لأن الحق قد ظهر، وصرتم محجوجين فلا فائدة في المحاجة.

قال ابن الجوزي: في كون هذه الآية منسوخة قولان ــ أحدهما: أنها اقتضت الاقتصار على الإنذار، وذلك قبل الأمر بالقتال، ثم نزلت آية السيف فنسختها، قاله الأكثرون.

والثاني: أنها محكمة، و معناها ما تقدم من أن المحاجة والمجادلة بعد ظهور الحجج.

(واعلم أنه ليس المراد من قوله: ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ تحريم محاجتهم، ويدل عليه وجوه ـ الأول: أن هذا الكلام مذكور في معرض المحاجة، فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة لزم كونها محرمة لنفسها، وهو متناقض.

والثاني: أنه لولا الأدلة لما توجه التكليف.

والثالث: أن الدليل يفيد العلم، وذلك لا يمكن تحريمه، بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد ﷺ، وإنما تركوا تصديقه بغيا وعنادا، فبين تعالى أنه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم؛ لأنهم عرفوا [بالحجة صدقه] فلا حاجه معهم إلى المحاجة البتة، ومما يقوي قولنا: إنه لا يجوز تحريم المحاجة قوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (١) وقوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك﴾ وقوله: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ (٢) وقوله: ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ (٣) وقوله: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ (٤).

ولما قرر تعالى هذه الدلائل ـ خوف المنكرين بعذاب القيامة، فقال عز وجل: ﴿**الله يجمع بيننا**﴾ في يوم القيامة، فيفصل بيننا ﴿**وإليه المصير**﴾ المرجع، فينتقم لنا منكم، وهذا متاركة للمقاولة بعد ظهور الحق (٥).

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) العنكبوت: ٤٦.

(٣) هود: ٣٢.

(٤) الأنعام: ٨٣.

(٥) **قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآيات**

الأحكام

الآية تدل على أنه تعالى أنزل الكتاب فتدل على حدوثه، وتدل أن الغرض بإنزاله القيام بالحق، ليعملوا به خلاف قول المجبرة القدرية، ويدل قوله ﴿الميزان﴾ أنه أراد العدل في الدين والدنيا، فأنزل الكتاب للذين سلكوا طريقة الحق، وأنزل الميزان آلة العدل في الدنيا، ويدل قوله ﴿يستعجل﴾ أن المعارف مكتسبة، لذلك خص المؤمنين بأنهم يعلمون أنها الحق، ووصف غيرهم بالشك، ويدل قوله ﴿من كان يريد﴾ على أنه يلطف للمؤمنين، وتدل أن هذه التي جرت في الدنيا من الحرث وغيره ألطاف في التكليف، ليتدبر العبد فيه

ثم قال تعالى: ﴿والذين يحاجون في الله﴾ قال [الإمام] الهادي عليه السلام أي: يدافعون عن تصديق الله، ويكذبون ما جاء عن الله [ومعنى ﴿في الله﴾ أي: في دينه ليردوا الناس عنه إلى دين الجاهلية] [1] ﴿من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة﴾ أي: من [بعد] [2] ما قد تبينت حجته، وظهرت دلالته، وقبلها المؤمنون، واستجابوا لربهم، وآمنوا به، فأخبر أن حجة من أنكر ما قد وضح وبان داحضة زائلة ﴿عند ربهم وعليهم غضب﴾ [عظيم من الله ﴿ولهم عذاب شديد﴾ شديد الألم] [3] والمعنى: أنه لم يبق لهم حجة يصرف بها عنهم العذاب، ولا يجب تثبيتها لهم، ولا يلزمنا بها تأخير العذاب عنهم. قد بينا وأوضحنا، واحتججنا حتى شهدت عقولهم أن ذلك هو الحق، ثم كابروا، فليس مكابرتهم بعد المعرفة حجة عند الله يجب بها تأخير العذاب، كما يجب من قبل ثبات الحق عندهم وظهوره لهم [4]. اهـ

ثم أخبر تعالى أنه لما أنزل الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والبينات، فقال: ﴿الله الذي أنزل الكتاب﴾ أي: جنس الكتاب، أو القرآن ﴿بالحق﴾ أي: ملتبسا ومقترنا به، بعيدا من الباطل ﴿والميزان﴾ أي: العدل والتسوية، أي: أنزله في كتبه، قاله ابن عباس، والجمهور.

وقيل: هو الذي يوزن به، وأنه حقيقة، وأن آدم نزل من الجنة بجميع آلات الصناعات، ومن جملتها الميزان، وقيل: المراد بالإنزال ألهم إلى عمله.

لعمل الآخرة، ويعلم أنه إذا لم تحصل منافع الدنيا مع قلتها وانقطاعها، إلا بعد العمل، والجهد فلأن يعمل للجنة مع عظم نعيمها، ودوامها بالجهد أولى.

(١) ما بين القوسين ليس في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام

(٢) ما بين القوسين ثابت في تفسير الأئمة، وفي نسخة من المصابيح، ولا توجد في النسخة التي اعتمدناها.

(٣) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في المجموع، وثابت في المصابيح. وكذلك لا يوجد في النسخة الثانية للمصابيح

(٤) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٤٩.

ثم قال تعالى : ﴿ **وما يدريك لعل الساعة قريب** ﴾ فيقع الحساب ، وتوزن أعمالكم ، فلخوف المبادرة بذلك أمركم بالعدل والتسوية ، والعمل بالشرائع .

قيل : سأله المشركون : متى تقوم الساعة تكذيبا بها ؟ فنزلت ، وذكر (قريبا) كما ذكره في قوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[1] والمعنى : وأنتم لا تعلمون القيامة ، متى تفاجئكم ، ومتى كان الأمر كذلك وجب على العاقل أن يجد ويجتهد في النظر والاستدلال ، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد .

ولما كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يهددهم بنزول القيامة ، وأكثر في ذلك ، وأنهم ما رأوا منه أثرا ، قالوا على سبيل السخرية : متى تقوم القيامة ؟ وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عليه ، أو الذي عليه محمد وأصحابه ، فلدفع هذه الشبهة قال تعالى : ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها** ﴾ أي : خائفون من أهوالها ﴿ **ويعلمون أنها الحق** ﴾ الثابت الذي لا شك في وقوعه .

ثم قال تعالى : ﴿ **ألا إن الذين يمارون في الساعة** ﴾ أي : يخاصمون ويحاجون ، وقيل : من المرية ، وهي الشك ، أي : تدخلهم المرية والشك فيها ، كأنه بمعنى شاكون .

ومعنى ﴿ **لفي ضلال بعيد** ﴾ أي : ذهاب بعيد عن الحق ؛ لأن قيامها غير بعيد من قدرة الله ، ولأن لا بد من دار جزاء ؛ لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب[2] في العدل(٣) فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى ، وهذا من المحالات، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالا بعيدا .

---

(١) الأعراف : ٥٦ .

(٢) في نسخة المؤلف (أوجب) .

(٣) وهذا هو الدليل العقلي الدال على ثبوت دار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، وذلك أنهم يقولون : إنا نرى التظالم بين العباد ، ويفنى الظالمون قبل أن يحصل القصاص منهم ، فلا بد أن يكون هناك دار أخرى يحصل فيها القصاص واستيفاء الحقوق ، حتى يتحقق عدل الله .

ثم قال تعالى: ﴿ **الله لطيف بعباده** ﴾ بر بليغ البر بهم ، متفضل عليهم بجلائل النعم ورحمته عليهم في أمر دينهم ودنياهم ، وقد يوصل بره بهم إلى حيث لا يبلغه وهم أحدهم ، أو يكون من اللطف الذي هو التقريب إلى الغرض .

وإنما حسن ذكر هذا الكلام هاهنا ؛ لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة ، فكان ذلك من لطف الله بعباده .

ثم ذكر أنه يرزقهم فقال: ﴿ **يرزق من يشاء** ﴾ نصيبا من البر ، ليس لغيره مثله ، ولذلك الغير نصيب آخر من البر ليس للأول ، على حسب الحكمة والمصلحة ، وأصل الإحسان والبر عام في حق كل العباد ، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم ، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق ، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم ، فأما مراتب الغبطة والبهجة فمتفاوتة مختلفة .

ومعنى ﴿ من يشاء ﴾ أنه يفعل ذلك باختياره ومشيئته ، لا أن مكرها يكرهه يدل عليه ﴿ **وهو القوي** ﴾ الباهر القدرة ، الغالب على كل شئ ﴿ **العزيز** ﴾ المنيع الذي لا يغلب ولا يدافع .

واعلم أنه تعالى لما بين كونه لطيفا بعباده ، كثير الإحسان إليهم ـــ بين أنه لا بد لهم من أن يسعوا في طلب الخيرات ، وفي الاحتراز عن القبائح ، فقال عز وجل : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة** ﴾ أي : علمها ، وكذلك حرث الدنيا ، سمي ما يعمل مما يطلب به الفائدة حرثا ، على طريق المجاز تشبيها بالحرث الذي يطلب به فوائد الزرع ﴿ **نزد له في حرثه** ﴾ نوفقه في عمله ، ونضاعف حسناته ، ونزيده هدى ﴿ **ومن كان يريد حرث الدنيا** ﴾ أي : يعمل للدنيا ﴿ **نؤته منها** ﴾ أي : بعض ما يريده لا كله ﴿ **وما له في الآخرة من نصيب** ﴾ لإيثاره الدنيا على الآخرة ، والمعنى: من عمل للآخرة زاد الله له في جزاء عمله بأن يضاعف حسناته ، ومن عمل للدنيا أعطي شيئا منها ، لا ما يريده ويبتغيه ، وهو رزقه الذي قسم له ، وفرغ

منه ، وما له من نصيب قط في الآخرة ، ولم يذكر في من عمل للآخرة أنه يؤتيه نصيبه من الدنيا وهو رزقه للاستهانة بذلك في جنب الثواب .

واعلم أنه تعالى لما بين القانون الأعظم ، والقسطاس الأقوم في أعمال الآخرة والدنيا — أردفه بالتنبيه على ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة ، فقال عز وجل : ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾[1] الشركاء : هم الذين زينوا لهم الشرك ، والعمل للدنيا ، والهمزة في ﴿أم﴾ للتوبيخ والإنكار ، وهي المنقطعة ، وشرعهم : تزيينهم الشرك ، وإنكار البعث ، والعمل للدنيا ، إن كان الشركاء شياطينهم ، وإن كانت الأوثان فمن حيث أنها سبب ضلالهم ، فجعلت شارعة للكفر مجازا ، كما قال إبراهيم عليه‌السلام : ﴿إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾[2] .

ثم قال تعالى : ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ أي : كلمة الوعيد بالآخرة ، وهي العدة بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ أي :لحكم بينهم ، أي : بين الكافرين والمؤمنين ، أو بين الشركاء وشركائهم ﴿وإن الظالمين لهم عذاب

---

(١)قال الحاكم الجشمي في تفسيره التهذيب : .

الأحكام : يدل قوله ﴿ترى الظالمين﴾ الآية أن عذاب الظلمة واقع محالة ، وأن عقابهم يزول بالعفو والشفاعة ، فيبطل قول المرجية ، ويدل ﴿روضات الجنات﴾ أن بقاع الجنان مختلف ، ويدل قوله ﴿يبشر﴾ أن البشارة تقع إلا بمجموع أمرين الإيمان والعمل الصالح ، وذلك يدل على ما نقوله في الوعيد ، ويدل قوله ﴿أسألكم عليه أجرا﴾ أنه منزه عن طلب منفعة على أداء الرسالة ، وإنما سألهم أن يودوه للذي بينهم من القرابة ، ويدل قوله ﴿أم يقولون افترى﴾ أن دعوة النبي لو كانت باطلة لبعثه الله تعالى ولبينه ، ولما ظهر هذا الظهور ، و يقال: إن كثيرا من الأشياء لم يتبين بط نه ، لأنه تعالى نصب الأدلة على ذلك ، وللمكلف طريق إلى إبطال أمره ، العلم بالفرق بين المعجز والشعبذة على ما بين في الكتب ، ويدل قوله ﴿هو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ على أشياء منها : الترغيب في التوبة والتحذير من الإصرار ، ومنها — أنه يعفو عن المصر ، وإنما العفو عن التائب ، ومنها — أن التوبة من جميع الذنوب يصح فيبطل قول من يقول توبة للقاتل ، ويدل قوله ﴿ويعفو عن السيئات﴾ أن السيئات والتوبة فعل العبد ليصح الأمر والنهي والذم والمدح .

(٢) إبراهيم : ٣٦ .

أليم ﴾ شديد الألم ، وقرأ بعضهم (وأن) بفتح الهمزة في أن عطفا له على ﴿ كلمة الفصل ﴾ يعني: ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا .

ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب ، وأحوال أهل الثواب ، أما الأول : فهو قوله تعالى :﴿ **ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا** ﴾ من السيئات ، أي : خائفين خوفا أرق قلوبهم ، وهذا في الآخرة قبل دخولهم النار ﴿ **وهو واقع بهم** ﴾ أي : وعقاب كسبهم واصل إليهم ، لا بد لهم منه ، خافوا أم لم يخافوا .

وأما الثاني فهو قوله :﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات** ﴾ روضات : جمع روضه ، وهي البستان ، والروضة عند العرب : كل ارض ذات نبات وماء فهي جنة .

ثم قال :﴿ **لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ يحتمل أمرين ـ أحدهما : أن يريد به الكرامة ، نحو ﴿ فالذين عند ربك ﴾[1] والثاني : أن يريد في ضمانه .

ثم قال تعالى في تعظيم هذه الدرجة :﴿ **ذلك** ﴾ أي : الثواب الذي هو روضات الجنات وما يشآون ﴿ **هو الفضل** ﴾ أي : العطاء ﴿ **الكبير** ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ **ذلك** ﴾ أي : الثواب المتقدم ﴿ **الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ .

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه ـ الأول : أن الله تعالى رتب على الإيمان ، وعمل الصالحات روضات الجنات والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم ، إذا رتب على أعمال شاقة جزاء ـ دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله .

---

(١) فصلت : ٣٨ .

الثاني : أنه تعالى قال :﴿لهم ما يشآون عند ربهم﴾ وقوله :﴿لهم ما يشآون﴾ يدخل في باب غير المتناهي ، لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها .

الثالث : أنه تعالى قال :﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق ، كان في غاية الكبر .

الرابع : أنه تعالى أعاد البشارة به على سبيل التعظيم ، فقال :﴿ذلك الذي يبشر الله عباده﴾ وذلك يدل أيضا على غاية العظمة ، نسأل الله الفوز بها بفضله ، والوصول إليها بمنه وطوله .

[دعاء نبوي عند ختم القرآن]

وروى إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد بن رسول الله رحمة الله عليه ورضوانه ، بسند متصل عن عاصم ، عن زر بن حبيش قال : قرأت القرآن من أوله إلى آخره في جامع الكوفة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، فلما بلغت الحواميم ، قال أمير المؤمنين : قد بلغت عرائس القرآن ، فلما بلغت رأس العشرين ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشآون عند ربهم ذلك الفوز الكبير﴾ بكى حتى ارتفع نحيبه ، ثم رفع يده إلى السماء ، وقال لي : يا زر أمن على دعائي ، ثم قال :(اللهم إني أسألك إخبات المخبتين ، وإخلاص الموقين ، ومرافقة الأبرار ، واستحقاق حقائق الإيمان ، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم ، ووجوب رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار. يا زر إذا ختمت فادع بهذه الدعوات ، فإن حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمرني أن أدعو بهن عند ختم القرآن .اهـ

[تفسير آية المودة]

ثم اعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد صلوات الله عليه وآله ، هذا الكتاب الشريف العالي ، وأودع فيه أقسام الدلائل ، وأصناف التكاليف ، ورتب على الطاعة الثواب، وعلى المعصية العقاب ــ بين أني لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعا عاجلا ومطلوبا حاضرا ؛ لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد صلى الله عليه وآله وسلم من هذا التبليغ المال

والجاه ، فقال سبحانه ، وجل عن كل شأن شأنه :﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى** ﴾ معنى قوله :﴿ إلا المودة في القربى ﴾ أي : إلا أن تودوا أهل بيتي وإنما قال :﴿ في القربى ﴾ ولم يقل : للقربى ؛ لأنه جعلهم مكانا للمودة ، ومقرا لها كقولك : لي في بني فلان مودة [١]، ولي فيهم هوى ، وحب شديد . تريد : أحبهم ، وهم مكان حبي ومحله ، ففرض الله سبحانه بهذه الآية مودة أهل البيت عليهم السلام على قاصي الأمة ودانيها ، ومطيع البرية وعاصيها .

[سبب نزول الآية] [روي أن المشركين اجتمعوا في مجمع فقال بعضهم لبعض أترون محمدا يتعاطى على ما يتعاطاه أجرا ؟ فنزلت .

وفي البرهان : روي عن ابن عباس ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ﴾ ذكر أن الأنصار جمعت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم نفقة ، فقالت : إن الله تبارك وتعالى قد هدانا بك ، وأنت ابن أختنا ، فاستعن بهذه النفقة على ما ينوبك ، فلم يقبلها ، فأنزل الله سبحانه في ذلك ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ اهـ] [٢]

واعلم أنه قد كثرت الأقاويل في تأويل هذه الآية الكريمة ، واستنبطوا وجوها وجدوا عنها مندوحة ، وبه جرت العادة في كل فضيلة ذكرت لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن ، ولست أدري ما السبب فيه ، (وأنا أذكر طرفا[٣]من ذلك إنشاء الله ، كل شئ في موضعه) ، وأدل على الوجه الصحيح من ذلك ، الذي عليه أئمتنا عليهم السلام ، وشيعتهم رضي الله عنهم ، وغيرهم ممن وافقهم .

---

(١) وفي النسخة الثانية من المصابيح (لي ببني فلان مودة) .

(٢) ما بين قوسي الزيادة من قوله :(روي أن المشركين .. إلى هنا غير موجود في النسخة التي اعتمدناها ، وموجود في النسخة الثانية من المصابيح ، وهي النسخة التي يقال : إنما نسخة المصنف رحمه الله .

(٣) ما بين القوسين هو الثابت في النسخة الثانية من المصابيح ، ولفظ النسخة الأولى : وأنا أذكر مما قالوه طرفا من كل شئ إن شاء الله في موضعه) .

فمن ذلك هاهنا في اختلافهم في الاستثناء، فقال قوم: هو منقطع، وقال آخرون: متصل فيكون قد سأل أجرا، وهو مودة قرابته، ثم اختلف هؤلاء، فقالوا عن ابن عباس في رواية [١]، ومقاتل: إنها منسوخة بقوله: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم﴾ [٢].

قال الثعلبي والواحدي: ومن قال بالنسخ فقد غلط؛ لأنه لا يصح أن يقال: نسخ مودة النبي وكف الأذى عنه، ولا مودة آله وقرابته، ولا التقرب إلى الله بالطاعة [٣]،

---

(١) هذا يدل على مدى ما بلغ ببعض هذه الأمة من جفوة لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولقرابته عليهم السلام، وإلا فكيف لم يذكروا عن ابن عباس إلا هذا وتركوا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه وهو: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء، الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما. وبهذا اللفظ رواه أحمد ـ أو ابنه عبد الله، في الحديث (٢٣) من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام من كتاب الفضائل ص ١٨٧ ط قم، قال: وفيما كتب إلينا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي، يذكر أن حرب بن الحسن الطحان حدثهم، قال: حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس .. إلى آخر ما ورد هنا.

ورواه أيضا الطبراني في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام، تحت الرقم ٢٦٤١، من كتاب المعجم الكبير ج ٣، ص ٣٩ ط ١. ورواه بسنده عنه السيد المرشد بالله عليه السلام، في عنوان: الحديث السابع في فضل أهل البيت عليهم السلام، من ترتيب أماليه ج ١، ص ١٤٨، ورواه أيضا ابن المغازلي في الحديث ٣٥٢، من كتابه مناقب علي عليه السلام ص ٣٠٧ ط ٢. (تفسير آية المودة لأحمد بن محمد شهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩هـ ص ٣١.

(٢) سبأ: ٤٧.

(٣) اعلم أيها الطالب للرشاد بأنه قد كثر في هذه الأيام وانتشر عن كثير من نجوم [تعبير يطلق على الفنانين والفنانات من أهل الفن] مفسري التلفزيون، وهم يرددون بأن المراد بمودة أهل القربى، أي: قرابة الرجل، وصاروا لا يذكرون غيره، وكأنه هو التفسير الصحيح، حتى أصبح من النادر أن يذكر غير هذا التفسير، وهذا يدل على مدى الزيغ الذي حصل لهذه الأمة من النابتة، الذين لا هم لهم إلا الدعوة إلى منابذة أهل البيت، وطمس ومحو آثارهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون. انظر المفسرين المتقدمين، وكيف فندوا هذا الرأي، وأبانوا بما لا مزيد عليه من أن المراد بالقربى آل محمد (انظر الكشاف، والبيضاوي، والرازي، والتبيان) وغيرهم الكثير.

ومن ادعى النسخ توهم أن الاستثناء متصل ، وليس الأمر على ذلك[١] ، فإن الاستثناء منقطع ، وتم الكلام عند قوله : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا﴾ ثم قال : ﴿إلا المودة في القربى﴾ أي : لكن أذكركم قرابتي منكم ، وكأنه في اللفظ أجر ، وليس بأجر .

قلت : والصحيح ما ذكره أئمتنا وشيعتهم عليهم السلام ، من ذلك قول إمامنا المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام ، فإنه قال : معنى ﴿إلا﴾ في قوله تعالى : ﴿إلا المودة في القربى﴾ إنما هي بمعنى غير ، ومعناها : التفخيم لأمرهم ، والتعظيم لهم عليهم السلام كما قال الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

أراد بـ(غير) المبالغة في المدح ، وإليه ذهب عمرو بن بحر الجاحظ[٢] في كتابه (كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) الذي صنفه للمأمون .اهـ

وروى الإمام أبو الفتح الديلمي في البرهان عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا﴾ ذكر أن الأنصار جمعت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم نفقة ، فقالت : إن الله قد

---

(١) وذكر الزمخشري بأنه يجوز أن يكون الاستثناء متصلا ، أي : لا أسألكم أجرا إلا هذا ، وهو أن تودوا أهلي وقرابتي ، ولم يكن هذا أجرا في الحقيقة . انظر الكشاف ٤/٢١٩ .

(٢) عمرو بن بحر الجاحظ : هو عمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ ، من أئمة الأدب العربي ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، من أهل البصرة ، مولدا ووفاة ، تعلم بها وببغداد ، فنبه في علوم الأدب واللغة ، وأحاط بمعارف عصره ، فلم يترك موضوعا إلا وكتب فيه ، تقرب من الخلفاء والوزراء ، إلى أن ولي المتوكل العباسي ، وتنكر للمعتزلة ، فتوارى الجاحظ ، وعاد إلى البصرة ، ولازم مترله الذي أصبح مثوى الأدب ، ومحط رحاله ، وفلج في آخر عمره ، ومات والكتاب على صدره ، قتلته مجلدات وقعت عليه ، كتبه كثيرة شهيرة ، وموجودة بأرقى الطبعات ، ويعد في العثمانية ، ومن المتجنين على الشيعة . انظر متن الأساس بتحقيقنا ص ٨١ ، ط ١ . وقد ذكر المصنف في النسخة الثانية للمصابيح ، أنه انتهى النقل من الشافي ، للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام .

هدانا بك ، وأنت ابن اختنا ، فاستعن بهذه النفقة على ما ينوبك ، فلم يقبلها ، فأنزل الله سبحانه في ذلك ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ .اهـ

وروى في البلغة عن علي بن الحسين زين العابدين ، رواية عن أبيه ، عن أمير المؤمنين عليهم السلام جميعا ، وبه جاءت إحدى الروايتين عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وجماعة من التابعين ، وهو أن معناه : لا أسألكم على ما تجشمت من إظهار الدين ، وإبلاغ الوحي شيئا من حطام الدنيا ، ولا أجرا من حسنة ، ولكن أسألكم أن تجعلوا على ذلك مودة قرابتي ، وأهل بيتي ، وكان السبب في ذلك ما رواه آل رسول الله صلى الله عليه وعليهم السلام ، وغيرهم من الصحابة والتابعين أن الأنصار جآؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفقة ، وقالوا لرسول الله : تجشمت المشاق ، وقاسيت الشدائد ، حتى أتممت الدعوة ، وأقمت الحجة ، وفعلت كيت وكيت ، وقد جئناك بنفقة ، ولو أذنت لخرجنا من أموالنا على قدر وسعنا وطاقتنا ، فأنزل الله ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ أي : إلا أن تودوني في قرابتي وأهل بيتي ، وأراد بهم أمير المؤمنين ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، ومن جرى مجراهم من قرابته وأهل بيته[1] ، تدلك على ذلك الآثار التي وردت في هذا الباب ،

---

(١) وقد جاء ذلك في حديث رواه ابن عباس ، قال ابن المغازلي في مناقبه ص ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ط دار الأضواء سنة ١٤٠٣هـ : أخبرنا أبو طالب محمد بن أحمد بن عثمان ، أخبرنا أبو محمد عبد العزيز بن أبي صار إذنا ، حدثنا إبراهيم بن إسحاق بن هاشم بدمشق ، حدثنا عبيد الله بن جعفر العسكري بالرقة ، حدثنا يحي بن عبد الحميد ، حدثنا حميد الأشقر [عن قيس] عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال :(لما نزلت ﴿قل لا أسالكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : علي وفاطمة وولدهما) .

قال البهبودي في تخريجه : أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المناقب ٢١٨ مخطوط ، وخرجه عنه العلامة محب الدين الطبري في ذخائر العقبى ، ٢٤، وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان ، والطبري في معجمه الكبير ١٣١ نسخة جامعة طهران ، وخرجه عنه الكنجي في كفايته ب ١١ ص ٩١ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٨/٩،و ١٠٣/٧ ، كلهم بالإسناد إلى الحسين بن الحسن الأشقر ، بعين السند واللفظ ، وأخرجه بعين هذا السند ابن

وهي لا تحصى كثرة ، فاستغني عن ذكرها لشهرتها ، وهو ما نقله الخاص والعـــام ، وقرن ذكرهم بذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة عليهم في التشهد وغيره ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد[1] . **[الأمر بالصلاة على آل النبي يدل على فضلهم]**

قال بعض أئمتنا عليهم السلام : أجمعت الأمة على قولهم : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وأنه مشروع ، ومندوب إليه ، ومن قال بالوجوب فمرتبة عليا ، وإجماعـــهم يجـب أن يكون مقطوعا به ، كما هو مقرر في موضعه ، فإذا شرعت الصلاة على آل رســول الله صلى الله عليه وآله بإجماع الأمة[2]، وامتنعت على من سواهم بلا خـــلاف ـــ

كثير الدمشقي في تفسيره ٤/١١٢ من طريق ابن أبي حاتم ، وابن حجر العسقلاني في تخرج أحاديث الكشـاف من طريق الطبراني ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في مناقب الشافعي .

(١) قال الشافعي رضي الله عنه :

يا أهل بيت رسول الله حبكـــم فرض من الله في القرآن أنزلــه

كفاكم من عظيم الشأن أنكـــم من لم يصل عليكم لا صلاة لــه

(٢) هذا وقد دأبت نابتة هذا الزمان ، من أتباع بني أمية ، ومبغضي أهل البيت على الصـــلاة علـى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كتبهم ، وخطبهم ، وأحاديثهم ، مجردة عن الآل ، وصار هذا دينا معروفا لديهم وعنـــهم ، وإن ذكروا بهذا أظهروا الصلاة على الآل لا حبا لهم ، ولا اعترافا بحقهم ، وإنما خوفا من اتهامهم بعدم محبة أهـــل البيت ، لأنه لن ينفق سوقهم إذا أصروا على موقفهم من البغض والعداوة ، وما هذا إلا ما تظهره ألسنتهم ممـــا هو مخبوء في قلوبهم ، أعاذنا الله من أفعالهم ، وكفى المسلمين شرهم ، فقد جروا كل الويلات بسبب حقدهـــم الأعمى وبغضهم الظاهر الذي يودون مداراته وإخفائه . حتى أن أحدهم ألف كتابا في كيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وذكر كل الأحاديث الواردة في فضل الصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي كيفية الصلاة ، ثم عقـــد بابا في آخر الكتاب ، وجعله توضيحا لمن يصح إدخاله في هذه الصلاة ، ومن لا يصح ، فذكر أنه لا يصـــح إدخال أي شئ آخر غير آل محمد الذين وردت الأحاديث بإدخالهم ، وليته عمل به لحظة واحـــدة ، فقـــد أتم الباب ، وهو خاتمة الكتاب بالصلاة على النبي وأدخل الصحابة أجمعين ، مع ذكره إنه لا يصح إدخال غــــير الآل ، فهلا عمل بما ذكر واستدل عليه ولو لمرة واحدة . نعوذ بالله من الخذلان .

قطعنا أنهم أفضل من غيرهم ؛ لأنه لا معنى للأفضل إلا من يأمرنا الله بتوقيره وتعظيمه والدعاء له ، وهذه حالهم .اهـ

فقد جعل النبي صلوات الله عليه وعلى آله وسلم أجره على ما جاء به مودة قرابته في أمر الله ، وروي عنه رواية عامة أنه قال :(لعن الله من منع أجيرا أجره) وروي أنه قال لعلي عليه السلام :(يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة ، فمن عق أبا فعليه لعنة الله) [1] وقال له :(حبك إيمان وبغضك نفاق) وقال صلى الله عليه وآله وسلم :(أربعة أنا شفيع لهم يوم القيامة: المكرم لذريتي ، والقاضي لهم حوائجهم ، والساعي لهم في أمورهم ، والمحب لهم بقلبه ولسانه) هذه الرواية عن الرضا علي بن موسى عليهما السلام .

وروى في الكشاف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :(من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ، ثم منكر ونكير ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ألا ومن مات على حب آل محمد فتح الله له في قبره بابين إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة

---

(١) له شاهد أورده ابن عساكر في ترجمة أمير المؤمنين في تاريخه ، عن جابر ، بلفظ (حق علي بن أبي طالب على هذه الأمة كحق الوالد على ولده) كما أورده أيضا عن أبي أيوب ، وعن أمير المؤمنين ، انظر ترجمة الإمام علي من تاريخ مدينة دمشق تحقيق محمد باقر المحمودي ٢٧١/٢، قال محققه : ورواه ابن المغازلي في الحديث ٧٠ من مناقبه ص ٤٧ط ١

مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة) [1] .اهـ

إذا عرفت هذا فاعلم أن بغضهم عليهم السلام أقبح وأشنع ، كما أن حبهم أوجب وألزم ، وكفى باغضهم خزيا ونكالا وظلما ووبالا قوله صلى الله عليه وآله وسلم :(لا يبغضنا أهل البيت إلا أحد ثلاثة امرؤ يؤتى في دبره أو رجل لغير رشده ، أو حملت به أمه في حيضة) [2]

قال إمامنا المنصور بالله رحمة الله عليه : وجد في بعض الكتب ما لفظه (ووصله ـــ يعني القاسم بن إبراهيم عليه السلام ـــ أهل اليمن يطلبون انتقاله ، فقال : قد كبرت ، ولكن أصدر معكم ولدي محمد بن القاسم ، فصدره معهم ، فكان فيما أوصاه : إحذر على نفسك من قبائل أذكرهم لك في اليمن ، لا تحل أفئدهم محبة أهل البيت ، ولا تخلو من بغاضتهم ، بنو الحارث بنجران ، والحدادون بصعدة ، وبنو سلمان بعيان ، وبنو معبد بخيوان ، وبنو المكم بثاقب ، ولعوه بضحيان ، وبنو الوليد بصنعاء، وهبرة ببلاد همدان ، وإياك أن تركن إلى هؤلاء أبدا ، وكذا أوصى محمد بن القاسم عليهما السلام ابن أخيه الهادي إلى الحق بذلك ، وحذره من هؤلاء القبائل المذكورين ، نجانا الله منهم ، ومن أشباههم من فسقة العرب والعجم ، بحق محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين .

---

(١) الكشاف وفي تخريجه قال ابن حجر : رواه الثعلبي ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن علي البلخي ، حدثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق ، حدثنا محمد بن أسلم ، حدثنا يعلى بن عبيد ، عن إسماعيل بن [أبي خالد عن]قيس [ابن أبي حازم] عن جرير بن عبد الله البجلي بطوله ، قال ابن حجر : وآثار الوضع عليه لائحة [قلنا: ودلائل النصب في قولك واضحة] قال : ومحمد ومن فوقه أثبات ، والآفة فيه ما بين الثعلبي ومحمد .اهـ قلنا : وهو في الرازي عن الكشاف ، قال الرازي : هذا الذي رواه صاحب الكشاف ، وأنا أقول آل محمد (ص) الذين يؤول أمرهم إليه الخ كما سيأتي ، كما أورده أيضا الثعلبي ، والأصفهاني ، وغيرهم .

(٢) له شاهد أورده الإمام محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين رقم ٥٨٨ عن جعفر بن محمد عن أبيه ، يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ (لا يبغض أهل بيتي من الناس إلا ثلاثة رجل وضع على فراش أبيه لغير أبيه ، ورجل جاءت به أمه وهي حائض ، ورجل منافق) أنظر مناقب أمير المؤمنين ١٠١/٢ بتحقيق المحمودي.

واعلم أن هذا توقيف ، لأن الإخبار عما في القلوب لا يكون إلا بوحي من الله سبحانه إلى نبيئه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم بلغ إلى القاسم بن إبراهيم عليهما السلام من غير ما ذكرنا ؛ لأن الله يقول : ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾[1]

ولما اختلفت العامة في الآل من هم ؟ قال الرازي : وأنا أقول : آل محمد [صلى الله عليه وآله وسلم] هم الذين يؤول أمرهم إليه ، فكل من كان مآل أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة ، وعليا ، والحسن ، والحسين ـ كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد التعلقات ، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر ، فوجب أن يكونوا هم الآل

وأيضا اختلف الناس في الآل فقيل : هم الأقارب ، وقيل : هم أمته ، فإن حملناه على القرابة فهم الآل ، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل ، فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل ، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه [فثبت على جميع التقديرات أنهم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم][2]

وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء ؟ الذين وجبت علينا مودتهم ؟ فقال : (علي وفاطمة وابناهما)[3] فثبت أن

---

(١) النمل : ٦٥ .

(٢) ما بين قوسي الزيادة من كلام المصنف ، وليس من كلام الرازي ، فقد تقدم في كلام الرازي هذا الكلام

(٣) الكشاف . قال ابن حجر في تخريجه : قال الطبراني ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر ، عن قيس بن الربيع ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : وحسين ضعيف ساقط [قلنا : بل هذا القول ساقط ؛ لأن حسين الأشقر من خيار محدثي الزيدية ، الموالين لآل محمد ، الموثقين من أئمة العترة] قال ابن حجر ، وقد عارضه ما هو أولى منه ففي البخاري من رواية طاووس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد (ص) فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبي (ص) لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة .. الخ [فانظر إلى تعليلات ابن حجر مع أن ما أورده لا يعارض الحديث كما هو واضح ، ولكن لهوى النفوس سريرة لا تعلم) وقد تقدم تخريج الحديث عن أحمد بن حنبل وغيره ، وسيأتي تخريجه أيضا في كلام المصنف رحمه الله.

هؤلاء الأربعة أقارب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد [من] التعظيم ، وتدل على وجوه :

الأول : قوله تعالى : ﴿إلا المودة في القربى﴾ ووجه الاستدلال به كما سبق .

الثاني : لا شك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحب فاطمة عليها السلام ، قال عليه السلام :(فاطمة بضعة مني ، يؤذيني ما يؤذيها) [1] وثبت بالنقل المتواتر عن محمد[2] صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يحب عليا والحسن والحسين ، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله ؛ لقوله تعالى : ﴿واتبعوه لعلكم تفلحون﴾[3] وقوله : ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾[4]

---

(١) وقد رواه البخاري في باب فضائل فاطمة من كتاب بدء الخلق من كتابه الذي تسميه العامة بالصحيح ج ٥ ، ص ١٩٢ ، قال : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن أبي مليكة ، عن المسور بن مخرمة ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني﴾ ورواه أيضا مسلم في باب فضائل فاطمة صلوات الله عليها في الباب ١٥، من كتاب الفضائل ، الجزء الرابع ، ص ١٩٠٣ ، طبعة الحديث ، قال : حدثني أبو معمر إسماعيل بن إبراهيم الهذلي ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن ابن أبي مليكة ، عن المسور بن مخرمة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :(إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها) ورواه أيضا الحافظ أبو بكر ابن أبي شيبة في مناقب فاطمة عليها السلام من كتاب المناقب تحت الرقم ١٢٣١٩ ، من كتاب المصنف ١٢/١٢٦ ، طبعة الهند ، وفي المخطوطة ج ٦ ، الورق ١٨١ . قال : حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو [بن دينار] عن محمد بن علي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :(إنما فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني) . ورواه بأسانيد الحافظ الطبراني في مسند فاطمة عليها السلام تحت الرقم ١٠١ ــ ١١٥ ، وما بعده من المعجم الكبير ج ٢٣/٤٠١ ــ ٤٠٥ ، ط ١ . وكذلك رواه أيضا الحاكم ، ورواه أحمد في كتاب الفضائل ، ورواه أيضا بخلط الحابل بالنابل في مسند المسور بن مخرمة من كتاب المسند ، ورواه الترمذي ، والحافظ البغوي بأسانيد ، والحافظ عمر بن شاهين ، وأبو نعيم في ترجمة الإمام الصادق عليه السلام ، وابن حجر في ترجمة فاطمة عليها السلام من كتاب تهذيب التهذيب ، والسيوطي في كتابه الثغور الباسمة ، ومن أراد المزيد فعليه بما أورده العلامة الأميني في كتابه الغدير ٣/٢٠، ٧/٢٣١. (انظر كتاب تفسير آية المودة للخفاجي ص ٩٦، ٩٧، ٩٨) .

(٢) في الرازي (عن رسول الله) .

(٣) الأعراف : ١٥٨ .

(٤) النور : ٦٣ .

ولقوله : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[(١)] ولقوله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[(٢)] .

الثالث : أن الدعاء للآل منصب عظيم ، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلوات ، وهو قوله : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وارحم محمد وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل ، وكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب ، قال الشافعي :

ياراكبا قف بالمحصب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضا كملتطم الفرات الفائض

[قف ثم ناد بأنني لمحمد ... ووصيه وابنيه لست بباغض

واسألهم هل حب آل محمد ... فإن جحدوا جحدت

إن كان رفضا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

انتهى كلام الرازي ، ومن حكى عنه من غير أهل مذهبنا ، وعلى هذا المعنى إجماع أهل البيت عليهم السلام ، وشيعتهم رضي الله عنهم .

وروى الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام بإسناد رفعه إلى ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله فيما أنفقه ، ومن أين اكتسبه ، وعن حبنا أهل البيت)[(٤)] .

---

(١) آل عمران ٣١ .

(٢) الأحزاب : ٢١ .

(٣) البيتان بين قوسي الزيادة ليسا في الرازي المطبوع بدار إحياء التراث العربي ، ولعل يد العبث قد مسختهما من المطبوع ، وينظر في الأصول المخطوطة .

(٤) رواه الإمام السيد أبو طالب عليه السلام مسندا في الباب الثالث ص ٧٣ ، ورواه أيضا مسندا الخوارزمي في الفصل الرابع من مقتل الإمام الحسين عليه السلام ٤٢/١، وفي الفصل السادس من كتابه مناقب علي عليه

وروي عن [الإمام] زيد بن علي عليهما السلام ، عن آبائه عليهم السلام ، عن علي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :(والذي نفس محمد بيده لا تفارق روح جسد صاحبها حتى تأكل من ثمار الجنة ، أو من شجر الزقوم ، وحتى ترى ملك الموت ، وتراني ، وترى عليا ، وفاطمة ، وحسنا ، وحسينا ، فإن كان يحبنا قلت : يا ملك الموت ارفق به ، فإنه كان يحبني ويحب أهل بيتي ، وإن كان يبغضنا قلت : يا ملك الموت شدد عليه ، فإنه كان يبغضني ويبغض أهل بيتي) .اهـ

قال إمامنا الأعظم المنصور بالله القاسم بن محمد رحمة الله عليه ـ وقد سئل عن معنى هذه الآية ـ ما لفظه : صح لنا من معنى الآية في قوله تعالى :﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ أن المراد هم علي ، وفاطمة ، وذريتهما .

وذلك مروي عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله .

وروى ذلك الإمام المرشد بالله عن ابن عباس مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طريقين[1]

وفي تفسير الثعلبي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طريق واحدة .

ورواه ابن حنبل عن ابن عباس مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طريق واحدة [2].

ورواه الحاكم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله من تسع طرق ، وذلك في شواهد التنزيل للحاكم [3].

هذا وفي كتاب ابن المغازلي عن ابن عباس من طريق واحدة مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كذلك .

السلام ، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط كما في مجمع الزوائد ٣٤٦/١٠ ، ورواه الفيروزآبادي عنه ، وعن غيره في كتاب فضائل الخمسة ٧٧/٢ .(تفسير آية المودة ٨٣) .

(١) أمالي المرشد بالله ١٤٨/١.

(٢) تقدم تخريجه . وقال الخفاجي في تفسير آية المودة ، رواه أحمد ـ أو ابنه عبد الله ـ في الحديث ٢٦٣ ، من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام من كتاب الفضائل ص ١٨٧ . (تفسير أية المودة ص ٣١)

(٣) ورواه أيضا ابن المغازلي في الحديث رقم ٣٥٢ ، من كتابه مناقب علي عليه السلام ص ٣٠٧، ط ٢. ورواه الطبراني في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام تحت الرقم ٢٦٤١ ، من كتاب المعجم الكبير ٣٩/٣، ط ١

وفي مجمع الزوائد عن ابن عباس من طريقين ، مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كذلك .

وفي شواهد التنزيل عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طريق واحدة .

وفي شواهد التنزيل للحاكم عن مجاهد بلفظ (إلا أن تتبعوني وتصلوا قرابتي) .

ورواه الفقيه محي الدين في كتاب (ذخائر العقبى) عن ابن عباس مرفوعا ، من طريق واحدة .

وروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال :(جعل الله أجري عليكم المودة في أهل بيتي ، وإني سائلكم عنهم غدا) وقال : أخرجه الملا في سيرته .

وروى معنى هذا صاحب الكشاف [1].

فهذه الطريقة مرجحة على ما خالفها من التأويلات ؛ لأن الأنصار جمعوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مالا وأتوا به ، وقالوا : استعن بهذا المال في النوائب التي ترد عليك ، فأنزل الله سبحانه :﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ فقال قائلهم : إنما يريد أن نطيع قرابته من بعده ، ونكون لهم أتباعا ، ونجم نفاق المنافقين منهم ، فأنزل الله قوله تعالى :﴿أم يقولون افترى على الله كذبا﴾[2]الآية ، والقصة مستوفاة في غضون هذه الطرق ، ودل ذلك على أنهم فهموا ما تضمنته الأخبار من أن المراد بالآية آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأنهم أهل اللسان العربي ، فلم يفهموا إلا خلاف ما ذكره المتأولون

وأما أن الأجر على هداية النبي صلى الله عليه وآله لأمته لا يصح ، فذلك إن كان لغرض دنيوي فذلك معلوم من الدين بطلانه ، وإن كان لغرض في الدين بأن يكون من أسباب الهداية للأمة كما جاء في الأخبار الصحيحة المعلومة المتواترة ، من قوله صلى الله عليه وآله :(إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبدا

---

(١) انظر الكشاف ٢٢٠/٤ ، ٢٢١. ط دار الكتاب العربي .

(٢) الشورى : ٤٢ .

كتاب الله وعترتي أهل بيتي) [1] الأخبار المتقاربة لفظا ، المتفقة في المعنى ، فإنه لا يقدح في نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ويدل على صحة ذلك قوله تعالى : ﴿ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم﴾ [2] أي : أجري الذي هو مودة قرابتي لكم خاصة ، لأن ثمرتها لكم في الدنيا ، الهدى والسلامة من الضلال ؛ لأن الله قرنهم بكتابه ، وفي الآخرة جزيل الثواب والسلامة من العقاب ، لاتباعكم إياهم ، وتمسككم بهم وبالكتاب ، وليس لي غرض دنيوي يعود علي نفعه في الدنيا ، ولا جعلت ذلك لهم بهوى مني ، وهذا من الخطاب التكميلي ، أي : هذا الذي ذكره الله بلفظ الأجر إنما هو لكم نفعه في الدين ، والخطاب التكميلي قد ورد في كتاب الله غير هذا ، كما في قوله سبحانه : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وقال في آية أخرى : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ [3] إذ لولا هذه الآية لم يعلم أن ليلة القدر في رمضان ، فتأمل جميع ذلك موفقا إن شاء الله تعالى .

ولو فرضنا أن لا هداية للأمة إذا تمسكوا بهم عليهم السلام ، أليس يجب عليهم أن يحبوهم لإيمانهم ولقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ ولا يجب إلا ما كان من الدين لا من الدنيا الراجع نفعها ، لأن محبتهم إيمان وبغضهم نفاق ، كما وردت به الأحاديث الصحيحة ، فيكون المعنى حينئذ أن يأخذوا بما هو علامة الإيمان من مودتهم ، ولا يأخذوا بما هو علامة النفاق من بغضهم ، وهذا المعنى مستقيم عند الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، والله ولي التوفيق .اهـ

[قلت] : وقد أجاب الرازي على من قال : إن طلب الأجر على تبليغ الوحي لا يجوز من وجهين ــ الأول : أن هذا من باب قوله : (ولا عيب فيهم) .. البيت .

---

(١) تقدم تخريجه ، وهو من الأحاديث المشهورة المتواترة التي لا تحتاج إلى تخريج .

(٢) سبأ : ٤٧ .

(٣) البقرة : ١٨٥ .

يعني أنا لا أطلب منكم إلا هذا ، وهذا في الحقيقة ليس أجرا[1] ؛ لأن حصول المودة[2] بين المسلمين أمر واجب ، والآيات والأخبار في هذا الباب كثيرة ، وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبا فحصوله في حق أشرف المرسلين وأكابرهم أولى ، فقوله [تعالى]: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ تقديره : والمودة في القربى ليست أجرا ، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر البتة .

والوجه الثاني : في الجواب أن هذا استثناء منقطع ، وتم الكلام عند قوله : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا﴾ ثم قال :﴿إلا المودة في القربى﴾ أي : لكن أذكركم قرابتي منكم ، وكأنه في اللفظ أجر ، وليس بأجر .اهـ

قال الإمام يحي عليه السلام في الانتصار : وجه الاستدلال بهذه الآية على فضلهم هو أن الله سبحانه لما كان من أعظم نعمه على الخلق وأجلها وأعلاها وأكملها بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهداية الخلق ، وإرشادهم إلى السعادة الأخروية ، وإزاحتهم عن العمى ، وهدايتهم إلى طرق الهدى به صلى الله عليه وآله وسلم ، فما كان في مقابلة هذه النعمة يكون لا محالة جليل القدر ، عظيم المنزلة ، لكونه حصل في مقابلته ، والله تعالى قد جعل في مقابلة النعمة بالرسول والجزاء على عنايته في الخلق هو المودة ، والمحبة لمن كان قريبا إليه ، وما هذا حاله فليس يخفى مزيد فضله ، وعلو حاله وأمره ، من جهة كونها واردة في معرض المدح ، والتنبيه على مزيد فضل القرابة ، وعلو قدرهم ، واهتمام أمر الله تعالى بهم ، حتى قال فيهم ما قال . اهـ

وروى الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :(إن الله جعل

---

(١) في الرازي (ليس أجرا) وفي المصابيح (ليس بأجر) . ١٦٥/٢٧ .

(٢) في الرازي (لأن حصول المودة) وفي المصابيح (لأن حصول الموادة) ١٦٥/٢٧ . وزاد الرازي بعد قوله : أمر واجب (قال تعالى : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ وقال صلى الله عليه وآله وسلم :(المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا) . ١٦٥/٢٧ .

أجري عليكم المودة في القربى ، وأنا سائلكم غدا فمحف لكم في المسألة ، وحرم بغضنا على الأحمر والأسود ، وجعله بابا إلى عذاب الأبد ، والهلاك المخلد ، وإحباط محاسن الأعمال ، وحرمان الجزيل من النوال) .

وقال ﷺ :(لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه ، وأهلي أحب إليه من أهله ، وعترتي أحب إليه من عترته) [(١)] .اهـ

ومما ورد في علي بن أبي طالب عليه‌السلام عنه ﷺ (لو أن رجلا عبد الله ألف سنة ، بعد ألف سنة ، حتى صار كالحنايا ، وصام حتى صار كالوتر بين الركن والمقام ، ثم لقي الله وفي قلبه بغض علي لكبه الله على منخريه في النار) .

قال قاضي القضاة : هذا الخبر كما يدل على شرف علي عليه‌السلام يدل على أن الكبائر تحبط الأعمال ، وعلى أن بغض علي كبيرة .

وقال ﷺ لعلي :(لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق) .

إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، من رواية المخالف والموالف ، حتى أفاد العلم القطعي .

فانظر كيف تضمنت هذه الآية ، والسنة الشريفة لهم عليهم‌السلام منقبة راجحة بالمناقب ، ومرتبة عالية المراتب ، حيث جعل الله عز وجل حبهم الذي هو لهم نفعة في الدين ، أجرا لسيد المرسلين ، أوجبه على كافة الخلق أجمعين ، ومن ظلم الأجير أجرته فهو من الظالمين ، فما حال من ظلم النبي الأمين أجره ، في وداد عترته الأكرمين ، فهو من الهالكين بأيقن يقين .

وروى الإمام الحسن بن بدر الدين في شرحه لأنوار اليقين ، عن الإمام القاسم بن

---

(١) رواه الإمام المرشد بالله عليه السلام في أماليه ، في باب فضائل أهل البيت عليهم السلام ١/١٥٥ ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ، في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام برقم ٢٦٤ ، ٣/٣٩، طبعة بغداد .

إبراهيم عليهم السلام جميعا ، قال : جاء رجل إلى علي بن الحسين عليهما السلام وقال : يا ابن رسول الله قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد جاءه رجل فقال : إني أحبك وأهل بيتك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم فاستعد للفقر جلبابا) ما ذلك الفقر ؟ قال علي بن الحسين عليهما السلام هو الفقر إلى الله عز وجل ، فلو جعلت الدنيا بحذافيرها لمؤمن ما فرح بها ، ولو صرفت عنه بكليتها ما حزن عليها ، وإن أولياء الله لا يسكنون إلى شئ دونه . اهـ .

وفي كتاب دعائم الإيمان للإمام محمد بن القاسم عليهما السلام قال : وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث أبي ذر ، وأنس بن مالك : (جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فما أعددت يا أعرابي ؟ فقال : ما أعددت كثيرا من صلاة ولا صيام إلا إني أحب الله ورسوله ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنت مع من أحببت ، فقال أنس : ما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم ذلك اليوم ، إذا كان الرجل مع من أحب) . وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم :(من أحب قوما فهو منهم ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وكذلك من اهتدى بقوم اتبع طريقتهم ، ومن أحب قوما أحب أن يفعل بفعلهم ، وإن لم يشهدهم ، وجعل معهم . اهـ

وأما قوله تعالى :﴿ **ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا** ﴾ أي : يضاعفها ، فظاهره العموم ، في أي حسنة كان ، إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة في القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد في تلك المودة .

وعن السدي : أنها المودة في آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وزيادته فيها : مضاعفته لثوابها ، يدل على هذا قول الحسن بن علي عليهما السلام في هذه الآية : فاقتراف الحسنة ، مودتنا أهل البيت [1].

والاقتراف : الاكتساب ، قال الشاعر :

---

(١) ذكر في المصابيح النسخة ب ، والتي يقال : إنها نسخة المؤلف فقال : قال الحسن بن علي عليهما السلام في بعض خطبه ، وقد ذكر هذه الآية : وأنا من أهل الذين افترض الله مودتهم وولايتهم .. إلى قوله : واقتراف الحسنة مودتنا .. إلى آخر كلامه .

الناس في هذه الدنيا على طمع منها فمقترف مالا ومحروم[١]

ثم قال: ﴿ **إن الله غفور** ﴾ لمن تاب من تفريطه ﴿ **شكور** ﴾ عظيم الشكر لمن أطاع، وهو في صفة الله مجاز للاعتداد بالطاعة، وتوفيقه لثوابها؛ لأن الشكر في الأصل أن يكون في مقابلة نعمة على الشاكر، والمراد أنه يجازي، كما يجازى الشاكر عظيم الشكر، فيحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب لهم، وفي أن يزيد عليه أنواعا كثيرة من التفضل.

ثم اعلم أن الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدأ في تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوحي الله، وهو قوله: ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ واتصل الكلام في تقرير هذه المعنى، وتعلق البعض بالبعض، حتى وصل إلى هاهنا[٢]

ثم حكى هاهنا شبهة القوم، وهي قولهم: إن هذا ليس وحيا من الله تعالى، فقال عز وجل: ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذبا** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ لهم على نسبة الافتراء إليه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إلى الافتراء على الله، الذي هو اقبح أنواع الفرية، وأم منقطعة، والمراد الإنكار على القائلين، وهم كفار قريش: إنه افترى على الله كذبا بادعاء الرسالة، وبالقرآن، ثم أجاب عنه بأن قال: ﴿ **فإن يشأ الله يختم على قلبك** ﴾ وفيه قولان أحدهما: يختم على قلبك حتى تنسى القرآن، ويقطع عنك الوحي لو افتريت على الله الكذب.

وقال جار الله: يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفتري عليه الكذب، فإنه لا يجتري على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم[٣].

ومعنى هذا الكلام استبعاد الافتراء منه، وأنه في البعد كالشرك بالله، والدخول في جملة المختوم على قلوبهم.

---

(١) في نسخة (محروب).
(٢) وفي النسخة أ (حتى حصل إلى هنا).
(٣) الكشاف ٤/٢٢١.

والثاني : أن المراد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، فلا يشق عليك قولهم : إنك مفتر ، قاله مقاتل[١] والزجاج .

ثم قال تعالى : ﴿ويمح الله الباطل ويحق الحق﴾ قال المفسرون[٢] :(ليس معطوفا على جزاء الشرط ، وإنما هو كلام مستأنف ، معناه : والله يمح الباطل ، ويحق الحق أي : يثبته ﴿بكلماته﴾ بوحيه أو قضائه ، والمراد لو كان مفتريا كما يزعمون لكشف الله افتراءه ، ومحقه بالحق .

ويجوز أن يكون عدة لرسول الله بأن الله سيمحو الباطل ، الذي هم عليه ، وهو الشرك ، وتكذيبهم لمحمد ، ويثبت الحق ، وهو الدين الذي جاء به ، بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصره عليهم .

قالوا : وإنما سقطت الواو في الخط من (يمح) إتباعا للمصحف ، أي : إتباعا للفظ كما في ﴿ويدع الإنسان بالشر﴾[٣] ﴿سندع الزبانية﴾[٤] أي : وعادة الله أن يذهب الباطل

قال في البلغة : هؤلاء الكفار يقولون : إنك مفتر على الله كذبا ، ولو كنت فعلت فشاء الله أن يختم على قلبك لفعل ، وهو زجر للنبي ﷺ من الكذب عليه .

---

(١) ونسب الرازي هذا القول إلى مجاهد . انظر تفسير الرازي ١٦٧/٢٧. وقال في الكشاف : وعن قتادة ﴿يختم على قلبك﴾ ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي . ٢٢٢/٤.

(٢) منهم جار الله والرازي ، والنص موجود في تفسيرهما . انظر الكشاف ٤٠٣/٣ ، ٤٠٤.

وقال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف : قال أبو البقاء : ﴿يختم﴾ جواب الشرط ، و﴿يمح﴾ مرفوع مستأنف ، وليس من الجواب ، لأنه يمحو الباطل من غير شرط ، وسقطت الواو لالتقاء الساكنين ، ومن المصحف حملا على اللفظ ، ومما يقوي أنه مرفوع ، عطف قوله : ﴿ويحق الحق﴾ عليه وهو مرفوع .

(٣) الإسراء : ١١ .

(٤) العلق : ١٨ .

وقوله : ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ أي : لو كان محمد مفتريا بالبعث في الخلق لبعث من يكشف غش خلله ، ويبين لهم فريته ، فلما لم يبعث إلى هذه الغاية أحد علمنا أن الله تعالى لا يخلي بين عباده والباطل ، بل يبعث من يبين للناس ، كما فعل في بني إسرائيل وغيرهم . اهـ

ثم قال سبحانه : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ بمضمرات صدرك وصدورهم ، فيجري الأمر على حسب ذلك ، من ظهور الحق على يديك ، ومحق باطلهم .

واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ﴾ ثم برأ رسول الله مما أضافوه إليه من هذا ؛ إذ كان من المعلوم أنهم قد استحقوا بهذه الفرية عقابا عظيما ، لا جرم ندبهم الله تعالى إلى التوبة ، وعرفهم أنه يقبلها من كل مسيء وإن عظمت إساءته ، فقال عز وجل : ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾ قبلته منه : أخذته منه ، وجعلته مبتدأ قبولي ؛ لأن من للابتداء ، ومعنى قبلته : عزلته عنه ، وأبعدته عنه ؛ لأن عن للمجاوزة ومنه الآية ، كأنه لما قبلها أخذها فعزلها وأبعدها .

والتوبة : أن يرجع عن القبيح ، والإخلال بالواجب بالندم على تفريطه ، والعزم على ألا يعاود ، مع تلافي ما أمكن من حقوق العباد ، والاعتذار إلى من أساء إليه .

روي أن أعرابيا دخل المسجد وقال : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر ، فلما فرغ قال له علي رضوان الله عليه : يا هذا إن سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى التوبة ، فقال : يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معان ، على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة ، كما ربيتها في المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته ، قاله في الكشاف والمقاليد وغيرهما [1].

---

(١) انظر الكشاف ٢٢٢/٤ ، والرازي ١٦٨/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ من الكشاف .

ثم قال : ﴿ **ويعفو عن السيئات** ﴾ الكبائر بالتوبة ، والصغائر باجتناب الكبائر ﴿ **ويعلم ما تفعلون** ﴾ فيثيب على الحسنات ، ويعاقب على السيئات .

ثم قال تعالى : ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله** ﴾ أي : يستجيب لهم ، فحذف اللام ، كما في ﴿ وإذا كالوهم ﴾[١] أي : لهم ، وسواء قال: يستجيبهم ، أو يستجيب لهم ، المعنى واحد ، قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب[٢]

والمعنى : يستجيب الله لهم [٣]، فيثيبهم على طاعتهم ، ويزيدهم على الثواب تفضلا أو إذا دعوه استجاب لهم دعاءهم ، وزادهم على ما طلبوا ، وقيل : الاستجابة فعلهم[٤] ، أي : والذين آمنوا يستجيبون لله بالطاعة كما دعاهم إليها .

وقيل : يستجيب لهم تشفعهم في إخوانهم [﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ يشفعهم في إخوان إخوانهم][٥]. ذكره ابن الجوزي .

﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ الألم ، والمقصود التهديد[٦].

---

(١) المطففين : ٣ .

(٢) وبعده : فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعل أبي المغوار منك قريب

(٣) فيكون محل ﴿ الذين آمنوا ﴾ النصب على المفعولية .

(٤) فيكون محل ﴿ الذين آمنوا ﴾ الرفع على الفاعلية . قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : قال أبو البقاء : على هذا ﴿ الذين ﴾ في موضع رفع ، أي : ينقادون له ، و﴿ يستجيب الذين آمنوا ﴾ على الوجه الأول عطف على يقبل التوبة ، وعلى الوجه الثاني ، هو عطف على مجموع قوله : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ وقوله : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ عطف على مقدر هو مسبب عن قوله : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ على منوال قوله : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله ﴾ والمعنى : ويستجيب الذين آمنوا لله بالطاعة ، فيستجيب لذلك دعاءهم ، ويوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، ويجوز أن يكون عطفا على ويستجيب ، كما قال صاحب المفتاح رحمه الله في ﴿ وقالا ﴾ إنه عطف على ﴿ آتينا ﴾ . حاشية العلوي مخطوط ص ٢٥٦ .

(٥) ما بين القوسين زيادة من النسخة ب .

(٦) قال الحاكم الجشمي في التهذيب في تفسيره لهذه الآية :

الأحكام

دل قوله سبحانه ﴿ويستجيب﴾ على أحد التأويلين أنه تعالى يجيب دعاء عباده المؤمنين دون غيرهم لولا ذلك لما خص المؤمن ولأن إجابة الدعاء يجري مجرى الثواب ، ولذلك يقال : فلان مستجاب الدعوة فيمدح به ، هذا قول أبي علي ، وقال أبو بكر أحمد بن علي يجوز إجابة دعاء غير المؤمنين استصلاحا . ومتى قيل: فكثير من المؤمنين لا يجاب دعاؤهم ؟ قلنا: قد يتأخر لمصلحة ، وقد يكون مفسدة فلا يجاب ، وإنما يجاب بشرط المصلحة ، ولذلك يجب أن يسال بشرط المصلحة . ومتى قيل: إذا كان مصلحة فلا بد أن يفعله فما معنى الدعاء ؟ قلنا: قد يكون فعله مصلحة عقيب الدعاء ، ولولا الدعاء لكانت مفسدة ، ويدل قوله ﴿ولو بسط الله الرزق﴾ الآية على قولنا في اللطف والمخلوق والاستطاعة والإرادة ، أما دلالته على اللطف فظاهر ! لأنه لم يعط لكي لا يبغوا ، ولو بسط ليغوا ، وإنما رزقهم قدرا مخصوصا ليكونوا أقرب إلى الاستقامة ، ولذلك عقبه بقوله ﴿إنه خبير بصير﴾ . ومنها انه يفعل من ذلك ما هو أصلح في التكليف ، ونبه أن المنع ليس لعجز أو بخل ، لكن لما تعود إلى نفع العبيد وصلاحهم ، وأما دلالته على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم أنه تعالى وسع وضيق لطفا كي يكونوا أقرب إلى الطاعة ، وأبعد من المعصية ، فلو كان الجميع خلقا له تعالى لم يكن لهذا الكلام معنى ، لأنه سواء وسع أو ضيق ، إنما يؤخذ فيه ما يخلقه فيه . فأما دلالته على الاستطاعة فمن وجهين : أحدهما ـــ أن القدرة وإن كانت موجبة لوقف وجود البغي وعدمه عليها على سعة الرزق وضيقه ، فيبطل فائدة الكلام ، وثانيهما أن اللطف إنما يصح إذا قدر العبد على الفعلين ، فأما إذا لم يقدر إلا على شيء بعينه فما معنى اللطف ، وسعة الرزق وضيقه ، وأما دلالته على الإرادة فيدل أنه لم يرد البغي ممن المعلوم منه البغي ، إذ لو أراد ذلك كقول المجبرة لما جاز أن يقول : لم أبسط الرزق لكي يفعل البغي ، وتدل على أنه يفعل البغي لأنه يتزه على فعل ما يقع عنده البغي ، فلأن يتزهه عن فعل البغي أولى . وتدل على أن بسط الرزق يكون مفسدة ، ويدل قوله ﴿وينشر رحمته﴾ على عموم رحمته ، وكمال قدرته ، حيث هيأ لكل أحد ما يصلحه في كل بلد ، وذلك من لطيف تدبيره ، الذي لا يقدر عليه سواه ، ويدل قوله ﴿ومن آياته﴾ على توحيده وصفاته ، وقد بينا ما يدل من السموات من خلقها ، ثم تزيينها ، ثم تسكينها ، ثم إمساكها ، على غير عرض ، وفي الأرض من خلقها والجبال والنبات والثمار والأنهار وغير ذلك ، ومنها ـــ أن فعله يدل على صفاته إما بنفسه ككونه قادرا ، أو بواسطة ككونه حيا سميعا بصيرا ، ويدل قوله ﴿إذا يشاء﴾ على حدوث المشيئة لدخول علامة الاستقبال فيبطل قول من قال : إنها صفة ذات ، والمشيئة ترجع إلى الجميع ، فتدل أنه المختص بالقدرة على الإعادة ، ويدل قوله ﴿وما بث فيهما من دابة﴾ أن في السماء دواب ، فإما أن يحمل على أصل اللغة على ما يدب ، أو على ما يعرف ، ولا ما نع منه أيضا ، ويدل قوله ﴿ما أصابكم﴾ أن العبد قد يصيبه بسبب ذنبه مصائب ، إلا أن أبا علي يقول : إن الأمراض في العصاة تكون عقابا ، وأما أبو هاشم فيقول : إن الأمراض وأكثر المصائب محنة ، والحدود يجوز أن يكون عقوبة ، وقد بينا الوجه فيه .

واعلم أنه تعالى لما قال : إنه يجيب دعاء المؤمنين ، ورد عليه سؤال ، وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلية وفقر ؟ ثم إنه يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة ، فكيف الحال فيما تقدم من قوله : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ ؟ فأجاب عنه تعالى بقوله : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي : لظلموا بها ، وظلم بعضهم بعضا ، قال الشاعر :

ولولا ظلمه ما زلت أبكي[1]

أو من البغي الذي هو التكبر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ أي : بقدر الكفاية ، أو بتقدير على ما تقتضي الحكمة ، وباطن التدبير ﴿ إنه بعباده خبير بصير ﴾ يعلم ما هو أصلح لهم ، فيقدر لهم بحسبه من الفقر والغنى وغيرهما .

ولما بين تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم ؛ لأجل أنه أعلم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم ــ بين أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق ، فإنه لا يمنعهم منه ، فقال سبحانه : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث ﴾ وهو المطر ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾ يريد من بعد ما يئسوا من الرحمة ، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر ؛ لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم ، وكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر .

قرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم (ينزل) مشددة ، والباقون مخففة ، يقال : قنط بفتح النون وكسرها .

﴿ وينشر رحمته ﴾ أي : يبسطها ، ورحمته : بركات الغيث ، ومنافعه من الرزق والخصب .

ثم قال : ﴿ وهو الولي ﴾ الذي يتولى عباده بالإحسان ﴿ الحميد ﴾ المستوجب الحمد على ذلك ، وإن لم يحمده حامد ، أو المحمود في سمواته وأرضه .

---

(١) الذي يظهر أن لفظ البيت : ولولا بغيه ما زلت أبكي . حتى يتم الاستشهاد بأن البغي معناه الظلم .

ثم ذكر آية أخرى تدل على إلهيته فقال : ﴿ **ومن آياته** ﴾ أي : دلائل قدرته الباهرة ﴿ **خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة** ﴾ إن قيل : ليست الدواب إلا في الأرض ؛ لأن سكان السموات ملائكة ، وهم أولوا أجنحة مثنى وثلاث ورباع ؟ فالجواب : أنه يجوز أن يريد الأرض وحدها ، وإن عاد الضمير إليها وإلى السماء ، نحو ﴿ وجعل القمر فيهن نورا ﴾[1] و﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾[2] ويجوز أن للملائكة مشي ودبيب مع الطيران ، فوصفوا بالدبيب ، كما توصف به الأناسي على الأرض ، وأيضا فإن الدبيب هو الحركة ، والملائكة لهم حركة ، أو يكون في السماء خلق يدبون لا نعلمهم .

ثم قال تعالى : ﴿ **وهو على جمعهم** ﴾ أي : كلما بث ﴿ **إذا يشاء** ﴾ أي : وقت مشيئته جمعهم ، وهو يوم القيامة ﴿ **قدير** ﴾ لا يعجزه جل وعلا شئ من الأشياء ، والمقصود أنه تعالى خلقها متفرقة ، لا للعجز ، ولكن للمصلحة ، فلهذا قال : ﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ يعني الجمع للحشر والمحاسبة .

ثم قال تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة** ﴾ في مال أو بدن ﴿ **فبما كسبت أيديكم** ﴾ قرأ نافع وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء ، وهو كذلك في مصاحف أهل المدينة والشام ، وقرأ الباقون بالفاء ، وكذلك هو في مصاحف بالعراق .

وقوله : ﴿ بما ﴾ أو ﴿ فبما كسبت ﴾ خبر في القراءتين جميعا ، وما مبتدأ بمعنى الذي ، والمعنى : الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم ﴿ **ويعفو عن كثير** ﴾ من الذنوب ، ولولا عفوه لهلك عبده في أول خطوة ، والآية مخصوصة بالمجرمين ، فأما

---

(١) نوح : ١٦ .
(٢) الرحمن : ٢٢ .

من لا جرم له كالأطفال والمجانين ، فلا بد من العوض للمصلحة[1] ، ولا يبعد أن يعاقب بعضهم ، ويعفو عن بعض .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ما من اختلاج عرق ، ولا خدش عود ، ولا نكبة حجر إلا بذنب ، ولما يعفوا الله [عنه] أكثر)[2].

قال بعض علمائنا عليهم السلام : العفو يراد به الإمهال ، ولا يؤاخذهم في الوقت ، أو يراد العفو عن الصغائر والله أعلم . اهـ

وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية ، وقال :(من عفا الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة، وما عاقب عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه في الآخرة)[3] رواه الواحدي في البسيط .

وقال : إذا كان كذلك ، فهذه أرجى آية في كتاب الله تعالى ؛ لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين ، صنف كفره عليهم بالمصائب في الدنيا ، وصنف عفا عنه في الدنيا ، وهو كريم لا يرجع في عفوه ، وهذا سنة الله مع المؤمنين . اهـ

---

(١) قال السيد العلوي في معرض رده على ابن المنير الاسكندري في تعليقه على الكشاف ، قال السيد رحمه الله : وأنا أقول : إله الخلق غفرا ، سبحان من خلق صاحب الانتصاف عاريا عن الإنصاف ، هذا وكلامه يدل على أنه لم يشم رائحة الكلام ، ولا كان منه في العير ولا في النفير ، ولم يحظ منه بنقير ولا قطمير ، إذ لم يخالف أحد من المعتزلة في وجوب العوض للأطفال والمجانين والبهائم ، حتى قالوا : يجب على الله عوض الآلام التي تصل إليها بالركوب والذبح ، بسبب إباحته لذلك ، وقالوا بأنه ينتصف للجماء من القرناء ، وما على المعتزلة إذا لم يتم إلزام القاضي لهم ، ولعله لم يفهم كلام القاضي أبي بكر . حاشية العلوي خ ٢٥٧.

(٢) الحديث بنصه في الكشاف ٤٠٥/٣ ، وما بين قوسي الزيادة منه ، وهو أيضا في النسخة ب من المصابيح. قال ابن حجر في تخريجه ص ١٤٦ الملحق بالجزء الرابع من الكشاف : عبد الرزاق ، وابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن سليم عن الحسن ، والطبري ، والبيهقي في أواخر الشعب ، عن قتادة ، كلاهما مرسل ، ووصله عبد الرزاق من رواية الصلب بن بهران عن أبي وائل عن البراء رضي الله عنه .

(٣) في الكشاف ٤٠٥/٣ عن علي رضي الله وقد رفعه (من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة ، ومن عوقب في الدنيا لم تثنى عليه العقوبة في الآخرة ، وعنه رضي الله عنه (هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن) وما في الأصل مثله بنصه في الرازي ٦٠١/٩ نقلا عن الواحدي في البسيط أيضا .

ثم قال تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: بفائتين ما قضى عليكم من المصائب، وقوله: ﴿في الأرض﴾ يحتمل أن يريد: ولو ذهبتم أقاصي الأرض، أو دخلتم في أوساطها، ويحتمل أن يريد أن من في الأرض أدخل تحت القدرة لمن كان ينزل بأسه من السماء في العادة ﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ متول لكم بالرحمة ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنكم مصائبه وعذابه، والمراد به من يعبد الأصنام، بين أنه لا فائدة فيها البتة، ، والنصير: هو الله تعالى فلا جرم هو الذي تحسن عبادته.

ثم قال تعالى: ﴿ومن آياته الجوار﴾ جمع جارية، وهي السفن؛ لأنها تجري ﴿في البحر كالأعلام﴾[1] أي: كالجبال. قالت الخنساء في أخيها:

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

أي: كأنه جبل في رأسه لرفعته وشهرته بالنار، يقال: إن النبي ﷺ استنشد قصيدتها هذه، فلما وصل الراوي إلى هذا البيت، قال: قاتلها الله ما رضيت بتشبيهها بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا[2].

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب)

الأحكام

تدل الآية على كمال قدرته، وتوحيده، ويدل قوله {إن يشأ يسكن الريح} أنه قد يفعل بالسبب على ما يقوله أبو هاشم خلاف قول أبي علي، لأنه باعتمادات الريح تجري السفن، ولايقال: إن السبب يؤذن بالحاجة لأن الحاجة للفعل لا للفاعل، فهو كالمحل للأعراض، ولأنه يقدر أن يفعل من غير سبب أمثال ما يفعله بسبب، وإنما يفعل لسبب لضرب من المصلحة، ويدل آخر الآيات على الترغيب في الآخرة والتزهيد في الدنيا.

(٢) هذا في الرازي ٦٠٢/٩، والخنساء: هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية، السلمية، من قيس عيلان، من مضر، توفيت عام ٢٤ هـ، أشهر شاعرات العرب، قيل: وأشعرهن على الإطلاق، عاشت أكثر عمرها بالعصر الجاهلي، وأدركت الإسلام، فأسلمت، ووفدت على رسول الله ﷺ مع قومها بني سليم، فكان رسول الله ﷺ يستنشدها ويعجبه شعرها، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر، ومعاوية، وكان قد قتلا في الجاهلية، كان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية سنة ١٦ هـ

ثم قال :﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾ أي : سواكن لا تجري على ظهر البحر ﴿ إن في ذلك ﴾ الصنع ﴿ لآيات ﴾ أي : عبر ومواعظ ﴿ لكل صبار ﴾ على بلاء الله ﴿ شكور ﴾ على نعمائه ، وذلك هو المؤمن المخلص ؛ لأن الصبر والشكر صفتاه ، والمقصود التنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلا عن دلائل معرفة الله البتة ؛ لأنه لا بد إما أن يكون في البلاء ، وإما أن يكون في الآلاء ، فإن كان في البلاء كان من الصابرين ، وإن كان في الآلاء كان من الشاكرين ، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون البتة من الغافلين .

ثم قال سبحانه :﴿ أو يوبقهن ﴾ أي : يغرقهن ، يعني السفن ﴿ بما كسبوا ﴾ أي : بسبب ما كسبوا من الذنوب ، يقال : أوبقته ، أي : أهلكته ، ويقال للمجرم : أوبقته ذنوبه أي : أهلكته ، والمعنى أن الله تعالى إن يشأ ابتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين ، إما أن يسكن الريح فتركد الجواري على متن البحر وتقف ، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيها فتهلكهن بسبب الإغراق ، وعلى هذا التقدير ، فقوله: ﴿ أو يوبقهن ﴾ معطوف على قوله :﴿ يسكن ﴾ لأن التقدير إن يشأ يسكن الرياح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها .

قوله :﴿ ويعف عن كثير ﴾ قرئ (ويعف) بالجزم على إدخال العفو في حكم الإيباق ، على معنى : وإن يشأ يهلك ناسا ، وينج ناسا على طريق العفو عنهم فلا يؤاخذهم بذنوبهم في الدنيا ، والرفع على الاستئناف ، أي : وهو يعفو .

فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعا ، فقالت : الحمد لله الذي قر عيني بقتلهم ، لها ديوان شعر مطبوع ، فيه ما بقي محفوظا من شعرا . انظر الأعلام ٨٦/٢ قال السيد العلوي رحمه : قول الخنساء :

أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وقبله :

وإن صخرا لمولانا وسيدنا وإن صخرا إذا يشتو لنحار

ثم قال : وقولها : في رأسه نار .. تتميم لقولها : كأنه علم .

وأما قوله تعالى :﴿ **ويعلم الذين يجادلون في آياتنا** ﴾ فقد رفع استئنافا ، وجزم عطفا ، ونصب على تعليل محذوف ، أي : لينتقم ويعلم ، وعن الزجاج النصب على إضمار أن .

قال في الكشاف : فيه نظر ، لما أورده سيبويه في كتابه ، قال : واعلم أن النصب بالواو والفاء في قوله : إن تأتني آتك ، وأعطيك . ضعيف ، وهو نحو من قوله :

وألحق بالحجاز فأستريحا . اهـ

ومعنى ﴿ في آياتنا ﴾ أي : في إبطالها . ومعنى ﴿ **ما لهم من محيص** ﴾ أي : من مهرب من عقابنا ، ومعنى الآية : وليعلم الذين يجادلون ، أي : ينازعون على وجه التكذيب أن لا مخلص لهم إذا أوقفت السفن ، وإذا عصفت الرياح ، فيصير ذلك سببا لإغراقهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله .

(**واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد** أردفها بالتنفير عن الدنيا ، وبتحقير شأنها؛ لأن الذي يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة في الدنيا بسبب الرئاسة ، وطلب الجاه ، فإذا حقرت الدنيا في عين الرجل لم يلتفت إليها ، فحينئذ ينتفع بذكر الدلائل، فقال عز وجل ، ﴿ **فما أوتيتم من شيء** ﴾ من رزق وغيره ﴿ **فمتاع الحياة الدنيا** ﴾ أي : فانتفاعكم به في مدة الحياة الدنيا الفانية ، وسماه متاعا تنبيها على قلته وحقارته ، كمتاع الراكب الذي يتعجله لسير مع السفر ، كشربة سويق ، أو تميرات

ثم قال تعالى :﴿ **وما عند الله** ﴾ من الثواب في الآخرة ﴿ **خير** ﴾ مما عندكم ﴿ **وأبقى** ﴾ لأنه لا انقطاع له .

ثم بين تعالى ذلك لمن هو فقال :﴿ **للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ أي : لا يفوضون أمورهم إلا إليه ، ولا يعتمدون إلا عليه .

وقوله :﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش** ﴾ معطوف على ﴿ والذين آمنوا ﴾ وكذلك ما بعده[١].

قال في التجريد : والكبائر لا يجوز تعريفها كلها ، كما لا يجوز تعريف الذنب الصغير ، لأن فيه إغراء بالمعصية ، ويجوز تعريف بعضها ، وفي الحقيقة الكبيرة : ما كان عقاب صاحبها أكثر من ثوابه في كل وقت .

قلت : وفيه نظر[١]؛ لأن الطاعات مع الكبيرة لا تقبل ، لقوله تعالى :﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾[٢] ولا يثبت ثواب طاعة مع كبيرة ، لقوله تعالى :﴿ يا أيها الذين

---

(١)قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

الأحكام

يدل أول الآية أن في الذنوب صغيرا وكبيرا ، وتدل على أن الثواب إنما يستحقه من اجتنب الكبائر ، فيبطل قول المرجية ، ويدل ﴿وإذا ما غضبوا﴾ أن العفو في الجنايات يمدح به ، والعفو على ضروب أحدها : حق له فإسقاطه إليه كالأموال وغيرها ، وثانيها : استيفاؤه إلى الإمام وطلبه شرط ، فعفوه بأن لا يطلب كحد القذف . وثالثها : ما ليس إليه شيء من استيفاء ، أو إسقاط ، أو طلب فليس إليه ذلك ، ويدل قوله ﴿وأمرهم شورى﴾ أن المشاورة في الأمور مما يمدح به ، وتدل أن التمسك في الأمور بالجماعة واجب والتفرق مذموم ، ويدل قوله ﴿ومما رزقناهم﴾ أن الحرام لا يكون رزقا ، ويدل قوله ﴿ينتصرون﴾ على وجوب دفع المضار إذا أمكن ، والأولى بالمرء أن لا يحتمل الذلة مع التمكن من العزة ، ويدل ﴿فمن عفى﴾ على حسن العفو ، لأنه ينقل حقه من عوض الجناية إلى الثواب المستحق.

ومتى قيل: هل يحسن العفو على كل حال ؟ قلنا: في التائب نعم ، بالاتفاق ، وفي المصر يحسن عند مشائخنا ، لأنه إسقاط حق ، وقال أبو القاسم : لا يحسن ، لأنه إغراء ، ولو كان حسنا لكان الله تعالى أولى به ، قلنا : مع قيام الوعيد لا يكون إغراء ، ويجوز الإسقاط بالعفو كتجويزه بالتوبة ، ويجوز أن يعفو الله تعالى عن المصر ، وإنما منعنا منه سمعا ، ويدل قوله ﴿لا يحب الظالمين﴾ أنه لا يريد الظلم خلاف قول المجبرة ، ويدل على ورود الوعيد في أهل القبلة ، ويدل قوله ﴿لمن صبر وغفر﴾ على حسن الصبر والعفو ، وما فيهما من المشقة ، وما يستحق عليهما من الثواب ، وتدل الآيات على أن فعل العبد حادث من جهتهم ، لا من جهته ، لأنه أضاف ذلك إليهم ، والأمر والنهي والوعد والوعيد فيه ، كقوله ﴿يجتنبون كبائر الإثم﴾ ﴿وإذا ما غضبوا﴾ ﴿واستجابوا ـ وأقاموا ـ ويبغون ـ وينتصرون ـ وعفا وأصلح ، ولا يحب الظالمين ـ وانتصر ـ ويظلمون ـ ويبغون ـ وصبر ـ وغفر﴾ كل ذلك يدل على قولنا في المخلوق

آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾[٣] والحبوط : هلاك الأعمال وبطلانها ، كما تقدم ذكره .

ولأن الصحيح من المذهب أن من كان خاتمة معاصيه التوبة النصوح فهو من أهل الجنة ، ومن كان خاتمة طاعاته الإصرار على معصية واحدة فهو من أهل النار .

[وهذا هو صريح قول القاسم والهادي وغيرهما من قدماء أئمتنا عليهم السلام وغيرهم . والله أعلم][٤]

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ المراد منه : أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع ، ونبه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا ، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى ، وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقي على الخسيس الفاني .

ثم بين أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفا بصفات : ـــ

الصفة الأولى : أن يكون من المؤمنين ، بدليل قوله ﴿ للذين آمنوا ﴾ والصفة الثانية: أن يكون من المتوكلين على فضل الله بدليل قوله سبحانه ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾[١] .

---

(١)النظر : فيه نظر ؛ وذلك لأن ما ذكره في التجريد مسألة ، وما ذكره المصنف هنا مسألة أخرى ، لا تعود على الأولى بشيء . وذلك لأن معنى عدم ثبوت طاعة لمرتكب الكبيرة هو معنى ما ذكره بقوله : وفي الحقيقة : الكبيرة ما كان عقاب صاحبها أكثر من ثوابه ، والذي يظهر من كلام صاحب التجريد أن معنى قوله : وفي الحقيقة : هو ما ذكره العلماء من أن مرتكب المعصية التي لم ينص عليها بكبر ولا صغر تكون كبيرة أو صغيره ، وذلك بحسب فاعلها فإن كان له من الحسنات ما يزيل تلك المعصية كانت صغيرة في حقه ، وإن لم يكن له ما يزيل تلك المعصية تصبح كبيرة . أما كلامه حول التوبة ، فهذا مما لا نزاع فيه عند أحد .

(٢) المائدة : ٢٧ .

(٣) الحجرات : ٢ .

(٤) ما بين أقواس الزيادة موجود في النسخة ب ، وليس موجودا في النسخة أ .

والصفة الثالثة : أن يكونوا مجتنبين لكبائر الإثم والفواحش ، هذا كلام الرازي[2] .

قال : ولعل المراد بكبائر الإثم ما يتعلق بالبدع ، واستخراج الشبهات ، والمراد بالفواحش ما يجاوز الحد في القبح كالزنى ، والشرك بالله تعالى ، وقيل : ما فيه حد فهو فاحشة .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ تقديم ﴿ هم ﴾ للاختصاص ، أي : هم الأخصاء بالغفران ، حال الغضب ، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران ؛ لأن الغضب على طبع النار ، واستيلاؤه شديد ، ومقاومته صعبة ، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ .

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ المراد منه تمام الانقياد .

قيل : نزلت في الأنصار حين دعاهم الله تعالى إلى الإيمان به وطاعته فاستجابوا ، بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أدوها قائمة كاملة الأركان .

ثم قال ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ كانوا قبل الإسلام ، ومقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة إذا كان بينهم أمر اجتمعوا وتشاوروا ، فأثنى الله عليهم بذلك ، والتقدير : وأمرهم ذو شورى ؛ لأن الشورى مصدر .

وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم .

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أثنى عليهم بعدم الإسراف ، وأنهم ينفقون بعض الحلال الذي رزقوا ؛ لأن رزق الله لا يكون إلا حلالا ، وهو يريد الزكاة ، أو هي وغيرها

---

(١) وزاد الرازي [فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب فهو متكل على عمل نفسه ، لا على الله فلا يدخل تحت الآية] وهذا بناء على قاعدة أن الطاعات شكر لله تعالى كما هو اختيار الزيدية . وفي هذا تعريض بالمعتزلة ، فهم الذين يقولون : بأن العمل موجب للثواب لقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

(٢) كلام الرازي من قوله : واعلم أن مطالب الدنيا خسيسة .. إلى هنا . انظر تفسير الرازي ١٧٦/٢٧ .

والصفة الخامسة : ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون** ﴾ وتقديم ﴿ هم ﴾ لما مر في ﴿ هم يغفرون ﴾ .

قال في التجريد : قال الواحدي : البغي : الظلم و العدوان ، قال ابن الجوزي : وفي هذا البغي أقوال ـــ أحدها : أنه بغي الكفار على المسلمين ، وقال عطاء : هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة ، وبغوا عليهم ، ثم مكنهم الله منهم فانتصروا . والثاني : أنه بغي المسلمين على المسلمين خاصة .

والثالث : أنه عام في جميع البغاة ، سواء كانوا مسلمين أو كافرين ، قال : وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية فذهب بعض القائلين بأنها في المشركين إلى أنها منسوخة بآية السيف ، لأنها إنما أثبتت الانتصار بعد البغي ، فلما جاز لنا أن نبدأهم بالقتال دل على أنها منسوخة .

وللقائلين بأنها في المسلمين قولان : إنها منسوخة بقوله :﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ لأنها دلت على مدح المنتصر ، ثم أعلمنا أن الصبر والغفران أفضل ، فبان وجه النسخ .

والثاني : أنها محكمة ، وهو الأصح ، فإن قيل : كيف يجمع بين مدح المنتصرين ، وبين قوله :﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ فعنه أجوبة : ـــ

أحدها : أن الانتصار أفضل حيث يكون انتصارا من الكافرين ؛ لأنه جهاد ، كما ذكر عطاء ، والعفو أفضل إذا كان الباغي مسلما .

والثاني : أن الانتصار أفضل حيث يكون جهادا ، سواء كان من مسلم أو باغ ، أو من كافر .

والثالث : أن الانتصار أفضل ، إذا كان العفو يؤدي إلى أن يذل المسلم ، ويجترئ عليه الفساق .

الرابع : أن من بغى وأصر على بغيه فالانتصار منه أفضل ، ومن تاب وندم فالعفو عنه أفضل ، وعلى هذه الوجوه تحمل الآيات . اهـ

وقال في البلغة : معناه إذا أصابه البغي والظلم من غيره لم يستسلم له بل يمنعه من ظلمه ، ولم يذل نفسه للباغي الفاسق ، وهذا في باب النهي عن المنكر ، والأمر بالمعروف ، وهو من أعظم الجهاد .

قلت : وهذا معنى ما ذكره الهادي إلى الحق عليه‌السلام في هذه الآية إذ يقول : ﴿والذين إذا أصابهم﴾ الظلم في دينهم لم يقروا به ، وانتصروا ممن بغى في دينهم ، أو في أموالهم ، أو في دمائهم ، حتى يثبتوا الحق ، ويزيلوا الباطل ، فأخبر الله أن نبيئه لم يثبت باطلا ، ولم يترك حقا .

وأما قوله : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ فذلك فيما تجوز المكافأة به من السيئات لا في شئ من المحرمات ، وإنما ذلك في القتل ، والجراح ، والمال ، فيجوز أن يكافأ من فعل شيئا من ذلك بمثل ما فعل ، فأما فيما لا يجوز فعله مثل ظلم بريء ، أو فاحشة يأتيها فاسق دنيء إلى حرمة مسلم ، فلا يجوز للمسلم أن يأتي مثل ذلك في ماله ، ولا في حرمه ، فافهم الفرق بين هذين المعنيين ، وقف على وجه هاتين الحالتين [1].اهـ

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أردفه بما يدل على أن الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل ، فإن النقصان حيف ، والزيادة ظلم ، والمساوي هو العدل ، وبالعدل قامت السموات والأرض ، فلهذا السبب قال : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ .

فإن قيل : جزاء السيئة مشروع مأذون فيه ، فكيف سمي بالسيئة ؟ أجاب صاحب الكشاف : كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة [لأنها تسوء من تنزل به] قال تعالى

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٩ .

﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ يريد ما يسؤهم من المصائب والبلايا[١] .

وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما في مقابلة الأخرى أطلق اسم أحدهما على الآخر على سبيل المجاز [٢].

ثم قال تعالى : ﴿**فمن عفا**﴾ بما وجب له من القصاص ﴿**وأصلح**﴾ ما بينه وبين خصمه المسيئ بالعفو ، كما قال عز وجل : ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ [٣]

﴿**فأجره على الله**﴾ هذه عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم ، أي : فله من جزيل الثواب ما لا يبلغه وصف واصف .

ثم قال : ﴿**إنه لا يحب الظالمين**﴾ أي : يبغضهم أشد البغض ، وفيه إشارة إلى أن الانتصار لا يؤمن فيه الاعتداء خاصة حال الغضب ، فربما ظلم وهو لا يشعر .

ثم ذكر المنتصر فقال : ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه**﴾ أي : يفعل به ما فعل به ظالمه ﴿**فأولئك**﴾ المنتصرون ﴿**ما عليهم من سبيل**﴾ أي : من طريق للعقوبة ، ولا للذم لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار .

---

(١) انظر الكشاف ٢٢٩/٤ ، وما بين القوسين من الكشاف ، وهو غير موجود في المصابيح . قال محي الدين الدرويش في كتابه إعراب القرآن : في قوله : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ جناس المزاوجة اللفظي ، فإن السيئة الثانية ، ليست بسيئة ، وإنما هي مجازاة عن السيئة ، سميت باسمها لقصد المزواجة .. ثم قال : وبعضهم يعبر عنها بالمشاكلة ، وبعض المحققين لا يجعله من ذلك الباب ، بل يقول : إن غرضه تعالى أن السيئة ينبغي أن تقابل بالعفو والصفح عنها ،فإن عدل عن ذلك إلى الجزاء كان ذلك سيئة مثل تلك السيئة ، وهذا الكلام لا يخلو من نفحة صوفية روحانية (إعراب القرآن ٤٥/٩) .

(٢) قوله وأجاب غيره ، وما قبله ، ذكر مثله الرازي ، ١٧٨/٢٧ بلفظه ، ولم يذكر من الغير .

(٣) فصلت : ٣٤ .

ثم قال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يتكبرون فيها ويفسدون، وقال: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لأن التكبر بالحق لا يكون إلا لله تعالى، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد لهم بشديد العقاب

ثم قال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ عفا ولم ينتصر، وفوض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والغفران ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من معزوماتها ومقطوعاتها التي قطع بحسنها.

وفي البلغة: من الأمور التي أمر الله بها، ولم ينسخها.

والمعنى من عازمات الأمور، بجعل الأمر عازما مجازا، والعزم في الأصل: القطع. أو من معزومات الأمور، وعلى الوجهين المراد أن العفو من الأمور التي عزمها الصالحون على أنفسهم، أي: ألزموها أنفسهم.

وقال مقاتل: من الأمور التي أمر الله بها، وينبغي أن يحمل على أمر الندب. ويحكى أن رجلا سب رجلا في مجلس الحسن، فكان المسبوب يكظم ويعرض، ثم قام وتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها والله وفهمها؛ إذ ضيعها الجاهلون(١).

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ينادي مناد يوم القيامة من كان له أجر على الله فليقم، فيقوم العافون عن الناس).

---

(١) حكاية الحسن ذكرها في الكشاف ٤٠٧/٣، والحديث كذلك في الكشاف، وفي الرازي، ٦٠٧/٩، ولفظه فيهما: إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم، قال: فيقوم خلق فيقال لهم: ما أجركم على الله؟ فيقولون: نحن الذين عفونا عمن ظلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة بإذن الله.

قال في تخريج الكشاف ص ١٤٦، العقيلي والطبراني في مكارم الأخلاق، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب في السابع والخمسين كلهم من طريق الفضل بن يسار، عن غالب العطار عن الحسن ابن أنس، رفعه قال: إذا وقف العبد للحساب، ينادي مناد من كان أجره على الله فليدخل الجنة. الحديث.

وله طريق أخرى، عند الثعلبي من رواية زهير بن عباد عن ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس، وأخرى عن البيهقي، من رواية الثوري، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، أتم منه، قال البيهقي: المتن غريب، والإسناد ضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿ومن يضلل الله﴾ أي: يحكم عليه بالضلال ويسميه به لما ضل، أو يخذله فلا يلطف به لعلمه أنه لا يقبل ﴿فما له من ولي من بعده﴾ يتولى هديته من بعد خذلان الله إياه[1].

ثم قال تعالى: ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب﴾ في الآخرة ﴿يقولون هل إلى مرد﴾ إلى الدنيا ﴿من سبيل﴾ أي: من طريق لاستدراك ما فات وإصلاحه، والمراد أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب.

ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال: ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي: النار دل عليها ذكر العذاب، ويعرضون عليها قبل دخولهم النار، وذلك في الموقف، أو يعرضون عليها يعذبون بها بعد أن دخلوها ﴿خاشعين﴾ الخاشع: فهو المطأطئ الرأس، المنكس إلى الأرض، أي: ساكنين ﴿من الذل﴾ يعني وتراهم يعرضون على النار حال كونهم خاشعين حقيرين مهينين، بسبب ما لحقهم من الذل، وقد يوقف على ﴿خاشعين﴾ ويعلق ﴿من الذل﴾ بـ﴿ينظرون﴾ أي: من أجل الذل.

﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال الهادي عليه السلام: هذه صفة الكافرين في يوم الدين أخبر الله بما يترل بهم فيه من الخزي والذل، ومعنى ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ فهم ينظرون بطرف خفي، والطرف الخفي: فهو الطرف الذليل الخاشع

---

(١)قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب):

الأحكام

يدل قوله {هل إلى مرد من سبيل} أنهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا، وقت معاينة العذاب ليطيعوا، ولو كانت أفعال العباد خلق الله تعالى لما صح هذا التمني، وكذلك لو لم يقدروا عليه، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة، ويدل قوله {ألا إن الظالمين في عذاب مقيم} أن الظالم لا يخرج من النار، وأن الرسول لا يشفع لهم، فيبطل قول المرجية، ولا يقال: إن المراد به الكفار، لأنه خلاف الظاهر، وكذلك يدل قوله وما كان لهم من أولياء ينصرونهم، وأن نصره أعظم من الشفاعة المؤدية إلى النجاة، ولأن الإجابة فعلهم، وتدل أن سبب الخلاص إنما هو في الدنيا دون الآخرة.

العيي ، وقد يستدرك ذلك في من[1] نزل به بلاء في الدنيا ، وترى ذلك في طرفه ظاهرا لا يخفى إذا قارب من يهابه من الجبارين ، أو واجه من يخشى منه من السلاطين [2].اهـ

أي : يبتدئ نظرهم[3] من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي ، أي مسارقة ، يسلوقون النظر كنظر المقود إلى السيف ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره ، لا يفتح أجفانه كما يفعل المحب في نظره إلى المحبوب .

وقيل : ﴿من طرف خفي﴾ النظر لما عليهم من الذل ، يسارقون النظر إلى النار خوفا منها ، وذلة في أنفسهم .

ولما وصف الله حال الكفار ، حكى ما يقوله المؤمنون فيهم ، فقال :﴿ **وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ فهو [من] ذهبت به نفسه في العذاب ، وحصلت بسوء فعله في العقاب ﴿ وأهليهم ﴾ [فقد] يخرج على معنيين ، إما أهله الذين كانوا يعرفهم في الدنيا ، ويألفهم فيها ، فخسرهم بمفارقتها ، إما بمصيرهم إلى عذاب أليم، وإما بمصيرهم إلى ثواب كريم ، ففي كلا المعنيين قد خسرهم الكافر ، والمعنى الأول فقد يخرج على أن الأهل هم حوريات الجنة ، اللاتي جعلهن الله ثوابا للمؤمنين ، وخلقهن أهلا للمتقين ، فكان من عمل بغير الهدى ، وجنب عن التقوى خاسرا للأهل الذين جعلوا للمتقين ، فخسرهم الفاسقون بفعلهم ما لا تحب الحوريات لمن فعله ، ولا ينالهن .اهـ

---

(١) في مجموع تفسير الأئمة (في من) وفي المصابيح ب (في من) وفي المصابيح أ (فيما) فأثبتنا ما في المجموع .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٥٠ .

(٣) وفي نسخة ب (يبتدئ بصرهم) .

قال صاحب الكشاف : ﴿ يوم القيامة ﴾ إما أن يتعلق بـ ﴿ خسروا ﴾ ويكون قول المؤمنين واقعا في الدنيا ، وإما أن يتعلق بـ ﴿ قال ﴾ أي : يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة[1] .

ثم قال تعالى : ﴿ **ألا إن الظالمين في عذاب مقيم** ﴾ دائم لا ينقطع .

ثم قال : ﴿ **وما كان لهم من أولياء ينصرونهم** ﴾ بدفع المكروه عنهم ﴿ **من دون الله** ﴾ الذي خلقهم ، المعنى لا ملجأ منه إلا إليه .

﴿ **ومن يضلل الله فما له من سبيل** ﴾ إلى الهداية . قد مر تفسيره .

ثم اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود فقال سبحانه : ﴿ **استجيبوا لربكم** ﴾ أي : استجيبوا دعاءه إلى الإيمان ، وإلى طاعته ﴿ **من قبل أن يأتي يوم** ﴾ عظيم شأنه ، وهو يوم القيامة ﴿ **لا مرد له من الله** ﴾ أي : لا يقدر أحد على رده وقوله : ﴿ من الله ﴾ يجوز أن يكون صلة لقوله ﴿ لا مرد له ﴾ يعني لا يرده الله بعد ما حكم به ، ويجوز أن يكون صلة لقوله : ﴿ يأتي ﴾ أي : من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده .

واختلفوا في المراد بذلك اليوم ، فقيل : هو يوم ورود الموت ، وقيل : يوم القيامة ، لأنه وصف ذلك اليوم بأنه لا مرد له ، وهذا الوصف موجود في كلا اليومين ، ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿ لا مرد له ﴾ أنه لا يقبل التقديم والتأخير ، وأن يكون معناه أنه لا مرد فيهما[2] إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافي .

---

(١) الكشاف ٢٣١/٤ .

(٢) في الرازي : أو أن يكون معناه : أنه لا مرد فيه إلى حال التكليف .. الخ ١٨٣/٢٧ .

ثم قال تعالى في وصف ذلك اليوم: ﴿ما لكم من ملجإ يومئذ﴾ يقع به التخلص من العذاب ﴿وما لكم من نكير﴾ ينكر عذابكم وينصركم [١]، أو إنكار، أي: لا تقدرون أن تنكروا مما دون في صحائف أعمالكم ﴿فإن أعرضوا﴾ أي: هؤلاء الذين أمرهم بالاستجابة، أي: لم يقبلوا هذا الأمر ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ تحفظ أعمالهم وتحصيها ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أي: الإنذار وذلك تسلية من الله له صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم إنه تعالى بين السبب في إصرارهم على مذاهبهم الباطلة، وذلك أنهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة، والفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والنخوة والتكبر، وعدم الانقياد للحق، فقال عز وجل: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة﴾ أي: غنى وصحة وأمنا ﴿فرح بها﴾ فرح بطر وأشر، ناسيا للشكر معرضا عنه، وأراد بالإنسان الجمع لا الواحد لقوله: ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ كالمرض و الفقر والمخاوف ﴿بما قدمت أيديهم﴾ من المعاصي ﴿فإن الإنسان كفور﴾ عظيم الكفر، المعنى: أنه يذكر البلاء وينسى النعم، ونعم الله في الدنيا، وإن كانت عظيمة؛ إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سماها ذوقا، فبين تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير التافه الذي يحصل في الدنيا، فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، ووصل إلى أقاصي السعادات، وهذه طريقة من يضعف اعتقاده في سعادات الآخرة، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذي لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة [٢].

---

(١) هو هنا بمعنى منكر، وسمي المنكر بالمصدر مبالغة فيه، وقوله: إنكار، كأنه مصدر أنكر على غير قياس، وقد جاء في القاموس مصدرا لنكر، وفي التهذيب: النكير اسم الإنكار الذي معناه التغيير. وقال الزجاج: معناه: أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها. إعراب القرآن ٩/٥٠.

(٢) قال الحاكم الجشمي في التهذيب:

ثم بين تعالى أنه متى أصابهم سيئة ، أي : شئ يسؤهم في الحال كـالمرض والفقـر وغيرهما ، فإنه يظهر منه الكفر ، وهو معنى قولـه :﴿ فـإن الإنسـان كفـور ﴾ والكفور: الذي يكون مبالغا في الكفر ، و لم يقل : فإنه كفور[1]؛ ليبين على أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلا إذا أدبها الرجل بالآداب التي أرشد الله إليها .

ولما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة ، وإصابته بضدها أتبع ذلك بقوله :﴿ **لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء** ﴾ لا ما يشاء غيره ، والمقصود منه أن لا يغتر

الأحكام : يدل قوله {فإن أعرضوا} الآية أن المعرض جان على نفسه ، وأتي من قبله لا من قبل الله ورسوله ، فيبطل قول المجبرة ، ويدل قوله {ما كان لبشر} أن كلامه مع عباده لا يخلو من هذه الأوجه الثلاثة ، وتدل على حدث كلامه ، لأنه قرن به أمارة الاستقبال ، فقال {أو يرسل رسولا فيوحي} ، وتدل أنه لا يرى في الجنة ، إذ لو رؤي وكلمهم لخرج من الوجوه الثلاثة إلى المشافهة ، ويدل قوله {وإنك لتهدي} أن الهداية الدلالة والبيان ، وأن الرسول يهدي خلاف قول المجبرة في الوجهين ، ويدل قوله {ألا إلى الله} على زجر ووعيد ، وحث على الطاعة ، وأن الجزاء عنده

(١) قال السيد العلوي رحمه في حاشيته على الكشاف ص ٢٥٩ : قوله : و لم يقل : فإنه كفور .. قال الطيبي: فالتعريف في الإنسان الأول للعهد ، وفي الثاني للجنس ، والقرينة الدالة على العهد قوله :﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ ... ثم قال : والمعنيون الكفار المخاطبون ؛ لترتب قوله : ﴿ فإن أعرضوا ﴾ على قوله :﴿ استجيبوا لربكم ﴾ فهو من إقامة المظهر موضع المضمر ، للإشعار بتصميهم على الكفران ، والإيذان بأنهم لا يرعوون عما هم فيه ، وأفرد الضمير في ﴿ فرح ﴾ وجمع ﴿ وإن تصبهم ﴾ وعمم في ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ لمفهوم واحد على الترقي ، يعني : ليس ببدع من هذا الإنسان المعهود الإصرار ؛ لأن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، فدل وضع الإنسان الثاني موضع الضمي على ذم مطلق الإنسان ، لكونه دليلا على ذم هذا المقيد .

وأنا [أي : السيد العلوي رحمه الله] أقول فيما ذكره نظر من وجوه : أحدها ــ أن المصنف نص وكذا غيره من أئمة الأدب ، على أن الاسم المعرف باللام إذا أعيد ذكره فالثاني هو الأول ، والألف واللام في الثاني للعهد إلى الأول ، ذكره المصنف في تفسير قوله تعالى :﴿ إن مع العسر يسرا ﴾ وما ذكره الطيبي عكس هذا ، والثاني : أن قوله : فهو من إقامة المظهر مقام المضمر للإشعار بتصميمهم على الكفران ، والضمير في فهو للإنسان . الأول غير مستقيم ؛ لأن الكفران لم يذكر عقيبه بل عقيب الثاني ، والثالث : أن قوله : فدل وضع الإنسان الثاني موضع الضمير ...الخ يدل على أن الإنسان الثاني معهود ، والظاهر أن الإنسان الثاني معهود أيضا ، والطيبي إنما وهم من قوله المصنف : ليسجل على أن هذا الجنس موسوم ، ومراد المصنف أنه لما أتى باسم الجنس ووضع موضع الضمير ، وإن كان للعهد ، دل على ذلك ، فليتأمل جميع ذلك .

الإنسان بما يملكه من المال و الجاه ، بل إذا علم أن الكل ملك الله ، وأنه إنما حصل ذلك القدر تحت يده ؛ لأن الله أنعم عليه به ، فحينئذ يصير بذلك حاملا له على مزيد الطاعة والشكر ، وأما إذا اعتقد أن تلك النعم إنما حصلت بسبب عقله وحده واجتهاده ، بقي مغرورا بنفسه ، معرضا عن طاعة الله .

ثم ذكر أقسام تصرفه في العالم ، وأنه يختص [1] البعض منهم بما يشاء ،فقال سبحانه: ﴿**يهب لمن يشاء إناثا**﴾أي : اللاتي يعددن من البلاوي ﴿**ويهب لمن يشاء الذكور**﴾ المشاهير بالكمال ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان ، أفاد ذلك المعنى الألف واللام [2] .

وفي التجريد ﴿إناثا﴾ أي : بنات ليس فيهن ذكر ، كما وهب للوط ﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ البنين لا بنات فيهم ، كما وهب لإبراهيم﴿**أو يزوجهم**﴾ أي : الموهوبين ﴿**ذكرانا وإناثا**﴾ معناه : أو يجعلهم أزواجا ، أي : أصنافا ذكرانا وإناثا ، فيهبهم جميعا كما وهب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أربعة بنين ، وهم القاسم ، وعبد الله وسمي الطيب ، والطاهر ، وإبراهيم ، وأربع بنات ، وهن : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

قال الزجاج : ومعنى ﴿يزوجهم﴾ أي : يقرنهم ، وكل شيئين يقرن أحدهما بالآخر ، فهما زوجان .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : والتزويج هاهنا هو جمع الأتوام ، قال الشاعر :

زوجت خيلكم بخيل مجاشع يوم الشريف فما استقامت

---

(١) في نسخة أ (وأنه يخص) .

(٢) لأن التعريف تنويه وتشهير .

وقيل : هو بيان لحالهم في التزويج ، كقوله : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾[١] يقال للواحد : فرد ، وإذا كان معه غيره من جنسه ، سمي كل منهما زوجا .

﴿ **ويجعل من يشاء عقيما** ﴾ أي : عاقرا لا يلد ولدا ، فلا يهب له ذكرا ولا أنثى ، وكل ذلك على ما تقتضيه الحكمة ، والعلم بالمصلحة[٢] .

[وفي الكشاف : فإن قلت : لم قدم الإناث أولا على الذكور مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم ، ولم عرف الذكور بعدما نكر الإناث ؟ قلت : لأنه لما ذكر البلاء في آخر الآية الأولى ، وكفران الإحسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته ، وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث ؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ، وأخر الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم ؛ لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهم لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال : ﴿ ذكرانا وإناثا ﴾ كما قال : ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾[٣] ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾][٤] اهـ

---

(١) القيامة : ٣٩ .

(٢) مثل يحي وعيسى عليهما السلام .

(٣) الحجرات : ١٣ .

(٤) انظر الكشاف ٢٣٢/٤ ، وما بين قوسي الزيادة غير موجود في النسخة أ ، وهو موجود في نسخة المصابيح ب ، والتي يقال : إنها نسخة المصنف رحمه الله .

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إنه عليم﴾ بمصالح عباده ﴿قدير﴾ على تكوين ما يصلحهم، وقال ابن عباس: ﴿عليم﴾ بما خلق ﴿قدير﴾ على ما يشاء أن يخلقه.

واعلم أنه تعالى لما بين كمال قدرته وعلمه وحكمته، أتبعه ببيان كيف يخص أنبياءه بوحيه [وكلامه][1] فقال عز وجل: ﴿وما كان لبشر﴾ أي: ما صح له ﴿أن يكلمه الله إلا وحيا﴾ قال الهادي عليه السلام: الوحي هاهنا فهو: وحي النوم، كما أوحى إلى أم موسى عليه السلام فيما أمرها به من إرضاعه، فإذا خافت عليه ألقته في اليم، ومثل وحيه إلى إبراهيم في المنام أن يذبح ابنه إسماعيل صلى الله عليهما، ومثل هذا في تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام، وقيل: هو هاهنا إلهام في القلب.

﴿أو من وراء حجاب﴾ قال الهادي عليه السلام: يخلق صوتا يسمعه السامع، كما كان فعله في موسى، خلق له صوتا في الشجرة، فسمعه موسى.

والحجاب: فمعناه أن يأتي الصوت، ولا يرى له مصوتا، فهذا الحجاب الذي بين المصوت وبين السامع. اهـ

وهذا مثل[2]، كما يكلم الملك بعض خواصه وهو من وراء الحجاب، والمعنى: يسمعه بأن يخلقه في بعض الأجواف من غير أن يبصر السامع من يكلمه، لأنه تعالى غير مرئي[3]، وهكذا تكليمه الملائكة، قاله في التجريد وغيره[1].

---

(١) ما بين القوسين من النسخة ب.

(٢) قوله: وهذا مثل. أي قوله تعالى: ﴿أو من وراء حجاب﴾

(٣) وقد استدل بهذه الآية على عدم رؤية الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنه تعالى حصر وحيه في هذه الثلاثة الأقسام، ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أن يرى حال الكلام، فحينئذ يكون قسما رابعا زائدا على هذه الأقسام الثلاثة، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله﴾ إلا على هذه الأوجه الثلاثة.

وقال الرازي في تفسيره ١٨٧/٢٧ بعد أن ذكر إجماع الأمة بأن الله يوصف بأنه متكلما. فقال: أما الفريق الأول: وهم الذين قالوا: كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات، فهم فريقان: أحدهما ـ الحنابلة، الذين قالوا بقدم هذه الحروف، وهؤلاء أخس من أن يذكروا في زمرة العقلاء ... ثم قال: وأما العقلاء من

قلت : والذي رواه الهادي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سأل جبريل الروح الأمين فقال له : كيف تأخذ الوحي من رب العالمين ؟ فقال : آخذه من إسرافيل ، قال : كيف يأخذه إسرافيل ؟ قال : يأخذه من ملك فوقه ، قال :كيف يأخذه ذلك الملك؟ قال : يلقى في قلبه إلقاء ، ويلهمه إلهاما .

﴿ **أو يرسل رسولا** ﴾ معناه : الملك الذي كان يأتي إلى الأنبياء بوحي الله ، وهو جبريل صلى الله عليه .اهـ

﴿ **فيوحي بإذنه** ﴾ أي : بأمره ﴿ **ما يشاء** ﴾ قرئ (أو يرسل) [بالرفع عن نافع وابن عامر][2] على تقدير :[أو هو يرسل ، وقرأ الباقون بالنصب في ﴿ يرسل ﴾ على تقدير]: أن ؛ لعطفه على المصدر ، وهو وحيا ﴿ **إنه علي** ﴾ مرتفع عن صفات

الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات كائنة بعد أن لم تكن حاصلة ، بعد أن كانت معدومة ، ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة ، أو لا يقال ذلك ، بل يقال : إنها حادثة ، أو يعبر عنها بعبارة أخرى واختلفوا أيضا هل هي قائمة بذات الله تعالى ، أو يخلقها في جسم آخر ، فالأول هو قول الكرامية ، والثاني : قول المعتزلة .

وقال الإمام القاسم بن محمد عليه السلام في كتابه الأساس ص ١٣٥ ط ١، عند ذكر القرآن : وهو كلام الله تعالى اتفاقا ، أئمتنا عليهم السلام والجمهور : وهذا هو المسموع . الأشعرية : بل معنى في نفس المتكلم . المطرفية : بل في نفس الملك [هو الملك الأعلى المسمى ميخائيل ، وليس بحرف ولا صوت] وهذا عبارة عنه . لنا قوله تعالى ك﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ والمعنى : ليس بمسموع ، قالوا : ذلك مجاز . قلنا : خلاف المجمع عليه من أهل اللسان [العربي] ولعدم الاحتياج إلى نصب القرينة عند إطلاقه على المسموع ، ولو سلم لزم أن يجعلوا للتفاسير ماله من الأحكام إذ هي عبارة عنه ، ولا قائل بذلك . العدلية [جميعا] وغيرهم : وهو محدث . الأشعرية والحشوية : بل قديم . الحشوية : وهو هذا المتلو . قلنا : يلزم الثاني مع الله سبحانه كما مر ، فإن سلم فما جعل أحد القديمين كلاما ، والآخر متكلما بأولى من العكس . وأيضا : هو مرتب منظم ، وما تقدم غيره دل على حدوث ما بعده ، وقد قال تعالى :﴿ وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ الآية ونحوها

(١) وانظر أيضا الكشاف ٢٣٣/٤ .

(٢) ما بين أقواس الزيادة موجود في النسخة ب ، وغير موجود في النسخة أ .

المخلوقين ﴿حكيم﴾ يجري أفعاله على وجه الحكمة فيكلم تارة بواسطة ، وتارة بغير واسطة ، إما إلهاما ، وإلا خطابا .

[سبب النزول]

وسبب الآية أن اليهود ـ لعنت ـ قالت له صلى الله عليه وآله وسلم : ألا تكلم الله ؟ وتنظر إليه ؟ كما كلمه موسى ، ونظر إليه إن كنت نبيئا ؟ فلن نؤمن لك حتى تفعل ذلك ، فقال: لم ينظر موسى إلى الله تعالى ، فنزلت .

ولما بين تعالى كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام ، قال :﴿وكذلك﴾ أي : ومثل ذلك الوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء ﴿أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ أي : وحيا شبيها بالروح ؛ لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيا الجسد بالروح .

وقوله :﴿من أمرنا﴾ معناه : من شأننا ، أو من أوامرنا ونواهينا .

قال الهادي عليه السلام :معنى ﴿من أمرنا﴾ فهو من قبلنا ، وعندنا ، ومعنى ﴿روحا﴾ فهو أمر يحيا به العباد ، ومعنى حياتهم به : فهو إيمانهم به ؛ لأن من آمن فقد حيي ، ومن كفر فقد مات ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه :﴿أومن كان ميتا فأحييناه﴾[1] .اهـ

والمعنى : أوحينا إليك قرآنا ، فسماه روحا ؛ لأنه يحي من موت الجهالة بحياة علمه ويوقض من الوسن بعجائب حكمه .

ثم قال :﴿ماكنت تدري ما الكتاب﴾ يريد القرآن قبل الوحي ، وقوله :﴿ولا الإيمان﴾ لا يجوز حمله على انه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مؤمنا بالله قبل البعثة ، ولكن أراد ما طريقه السمع كالصلاة ونحوها ، لا ما طريقه العقل من الإيمان ، فالأنبياء معصومون قبل البعثة وبعدها عن الإخلال به .

---

(١) الأنعام : ١٢٢ .

ثم قال :﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي : القرآن ﴿ نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ من نعلم أنه يقبل اللطف فيهتدي .

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ :{**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**} أي : ثابت ، وهو طريق الإسلام ، وقوله :{**صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض**} بيان للصراط الأول على وجه المدح بإضافته إلى الله ، ونبه بذلك على أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض ، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله .ثم قال :{**ألا إلى الله تصير الأمور**} ترجع إليه يوم القيامة ، فيثيب المؤمنين ، ويهلك من عمي عن الهدى من المجرمين ، وذلك كالوعيد والزجر ، فبين أن من لا يقبل هذه التكاليف يرجع إلى الله ، أي : إلى جزائه ، حيث لا حاكم سواه ، فيجازي كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

والله أعلم



سورة السجدة [فصلت]

(مكية) وهي أربع وخمسون في الكوفي ، وثلاث في الحجازي والمكي ، واثنتان في البصري

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى :﴿حم﴾ قيل : اسم للسورة في موضع المبتدأ ، وما بعده إخبار عنه ، وقيل : هو تعديد للحروف ، وما بعده خبر مبتدأ محذوف ، أي : هذا ﴿تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾[1] إلى عباده .وقال الزجاج :[تنزيل] رفع بالابتداء وخبره ﴿كتاب فصلت آياته﴾[1] .

---

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي ، عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿لهم أجر غير ممنون﴾ معناه : غير محسوب ، والممنون أيضا : المقطوع .

وقوله تعالى :﴿وقدر فيها أقواتها﴾معناه : معاشها في هذه الأرض ما ليس في هذه ، وفي هذه ما ليس في هذه وقوله تعالى :﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ معناه : النجوم . وقوله تعالى :﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام : يا سماء أخرجي شمسك ، ويا سماء أخرجي قمرك ، ويا أرض فجري أنهارك ، وأخرجي ثمارك ، قالتا : أطعنا ، أي : كانتا كما شاء الله

وقوله تعالى :﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا﴾ معناه : شديدا ، قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام : إن كانت لتمر على الراعي وهو في غنمه فتحمله ، وإن كانت لتمر على العروس وهي في خدرها فتحملها . وقوله تعالى :﴿في أيام نحسات﴾ معناه : مشائيم . وقوله تعالى : ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ معناه : بينا لهم . وقوله تعالى :﴿العذاب الهون﴾ أي : الهوان . وقوله تعالى : ﴿فهم يوزعون﴾ معناه : يحشرونهم بحبس أولهم على آخرهم . وقوله تعالى :﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾ قال : إن معناها الفروج ، ولكن الله عز وجل كنى عنها .

وقولــه تعالى : ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ معناه : أكثروا من اللغط والصخب حــتى لا يســمعه سامع . وقوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحــت أقدامــنا﴾ معــناه : إبــليس، وابن آدم الذي قتل أخاه . وقوله تعالى : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ معناه : ثبتوا على الإيمان بالله ، و لم يفارقوا رسول الله ﷺ ولا أهل بيته عليهم السلام .

وقوله تعالى : ﴿فإذا أنــزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ معناه :تحركت وطالت .

وقوله تعالى : ﴿من كل زوج بهيج﴾ معناه : حسن .

وقوله تعالى : ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾ معناه : يجورون ، ويميلون ،ويعدلون .

وقوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾ معناه : بالقرآن .

وقوله تعالى : ﴿اعملوا ما شئتم﴾ هو وعيد من الله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿في آذانهم وقر﴾ معناه : صمم . وقوله تعالى : ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ معناه : من أعماقها التي فيها حبها . وقوله تعالى : ﴿ما لهم من محيص﴾ معناه : من ملجأ ومعدل .

وقوله تعالى : ﴿لا يسأم الإنسان﴾ معناه : لا يمل . وقوله تعالى : ﴿فيؤس قنوط﴾ معناه : ييأس ويقنط .

وقوله تعالى : ﴿أعرض ونأ بجانبه﴾ معناه : تباعد .

وقوله تعالى : ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ فالمرية : الشك ، وقال : ﴿لقاء ربهم﴾ ثواب ربهم .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى ما حكى مولانا عز وجل من قولهم : ﴿وفي آذاننا وقر﴾ أي : صمم ، قال الشاعر :

وسمعــت حلفــتها التي حَلَفَت أني سمعــتك غــير ذي وقــر

أي : غــير ذي صمم ، وإنما أرادوا أنهم لا يريدون أن يسمعوا كلام الله ، والعرب إذا لم يريدوا أن يسمعوا كلاما قالوا : نحن صم عن هذا الكلام ، وإن لم يكن بهم صمم ، قال الشاعر :

أصــم عــن الأمــر الــذي لا أريــده وأسمــع خــلق الله حــين أريــد

ومعنى قوله عز وجل : ﴿أندادا﴾ أي : أمثالا وأشباها ، قال الشاعر :

أتهجــوه ولســت له بــند [فشــركما لخيركمــا الفــداء]

أي : بمثل

ولــو تناصــفت الأبطــال في جــدد مــا كــان عمــرك رهط العبد أندادي

أي : أمثالي ، ومعنى ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾ الأقوات : هي المصالح التي تقيم وتنفع ، ومن ذلك سمي الطعام والشراب قوتا للعباد إذا كان قواما وثباتا لأزواجهم ، ومصلحة وحياة لأجسامهم ، قال العالم صلوات الله عليه

كفاف أمرء قانع قوته ومن يرض بالقوت نال الغنى

أي : كفايته ، وصلاح جسمه ، وأقوات الأرض كلها مصالحها من الليل والنهار ، والحر والبرد ، والشمس والقمر ، والماء والشجر ، والجبال ، وذلك من مصالح العباد .

ومعنى ﴿سواء للسائلين﴾ أي : مثل أيام الدهر هذه سواء مستوية حذو النعل بالنعل .

ومعنى ﴿للسائلين﴾ أي : لمن سأل عن الأيام التي خلق الله الأرض فيها ، فأخبرهم أنه خلقها وقدرها في مقايس أربعة أيام سواء بسواء ، ومعنى ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ القول منهن هو إسعادهن ، وقلة امتناعهن قال الشاعر :

وقالت لك العينان سمعا وطاعة

أي : سمعتا وأطاعتا ، وليس لهما قول ، قال الشاعر في راحلته :

تقول إذا أدرت لها وضيني أهذا دينه أبدا وديني

أكل الدهر حل وارتحال فما يبقي علي ولا يقيني

والراحلة لا تقول ، وإنما هذا مثل مضروب ، والأمثال جائزة .

ومعنى ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ أي : خلقهن ، قال الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

ومعنى قوله : قضاهما ، أي : صنعهما ، والقضى على وجوه سنذكرها إن شاء الله تعالى في مواضعها .

ومعنى ﴿أنذرتكم صاعقة﴾ أي : حذرتكم هلكة ، والصعق هو الموت والغشو ، قال الله عز وجل : ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ أي : ماتوا ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

فَهُمُ ما بين كلب هارب ذاهل العقل ومرعوب صعق

أي : مغشي عليه من الرهب .

ومعنى ﴿في أيام نحسات﴾ أي : مشؤومات ، قال الشاعر :

سواء عليه أيُّ حينٍ لقيته أساعة نحس تتقى أم بأسعد

﴿فهم يوزعون﴾ أي : يجتمعون نفرا وجمائع ، قال الشاعر :

وحللت بيتك بالجميع وبعضهم متفرق ليحل بالأوزاع

أي : بالجمائع المتفرقة . ومعنى ﴿ظننتم بربكم أرداكم﴾ أي : أهلككم ، والردى : هو الهلاك قال الشاعر

أصاب الردى من كان يهوى لك الردى وجن اللواتي قلن عزة جنت

وقال آخر :

خـــوف الـــردى والـــردى مخشـــي

﴿فمـــا هـــم مـــن المعتبين﴾ أي : ما هم من المرحومين ، وقد مضى تفسير العتاب ، ومعنى ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ أي : خلينا بينهم وبين قرنائهم ، قال الشاعر :

وقيضـــنا لهـــم عمـــرا قريـــبا

أي : تركـــناه . ومعنى ﴿والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ اللغو : هو الكلام الرديء القبيح ، الذي لا معنى له ، قال الشاعر

عـــن الـــلغى ورفـــث التكـــلم

ومعـــنى ﴿أســـوأ الـــذي كانوا يعملون﴾ أي : لنجزينهم بقبائح ما كانوا يسيئون ، ومعنى ﴿من الشيطان نـــزغ﴾ أي : وسواس ، قال الشاعر :

فمـــن لي بـــنفس لا تزال غوية ونـــزغة شـــيطان يريد ضلالها

﴿وهم لا يسأمون﴾ أي : لا يملون ، قال الشاعر :

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه ولا يغـــنها يوما من الدهر يسأم

أي : يملل ، وقال آخر :

ســـئمت مـــن المطـــاعم كل مر مـــن الـــباذنج والقطف السليق

يـــريد ملـــلت ﴿وترى الأرض خاشعة﴾ أي : ليس فيها شجر يتحرك . ومعنى ﴿اهتزت وربت﴾ أي : تحـــركت بالنـــبات ، أي : زادت أشجارها ونبتت وعلت ، ومعنى ﴿وإنه في أم الكتاب عزيز﴾ أي : منيع ﴿لا يأتيـــه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ لا يبطل منه شئ من أوله ولا آخره ، وقد يكون ذلك أيضا مثلا لحراسة الله له ، والله أعلم وأحكم .

ومعـــنى ﴿آذناك ما منا من شهيد﴾ أي : أخبرناك ، وأقررنا لك ما منا من شهيد ، والأصل في الإيذان هو الإعلام والإخبار قال الشاعر :

آذنتـــنا ببيـــنها أسمـــاء [رب ثـــاو يمـــل مـــنه الـــثواء]

يريد أعلمتنا برحيلها ، وقال آخر :

وآذنـــتك غـــداة البين إذ رحلت سلمى وجاراتها البيض الرغابيب

أي : أخبرتك سلمى ، وأعلمتك برحيلها .

القنوط : هو اليائس ، ومعنى ﴿ونآ بجانبه﴾ أي : بَعُدَ وأعرض بشقه ، وفيه تقدم وتأخير ، والمعنى فيه : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض بجانبه ونأ .

فـــذو دعاء عريض﴾ أي : واسع في الآفاق ، أي : في الأقطار والجوانب من السماء والأرض ، قال الشاعر :

لقد نقبت في الآفاق حتى

ووجهـه أن قولـه : ﴿تـنـزيل﴾ تخصص بالصفة ، وهو قوله : ﴿من الرحمن الرحيم﴾ فجاز وقوعه مبتدأ ، ولما كان ذلك التنـزيل من الرحمن الرحيم دل على كونه نعمة عظيمة من الله تعالى ؛ لأن الفعل المقرون بالصفة لابد وأن يكون مناسبا لتـلك الصـفة ، فكونـه تعالى رحمانا رحيما صفتان دالتان على كمال الرحمة ، فالتنـزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لابد وأن يكون دالاً على أعظم وجوه النعمة والأمـر في نفسـه كذلك ؛ لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى والزمنى والمحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النعم من الله [تعالى] على أهل هذا العالم إنـزال القرآن عليهم .

أي : يريد أنه سار ودار في الأقطار والبلاد وجوانبها ، ومعنى ﴿في مرية﴾ أي : شك .

وقال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب)

الأحكام

تـدل الآيـات على حدوث القرآن من حيث وصفه بأنه فصلت ، وبالآيات وبالقرآن بأنه عربي ، وأنه بشير ونذير ، وكل ذلك دلالة على حدوثه ، وتدل على أنه ليس في القرآن غير لغة العرب خلاف قول الحشوية ، وتدل على أن العالم باللغة محجوج به ، ولو كان للظاهر باطن يدل عليه الظاهر لم يكن كذلك ، فيبطل قول الباطنية . ويدل قوله ﴿لقوم يعلمون﴾ أن التفسير لمن عرف اللغة جائز ، ولا يحتاج إلى سماع معناه من غيره بخـلاف مـن يقول : لا بدفيه من سماع ونحوه ، ذكره شيخنا أبو حامد رحمه الله ، وتدل على أنه يستقل بنفسـه في بـاب الدلالة ، وتدل على وجوب التفكر فيه ، وذم المعرض عنه ، ويدل قوله ﴿وقالوا قلوبنا في أكـنة﴾ على شدة إعراضهم عن القرآن ، وأنه لا مَنْعَ على ما تقوله المجبرة ، لذلك ذمهم ووبخهم ، على هذا القول ، وتدل على كون القرآن حجة ، ووجوب العلم والعمل به ، ويدل قوله ﴿إنما أنا بشر﴾ أن الرسول يجري على طريقة التواضع دائما .

(١) وقال الأخفش : ﴿تنـزيل﴾ رفع بالابتداء ، و﴿كتاب﴾ خبره . وقال في الكشاف : إن جعلت حم اسما للسورة كانت في موضع المبتدأ ، و﴿تنـزيل﴾ خبره . وإن جعلتها تعديدا للحروف كان ﴿تنـزيل﴾ خبرا لمبتدأ محذوف ، و﴿كتاب﴾ بدل من تنـزيل ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي : هو أشرف كتب الله[١] ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي : ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من أحكام ، وأمثال ، ومواعظ ، ووعد ، ووعيد ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[٢] نصب على المدح ، أي : أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كيت وكيت ، وقيل : حال لـ ﴿ كتاب ﴾[٣] .

ومعنى ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لقوم عرب ، يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المبينة المفصلة بلسانهم العربي ، أي : تنزيل من الله لأجلهم ، أو يكون مثل ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ ويراد : لقوم يعلمون ؛ فإنهم الذين ينتفعون ، فأما هؤلاء المطبوع على قلوبهم فهم لا يعلمون .

ثم أخبر سبحانه عن التنزيل[٤] بكونه ﴿ بَشِيرًا ﴾ بالثواب ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من العقاب ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ عنه ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : لا يقبلون ، فكأنهم صُمٌّ وقوله تعالى : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ يعني إنما جعلناه عربيا لأجل أن يعلموا المراد منه ، والصفات المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته ، وبالوقوف على معانيه ،

---

(١) واستفيد التعظيم والتشريف ، من تنكير كتاب .

(٢) وقد احتج القائلون بخلق القرآن بهذه الآية من وجوه : الأول ـ أنه وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا ، والمنزل والتنزيل مشعر بالتصيير من حال ، فوجب أن يكون مخلوقا . الثاني : أن التنزيل مصدر ، والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين ، والثالث : المراد بالكتاب إما الكتاب ، وهو المصدر ، الذي هو المفعول المطلق ، أو المكتوب الذي هو المفعول . الرابع : أن قوله : ﴿ فصلت ﴾ يدل على أن متصرفا يتصرف فيه بالتفصيل والتمييز ، وذلك لا يليق بالقديم . الخامس : أنه إنما سمي قرآنا لأنه قرن بعض أجزائه بالبعض ، وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ، ومجعول جاعل . السادس : وصفه بكونه عربيا ، وإنما صحت هذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دخلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم ، وما جعل بجعل جاعل ، وفعل فاعل فلا بد وأن يكون محدثا ومخلوقا . (وانظر تفسير الرازي ٢٧/٩٥).

(٣) وقال أبو البقاء : ﴿ قرآنا عربيا ﴾ حال من ﴿ آياته ﴾ ويجوز أن يكون حالا من ﴿ كتاب ﴾ لأنه قد وصف

(٤) قال السيد العلوي : إن علق ﴿ لقوم ﴾ بـ ﴿ تنزيل ﴾ تقع التفرقة بين المفعول له ، وبين متعلقة ، بقوله : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا ﴾ وبين الصفات أيضا ، لأن بشيرا ونذيرا صفة ﴿ قرآنا ﴾ وإن علق بـ ﴿ فصلت ﴾ فالتفرقة بين الصفات ، وهي ﴿ قرآنا عربيا بشيرا ونذيرا ﴾ حاصلة .

وقد مر أن كونه نازلا من عند الله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع ، وأجل المطالب ، وكونه قرآنا عربيا يدل على أنه في غاية الكشف والبيان ، وكونه بشيرا ونذيرا يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهمات ، فقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة في تأكيد الرغبة في فهم القرآن ، وفي شدة الميل إلى الإحاطة به .

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمعونه ـ بين أنهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة ، وذكروا ثلاثة أشياء ، أحدها : ما حكى الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ جمع كنان ، والكنان : هو الذي يحمل فيه السهام ، وهي الغطاء ، أي : في أغطية[1] ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من الدين .

وثانيها : قولهم : ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي : صمم قال الشاعر :

وسمعت حلفتها التي حلفت بها مـن أن سمعك غير ذي وقر

وإنما أرادوا أنهم لا يريدون أن يسمعوا كلام الله تعالى ، أي : نحن في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ، ومن لا يسمع ، والعرب إذا لم يريدوا أن يسمعوا كلاما قالوا : نحن صم عن هذا الكلام ، وإن لم يكن بهم صمم ، قال الشاعر :

أصم عن الشئ الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد

والوقر : الثقل في السمع والصمم .

وثالثها : قولهم : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ حاجز ساتر من جبل أو نحوه ، وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق ، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها وكأن بآذانهم صمما لِمَجِّهَا لَهَا ، وكأن بينهم وبين رسول الله حجابا لتباعد قلوبهم عما جاء به ، وإذا كان الأمر كذلك ، كان قولهم : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ استعارات كاملة في إفادة المعنى المراد .

---

(١) فالأكنة بمعنى الأغطية ، وزنا ومعنى .

واعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاث قالوا: ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا، أو فاعمل في إبطال أمرنا إنا عاملون في إبطال أمرك.

ومثل هذا في البرهان.

ولما حكى الله عنهم هذا، أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: لست بملك، لكن صحت نبوتي بالوحي دونكم، فوجب عليكم إتباعي ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: استووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة، غير مائلين يمينا ولا شمالا، مما يسول لكم الشيطان، من شفعاء الأوثان ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ سلوه المغفرة لما فرط من الشرك، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على ﴿إنما أنا بشر﴾ أي: قل: ﴿إنما أنا بشر﴾ وقل ﴿وويل للمشركين﴾.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ قال في البرهان: والزكاة في هذا الموضع أن قريشا كانت تطعم الحاج وتسقيهم، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت.

وقال ابن عباس في رواية عطاء وعكرمة: لا يقولون: لا إله إلا الله.

والمعنى: لا يطهرون أنفسهم بكلمة التوحيد من الشرك.

وقال الحسن، وقتادة: لا يقرون بوجوب الزكاة، ولذلك كانوا كفرة، وقال غيرهم: إنما قرن الله الذي لا يؤتي الزكاة بالكافرين بالآخرة تشديدا وتغليظا في إخراجها كما قال في الحج: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾[1] في أحد الوجوه، وإنما خص منع الزكاة من أوصاف المشركين، مقرونا بالكفر بالآخرة؛ لأن أحب شئ إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في الله فذلك أقوى دليل على ثباته، وفيه تخويف شديد على منعها.

---

(١) آل عمران: ٩٧.

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع، من قولك: مننت الحبل أي قطعته، ومنه قولهم: مَنَّهُ السَّفَرُ أي: قَطَعَه، وقيل: لا يمنُّ عليهم إذ لا يمنُّ إلا بالتفضل، وأما الأجر فمستحق، والصحيح أن الأجر تفضل من الله سبحانه ؛ لأنه شئ كثير جليل عظيم دائم في مقابلة شئ يسير منقطع فوجب شكر الله تعالى على نعمه العظام، فهو تفضل، وإنما استحقوه بوعده جل وعلا، وهو لا يخلف الميعاد، فعلى هذا المنُّ على ظاهره، أي لا يمن عليهم بما أعطاهم من الأجر.

ثم بين تعالى كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض في مدة قليلة فقال: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ يعني فمن هذه صفته كيف يجوز جعل هذه الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والعبودية ؟! ومعنى الاستفهام الإنكار للكفر ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: تجعلون له أمثالا وشركاء في الإلهية، وقوله: ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك الذي فعل ما ذكر ﴿ رب العالمين ﴾ الذي من صفته وقدرته أنه خلق الأرض في يومين، وخالقهم ومبدعهم، فكيف أثبتم له أندادا من الحجر والخشب[1].

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام

يدل قوله ﴿ إئنكم لتكفرون ﴾ أنه تعالى لم يخلق فيهم الكفر، ولا منعنا عن الإيمان، ولولا ذلك لكنا مؤمنين وتدل على أنه تعالى إنما يعرف بأفعاله، وأن هذه الأفعال دالة عليه، وعلى صفاته، إما بنفسه ككونه قادرا عالما أو بواسطة ككونه سميعا بصيرا، وتدل على أن العبادة تستحق بهذه النعم ؛ لذلك ذم من عبد شيئا لا يقدر على شيء منها . ويدل قوله ﴿ ذلكم الله ﴾ أي: خالق هذه الأشياء خالق العالمين . ومتى قيل: لم أشار بقوله ﴿ ذلك ﴾ وهم ينكرونه ؟ قلنا: كانوا يقرون بالخالق، وقيل: ظهور هذه النعم والدلائل شاهدة على أنه المدبر، وقيل: هو على تقدير الحجة، تقديره: ذلك الذي خلق بمدة هو رب العالمين، ويدل قوله ﴿ وبارك فيها ﴾ أن البركات في الأرض، وهي أنواع الثمار والأشجار، وأنواع الجواهر المودعة فيها، وأنواع النعم مما يحصى كثرة، ويدل أنه قدر أقوات العباد حثا على الرضا، وتقليل الحرص، لأن الحرص لا يزيده إلا كدا وتعبا، وتدل أنه خلق السماء والنجوم من دخان، فتدل على عظيم قدرته وعلمه، وتدل أن السماء الدنيا مختصة بالنجوم دون الأفلاك، خلاف ما يقوله المنجمون، ويدل قوله ﴿ وحفظا ﴾ أنه يحفظ السماء من

ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقا للأرض في يومين ، أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب ، والفعل البديع بعد ذلك ، فالأول : قوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالا ثوابت تمنعها من الاضطراب ، [قيل : مخصوصات متصلات بجبل قاف][1] ، والله أعلم

وقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ لا من تحتها كالأساطين ، لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبها ، ولأنه تعالى لو جعل لها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول ، ولكنه تعالى قال : خلقت هذه الجبال الثقيلة فوق الأرض ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ ، وما ذاك الحافظ والمدبر إلا الله سبحانه .

والثاني مما أخبر الله عنه في هذه الآية : قوله : ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أي : كثر خيرها وأنماه ، من ذلك أن الحبة [تنبت حبا كثيرا ، والنواة][2] تنبت نخلة ، وقيل : بارك فيها بالأشجار والأثمار والحبوب والأنهار .

والنوع الثالث : قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ أي : أقوات أهلها ، وهي أرزاقهم وما يصلحهم ، ومن ذلك سمى الطعام والشراب قوتا للعباد ؛ إذ كان قواما وثباتا لأرواحهم ، ومصلحة وحياة لأجسامهم ، وأقوات الأرض كل مصالحها ، من الليل والنهار ، والحر والبرد ، والشمس ، والقمر ، والماء ، والشجر ، والجبال ، وغير ذلك مما لا يحيط به الوصف والبيان .

الشياطين إذا أرادوا استراق السمع ، لأنه أبعد عن إلقاء الشبه ، وذلك يبطل قول المجبرة ، وأنه هو الملقي للشبه، وتدل على أنه عند الخلق للملائكة خلق الجن ، وأن خلق الآدمي تأخر ، وتدل أن السماء سبع ، قال الحسن : الأرضون سبع ، بين كل أرض مسيرة خمس مائة عام .

(١) ما بين القوسين ثابت في النسخة أ ، وهي ملغاة بخط أسود يتوسطها في النسخة ب . التي يقال : إنها نسخة المصنف .

(٢) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وهو ثابت في النسخة ب .

قال : وللمفسرين في هذا التقدير خمسة أقوال ، أحدها : أنه تشقيق الأنهار ، وغرس الأشجار ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه قسم أرزاق العباد والبهائم ، قاله الحسن .

والثالث : أقواتها من المطر، قاله مجاهد .

والرابع : قدر لكل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ، كما أن ثياب اليمن لا تصلح إلا باليمن ، والهروية بهراة ، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة ، قاله عكرمة ، والضحاك ، والخامس : قدر البر لأهل قُطْر، والتمر لأهل قُطْر، والذرة لأهل قُطْر، قاله ابن السائب .

ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الثلاثة من التدبير ، قال بعده : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي : في تتمة أربعة أيام ﴿ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ وقوله : ﴿ سواء للسائلين ﴾ متعلق بمحذوف ، كأنه قيل : هذا الحصر والبيان لمن سأل عن الأيام التي خلق الله الأرض فيها ، فأخبرهم أنه خلقها وقدرها في مقياس أربعة أيام سواء سواء ، أي : كاملة مستوية من غير زيادة ولا نقصان .

وقال الزجاج : معناه وقدر فيها أقواتها في تتمة أربعة أيام لأجل السائلين ، أي : الطالبين للأقوات المحتاجين إليها[1] . اهـ

ولم يخلق الله [سبحانه] الأيام إلا بعد خلق السماء والأرض ، وإنما المراد في مقدار أربعة أيام ، لأن اليوم عبارة عن مسير الشمس من المشرق إلى المغرب ، وذلك لا يكون إلا بعد خلق السماء .

---

(١) فهو متعلق على هذا الوجه بقوله : ﴿ وقدر ﴾ . قال السيد العلوي ، وإنما قيل : لأجل الطالبين ، لأن كلا يطلب القوت ويسأله ، ويجوز أن يكون المعنى لمن سأل في كم خلقت السموات والأرض؟ فقيل : خلقت السموات والأرض وما فيها في أربعة أيام سواء . جوابا لمن سأل ، وقال الإمام [الرازي] نحو قول القائل : سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة ، وسرت إلى الكوفة في خمسة عشر يوما ، معناه أن المسافتين خمسة عشر ، ويقال : أعطيتك ألفا في شهر ، وألفين في شهرين ، فيدخل الألف في الألفين ، والشهر في الشهرين .

ولما شرح الله تعالى تخليق الأرض وما فيها أتبعه بكيفية تخليق السماء فقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ من قولك : استوى إلى كذا إذا توجه إليه ، وهو من الاستواء نقيض الاعوجاج .

قال الرازي : قوله عز وجل :﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ يشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الأرض ، وقوله تعالى :﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ مشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء ، وذلك يوجب التناقض، واختلف العلماء في هذه المسألة .

والجواب المشهور : أن يقال : إنه تعالى خلق الأرض في يومين أوَّلاً غير مدحوة ، ثم خلق بعده السماء ، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ، وبهذا الطريق يزول التناقض .

قال : واعلم أن هذا الجواب مشكل عندي[1] من وجوه ، الأول : أنه تعالى بين أنه خلق الأرض في يومين ، ثم أنه في اليوم الثالث جعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدر أقواتها ، وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة ؛ لأن خلق الجبال فيها لا يمكن إلا من بعد أن صارت منبسطة .

وقوله :﴿ وبارك فيها ﴾ مشعر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها ، وذلك لا يمكن إلا بعد صيرورتها [منبسطة] . ثم إنه تعالى قال بعد ذلك :﴿ ثم استوى إلى

---

(١) في المصابيح (عندي مشكل) وفي الرازي ما أثبتناه .

قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : قد خلق الأرض أولا غير مدحوة قيل : فيه نظر ؛ لأن الله تعالى بين أنه خلق الأرض في يومين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين ، وجعل الرواسي وتقدير الأقوات لا يمكن إلا بعد دحوها ، ويمكن أن يجاب بمنع ذلك ، بأن يقال : إن الأرض لما خلقت غير مدحوة خلقت الجبال أيضا لا على ما هي عليه من الأشكال ، فلما دحيت الأرض بعد ذلك خلقت أيضا أشكال الجبال وهيآتها حينئذ ، فيحتمل أن يقال : إن ثم في قوله :﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ للتراخي في المرتبة ، لا في الوقت ؛ لأن خلق السماء أعظم من خلق الأرض ، فترقي في الكلام من الأعلى إلى الأدنى . حاشية العلوي ص ٢٤٦ .

السماء﴾ فهذا يقتضي أنه تعالى خلق السماء بعد [خلق] الأرض ، وبعد أن جعلها مدحوة ، وحينئذ يعود السؤال المذكور[1] ؟! .

قلت ـــ وبالله التوفيق ـــ : غاية ما يكون أنه لا تكليف علينا في معرفة ابتداء الخلق

ولكـــنه لمـــا حرر الإشكال من الوجوه المذكورة على التأويل المشهور حتى أورد التشـــكيك والاعـــتراض الوارد بزعمه على التأويل المذكور ، فاللوم على من جهل فحَرَّفَ المعنى بجهله فيا لله من أمة ضلت عن هداها ـــ أحببت إزالة هذه الشبهة بما قـــد علمته من طريق أئمتنا عليهم السلام في التأويل ، فنقول ـــ والله أعلم ـــ : إن هذا هاهنا من التقديم والتأخير ، وهو في كتاب الله كثير ، من ذلك ما ذكره الهادي إلى الحق عليه السلام في سورة النساء ، في قوله تعالى :﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليـــتامى﴾[2] الآيـــات ، وكثيرا[3] من هذا ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام في تفســـيره ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى :﴿الحمد لله الذي أنـــزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما﴾[4] قال بعضهم : أجمع أهل اللغة والتفسير على أن هذا من التقديم والتأخير ، والتقدير : أنـــزل على عبده الكتاب قيما ، ولم يجعل له عوجا ، فيكون المعنى هاهنا ـــ والله أعلم ـــ على التقديم والتأخير (قل أئنكم لتكفرون بالذي خـــلق الأرض في يومـــين وتجعلون له أندادا ذلك ر ب العالمين ثم استوى إلى السماء وهـــي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) ثم رجع إلى الإخبار عن كونه خالقا للأرض في يومين فقال سبحانه :﴿وجعل فيها رواســـي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ [ثم

---

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٠٥ .

(٢) النساء : ٣ .

(٣) نصب كثيرا ، على أنه مفعول لفعل محذوف دل عليه ما بعده ، وهو ذكر .

(٤) الكهف : ١ .

قال عز وجل في خلقها :﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾][1] فابتداء الخلق للأرض على ما في الآي الأول كان في يومين ، ثم خلق السموات وكانت دخانا ، ثم دحا بعد ذلك الأرض ، أي : بسطها ، وكانت ربوة مجتمعة ، وأرساها بالجبال ، وأنبت فيها النبات في يومين ، فتلك ستة أيام سواء للسائلين ، كما روي عن ابن عباس ، وهذا إن شاء الله يزول هذا الإيراد ، وينحل ما ذكر من الإشكال ـــ والله أعلم وأحكم

وفي معنى ﴿ استوى إلى السماء ﴾ يقول الهادي إلى الحق عليه السلام : معنى قوله: ﴿ استوى إلى السماء ﴾ فهو صار حكمه إلى تدبير السماء وخلقها ، وهي إذ ذاك دخان في الهواء ، فخلق من ذلك الدخان هذه السموات العلا ، فهذا معنى استوى ، أي صار حكمه وفعله إلى خلق السماء من بعد الأربعة الأشياء الأصلية للأشياء ، وهي الهواء ، والماء ، والريح ، والنار ، ابتدع هذه الأشياء الأربعة ابتداعا ، من غير ما أصل كان موجودا مع الواحد الرحمن ، فخَلَقَ ـــ تبارك ـــ هذه طبائع مختلفة متضادة غير مؤتلفة ، فجعلها أصولا لكل ما خلق وبرأ فيها . فهذا معنى قوله : ﴿ استوى ﴾ لا أنه تبارك وتعالى انتقل إليها من الأرض ، ولا كان في الأرض دون الهواء ، هو محيط بكل الأشياء ، مستغن عن الأمكنة والأشياء ، تبارك وتعالى ذو الجلال والبقاء .

[وهذا المعنى الذي به تكلمنا ذكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، قال : (فلما أن خلق الله تعالى الماء والرياح ، أوحى الله إلى الرياح بأن تصفق وتهيج غوارب الماء وأمواجه ، فهيجت أمواجه ، وحركت ساكنه فارتعدت غواربه ، فتراكم زبده ، وعظم أمره ، ثم أوحى إلى النار فأحرقت ذلك الزبد ، فثار منه دخان فصعد الهواء ، وبقي حراقة الزبد ، فخلق الله السموات من ذلك الدخان][2] كما

---

(١) ما بين أقواس الزيادة غير موجود في النسخة ب ، وهو موجود في النسخة أ .

(٢) ما بين قوسي الزيادة ليس من ضمن كلام الإمام الهادي عليه السلام في المجموع ، بل الظاهر أنه من كلام المصنف رحمه الله .

قال تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ هو أراد أن تأتيا فأتَيا، وليس ثَمَّ قول، وإنما هذا مثل يخبر سبحانه عن[1] سرعة نفاذ أمره ومضي مشيئته [أنه][2] أسرع من قول القائل: كن، ومعنى ﴿ائتيا﴾ هو كونا، ولم يكن ثَمَّ أمر منه لهما لأنهما في ذلك الوقت دخان وحراقة، وإنما هو مَثلٌ مُثِّل بالأمر، وإنما معنى ﴿أئتيا﴾ أي: أراد فجعل، وشاء كونَهُما فكانتا، فإيجاده لهما مراده لهما، ومراده لهما هو إيجاده إياهما، لا تسبق إرادتُه وجوده، ولا وجودُه إرادتَه، إذا شاء شيئا كان بلا تكلف ولا إضمار، ولا استعانة بأعوان.

ومعنى ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ هذا أيضا مثله في الطاعة والاستواء، أراد سبحانه أنهما عند إرادته لإيجادهما كانتا لم يمتنع عليه من أمرهما ممتنع، ولم يعسر عليه في خلقهما عسير، ولم يؤوده من تدبيرهما صغير ولا كبير، فهذا معنى ﴿أتينا طائعين﴾ [3]اهـ

وطائعين: جمع سلامة في مذكر العقلاء، لأنه وصفهن بصفات العقلاء من الطوع والكره، والخطاب، والجواب، وليس المراد منه توجيه الأمر والتكليف على السموات والأرض، بل المراد أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر من الآمر المطاع، ونظيره قول القائل: قال الجدار للوتد لم تَشُقِّني؟ قال الوتد: اسأل من يدقُّني فإن الحجر الذي وارائي ما خلاني ورائي، وانتصب ﴿طوعا﴾ و﴿كرها﴾ على الحال، بمعنى طائعتين أو مكرهتين، والمراد أن هذا مَثَل للزوم تأثير قدرته فيهما، وأن

(١) في المجموع (أن) بدلا عن (عن) هنا.

(٢) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في المجموع.

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٥.

امتناعهما محال، وهذا من المجاز المسمى بالتمثيل، أو يكون تخييليا[1]، ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلّمهما، وقال: شئتما أو كرهتما أتيتما فقالتا: أتينا على الطوع لا الإكراه، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير تحقيق شئ من الخطاب والجواب، بل كما قال الشاعر:

وقالت له العينان سمعا وطاعة

أي سمعتا وأطاعتا، وليس لهما قول، وقال آخر في راحلته:

تقول إذا أردت لها وضينا أهذا دينه أبدا وديني

والراحلة لا تقول، وإنما هذا مثل مضروب، والأمثال جائزة، وقال بعض المفسرين: إن الله أحياهما ومنحهما عقلين، ثم خاطبهما حقيقة، وأجابتاه حقيقة بقولهما: ﴿أتينا طائعين﴾.

وعن ابن عباس: قال للسماء: أظهري شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض شققي أنهارك، وأخرجي ثمارك طوعا أو كرها، حكاه في التجريد.

قلت: والإشكال على هذا وارد، وهو أن يقال: المراد من قوله: ﴿أتيا طوعا أو كرها﴾ الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول، وعلى هذا التقدير حال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة، إذ لو كانت موجودة لصار حاصل

---

(١) **قال السيد العلوي**: قوله: ويجوز أن يكون تخييلا. يعني: إثبات المقاولة مع السماء والأرض، يمكن أن يكون من الاستعارة التمثيلية كما سبق؛ لأن وجه الشبه منتزع من عدة أمور، وأن يكون من الاستعارة التخييلية، بعد أن تكون الاستعارة في ذاتها مكنية، كما تقول: نطقت الحال، بدل دلّت، فجعل الحال كالإنسان الذي يتكلم، ثم يتخيل له النطق الذي هو من لوازم المشبه به، وينسبه إليه.

وأما بيان الاستعارة التمثيلية فهو أنه لما شبه حالة السماء والأرض والمقاولة بينهما، وبين فاطرهما في إرادة تكوينهما وإيجادهما، بحاله المرء ذي جبروت له نفاذ في سلطانه، وأطاعه من تحت مملكته من غير ريب، والأوجه أن يراد بقوله: تخييلا أنه جاء تصويرا لقدرته وعظمة سلطان، وأنه القصد في التركيب .... والخلاصة من المجموع على سبيل الكفاية الإيمانية من غير نظر إلى مفرداته كما سبق في قوله تعالى: ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾.

هذا الأمر أن يقال : يا موجود صر موجودا ، وذلك لا يجوز ، فثبت أنها حال توجه الأمر عليها كانت معدومة ، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب ، فلم يجز توجه الأمر عليها ، وأما ما روي عن ابن عباس فظاهره كأن الله تعالى أودع فيهما تلك الأشياء المذكورة ثم أمرهما بإبرازها ، وإظهارها ، فعلى هذا القول لا يكون المراد من قوله : ﴿أتينا طائعين﴾ حدوثهما في ذاتيهما ، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يظهرا ما كان مودعا فيهما ، وليس كذلك ـ والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ ﴾ أي : أحكم خلقهن ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي : في مدة يومين ؛ لأنه قبل الشمس المحدودة للأيام كما مر نظائره ، ومعناه أنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدرا بيومين[1] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي : ما أمر فيها ودبر من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك ، وأوحى فيها شأنها وما يصلحها ، وقيل : أوحى إلى أهل كل سماء ما تعبَّدهم به وأمرهم .

واعلم أن إثبات الأمر فيها مشروط بحصول المأمور فيها ، وهذا يدل على أنه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة ، وأنه تعالى أمرهم بأشياء ، ونهاهم عن أشياء ، وليس في الآية ما يدل على أنه إنما خلق الملائكة مع السموات ، أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات ، ثم أنه تعالى أسكنهم فيها ، وأيضا ليس في الآية بيان الشرائع التي أمر الملائكة بها ، وهذه الأسرار لا تليق بعقول البشر ، بل هي أعلى من مصاعد أفهامهم وأوهامهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ أي : القربى من الأرض ﴿ بِمَصَابِيحَ ﴾ وهي الكواكب لأنها تزينها ، وتضيء فيها ، كما تضئ المصابيح ، وخص كل واحد

(١) في حاشية النسخة أ من المصابيح ما لفظه : ﴿قل إئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ إلى قوله : ينظر في قوله تعالى : ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ فإن ظاهر هذه الآية القدسية أنه كان خلق الأرض وحدها في ستة أيام ، وخلق السموات في يومين ، والمعروف في غير هذه الآية أن خلق السموات والأرض جميعا كان في ستة أيام ، والله أعلم ، قاله القاضي العلامة صفي الإسلام أحمد بن ناصر بن عبد الحق المخلافي

منها بضوء معين ، وسر معين ، وطبيعة معينة ، لا يعرفها إلا الله .

ثم قال :﴿ وَحِفْظًا ﴾ أي : وحفظناها حفظا من المسترقة السمع ؛ لأنهم يرمون بالثواقب

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل قال :﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من خلق السموات والأرض وما يصلحهن ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ القوي القادر على ما يشاء ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بتدابير الأمور ، وكل معلوم ، فالعزيز : إشارة إلى كمال القدرة ، والعليم : إشارة إلى كمال العلم ، وما أحسن هذه الخاتمة ، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط ، والله أعلم .

ولما كان الكلام إنما ابتدأ من قوله :﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ واحتج عليه بقوله : ﴿ قل إئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ تمم تلك الحجة على أكمل الوجوه ، فإن بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذ علاج في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم ، فلهذا السبب قال :﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ يعني قريشا ، بعد أن تتلو عليهم هذه الحجج الدالة على الوحدانية والقدرة على كل شي ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً ﴾ أي : عذابا شديد الوقع كأنه صاعقة ، والصاعقة : العذاب على أي حال كان ، وأصله الصوت مع النار ﴿ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فحذرهم أن تصيبهم صاعقة العذاب ، وهي قصفة رعد معها نار ، لا تقع على شئ إلا أهلكته ، وعاد : قوم هود ، فكان عذابهم الريح الصرصر ، أي شديدة الصوت ، وثمود : قوم صالح ، وكان عذابهم بصيحة جبريل ، ولم يرد حقيقة الصاعقة[1] .

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :الأحكام

يدل قوله {فإن اعرضوا} على وجوب النظر في الأدلة فلذلك ذمهم على الإعراض ، ويدل قوله {هديناهم} أن الهدى هو الدلالة والبيان ، وتدل على أن المعارف مكتسبة ، لذلك قال فاستحبوا العمى ، وتدل على أن العبد يفعل لولا ذلك لما صح أن يختار شيئا على شيء ، وتدل على أنه يقدر على القدير لذلك صح وصفه بأنه مختار ، فعل على فعيل .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ قال في التجريد : في معناه قولان ، أحدهما : أن الرسل أتوهم من كل جانب ، يدعوهم إلى الإيمان ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا إلا العتو ، ويحتمل الحقيقة ، ويحتمل أن يكون عبارة عن تكرار الدعاء ، وأصله أن من يحاول الشيء يبدو[1] من كل جهاته يلتمس ما يريد ، فلعله إن تعسَّر من جانب يَسْهُل من الآخر ، والثاني : أنه أراد ﴿ من بين أيديهم ﴾ من تقدم من الرسل إلى آبائهم ، وإلى غيرهم ؛ لأن الرسل يصدق بعضهم بعضا ، وبقوله : ﴿ من خلفهم ﴾ الذين جاؤهم لأنهم من بعد وجودهم .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ تفسير للإنذار ، أي : قالت لهم : لا تعبدوا إلا الله

ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار أنهم ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا ﴾ أي : لو شاء ربنا إرسال الرسل ﴿ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أي : فإذا أنتم بشر ، ولستم ملائكة ، فلا نؤمن بكم ، وقوله : ﴿ أرسلتم به ﴾ ليس بإقرار بالإرسال ، وإنما هو على كلام الرسل ، وفيه تهكم بالرسل ، كما قال فرعون : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ .

وروي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش : التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والسحر والكهانة يكلمه ، ثم أتانا ببيان عن أمره ، فقال : عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى علي ، فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ لم تشتم آلهتنا ؟ وتضللنا ؟ فإن كنت تريد الرئاسة عقدنا لك اللواء ، فكنت رئيسنا ، وإن أردت الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن بأي بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني به ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساكت ، فلما فرغ قال : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم ﴾ إلى قوله : ﴿ مثل صاعقة

---

(١) بمعنى : يظهر عليه من كل جهاته .

عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج لقريش ، فلما احتبس عنهم ، قالوا : لا نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يـا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ؟ فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته وأجابني بشيء والله ما هو شعر ، ولا كهانة ، ولا سحر ، ولمـا بلغ ﴿ صاعقة عاد وثمود ﴾ أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم ــ وقد علم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ــ فخفت أن ينـزل بكم العذاب[1] .

واعلم أنه تعالى لما بين كفر قوم عاد وثمود على الإجمال بين خاصية كل واحدة من هـاتين الطائفتين ، فقال عز وجل : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ تعظموا فيها على أهلها ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بما لا يستحقون به التعظيم ، وهو القوة وعظم الأجسام كما حكى الله قولهم .

ثم بـين تعالى سبب ذلك الاستكبار حيث حكى قولهم : ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ثم أنكر سبحانه قولهم هذا ، وذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهـم فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي : يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ثم قـال : ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ مع علمهم أنها حق ، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة .

ولما بلغوا في الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والإبطال الغاية القصوى ــ سلط الله عليهم العذاب ، فقال عز وجل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ كأنه وصف بالمصدر

---

(١) الرواية وردت أيضا في الكشاف ٣٨٧/٣ ، وفي الرازي ٥٥٢/٩ ، قال ابن حجر في تخريجها ص ٤٥ قال ابن إسحاق في السيرة : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا مرسلا ، ووصله ابن أبي شيبة ، وعنه أبو يعـلى ، وعـبد بن حميد ، وأبو نعيم ، والبيهقي كلاهما في الدلائل ، كلهم من رواية الأجلح الكندي ، عن الزبال بن حرملة ، عن جابر مطولا .

قال في التجريد : في الصرصر أقوال ، أحدها : أنها الشديدة الهبوب ، التي تصوت لشدة هبوبها ، من صر الجُنْدُبُ[1] إذا صَوَّت .

وثانيها : أنها الباردة من الصِّرِّ ، وهو البرد ، وثالثها : أنها الباردة التي تحرق لشدة بردها ، كما تحرق النار عن ابن عباس . اهـ

وهو تكرير لبيان الصر ، وهو البرد الذي يصر ويجمع ويقبض ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ أي : مشؤمات ، قال في الكشاف : نحس نحسا : نقيض سعد سعدا ، وهو نحس [وأما نحس] فإما مخفف نحس ، أو صفة على فعل [كالضخم وشبهه] أو وصف بمصدر[2]

قال في التجريد : وفي أولها ثلاثة أقوال ، أحدها : غداة الأحد ، قاله السدي ، والثاني : يوم الجمعة ، قاله الربيع بن أنس .

والثالث : يوم الأربعاء ، قاله يحي بن معاذ .

ثم قال عز وجل ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أضاف العذاب إلى الخزي ، وهو الذل والاستكانة ، على أنه وصف للعذاب ، كأنه قال : عذاب خزي كما تقول : فعل سوء ، تريد الفعل السيئ ، والدليل عليه قوله : ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أي : أشد إهانة وخزيا ، وهو من الإسناد المجازي ، وهو أن وصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به ، ألا ترى إلى الفرق بين قولك : هو شاعر ، وله شعر شاعر ، قاله في الكشاف[3] .

---

(١) الجندب : بفتح الدال وضمها ضرب من الجراد .

(٢) انظر الكشاف ١٩٣/٤ . وما بين أقواس الزيادة من الكشاف .

(٣) انظر الكشاف ١٩٣/٣ ، قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : أصله : خزي ، فأعل إعلال قاض ، أي : عذاب ذليل ؛ لأن الخزي هو الذل والاستكانة ، والخزي في الحقيقة للمعذب ، فإسناده إلى العذاب مجاز ، والإضافة فيه من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ولعذاب الآخرة أخرى﴾ ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصف المعذب به ، لما يلزم منه أنه بلغ خزيهم إلى أن سرى إلى ما

﴿ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [بدفع العذاب عنهم .

ولما ذكر الله تعالى قصة عاد أتبعه بقصة ثمود فقال][(1)]: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ أي: دللناهم وعرفناهم طريقي الضلال والرشد ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ أي : اختاروا الدخول في الضلالة على الرشد ، ولما وصف الله كفرهم قال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ أي : داهية العذاب ، وقارعة العذاب ، والهون : مصدر بمعنى الهوان ، وصف به مبالغة ، أو على تقدير ذي الهون ، ثم علل ذلك فقال: ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : بسبب كسبهم الذنوب ، من شركهم ، وتكذيبهم صالحا ، وعقرهم الناقة .

ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال سبحانه : ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وهو كالتعليل لنجاتهم وأراد بهم صالحا ومن معه .

إن قيل : كيف يجوز للرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمته صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد صرح الله تعالى بذلك في قوله :﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾[(2)] وجاء في الأحاديث الصحيحة (أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات) ؟ .

قلنا: إنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يكون من جنس ذلك ، وإن كان أقل درجة منهم ، وهذا القدر

يلابسهم من العذاب ، نحو شعر شاعر ، أي : بلغ الرجل في الشاعرية إلى أن شعره أيضا شعر ، قال أبو الطيب :

ولكن شعري فيك من نفسه شعر وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله

(١) ما بين القوسين ليس في النسخة أ ، وهو موجود في النسخة ب .

(٢) الأنفال : ٣٣ .

يكفي في التخويف ، والله أعلم [1].

ولما بين تعالى كيفية عقوبة هؤلاء الكفار في الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة فيحصل منه تمام الاعتبار والزجر والتحذير ، فقال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴾ [2] قرأ نافع (نحشر) بالنون (أعداء) بالنصب أضاف الحشر إلى نفسه ، والتقدير : يحشر الله عز وجل أعداءَ الله الكفار من الأولين والآخرين ، وحجته أنه معطوف على قوله : ﴿ ونجينا ﴾ فيحسن أن يكون على وفقه ، ويقويه قوله : ﴿ يوم نحشر المتقين ﴾ [3] ﴿ وحشرناهم ﴾ [4] وأما الباقون فقرأوا على فعل ما لم يسم فاعله ؛ لأن قصة ثمود قد تم ، وقوله : ﴿ يوم يحشر ﴾ ابتداء كلام آخر ، وأيضا الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله : ﴿ احشروا ﴾ وهم الملائكة .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون إلى النار قال : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : يستوقف السابق حتى يلحق الآخر ، وهذه عبارة عن كثرة أهل النار ، والمقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم ، ثم قال : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (ما) في ﴿ إذا ما جاؤها ﴾ زائدة

---

١) وقد ذُكِرَ وجه آخر ، وهو أن هذا التهديد وقع قبل الإخبار بأن عذاب الاستئصال واقع بهم ، وكذلك نحوه من الآيات التي وردت في القرآن .

(٢) **قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) الأحكام**

تدل الآيات على أن الجوارح تشهد وتنطق ، ولا معنى للعدول عن الظاهر مع أنه لا ما نع منه ، وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم ، ليصح الشهادة عليهم ، وتدل أن القوم كانوا جاهلين بالله وصفاته لولا ذلك لما ظنوا به هذا الظن ، فتدل على أن المعارف مكتسبة ، وتدل على أن الظن مذموم في باب التوحيد ، وأصول الدين ، ومتى قيل: أليس روى في حسن الظن بالله ؟ قلنا: ذلك يبتني على العلم ،فإن من علمه رحيما كريما ظن لعلمه أنه يرحمه ، وقيل: أراد بالظن العلم بما يقتضي حسن الظن ، كما روي عن الحسن أن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ، وليست لهم حسنة ، يقول أحدهم : أحسن الظن بالله . كذب لو أحسن الظن به لأحسن العمل

٣) مريم : ٨٥ .

٤) الكهف : ٤٧ .

للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها : أن وقت مجيئهم إلى النار لا محالة يكون وقت الشهادة عليهم ، ومثله ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾[١] أي : لابد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم ، تشهد الآذان بما سمعت ، والعيون بما أبصرت ، والجلود بما لامست من الحرام ، وما أشبه ذلك ، ينطق الله هذه الأعضاء كما أنطق الشجرة لموسى عليه السلام ، وقيل : المراد بالجلود الجوارح ، وقيل : هي[٢] كناية عن الفروج .

ثم حكى الله عنهم أنهم يقولون لتلك الأعضاء حيث يقول : ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا** ﴾ أي : لأي سبب ﴿ **قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ من الحيوانات ، المعنى : أن نطقها ليس بعجيب من قدرته ﴿ **وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ في الدنيا ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ أي : إلى جزائه ، وإنما قالوا لهم : ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ لما تعاظمهم من[٣] الافتضاح على ألسنة جوارحهم .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ** ﴾ أي : في الدنيا بالحجب عن ارتكاب الفواحش خيفة ﴿ **أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ** ﴾ لأنكم كنتم جاحدين للبعث أصلا ، وما يتفرع عليه من شهادتها وغيرها .

قال المرتضى عليه السلام : المعنى فيه ما أراد الله سبحانه من ذلك ، وما جعل فيه من الإذلال للفاسقين ، والفضيحة للمنافقين ، فكان ما أقرت به عليهم أيديهم وأرجلهم أعظم في الفضيحة عليهم ، وأشد في التبكيت لهم إذ تولى الفضيحة لهم ، والإقرار بعظائمهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم ، وما ذكر الله من جوارحهم ، هذا

---

(١) يونس : ٥١

(٢) في النسخة ب (وقيل : هو كناية عن الفروج) .

(٣) العبارة هنا مثلها في الكشاف ، ولفظ الكشاف : لما تعاظمهم من [شهادتها وكبر عليهم من] الافتضاح على ألسنة جوارحهم . ١٩٥/٤ .

معنى [ذلك ومخرجه] [١] وهو بَيِّنٌ بَيِّنٌ . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ ﴾ أي : ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم ، قال ابن عباس : كان الكفار يقولون : إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ، ولكنه يعلم ما يظهر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَذَلِكُمْ ﴾ الظن هو ﴿ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أي : أهلككم ، والردى : هو الهلاك ، قال الشاعر :

أصاب الردى من كان يهوى لك الردى وجن اللواتي قلن عزة جنت

وفي حديث ابن مسعود : (كنت مستترا بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر ، قرشي ، وثقفيان ، فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ، فقال الآخر : أما إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفع لم يسمع ، وقال الآخر : إن سمع منا شيئا سمعه كله ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم ﴾ الآية وما بعدها إلى قوله : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لأنفسكم في وقوعها في النار ، وهذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهل أن عليه من الله عينا ورقيبا ، حتى يكون في خلواته [من ربه] [٢] أهيب ، وأحسن احتشاما منه مع الملأ

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أي : مقر ومقام لهم ، لا ينفعهم الصبر ؛ لأنه في غير وقته بعد انقطاع التكليف ، يعني : إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه [٣] لم يجدوا ذلك ، وتكون النار مثوى لهم ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ ببنائه للفاعل ، أي : يطلبوا أن يرضوا ربهم فيرضى عنهم ، ويقبل العتبى ، وهي الرجوع

---

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة ، وما بين قوسي الزيادة من المجموع ، وهو غير موجود في النسخة أ ، وموجود في النسخة ب

(٢) ما بين القوسين من النسخة ب ، وهو غير موجود في النسخة أ .

(٣) في النسخة أ (لفرح يجدونه) وما هنا هو ما في النسخة ب .

لهم إلى ما يحبون ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ اسم مفعول ، أي : لم يعطوا العتبى ، ولم يجابوا إليها ، عتب : غضب ، وأعتبه : أزال عتبه ، ويقال : أعتبني فلان ، أي : أرضاني بعد إسخاطه إياي ، واستعتبته : طلبت منه أن يعتب ، أي : يرضى ، قاله جار الله[1] .

وقال أيضا : وقرئ (وإن يستعتبوا) يريد ببنائه للمفعول ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ اسم فاعل ، أي : إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلين ، أي : لا سبيل لهم إلى ذلك .

ثم قال تعالى :﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ أي : خلينا وتركنا ، ولم نمنع بقدرتنا ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدم من أعمالهم القبيحة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما هم عازمون عليها [2].

وقال الهادي عليه السلام : معنى ﴿وقيضنا لهم﴾ هو : خلينا وأمهلنا ، ولم نحل بين هؤلاء القرناء وبين من اجترأ علينا ، والقرناء : فهم قرناء السوء من شياطين الجن والإنس ، فلما أن كان الله [تبارك و]تعالى قادرا على أن يصرف عن أعدائه

---

(١) لفظ الكشاف ١٩٦/٤ : {وإن يستعتبوا} وإن يسألوا العتبى ، وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعا مما هم فيه : لم يعتبوا : لم يعطوا العتبى ، ولم يجابوا إليها ، نحو قوله عز وعلا :{أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص} وقرئ : وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) أي : إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون ، أي : لا سبيل لهم إلى ذلك .

(٢) **قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام**

يدل قوله :{فزينوا} أن القرناء زينوا المعاصي لهم ، وذلك يبطل قول المجبرة : إن الله هو الذي زين ، وتدل على التحذير من قرناء السوء ، ويدل قوله :{ تسمعوا} أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحتج عليهم بالقرآن ، ويتحداهم به ، لذلك منعوا من استماعه ، وتدل على قبح مقابلة الحجة بالسفه واللهو ، صنيع المجبرة والمشبهة مع أهل العدل ، وتدل على أن الجن يموتون كالإنس لذلك قال :{خلت} ويدل قوله :{ذلك جزاء} أن العقاب يستحق على الأعمال ، ويدل قوله {ربنا} أن الإضلال من الإنس والجن خلاف ما تقول المجبرة ، وتدل على أنه تعالى لم يخلق فيهم الكفر والضلال ؛ إذ لو كان خلق ذلك لما كان ضلالا لهم تأثير فيه ، وتدل على وجوب إتباع الدليل دون الرؤساء ، ويدل آخر الآية أن عذاب أهل النار يتفاضل على قدر الاستحقاق .

كيد هؤلاء فلم يفعل جزاء على فعلهم ، وخذلانا على كفرهم ، جاز أن يقول : ﴿قيضنا﴾ يريد : تركنا ، وأمهلنا حتى زينوا لهم ، ومعنى التزيين : فهو التحسين لما يبسطون لهم من الأمل في الدنيا ، ويمنونهم من المغفرة في الآخرة التي تبقى ، فهذا معنى ﴿ما بين أيديهم .. وما خلفهم﴾

ومعنى ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فهو : أغووهم حتى حق عليهم ما نزل بالأمم من قبلهم على مثل فعلهم[1] . اهـ

وقيل : معنى ﴿وحق عليهم القول﴾ أي : وجبت عليهم كلمة العذاب ، وهي ﴿لأملأن جهنم﴾ ومعنى ﴿في أمم﴾ أي : في جملة أمم ﴿مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ ومنهم من يجعل (في) بمعنى مع ، قيل : دل على أن الجن يموتون كالإنس لا الملائكة، فيمهلون إلى يوم القيامة ، وقيل : لا دلالة على ذلك ، وقيل : إن كانوا من الشياطين فهم لا يموتون ، وقولهم : ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي : قريش والأمم الخالية ﴿كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ هذا تعليل لاستحقاقهم العذاب ، قال عليه السلام : ومعنى ﴿خاسرين﴾ فهو : منتقصون ، وانتقاصهم : فهو فوت ما ظفر به المؤمنون من الثواب الذي حرمه العاصون ، وانتقصوه بمعصيتهم ، وفاتَهُم بترك الطاعة لربهم .

واعلم أن الكلام في أول السورة ابتدأ من قوله : ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ إلى قوله : ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة ، واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع ، ثم إنه تعالى حكى عنهم شبهة أخرى فقال : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي : لا تنصتوا إذا قرئ ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي : عارضوه باللغو ، وهو الكلام الخالي عن الفائدة ، وكان كفار مكة يتواصون برفع الأصوات عند قراءة القرآن بالمكاء والصفير ، وبالشعر ليخلطوا على القارئ ، ويصرفوا عن استماع

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٦ .

القرآن ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ صوته إذا قرأ فلا يسمع ، أو فيسكت .

قال محمد بن القاسم عليهما السلام : اللغو هو الباطل والكذب ، والفضول واللعب ، قال المرتضى عليه السلام في الإيضاح : هذا ما كانت قريش وأهل الكفر يفعلونه ، إذا قرئ القرآن لغوا فيه ، أي : هرجوا ، وتحدثوا ، ولغوا من الكلام مما لا يجوز ، ولا يحل ، ليشغلوا إذن السامع وقلبه ، فلا يقع في أذنه ، ولا يقر في قلبه ما قرئ عليه من الحكمة والموعظة الحسنة ، يريدون أن لا يخلص سمع المستنصت وقلبه فيبهره ما يسمع من القرآن المجيد ، والذكر الحكيم فيدعوه ذلك إلى الإسلام ، والرجوع إلى محمد عليه السلام ، فكانت قريش ومن كان معها من أضداد الحق لما غلبتهم الحيل في القرآن ، فلا يقدرون أن يقولوا : شعر ، ولا يقدر أحد منهم على أن يأتي بمثله ، فكانوا يخشون باستماع الناس له أن يسلموا ويصدقوا ، فلم تكن لهم حيلة إلا اللغو والكلام ، والمعارضة بما لا يجوز ليشغلوا به القلوب والألباب ، عن الفكر والتمييز ، فكان أمر الله الغالب لهم ، والظاهر عليهم ، ولو كره المشركون ، إلى آخر كلامه عليه السلام .

ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد ، وقال : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي : هؤلاء اللاغين ، أو عاما ، وفيه تهديد شديد ؛ لأن لفظ الذوق إنما يذكر في القدر القليل ، الذي يؤتى به لأجل التجربة .

ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب شديد ، فإذا كان القليل منه عذابا شديدا، فكيف يكون حال الكثير منه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قيل : هو الشرك ، أي: جزاء أسوأ ما عملوه ، والمراد جزاء أعمالهم ؛ لأنها كلها أسوأ ، أي : لنجزينهم بقبائح ما كانوا يسيئون .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ عطف بيان للجزاء ، والمعنى أنه

تعالى لما قال في الآية المتقدمة: ﴿ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ بين أن جزاءه الأسوأ جعل جزاء أعداء الله هو النار.

ثم قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ المعنى: أن النار في نفسها دار الخلد كقوله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[1] وتقول: لك في هذه الدار دار السرور، [وأنت] تعني الدار نفسها، وهذا من باب البلاغة يسمى التجريد[2]، أي: لهم في جملة النار دار معينة، وهي دار العذاب المخلد لهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بما كانوا يلغون فيها، فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

ثم أخبر تعالى عن الكفار عند وقوعهم في العقاب الشديد، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ﴾ وهم الشياطين ﴿وَالْإِنْسِ﴾ وهم الدعاة إلى الضلال.

قال الهادي عليه السلام: المعنى في ذلك: أن هذا السؤال من الكفار الضالين، طلب إلى الله أن يريهم من أضلهم وأغواهم، من جبابرة الآدميين، ومغويهم من فراعنة الشياطين الموسوسين بالمعصية لهم، المزينين لما في صدورهم ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ يقولون: تحتنا في النار، ونطؤهم ونذلهم، كما أهلكونا ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي: ليكونا تحتنا في العذاب المهين، وذلك أن جهنم ظُلَل من فوقها ظُلَل، معنى ظُلَل، أي: درجات متفاوتات، فأشدها عذابا أسفلها، فكل ما كان أسفل فهو أشد عذابا مما هو فوق، فأراد أن يكون المغوون أسفل منهم في الدرجة التي هي أنكى عذابا، وأشد نكالا وأشقى. اهـ

واعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد، أردفه بالوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: وحده لا شريك له في الربوبية

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) قال ابن جني: كأنه جرد من الدار دارا. (حاشية العلوي ٢٤٨).

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثبتوا على ذلك ، وعلى مقتضاه من الطاعة ، من عمل الواجبات ، وترك المقبحات ، و﴿ثم﴾ لبيان فضيلة الاستقامة في الرتبة وزيادها لمشقتها [(١)] ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت بالبشرى ، أو وقت خروجهم من قبورهم ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي : يقولون هذا القول .

قال في التجريد : وفي وقت هذا التنزيل أقوال ، **أحدها** : عند الموت قاله ابن عباس ، ومجاهد ، فعلى هذا في ﴿ألا تخافوا﴾ قولان ، أحدهما : لا تخافوا الموت ، ولا تحزنوا على ما بعدكم من أهل وولد ، فإنا نخلفكم فيهم ، قاله مجاهد .

والثاني : لا تخافوا أمامكم ، ولا تحزنوا على ما خلفكم ، قاله عكرمة ، والسدي .

وثانيها : أنها تتنزل عليهم إذا قاموا من القبور ، قاله قتادة ، فيكون معنى لا تخافوا ولا تحزنوا : أنهم يبشرونهم بزوال الخوف والحزن يوم القيامة .

الثالث : البشرى تكون عند الموت ، وفي القبر ، وإذا قاموا من قبورهم ، قيل : والخوف يكون لتوقع أمر مستقبل ، والحزن على شئ قد وقع .

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ المعنى : أن الله كتب لكم الأمن من كل غم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي : الملائكة يقولون : ﴿نحن أولياؤكم﴾ أي: أحباؤكم ندعو لكم ، ونبارك عليكم ، ونحفظكم بأمر الله ، كما أن الشياطين قرناء

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

الأحكام : يدل أول الآية أن المؤمن لابد له من الاستقامة ليصل إلى الثواب ، وأن مجرد القول لا يكفي ، وتدل على أن المؤمن مبشر بكل نعمة ، وأنه لا يخاف ولا يحزن في القيامة ، خلاف ما يقوله بعضهم ، وتدل على عظم حال الملائكة حتى كان لهم محل الشفاعة ، وتدل أنهم يحفظون أعمالنا ، ويدل قوله {ومن أحسن قولا} أن الدعاء إلى الدين من أعظم الطاعات ، وتدل على وجوبه ، وتدل على أن الداعي يجب أن يكون عاملا ، فيكون الناس إلى القبول منه أقرب ، وتدل على أن القول لا ينفع ما لم يقترن به العمل على ما نقوله ، وتدل على أن اسم الإسلام يتضمن المدح والتعظيم وتدل على أنه يجوز أن يقول : أنا مسلم من غير استثناء ، وتدل على وجوب دفع السيئة بالحسنة ، وأنه من أعظم الخصال ، فينبغي للداعي إلى الحق أن يدعو بالرفق وطريق التواضع ، ولطف القول .

العصاة وإخوانهم ، والملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ نتولى بإيصال الخيرات إليكم بإذن الله ، ونبشركم بما فيه أكمل السرور .

وقيل : نحن قرناؤكم في الدنيا ، ولا نفارقكم في الآخرة حتى ندخلكم الجنة ، قاله السدي ، وهم الحفظة من الملائكة .

ثم قال :﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أي : الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ من كل محبوب ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تتمنون كل ما تريدون قلتم له : كن . فيكون .

ثم قال :﴿ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ من رحمته نعيم أوليائه ، والنزل : رزق الضيف عند وصوله ، ونصبه على الحال ، وقال الواحدي : يجوز أن يكون جمع نازل ، والمعنى : ولكم ما تدعون من غفور رحيم نازلين .

ثم قال سبحانه :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ أي : لا أحد أحسن قولا ﴿ مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي : إلى دينه وطاعته ، وهو رسول الله ﷺ ، دعا إلى الإسلام ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ، وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث ، التوحيد ، والعمل بالخير ، والدعاء إليه ، وما هم إلا طبقة العلماء العاملين ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي : جعل دين الإسلام مذهبه ، كما يقال : هذا قول أبي حنيفة ، أي : مذهبه ، لا أنه يتكلم بهذا الكلام .

واعلم أنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغب محمدا ﷺ في أن لا يترك الدعوة إلى الله سبحانه ، فابتدأ أولا أن قال :﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ فلهم الثواب العظيم ، ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى ، وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعا على أحسن وجوه الترتيب ، ثم كأن سائلا سأل وقال : إن الدعوة إلى الله ـــ وإن كانت طاعة عظيمة ـــ إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد ، لا طاقة لنا به ، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعا لهذا الإشكال فقال

سبحانه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي : ادفع السيئة بالحسنة ، أي : لا تستوي الحسنة والسيئة ، وزيدت لا تأكيدا ، ومعناه : ادفع سفاهتهم ، وجهالتهم بالطريق الذي هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ، ولا إصرارهم بالإيذاء ، والايحاش استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة ، وتركوا الفعال القبيحة ، وقيل : أراد أن الحسنة تتفاوت إلى حسن وأحسن ، وكذا السيئة إلى سيئ وأسوأ ، فإذا عرضت حسنتان ، فادفع بالأحسن منهما السيئة التي ترد عليك ، كأن يسيء إليك رجل إساءة ، فالحسنة أن تعفو عنه ، والتي هي أحسن أن تحسن إليه ، ومثل أن يذمك فتمدحه ، ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك مثل الولي ، وهو معنى قوله : ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾[1] أي : محب صاف ، أي : ينقلب العدو كالمحب في عظم المودة ، يعني إذا قابلت إساءتهم بالإحسان ، وأفعالهم القبيحة بأفعالك الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة ، وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ، ومن البغضة إلى المودة .

ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع في الدين والدنيا عظمه ، وقال : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ أي : الخصلة التي في مقابلة الإساءة بالإحسان ، ويلقاها بمعنى : يعطاها ، أي : وما يعطى هذه الطريقة أو الخصلة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على الغيظ وكظموه ، وعلى مخالفة الهوى ، ثم عظم هذه الخليقة ، بقوله : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي : إلا رجل وُفِّقَ لحظ عظيم من الخير ، وقيل : الحظ العظيم الجنة ، قاله قتادة ، أي : ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة .

ولما ذكر هذا الطريق الحسن الكامل في دفع الغضب والانتقام ، وفي ترك الخصومة ذكر عقيبه طريقا آخر عظيم النفع أيضا في هذا الباب ، فقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا

---

(١) فصلت : ٣٤

يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : أي وساوس قال الشاعر :

ونــزغة شيطان يريد ضلالها فمن لي بنفس لا تزال غوية

قال في التجريد : النزغ والبخس يتقاربان ، شبه بمن يبخسه ، أي : يطعنه بإصبعه ونحوها ليحثه على السير ونحوه ، والمعنى : إن صرفك الشيطان عما وصيت به ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أي : اعتصم وامتنع بالله من شره ، وامض على شأنك ولا تطعه ، وجعل النزغ نازغا ، كما قيل : جَدَّ جده ـ مجازا ، أو أريد بالنزغ النازغ ، وُصِفَ الشيطان بالمصدر[1] .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لاستعاذتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بخلوص نيتك ، فهو يعيذك من شره [2].

واعلم أنه تعالى لما بين أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى ، أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، فقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وهذا كالتنبيه على حدوث هذه الأشياء ، ولما بين أن الشمس والقمر مخلوقان محدثان ، وهما دليلان على وجود الإله القادر ، قال : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ نهي لمن كان يعبدها من المجوس وغيرهم

(١) قوله : أو أريد بالنزغ النازغ .. قال السيد العلوي رحمه الله : وعلى هذا (من) تجريدية ، جرد من الشيطان إما شيطانا آخر ، وسمي نازغا ، أو جرد منه وصفه الذي هو تسويله ، وجعل نازغا ، فهو هو أيضا ، ومن على الثاني ابتدائية ، والمعنى : وإما ينزغنك من جهة الشيطان نزغ ، فأسند الفعل إلى فعله مجازا .

(٢) **قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :الأحكام**

الآية تدل على أن الشيطان يوسوس ويضل ، وأن الواجب على العبد الاستعاذة بالله من شره ، وتدل على أن للشيطان فعلا ، وللعبد فعلا ، وأنه لا يستعيذ بالله تعالى ، ولو كان الجميع خلقا له تعالى لما كان للكلام معنى ، وتدل الآيات على توحيد الله ، وأنه الصانع المدبر ، وأن العالم محدث ، وتدل على صحة الحجاج في الدين ، وتدل على أن الملائكة مكلفون ، وتدل على أن المؤمن يكون آمنا يوم القيامة خلاف ما يقوله بعضهم . ويدل قوله {اعملوا} على زجر عظيم .

﴿ وَاسْــجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ القادر الحكيم ، والضمير في قوله :﴿ خلقهن ﴾ لـــليل والنهار ، والشمس والقمر ؛ لأن جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث ، يقال : الأقلام بريتها وبريتهن .

ولمـــا قال :﴿ ومن آياته ﴾ كن في معنى الآيات ، فقيل : ﴿ خلقهن ﴾ وإنما قال تعالى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ لأن ناسا كانوا يسجدون للشمس والقمر ، وقيل : هم المجوس والنصارى يزعمون أن السجود لهما سجود لله ، فنهوا عن هذه الواسطة، وأمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذي خلق هذه الأشياء .

ثم إنــه تعــالى لما أمر بالسجود قال بعده ﴿ فَــإِنْ اسْتَكْبَرُوا ﴾ ولم يمتثلوا فدعهم وشأنهم ، وقوله :﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ عبارة عن كرامتهم ، وارتفاع شأنهم عنده، أي : فإن الله لا يعدم عابدا بالإخلاص بالأرض ، وله العباد المقربون ، وهم الملائكة الذين ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ ﴾ أي : ينــزهونه ﴿ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أي : لا يملون ولا يفترون ، قال الشاعر :

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه وإن يعنها يوما من الدهر يسأم

أي : يملّ .

واختلف في موضع السجدة ، فالأكثر أنها عند ﴿ لا يسأمون ﴾ ومنهم من يجعلها عند ﴿ يعبدون ﴾ لقربه من لفظ ﴿ واسجدوا لله ﴾ .

ثم قال تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ الخشوع : التذلل والتقاصر فاســتعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ، ووصفها بالخشوع خلاف وصــفها بالاهــتزاز والــربو في قوله :﴿ فَإِذَا أَنــزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ اهــتزت: تحــركت بالنبات ، وتزينت بالخضرة ، والربو : هو الانتفاخ إذا خصبت وتزخــرفت بالنبات ، كأنها بمنــزلة المختال في زيه ، وكانت قبل كالذليل اللابس الأطمار الرثة ، وقرئ (وربأت) أي : ارتفعت ؛ لأن النبات إذا قرب خروجه ارتفعت له الأرض .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا ﴾ بالخصب بعد موتها بالجدب ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : القادر على إحيائهم ؛ لأن بعث الأموات كإحياء الأرض بالنبات ، فإن القادر على إحياء الأرض بعد موتها ــ لقادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها .

واعلم أنه تعالى لما بين أن الدعوة إلى دين الله أعظم المناصب ، وأشرف المراتب ، ثم بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل ، وصحة البعث والقيامة ــ عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات ، ويحاول إلقاء الشبهات فيها ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي : يميلون في تأويلها من جهة الصحة بأن ينسبوها إلى السحر ، والشعر ، والكذب ، ومنه : ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الوسط ، فحفر في شق القبر ، وقال مقاتل : يميلون عن الإيمان والقرآن ، وقال مجاهد : هو المكاء والصفير واللغط عند قراءة القرآن .

وقوله : ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ تهديد ووعيد على التحريف ثم قال : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ ﴾ من الملحدين وغيرهم ﴿ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ من كل مخوف لإيمانه واستقامته .

قال في التجريد : وهذا عام في كل مؤمن وذي كبيرة ، وقد ذكر المفسرون أنها نزلت في أبي جهل ، وفي حمزة ، وقيل : في أبي جهل وعمار ، وقيل : في أبي جهل ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا الاستفهام بمعنى التقرير ، والغرض التنبيه على أن الملحدين في آياتنا يلقون في النار ، والذين آمنوا بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة .

ثم قال عز وجل : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ تهديد ومبالغة في ذمهم ، ووصفهم بالخذلان ، أي : هم أهلٌ لأن يؤمروا بهذا الذي يزيدهم ندما في العاقبة ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : لا يفوته شئ من أعمالكم ، وهذا أيضا تهديد ثالث .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ بدل من ﴿ الذين يلحدون في آياتنا ﴾ والمراد

﴿ بالذكر ﴾ القرآن ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه ، وحرفوا تأويله ، وهذا أيضا تهديد ، وفي خبر ﴿ إن ﴾ قولان ، أحدهما : أنه ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ قاله الفراء ، والثاني : أنه محذوف وتقديره : يجازون بكفرهم [١].

ولما بالغ في تهديد الذين يلحدون في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ [منيع] محمي بحماية الله ، يستعمل (عزيز) في القوي الممتنع ، وفي القليل الوجود ، وفي المراد بوصف القرآن بالعزيز أقوال أحدها: أنه كريم على الله ، قاله الكلبي ، والثاني : أنه ممتنع وجود مثله من الناس ، والثالث : أنه ممتنع من الباطل ، قاله مقاتل ، والعزيز أيضا بمعنى : الغالب القاهر .

أما كون القرآن عزيزا بمعنى كونه غالبا ، فالأمر كذلك ؛ لأنه بقوة حجته غلب ما سواه وأما كونه عزيزا بمعنى عدم النظير ، فالأمر كذلك ؛ لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته ، وقوله : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ بيان لكونه عزيزا .

واختلف في الباطل ، فقيل : هو بمعنى البطلان ، وهو الكذب والتناقض ، ونحو ذلك من عيوب الكلام ، ثم اختلف في المراد بقوله : ﴿ من بين يديه ولا من خلفه ﴾ فقيل : هو تمثيل مراد به لا يجد الباطل إليه سبيلا من جهة من الجهات ، حتى تصل إليه ، وقيل : ﴿ من بين يديه ﴾ ليس قبله كتاب يبطله ﴿ ولا من خلفه ﴾ ليس

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام

تدل الآيات على حدوث القرآن لقوله {تنزيل} ولقوله :{جعلناه قرآنا} وكلاهما لا يليق بصفة القدم ، ويدل قوله :{حكيم} أنه لا يفعل القبيح ، ولا يخلق الكفر والقبائح ، وتدل على أن القرآن كله عربي ليس فيه غير لغة العرب خلاف ما يقوله بعضهم ، ويدل قوله :{هدى} أنه تعرف به الأحكام . وتدل أنه إنما جعل القرآن عربيا لقطع عذرهم ، إنما نحن عرب فلا نعرف لغة العجم ، فإذا كان الله تعالى قطع هذا العذر فكيف يخلق فيهم الكفر ، ويمنعهم من الإيمان ، وتدل على أن القرآن حجة ، ويدل قوله :{لفي شك} أن المعارف مكتسبة .

بعده كتاب يبطله ، وقيل : لا يأتيه الباطل من بين يديه ، أي في إخباره عما تقدم ، ولا من خلفه في إخباره عما تأخر .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي : لا يبطل منه شئ من أوله ، ولا آخره ، وقد يكون ذلك مثلا لحراسة الله له [١]، والله أعلم

قال في الكشاف : وقد طعن فيه ، وتؤل من المبطلين ، لكن قيض الله قوما هم العلماء عارضوا المبطلين بإبطال تأويلهم ، فلم يكن طعن إلا ممحوقا ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا [٢].

ثم قال تعالى :﴿ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ ﴾ في جميع أفعاله ، لا يجوز على تنزيله غير الحكمة ؛ لأنه منزل لمصالح العباد ﴿حَمِيدٍ﴾ إلى جميع خلقه ، مستوجب للحمد من عباده على نعمته ، التي القرآن من أجلّها .

واعلم أنه تعالى لما هدد الملحدين في آيات الله ، ثم بين شرف آيات الله ، وعلو درجة كتاب الله ، رجع إلى أمر رسوله ، بأن يصبر على أذى قومه ، وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة أنهم قالوا :﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ إلى قوله :﴿فاعمل إننا عاملون﴾ فقال سبحانه :﴿ مَا يُقَالُ لَكَ ﴾ من كفار قومك ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي : إلا مثل ما قال كفار الأمم المتقدمة لرسلهم من الأذى والطعن في الكتب المنزلة ، كساحر ، وكاهن ، ومجنون ويجوز أن يراد ما يقول الله لك إلا مثل ما قال للرسل من قبلك ، وهو قوله :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائه ﴿وَذُوعِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم وأعدائه ، والغرض تخويف العصاة ، ويحتمل أن يكون المراد ما قال الله لك إلا مثل ما قال لسائر الرسل ، وهو

(١) انظر تفسير الحسين بن القاسم العياني عليه السلام أوائل هذه السورة .

(٢) نقله المصنف بالمعنى ، ولفظ الكشاف ٢٠٢/٤ : فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون ، وتأوله المبطلون ؟ قلت : بلى ، ولكن الله قد تقدم في حمايته عن تعلق الباطل به ، بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم ، وإفساد أقاويلهم ، فلم يخل طعن طاعن إلا ممحوقا ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا .

أنــه أَمَرَك ، وأَمَرَ كل الأنبياء بالصبر على سفاهة الأقوام ، فمن حقه أن يرجوه أهلُ طاعته ، ويخافه أهلُ معصيته .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الأجوبة على قولهم ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ إلى قولــه :﴿فــاعمل إننا عاملون﴾ فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة ، وتارة يذكر الوعــد والوعيــد لمن يؤمن بهذا القرآن ، ومن يعرض عنه ، وامتد الكلام إلى هذه المواضع على الترتيب الحسن ، والنظم الكامل ـــ ذكر تعالى جوابا آخر عن قولهم : ﴿وقــالوا قلوبــنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾ فقال سبحانه :﴿ وَلَوْ جَعَلْــنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ كان قريش يقولون تعنتا : هلا نــزل القــرآن بلغة العجم ، كما أنــزل التوراة والإنجيل وغيرهما ، فقيل : لو كان كما اقترحوا لم يتركوا الاعتراض والتعنت .

ومعــنى ﴿فصلت آياته﴾ أي : بينت بلسان تفهمه ، وقوله :﴿ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ الهمــزة للإنكار ، أي : أنكروا وقالوا : قرآن أعجمي ورسول عربي ! وكيف يكــون القرآن أعجميا ، والذين أرسل إليهم عرب ، والأعجمي : الذي لا يفصح ولا يفهــم كلامــه من أي جنس كان ، والعجمي : منسوب إلى أمة العجم ، وقد يكون فصيح اللسان .

قال الرازي : نقلوا في سبب نــزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت قالوا : هلا نــزل القرآن بلغة العجم ؟ فنــزلت هذه الآية ، والحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد ، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم :﴿قلوبنا في أكــنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾ وهذا الكلام أيضا متعلق به ، وجواب له ، والتقدير : أنا لو أنــزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت بــالكلام العجمــي إلى القوم العرب ، ويصح لهم أن يقولوا :﴿قلوبنا في أكنة [مما تدعونا إليه]﴾ من هذا الكلام ﴿وفي آذاننا وقر﴾ منه ، لأنا لا نفهمه ، ولا نحيط بمعناه ، أما لما أنــزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وألفاظهم ، وأنتم من أهل هذه اللغة

فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها ، وأن في أسماعكم وقرا منها ، فظهر أنـــا إذا جعلنا هذه الكلام جوابا عن هذه الكلام بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم ، أما على الوجه الذي يذكره الناس فهو عجيب جدا[1]. اهـــ

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أي : القرآن لمن آمن به هدى إلى الحـــق ، وشـــفاء لما في الصدور من الشك ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ به هو ﴿ فِي آذَانِهِـــمْ وَقْرٌ ﴾ أي : صمم لإعراضهم عن استماعه ، أما كونه هدى ، فلأنه دليل على الخيرات ، ومرشد إلى كل السعادات ، وأما أنه شفاء ؛ فلأنه إذا اختار الاهتداء بـــه فقـــد حصل الهدى ، وذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل ، وأما من غـــرق في بحـــر الخـــذلان ، تائها في مفاوز الحرمان ، معرضا عن استماع القرآن ، ومشغوفا بمتابعة الشيطان كان هذا القرآن في أذنيه وقرا .

ويجوز أن يكون التقدير : هم كمن في آذانهم وقر ، أي : صمم فهم لا يسمعونه ، ويجـــوز أن يكـــون القـــرآن نفسه صمما في آذانهم ، وُصِفَ بالمصدر مبالغة بدليل ﴿ وهـــو عليهم عمى ﴾ لأنهم ازدادوا به كفرا لتكذيبهم إياه ، وقوله : ﴿ في آذانهم وقر ﴾ مقابل للشفاء ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ مقابل للهدى .

ثم مَثَّـــلَهُم بمن ينادى من مكان بعيد المسافة فهو لا يسمع ، فقال جل وعلا : ﴿ أُوْلَـــئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ مثلهم في عدم استماعهم إليه مثل من يصيح به من مسافة بعيدة لا يُسْمَعُ من مثلها الصوت .

قـــال الـــرازي : واعلم أن هذا متعلق بقولهم : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ إلى آخر الآية ، كأنه تعالى يقول : إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم ، لا بلغة أجنبية عنكم ، فلا يمكنكم أن تقولوا : إن قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة[1] . اهـــ

---

(١) انظر الرازي ١٣٣/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة منه .

ثم قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ هو التوراة ، هذا تسلية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ فقال بعضهم : هو حق وآمنوا به ، وقال آخرون : هو باطل وكفروا به ، كما فعل قومك . قال الرازي : وهذا أيضا متعلق بما قبله ، كأنه قيل : إنا لما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه ، فقبله بعضهم ، ورده آخرون ، فكذلك آتيناك هذا الكتاب فقبله بعضهم ، وهم أصحابك ، ورده آخرون ، وهم الذين يقولون :﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ .

ثم قال تعالى :﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ ﴾ هي العِدَةُ بالقيامة ، وأن الخصومات يفصل فيها ﴿ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : سبق الوعد بها ، ووعده لا يخلف[٢] ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : الحكم بينهم في الدنيا ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي : المبطلون ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ يريد الكتاب ، أي : في صحته ، يجوز أن يريد القرآن ، وأن يريد البعث[٣] ، ومعنى ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة ، أي : التهمة ، فلا ينبغي أن يعظم استيحاشك من قولهم : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ .

ثم قال سبحانه :﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ يعني : خفف على قلبك إعراضهم فإنهم إن آمنوا فَنَفْعُ إيمانهم يعود إليهم ، وإن كفروا فضُرُّ كفرهم يعود إليهم ، والله سبحانه يوصل إلى كلٍّ ما يليق بعمله من الجزاء ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فيعذب المسيئ بذنب غيره ، ووجه التكثير في (ظلّام) كثرة العبيد ، أو لأن العذاب شديد ، فلولا الاستحقاق لكان المعذّب بمثله ظلاما[٤] .

---

(١) انظر الرازي ١٣٤/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ من الرازي ، واللفظ في المصابيح (فلا يمكنكم أن تقولوا : إن قلوبنا في أكنة منه بسبب جعلنا له بهذه اللغة .

(٢) في النسخة ب (ووعده لا يختلف) .

(٣) في النسخة ب (وأن يراد البعث) .

(٤) **قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام**

يدل قوله {من عمل صالحا} أن للمكلف فعلا ، وأنه مختار يقدر على الشر والخير ، ويدل قوله {وما ربك

ثم إعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى: ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ ومعناه: أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة، فكأنّ سائلا قال: ومتى يكون هذا اليوم؟ فقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: القيامة إذا سأل عنها أحد رُدّ العلم إلى الله تعالى، ومعنى ذلك: أنه لا يعلمها أحد إلا هو، قيل: إن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الساعة؟ فنزلت.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ جمع كم بكسر الكاف: أغشيات الثمرة، التي تكون فيها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: يعلم ذلك كله، ولا يحدث شئ من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع إلا وهو عالم به[1]، يعلم عدد أيام الحمل وساعاته، وأحواله، من الخداج والتمام، والذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، ونحو ذلك.

بظلام للعبيد} أنه لا يعذب أحدا بذنب غيره، ولا يخلق الكفر، ولا يمنع من الإيمان إذ لا ظلم أعظم من أن يخلق الكفر فيه، ويمنعه من الإيمان، ولا يعطيه قدرة للإيمان، ثم يعذبه على ذلك أبدا، وتدل الآية أن وقت القيامة من معلومه. ويدل قوله {وما أظن الساعة قائمة} على بطلان قول أصحاب الإلهام والمعارف، وتدل على أن اليأس والقنوط عادة الكفار، والجاهل بالله تعالى، وتدل الآية على أن الواجب على العبد عند النعمة الشكر، وإضافتها إلى الله تعالى، وعند المحنة انتظار الفرج، وفيه تحذير من القنوط، وفي الخبر عن النبي ﷺ (انتظار الفرج عبادة) ويدل قوله {وما أظن} أن الجاهل في الدين لا يعذر، وتدل على أن أحوال النعم في الدنيا والمحن يعتبر به أحوال الآخرة، فكم من ملك ذي نعم يومئذ معذب، وكم من ممتحن وفقير يومئذ مثاب منعم.

(١) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف: قوله: ولا يحدث شئ من خروج ثمرة، ولا حمل حامل.. الخ. قال: جعل ما في {ما يخرج} نافية، ومن في {من ثمرات} بيانية، والمبين مضمر، ثم أخذ القدر المشترك بين الأفعال الثلاثة، أعنى تخرج وتحمل، وتضع، وجعله أصلا في الاعتبار، وعبر عنه بيحدث شئ، ثم عمد إلى مصادر الأفعال، وجعلها تفصيلا لذلك المجمل، وعطف بعضها على بعض ليستتب له الاستثناء، بقوله: إلا بعلمه. عن المذكورات كلها، فلا يختص بواحد، لاستقامة المعنى. وقال أبو البقاء: ما في {ما تحمل} نافية لأنه عطف عليها {ولا تضع} ثم نقض النفي بإلا، ولو كانت بمعنى الذي معطوفة على الساعة لم يستقم ذلك، وأما قوله: {وما تخرج من ثمرة} فيجوز أن تكون ما فيه بمعنى الذي، والأقوى كونها نافية. والخداج: إلقاء الولد قبل تمام الأيام وإن كان تام الخلق.

ثم إنــه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشئ من أحوال يوم القيامة ، وهذا الذي ذكره هنا شديد التعلق أيضا بما وقع الابتداء به في أول السورة ، ومعناه : أن محمدا ﷺ كــان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة من الأصنام والأوثان ، فذكر في خاتمة هذه الســورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد ، فقال تعالى :﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي : الكفــار يــناديهم تهكمــا فيقول :﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ ﴾ أعلمناك ، أي : أخبرناك وأقررنا لك ، والأصل في الإيذان هو الإعلام والإخبار ، قال الشاعر :

آذنتـــنا ببيـــنها أسمـــاء [رب ثاو قد مل منه الثواء]

يريد : أعلمتنا برحيلها ، وقال آخر :

وآذنتك غداة البين إذ رحلت ســلمى وجاراتهــا البيض

أي : أخبرتك ، كذا ذكره الحسين بن القاسم عليهما السلام في تفسيره .

ومعـــنى قوله :﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أي : ما منا أحد اليوم يشهد بأنهم شركاء ؛ لأنا قد أبصرنا وسمعنا ، فكلنا موحد اليوم ، أي : ما منا من أحد يشاهدهم ؛ لأنهم ضــلوا عنهم ، وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ ، وهو معنى قوله تعالى :﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ ﴾ أي : يعبدون ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : في الدنيا وقيل : هو كلام الشركاء ، أي : ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة ومعنى ضلاله عنهم ــ على هذا المعنى ــ : أنهم لا ينفعونهم فكأنهم ضلوا عنهم .

ثم قال :﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ معناه : أيقنوا ، إذ المحيص : المهرب ، وهذا ابــتداء كلام من الله تعالى ، يقول : إن الكفار ظنوا ، أي : علموا وأيقنوا ﴿ ماهم من محيص ﴾ عن النار والعذاب .

ولمــا بــين الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله تعالى في الدنيا ، تبرأوا من تلك الشركاء في الآخرة ــ بــين أن الإنسان في جميع الأوقات ، متبدل الأحوال ، متغير المنهج ، فإن أحس بخير وقــدرة انــتفخ وتعظم ، وإن أحس ببلاء ومحنة ذبل ، كما قيل في المثل : (إن هذا

كالقرلاء إن رأى خيرا تدلى ، أورأى شرا تولى) فقال تعالى : ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ ﴾ أي : لايفتر ولايمل ﴿ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أي : من طلب السعة في المال والنعمة ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي : ضيق العيش والفقر ﴿ فَيَئُوسٌ ﴾ من روح الله ﴿ قَنُوطٌ ﴾ من رحمته ، وفي قوله : ﴿ يؤس قنوط ﴾ مبالغة من وجهين ، أحدهما : من طريق بناء فعول ، والثاني : من طريق التكرير ، واليأس : صفة للقلب ، والقنط: أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، وهذه صفة الكافر

ثم بين تعالى أن هذه الذي صار آيسا قانطا لو عاودته النعمة والدولة ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي : خيرا ـ عافية وغنى ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ معناه : أقسم لأن فرجنا عنه بصحة بعد مرض ، أو سعة بعد ضيق ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ أي : هذا حق وصل إلي ؛ لأني أستوجبه بما عندي من خير وفضل ، ولا يعلم المسكين أن أحدا لايستحق على الله شيئا ، وذلك لأنه إذا كان ذلك الشخص عاريا عن الفضائل ، فهذا الكلام ظاهر الفساد ، وإن كان موصوفا بشئ من الفضائل والصفات الحميدة فهي بأسرها إنما حصلت له بفضل الله تعالى وإحسانه ، وإذا تفضل الله بشئ على بعض عبيده امتنع أن يصير تفضله عليه بتلك العطية سببا لأن يستحق على الله شيئا آخر ، فثبت بهذا فساد قوله : إنه إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاقي .

أو معناه : هذا لي ، لايزول عني ، ويبقى عليَّ وعلى أولادي ، يعني : أنه يكون شديد الرغبة في الدنيا ، عظيم النفرة عن الآخرة ، فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا يقول : إنها لي ، وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول كما حكى الله عنه ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي : ما أظنها تقوم ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي ﴾ أي : وإن قامت وكانت على طريق التوهم ﴿ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ أي : الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة ، قياسا لأمر الآخرة على أمر الدنيا ، واستعظاما لنفسه ، قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة .

ولما حكى الله عنهم هذا ، قال عز وجل :﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : نخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من الأعمال الموجبة للعذاب ، إن الأمر على ضد ما اعتقدوه ، وعلى عكس ما تصوروه ، كما قال :﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾[1] وقوله تعالى :﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ في مقابلة قولهم :﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ عكس ماظنوه .

ولما حكى الله تعالى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات ، حكى أفعاله أيضا فقال سبحانه :﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ ﴾ هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان ، إذا أصابه الله بنعمة أبطرته ، وكأنه لم يلق بؤسا قط ، فنسي المنعم ، وأعرض عن شكره ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ نأى : بمعنى بَعُدَ ، بهمزة قبل الألف ، وقرأ ابن عامر : (ونآء) بألف قبل الهمزة ، بوزن : شاء ، وهو مقلوب ﴿ نأى ﴾[2] .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه بَعُدَ وأعرض بشقه ، وفيه تقديم وتأخير ، والمعنى فيه : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض بجانبه ونأى . اهـ

وأراد ﴿ بجانبه﴾ عطفه ، ويكون عبارة عن الانحراف تكبرا ، كثَنَى عطْفَه ، وتولَّى بركنه ، أي : ذهب بنفسه ، وتكبر ، وتعظم ، أو أراد ﴿ بجانبه﴾ بَعُدَ بنفسه، وضَعَ جانبه وضْعَ نفسه وذاته ، كقوله :﴿على مافرطت في جنب الله﴾[3] كناية عن الشيء بمكانه ومجلسه ، ومنه قول الكتاب : إلى حضرة فلان ، وجانبه العزيز، أي : نفسه .

---

(١) الفرقان : ٢٣ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام

يدل أول الآيات على أن لله تعالى على الكفار نعمة يجب شكرها ، خلاف قول المجبرة ، وتدل على وجوب شكر النعمة ، والعمل بمقتضاها ، وتدل على أن الإعراض والدعاء فعل العبد ، لذلك أضافه إليه ، ووبخه عليه ، ويدل قوله {سنريهم} على وجوب التفكر في آيات الله ، وأنه طريق معرفته ، ومعرفة صفاته وأفعاله .

(٣) الزمر : ٥٦ .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ كالمرض والفقر ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه بالتضرع والذكر عند الشر ، وهو من صفة الأجرام ، ويستعار له الطول أيضا ، كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك ، وبين أن المشركين يرجعون عن القول بالشرك في يوم القيامة ، ويظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم ، وبين أن الإنسان جُبِلَ على التبدُّل ، فإن وجد لنفسه قوة بالغ في التكبر والتَّعَظُّمِ ، وإن أحس بالفتور والضعف بالغ في إظاهر الذلة والمسكنة ذكر عقيبه كلاما آخر يوجب على هؤلاء الكفار أن لايبالغوا في إظهار النفرة من قبول التوحيد ، وأن لايفرطوا في إظهار العداوة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ يامحمد ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي : أخبروني ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ بعد ذلك ، يعني : أنما أتيتم من إنكار القرآن ليس بحجة ، وإنما هو قبل النظر ، ومن حق الإنكار أن يكون بعد النظر ، وأنتم أنكرتم ولم تنظروا ، فما يؤمنكم من الخطأ في إنكار ما يجوز أنه حق ، وقد كفرتم به .

ثم قال : ﴿ مَنْ أَضَلُّ ﴾ أي : لا أضل ﴿ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : خصام ومعاداة وخلاف للحق ﴿ بعيد ﴾ عن الصواب .والمعنى : أنتم كذلك ، أي : من أضل منكم! .

ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة في تقرير التوحيد والنبوة ، وأجاب عن شبهات المتكبرين ، وتمويهات الضالين قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ﴾ دلائل صدقه مما يسر الله لرسوله ، وللأئمة من بعده ، ودعاة دينه .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : الآفاق : الأقطار ، والجوانب من السماء والأرض ، قال الشاعر : وقد نقبت في الآفاق حتى

يريد أنه سار ودار في الأقطار والبلاد وجوانبها . اهـ

وفي التجريد : الآفاق : أطراف الدنيا ، وهو ما ظهر من فشو الإسلام ، وفتوحه في المشرق والمغرب ، وعلى ملك كسرى وقيصر وتبع ، وسائر البلاد في وقت رسوله ، ومن بعده ، والإخبار بذلك من الغيوب التي جاءت كما أخبر ووصف .

ثم قال :﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [أي : في ساحة العرب وناحيتها خاصة ، كفتح مكة وسائر جزيرة العرب ، وقيل :](١)كونهم نطفا ، ثم علقا ، ثم مضغا ، ثم عظاما ، ثم لحما ، أحياء إلى غير ذلك ، وقيل : في أنفسهم آيات الأرض ، وفي الآفاق : آيات السماء ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ أي : يتبين لمن كان حيا منهم أن القرآن وما جاء به من شرائع الإسلام هو الحق ، وذلك من تغليب القليل الضعفاء ، وهم المسلمون على الملوك ؛ لأن فيه تصديق وعد الله بنصر رسوله ، وهو من الغيب الذي أخبر به ، فكان كما أخبر ، وهذا قول الحسن ، والسدي ، ومجاهد ، وقال قتادة :﴿ في الآفاق ﴾ وقائع الله في الأمم الخالية ، يريهم منازلهم خالية هالكة ليعتبروا ﴿ وفي أنفسهم ﴾ يوم بدر ، قال ابن زيد :﴿ في الآفاق ﴾ آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم ﴿ وفي أنفسهم ﴾ ما يكون في أجسادهم من الخلق البديع ، نحو كونهم نطفا إلى آخره ، ومن ذلك ما مدخل الطعام والشراب واحد ، ثم يخرج من مكانين ، ومن ذلك الأمراض والآفات إلى غير ذلك من الدلائل المأخوذة من كيفية تكوين الأجنة في ظلمات الأرحام ، وحدوث الأعضاء العجيبة ، والتركيبات الغريبة، كما قال تعالى :﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ يعني : يريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى ، إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ، ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله العالم الحكيم ، المنزه عن المثل والضد .

قال الرازي : فإن قيل : هذا الوجه ضعيف ؛ لأن قوله تعالى :﴿ سنريهم ﴾

---

(١) ما بين القوسين غير موجود هنا في النسخة أ ، وهو موجود مؤخرا بعد قوله : أحياء إلى غير ذلك ، وهو موجود في النسخة ب ، هكذا . وقد اعتمدنا النسخة ب ؛ لأنه القول الذي يناسب ما تقدم .

يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن ، وسيطلعهم عليها بعد ذلك ، والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك ، فثبت أنه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه ؟! .

قلنا : إن القوم وأن كانوا قد رأوا هذه الأشياء ، إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى في هذه الأشياء مما لانهاية لها ، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زمانا فزمانا ، ومثاله كل أحد رأى بنية الإنسان وشاهدها ، إلا أن العجائب التي أبدعها الله تعالى في تركيب هذه البدن كثيرة ، وأكثر الناس لايعرفونها ، والذي وقف على شئ منها ، فكلما ازداد تفكرا ازداد وقوفا على تلك العجائب والغرائب ، فصح بهذا الطريق قوله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾[1] . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ ﴿ بربك ﴾ فاعل ﴿ يكف ﴾ والباء زائدة ، والمعنى : أو لم يكف ربك .

وقوله : ﴿ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بدل من قوله : ﴿ بربك ﴾ أو بيان له ، أي : أو لم يكفهم أن ربك على كل شئ شهيد ، وقيل : التقدير أو لم يكفهم ربك ؛ لأنه على كل شئ شهيد ، أي : مُطَّلِع يستوي غيبه وشهادته ، فيكفيهم دليلا على أنه حق ، وأنه من عنده ، أي : سنريهم هذا الموعود لامحالة ، ولو لم يكن حقا لما قوي هذه القوة .

والمعنى : أو لم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة ، التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة ، وفي كل سور القرآن ، الدالة على التوحيد ، والتنزيه ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد .

وقال في البلغة : اليس في الله كفاية في معاقبة هؤلاء الكفار على كفرهم بالله ، وتكذيبهم برسلهم إذ كان عالما بكل شئ ، وشاهدا لكل ما يفعلونه . اهـ

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٣٩/٢٧ .

ثم ختـــم الســـورة بقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي : في شك ﴿ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : لقاء جزائه لهم على أعمالهم ، وقيل : معناه أن القوم في شك عظيم ، وشبهة شديدة من البعث والقيامة .

ثم قـــال تعـــالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ أي : عالم بكل الأشياء ، بجملها وتفاصـــيلها ، وأعمـــالهم من ذلك فلا يخفى عليه خافية منها ، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم ، ويجوز أن يراد بأنه محيط : أنه قادر على كل شئ .

والله أعلم



سورة المؤمن [غافر]

خمس وثمانون آية في الحجازي ، وقيل : ثنتان في البصري ، وأربع في الحجازي والمكي ، وست في الشامي (مكية) قال : وقد قيل : إن كل الحواميم مكية ، والله أعلم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى :﴿ حم ﴾ قد تقدم ما قاله القاسم بن إبراهيم ، والهادي عليهما السلام فيها ونحوها [1]، وحكى جار الله عن الأكثر أنها اسما للسورة منها : ما هو محكي لا يتأتى

---

(١) تقدم في الجزء الثاني سورة الأحقاف ص ٥١١ ، وكذلك في أوائل سورة الشورى فلينظر هناك .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿ ذي الطول ﴾ معناه : ذو الغنى والتفضل .

وقوله تعالى :﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ معناه : مقت الله إياكم في الدنيا كان أكبر من مقتكم أنفسكم إذا عاينتم العذاب .

وقوله تعالى :﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ معناه : كنا أمواتا في أصلاب آبائنا ، ثم أحييتنا ، ثم أمتنا فيها ، ثم أحييتنا في الآخرة ، ومثله ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أمواتا في أصلاب آبائكم ، ثم أحياكم في أرحام أمهاتكم ، وأخرجكم منها ، ثم أماتكم في الدنيا ، ثم أحياكم في الآخرة .

وقوله تعالى :﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ معناه : أقررنا بها . وقوله تعالى :﴿ يلقي الروح من أمره ﴾ معناه : الوحي .

وقوله تعالى :﴿ لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شئ لمن الملك اليوم ﴾ فيوم التلاق : هو يوم القيامة ، حين يلتقي الخلق من الأولين والآخرين ، وقد برزوا من قبورهم ، فيقال لهم : لمن الملك ، وقد تفردتم بأرباب كثيرة ، وآلهة شتى ، فيجيبون أن الملك لله الواحد القهار ، والقول فيه مضمر ، كقوله تعالى :﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا ﴾ وأضمر يقولان : ربنا تقبل منا .

وقوله تعالى :﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ﴾ فالظالمون : الكافرون ، والحميم : القريب .

وقوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ قال : والرجل يكون في القوم ، فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض نظره ، فإذا رأى منهم غفلة ، لحظ إليها ، فإن خاف أن يفطنوا له غض نظره ، فإذا رأى منهم غفلة لحظ إليها ، فإن خاف أن يفطنوا له غض نظره ، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أنه نظر إلى عورتها .

وقوله تعالى : ﴿ إلا في تباب ﴾ معناه : في هلكة .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ﴾ معناه : بغير برهان ولا حجة .

وقوله تعالى : ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ معناه : سفكة الدماء بغير حقها .

وقوله تعالى : ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ معناه : الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ معناه : صاغرون .

وقوله تعالى : ﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ معناه : يجرون . وقوله تعالى : ﴿ وبما كنتم تمرحون ﴾ معناه : تبطرون .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه :

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى قول سيدنا ﴿ وقابل التوب ﴾ أي : قابل العذر من التائبين الراجعين ، قال العالم صلوات الله عليه :

الرزق يبسطه والذنب يغفره والتوب يقبله والوعد يوفيه
لم يقض جورا ولا ظلما ولا عبثا ولا يشاء قبيحا من معاصيه

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ذي الطول ﴾ أي : ذي الغنى والملك ، ومعنى ﴿ تقلبهم في البلاد ﴾ أي : سيرهم وإصعادهم وانحدارهم ، واكتسابهم ، فكل ذلك يزول .

ومعنى ﴿ وهمت كل أمة برسولها ﴾ أي : بحبسه أو قتله ، والهمة : هي الإرادة ، وتوق النفس إلى الشيء قال الشاعر :

إذا كنت هماما فكن ذا عزيمة ولا تك هماما قليل العزائم

ومعنى ﴿ ليدحضوا به الحق ﴾ أي : ليسقطوا به الحق ويزيلوه ، ومعنى ﴿ حقت كلمات ربك على الذين كفروا ﴾ أي : وقعت مواعيده بالعذاب عليهم ، ومعنى ﴿ وسعت كل شئ رحمة وعلما ﴾ السعة هاهنا مَثَل قدرة الله ، وعلمه ، ونفي العجز ، والحسر والضيق منه أي : الفقر ، ومعنى ﴿ إن الذين كفروا ينادون ﴾ أي : يدعون إلى الإيمان ﴿ فتكفرون ﴾ يريد عز وجل أن مقت الله لهم وبغضه أكثر من بغضهم لأنفسهم يوم القيامة ، لأن بغضهم لأنفسهم ذلك اليوم ندامة في قلوبهم حتى يتمنوا الموت والتلف ، وبغض الله عذاب ونكال لأجسامهم ، ومعنى قوله : ﴿ أمتنا اثنتين ﴾ أي : مرتين ، مرة في حال النطوفية ، والثانية في حال القبول .

ومعنى قوله : ﴿ وأحييتنا اثنتين ﴾ أي : مرتين ، مرة في حال الدنيا ، والثانية : في حال البعث والآخرة . ومعنى ﴿ إذا دعي الله وحده كفرتم ﴾ أي : جحدتم وحدانيته ﴿ وإن يشركوا به ﴾ الكفار ﴿ تؤمنوا ﴾ أي : تصدقوا بشركهم ، ومعنى قوله : ﴿ إلا من ينيب ﴾ الإنابة :هي الرجعة ﴿ رفيع الدرجات ﴾ أي : مرتفع القدر ، وهذا مثل لعلم الله وقدرته ، ومعنى ﴿ يلقي الروح ﴾ أي : الوحي ، ومعنى ﴿ يوم التلاق ﴾ هو يوم يلتقي جميع الخلق

﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ أي : حذرهم يوم القيامة القريبة ، يقال : أزف الشيء إذا قرب وحان وقته ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي : عند أعالي الحلوق ، قال الشاعر يصف كرمه ، وعقره لإبله لضيفه :

فيعرفن حولاتي إذا ما رأينني فتغصص بالجرات دون الحناجر

ومعنى ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ هذا وقف ، ومعنى ﴿ما للظالمين﴾ أي : ليس لهم ﴿حميم﴾ الحميم : هو الحبيب والقريب ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

وذابلة الرماح تغل فيكم إذا صد الحميم عن الحميم

أي : أعرض الحبيب عن الحبيب ، وإنما سمى الله عز وجل الحميم حميما ؛ لأنه يحتمي على صاحبه ، ويحترق لاحتراقه ، ويغتاظ لغيظه ، ويغتم لغمه ، والحما : هو الحرارة في اللغة ، ومعنى ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ يقول عز وجل : إنه سبحانه يدرك ويعلم خائنة لحاظ أعين الفاسقين ، ونظرهم إلى ما ينظرون ؛ لأن الفاسق ينظر إلى ما حرم الله بعينه ، ويكسر تارة فخوانه طعنا وتلهيا بالناس ، وظلما ، وتارة يخون بعينه دينه الذي هو أمانة الله في رقبته بالنظر إلى العورات ، واللمح للمحظورات المحرمات ، والمؤمن إذا نظر اعتبر ، وإذا صمت فكر ، وإذا تكلم ذكر وأنذر من عذاب الله سبحانه .

ومعنى ﴿رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ قيل : إن هذا تقديم وتأخير ، والمعنى فيه : رجل مؤمن يكتم من آل فرعون ، ويمكن أيضا أنه من آل فرعون ، والله أعلم وأحكم .

ومعنى ﴿يوم التنادي﴾ أي : النداء ، والنداء : هو الصياح والعويل والدعاء ، وغير ذلك من القول .

ومعنى ﴿من عاصم﴾ أي : مانع . ومعنى ﴿صرحا﴾ أي : قصرا ، ومعنى ﴿لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات﴾ هذا تلعب منه عند إخوانه ، وهزأ وتمرد بذكر موسى عند إخوانه . ومعنى ﴿قصد السبيل﴾ أي : إعراض عن الدين ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ أي : في هلاك ، قال الشاعر :

أرى طول الحياة وإن تأتى تُصَيِّر ، الأمور إلى تباب

وكل الموسعين وإن أفادوا وغير ا وسعين إلى ذهاب

والتباب : هو الهلاك . والسعة : هي الغنى والجدة ، ومعنى ﴿دار القرار﴾ أي : المقام ، ومعنى ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي : القي أمري ونفسي إلى الله ، وأتوكل عليه .

قوله : ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ ليس في الآخرة غدو ولا عشي ، إنما هو مقادير أيام الدنيا ، يعرضون بقدر مدخل الليل والنهار . ومعنى ﴿ما مكروا﴾ أي : ما احتالوا ، والمكر : هو الحيلة الباطنة ، والأشهاد : هم الشهود ، ومعنى ﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ أي : ما هم بواصلين إليه ، وكيف يصل إلى العزة والكبرياء من هو مشرف على الموت والبلى ، ومعنى ﴿داخرين﴾ أي : صاغرين .

ومعنى ﴿يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ أي : يصرفون ﴿ثم في النار يسجرون﴾ أي : يوقدون ويحرقون [بياض في الأصل] ....

فيه إعراب ، ومنها : ما يجوز فيه الأمران ، الإعراب والحكاية ، قال قاتل محمد بن طلحة[1] السجاد ، وهو شريح بن أوفى العنسي :

وأشعث قوام بآيات — قليل الأذى فيما ترى العين

شككت له بالرمح جيب — فخر صريعا لليدين

على غير شئ غير أن ليس — عليا ومن لا يتبع الحق

يذكرني حاميم والرمح شاجر — فهلا تلا حاميم قبل

فأعرب حاميم ، ومنعها الصرف .

قال في التجريد : وفي تفسير ابن الجوزي في ﴿حم﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أنه قسم أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، وروي عن ابن عباس قيل : وجوابه ﴿إن الذين كفروا ينادون﴾ .

والثاني : أنهما حرفان من أسماء الله ، ثم على هذا ثلاثة أقوال .

أحدها : أن (الر) و(حم) و(ن) حروف الرحمن ، ورواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أن الحاء مفتاح اسمه حميد ، والميم مفتاح اسمه مجيد ، قاله أبو العالية .

والثالث : أن الحاء مفتاح كل اسم ابتداؤه حا ، مثل حكيم ، وحليم ، وحي . والميم مفتاح كل اسم ابتداؤه ميم ، مثل ملك ، ومتكبر ، ومجيد ، وروي عن عطاء الخراساني . والثالث : أن معنى ﴿حم﴾ قضى ما هو كائن ، وروي عن ابن عباس ، كأنه أراد الإشارة إلى حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم ، قال الزجاج : وقد قيل في ﴿حم﴾ : حُمَّ الأمر .

ومعنى ﴿تمرحون﴾ أي : تلعبون وتأشرون ، ومعنى ﴿منهم من قصصنا عليك﴾ أي : أخبرناك ، والقصة : هي الخبر ، ومعنى ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ أي : علم مأكل الدنيا ، واستنباط خدمتها وحطامها ، وزهدوا في العلم الذي يدل على الله عز وجل ، ومعنى ﴿سنة الله التي قد خلت﴾ أي : حكم الله وشريعته التي قد مضت .

(١) محمد بن طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي ، قيل : صحابي ، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قتل يوم الجمل مع عائشة سنة ٣٦هـ انظر الأعلام ١٧٥/٦ الإصابة ترجمة ٧٧٨٣ .

والرابع : اسما من أسماء القرآن قاله قتادة . اهـ

قـلت : [1] وإلى هذا الأقوال ونحوها أشار القاسم عليه‌السلام في قوله الذي سيأتي إن شاء الله في سورة مريم ؛ لأن قوله وقول سبطه الهادي إلى الحق عليهما‌السلام في هذا ونحوه من الحروف إنها حروف تولى الله علمها لم يبينها لأحد من خلقه إذ ليس فيها أمر ولا نهي ، ولا فرض ، ولا أمر تعبد به عباده فيحتاجون إلى معرفته ، وسيأتي كلامهما إن شاء الله تعالى بلفظه في موضعه .

ثم قال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ أي : القرآن ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ أخبر أنه تنزيل من الله لا من غيره ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ القاهر القادر على كل شئ ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بكل معلوم ، ومنه تنزيل الكتاب مصلحة للعباد .

واعلم أنه تعالى لما ذكر ﴿ حم تنزيل الكتاب ﴾ وجب بيان أن المنَزِّلَ من هو ؟ فقال : ﴿ من الله ﴾ ثم بين الله سبحانه أنه موصوف بصفات الجلال ، وسمات العظمة ليصير ذلك حاملا على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع ، ومزجرة عن التهاون والتواني فيه ، فبين تعالى أن المنزل هو الله العزيز العليم ، والعزيز له تفسيران ، أحدهما : الغالب ، فيكون معناه القادر الذي لا يساويه أحد في القدرة ، والثاني : الذي لا مثل له ، ولا يجوز أن يكون المراد بالعزيز هاهنا القادر ؛ لأن قوله

---

١) ـ في النسخة ب زيادة على هذا اللفظ المثبت في أ ، والذي أشار إليه أنه في سورة مريم ، والنص في ب [قلت : وإلى هذا الأقوال ونحوها أشار القاسم عليه السلام حيث قال : إنه قد تكلم متكلمون ، وخبط خابطون بغير معرفة ولا بصيرة نافذة ؛ تَكَمُّهاً منهم وعمى ، فأنكرنا ذلك من فعلهم ، وكرهنا من عملهم ، فخشينا إن فسرنا أن نقع فيما كرهنا ، ونصير إلى ما أنكرنا ، فتركنا المنكر عندنا لما بان من الصواب لدينا عن غيره ، ولو أطلع عليها نبيئه لأطلع عليها وصيه ، ولو أطلع عليها وصيه إذا لعرفها أهل بيته ، فلما أن لم يوجد ذلك مفسرا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا اللغة المستدل بها علمنا أن هذا الأحرف أحرف لم يكلف الله تفسيرها إذ ترك إطلاع نبيئه عليها . اهـ

لأن قوله وقول سبطه الهادي إلى الحق عليهما السلام في هذا ونحوه من الحروف : إنها حروف تولى الله علمها لم يبينها لأحد من خلقه ، إذ ليس فيها أمر ولا نهي ، ولا فرض ولا أمر تعبد به عباده فيحتاجون إلى معرفته ، وسيأتي إن شاء الله بلفظه في موضعه ، ثم قال تعالى :] الخ ما في النسخة أ .

[تعالى]: ﴿الله﴾ يدل على كونه قادرا ، فوجب حمل العزيز على المعنى الثاني ، وهو الـــذي لا يوجد لـــه مثل ، وما كان كذلك وجب أن لا يكون جسما ، والذي لا يكـــون جسما يكون منزها عن الشهوة والنفرة ، والذي يكون كذلك يكون منزها عن الحاجة .

وأمـــا العليم : فهو مبالغة في العلم [١] والمبالغة التامة إنما تتحقق عند كونه تعالى عالمـــا بكل المعلومات ، فقوله : ﴿من الله العزيز العليم﴾ يرجع معناه إلى أن هذا الكـــتاب تنزيـــل من القادر المطلق ، الغني المطلق ، العالم المطلق ، ومن كان كذلك كـــان عالما بوجوه المصالح والمفاسد ، وكان عالما بكونه غنيا عن جر المصالح ودفع المفاســـد ، ومن كان كذلك كان رحيما [جوادا]، وكانت أفعاله حكمة وصوابا ، منزهـــة عن القبيح والباطل ، فكأنه سبحانه إنما ذكر عقيب قوله :﴿تنزيل﴾ هذه الأسمـــاء الثلاثة ، لكونها دالة على أن أفعاله [سبحانه]حكمة وصواب ، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقا وصوابا [٢]،والله أعلم.

ثم وصـــف تعـــالى نفسه بما يجمع الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فقال : ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾أي : العذر [٣] من التائبين الراجعين ، والتوب : جمع توبة ، وهي الرجوع إلى الطاعة ، مثل تمر وتمرة ، ويجوز أن يكون مصدرا من تاب يتوب توبا .

ثم قال :﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾أي : شديد عقابه لمن أصر ولم يتب [٤] .

---

١) ـــ هو بهذا اللفظ (مبالغة في العلم) في النسخة أ ، و " ب " وهو كذلك في تفسير الرازي بهذا اللفظ ٢٦/٢٧.

(٢) من قوله :"واعلم أنه تعالى لما ذكر ﴿حم تنزيل الكتاب﴾ إلى هنا مثله في الرازي ٢٦/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٣) فهـــو على هذا مصدر ، وهو قول أبي عبيدة ، وقوله : والتوب جمع توبة هو قول الأخفش ، قال المبرد : يجوز أن يكـــون مصدرا يقال : تاب يتوب توبا وتوبة ، مثل قال يقول قولا وقولة ، ويجوز أن يكون جمعا لتوبة ، فيكون توبة وتوب مثل تمرة وتمر ، إلا أن المصدر أقرب ؛ لأن على هذا التقدير يكون تأويله أنه يقبل هذا الفعل .

(٤) في هـــذه الآيـــة سؤال ، وهو أن قوله :﴿شديد العقاب﴾ يصلح أن يكون نعتا للنكرة ، ولا يصلح أن يكـــون نعتا للمعرفة تقول : مررت برجل شديد البطش ، ولا تقول : مررت بعبد الله شديد البطش ، ولفظ

ثم قال تعالى : ﴿ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ الطول ـــ بفتح الطاء ـــ :

الجلالة اسم علم معرفة ، فكيف جاز وصفه بكونه شديد العقاب مع أنه لا يصلح إلا أن يجعل وصفا للنكرة ، قالوا : وهذا بخلاف قولنا غافر الذنب ، وقابل التوب لأن ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين ، وأنه يغفر الذنب ويقبل التوبة الآن أو غدا ، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه ، فكان حكمهما حكم إله الخلق ، ورب العرش أي أنهما معرفتان ، وأما ﴿ شديد العقاب ﴾ فمشكل لأنه في تقدير شديد عقابه ، فيكون نكرة فلا يصح جعله صفة للمعرفة ، وقد أجيب عنه بوجوه :

الأول : أن هذه الصفة وإن كانت نكرة إلا أنها لما ذكرت مع سائر الصفات التي هي معارف حسن ذكرها كما في قوله : ﴿ وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد ﴾

والثاني : قال الزجاج : إن خفض شديد العقاب على البدل ؛ لأن جعل النكرة بدلا من المعرفة وبالعكس أمر جائز ، واعترضوا عليه بأن جعله وحده بدلا من الصفات فيه نبوة ظاهرة .

والثالث : أنه لا نزاع في أن قوله : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ يحسن جعلهما صفة ، وإنما كان كذلك لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار ، فكذلك قوله : ﴿ شديد العقاب ﴾ يفيد معنى الدوام والاستمرار ، وغير موصوف بأنه حصل بعد أن لم يكن ، فصح أن يكون صفة . وانظر الرازي ٢٧/٢٨ .

وقال الزمخشري رحمه الله في كشافه : ويجوز أن يقال : قد تعمد تنكيره وإبهامه للدلالة على فرط الشدة ، وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمَرّ لزيادة الإنذار ، ويجوز أن يقال : هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال . الكشاف ١٥١/٤.

قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : قوله :(وأما شديد العقاب فأمره مشكل) إنما أشكل لأنه من قبيل إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، وإضافتها لا تكون إلا لفظية لأنها عاملة أبدا بخلاف اسم الفاعل ، فإن إضافته إنما تكون لفظية إذا كان بمعنى الحال ، أو الاستقبال لأنه حينئذ عامل أبدا بخلاف اسم الفاعل فإن إضافته إنما تكون لفظية إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال ؛ لأنه حينئذ عامل ، وقال ابن الحاجب في الأمالي : لأن إضافته غير محضة على حال لأنه صفة مشبهة ، فلا يفرق بين ماضيه وغيره بخلاف اسم الفاعل ، وقال أيضا في هذه الصفات إشكال آخر ، وهو قوله: (ذي الطول) فإنه معرفة فلا يحسن أن يكون صفة لقوله ﴿ من الله ﴾ لأنك فصلت بينه وبينه بالبدل ، ولا يحسن أن يكون صفة للبدل لأنه نكرة ، وذي الطول معرفة ، فالأولى أن يقال : هو بدل ثان من البدل الأول ، فكأنه قال : من الله العزيز العليم ، من رب غافر الذنب ، من الله ذي الطول ، وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون شديد بمعنى مشدد ، كما جاء أذين بمعنى مؤذن ، فتكون الإضافة محضة ، وقال صاحب الفرائد : يمكن أن يقال : لما كان القائل بالنظر إلى أنه شئ له القبول ، لا بالنظر إلى أنه عامل صلح أن يكون صفة له بالإضافة إلى التوبة ، وكان معرفة ـــ فيصلح أن يكون شديد من حيث أنه شئ له الشدة ، لا بالنظر إلى أنه عامل صفة له بالإضافة إلى العقاب ، فعلى هذا يكون شديد معرفة كما أنهما معرفتان فليتأمل .

الفضل والزيادة ، قال الكلبي : ذي الفضل على عباده ، والمن عليهم ، يقال : طال علينا طولا ،أي : تفضل علينا تفضلا ، ومن كلامهم : طل علي بفضلك ، ومنه قوله : ﴿أولوا الطول منهم﴾[1] وقال مجاهد : ذي السعة والغناء .

ثم وصف نفسه بالتوحيد المطلق ، وهو قوله :﴿لا إله إلا هو﴾ فوصف نفسه بصفات الرحمة والفضل ، وكونه واحدا ليس له شريك وشبيه ، فكان الترغيب والترهيب الكاملين يحصل بسبب هذا التوحيد .

ثم قوله عز وجل :﴿إليه المصير﴾ صفة أيضا مما تقوي الرغبة في الإقرار بعبوديته ، وكان الخوف الشديد حاصلا من عصيانه ، ولما كان القول بالحشر والقيامة حاصلا كان الخوف أشد ، والحذر أكمل ، فلهذا السبب ذكر الله هذا الصفات.

واعلم أنه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب أنزله ليهتدى به ، أخبر سبحانه عمن يجادل في آياته ودلائله فقال :﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أراد الجدال بالباطل ، وتضعيف دليل الحق ، قصدا إلى إدحاضه ، فأما الجدال لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ورد أهل الزيغ والبدع ، فأعظم جهاد في سبيل الله تعالى .

ثم قال سبحانه :﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ يعني : لا ينبغي أن تغتر بأني أمهلتهم ، وتركتهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتقلبون في البلاد ، أي : يتصرفون فيها بالتجارات ، وحصول الأرباح ، والسلامة في التصرفات فهي زائلة ، ومصيرهم إلى النار ، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن بالأموال ، ويتجرون ، والمعنى : فأني وإن أمهلتهم فإني سآخذهم وأنتقم منهم ، كما فعلت بأشكالهم من الأمم الماضية .

ثم كشف عن هذا المعنى فقال تعالى :﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ والأحزاب : هم الذين تحزبوا على الرسل ، أي : تجمعوا ، وهم عاد

---

(١) انظر البرهان مخطوط ص ٣٣٨ ، ومعنى هذا أن الفاعل واو جماعة الرجال ، وقد أصلحنا اللفظ من البرهان ، فإن اللفظ في المصابيح (ذهب إلى رحال) وفي البرهان (ذهب إلى الرجال) .

وثمـود وفرعون وغيرهم ، ضرب هذا مثلا لتكذيبهم وعداوتهم ، ليحذرهم من مثل سـوء عاقبة أولئك ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ ذهب إلى الرجال [(١)] وفي حرف عبد الله (إلى رسولها) قاله في البرهان .

أي : عـزمت كـل أمة من هؤلاء الأحزاب أن يأخذوا رسولهم ؛ ليتمكنوا من الإيقاع به ليقتلوه ، أو يحبسوه ، أو يعذبوه ، يقال للأسير : أخيذ ، حكاه ابن قتيبة ، والهِمَّةُ : هي الإرادة ، وتوق النفس إلى الشيء ، قال الشاعر :

إذا كـنت هماما فكن ذا عزيمة ولا تـك همامـا قليل العزائم

ثم قـال :﴿ وَجَـادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا ﴾ أي : يذهبوا ويبطلوا ﴿ به ﴾ ، أي : بباطلهم ﴿ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي : أرادوا أخذه فأخذتهم وأهلكتهم بالعذاب ﴿ فَكَيْفَ كَـانَ عِقَـابِ ﴾ أي : عقابي لهم ، فإنكم تمرون على بلادهم ، فتعاينون أَثَرَ ذلك ، وهذا سؤال معناه التقرير والتعجب من حالهم ، فأنا أفعل بقومك ما فعلت بهؤلاء إن أصروا على الكفر والجدال في آيات الله .

ثم كشف عن هذا المعنى فقال :﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : ومثل ما حق على الأمم المكذبة ﴿ حَقَّتْ ﴾ أي : وجبت ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من قومك ، وهم قريش : أن وقعت مواعيده بالعذاب عليهم ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي : كما وجب إهلاك أولـئك الأمم كذلك وجب إهلاك هؤلاء ؛ لأن العلة واحدة وتجمعهم ــ أنهم من أصحاب النار ، أي : من الذين يلازمونها بخلودهم فيها .

ويحـتمل أن يكـون ﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ مرفوعا بدلا من ﴿ كلمات ربك ﴾ ومعـناه : كمـا وجـب هلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل ــ كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة .

---

١) معـناه : ذهب إلى تذكير وجمع الضمير العائد إلى أمة ، إلى معنى الأمة ، وكان معناها الرجال ؛ لأن الذين يتصدرون من كل أمة للتكذيب يكونون في الغالب هم الرجال من تلك الأمة . ودل عليه ما بعده ، وهو قوله : وفي حرف عبد الله (إلى رسولها) أي أنه عاد إلى لفظ الأمة .

ثم اعلم أنه تعالى لما بين أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين ـــ بين أن أشـــرف طبقات المخلوقين ـــ وهم الملائكة الذين هم حملة العرش ، والحافون حول العرش ـــ يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَـــنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ العرش : فهو المُلْكُ ، وحملهم للمُلْكِ : فهو قيامهم فيه بما يؤمرون به من أوامر الله عز وجل .

قـــال في الـــتجريد : أما العرش فلا يكتنه كنهه ، وقد وصفه الله بالعظيم والكريم ، والمجيد ، وقيل : خلق الله العرش من جوهرة خضراء ، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطائـــر المسرع ثمانين ألف عام ، والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف حلة من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله ، والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة .

وأمـــا حملـــته فقد قيل : إن حملة العرش أربعة أملاك ، فإذا كان يوم القيامة أمدوا بأربعـــة آخرين ، فصاروا ثمانية ، إلى غير ذلك مما قالوا في صفته وصفة حملته ، ذكر ذلك الثعلبي ، وكذا في الكشاف .

قـــلت : وللقاسم عليه السلام فيما قالوه من صفة العرش كلام بسيط ذكر فيه بطلان ما زعموه من حقيقته ، ولم يُثْبت شيئا مما رووه في صفته ، وإنما العرش عنده ، وعند قدماء أئمتنا عليهم السلام عبارة عن عز الله تعالى وملكه ، ومعنى حمل الملائكة له : أنهم يتحملون أوامر الله سبحانه في خلقه ، بما شاء ، وكيف شاء ، من الحساب والعقاب ، وغير ذلك .

قال الهادي إلى الحق عليه السلام : العرش ، والكرسي ، والقبضة ، والبطش ، والإتيان ، والمجـــيء ، والصراط ، والكتاب ، والميزان ، والكشف عن ساق ، واليدان ، والقبض ، والبســـط ، والوجـــه ، والحجاب ، أمثال كلها [لا يضاف شئ منها إلى صفات البشر فمن أضاف شيئا منها إلى صفات الخلق فقد كفر] وإنما هذا الصفات من أمثال القرآن ،

وهـــو قوـــله : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[1] وقد ذكر الله الأمـــثال في كـــثير من القرآن ، فنقول : إن المعنى في العرش والكرسي والوجه ـ سواء ليـــس بينهما فرق ، والمعنى فيها واحد ، وليس نقول : إن ثم عرشا مخلوقا ، ولا كرسيا مخـــلوقا ، ولا وجها مخلوقا ، وليس شئ من هذا الثلاثة الأمثال ، العرش ، والكرسي ، والوجه يوجد أبدا بصفة من الصفات ، ولا بحيلة من الحيلات .

فإن قال قائل : ما معنى العرش الذي ذكره الله في كتابه ؟ .

قلنا له : اسم يدل على الله في ارتفاعه وعلوه فوق خلقه ، من أهل سماواته وأرضه ، فإن قال لنا : ما الكرسي الذي ذكره الله في كتابه ؟ قلنا له : اسم يحكي عن صفات الله في ذاته .

فـــإن قال : وكيف صفات الله في ذاته ؟ قلنا له : الكرسي يدل على الله ، وهو اسم مـــن أسمـــاء ملك الله ، وليس ثم شئ سوى الله ، ومعنى ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾[2] : أنـــه هو وسع السموات والأرض بكرسيه ، ومعنى وسع السموات والأرض بكرســـيه ، أي : وسع السموات والأرض بعلوه واقتهاره ، ألا تسمع إلى قوله : ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾[3] يريد سبحانه أن السموات والأرض لا يحفظانه ، يخـــبر أنهما لا يمسكانه ، وكيف يمسكانه أو يحفظانه عز وجل ، وهو يخبر أنه خارج منهما ، محيط بأقطارهما ، واصلٌ من ورائهما ووراء ورائهما إلى مالا يصل إليه غيره عـــز وجل ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر رحمة الله عليه : (يا أبا ذر ما السموات والأرض في الكرســـي إلا كحـــلقة مـــلقاة في فلاة من الأرض) يقول صلى الله عليه وآله وسلم : ما الســـموات والأرض بأقطارهما في ورائهما مما هو أوسع منهما من حد أقطارهما إلى مـــالا منـــتهى لـــــه إلا كالحلقة الملقاة في فلاة في الأرض) فأخبر صلى الله عليه وآله وسلم بعظمهما

---

(١) العنكبوت : ٤٣ .

(٢) البقرة : ٢٥٥.

(٣) البقرة : ٢٥٥ .

وجسمهما أنهما داخلتان في الكرسي كدخول الحلقة في الأرض ، فما لعسى موضع الحلقة من الأرض ،كأنما وراء [١] الحلقة من أقطار الأرض إلى تخومها وجبالها وأشجارها وما فوقها وتحتها أوسع وأعظم ، وأرحب مما حوت الحلقة منهما ، وكانت الحلقة أصغر شئ منها ، وكان القليل الحقير الصغير اليسير ما قد وسعه الله وأحاط به ، وهو يخبر سبحانه بأنه هو الذي وسعهما ، وأحاط بهما ، حتى صارتا بعظمهما وكبرهما في إحاطة علمه كالحلقة الملقاة في الأرض ، ومعنى قولي : في إحاطة علمه ، أي : في إحاطته بنفسه ؛ لأنه لا علم له غيره ، فالله عز وجل قد أحاط بالسموات والأرض كإحاطة الأرض بالحلقة الملقاة في جوفها ، وهاهنا والله تاهت العقول ، وضلت الأحلام ، وانقطعت الفكر في الله عز وجل ، وفي كتاب الله تصديق هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم [٢]، فمن قال : إن لله عرشا في السماء محيطا

---

(١) في المجموع (نسخة الهاشمي) كأنما وراء ، وفي المصابيح (أليس وراء) .

(٢)نقص عما في مجموع الإمام الهادي ، وقد رواه المصنف بتصرف يسير . والذي في المجموع :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه : الكرسي قال الهادي إلى الحق عليه السلام : العرش ، والكرسي ، والقبضة ، والنظر ، والإتيان ، والمجيء ، والصراط ، والكتاب ، والميزان ، والكشف عن ساق ، واليدان ، والقبض ، والبسط ، والوجه ، والحجاب ، أمثال كلها [لا يضاف شئ منها إلى صفات البشر فمن أضاف شيئا منها إلى صفات الخلق فقد كفر] [٢] وإنما هذا الصفات من أمثال القرآن ، وهو قوله : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ وقد ذكر الله الأمثال في كثير من القرآن ، فنقول : إن المعنى في العرش والكرسي ، والوجه سواء ليس بينهما فرق ، والمعنى فيها واحد ، فنقول : إن معنى الوجه في الله هو الله ، ومعنى الكرسي في الله هو الله ، ومعنى العرش في الله هو الله لاشك في ذلك عندنا ولا ارتياب فيه ، ونقول إن معنى قول الله سبحانه : ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ كمعنى قوله : ﴿وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ وكمعنى قوله : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وإنما هذه الثلاثة أصناف كلها تشريف لله عز وجل ، والوجه الذي ذكره الله يستدل به على بهائه وحسن عظمته ، والكرسي يستدل به على ملكه ، ومعنى يستدل به على ملكه أنه يستدل به عليه ، لأنه الملك نفسه ، وليس شئ مما خلق يزيد في ملكه ، وكذلك الوجه يستدل به عليه نفسه ، وكذلك العرش يستدل به عليه ؛ لأنها أمثال قدمها الله تحكي من حسن الله وبهائه ، أعني حسنه في ذاته وبهائه في ذاته ، وليس ذلك الحسن والبهاء الذي هو الله عز وجل

على شئ من صفات حسن الخلق وبهائهم ، ولا نصف الله عز وجل بشيء من صفات البشر ، بل نقول : إن معنى ذلك كله إذ يعود كل صنف إلى أصل أنه هو الله عز وجل لا غيره ، وليس نقول : إن ثم عرشا مخلوقا ، ولا كرسيا مخلوقا ، ولا وجها مخلوقا ، وليس شئ من هذا الثلاثة الأمثال ، العرش ، والكرسي ، والوجه يوجد أبدا بصفة من الصفات ، ولا بحلية من الحليات ، إنما المعنى في هذا كله الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له . فإن قال قائل ، أو سأل سائل : ما معنى العرش الذي ذكره الله في كتابه ؟ قلنا له : اسم يدل على الله في ارتفاعه وعلوه فوق خلقه ، من أهل سماواته وأرضه ، فإن قال لنا : ما الكرسي الذي ذكره الله في كتابه ؟ قلنا له : اسم يحكي عن صفات الله في ذاته ، فإن قال : وكيف صفات الله في ذاته ؟ قلنا له : إن الكرسي يدل على الله ، وهو اسم من أسماء ملك الله ، وليس ثم شئ سوى الله ، ومعنى ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ أنه هو وسع السموات والأرض بكرسيه ، ومعنى وسع السموات والأرض بكرسيه ، أي : وسع السموات والأرض بعلوه واقتهاره ، ألا تسمع إلى قوله :﴿ولا يؤده حفظهما﴾ يريد سبحانه أن السموات والأرض لا يحفظانه ، يخبر أنهما لا يمسكانه ، وكيف يمسكانه أو يحفظانه عز وجل ، وهو يخبر أنه خارج منهما ، محيط بأقطارهما ، واصلٌ من ورائهما ووراء ورائهما إلى مالا يصل إليه غيره عز وجل ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر رحمة الله عليه : يا أبا ذر ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في الأرض ، يقول صلى الله عليه وآله وسلم : (ما السموات والأرض بأقطارهما في ورائهما مما هو أوسع منهما من حد أقطارهما إلى مالا منتهى له إلا كالحلقة الملقاة في الأرض) فأخبر صلى الله عليه وآله وسلم بعظمهما وجسمهما أنهما داخلتان في الكرسي كدخول الحلقة في الأرض ، فما لعسى موضع الحلقة من الأرض ،كأنما وراء الحلقة من أقطار الأرض إلى تخومها وجبالها وأشجارها وما فوقها وتحتها أوسع وأعظم ، وأرحب مما حوت الحلقة منهما ، وكانت الحلقة أصغر شئ منها ، وكان القليل الحقير الصغير اليسير ما قد وسعه الله وأحاط به ، وهو خبره سبحانه بأنه هو الذي وسعهما ، وأحاط بهما ، حتى صارتا بعظمهما وكبرهما في إحاطة علمه كالحلقة الملقاة في الأرض ، ومعنى قولي : في إحاطة علمه ، أي : في إحاطته في نفسه ؛ لأنه لا علم له غيره ، فالله عز وجل قد أحاط بالسموات والأرض كإحاطة الأرض بالحلقة الملقاة في جوفها ، وهاهنا والله تاهت العقول ، وضلت الأحلام ، وانقطعت الفكر في الله عز وجل ، وفي كتاب الله تصديق هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله الله عز وجل :﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ يخبر أنه هو الذي وسع السموات والأرض ، وإنهما لم يسعاه ولم يحوياه ، ولم يمسكاه ، ولم يحفظاه ، بل كان عز وجل هو المحيط بهما ، و الواسع لهما ، والممسك لهما ، والحافظ لهما ، وذلك قوله عز وجل :﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ فمن قال : إن لله عرشا في السماء محيطا به ، فقد زعم أن العرش منه أوسع ، وأعظم ، وأقوى، وأجسم ، فزعم أن العرش هو المحيط بالأشياء ليس الله ، وأن العرش هو الواسع ليس الله ، وأن العرش هو القوي ليس الله ، ويزعم بزعمه أن الله أصغر من العرش إذا كان بزعمه في جوف العرش ، وكان العرش مشتملا عليه ، محيطا به ، فصير العرش ربه ، وزعم أن العرش هو الواسع العليم ، إذ زعم أنه أوسع من الله

العزيـز الحكـيم ، وأخـرج الله عز وجل من قوله : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ يريد أن بحياته حياتنا ، وبقدرتـه اسـتقامتنا ، ولولا هو لزالتا وامّحتا ، وهلكتا وهلكَ ما عليهما لولا إحياؤه لهما ، وقد قال الله عز وجـل : ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم﴾ فنقول لهؤلاء الملحدين في الله سبحانه : أخـبرونا عن العرش أهو الظاهر على الله ؟ أم الله الظاهر عليه ؟ فإن قالوا : إن العرش هو الظاهر على الله قلنا لهم : فقد أكذبكم الله في كتابه بقوله : ﴿هو الظاهر والباطن﴾ فأخبر عز وجل أنه هو الظاهر ، وأنتم تقولون : إن العـرش هو الظاهر ، فقد كذبتم على الله في قولكم ، وقلتم بخلاف قوله عز وجل ، وقد ضللتم ضلالا بعيـدا بكذبكم على الله ، وافترائكم عليه ، وإن قالوا : بل الله هو الظاهر على جميع الأشياء لم يقدر أحد أن يدفع هذه الحجة عنهم ، قلنا لهم : قد قلتم بالحق ورجعتم إلى الصدق ، فإذا كان هو الظاهر على جميع الأشياء كـان ظاهرا على كل عرش وغيره ، والله من وراء ذلك العرش محيط كما قال عز وجل : ﴿والله من ورائهم محيط﴾ فالله عز وجل من وراء كل عرش من غيره محيط ، وظاهر على كل شئ . فإن قال قائل : فإذا قلتم : إن العـرش هو الله فما معنى قوله : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ؟ وقوله : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ ؟ قلنا : إنما قلنا : إن العرش هو الله ؛ إذ كان العرش اسما يدل على الله ؛ لأن العرش من صفات الملك وليس هو عـرش مخلوق ؛ إنما هو اسم من أسماء الملك يدل على ملك الله ، ومعنى يدل على ملك الله : أنه يدل على الله إذ هـو الملك بنفسه ، فكان في المعنى عندنا سواء ، أن يقول القائل لا ملك إلا ملك الله ، أو يقول : لا عرش إلا عـرش الله ، فلذلك قلنا : إن العرش متصل بالله كاتصال الكف بساعدها ؛ لأنه في غاية المعنى أن العرش عـلو الله على جميع الأشياء بنفسه ، وإنما مثل الله علوه على جميع الأشياء وإحاطته بها كعلو الملك على سريره إذا استعلى فوقه ، وليس في الشبه والصفة إلا في المثل ، والعرش الذي ذكره الله عز وجل هو مثل ضربه الله في استوائه على ملكه ، وأما تفسير هذا المثل الذي ضربه الله لعباده في العرش والكرسي أن الملك من ملوك الدنيا إذا قعد على كرسيه ، وعلى سريره استعلى فوقه ، والعرش فهو السرير ، فمثل الله عرشه وكرسيه بهذا العرش ، وهذا الكرسي ، فكان كرسي الملك من ملوك الدنيا كرسيا ضعيفا صغيرا ، والذي استوى فوقه أضعف منه وأحقر منه ، وكذلك العرش فهو في الضعف والصغر كمثل الكرسي ، وسواء الكرسي والعرش كلاهما مقعد للملك يقعد عليه ، ويستوي فوقه ، وكرسي الله عز وجل فقد وسع السموات والأرض ، حتى صار من عظم سعته السماء والأرض في كرسيه كالحلقة الملقاة في الأرض ، وصار الكرسي محيطا بهما كإحاطة الأرض بتلك الحلقة ، فكانت السموات والأرض لصغرهما وضيقهما في سعة الكرسي عليهما كضيق الحلقة وصغرها في سعة الأرض عليها ، وكان الكرسي مشتملا على السموات والأرض كما اشتملت هذه الأرض على هذه الحلقة ، والواسـع لهما بعظمهما كما وسعت الأرض هذه الحلقة الله الذي لا إله إلا هو وسع الأشياء كلها حتى أحاط بهـا وملأهـا وغمرها ، وليس ثم شئ غير الله إنما هو مثل مثله الله لعباد ليستدل به على عظمته واتساعه على جميع الأشياء ، وإحاطته بها .

بـــه ، فقد زعم أن العرش منه أوسع ، وأعظم ، وأقوى، وأجسم ، فزعم أن العرش

ومن الدليل على أن الله عز وجل أراد بذكر الكرسي والعرش أن يعرف عباده عظم سعته وإحاطته بالأشياء ، وقولــه : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ وكثير في كتاب الله عز وجل مما يدل على أن الله محيط بالأشياء ، وهذا الكرسي مما يدل على إحاطة الله بجميع الأشياء ، واتساعه عليها ، وتفسير العرش أيضا كتفسير الكرسي سواء سواء ، فهذا معنى قولنا : إن العرش هو الله ، وإن الوجه هو الله ، وإن الكرسي هو الله ، فإن قال قائل : ألستم تقولون : هو الله ؟ قلنا له : نعم ، فإن قال : فما معنى قوله :(رب العرش العظيم) وقوله :(رب العرش الكـــريم) ؟ قلنا له : معنى ذلك عندنا كمعنى قوله سبحانه : ﴿ رب العزة عما يصفون ﴾ وهو العزيز بنفسه ، وكذلك قلنا : إن العرش هو الملك ، وهو الملك بنفسه ، ومعنى رب الملك ورب العزة ، أي مالك الملك ، ومالك العزة يريد صاحب الملك ، وصاحب العزة ، ومالك الشيء ورب الشيء سواء في المعنى ، فلذلك جعلنا العرش متصلا بالله ؛ لأنه ملك الله ، وملك الله متصل به ، ولذلك لم يكن بين العرش ، وبين الله فرق ؛ لأنه لو جاز لنا أن نفرق بين الله وبين ملكه لقلنا : إن الله خلق الملك في زمن الملك في ذاته ، وملك الله عز وجل فلا يقاس بملك العباد ؛ لأن العباد إنما صاروا ملوكا بما ملكوا ، والله فهو الملك بنفسه ، ولا يزيد شئ مما خلق في ملكه .

فإن قال قائل : فما معنى قوله : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ؟ قلنا : إن إحاطته بجميع الأشياء هي العرش العالي فـــوق جميع الأشياء ، وذلك العرش العالي فوق جميع الأشياء فالله عز وجل هو المحيط بجميع الأشياء بعرشه ، يـــريد أنه المحيط بجميع الأشياء بملكه ، أي : أنه علا فوق جميع الأشياء بنفسه ، ليس ثم عرش ولا ملك غيره ، فهو معنى قوله : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ يريد أنه كان المحيط بالماء من قبل خلقه للأرض والسماء ، فذلك العـــرش المحيط بالماء لم يتغير عن حاله ، ولم يزل هو المحيط بالماء ، والمحيط من بعد الماء بالأرض والسماء فذلك العـــرش إنما هو مقام الله ، ولا يجوز لنا أن نقول : هو مجلس الله ، ولكنا نقول : هو مقام الله ، وليس كمقام الانتصاب ، إنما ذلك كمال الله بنفس قول الجليل الكامل بنفسه ، العظيم الجبار ، ذو الشرف والبهاء والسناء العظيم ، فهذا معنى قول الله عز وجل : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ حين أنها لم تكن أرض ولا سماء سوى الماء ، ونحـــن نقـــول : إنه قد كان عرش الله ولا ماء ، ونقول : بأن عرش الله لم يزل وأن أسماء الله لم تزل ، وأن صـــفات الله كلها ومدائحه لم تزل ؛ لأن الله يقول في كتابه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ولا نقول : لم يكـــن مستويا على عرش ثم استوى إذن لقلنا بخلاف قوله عز وجل ، بل نقول : إن الله لم يزل ذا عرش عظيم نريد بذلك العرش العظيم الله العظيم ، وقلنا : ليس ثم عرش لله عز وجل ، وإنما ذكر العرش فعرفنا به الملك ، ولم يصفه بصفة معلومة معروفة .

وأما قوله في يوم القيامة : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ﴾ فذلك المقام هو ذلك العرش ، وذلـــك العـــرش هو الله العلي لا شئ استعلى إنما هو العلي بنفسه . تم والحمد لله وحده وصلاته على رسوله سيدنا محمد النبي ، وعلى آله وسلم تسليما . المجموعة الفاخرة ص ٦٦ـــ ٧١ .المجموع المخطوط لدينا نسخة (الهاشمي) ص ٣٢٩

هـــو المحيـــط بالأشياء ليس الله ، وأن العرش هو الواسع ليس الله ، وأن العرش هو القـــوي ليس الله ، ويزعم بزعمه أن الله أصغر من العرش إذا كان بزعمه في جوف العرش ، وكان العرش مشتملا عليه ، محيطا به ، فصير العرش ربه ، وزعم أن العرش هو الواسع العليم ، إذ زعم أنه أوسع من الله العزيز الحكيم .

إلى قوله عليه‌السلام : وإنما هو مثل مثله الله لعباده ليستدل به على عظمته واتساعه ، عـــلى جميع الأشياء وإحاطته بها ، ومن الدليل على أن الله سبحانه أراد بذكر العرش والكرسي أن يعرف عباده عظم سعته وإحاطته بالأشياء .

قولـــه ســـبحانه :﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عِلْمًا ﴾[1] وقوله :﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾[2] وكثير في كتاب الله مما يدل على أن الله محيط بالأشياء

وقال ولده المرتضى عليه‌السلام في الإيضاح : وسألتم عن العرش ؟ وما يقال فيه : إن ملائكـــة الله تطوف به في السماء ؟ فقال عليه‌السلام : ليس يقول بذلك إلا جاهل غير عارف بلغة ، ولا مقيم على ذلك بينة ، والعرش : فإنما هو الملك ، والله المالك لما في الســـموات والأرض ، ليـــس ثم عرش موضوع ، كما يقول الجهال ، وإنما أراد عز وجل ملكه ، ومقدرته على جميع ما خلق وبرأ ، وقد ثبت عندكم في تفسير العرش لجـــدي القاسم بن إبراهيم[3]، والهادي إلى الحق كتابان فيهما تفسير ذلك ، فاستغنينا بوقوعه عندكم عن إعادته في كتابنا إليكم . اهـــ

وقوله :﴿ يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ﴾ فائدة الإخبار بإيمانهم إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح

---

١) الطلاق : ١٢ .

٢) البروج : ٢٠ .

٣) ينظر كتاب تفسير العرش والكرسي في مجموع القاسم مخطوط ص ٤٤٠ ، ٤٦٤

، وكما عقب أعمال الخير بقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [1] وإلا فلا يخفى على أحد أن حملة عرش الله ومن حوله مؤمنون [2] .

وقيل : المراد أنهم يوحدونه ولا يثبتون له شريكا ، وهو تعريض بالمشركين .

ثم قال : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ وقد روعي التناسب في قوله : ﴿ ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ كأنه قيل : ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم ، وصفتهم ، وفيه تنبيه على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شئ إلى النصيحة ، وأبعثه على إمحاض الشفقة ، وإن تفاوتت الأجناس فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الملائكة أنهم يستغفرون للذين آمنوا ــ بين كيفية ذلك الاستغفار فحكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ السعة هاهنا مثل لقدرة الله وعلمه ، ونفي العجز والحصر والضيق عنه ، والفقر ، وقوله : ﴿ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ تمييز ، أي : بيان لما نسبت إليه السعة ، والأصل وسع كل شئ رحمتك وعلمك ، وإنما خولف هذا مبالغة في وصفه بالرحمة والعلم ، كأن ذاته رحمة وعلم

---

١) البلد : ١٧ .

٢) فائدة في نفي ما تقوله المشبهة من أن العرش والكرسي مكانا جلوس لله عز وجل ، ونفي قول من يجوز رؤية الباري سبحانه وتعالى ، وفيه إثبات أنه سبحانه منزه عن صفات الأجرام ، فقد قال الرازي في تفسيره : فإن قيل : فأي فائدة في قوله : ﴿ ويؤمنون به ﴾ فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله ؟ قلنا : الفائدة فيه ما ذكره صاحب الكشاف ، وقد أحسن فيه جدا ، فقال : إن المقصود منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضرا بالعرش ، لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه ، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجبا للمدح والثناء لأن الإقرار بوجود شئ حاضر مشاهد معاين لا يوجب المدح والثناء ، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء ، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل المدح والتعظيم علم أنهم آمنوا به ، بدليل أنهم ما شاهدوه حاضرا جالسا هناك ، ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه) انتهى كلام الرازي ٣٢/٢٧، وصدق القائل ، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه . وانظر الكشاف ١٥٢/٤ .

واسعان لكل شئ [١].

وفي البلغة : معناه وسعت رحمتك ومعلومك كل شئ ، أسند الفعل إلى الموصوف على جهة المبالغة كقولهم : طبت بذلك نفسا ، وجعلوا العلم موضع المعلوم ، كما جاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [٢] وتقديره : وسعت رحمتك وعلمك كل شئ . اهـ

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم كيفية ثنائهم على الله تعالى ، حكى عنهم كيفية دعائهم ، ولمن يدعون ، وهو أنهم قالوا : ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي : ادفع عنهم عذاب النار الشديدة ، فانظر إلى استغفار الملائكة المقربين ، الذين هم أشرف طبقات المخلوقين [٣]، كيف جعلوا استغفارهم مخصوصا للتائبين ، المتبعين سبيل رب العالمين ، دون من ليس كذلك لعلمهم أن الله سبحانه لا يغفر ذنبا من غير توبة .

وأما القائلون بجواز ذلك فليت شعري أعَلِمَه القائلون ، وجَهِلَه الملائكة المقربون ، أم كانوا على إتيان أفضل الحالين أشد منهم حرصا ، وحاشا وكلا ، بل عرفوا من أمر الله عز وجل ما جهله القائلون ، ولم يقولوا على الله سبحانه ما تمناه الجهلة الغافلون .

---

(١) قال الزمخشري : فإن قلت : تعالى الله عن المكان ، فكيف صح أن يقال : وسع كل شئ ؟ قلت : الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شئ في المعنى ، والأصل : وسع كل شئ رحمتك وعلمك ، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم ، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم ، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شئ . الكشاف ١٥٣/٤.

٢) البقرة : ٢٥٥ .

(٣) احتج كثير من العلماء بهذه الآية في إثبات أن الملائكة أفضل من البشر قالوا : إن هذه الآية تدل على أن الملائكة لما فرغوا من التسبيح والتقديس لله سبحانه اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون ، وهذا يدل على أنهم مستغنون عن الاستغفار لأنفسهم إذ لو كانوا محتاجين إليه لقدموا الاستغفار لأنفسهم بدليل قوله ﷺ (أبدا بنفسك) وقوله تعالى : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وكذلك حكى عن نوح عليه السلام ، فلما لم يذكر الله استغفارهم لأنفسهم علمنا أن ذلك إنما كان لأنهم غير محتاجين إلى استغفار ، وإذا ثبت هذا فقد ظهر أن المَلَكَ أفضل من البشر . وقد ذكر مثل هذا الرازي ٣٣/٢٧ .

واعلم أن الملائكة صلوات الله عليهم طلبوا بالدعاء من الله تعالى أشياء كثيرة للمؤمنين ، فالمطلوب الأول : الغفران للتائبين ، فإن قيل : لا معنى للغفران إلا إسقاط العذاب ، فلا فرق بين قوله : فاغفر لهم ، وبين قوله: ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ ؟ قلنا : دلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة خاصة ، حاصلة على سبيل الرمز والإشارة ، فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز ، أردفوه بذكره على سبيل التصريح ؛ لأجل التأكيد والمبالغة .

واعلم أنه لما طلبوا من الله إزالة العقاب عنهم ، أردفوه بأن طلبوا من الله إيصال الثواب إليهم ، فقالوا : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم﴾ قيل : عدن : عَلَمٌ لموضع الجنة مخصوص ، أو عدن بمعنى إقامة ، فدلت أن استغفارهم إنما هو للتائبين ، وفائدة ذلك — وقد وعدهم بالمغفرة — زيادة الكرامة والثواب ، وهو بمنزلة الشفاعة ، أو لجبر نقص الثواب ، وكذا استغفار بعض المسلمين لبعض .

واعلم أن هذا الآية قد دلت على فساد قول من يثبت الشفاعة للمذنبين ؛ لأنه تعالى ما وعد المذنبين أن يدخلهم جنات عدن قط[1] .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ذكر من صلح ؛ لأن الدعاء لغير الصالح لا يحسن ، ولا يجاب ، والمعنى : وأدخل معهم في الجنة هؤلاء الطوائف الثلاثة ، وهم الصالحون من الآباء والأزواج والذريات ، وذلك لأن الرجل إذا حضر معه في موضع عزه وسروره أهلُه وعشيرتُه كان ابتهاجه أكمل ، ثم

---

(١) وقد احتج الكعبي بهذه الآية على أن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين ، وأنها لا تكون للفاسقين كما تثبته العامة والإمامية ، قال : وذلك لأن الملائكة قالوا : ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ قال : وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر سواء كان مصرا على الفسق أو لم يكن كذلك ، لأن من هذا حاله لا يوصف بكونه متبعا سبيل ربه ، ولا يطلق ذلك فيه ، وأيضا إن الملائكة يقولون : ﴿وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ وهذا لا يليق بالفاسقين ؛ لأن خصومنا لا يقطعون على أن الله تعالى وعدهم الجنة ، وإنما يجوزون ذلك ، فثبت أن شفاعة الملائكة لا تتناول إلا أهل الطاعة ، فوجب أن تكون شفاعة الأنبياء ، ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كذلك ضرورة أنه لا قائل بالفرق . وانظر الرازي ٢٧/٣٣.

قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئا إلا بحكمة ومصلحة ، ومن ذلك الوفاء بوعدك ، وإنما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين لأنه لو لم يكن عزيزا ، لكان بحيث يغلب ويمنع ، ولما صح وقوع المطلوب منه ، ولو لم يكن حكيما لما حصل هذا المطلوب على وفق المصلحة والحكمة .

ثم قالوا بعد ذلك : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ يجوز أن يراد : وقهم عذاب السيئآت ، أو جزاء السيئآت ، ويراد بالسيئآت الصغائر ، والكبائر مع التوبة ، ويجوز أن يراد : الطف بهم حتى لا يعملوا السيئآت .

قال الرازي : فإن قيل : فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله : ﴿وقهم السيئآت﴾ وبين ما تقدم من قوله : ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ ؟ وحينئذ يلزم التكرار الخالي عن الفائدة ؟ وأنه لا يجوز ؟ قلنا : بل التفاوت حاصل من وجهين ، الأول : أن يكون قوله : ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ دعاء مذكور للأصول ، وقوله : ﴿وقهم السيئآت﴾ دعاء مذكور للفروع ، [وهم الآباء والأزواج والذريات] (١) .

الثاني : في تفسير قوله : ﴿وقهم السيئات﴾ يقول : إن الملائكة طلبوا إزالة عذاب النار بقولهم : ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ وطلبوا إيصال ثواب الجنة إليهم بقولهم : ﴿وأدخلهم جنات عدن﴾ ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا ، عن العقائد والأعمال الفاسدة ، وهو المراد بقوله : ﴿وقهم السيئآت﴾ .

ثم قالوا : ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي : يوم تدخل الصالحين جنات عدن ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أنعمت عليه ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي : الفلاح والظفر بكل مطلوب ، الذي لا أعظم منه ، حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيما لا ينقطع ، وبأعمال حقيرة ملكا لاتصل العقول إلى كنه جلالته .

ثم اعلم أنه تعالى عاد إلى شرح أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله ، وهم الذين

(١) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في الرازي . وتم تصحيح اللفظ منه . الرازي ٤٩٣/٩ .

ذكـــرهم في قوله :﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ وبين أهم في القيامة يعـــترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذي نزل بهم ، ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليـــتلافوا مـــا فرط منهم ، فقال تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة حين يمقـــتون أنفسهم ، ويندمون على الإيمان ، فيقال لهم :﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ إياكم ﴿أَكْبَرُ مِـــنْ مَقْـــتِكُمْ أَنْفُسَـــكُمْ﴾ والمقت : أشد البغض ، والمعنى : لمقت الله أنفسكم على اختيارها الكفر على الإيمان أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم ، وأنتم في النار .

قال الحسين بن القاسم عليهما السلام : يريد عز وجل أن مقت الله لهم وبغضه أكبر من بغضهم لأنفسهم يوم القيامة ؛ لأن بغضهم لأنفسهم ذلك اليوم ندم في قلوبهم ، حتى يتمنوا الموت والتلف ، وبغض الله : عذاب ونكال لأجسامهم . اهـــ

وقولـــه :﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾ منصوب بالمقت الأول ، والمعنى : أنه يقال لهم يـــوم القيامة : كان الله يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء ، كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان ، وقيل : هو تعليل للمقت ، أي : لأنكم تُدْعَونَ إلى الإيمان ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ .

ثم أخـــبر تعالى أن الكفار إذا خوطبوا بهذا الخطاب ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَـــتَيْنِ﴾ نصب لمصدر محذوف ، والتقدير : إماتتين اثنتين ، قال في التجريد : أراد بالإماتـــتين خلقهم أمواتا أولا ، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم ، وبالحياتين خلقهم في الدنيا أحياء ، والثانية حياة البعث ، وقد فسر ذلك قوله :﴿وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾[1] وهذا مروي عن ابن عباس ، وقيل : الحياة الأولى في الدنيا ، والثانية في القبر ، والإماتة الأولى في الدنيا ، والثانية في القبر ، وضُعِّفَ بأنه يلزم أن يكون الإحياء ثلاث مرات ، لأن الثالثة في الآخرة .

قـــلت : وفي تفسير هذا الآية التي اختلف فيها الناس يقول الهادي عليه السلام : معنى ذلك أن الله يخبر عن أهل النار ، وما يكون من مقتهم لأنفسهم ، ومعنى مقتهم فهو

---

(١) البقرة : ٢٨ .

بغضهم لأنفسهم ، وبغضهم لها في ذلك اليوم فهو لما تقدم منها من المعاصي في الدنيا حتى أهلكتهم بذلك في الآخرة ، فلما أن صاروا إلى النار أبغضوا أنفسهم ، وتمنوا أنها كانت في التراب بالية فانية ، فتناديهم ملائكة الله عند ذلك ، فأخبرتهم أن مقت الله لهم في هذا الوقت أكبر من مقتهم لأنفسهم ، فردوا على ملائكة الله ما تسمع من هذا القول ، من قولهم :﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾[1] يقولون : جعلتنا في أصلاب آبائنا ماء مهينا أمواتا ، فهذا الموتة الأولى ، ثم أمتنا من بعد الحياة الأولى والإيجاد فصيرتنا إلى القبور ، فهذا اثنتان ، وأحييتنا الحياة الأولى في بطون أمهاتنا أجساما وأرواحا من بعد أن كنا نطفة وعلقة ومضغة أمواتا ، لا حياة فينا ، ثم أحييتنا الحياة الثانية ، وهي نَشْرُكَ لنا من القبور [بعد الفناء]وإخراجك إيانا من أجداثنا بعد البلاء أجساما متجددة أحياء ، فهذا الحياتان والميتتان .

ثم أخبر سبحانه عنهم أنهم قالوا : ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ ﴾ من النار ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يقولون : هل إلى رجعة إلى الدنيا من سبيل ، فنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، إذ قد رأينا وأبصرنا ، وعاينا وشاهدنا [واعترفنا بذنوبنا ، ومعنى اعترفنا : فهو أقررنا بها وشهدنا][2]على أنفسنا بما كان منها . اهـ

قال في الكشاف : فإن قلت : كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا إماتة ؟ قلت : كما صح أن يقال : سبحان من صغر جسم البعوضة ، وكبر جسم الفيل ، ويقال للحفار : ضيق فم الركية ، ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ، ولا من صغر إلى كبر ، ولا من ضيق إلى سعة [ولا من سعة إلى ضيق وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات] والسبب في الصحة أن الصغر والكبر جائزان معا على المصنوع الواحد [من غير ترجح لأحدهما] وكذلك الضيق والسعة ، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين ، وهو متمكن منهما [على السواء] فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر ،

---

١) غافر : ١١ .

(٢) سقط في المصابيح ، وموجود في المجموع ص ٤٤٢، ٤٤٣ .

فجعل صرفه كنقله منه .

ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا ، والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياءآت ، وهو خلاف ما في القرآن [1]. اهـ

ومعنى ﴿من سبيل﴾ أي : هل من طريق إلى نوع من الخروج من العذاب سريع أو بطيء ، وقيل : هو إلى خروج من ذنوبنا ، وهذا كلام من قد غلب عليه اليأس ، فقيل : لا سبيل لكم إلى ذلك ، يدل عليه بقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ أي : ذلكم العذاب لازم لكم ، بسبب كفركم ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي تصدقوا شركهم ، أي : ذلك بسبب كفركم بتوحيد الله ، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد ﴿الْعَلِيِّ﴾ المرتفع عن ظلم عباده ﴿الْكَبِيرِ﴾ دليل على الكبرياء والعظمة ، فلا يرد حكمه ، وأن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك .

واعلم أنه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين ، أردفه بما يدل على كمال قدرة الله وحكمته ، ليصير ذلك دليلا على أنه لا يجوز جعل هذه الأحجار المنحوتة ، والخشب المصورة شركاء لله سبحانه في العبودية ، فقال : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته ، وصدق رسوله من الريح والسحاب ، والرعد ، والبرق ، والصواعق ونحوها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي : سبب الرزق ، وهو المطر ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي : يتعظ ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي : يرجع إلى الله ، ويتوب من الشرك دون المعاند ، والمعنى : أن الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى ، كالأمر المركوز في العقل إلا أن القول بالشرك ، والاشتغال بعبادة غير الله ـــ يصير كالمانع من تجلي تلك الأنوار ، فإذا أعرض العبد عنها ، وأناب إلى الله زال الغطاء والوطاء ، فظهر النور التام .

---

(١) انظر الكشاف ١٥٤/٤ ، وما بين أقواس الزيادة منه .

ولما قرَّرَ هذا المعنى صرَّح بالمطلوب ، وهو الإعراض عن غير الله ، والإقبال بالكلية على الله تعالى فقال تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ ﴾ أي : اعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ من الشرك ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما ذكر من صفات كبريائه وإكرامه كونه مُظْهِراً للآيات مُنُزِّلا للأرزاق ـــ ذكر بعد ذلك ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة ، فقال سبحانه : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ أي : مرتفع القدر ، وهذا مثلٌ لعلم الله وقدرته ، وعبارة عن علو شأنه وسلطانه ، ثم قال : ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أي : خالقه ومالكه ، فهو عبارة عن ملكه[1] ، وقيل : المراد أنه يرفع درجات أوليائه في الجنة ، ورفيع بمعنى : رافع ، وقيل : رفيع الدرجات هي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش ، كقوله : ﴿ ذي المعارج ﴾[2] وارتفاعها دليل على عزته وملكوته ، قال ابن عباس : يريد رافع السموات ، ثم قال : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يريد الوحي الذي هو سبب الحياة ، استعار له الروح ، كما قال : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾[3] ومعنى ﴿ من أمره ﴾ أي : من أوامره ونواهيه ؛ لأن الوحي أمر بالخير ، وقال مقاتل : أي بأمره ، وهي إرادته ﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِي ﴾ هو يوم القيامة ؛ لأن الخلائق تلتقي فيه ، قيل : يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، وقيل : كل عامل

---

(١) قال الرازي في تفسيره الكبير ٢٧/٤٣ : واحتج بعض الأغمار من المشبهة بقوله : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾ وحملوه على أن المراد بالدرجات السموات ، وبقوله : ﴿ ذو العرش ﴾ أنه موجود في العرش فوق سبع سموات ، وقد أعظموا الفرية على الله تعالى ، فإنا بينا بالدلائل القاهرة العقلية أن كونه تعالى جسما وفي جهة محال ، وأيضا فظاهر اللفظ لا يدل على ما قالوه ؛ لأن قوله : ﴿ ذو العرش ﴾ لا يفيد إلا إضافته إلى العرش ، ويكفي في إضافته إليه بكونه مالكا له ، ومخرجا له من العدم إلى الوجود ، فأي ضرورة تدعونا إلى الذهاب إلى القول الباطل والمذهب الفاسد ، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر هو أنه أعظم الأشياء ، والمقصود بيان كمال إلهيته ، ونفاذ قدرته ، فكل ما كان محل التصرف والتدبير أعظم ، كانت دلالته على كمال القدرة أقوى .

(٢) المعارج : ٣ .

(٣) الأنعام : ١٢٢ .

يلقى عمله .

قال الهادي عليه‌السلام : معنى : ﴿لينذر﴾ أي : ليُحَذِّر ما يكون من العقاب في يوم التلاق ، وهو يوم يجتمع الخلق كلهم في موضع واحد ، وهو يوم الحشر ، ويوم الميقات ، ويوم المعاد ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي : ظاهرون غير مستترين بدار ولا جدار ، قد برز بعضهم لبعض ، وعاين بعضهم بعضا ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي من أعمالهم وأحوالهم وسرائرهم ظاهرا كان أو مستترا من أفعالهم[1]. اهـ

وهذا لما كانوا يتوهمون في الدنيا من أن الاستتار في الدنيا يخفي أعمالهم عنه ، وإلا فهو لا تخفى عليه خافية ، فقد صاروا الآن من الانكشاف إلى ما لا يتوهمون معه ما كانوا يتوهمون في الدنيا ، فلا يسترهم حينئذ شئ من الأرض ؛ لأنها تكون قاعا صفصفا.

ثم قال سبحانه : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ اتفقوا على أن هذا يقوله الله تعالى ، واختلفوا متى يقوله ، فقيل : عند فناء الخلائق ، إذا لم يبق مجيب فيرد سبحانه على نفسه ، فيقول : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قاله الأكثرون ، قال أهل الأصول : هذا القول ضعيف ، وبيانه من وجوه أنه تعالى بين أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق ، ويوم البروز ، ويوم تجزى كل نفس بما كسبت ، والناس في ذلك الوقت أحياء ، فبطل قولهم : إنه تعالى إنما ينادى بهذا النداء حين هلك كل من في السموات والأرض .

والثاني : أن الكلام لابد فيه من فائدة ، لأن الكلام إما يذكر حال حضور الغير ، أو حال ما لا يحضر الغير ، والأول باطل هاهنا لأن القوم قالوا : إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل ، والثاني أيضا باطل ؛ لأن الرجل إنما يحسُنُ تَكَلُّمُهُ حال كونه وحده ، إما لأنه يحفظ به شيئا كالذي يكرر على الدرس ، وذلك على الله تعالى محال[2]، أو لأجل أنه يعبد الله بذلك الذكر ، وذلك أيضا على الله محال ،

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٣ .

(٢) وزاد الرازي وجها آخر وهو : أن يحصل التكلم في الوحدة لأنه يحصل به سرور ، وهذا أيضا على الله محال (الرازي ٢٧/٤٦) .

فثبت أن قول من يقول : إن الله تعالى ذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له .

وقيل : إنه يقوله تعالى يوم القيامة ، والخلائق يسمعون لأنه لا فائدة في خطاب المعدوم ، واختلفوا من يجيبه بقول ﴿لله الواحد القهار﴾ فقيل : يجيب نفسه ، والخلائق سكوت ، قاله عطاء ، وقيل : بل الخلائق يجيبونه كلهم .

وقال الهادي عليه‌السلام : يخبر سبحانه أنه يوم قد انقطع فيه ملكُ كل مالك ، وأثَرُ كل متملك إلا الله الواحد القهار ، ومعنى ﴿الواحد﴾ فهو الغالب الجبار ، الذي ليس معه في الحكم في الدين أحد يحكم ولا يأمر ، النافذ أمره ، الماضي في ذلك اليوم حكمه ، المذل فيه الملوك الجبارين ، المعز فيه لأوليائه المؤمنين . اهـ

واعلم أنه سبحانه لما شرح صفات القهر في ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفصل في ذلك اليوم ، فقال : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر ، ومن صفات اليوم قوله تعالى : ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يجوز أن يراد تعليل نفي الظلم ، لا يظلم الله المؤمنين ، بتأخير حسابهم ؛ لأنه سريع الحساب ، ويجوز أن يراد تقريب يوم القيامة والحساب ، كقوله : ﴿لعل الساعة قريب﴾[1] قاله في التجريد .

والمعنى : لما قرر أن الملك في ذلك اليوم لله وحده ، عد فوائد ذلك ، وهي أن كل نفس تجزى بما كسبت ، وأن الظلم مأمون ؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد ، ولا يتظالمون ؛ لأن الله يقضي بينهم ، وأن الحساب لا يبطئ ؛ لأن الله لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق في وقت واحد ، وروي أنه يحاسب الخلق على كثرهم في قدر حلبة شاة ، وروي في لمحة عين .

قال القاضي : هذا الآية قوية في إبطال قول المجبرة ؛ لأنه على قولهم : لا ظلم غائبا

---

(١) الشورى : ١٧

وشاهدا إلا من الله تعالى ، ولأنه تعالى إذا خلق فيه الكفر ، ثم عذبه [عليه]فهذا [هو]عين الظلم[١] .

ثم وصف سبحانه يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة ، فقال : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ أنذرهم بيوم الآزفة ، فيوم الآزفة مفعول به ، لا ظرف ، والآزفة : القيامة ، سميت بذلك لأزوفها ، أي : قربها ؛ لأن كل آت قريب .

ثم قال : ﴿ إِذْ الْقُلُوبُ ﴾ أي : حين القلوب ﴿ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ وهي الحلاقيم ، ترتفع القلوب عن مقارها فتلصق بالحناجر من شدة الفزع ، فلا هي تخرج فيموتوا ، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا[٢] ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ على قلوبهم ، التي ملأت حناجرهم ، لئلا تظهر ، أي : ممسكون عليها من قولهم كظم غيضه ، والكظم : الامتلاء ، كظم القربة : ملأها ، ومنه كظم الغيظ بالصبر ، فلا يظهر له أثر ، ويجوز أن يراد أن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر ، قال الهادي عليه‌السلام : يقول : من شدة الهول والأمر العظيم ، الذي يعاينون قد ارتفعت قلوبهم ، حتى قاربت حناجرهم من الفزع المفزع ، والروع المفظع ، ومعنى ﴿ كاظمين ﴾ فهم سكوت ، والكاظم فهو الساكت[٣] ، الذي لا ينطق ، يقلب عينيه ، ويستمع لهول ما فيه قد وقع .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : معنى ﴿ لدى الحناجر ﴾ أي : عند أعالي الحلوق ، قال الشاعر ــ يصف كرمه وعقره لإبله لضيفه :

فيعرفن جولاتي إذا ما رأينني ... فيغططن للجرات دون الحناجر

---

(١) القاضي : هو القاضي البيضاوي ، وقد ذكر هذا عن القاضي الرازي فانظره ٢٧/٤٨.

(٢) في المصابيح (فلا هي تخرج فيموتون ، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسون) والظاهر أنها فاء السببية التي إذا سبقها النفي نصب ما بعدها ، فأصلحنا اللفظ على هذا ، ومثل هذا اللفظ في الرازي ، بحذف نون الفعل ، فانظره (٢٧/٥٠)

(٣) في المجموع (والكاظم : فهو الصامت) .

ومعنى ﴿كاظمين﴾ أي : لازمين لأنفسهم عن الكلام في بعض المواطن ، ممسكين من الغم والحزن والهم ، فإن قيل : بم انتصب ﴿كاظمين﴾ ؟ قال بعضهم[1] : حال من أصحاب القلوب على المعنى ؛ لأن المراد قلوبهم لدى الحناجر حال كونهم كاظمين ، ويجوز أيضا أن يكون حالا من القلوب ، وأن القلوب كاظمة كل غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر .

ثم قال :﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قال الهادي عليه السلام : يقول : مالهم من ولي ولا قريب ينفعهم ، لا طفل في طفوليته ، ولا أحد ممن ينتسب الظالمون إليه ، يطمعون في ذلك اليوم عنده لمنفعة ، ولا يطمع هو لهم بخلاص من النقمة [2]. اهـ

والحميم : هو المحب الشفيق ، قال الشاعر :

وذابلة الرماح تعل فيهم إذا صد الحميم عن الحميم

أي : أعرض الحبيب عن الحبيب ، وإنما سمى الله عز وجل الحميم حميما لأنه يحتمي على صاحبه ويحترق لاحتراقه ، ويغتاظ لتغيظه ، ويغتم لغمه ، والحما : هو الحرارة في اللغة .

ثم قال سبحانه :﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ قال عليه السلام : يقول : ليس في ذلك اليوم للظالمين شفيع يجيب الله دعوته ، ولا يجيز في الظالمين شفاعته ، أي : يعطى أمنيته فيهم ، فيجاب ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه :﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [3]. اهـ

وذكر ﴿يطاع﴾ لفائدة جليلة ، وهي المبالغة في النفي ، كأنه نفى الشيء مرتين ، نفى الشفيع ، ونفى صفته وهي الطاعة ، فلا يتوهم وجود شفيع مطاع ، كما لا يوجد لهم شفيع مطاع ، وهو كالتعليل لعدم الشفيع كأنه قيل : كيف يتأتى الشفيع

---

(١) البعض هنا : هو الرازي ، انظر الرازي ٢٧/٥٠.

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٤٤ .

(٣) الأنبياء : ٢٨ . مجموع تفسير الأئمة ص ٤٤٤ .

ولا شفيع يطاع[1].

قال الرازي في بيان نظم الآية : إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف ، فأولها : أنه سمى اليوم يوم الآزفة ، أي : يوم القرب [من عذابه لمن] ابتلى بالذنب العظيم [لأنه]إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف ، حتى [قيل] :إن تلك الغموم والهموم أعظم في الايحاش من عين تلك العقوبة .

والثاني : قوله :﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ والمعنى : أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة ، والتصق بها ، وصار مانعا من دخول النفس .

والثالث : قوله :﴿ كاظمين ﴾ والمعنى : أنه لا يمكنهم أن ينطقوا ، وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب .

والرابع : قوله :﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ فبين تعالى أنه ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته .

والخامس: قوله عز وجل :﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ [وما تخفي الصدور] ﴾ [والمعنى : أن سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديد جدا. قال

---

(١) ومثل هذا في الكشاف ١٥٨/٤. قال الزمخشري : فإن قلت : الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه ، فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها ؟ قلت : في ذكرها فائدة جليلة ، وهي أنها ضمت إليه ؛ ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة ، لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف . بيانه : أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت : ما لي فرس أركبه ، ولا معي سلاح أحارب به ، فقد جعلت عدم الفرس والسلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة ، كأنك تقول : كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ، ولا فرس لي ولا سلاح معي ، فكذلك قوله :﴿ولا شفيع يطاع ﴾ معناه : كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع ، فكان ذكر الشفيع والاستشهاد على عدم تأتيه بعدم الشفيع وضعا لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه .

صاحب الكشاف][1] الخائنة : صفة للنظرة ، أو مصدر بمعنى الخيانة ، كالعافية بمعنى المعافاة ، والمراد : استراق النظر إلى مالا يحل ، كما يفعل أهل الريب[2] .

قال الهادي عليه‌السلام : معناها ما تشير به الأعين وتومئ به ، فأخبر سبحانه أنه يعلم ذلك من الأعين قبل كونه ، وقبل كونها . اهـ

والمعنى : أنه تعالى يدرك ويعلم خائنة لحاظ أعين الفاسقين ، ونظرهم إلى ما ينظرون ؛ لأن الفاسق ينظر إلى ما حرم الله بعينه ، ويكسر تارة لإخوانه طعنا وتلهيا بالناس ، وظلما ، وتارة يخون بعينه دينه ، الذي هو أمانة الله في رقبته ، بالنظر إلى العورات ، واللمح إلى المحظورات ، والمؤمن إذا نظر اعتبر ، وإذا صمت فكر ، وإذا تكلم ذكّر وأنذر من عذاب الله وحذّر ، لا يخون بعينه ولا بلسانه ، ولا يصرف جوارحه إلا في طاعة الله سبحانه .

ثم قال عليه‌السلام : معنى قوله : ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ فهو غيب الصدور من خفيّ أمرها ، ودقيق ضميرها ، مما لم يظهر في شئ من الجوارح عنها ، بما لا يرضى ، فيحاسب عليه [3]. اهـ

قال الرازي : والحاصل أن الأفعال قسمان ، أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب ، أما أفعال الجوارح فأخفاها خائنة الأعين ، والله أعلم بها ، فكيف الحال في سائر الأعمال ، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى ، لقوله : ﴿وما تخفي الصدور﴾ فدل هذا على كونه عالما بجميع أفعالهم .

والسادس [4] : قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي : يحكم بالعدل ، وهذا أيضا

---

(١) الكشاف ١٥٩/٤ .

(٢) انظر تفسير الرازي ٥٢/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وكذلك ما بين الأقواس ، فليعلم . وقد اقتصر المؤلف رحمه الله على بعض الأوجه التي ذكرها الرازي ، ثم ذكر بقيتها بعد ذلك كما ستطلع عليه . وكانت الأعداد مؤنثة في المصابيح ، وفي الرازي مذكرة ، لقوله : الأسباب ، والسبب مذكر فأصلحنا اللفظ من الرازي .

(٣) المجموع ص ٤٤٤ .

(٤) من هنا عود للنقل عن الرازي في الأسباب الموجبة للخوف ، وقد سبق خمسة أسباب ، وهذا هو السادس

يوجب عظيم الخوف ؛ لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال ، وثبت منه أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل ، كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى .

السابع : أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام ، وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي : يعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ [من الأصنام] ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ [أي : يحكمون بشيء ، وهذا تهكم بهم ؛ لأنها جماد ، لا توصف بنفي القضاء ، ولا بإثباته][1] .

والثامن : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ بما يقولون ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ بما يعملون ، فيعاقبهم عليه ، وفيه تعريض بالأوثان ؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه ، كان بالغا في التخويف إلى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه[2] .

ثم إنه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا ، فقال عز وجل : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا ﴾ يعني قريشا ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾[3] نظر

---

(١) ما بين الأقواس غير موجود في الرازي ، وهو من كلام المصنف رحمه الله لا من كلام الرازي .

(٢) السبب الثامن نقله المصنف عن الرازي بالمعنى ، وليس باللفظ .

(٣) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : [هاهنا نقص من أول السورة إلى هنا فليبحث عنه] ...

حجة ظاهرة ، قيل :الآيات والسلطان شئ واحد ، وذكرها تأكيدا ، ولاختلاف المعنى ، فكأنه ذكر الحجة ، وذكر أنه بها يتسلط عليهم ، وقيل : الآيات حجج التوحيد والعدل والسلطان ، المعجزات التي بها ظهرت نبوته ، وقهر فرعون وقومه ﴿ إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾ كاذب فيما يدعي ويدعو إليه ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ قيل : بالمعجزات الدالة على نبوته ، وقيل : بالدين الحق ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ قيل : أمر فرعون بقتل الأبناء مرتين ، مرة قبل بعثة موسى خوفا على ملكه حين أنذر به ، ومرة بعد البعثة لئلا يتقوى بهم ، وليتفرقوا عنه ، وقيل : عقوبة لهم ، قال قتادة : كان فرعون أمسك عن قتل الولدان ، فلما بعث موسى أعاد القتل عليهم ، وأما استحياء النساء قيل : للمهنة ، وقيل : قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ليصدهم بذلك عن إتباعه ومظاهرته ، ﴿ وما كيد الكافرين ﴾ أي : مكرهم وتدبيرهم في استبقاء ملكه ، وانقطاع القوم وتوهين أمره ﴿ إلا في ضلال ﴾ قيل : في هلاك ، وقيل : في ذهاب عن الصواب .

اعتبار وتفكر ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من عاد وثمود وغيرهم ، حيث أهلكوا بسبب كفرهم ، وتكذيبهم رسلهم ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ الحصون والقصور والعمد ، وما يوصف بالشدة من الآثار ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي : أهلكهم ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ معجلا ، حتى إن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول ، وبين بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لم يجدوا من][1] يقيهم العذاب ، أي : يدفعه عنهم .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : ذلك الهلاك بسبب

ولما أحس فرعون بزوال ملكه على يده هم بقتله ، فقال لملائه ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ الذي يزعم أنه أرسله لينصرنه عليَّ ، ويمنعه مني ، وهذا إن قاله اعتقادا فهو جهل عظيم ، حيث لم يعلم أنه تعالى قادر على ما يشاء ، وإن قاله عنادا حفظا على مملكته ، فهو شديد الجراءة على ربه ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ يعني يغير دينكم الذي أنتم عليه من عبادة فرعون والأصنام ، إلى عبادة الله ، وظهور الفساد قيل : أراد يظهر دينه ، ويعمل بعبادة الله عن قتادة ، وقيل : يظهر الحرب بين الفريقين ، فيحارب موسى بمن آمن ، فتخرب البلاد ، وتضطرب العباد ، وقيل : أراد بالأرض أرض مصر عن أبي مسلم ، وقيل : أراد جنس الأرض فلما بلغ موسى ذلك ﴿ قال إني عذت ﴾ أي : اعتصمت ﴿ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ لأن الإيمان بيوم الحساب يمنع عن فعل القبيح ، والمتكبر : الذي ينكر البعث لا يبالي ما يفعل .

الأحكام

تدل الآيات على زجر عظيم ، ووجوب التفكر في الأمم الماضية ، وكيف أخذوا لما كفروا ، وفيه تسلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تكذيبهم إياه ، ووعيد لقومه .

وتدل على أن رؤساء الباطل يموّهون ، فلا ينبغي للعاقل أن يستقل بالتقليد ، ويجب أن ينظر ليعلم الحق فيتبعه .

وتدل على وجوب الاستعاذة بالله عند المهمات .

ويدل قوله : ﴿ ذروني ﴾ أنه كان في قومه من ينهاه من قتله خوفا على فرعون أن يهلك على يد موسى عن أبي علي

وتدل استعاذة موسى أن التكبر فعل العبد ليس بخلق الله ؛ إذ لو كان خلقا لكان يجب أن يستعيذ منه .

(١) ما بين القوسين من الرازي حيث أن اللفظ قريب من الموجود ، ولما لم نجد ما هو المبين ذكرنا ذلك من الرازي ، وجعلناه بين قوسي الزيادة . وانظر الرازي ٥٣/٢٧.

كفرهم برسلهم التي أتتهم بالمعجزات الواضحة ، الدالة على صدقهم ﴿ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ لا يعجزه شئ ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ للعصاة ، فليحذر من مثل عاقبتهم ، فإن عقابه على حسب قوته ، وختم الكلام ﴿ إنه قوي شديد العقاب ﴾ مبالغة في التحذير والتخويف ، والله أعلم .

ثم اعلم [أنه تعالى] لما سلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بذكر الكفار ، الذين كذبوا الأنبياء قبله ، وبمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضا بذكر قصة موسى عليه السلام ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ هي المعجزات المصدقة كالعصا واليد وغيرهما ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي : حجة ظاهرة ، وهي الآيات ، عطفه تأكيدا ، ويجوز أن يريد بالآيات ما عدا العصا واليد البيضاء ، والسلطان المبين : إحداهما على ما سيأتي إن شاء الله تعالى ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وزير فرعون ﴿ وَقَارُونَ ﴾ ابن عم موسى ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ حين جاءهم موسى عليه السلام بتلك المعجزات الباهرة ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي : النبوة ﴿ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ يعني الذكور من أولادهم ، وهذا غير القتل المتقدم ، الذي أمرت به الكهنة خيفة المولود الذي يهلك مملكته ﴿ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ أي : استبقوا بناتهم حية للخدمة والنكاح ، كان فرعون قد كف عن قتل الولدان ، فلما ظهر موسى أعاده عليهم ليصدهم بذلك عن إتباعه ، وليريهم أن موسى ليس بالمولود الذي كانوا يتوقعونه ، وأنه بعد متوقع ، فذلك كيده الذي أضله الله ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي : في ضياع لم ينفعهم قتل الولدان ، ونفذ قضاء الله بإظهار ما خافوه ، فما أغنى عنهم هذا القتل الثاني الذي أعاده غيظا وحنقا وظنا منه أن ذلك يصدهم عن مظاهرة موسى ، وما علم أن كيده ضائع في الكرتين جميعا .

ثم حكى الله تعالى من قبائح أولئك الكفار مع موسى عليه السلام فقال : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ كان إذا هَمَّ بقتله كفُّوه ، وقالوا : ليس بالذي تخافه ، وهو أقل من ذلك ، وما هو إلا بعض السحرة فلا يقاومه إلا مثله ، وإن قتلته قال الناس : عجزت

عـن معارضته بالحجة ، والظاهر أن فرعون قد استيقن أنه نبي ، لكن كان خبًا ، وكان سفاكا للدماء في أهون شئ ، لكن خاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك .

وأما قوله : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أي : يستعين به عليَّ ، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء ، يعني : إن أقتله فليقل لربه حتى يخلصه مني ، وفيه شهادة صدق أنه ملئ خوفا منه ومـن دعوتـه ، وكان قوله : ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ تمويها عليهم ، وإيهاما أنهم الذين يكفونه ، وما هو إلا لفزع منه .

وأما قوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ وكانوا يعبدون الأصنام .

قـال في الـتجريد : يريد عبادتهم فرعون ، وعبادتهم الأصنام ، وكانوا يعبدونهما بدليل ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾[1] .

﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ أي : أرض مصر ، والمقصود منه بيان السبب الموجـب لقتله ، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين ، أو فساد الدنيا بما يظهر بسـببه من الفتن والحروب ، الذي يذهب معها الأمن ، وتعطب المزارع والمكاسب والمعائش ، ويهلك الناس قتلا ، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم ، لا جـرم بدأ فرعون بذكر الدين ، فقال : ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا ، فقال : ﴿ وأن يظهر في الأرض الفساد ﴾ .

واعـلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ما ذكره موسى عليه السلام ، فحكى عنه سبحانه أنه قال : ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لقومه بني إسرائيل ليقتدوا به في الاسـتعاذة : ﴿ إِنِّي عُذْتُ ﴾ أي : اعتصمت ﴿ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ عَمَّ فرعون وغيرَه من كل ظالم .

واعـلم أن هذا الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام اشتملت على فوائد الأولى : أن لفظـة ﴿ إني ﴾ تدل على التأكيد ، فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر في

---

(١) وانظر الكشاف ١٦١/٤ .

دفــع الشرور والآفات عن النفس ـــ الاعتماد على الله ، والتوكل على عصمة الله تعالى .

الفائدة الثانية : أنه قال : ﴿ إني عذت بربي وربكم ﴾ وكما أن عند القراءة يقول المسـلم : أعـوذ بـالله من الشيطان الرجيم ، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شيطان الجن ، فكذلك توجه الآفات من شياطين الإنس ، إذا قال المسلم : أعوذ بالله ، فالله يصونه من كل الآفات والمخافات .

الفـائدة الثالثة : قوله :﴿ بربي ﴾ والمعنى : كأن العبد يقول : إن الله سبحانه هو الـذي رباني ، وإلى درجات الخير رقاني ، وأعطاني نعماً لا حد لها ولا حصر لها ، فلما كان المربي ليس إلا الله ـــ وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى

الفائدة الرابعة : أن قوله :﴿ وربكم ﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه‌السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله عز وجل [1].

ثم اعـلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه‌السلام أنه ما زاد في دفع مكر آل فرعون وشره على الاستعاذة بالله ، بين أنه تعالى قيض إنسانا أجنبيا عن موسى عليه‌السلام حتى ذب عنه على أحسن الوجوه ، وبالغ في تسكين تلك الفتنة ، واجتهد في إزالة ذلك الشر ، فقال تعالى :﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ ﴾ اسمه سمعان ، أو حبيب ، وقيل : حزقيل ، أو خـربيل ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [2] كان قبطيا ابن عم لفرعون آمن بموسى

---

(١) هذه الفوائد مذكورة بلفظها في الرازي ، وزيادة فوائد لم ترد هنا . انظر الرازي ٢٧/٥٥ ، ٥٦ .

(٢)قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

القراءة

قرأ عاصم قراءة العامة (بالتناد) بالتخفيف من النداء ، من قوله ﴿ يوم ينادي المنادي ﴾ وينادي بعضهم بعضا . وقرأ الحسن كذلك ، إلا أنه أثبت الياء على الأصل .

وقـرأ ابن عباس والضحاك بتشديد الدال ، وهو تفاعل من ندَّ البعير إذا شرد ، يقال : ند البعير يند ، والمعنى : يـوم الفرار والهرب ، وذلك إذا عاينوا العذاب هربوا في الأرض وندوا كما تند الإبل إذا شردت على أربابها ،

قال الضحاك : وذلك إذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، وذلك نحو قوله : ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ وقوله: ﴿ والملك على أرجائها ﴾ .

اللغة : الإسراف : مجاوزة الحد في العصيان . والظهور : الغلبة ، ومنه ﴿ فأصبحوا على عدوهم ظاهرين ﴾ .

والبأس : الشدة ، ومنه البؤس ، شدة الفقر ، ورجل بؤس شديد ، وعذاب بئس ، وبؤس يبؤس بأسا إذا اشتد ، وبأس يبأس فهو بائس ، إذا افتقر .

والدأب : العادة ، دأب يدأب دأبا ، فهو دائب في عمله إذا استمر فيه .

والتنادي : التداعي ، ونادى بعضهم بعضا .

الإعراب : اليوم : نصب على الظرف ، وظاهرين نصب على الحال ، وقيل :تم الكلام عند قوله : ﴿ لكم الملك اليوم ﴾ ثم ابتدأ ﴿ ظاهرين ﴾ .

المعنى : ثم بين تعالى مقام مؤمن آل فرعون ، واعظا لقومه فقال سبحانه : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ قيل : استشار فرعون في قتله ، فأشاروا بقتله ، فقام هو وأشار بالكف عنه ، وخوفهم قتله ، وقيل : كان يكتم إيمانه فلما جد الأمر لم يملك نفسه ، فقام بالأمر بالمعروف ، واختلفوا في نسبه فقيل : كان من قوم فرعون قبطيا عن الحسن ، وقيل : ابن عم فرعون عن السدي ومقاتل ، وقيل : كان آمن بموسى وكتم إيمانه خوفا من فرعون ، وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ، وقيل : كان إسرائيليا ، وتقديره : وقال رجل مؤمن يكتم آل فرعون إيمانه ، قال أبو مسلم : هذا خطأ ، لا يقال كتمت حديثي من فلان ، وإنما يقال : كتمت فلانا ، ولا يقال : من آل فرعون مَن كان على دينه ، لأن حقيقته أن يقع على ذي القرابة — كقوله : ﴿ آل لوطا ﴾ — والأصحاب المحاربين الموافقين في الدين ، كقولهم : آل فرعون . ثم يحتاج هذا التأويل إلى تقديم وتأخير .

واختلفوا في اسمه فأكثر أهل العلم على أنه حربيل عن ابن عباس وغيره ، وقيل : حربيال عن وهب ، وقيل : حيسول عن ابن إسحاق ، وقيل : حبيب ، والأول أصح ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ﴾ أي : لأجل أنه يقول في ذلك ، وتوحيد الله تقتلونه ، وهذا استفهام ، والمراد الإنكار ، معنى من قال : هذا لا يستحق القتل ، لاسيما وقد جاءكم بالبينات من ربكم أي بالدلالة والمعجزات الدالة على صدقه فلا تقتلوه ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه لا يضركم ذلك ﴿ وإن يك صادقا ﴾ فيما يوعدكم به ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ من العذاب ، قيل : ذكر البعض وأراد الكل على طريق المظاهرات في الحجاج ، قال الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

فذكر البعض وأراد الكل ، وقيل : يصبكم بعض الذي يعدكم لأنه يكفي ذلك لكم ، وقيل : بعضه في الدنيا ، وقيل : كان يتوعدهم أمورا مختلفة لكونهم على أصناف من المعاصي ، وقيل : ذكر البعض لأنه ألطف كلام

يتكلم به في مجالس الملوك ﴿إن الله لا يهدي﴾ قيل : إلى الجنة ، وقيل : إلى خير ، واختلفوا قيل : هو من كلام المؤمن ، وقيل : بل من كلامه تعالى بعد تمام كلام المؤمن ، عن أبي علي .

﴿من هو مسرف﴾قيل : مجاوز للحد في العصيان ، وقيل : مشرك ، وقيل : قتال عن السدي ، كذاب على الله تعالى .

﴿يا قوم لك الملك اليوم ظاهرين﴾ غالبين على بني إسرائيل في الأرض ، قيل : أرض مصر ﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾ من عذابه ﴿إن جاءنا﴾ قيل : راعى حرمتهم ، وحفظ الأدب ، فقال : ﴿لكم الملك﴾ ثم قال في العذاب : ﴿إن جاءنا﴾ أضاف الملك إليهم ، والعذاب إلى نفسه ، وهذا من ألطف الكلام ؛ فقال فرعون في جوابه :﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي : ما أريكم من النصيحة إلا ما أرى ذلك بنفسي ، وقيل : ما أعلمكم إلا ما أعلم عن الضحاك ، كقوله :﴿بما أراك الله﴾ وقيل : ما أريكم من قبل موسى الصواب ، أي : الثواب الذي أريكم في قتله ، فيه الخلاص عن موسى ﴿وما أهديكم﴾ أدلكم ﴿إلا سبيل الرشاد﴾ فأبهم أنه يدلهم على طريق خير .

﴿وقال الذي آمن﴾ قيل : هو مؤمن آل فرعون ، لأنه نسق الكلام عن أكثر المفسرين ، وهو الصحيح ، وقيل : بل هو موسى لأن الأول كان يكتم إيمانه عن أبي علي ، وليس بالظاهر ؛ لأنه يجوز أن يذكر على وجه النصيحة ، كقوله :﴿أتقتلون رجلا﴾ ويجوز أنه أظهر الإيمان بعد ما كان يكتمه ﴿إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ قيل : لما رأى إصرار فرعون وقومه حذرهم أن ينزل بهم ما ينزل بالأمم ، والأحزاب : الجماعات ، وأراد الأمم التي أهلكوا ، وقيل : حذرهم عذاب الآخرة . واليوم يطلق على البلاء.. والمحنة ، كأنه قيل : يوم إهلاكهم ﴿مثل﴾ دار ﴿قوم نوح وعاد وثمود﴾ قيل : مثل عادتهم ، وقيل : مثل عادة الله فيهم ﴿والذين من بعدهم﴾ ممن أهلكوا بالعذاب ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ قيل : معناه لو قتلتموه ظلمتموه ، والله لا يريد الظلم ، بل يريد العدل والنصفة ، وقيل : لا يريد أن يظلمهم ، وإنما أهلكوا بذنوبهم .

﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ يعني : التنادي ، وهو أن ينادي بعضهم بعضا ، وقيل : يوم ينادي بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور ، فيقول : يا ويلنا ، ونحوه ، وقيل : يوم ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿أن قد وجدنا﴾ الآية ، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿أن أفيضوا علينا من الماء﴾ عن الحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وقيل : يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، وقيل :ينادي الملائكة بعقاب العصاة أن خذوهم ، وهو يتولون مدبرين ، وقيل : ينادي المؤمن ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ وقيل : ينادى باللعنة على الظالمين ، وقيل : ينادون إلى المحشر ، أي : يدعون عن أبي مسلم ، وقيل : ينادى عليهم بالشقاوة ، وقيل : الجميع مناد ﴿يوم تولون مدبرين﴾ أي : ينصرفون غير معجزين ، عن مجاهد ﴿مالكم من الله من عاصم﴾ حافظ يحفظ من عذاب الله ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ قيل : من يهلكه فلا هادي له إلى طريق نجاته

ســـرا ، وقال الحسن : كان مؤمنا قبل مجيء موسى ، وكذلك امرأة فرعون ، قال مقاتل : كتم إيمانه من فرعون مائة سنة ، وقال قوم كان إسرائيليا ، والتقدير : يكتم إيمانه من آل فرعون ، وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى[١] .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : في هذا تقديم وتأخير ، والمعنى فيه : رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، ويمكن أن يكون من آل فرعون .

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أي : لأن يقول هذا القول ، أي : لأجل أن يقول : ربي الله ، وهو ربكم لا ربه وحده ، والاستفهام على سبيل الإنكار ، وذلك لأنه ما زاد على أن قال : ربي الله ، ثم قال : ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : المعجـــزات ، الدالـــة على صدقه ، وأراد بذلك الاستدراج لهم إلى الاعتراف ، وأن ذلك لا يوجب القتل البتة .

ثم ذكـــر ذلك المؤمن حجة ثانية مذكورة على طريقة التقسيم فقال : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ أي : لا يعود ضرر كذبه إلا عليه ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ من العقاب ، إنما قال : ﴿ بعض ﴾ ـــ وهو نبي صادق لابد أن يصح كـــلما يعدهم به ـــ لأنه احتاج إلى ملاوصتهم[٢] بهضم موسى بعض حقه في ظاهر الكـــلام ، أو لئلا يتوهم من جهته المناصحة في القول ، فيكون أقرب إلى التسليم ، ومن هذا قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ بل يخذله ، ويهلكه ، ولم يســـتقم له أمـــر ، ولـــو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة ، وقواه بالمعجزات ، والمسرف : المكثر من المعصية .

الأحكـــام : تـــدل الآيات على جواز كتمان الإيمان عند الخوف ، وتدل على جواز الإظهار مع الخوف على النفس إذا كان فيه إعزاز الدين ، وتدل على أن القتل يعظم بدرجة المقتول ، وتدل على وجوب النصح بطريقة الاستظهار ، وتدل على أنه لا يريد الظلم ، وإذا لم يرد ولم يخلقه فيبطل قول المجبرة في المخلوق .

(١) وقد ضعف هذا القول بأنه يقال : كتمته كذا ، فهو متعد بغير حرف الجر ، ولا يقال : كتمت من فلان كذا .

(٢) يقـــال : ألاصه على كذا ، أي : أداره على الشيء الذي يريده ، ويقال : ألصته على الشيء أليصه ، مثل راودته عليه ، وداورته ، والإلاصة مثل العلاصة إدارتك الإنسان على الشيء تطلبه منه . انظر لسان العرب ٤١١/٣ .

وقال الماوردي في معنى ﴿ بعض الذي يعدكم ﴾ قولان . أحدهما : أنه وعدهم النجاة إن آمنوا ، والهلاك إن كفروا ، فدخل ذكر البعض ؛ لأنهم على أحد الحالين .

والثاني : أنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، فصار هلاكهم في الدنيا بعض الوعد .

وقال أبو عبيدة [1] : بعض هنا بمعنى كل ، كما جاء أكثر بمعنى كل ، وقلّ بمعنى النفي

وحاصل الكلام أن المقصود من ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة إلى قتله بل يكفيكم أن تعرضوا عنه ، وأن تمنعوه عن إظهار دينه .

ثم اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى ـــ خَوَّفَهُم في ذلك بعذاب الله فقال : ﴿ يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ ﴾ أي : عالين ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ، قاهرين لبني إسرائيل ، فلا تفسدوا أمركم بالتعرض لعذاب الله ﴿ فَمَنْ يَنصُرُنَا ﴾ أي : يمنعنا ﴿ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ﴾ وعذابه ﴿ إِنْ جَاءَنَا ﴾ فإنه لا قبل لكم به ، وقال : ﴿ فمن ينصرنا ﴾ و ﴿ جاءنا ﴾ ليريهم أنه منهم في المذهب ، وليعلموا أن الذي ينصحهم هو مشارك لهم فيه .

ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ ﴾ أي : ما أشير عليكم برأي ﴿ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ أي : إلا بما أرى من قتله ، أي : لا أستصوب إلا قتله ، وما جئتم به غير صواب ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أي : طريق الصلاح ، وقد كذب ، فإنه ما يرى قتله خوفا من معاجلة العذاب ، ولكن كان يتجلد لهم .

واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعا من الكلام ذكرها لفرعون ، فالأول : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ مثل أيام الذين تحزبوا ، أي : تجمعوا على رسلهم ، لكنه استغنى بالواحد عن الجمع ؛ لأنه لما فسره بقوله

---

(١) قال أبو عبيدة : ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز ، واحتج بقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

والجمهور على أن هذا القول خطأ ، قالوا : وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه . والله أعلم

: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ علم أن كل حزب كان له يوم دمار ممن هو على صفتهم ، والمعنى : مثل جزاء دأبهم ، والدأب : العادة ، ودأبَ هؤلاء دأبهم في كفرهم وتكذيبهم وسائر معاصيهم ، وكون ذلك دائبا دائما ، والحاصل : أنه خوفهم بهلاك معجل ، ثم خوفهم أيضا بهلاك الآخرة .

والنوع الثاني من كلمات ذلك المؤمن ، قوله تعالى :﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ يعني أن هلاكهم كان عدلا من الله بسبب أعمالهم ، ونفي إرادة الظلم أبلغ من نفي الظلم

قال في التجريد : يحتمل لا يريد أن يظلمهم ، ويحتمل أن يريد لا يظلم بعضهم بعضا ، والأولى حمله عليهما معا[1] .

النوع الثالث من كلمات ذلك المؤمن ، وتخويفه لهم عذاب الآخرة ، قوله : ﴿وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي﴾ أي : عذاب يوم التناد ، وإذا كان كذلك كان انتصاب يوم انتصاب المفعول به ، لا انتصاب الظرف ؛ لأن إعرابه إعراب المضاف المحذوف ، وقيل : على الظرفية ، وفي تسمية ذلك اليوم بهذا الاسم وجوه ، قيل : لأنه يكثر النداء ، ينادى بالسعادة والشقاوة ، وينادى فيدعى كل أناس بإمامهم[2] .

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه‌السلام : معنى ﴿التناد﴾ هو النداء ، والنداء : هو الصياح والعويل ، والدعاء وغير ذلك من القول . اهـ

وفي البرهان : عن الضحاك بن مزاحم ، قال : تنزل الملائكة من السموات فتحيط

(١) وتدل هذه الآية على أنه تعالى لا يريد ظلم أحد من العباد ، فلو خلق الكفر فيهم ـ كما يقول بعض الجهلة بالله سبحانه وتعالى ـ ثم عذبهم على ذلك الكفر لكان ظالما ، وإذا ثبت أنه لا يريد الظلم البتة ثبت أنه غير خالق لأفعال العباد ، لأنه لو خلقها لأرادها .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى :﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ وقيل : إن أهل النار ينادون أهل الجنة ، وأهل الجنة ينادون أهل النار ، وقيل : إنه ينادي بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور ، وقيل : ينادون إلى المحشر ، وقيل : ينادي المؤمن ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ والكافر ﴿يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ ، وقيل : ينادى باللعنة على الظالمين .

بأقطار الأرض ، ويجاء بجهنم ، فإذا رأوها هالتهم ، فندوا في الأرض كما تند الإبل ، فلا يتوجهون قطرا من أقطار الأرض إلا رأوا الملائكة ، فيرجعون من حيث جاؤا ، فذلك قوله :﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا ﴾ الآية ، وذلك قوله :﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ إلى قوله :﴿ وجئ يومئذ بجهنم ﴾ وذلك قوله :﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ﴾ .

وقرئ شاذا بتشديد الدال ، من نَدَّ إذا هرب على وجهه ، ويدل عليها قوله :﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ قال الضحاك : إذا سمعوا زفير جهنم هربوا ، وقال غيره : يؤمر بهم إلى النار فيفرون منها .

ثم أكد التهديد فقال :﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي : من مجير ومانع من عذابه ، ثم نبه على قوة ضلالتهم ، وشدة جهالتهم فقال :﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ ﴾ يخذله فيحكم عليه بالضلال والخذلان ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ قادر على هدايته ؛ لأنه لا يقبل الهدى .

واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال :﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ ذكر لهذا مثالا فقال :﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾[1]

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

القـراءة ــ قرأ ابن عامر ، وأبو عمرو ، وقتيبة عن الكسائي (قلب) منونا (متكبر) صفة القلب ، قلب بغير تنوين على الإضافة ، أضاف القلب إلى المتكبر ، ويؤيد هذه الأقوال ما روي عن ابن مسعود (على قلب كل متكبر جبار) .

اللغة : السرف : مجاوزة الحد ، وهو ضد القصد ، والسرف : الجهل ، والسرف الانجفال ، يقال : أسرف فهو مسرف . والارتياب : الشك ، وأصله الريب . والمقت : اشد البغض .

الإعراب :﴿ مقتا ﴾ نصب على التمييز .

المعنى : ثم زاد في الوعظ فقال سبحانه :﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ يعني يوسف بن يعقوب ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل موسى ، وقيل : من قبل المؤمنين ، وقيل : يجوز أن يكون فيهم من عُمِّر حتى لقي موسى ، وكان لقي يوسف ، وقيل : أتى آباءكم .

وقيل : كان فرعون موسى هو فرعون يوسف ، عُمِّر إلى زمن موسى عن وهب ، وقيل : هو غيره ، عن أكثر أهل العلم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحجج والمعجزات ، قيل : شق القميص ، ورؤيا الملك والقميص ، وصلاح بَصَر

أي : جاء آباءهم ، ورضوا بفعلهم ، أو شاهوهم فيه ، وهو يوسف بن يعقوب أقام فيهـــم اثنتي عشرة سنة [1] ، وقيل : إن فرعون موسى ، هو فرعون يوسف ، عُمِّرَ إلى زمانـــه أربعمائة سنة ، وقيل : هو فرعون آخر ، وملوك مصر يقال لهم : الفراعنة ، والمقصود من الكل واحد ، وهو أن يوسف جاء قومه بالبينات ، أي : المعجزات ، وقوله : ﴿ من قبل ﴾ أي : من قبل موسى ، والمعنى : أن يوسف عليه السلام جاء قومه بالمعجزات الباهرة ، فأصروا على الشك والشبهة ، ولم ينتفعوا بتلك الدلائل .

ثم ذكر أنهم بقوا في نبوته شاكين ولم ينتفعوا بتلك البينات ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ أي : مـــات وقبض ﴿ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ حكما من عند أنفسكم بغير

يعقوب ، وإخباره أهل السجن بما فعل بهما ، وبما يحمل إليهم ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أي : مما دعاكم إليه من الدين ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ إلى دينه بل يهمل الله الخلق عن الدعاء ، وقيل : كانوا لا يقرون به ، فلما ملك قالوا : كان يوسف رسولا ومات ، والله لا يبعث بعده رسولا آخـــر ، وقيل : قالوا تخلصنا منه ولا يأتينا بعده رسول ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الكاف للسببية ، فتقتضي أمرا تقدم من فعله حتى يشبه الآخر به ، فقيل في ذلك : إنهم لما كذبوا الرسل خذلهم الله فضلوا ، وتمادوا في الارتياب ، كما نقول : هكذا يكون خذلان الله للكافرين حتى يزدادوا ضلالا إلى ضلالهم عن أبي مسلم ، وإنما يفعل ذلك لأن في معلومه أنه ليس لهم لطف ، ولو كان لفعل بهم ، فقيل : كذلك يعاقب كل كافر ، ويضله عن طريق الجنة عن أبي علي ، وقد تقدم ذكر العقاب في قوله : ﴿ يوم الأحزاب ﴾ و ﴿ يوم التناد ﴾

وفي قولـــه : ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ قيل كافر ، أصله مجاوزة الحد في العصيان ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ يشك في دينه ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : يخاصمون في حججه ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي : بغير حجة أتتهم في ذلك من الله ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ أي : ذلك الجدال كبر : عظم ﴿ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعني أنه يـــبغض تعالى ذلك الفعل بغضا شديدا ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ عن عبادة الله ﴿ جَبَّارٍ ﴾ قيل : قتال ، وقيل : المتجبر الذي يأنف من قبول الحق والخضوع لله تعالى .

الأحكـــام : تـــدل الآيات على قبح الجدال بالباطل ، وحسنه في الدين ، وتدل على أنه تعالى يبغض الجدال بالـــباطل ، فيبطل قول المجبرة : إنه يحبه ويريده ، وتدل على أنه تعالى جعل في قلب الكافر سمة وعلامة ، ولا يقال : إنه يمنع من الإيمان لأنه بمنزلة الخبر (إنه لا يؤمن) ولأنه قادر على الإيمان ، ولأنه جعل الطبع عقوبة على الكفر دل أنه غير الكفر .

(١) في الرازي ٢٧/٦٢: نيفا وعشرين سنة ، وفي الكشاف ٤/ ١٦٦: عشرين سنة .

دليل وتقدمة ، عزم على تكذيب الرسل ، بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه ، وليس قولهم هذا تصديقا ليوسف ، كيف وقد شكوا فيه وكفروا ، وإنما هو كفر برسالة من يأتي من بعده مع الكفر به .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ أي : مثل هذا الخذلان يخذل الله ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ في المعاصي ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ شاك في دينه .

وهذا الآية أيضا مما تبطل قول المجبرة ؛ لأنه تعالى بَيَّن كفرهم ، ثم بيَّن أنما أضلهم ، أي : سماهم بالضلال ، وحكم عليهم به ، لكونهم مسرفين مرتابين ، فثبت أن العبد ما لم يضل عن الدين ، فإنه تعالى لا يضله ، كما زعمت المجبرة .

ثم أخبر سبحانه ما لأجله بقوا في ذلك الشك والإسراف فقال : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ أي : يخاصمون ﴿ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : معجزات أنبيائه ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي : بغير دليل يتيح لهم الجدال ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : عظم ذلك الجدال ، أو الإسراف مقتا ، وفي ﴿ كبر ﴾ ونحوه مبالغة ، كما في ساء وبئس ، والمقت : أشد البغض كما تقدم ، وفيه معنى التعجب والاستعظام لجدالهم ، وذمه تعالى بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على أن الجدال بالحجة حسن وحق . وفيه إبطال التقليد[1] .

ثم أخبر تعالى أن هذا المقت كما حصل عند الله ، فكذلك قد حصل عند المؤمنين .

ثم قال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الطبع والخذلان ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ أي : يخذل ويختم ﴿ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ أي : ظالم يفعل ما يريد من الظلم ، ولا ينظر في عاقبته ، وقرأ ابن عامر ، وأبو عمرو ، وقتيبة عن الكسائي ﴿ قلبٍ ﴾ منونا ﴿ متكبرٍ ﴾ صفة للقلب ، والباقون : بغير تنوين ، على إضافة القلب إلى المتكبر ، أما الذين قرأوا بالتنوين ، فقالوا : إن الكبر قد أضيف إلى القلب في قوله :﴿ إن في

(١) قال القاضي : مقت الله إياهم يدل على أن فعلهم ليس بخلق الله ؛ لأن كونه فاعلا للفعل وماقتاً له محال . انظر الرازي ٢٧/٦٣ .

صـــدورهم إلا كبر﴾ وقال تعالى :﴿فإنه آثم قلبه﴾ وأيضا يمكن أن يكون ذلك عـــلى حذف المضاف ، أي : على ذي قلب متكبر ، قالوا : ومن أضاف فلا بد له من تقدير حذف ، والتقدير : يطبع الله على كل قلب كل متكبر .

واعلم أنه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبرا جبارا ، أخبر سبحانه أنه بلغ في التيه والحماقة إلى أن قصد الصعود إلى السموات ، فقال عز وجل :﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾[1] أي : قصرا مرتفعا ظاهرا للناظرين وإن بعد ، من صرح بالشيء إذا

---

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

القراءة

قرأ حفص عن عاصم (فاطلع) بفتح العين على جواب (لعلي) وهو قراءة حميد الأعرج ، وأنشد الفراء لبعض العرب :

عـــل صـــروف الدهر أو دولاتها يزلـــنن الـــلمة مـــن لماتهـــا

فتستريح النفس من زفراتها

بنصب الحاء على جواب التمني . وقرأ الباقون بالرفع عطفا على قوله :﴿أبلغ﴾ .

وقـــرأ عاصم وحمزة والكسائي (وصد) بضم الصاد على أن فرعون صرف بغير صرفه نفسه أو غيره . الباقون (صد) بفتح الصاد على أنه مَنَعَ الناس عن الإيمان .

فأما (يدخلون) بضم الياء وفتح الخاء ، وفتح الياء ، وضم الخاء ، قرآتان ، وقد تقدم ذكرهما .

اللغة : الصرح : البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد ، وهو من التصريح بالأمر ، وهو ظاهر بـــأتم إظهار ، والسبب : كلما تتوصل به إلى الشيء الذي يبعد عنك ، وجمعه أسباب ، يقال للطريق سبب ، والحـــبل ســـبب ، والفرق بين السبب والعلة أن السبب يوجب الذوات ، كالضرب يوجب الألم ، والكون يوجب التأليف .

والعلة توجب الصفات كالحركة توجب كونه متحركا ، وغير ذلك مما قيل فيه .

والإطـــلاع : هـــو الظهور على الشيء برؤيته من إشراف إلى انحدار ، وقيل : الإطلاع والبلوغ بمعنى ، ومنه الطـــليعة . وصـــد : أعرض ، وصد غيره : صرفه واقع وغير واقع ، يقال : صده يصده صدا ، وأصده يصده اصدادا من النظائر .

والتـــباب : الهـــلاك بالانقطـــاع ، ومنه : تبا لهم ، وقوله :﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أي : خسر ، من النظائر بانقطـــاع الرجاء ، وأصله من الانقطاع ، يقال : تب الحاكم الحكم أي : قطعه ، وطلقها بتة ، أي : قاطعة ، وبت الحبل أنقطع .

أظهـــره ، والصـــرح : البناء الظاهر العظيم ، الذي لا يخفى من البعد ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ أي : الطرق ﴿ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ أي : طرقها ، وكلما أوصل إلى غيره ، فهو سبب وطريق إليه ، كالرشا إلى البئر ، أبهم الأسباب أولا ، ثم أوضحها تفخيما

المعـــنى : ثم بين تعالى ما موه به فرعون عند الانقطاع عن الحجة ، فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ﴾ قيل : هو وزيره ، وصاحب أمره ، ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾ قيل : قصرا عاليا ، وأمره بالصرح لا يخلو من وجهين ، أحدهما ، يكون تمويها على العوام ، وليس أنه يتمكن من صعود السموات فيه إلى إله موسى ، وثانيهما : أن يكون من جهله اعتقد أنه يقدر على بلوغ السماء ، وفيه على كل حال أنواع من الجهل . منها : أن أحدا من البشـــر لا يقـــدر على بلوغ السماء ، ويصعد ، والثاني : توهمه أن الإله يكون في السماء . والثالث : إيهامه العوام أنه كان يموه ، وإلا فلا يخفى عليه حاله . قال الحسن : إنما قال ذلك تمويها وكذبا ، وهو يعلم أنه له إلها ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ قيل : منازل السموات عن ابن عباس ، وقيل : طرقها عن السدي ، وقيـــل : أبوابها عن قتادة ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ أي : أنظر إليه فأراه ، وقيل : لأصعد إليه ، والإطلاع الصـــعود عن أبي علي ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ يعني أظن موسى يكذب فيما يقوله أن له إلها غيري أرسله إلينا ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : هكذا ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ قيل : زين له نفسه سوء عمله ، فرآه حسنا ، وقيل : زينه قومه وأشياعه ؛ لأنهم يصورون للخلق الباطل بصورة الحق ، وقيل : شياطين الإنس والجن ، ولا يقال : الله زيـــنه له ؛ لأنه لو زينه لما ذمه عليه ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي : مُنع عن طريق الحق ، ومنع هو غيرَه على معـــنى القراءتين ، ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : مكره وحيله وتدابيره ﴿ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ أي : في خسران عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وقيل : في ضلال ، وقيل : في هلاك ، يعني : وباله عاد إليه .

﴿ وَقَـــالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ يعني مؤمن آل فرعون عن الحسن وجماعة ، وقيل : هو موسى عن أبي علي ﴿ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ طريق الحق ، وقيل : طريق الثواب ﴿ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أي : يتمتع به كل أحد مدة ثم ينقطع ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ قيل : استقرت الجنة بأهلها ، والنار بأهلها عن قتادة ، والقرار المحل الذي يستقر فيه الإنسان .

﴿ مَـــنْ عَمِـــلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أي : من عمل معصية فإنه لا يعاقب إلا بمقدار ما يستحق عليها ﴿ وَمَـــنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ بزيادة فعل ، إذ لو كان بقدره لكان يحاسبه .

الأحكام : يدل أمره بالصرح أنه ظن أن إله موسى جسم في مكان ، وذلك كفر مضموم إلى كفره ، ويدل قوله : ﴿ أهدكم ﴾ أن الهدى ليس هو نفس الإيمان ، وإنما هو الدلالة والبيان ، وتدل على أن علماء المسلمين هداة إلى الحق كمؤمن آل فرعون ، وتدل الآية أن كل أحد يجازى بما يستحق بعمله ، وتدل على أن فعل العبد حادث من جهته ، وتدل أن الدنيا دار زوال ، والآخرة دار قرار ، فينبغي للعاقل أن يختار ما يبقى على ما يفنى .

لبلوغ ما أمل ، كما هو حكم الإيهام والتفسير ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ في دعواه إلها غيري ، فأما أنه في السماء فلم يقله موسى فيكذبه فيه ، وإنما ادعى فرعون أنه لو كان لموسى إله ، لكان في السماء ، ولكان جسما ، وليس مثل هذا بمستنكر من فرعون ، فإنه رام الصعود إلى السماء ببناء بناه[1] .

---

(١) ينبغي للإنسان أن يقف عند هذه الآيات ، ليتبين أن قول من قال : إن الله في السماء ، فهو متابع لفرعون ، ومن لم يقل بذلك كان على دين موسى عليه السلام ، فإن موسى لم يزد على أن قال ﴿ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى﴾ وقال :﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾ فظهر أن تعريف ذات الله بكونه في السماء دين فرعون ، وتعريفه بالخلق والوجود دين موسى عليه السلام ، فمن قال بالأول كان على دين فرعون ، ومن قال بالثاني كان على دين موسى ، أفلا يكفي هؤلاء الجهال الذين يقولون بأن الله في السماء في كمال الخزي والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم ، ومن اعتذر بأن فرعون لم يعرف ذلك إلا من جهة موسى فقد أساء الفرية ، بل لعل فرعون كان على دين المشبهة فكان يعتقد أن الإله لو كان موجودا لكان حاصلا في السماء ، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام . ومثل هذا الكلام ذكر الرازي في تفسيره ٢٧/٦٤ فلينظر فقد أتى بشبه المشبهة وفندها بما يثلج الصدر ، ولم يدع لصاحب شبهة حجة ، ومن جملة كلامه ردا على من قال : بأن الفطرة تحكم بأنه في السماء ، وأن فطرة فرعون شهدت بأن الإله لو كان موجودا لكان في السماء ، قال : نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل إليهم صحة ذلك لاسيما من بلغ في الحماقة إلى درجة فرعون فثبت أن هذا الكلام الذي تقوله المشبهة ساقط أعاذنا الله من التقول بمثله .

قال الرازي في التفسير الكبير ٢٧/٦٤ في تفسير هذه الآية : احتج الجمع الكثير من المشبهة بهذه الآية في إثبات أن الله في السموات ، وقرروا ذلك من وجوه : الأول ـ أن فرعون كان من المنكرين لوجود الله ، وكلما يذكره في صفات الله تعالى ، فذلك إنما يذكر لأجل أنه سمع أن موسى يصف الله بذلك ، فهو أيضا يذكره كما سمعه ، فلولا أنه سمع موسى يصف الله بأنه موجود في السماء وإلا لما طلبه في السماء .

الوجه الثاني أنه قال : ﴿وإني لأظنه كاذبا﴾ ولم يبين أنه كاذب في ماذا والمذكور السابق متعين لصرف الكلام إليه فكأن التقدير فأطلع إلى الإله الذي يزعم موسى أنه موجود في السماء ، ثم قال :﴿وإني لأظنه كاذبا﴾ أي : وإني لأظن موسى كاذبا في ادعائه أن الإله موجود في السماء .

الوجه الثالث : العلم بأنه لو وجد إله لكان موجودا في السماء علم بديهي متقرر في كل العقول ، ولذلك فإن الصبيان إذا تضرعوا إلى الله رفعوا وجوههم وأيديهم إلى السماء ، وأن فرعون مع نهاية كفره لما طلب الإله فقد طلبه في السماء ، وهذا يدل على أن العلم بأن الإله موجود في السماء علم متقرر في عقل الصدِّيق والزنديق ، والملحد والموحد ، والعالم والجاهل ، فهذه جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية .

والجـــواب : أن هؤلاء الجهال يكفيهم في كمال الخزي والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة ديـــنهم ، وأما موسى عليه السلام فإنه لم يزد في تعريف إله العالم على ذكر صفة الخلق ، فقال في سورة طه ﴿ربنا الـــذي أعطـــى كـــل شئ خلقه ثم هدى﴾ وقال في سورة الشعراء : ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين رب المشرق والمغـــرب وما بينهما﴾ فظهر أن تعريف ذات الله بكونه في السماء دين فرعون ، وتعريفه بالخلاقية والموجودية دين موسى عليه السلام ، فمن قال بالأول كان على دين فرعون ، ومن قال بالثاني كان على دين موسى .

ثم نقول : لا نسلم أن كل ما يقوله فرعون في صفات الله تعالى فذلك قد سمعه من موسى عليه السلام بل لعله كـــان عـــلى دين المشبهة ، فكان يعتقد أن الإله لو كان موجودا لكان حاصلا في السماء ، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه ، لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام .

وأما قوله : ﴿وإني لأظنه كاذبا﴾ فنقول : لعله لما سمع موسى عليه السلام قال : ﴿رب السموات والأرض﴾ ظـــن أنه عنى به أنه رب السموات ، كما يقال للواحد منا : إنه رب الدار بمعنى كونه ساكنا فيها ، فلما غلب عـــلى ظـــنه ذلك حكى عنه ، وهذا ليس بمستبعد ، فإن فرعون كان بلغ في الجهل والحماقة إلى حيث لا يبعد نســـبة هذا الخيال إليه ، فإن استبعد الخصم نسبة هذا الخيال إليه كان ذلك لائقا بهم ؛ لأنهم لما كانوا على دين فـــرعون وجـــب عـــليهم تعظيمه ، وأما قولهم : إن فطرة فرعون شهدت بأن الإله لو كان موجودا لكان في الســـماء ! قلنا : نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل إليهم صحة ذلك لا سيما من بلغ في الحماقة إلى درجة فرعون ، فثبت أن هذا الكلام ساقط .

المسألة الثانية : اختلف الناس هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السماء أم لا ؟ أما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك ، وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء ذلك الصرح ، والذي عندي أنه بعيد ، والدليل عليه أن يقال : فرعون لا يخلو إما أن يقال : إنه كان من المجانين ، أو كان من العقلاء ؟ فإن قلنا : إنه كان المجانين لم يجز من الله تعـــالى إرسال الرسول إليه لأن العقل شرط في التكليف ، ولم يجز من الله أن يذكر حكاية كلام مجنون في القرآن ، وأما إن قلنا : إنه كان العقلاء فنقول : إن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي ، ويعلم أيضا ببديهة عقله أنه لا يتفاوت البصر إلى السماء بين أن ينظر إليه من أسفل الجبال ، وبين أن ينظر إليه من أعلى الجبال ، وإذا كان هذان العلمان بديهيين امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء ، وإذا كان فساد هذا معلوما بالضرورة امتنع إسناده إلى فرعون .

والذي عندي في تفسير هذه الآية أن فرعون كان من الدربة ، وغرضه من ذكر هذا الكلام إيراد شبهة في نفي الصـــانع ، وتقريره : أنه قال : إنا لا نرى شيئا نحكم عليه بأنه إله العالم ، فلم يجز إثبات هذا الإله ، أما أنا لا نراه فلأنه لو كان موجودا لكان في السماء ، ونحن لا سبيل لنا إلى صعود السموات ، فكيف يمكننا أن نراه ، ثم إنـــه لأجـــل المـــبالغة في بيانـــه أنه لا يمكنه صعود السموات ، قال : ﴿يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأســـباب﴾ والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذا القصة قال بعدها :﴿ وَكَذَلِكَ ﴾أي : ومثل ذلك التزيين والصد ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾أي : قبيح عمله ﴿ وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ ﴾أي : منع غيره عن طريق الحق ، ونفر وامتنع .

ثم قال تعالى :﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ ﴾في إبطال أمر موسى ﴿ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ هلاك وخسران ، قال الشاعر :

أرى طول الحياة وإن تأتى تصيره الأمور إلى تباب

وكل الموسعين وإن أفادوا وغير الموسعين إلى ذهاب

والتباب : هو الهلاك ، والسعة : هي الجدة .

ثم عاد إلى حديث المؤمن فقال سبحانه :﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ الرشاد : خلاف الغي ، ومعناه : الهدى ، أي : طريق الصلاح والصواب .

ثم أخذ يذم الدنيا فقال : ﴿ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أي : انتفاع يسير ، سريع الانقطاع ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أي : المقام ، اعلم أن هذا بقية كلام الذي آمن من آل فرعون ، فقد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى ، والتمسك بطريقته ، واعلم أنه نادى قومه ثلاث مرات ، في المرة الأولى دعاهم إلى قبول ذلك الدين على سبيل الإجمال ، وفي المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل .

أما الإجمال فهو قوله :﴿ يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد ﴾ وليس المراد بقوله :﴿ اتبعوني ﴾ طريقة التقليد ؛ لأنه قال بعده :﴿ أهدكم ﴾ والهدى هو الدلالة ، ومن بين الدلالة للغير يوصف بأنه هداه ، وسبيل الرشاد : هو سبيل الثواب والخير ،

وليس المراد أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم طلب نفقاً في الأرض ، أو وضع سلماً إلى السماء ، بل المعنى أنه لما عرف أن هذا المعنى ممتنع ، فقد عرف أنه لا سبيل له إلى تحصيل ذلك المقصود ، فكذا ههنا غرض فرعون من قوله :﴿ يا هامان ابن لي صرحا ﴾ يعني : أن الإطلاع على إله موسى لما كان لا سبيل إليه إلا بهذا الطريق وكان هذا الطريق ممتنعا ، فحينئذ يظهر منه أنه لا سبيل إلى معرفة الإله الذي يثبته موسى ، فنقول هذا ما حصلته في هذا الباب . الرازي ٢٧/٦٤، ٦٥.

ومـــا يؤدي إليه ؛ لأن الرشاد نقيض الغي ، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو[1] سبيل الغي .

وأما التفصيل : فهو أنه بين حقارة الدنيا ، وكمال حال الآخرة ، وحاصل الكلام أن الآخرة باقية دائمة ، والدنيا منقرضة منقضية ، والدائم خير من المنقضي .

وقـــال بعـــض العارفين : (لو كانت الدنيا ذهبا فانيا ، والآخرة خزفا باقيا لكانت الآخرة خير من الدنيا ، فكيف والدنيا خزف فان ، والآخرة ذهب باق) .

واعلم أن الآخرة كما أن النعيم فيها دائم ، فكذلك العذاب فيها دائم ، فكان الترغيب في النعيم الدائم ، والترهيب من العذاب من أقوى وجوه الترغيب والترهيب [2] .

ثم بيَّـــن كيف تحصل المجازاة في الآخرة ، فقال تعالى :﴿ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ شرط في قبول العمل ﴿ **فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ أي : رزقا واسعا لا يحسب لكثرته ، ووقع هـــذا في مقابلة ﴿ إلا مثلها ﴾ أي : جزاء السيئة لها حساب وتقدير لئلا يزيد على المستحق ، بخلاف هذا ، فإن الزائد على المستحق فضل ولا حدَّ له .

قـــال في التجريد : "يحتمل أن يريد رزقا كثيرا لا يحصره حساب ، وأن يريد أن الله تعـــالى يتفضل بأن يجازي بالحسنة عشرا ، فواحد واجب محسوب ، وتسعة تفضل ليست بحساب"

ثم اســـتأنف ذلك المؤمن ، ونادى في المرة الثالثة فقال :﴿ **وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى الـــنَّجَاةِ** ﴾ أي : إلى ما ثمرته النجاة ، وهو التوحيد ﴿ **وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ** ﴾ أي : ما ثمرته النار ، وهو الشرك[3] .

---

(١) في المصـــابيح (بـــأن ما عليه فرعون وقومه هو على سبيل الغي) بزيادة على ، ومثل هذا اللفظ في الرازي بدون على ، ولا معنى لزيادة على هنا ، فحذفناها .

(٢) من قوله:(اعلم أن هذا من بقية كلام الذي آمن ..) إلى هنا مثله في الرازي بلفظه انظر تفسير الرازي ٦٨/٢٧ .

(٣) **قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :**

القراءة : قرأ أبو جعفر ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب (أدخلوا) بقطع الألف وكسر الخاء من الإدخال ، أي : يقال للملائكة : أدخلوهم النار . الباقون : بضم الألف والخاء عند الابتداء ، وعند الوصل بوصل الألف من الدخول ، أي : يقال لهم : ادخلوا .

اللغة : لا جرم : قيل معناه ؛ حق ووجب ، ولا رد لكلامهم ، وقيل : جرم كسب ، يقال : جرم وأجرم واجترم إذا كسب الذنب ، ومنه قوله : ﴿علي إجرامي﴾ ويقال : جرم ولا جرم بمنزلة قولك : لا بد ، ولا محالة ، وأصل الجرم القطع ، وهذا زمن الجرام ، أي : جرام النخل ، وفوض أمره إليه : أي : رده ، ومنه شركة المفاوضة ، كأنه فوض كل واحد منهم التصرف إلى صاحبه على العموم ، ويقال : حاق به الأمر يحيق إذا لزمه ووجب عليه ، وقال الأزهري : الحيق في اللغة ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله .

الإعراب : نصبت جرم لأنك نفيته ، والفاء في قوله : ﴿فوقاه الله﴾ جواب الشرط ، أي : لما قام بالحق وقاه الله من مكرهم . ﴿النار﴾ رفع لأنه بدل من سوء .

المعنى : ثم زاد في توبيخهم ووعظهم فقال سبحانه حاكيا عن المؤمن : ﴿وَيَاقَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إلى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إلى النَّارِ﴾ أي : أدعوكم إلى الإيمان الذي هو سبب النجاة ، وتدعوني إلى الكفر الذي هو سبب النار واستحقاقها ، ثم فسره فقال : ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني لا أعلم لله شريكا ، لأن الدليل دل على أنه لا شريك له ، وأنتم تدعونني إليه ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إلى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي : عبادة الله ، ومعرفة توحيده ، وهو العزيز أي : القادر على ما يشاء ، الغفار لذنوب عباده ، وإنما ذكر هاتين الصفتين وعدا ووعيدا ، أي : إن آمنتم غفر لكم ، وإن كفرتم أخذكم .

﴿لَا جَرَمَ﴾ قيل : معناه حقا مقطوعا من الجرم وهو القطع ، وقيل : هو رد لكلامهم ، كأنه قيل : لا محالة أن لهم النار ، وقيل : لا ثبات لما تدعون ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إليه﴾ إلى عبادته وهو الأصنام ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ فتقديره : ليست له إجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة عن السدي ، وقيل : ليس له دعوة ينتفع بها ، وقيل : ليس له دعوة مستجابة ، عن قتادة ، وقيل : ليس له دعوة في الدنيا لعبادته ، لأن الأصنام لا تدعو إلى عبادتها ، ولا في الآخرة لأنها تتبرأ من عبادتها ، وقيل : معناه لا تدعى لكشف بلية ، ولا لجلب منفعة ، لأنها لا تنفع ولا تضر ، ومن دعاه فَقَدَ دعاءه فقد أخطأ .

قيل : لا دعوة له في الدنيا من حيث الحجة ، ولا في الآخرة من حيث الفوز ، وقيل : ليس له منفعة في الدنيا يدعى لأجلها ، ولا شفاعة في الآخرة ، وقيل : ليس له دعوة الإلهية ، وقيل : لا تقدم دعوته فلا تجب عبادته ، بل هو شئ يطرح ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا﴾ مصيرنا ﴿إلى اللَّهِ﴾ إلى حكمه ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل : بقتل النفس بغير حقها عن مجاهد ، وقيل : بالشرك عن ابن عباس ، وقتادة ، وقيل : المسرف : الجبار المتكبر عن عكرمة ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي : الدائمون فيها ، الملازمون لها معذبين .

ثم عاد إلى الوعظ فقال : ﴿فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي ستذكرون أيها الكفار هذه العظات ، وما قدمته من النصح يوم القيامة ، يوم لا ينفع الذكر ، وقيل : إذا أتاكم عذاب الله بالغرق ، وقيل : عند النزع تذكرون

ولما ذكر هذا المؤمن أنه يدعوهم إلى النجاة ، وهم يدعونه إلى النار فسر ذلك فقال : ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أراد بنفي العلم نفي المعلوم ، تقديره : أشرك به ما ليس بإله ، فكأنه معدوم ، فكيف يصح الإشراك بالمعدوم

، وقيل : إذا لم تقبلوا نصحي فستذكرونه ، على وجه التحسر والتندم ، ﴿ وَأُفَوِّضُ أمري إلى اللَّه ﴾ قيل : هو كلام موسى ، وقيل : كلام مؤمن آل فرعون ، وهو الصحيح ، ومعناه : أكلُ أمري إلى الله ، وأعتمد على لطفه ورحمته ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أي : عالم بحالهم ، يجازي كل أحد بما يستحقه ، فهو على هذا وعيد ، وقيل : يعلم أني محق فيما أدعي ، فهو على هذا استفهام ، على أن ما يقوله حق ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أي : منعه الله عن سوء ما دبوا في طلبه ، وحفظه منهم ، وقيل : هموا بقتله عن الحسن ، والضمير في قوله : ﴿ فوقاه ﴾ قيل : يعود على موسى عن أبي علي ، وقيل : على مؤمن آل فرعون عن أكثر المفسرين ، وقيل : نجا هو مع موسى ، وكان قبطيا عن قتادة ، ولم ينج من قوم فرعون غيره ، وقيل : هموا بأخذه وصلبه فهرب إلى جبل ، فبعث فرعون رجلين في طلبه ، فوجده قائما يصلي ، وحوله الوحوش صفوف فخافا ورجعا هاربين ، وقيل : مكرهم ما تقدم ذكره عن قوم فرعون ، وهو قوله : ﴿ اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ﴾ ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل : حاق نزل ووقع ، وقيل : وجب . آله : أتباعه ، وقيل : من كان على دينه عن الحسن ، وذكر آله ولم يذكره ، لأنهم أهلكوا بسببه ، فكيف به ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ في الدنيا الغرق ، وفي الآخرة النار ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ وقيل : تعرض عليهم منازلهم من النار صباحا ومساء ، ويقال لهم : هذه منازلكم توبيخا ، فيتحسرون ، ويقال : عرض النار كناية عن العذاب ، أي : يعذبون صباحا ومساء إلى يوم القيامة ، ثم يدخلون نار جهنم ، وهذا هو الوجه ، وقيل : قوله : ﴿ غدوا وعشيا ﴾ عبارة عن الدوام وهو الوجه ، وقيل : يجوز أن يخصوا بالعذاب في هذين الوقتين ، وقيل : لما هلكوا جعلت أرواحهم في جوف طير سود ، تعرض على النار غدوا وعشيا ،عن السدي ، وهذا لا يصح ؛ لأن الروح جماد لا يعذب ، وإنما المعذب المكلف هو الشخص فلا بد أن يعيد الله حياتهم ، ثم يعذبون .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ﴾ أي : يقال : أدخلوا ﴿ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل : كانوا ستمائة ألف عن مقاتل ﴿ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ عذاب جهنم .

الأحكام : تدل الآيات على أن التوحيد والإيمان سبب النجاة ، والكفر سبب الهلاك ، وتدل على أن الواجب على الناصح إذا خولف أن يفوض أمره إلى الله ، وتدل أن القوم هموا بذلك الناصح ، وأن الله وقاه شرهم ، وتدل على عذاب القبر عن محمد بن كعب ، وعكرمة ، وتدل أن عذاب الدنيا أخف من عذاب الآخرة .

[1]﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ واسع المغفرة لأوليائه ، القاهر المنتقم من أعدائه .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ لا جرم : بمعنى حقا .

بَسَطَ في (المقاليد) (والكشاف) سياقه (في أن تجعل ﴿ لا ﴾ ردا لما دعاه إليه قومه[2] و﴿ جرم ﴾ فعل بمعنى حق ، و﴿ أن ﴾ وما في حيزها فاعله[3] ، أي : حق ووجب بطلان دعوته ، أو بمعنى كسب من قوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم ﴾[4] الآية أي : كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته[5] على معنى : أنه ما حصل من ذلك إلا [ظهور] بطلان دعوته .

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله :"والمراد بنفي العلم نفي المعلوم" أي : هو من باب نفي الشيء لنفي لازمه على سبيل الكناية ، وعن بعضهم : نفي العلم عن الخاص بناء على الدليل الواضح الشامل للكل يكون نفيا للعلم عن الكل .

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله "أن تجعل لا ردا لما دعاه إليه قومه" قال الزجاج في سورة هود : قال المفسرون المعنى حقا إنهم في الآخرة هم الأخسرون ، وزعم سيبويه أن جرم بمعنى حق ، قال :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة   جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أي حقت فزارة بالغضب ، ومعنى لا : نفي لما ظنوا ، أي : لا ينفعهم ، كأن المعنى : ﴿ لا ﴾ ينفعهم ذلك ﴿ جرم ﴾ في الآخرة هم الأخسرون ، أي كسب ذلك بالفعل لهم الخسران ، وعن بعضهم لا ههنا كَلاَ في لا أقسم ، في أنه رد لكلام سابق

(٣) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله "وأن مع ما في حيزه فاعله، أي حق ووجب بطلان دعوته" المعنى أن ما بمعنى الذي ، أي ما في إنما ، والتقدير : حق وثبت أن الذي تدعونني إليه ليس له دعوة ، ولما كان أن مع ما بعده في تأويل مصدر خبر أن ، و لم يكن لخبر أن هنا مصدر قدر ما هو في معناه ، فإن معنى قولك : ليس له دعوة قريب من معنى بطل دعوته ، ولما كان معناه قريبا من ذلك رجع تلخيص المعنى إلى حق ووجب بطلان دعوته .

(٤) المائدة : ٢ .

(٥) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله :"أي : كسب ذلك الدعاء" يعني يكون فاعل جرم ضمير يرجع إلى الدعاء الذي دل عليه قوله : ﴿ تدعونني إليه ﴾ ويكون قوله : ﴿ أنما تدعونني إليه ﴾ إلى آخره مفعولا لجرم على الوجه المذكور .

ويجوز أن يكون لا جرم نظير لابد[١] ، فعل من الجرم ، وهو القطع ، كما أن بُدًا فعل من التبديد وهو التفريق ، فكما أن معنى لابد لك أن تفعل كذا ، بمعنى لابد لك من فعله ، فكذلك ﴿لا جرم أن لهم النار﴾[٢] أي : لا قطع لذلك ، بمعنى : أنهم أبدا يستحقون النار لا انقطاع في استحقاقهم النار ، ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام ، أي : لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك ، فينقلب حقا[٣].

﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ إلى نفسه قط ، ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته ، ثم يدعو العبادُ إليها إظهارا لدعوة ربهم[٤] . وما تدعون إليه ، أي : إلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك ، ولا يدعي الربوبية ، ولو كان حيوانا ناطقا لضج من دعائكم ، أو معناه : ليس له استجابة دعوة لأحد ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ في الدنيا لأنه جماد ، وفي الآخرة إذا أنشأه الله حيوانا تبرأ من الدعاء إليه ومن عبدته ، وقيل : ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة ، وقيل : ليس له شفاعة ، أي : لا يدعو إلى الله .

ثم قال :﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي : مرجعنا إلى جزائه في الآخرة ، فبين أن هذه الأصنام لا فائدة فيها البتة ، ومع ذلك فإن مردنا إلى الله العالم بكل المعلومات ، القادر على كل شئ ، الذي لا يبدل القول لديه ، وما هو بظلام للعبيد ، فأي عاقل

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله "ويجوز أن يكون لا جرم" عطف من حيث المعنى على قوله ، أن تجعل لا ردا لما ادعاه عليه قومه ، وجرم فعل ، وعلى هذا الوجه تكون جرم اسم لا ، وقد بني معها على الفتح ، وهما في محل الرفع

(٢) وقال السيد أيضا : وقوله "فكذلك لا جرم" لما بين المصنف معنى لا جرم على الوجه الأخير أشار إلى أنه كذلك في موضع آخر ، وهو قوله تعالى :﴿لا جرم أن لهم النار﴾ ثم قال : ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام لتفسير قوله :﴿لا جرم أن ما تدعونني إليه﴾ .

(٣) الكشاف ٤/١٦٩

(٤) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله :"ثم يدعو العباد إليها" يعني دل التنكير في دعوة ، وهي نكرة في سياق النفي على نفي الدعوة عن الأصنام ، وذلك أن من حق المعبود بالحق أن يدعو عباده المكرمين إلى طاعته ، ثم أولئك العباد يدعون غيرهم إلى عبادته ، إظهارا لدعوة ربهم ، وليس كذلك الأصنام .

يُجَــوِّزُ له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الأشياء الباطلة ، وإن يُعْرِضَ عن عبادة الإله ، الذي لابد وأن يكون مرده إليه ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ يعني بالمسرفين المشركين[1] ، أو السفاكين للدماء بغير حلها ، أو الذين غلب شرهم خيرهم .

ولما بلغ مؤمن آل فرعون في هذه البيانات الغاية ـــ ختم كلامه بخاتمة لطيفة ، فقال : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ من النصيحة إذا عاينتم العذاب ، ثم قال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْــرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : ألقي أمري ونفسي إلى الله ، أي : أسنده إليه ، وأتوكل في جميع الأحوال عليه ، وهذا كلام من هُدِّدَ بأمر يخافه ، فكأنهم خوفوه بالقتل ، وهو أيضــا خوفهــم بقولــه : ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ ثم عول في دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله ، فقال : ﴿ وأفوض أمري إلى الله ﴾ وهو إنما تَعَلَّمَ هــذا الطريقة من موسى عليه‌السلام ، فإن فرعون لما خوفه بالقتل رجع موسى في دفع ذلك الشر إلى الله تعالى حيث قال : ﴿ إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيــوم الحساب ﴾[2] ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أي : خبير بما يستحقون من الجزاء ، فيجازي كلاًّ بفعله ، قال ذلك لما توعدوه . قيل : وهاهنا آخر كلام مؤمن آل فرعون .

ثم قــال تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ والمكر : هو الحيلة الباطلة ، والمعنى : شــدائد مكرهم ، وما هموا به من أنواع العذاب ، وقيل : نجا مع موسى عليه‌السلام ، وقــال مقاتل : لما ذكر هذا الكلمات قصدوا قتله ، فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه ، فلم يقدروا عليه ، وقيل : المراد بقوله : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ أنهم قصدوا إدخالــه في الكفر وصرفه عن الإسلام ، فوقاه الله تعالى ذلك ، إلا أن الأول أولى ؛ لأن قولــه بعد ذلك ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ لا يليق إلا بالوجه الأول ، ومعنى ﴿ حاق ﴾ أي : أحاط بهم ﴿ سوء العذاب ﴾ يعني : أشده وأفظعه ، قيل :

---

(١) هذا قول قتادة . وقوله : أو السفاكين . هو قول مجاهد .

٢) غافر : ٢٧ .

هـــو الغرق ، والظاهر أنه النار ، لقوله : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي : يحرقون بها ، عَــرَضَ الأســـارى على السيف إذا قتلوا به ، والنار : بدل من سوء العذاب ، كأن قــائلا قــال : مــا سوء العذاب ؟ فقيل : ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ أو خبر مبتدأ محــذوف ، أو مبــتدأ خــبره ﴿ يعرضـــون عليها ﴾ وفي هذا الوجه تعظيم النار[1] ﴿ غُــدُوًّا ﴾ أول النهار ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ آخر النهار ، والله أعلم بحالهم في ما بين ذلك ، أو هو عبارة عن دوام عذابهم ، وفيه دليل على عذاب القبر .

وفي التجريد : روى الواحدي وغيره عن ابن مسعود أنه قال : "أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النار كل يوم مرتين ، يقال : هذه داركم" .

وقــال عطـــاء وقتادة والسدي ، والكلبي : "تعرض أيضا روح كل كافر على النار غدوا وعشيا ما دامت الدنيا" .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان مـــن أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة) رواه البخاري ومسلم . اهـــ

قــلت : ويشهد بصحة هذا الحديث كثير من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام ، من ذلـــك قوله عليه السلام في كتابه إلى محمد بن أبي بكر رحمه الله ، وأهل مصر كما رواه

---

(١) قــال الســيد العــلوي رحمه الله : قوله :"وفي هذا الوجه تعظيم للنار" قال صاحب التقريب : من حيث الاستئناف ، وأنا أقول لا شك أن هذا إشارة إلى الأقرب ، وهو ثالث الوجوه ، والظاهر أنه لا استئناف فيه ، بــل الاســتئناف في الــثاني ، وأنا أظن أن التعظيم استفيد من تعريف المبتدأ مع تقديمه ، والإخبار عنه بالفعل المصــاحب ، لدلالة ذلك على استمرار العرض ودوامه ، مع تقوي الحكم ، كما في قولهم : الخطيب يشرب ويطــرب ، وأيضا فربما علم من النظم أن مقتضى المقام يقتضي أن يقال : وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، يعرضـــون على النار ، ويكون يعرضون حالا ، فلما عدل عن هذا إلى قوله : ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ كان ذلك عدولا عما يدل على التجدد إلى ما يدل على الثبات ، ولهذا كانت القراءة بالنصب عاضدة لهذا الوجه ؛ لأن يدخــلون حال ، وكذا يعرضون ، وأيضا فعلى قراءة النصب هذا الكلام منقطع عما قبله ، كما في هذا الوجه بخلافه فيما قبله.

عنه العلامة ابن أبي الحديد ، ورواه أيضا في كتابه (كتاب الاعتبار وسلوة العارفين) الإمام الموفق بالله أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل الشجري الجرجاني عليه السلام حيث قال فيه ما لفظه : "وليس أحد من الناس يفارق روحه جسده حتى يعلم أيَّ المنزلتين يصير ، إلى الجنة أم إلى النار ، أعدو لله سبحانه أو ولي له ، فإن كان وليا لله سبحانه فتحت له أبواب الجنة ، فنظر إلى ما أعد الله له فيها ، فاشتغل بها" وكل ذلك يكون عند الموت .

وفي رواية ابن أبي الحديد عنه عليه السلام : "وإن كان عدوا لله فتحت له أبواب النار ، وسهل له طريقها ، ونظر إلى ما أعد الله لأهلها ، واستقبل كل مكروه ، وفارق كل سرور ، قال تعالى : ﴿خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾"[1] . اهـ

[كلام الأئمة عليهم السلام في الأرواح وبقائها بعد فناء الأجسام]

وقد تقدم من رواية زيد بن علي عن آبائه عن علي عليهم السلام مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحو هذا ، وقد تضمن هذا المعنى كثير من كلام أئمتنا عليهم السلام.

ومن ذلك قول القاسم بن إبراهيم عليهما السلام حيث قال : "وسألت عن الأرواح بعد مفارقتها الأبدان ، أحية أم ميتة ؟ فقال عليه السلام : أرواح المؤمنين إذا فارقت أبدانها في نعيم وكرامة ، وأرواح الظالمين إذا فارقت أبدانها في خزي وندامة ، حتى ترد الأرواح إلى أبدانها في يوم البعث والقيامة ، فإذا جاء ذلك فهو التخليد والدوام ، الذي ليس له فناء ولا زوال ، ولا له عن أهله مراح ولا انتقال" .

وقال سبطه الهادي إلى الحق عليه السلام : "وسألت كيف يميت الله البدن ، ولا يميت الروح ؟ قال عليه السلام : فإن ذلك بحكمة الله وفضله ، وما أراد من الزيادة في كرامة المؤمنين ، وأراد من الزيادة في عذاب الفاسقين ، فجعل الأرواح حية باقية إلى يوم الدين ، لتكون روح المؤمن بعد فناء بدنه في البشارات والسرور والنعيم والحبور ، بما

---

(١) الزمر : ٧٢ . غافر : ٧٦ .

يسمع من تبشير الملائكة له بالرضاء والرضوان ، من الواحد ذي الجلال والسلطان ، وبما أعد له من الخير العظيم ، والثواب الجسيم ، كل ذلك يتناهى إليه علمه ، ويصل به من ربه فهمه ، فيكون ذلك زيادة في ثوابه ، ومبتدأ ما يريد الله من إكرامه ، حتى يكـــون يوم القيامة المذكور ، ثم ينفخ في الصور النفخة الأولى فيقع بهذا الروح من المـــوت ما يقع بغيره في ذلك اليوم ، فيموت ويفنى كما فني البدن أولا ، وكذلك تدبـــير الله وفعلـــه في إبقاء روح الكافر بعد هلاك بدنه ، لما في بقاء روحه عليه من الحسرة والبلاء ، بما يعاين ويوقن ، ويبلغه من إخبار الملائكة وذكرها بما أعد الله له مـــن الجحيم ، والأغلال والسعير ، وشرب الحميم ، وما إليه يصير غدا من العذاب الألـــيم ، فـــروحه في خزي وبلاء ، وحسرات تدوم ولا تفنى ، وحلول العويل به والشـــقاء ، فيكـــون ذلك زيادة في بلائه وعذابه ، ومقدمة لما أراد الله من إخزائه ، حـــتى ينفخ في الصور ، فيحق بهذا الروح ما حق بغيره من الموت ، ويواقعه ما واقع جســـمه من الفوت ، ثم ينفخ النفخة الثانية ، من بعد موت كل شئ ، وهلاك كل حي ، ما خلا الواحد الأحد الفرد الصمد [المميت] الذي لا يموت ، المحيي الذي لا يخشى من شئ فوتا ، ولو كانت الأرواح تموت مع موت الأبدان لكان في ذلك فرج وراحـــة لـــلكفار وغفلة وفرحة للأشرار ، ولكان ذلك غما وكآبة على المؤمنين ، ونقصانا وتضعضعا لسرور الصالحين ، فافهم ثاقب حكمة الله وتقديره ، وصنعه في ذلـــك وتدبيره ، وما جعل في تأخير موت الأرواح من الكرامة للمؤمنين ، والهوان عـــلى الفاســـقين ، فإنك إن فكرت بخالص لبك ، واستعملت ما جعل من مركب فكـــرك ، صـــحت لك آثار الحكمة [في ذلك] وبان لك أن الأمر من الله سبحانه كذلك [1]. اهـــ

وللمرتضى عليه السلام في هذا المعنى كلام حسن سيأتي إن شاء الله في آخر سورة الأنفال

---

(١) انظر مجموع الإمام الهادي ، المجموعة الفاخرة ص ١٦٨، ١٦٩، وقد أصلحنا اللفظ منه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أي : هذا في الدنيا ، فإذا قامت الساعة قيل لخزنة النار : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وهاهنا آخر الكلام في قصة مؤمن آل فرعون

واعلم أن الكلام في تلك القصة لما انجر إلى شرح أحوال النار لا جرم ذكر الله عقيبها قصة المناظرات التي تجري بين الرؤساء والأتباع [من أهل النار] فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ أي : واذكر يا محمد لقومك ﴿ إذ يتحاجون ﴾ أي : يحاجج بعضهم بعضا فيختصمون ، ثم شرح خصومتهم حيث قال تعالى : ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أي : الرؤساء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي : تابعين لكم في الدنيا فما تأمرونا ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أي : دافعون ﴿ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ أي : بعضا من عذابها ﴿ قَالَ ﴾ الرؤساء ﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ [(1)] وقرئ (كُلًّا) بدلا من

(1) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : القراءة - قرأ أبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿ تنفع ﴾ بالتاء لتأنيث المعذرة ، وقرأ الباقون بالياء ، كأنه أراد الاعتذار . قراءة العامة ﴿ إنا كل ﴾ بالضم رفع كل لأنه خبر إن ، وقرأ ابن السميفع : كلا بالفتح جعلها تأكيدا .

اللغة : التَّبع : يصلح أن يكون مصدرا ، يقال: تبع تبعا ، ويجوز أن يكون جمعا ، واحده تابع ، نحو خادم وخدم ، وقيل : هو واحد وجمعه أتباع . والخزنة : جمع خازن ، نحو ظالم وظلمة ، والأشهاد : جمع ، واحده : شهيد ، كسويد وأسواد ، وقيل : جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، وهو الذي يشهد بالحق لأهله ، وعلى المبطل ببطلانه .

المعنى : ثم بين تعالى ما يجري بين أهل النار فقال سبحانه ﴿ وإذ يتحاجون في النار ﴾ أي : يتخاصمون ﴿ فقال الضعفاء ﴾ الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ يعني الرؤساء والمتبوعين الذين تكبروا ، وأنفوا عن قبول الحق ﴿ إنا كنا لكم تبعا ﴾ أي : تابعين لكم في الدنيا ، مطيعين فيما تأمروننا به ﴿ فهل انتم مغنون عنا ﴾ أي : تكفون عنا ، من الغناء الذي هو الكفاية ، ﴿ نصيبا ﴾ أي : قدرا من العذاب ، وإنما قالوا على وجه النياحة والاستراحة ، وإلا فهم يعلمون أنه لا يكون . وقيل : قالوه حسرة وغما وتهجينا لرؤسائهم ، فأجابوهم ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أي : نحن وأنتم فيها سواء ، فلو أمكننا أن نكفيكم لكفينا أنفسنا ، فلا منجى لأحد ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ فأنزل بكل أحد ما يستحقه ، وهو العدل فيما يقضي ، فإذا سمعوا ذلك أقبلوا على الخزنة ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ﴾ وهم الملائكة ﴿ ادعوا ربكم ﴾ أي : كونوا شفعاء لنا عند الله ﴿ يخفف عنا يوما من العذاب ﴾ وقد علموا أنه لا يكون ، وإنما

اسم إن [1] أي كلا منا ومنكم في النار .

واعلم أن أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف ، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء ، وإيلام قلوبهم ؛

قالوا تحسرا من شدة العذاب ، فتجيبهم الخزنة ، وقيل : لا يجيبونهم ، إلا بعد ألف سنة ، ثم يقولون ﴿أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات﴾ بالحجج على التوحيد ، والعدل ، ومكنتم من قبولها فلم تقبلوا ، وهذا استفهام والمراد به التقرير ﴿قالوا فادعوا﴾ قيل : يقولون : الشفاعة فيكم غير مقبولة فادعوا أنتم فدعاؤنا ودعاؤكم واحد في أنه يجاب ، وقيل : قالوها استخفافا بهم ، وقيل : معناه فادعوا بالويل والثبور ، فالدعاء فيكم غير مجاب ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي : هلاك لأنه يزيدهم يأسا وقنوطا ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ قيل : ننصرهم بوجوه النصر ، فمنها النصر بالحجة ،ومنها النصر بالغلبة في الحروب ، ومنها النصر بالألطاف ، والتأييد ، وتقوية الغلبة ، ومنها النصر بالإهلاك للعدو ، وتعذيبهم ،ومنها النصر بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء ، كما قال ﴿نصرت بالرعب﴾ قيل : أراد بالرسل جميع الأنبياء ، لأنه وإن قتل بعضهم فكلهم منصورون ، بوجوه من النصر ، وقيل : أراد محمدا ، وقيل : أراد أنه يفلح ، فخصهم في الدنيا والآخرة عن أبي العالية ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ قيل : الملائكة والنبيئون والمؤمنون عن قتادة ، أي : يشهدون على الخلق ، واليوم يوم القيامة ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ قيل : معاذيرهم لأنها جميعها ليس بعذر ، وهو قولهم : أمرنا به وكنا تبعا ، وقيل : لأنهم يعتذرون بالباطل ، كقولهم ﴿ربنا ما كنا مشركين﴾ يعني عند أنفسنا ﴿ولهم اللعنة﴾ أي : البعد من رحمة الله ، ومعناه : عليهم ، فأقام اللام مقام عليهم ﴿ولهم سوء الدار﴾ شر منقلب وهو الجحيم ، واللام للاستحقاق . ومتى قيل : فما الجامع بين هذه الآية وبين قوله ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ ؟ قلنا: قوله ﴿لا تنفعهم معذرتهم﴾ يدل على أنهم يعتذرون ، فيحتمل أنه أراد لو اعتذروا لما نفعهم ،وقيل : يستروحون إلى تلك فيدعون كما يدعون بالويل والثبور ، وقيل : ثَمَّ مقامات يعتذرون في بعض ، و يؤذن لهم في ذلك في بعض .

الأحكام : تدل الآيات على تخاصم أهل النار ، وعلى اعترافهم بذنوبهم ، ومجيء الرسل ، وإزاحة العلل ، ولو كان خلق فيهم الكفر ، ومنعهم من الإيمان لم يكن لذلك الكلام معنى ، وتدل على أنه ينصر رسله فيبطل قول المجبرة : إنه ينصر الكفار ، وتدل أن في الآخرة شهداء ، وفائدته علم الجميع ، بأنه أوصل إلى كل أحد ما يستحقه ، وفي الخبر عنه لطف لنا ، وتدل على أن الظالم من أهل النار ، وتدل على أنه لا تقبل المعاذير ، لأنها ليست بدار تكليف ، وتدل على أن الظلم فعل العبد .

(١) الرفع على أن كل مبتدأ وصح الابتداء به لما فيه من معنى العموم ، ويجوز أن يكون خبر إن على تقدير إنا مجتمعون في النار . وأما نصبه على البدلية ، فالظاهر أن نصبه على التأكيد ، كما ذكره الزمخشري ، والحاكم الجشمي ،

لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات ، فعند هذا يقول الرؤساء : ﴿ إنا كل فيها ﴾ أي : إنا كلنا واقعون في هذا العذاب ، فلو قدرت على إزالة العقاب عنك لرفعته عن نفسي ، ثم يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أي : قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فعند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين ، فيرجعون إلى خزنة جهنم ، ويقولون ما حكى الله عنهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ أي : الكفار والضعفاء ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا ﴾ أي : مقدار يوم ﴿ مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا ﴾ جوابا عليهم ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ ﴾ أي : تكن ﴿ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : المعجزات الشاهدة على صدقهم ، أرادوا إلزامهم الحجة وتوبيخهم ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ قد جاءتنا ﴿ قَالُوا فَادْعُوا ﴾ أنتم ، فإنا لا نجترئ على ذلك ، وقد ضيعتم وقت الدعاء والإجابة أيام التكليف ، وليس قولهم ﴿ فادعو ﴾ للرجاء ، ولكن للخيبة ، فإن الملك المقرب إذا لم يُسْمَعْ ، فكيف الكافر ، فلذلك قال : ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي : ضياع وعدم جدوى ، فلا يجاب ، يجوز أن يكون من كلام الله ، أو من كلام الخزنة .

واعلم أنه لما ذكر وقاية الله موسى عليه‌السلام وذلك المؤمن من مكر فرعون ـ بيَّنَ سبحانه أنه ينصر رسله والذين آمنوا معه فقال عز وجل : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة .

قال الرازي في كيفية نظم الآية : والأقرب عندي أن الكلام في أول السورة إنما وقع من قوله ﴿ وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ وامتد الكلام في الرد على أولئك المجادلين ، وعلى أن المحقين أبدا كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين ، وكل ذلك إنما ذكره الله تعالى تسلية للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وتصبيرا له على تحمل أذى قومه .

ولما بلغ الكلام في تقرير المطلوب إلى الغاية القصوى ، وعد تعالى رسوله بأنه ينصره على أعدائه [في الحياة الدنيا وفي الآخرة] فقال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾

و[اعلم أن] في قوله : ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ إلى قوله : ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ فائدة معتبرة[1] ، وهي أن السلطان العظيم إذا خص بعض خواصه بالإكرام العظيم ، والتشريف الكامل عند حضور أهل الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب كان ذلك ألذ وأبهج ، فقوله : ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ إلى ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ المقصود منه هذه الفائدة . اهـ

يعني أنه يغلبهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على مخالفيهم ، وإن غلبوا في الدنيا نادرا امتحانا ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين .

والأشهاد : الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وآله .

في التجريد : المراد أن الله يجعلهم الغالبين بالحجة في الدارين جميعا ، وأما الظفر على مخالفيهم فهو كائن في الآخرة لا محالة ، وأما في الدنيا فقد يكون وقد لا يكون .

وقال الواحدي وغيره : وهم أيضا منصورون بالقهر في الدنيا على من ناواهم فتارة يكون بإعلاء أمرهم ، كما أُعْطِي داود وسليمان ومحمد صلوات الله عليهم وعلى آل محمد ، وتارة بأن ينتقم الله لهم من أعدائهم ، كما فعل بقوم نوح ، وقوم هود ، وفرعون وجنوده ، في حياة الرسل ، وتارة تكون بعد وفاة الرسل ، بأن يسلط الله على أعدائهم كتسليط بخت نصر على قتلة يحي بن زكريا ، حتى قَتَلَ على دمه سبعين ألفا ، فهم لا محالة منصورون في الدنيا بأحد هذه الوجوه .

والأشهاد : جمع شاهد من الحفظة وغيرهم كما مر .

ثم قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ كقولهم : ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾[2] ثم قال : ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي : البعد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي : سوء دار الآخرة وهو عذابها .

واعلم أن المقصود أيضا من هذا شرح تعظيم أهل الثواب ، وذلك لأنه تعالى بين أنه

---

(١) في الرازي (دقيقة معتبرة) وما بين أقواس الزيادة منه ٢٧/٧٦ .

(٢) الأحزاب : ٦٧ .

ينصرهم في يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، فحالهم في علو الدرجة في ذلك اليوم ما ذكرنا .

وأما حال أعدائهم فهو أنه حصلت لهم أمور ثلاثة .

أحدها : أنه لا ينفعهم شئ من المعاذير البتة .

وثانيها : أن لهم اللعنة ، وهذا يفيد الحصر ، يعني اللعنة مقصورة عليهم ،وهي الإهانة والإذلال .

وثالثها : سوء الدار ، وهو العقاب الشديد ، في[هذا اليوم]إذا كان الأعداء واقفين في هذ[ه المراتب الثلاثة من]الوحشة والبلية .

ثم إنه تعالى يخص الأنبياء والأولياء بأنواع التشريفات الفائقة في المجمع الأعظم ، فهاهنا يظهر أن سرور المؤمنين كم يكون ! وأن غموم الكافرين إلى أين تبلغ ! .

فإن قيل : قوله :﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ يدل على أنهم يذكرون الأعذار ، إلا أن تلك الأعذار لا تنفعهم ، فكيف يكون الجمع بين هذا ، وبين قوله :﴿ ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾[1] ؟ قلنا : قوله :﴿ لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ لا يدل على أنهم ذكروا الأعذار ، بل ليس فيه إلا أنه ليس عندهم عذر مقبول نافع ، وهذا القدر لا يدل على أنهم ذكروه أم لا ، وأيضا فيقال : يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ، ولا يعتذرون في وقت آخر .

ولما بين الله أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة ، ذكر نوعا من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾ هو جميع ما آتاه الله في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع[2] .

---

١) المرسلات : ٣٦ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : القراءة ــ قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ﴿ تتذكرون ﴾ بالتاء على الخطاب ، الباقون بالياء . وقرأ أبو جعفر ، وابن كثير ، ويعقوب ، وعاصم في

بعض الروايات عنه ﴿ سيدخلون ﴾ بضم الياء ، وفتح الخاء ، على ما لم يسم فاعله ، من الإدخال ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء من الدخول ، أضاف الدخول إليهم .

اللغة

الداخر : الصاغر الذليل ، دخر الرجل ، وهو داخر إذا ذل ، وأدخره غيره أذله .

الإعراب

داخرين : نصب على الحال .

النزول

قيل : نزل قوله ﴿ الذين يجادلون ﴾ في اليهود ،و كانوا يجادلون في القرآن حسدا عن ابن عباس ، وقيل : كانوا يقولون : صاحبنا المسيح ، يعني الدجال يخرج في آخر الزمان ، فيبلغ سلطانه البر والبحر ، ويرد الملك إلينا ، وتسير معه الأنهار ، فأنزل الله فيهم هذه الآية .

المعنى

لما تقدم نصرة الرسل بين تفصيل ذلك ، فقال سبحانه ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ يعني : الحجج والبينات ﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ﴾ أي : التوراة ﴿ هدى ﴾ أي : دلالة ، يعرفون بها معالم دينهم ﴿ وذكرى ﴾ مواعظ وقيل : تذكرهم شرائع دينهم ﴿ لأولي الألباب ﴾ قيل : لمن يستعمل عقله ، ويتفكر ، وقيل : للعلماء ، وقيل : للعقلاء المكلفين ، ثم عاد الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد فإنا ننصرك ، كما نصرنا موسى ، وإن آذاك قومك ، وقيل : الخطاب للمؤمن ، كأنه قيل : اصبر أيها السامع ، وقيل : انه خطاب لموسى ، على نبسق الكلام ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أي : وعده لأوليائه بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، وقيل : وعده بإهلاك أعدائه وإظهار دينه ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ قيل : صغيرة تقدمت منك ،ولعظيم نعمه على الأنبياء كلفوا التوبة من الصغائر ، وتجب كلما ذكرها وإلا كان مصرا عن أبي علي ، وقيل : ذنبه أنه حدث نفسه أن الظفر كان يفوته ، وقيل : استعجل النصر قبل وقته ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي : نـزهه بإضافة النعم إليه ، وحسن الثناء عليه ، ونفي التشبيه عنه ، وتتريهه عن الأفعال القبيحة ، وقيل : نزه صفاته عن صفات المحدثين ، وأفعاله عن صفات الظالمين ، وقيل : صل بحمد ربك ﴿ بالعشي والإبكار ﴾ من زوال الشمس إلى الليل ، ومن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وقيل : هي كناية عن صلاة الخمس ، وقيل : بل هو كناية عن الدوام ، وقيل : خص هذين الوقتين لأن العبد أقرب إلى أن يتفرغ للعبادة ، وقيل : أراد صلاة الغداة والعصر ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله ﴾ قيل : جادلوا في إنكار البعث ، وقيل : في نبوته ، وقيل : في التوحيد ، وقيل : هم اليهود ، وقيل : المشركون ﴿ بغير سلطان ﴾ حجة ، ﴿ أتاهم ﴾ من جهة الله ﴿ إن في صدورهم ﴾ أي : ما في قلوبهم ، فكنى بالصدر عن القلب لأنه موضعه ، كما يقال: صدر الموضع الشريف ﴿ إلا كبر ﴾ أي : يتكبرون عن قبول الحق ، واتباع الرسل حسدا وبغيا ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ قيل : في صدروهم عظمة ما هم ببالغيها لأنهم يصيرون إلى الذل والهوان ، عن مجاهد ، وقيل : في قلوبهم كبر

ثم قال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ بعده ﴿ الْكِتَابَ ﴾ وهي التوراة ، أي : تركنا لهم من بعد موسى ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ ﴾ أي : إرشادا وتذكرة ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي : العقول ، وهم المؤمنون العاملون بما فيه ، يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى لما أنزل

لحسدك على النبوة ، التي أكرمك الله بها ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ لأنه تعالى يرفع به من يشاء ، وقيل : يريدون لك أمرا كبيرا من السوء ، ولا يبلغونه لدفاع الله عنك . وقيل : آمالا كانوا يتمنونها نحو هجوم عساكر تغلب على الإسلام ، وما هم ببالغيه لأنه تعالى تكفل بنصره ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي : اعتصم به ليكفيك شرهم ﴿ انه هو السميع البصير ﴾ لأقوال هؤلاء الذين جادلوا بالباطل ، العليم بضمائرهم ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ يعني خلق السموات والأرض أعجب وأعظم من البعث ، فإذا قدر على خلقهما وتسكينهما ، وتعاقب الليل والنهار فيهما ، وتسيير النجوم ، ونحوهما ــ فهو يقدر على إعادتهم ، وقيل : أراد كيف تنكرون البعث مع إقراركم أنه خلق السموات والأرض ، وهو أكبر وأعجب ﴿ ولكن أكثر الناس يعلمون ﴾ يعني الكفار ، وقيل : اكثر من خلق الدجال ، ولكن اليهود الذين يجادلون في أمره لا يعلمون . ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي : لا يستوي من أهمل نفسه فهو كالأعمى لا يبصر شيئا ، ومن يتفكر فيعرف الحق ، وكذلك لا يستوي ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ﴾ بعمل المعاصي ﴿ قليلا ما يتذكرون ﴾ أي : قل تفكرهم في العواقب ﴿ إن الساعة ﴾ أي القيامة ﴿ لآتية لا ريب فيها ﴾ أي : لا شك في مجيئها ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي : لا يصدقون بها ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ يعني : انصرفوا عن الأوثان التي لا تسمع ولا تنفع ، ولا تجيب لكم ، يعني : اعبدوني وحدي . وقيل : المراد به الذكر والدعاء ، والأول أحسن ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ قيل : توحيدي وطاعتي ، وقيل : من دعائي عن السدي ، والأول قول أكثر المفسرين ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ صاغرين أذلاء .

الأحكام

يدل قوله ﴿ الذين يجادلون ﴾ على قبح الجدال بالباطل ، وأما الجدال بالحق لنصرة الدين فمحمود ، ويدل قوله ﴿ لخلق السموات ﴾ على صحة الحجاج في الدين ، وتدل على أن المعارف مكتسبة لذلك قال ﴿ ولكن أكثر الناس يعلمون ﴾ وتدل على وجوب الدعاء ، والانقطاع إليه لذلك قال ﴿ ادعوني ﴾ وتدل على أنه يضمن الإجابة ، ومتى قيل : نحن نرى كثيرا من الأدعية لا تستجاب ؟ قلنا: إنما يستحقه لعبده المؤمن ، لأنه يجري مجرى الثواب ، ويتقدم ويتأخر بحسب المصلحة ، ولا بد في الدعاء أن يكون مشروطا بالصلاح ، ومتى قيل : إذا كان الصلاح في فعله ، لا بد أن يفعله ، فما معنى الدعاء ؟ قلنا: ربما يكون الصلاح في فعله ، إذا تقدم الدعاء ، ولولا الدعاء لما كان صلاحا ، ومتى قيل : لم وجب الدعاء حتى ذم على تركه ؟ قلنا: لأن فيه من الإخلاص والانقطاع إليه والإعتراف بأن النعم منه ، وأن الجاحد بذلك لا يرجع إليه . ومتى قلنا: إن المراد بالدعاء العبادة ، فلا كلام والإخلاص هو قول أكثر المفسرين .

التوراة على موسى بقي ذلك العلم فيهم ، وتوارثوه خلفا عن سلف ، ويجوز أن يكون المراد منه سائر الكتب التي أنزلها الله عليهم ، وهي كتب أنبياء بني إسرائيل ، [التوراة] والزبور والإنجيل ، والفرق بين الهدى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلا على الشيء ، وليس من شرطه أن يذكر شيئا آخر كان معلوما ثم صار منسيا ، وأما الذكرى فهو الذي يكون كذلك ، فكتب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين ، بعضها دلائل في أنفسها ، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة .

ولما بين أن الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة خاطب بعد ذلك محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على تكذيبك ، كما صبر موسى ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : وعده بنصر رسله ، والمعنى فإن الله ناصرك ، والعاقبة لك ، كما كانت لموسى على فرعون ، وأبقى آثار هداه في بني إسرائيل ، ووعدُه قولُه : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ ثم أمره بأن يُقْبِلَ على طاعة الله ، فإن من كان لله كان الله له .

واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين : التوبة عما لا ينبغي ، والاشتغال بما ينبغي ، أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يريد الفرطات ، والطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون به ، ونحن نحمله على الهفوة والتأويل منهم ، أن لا يؤاخذوا به ، وقيل [1]: التوبة عن ترك الأولى والأفضل ، وأما الاشتغال بما ينبغي ، فهو قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي : داوم على عبادة ربك والثناء عليه ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ أي : افعل ذلك في وقتي العشي والإبكار ، يريد صلاتي العصر والفجر ، وقيل : الصلوات الخمس عن ابن عباس ، والتسبيح عبارة عن تتريه الله عما لا يليق به ، وبالجملة فالمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله ، وأن لا يفتر اللسان عنه ، وأن لا يغفل القلب عنه ، حتى يصير الإنسان بهذا السبب داخلا في زمرة الملائكة ، قال سبحانه في وصفهم : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا

---

(١) صاحب القيل : هو الفخر الرازي ٢٧/٧٨

يفترون ﴾[1] والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ هم قريش يخاصمون في إبطال المعجزات ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أي : بغير دليل ﴿ أَتَاهُمْ ﴾ يصحح دعواهم ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ أي : ما فيها إلا تكبر ، وهو إرادة الرئاسة ، ولا يكون فوقهم أحد ، ولذلك عادوك .

قال الرازي : اعلم أنا بينا أن الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدئ ردا على الذين يجادلون في آيات الله ، واتصل البعض بالبعض ، وامتد على الترتيب الذي لخصناه ، والنسق الذي كشفنا عنه إلى هذا الموضع .

ثم إنه تعالى نبه في هذا الآيات على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة ، فقال : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ﴾ إنما يحملهم على هذا العمل الباطل كِبْرٌ في صدورهم ، فذلك الكبر هو الذي يحملهم على هذا الجدال الباطل ، وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك ؛ لأن النبوة تحتها كل ملك ورئاسة ، وفي صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا في خدمتك ، فهذا هو الذي يحملهم على هذه المجادلات الباطلة ، والمخاصمات الفاسدة[2] .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ أي : بواصلين إلى موجبه من الرئاسة ودفع الآيات .

قال في البرهان : ﴿ إلا كبر ﴾ يعني تكبروا أن يؤمنوا بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ أي : ببالغي ذلك الكبر ، أي : بنائلي ما أرادوا [ولا يصلون إليه ، بل لابد وأن يصيروا تحت أمرك ونهيك][3] .

ثم قال تعالى : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أي : اعتصم به ، والتجئ إليه من كيدهم وحسدهم

---

(١) الأنبياء : ٢٠ .

(٢) تفسير الرازي ٧٨،٧٩/٢٧ .

(٣) انظر البرهان مخطوط ص ٣٣٨ ، وما بين أقواس الزيادة ليس في البرهان ، وموجود في المصابيح .

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم وقولك ﴿الْبَصِيرُ﴾ بعملك وعملهم ، فهو ناصرك وعاصمك ، ثم ذكر ما يستدل به على البعث فقال : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع عظمها وكبر أجرامها ،ووقوفها بغير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب إلى غير ذلك من العجائب والغرائب ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ أي : أعظم من إعادة الناس ، وإنما استدل عليهم بذلك ؛ لأن مجادلتهم مشتملة على إنكار البعث ، وهو أصل المجادلة ، فحجوا بهذا ؛ لأنهم مقرون بخلق السموات والأرض ، وأنها خلق عظيم ، وخلق الناس بالقياس إليه شئ قليل ، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان المهين أقدر ، فلا يعجزه البعث ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لعدم تأملهم ، وغلبة الغفلة عليهم كالأعمى .

ثم لما بين الله تعالى أن الجدال المَقْرُونَ بالكبر والحسد والجهل كيف يكون ، وأن الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون ـ نبه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال ، فضرب الأعمى والبصير مثلين للناس ، للعالم والجاهل ، فقال تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ وضرب هذا مثلا للمحسن والمسيء ؛ لأن المسيء كالأعمى ، والمحسن كالبصير ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أراد ولا يستوي المؤمنون والمسيئون ، فاكتفى بعطف ﴿الذين آمنوا﴾ على ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ ودخلت لا على المسيء زائدة ، كما تدخل في المعطوف على المنفي في نحو : ما جاء زيد ولا عمرو ، والمعنى : لا يساويهم المسيء في عمله ، كما لا يستوي الأعمى والبصير ؛ لأن المسيء كالأعمى ، والمحسن كالبصير ، فالمراد من الأول التفاوت بين العالم المستدل ، والجاهل المقلد ، والمراد بالثاني التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة ، وبين الآتي بالأعمال الفاسدة .

ثم قال : ﴿قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ما : زائدة ، أي : يتذكرون تذكرا قليلا ، أي : يتفكرون ، أو أراد بالقلة العدم ، أو أراد أنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل ، والعمل الصالح خير من العمل الفاسد ؛ إلا أنه قليلا ما يتذكرون في النوع

المعـين من الاعتقاد أنه علم أو جهل ، وفي النوع المعين من العمل أنه عمل صالح أو فاسـد ، فإن الحسد يعمي قلوبهم ، فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة ، وفي الحسـد والحقد والكبر أنه محض الطاعة ، فهذا هو المراد من قوله :﴿ قليلا ما يتذكرون ﴾ .

ولمـا قـرر الدلائل الدالة على إمكان وجود القيامة أردفه بأن أخبر عن وقوعها ، ودخولها في الوجود فقال تعالى :﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : لا ينبغي أن يكـون فيهـا ريب ، أي : لا يشك في مجيئها ، لوضوح أدلة إتيانها ؛ لأنه لابد من جزاء العباد ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون بها .

ثم أعلم أنه تعالى لما بين أن القول بالقيامة حق وصدق ، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى ، والتضرع إلى الله ـــ لا جرم كـان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ، ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع ـــ لا جرم أمر الله تعالى به فقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي : اعبدوني أثبكم بدليل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي : أذلاء صاغرين ، وفي الحديث (إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء أعطيته أفضل مـا أعطي السائلين ﴾[1] ويجوز أن يراد بالدعاء والاستجابة (سلوني أعطكم) ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ أي : عن دعائي وسؤالي ، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم في تفسيرها : (إذا قـال العبد يا رب قال تعالى : لبيك عبدي لا تدعوني بشيء إلا أجبتك على إحـدى ثلاث ، إما أن أعجل لك ما سألتني ، وإما أن أدخر لك في الآخرة ما هو

---

(١) الحديـث ذكره أيضا الزمخشري في الكشاف ، قال ابن حجر في تخريجه : قال : عبد الرزاق عن سفيان ، عـن منصور ، عن مالك بن الحارث ، قال : يقول الله : إذا اشتغل عبدي بثنائه عن مسألتي أعطيته أفضل مما أعطي السائلين) وهذا مرسل ، وفي الترمذي عن أبي سعيد (من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) وفي الرازي :(من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) ٨١/٢٧ .

وفي الرازي : (من شغله ذكري عن مسألتي) الخ .

أفضل ، وإما أن أدفع عنك من البلاء مثل ذلك)[1] ومعنى ﴿عن عبادتي﴾ أي : عن طاعتي ، أو يريد عن دعائي ؛ لأن الدعاء باب من العبادة ، قال ابن عباس : أفضل العبادة الدعاء[2].

فإن قيل : كيف قال :﴿ادعوني أستجب لكم﴾ وقد يدعى كثيرا فلا يستجيب ؟ أجاب بعض العلماء[3] بأن قال : الدعاء إنما يصح على شرط ، ومن دعا كذلك استجيب له لا محالة، وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة .اهـ

واعلم أن كل من دعا إلى الله وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربه وأصدقائه ، وجده واجتهاده ، فهو في الحقيقة ما دعا الله إلا باللسان ، فأما القلب فإنه يعول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله تعالى ، فهذا الإنسان ما دعا ربه ، أما إذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله فالظاهر أنه تحصل الاستجابة .

إذا عرفت هذا ففيه إشارة كاملة ، وهي أن انقطاع القلب الكلية عما سوى الله تعالى لا يحصل إلا عند القرب من الموت ، فإن الإنسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شئ سوى فضل الله ، فمتى حصل الانقطاع إلى الله ، واليأس عما سواه وجب أن يكون الدعاء في ذلك الوقت مقبولا عند الله ، فنرجو من فضل الله وإحسانه أن يوفقنا للدعاء المقرون بالإخلاص ، والتضرع في كل الأوقات .

قلت : وللمرتضى عليه‌السلام في مثل هذا جواب شاف سيأتي إن شاء الله في سورة البقرة ، في قوله تعالى :﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا

(١) الحديث ذكر مطلعه في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٣٦٢/١ ، وعزاه إلى فتح الباري ٢٢٥/١١ ، و الترغيب والترهيب ٤٨/٢، ومجمع الزوائد ١٥٩/١٠ ، وكنز العمال رقم ٣١٣٢، وهو في مجمع الزوائد بلفظ قريب مختصر ، وأورد أوله في كنز العمال ، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في الدعاء ، عن عائشة ، وكذلك أوله في الترغيب والترهيب ٤٨١/٢ ، وللحديث ألفاظ أخر متقاربة .

(٢) قال الزمخشري : وروى النعمان بن بشير عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :(الدعاء هو العبادة) .

(٣) ـــ هو الكعبي ، ذكره الرازي في تفسيره ٨١/٢٧ .

دعاني ﴾ [١] الآية .

واعلم أنه لما أمر بالدعاء ، وكان لابد من حصول المعرفة قبل الاشتغال بالدعاء أخبر سبحانه بالدلائل النيرة على وجوده ومعرفته وقدرته وحكمته ، فقال الله :﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ من حركات النهار المتعبة ، وتصرفاته لتستريحوا ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ هذا مجاز ؛ لأن الإبصار حقيقة لأهل النهار[٢].

---

١) البقرة : ١٨٦ ، وينظر كلام الإمام المرتضى في سورة البقرة .

(٢) وفائدته المبالغة في الإبصار الحاصل من النهار ، وذلك مستفاد من الإسناد المجازي ، لأن الملابس إذا وصف بصفة المُلابِسِ ، كان ذلك إيذانا بكمال ذلك الوصف في الأصل ، وأنه سرى منه إليه لكثرة صدوره منه ، فإذا قيل : نهاره صائم بدل هو في النهار صائم ـــ أفاد أنه بلغ فيه إلى زمان الليل

قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

القراءة

قراءة العامة : (صوركم) ، بضم الصاد جمع صورة ، و(تبارك) تفاعل من البركة ، وهو الزيادة ، ومعناه : الحياة والبقاء

المعنى :

لما تقدم الدعاء إلى عبادته وتوحيده عقبه بذكر أدلة التوحيد ، فقال سبحانه ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ يعني أراد بخلق الليل أن يكون محلا لسكونكم فتسكن فيه كل الحيوانات ، ويستريحون من الكد والتعب ﴿ والنهار مبصرا ﴾ أي : خلق النهار مضيئا ، تبصرون فيه مصالح دنياكم ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ بهذه النعم عليكم من غير استحقاق ، ولا تقدم طلب ، ومع هذا فإن أكثر الناس لا يشكرون لجهلهم بالنعم والمنعم ﴿ ذلكم ﴾ يعني من أنعم عليكم بهذه النعم ﴿ الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ أي : لا يستحق العبادة غيره ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ قيل : كيف تصرفون عن هذه الأدلة مع وضوحها ، وقيل : كيف تصرفون عن عبادته مع هذه النعم التي أنعم عليكم بها ﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ قيل : كما صرف هؤلاء عن الحق ، كذلك صرف من تقدم من الكفار ، صرفهم أكابرهم ورؤساؤهم ، وقيل : كما صرف هؤلاء بشبه ، كذلك صرف من قبلهم بترهات ، كشُبَه النصارى واليهود ، وقيل : كما صرف هؤلاء عن طريق الحق ، كذلك يصرفون عن الثواب وطريق الجنة جزاء على إفكهم ، وقيل : يؤفك : يهلك ، أي : كذلك يهلك من كان قبلهم ﴿ بآيات الله يجحدون ﴾ يتكبرون . ثم زاد في الأدلة فقال سبحانه ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قرارا ﴾ أي : مستقرا تستقرون عليه ، فخلق فيه السكون ، ولولا ذلك لهوى ﴿ والسماء بناء ﴾ بناها كالسقف للأرض ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ لأن صورة الإنسان أحسن

واعـــلم أنه تعالى لما ذكر في الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَـــذُو فَضْـــلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : له عليهم فضل لا يوازيه فضل لسعته ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الـــنَّاسِ ﴾ أي : أكثرهم ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لكن تكرير لفظ الناس تخصيص لهم بكفر النعمة .

ولما أخبر الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة على معرفة الإله القادر الرحيم الحكيم قال سبحانه : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : ذلكم المتميز بالأفعال الخاصة به التي لا يشاركه فيهـــا أحد هو الله ربكم ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : فكيف ومن أي جهة تصرفون وتعدلون عن عبادة الله إلى عبادة الأوثان ؟! وهو الجامع لهذه الأوصاف ، ومعناه : الاستبعاد لذلك .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الإفك والصرف ﴿ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي : يصرفون .

ولما أخبر الله تعالى عن دلائل الليل والنهار ، أتبعه بدلائل الآفاق من الأرض والسماء ، فقـــال ســـبحانه : ﴿ الـــلَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي : موضع قرار لكم

الصور ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ فجعل كل طيب لذيذ رزقا للناس ، وما ينفر عنها طباعهم رزقا للحيوانات ، كالورق والحشيش ، ونحوه ﴿ ذلك الله ربكم ﴾ أي : خالق هذه الأشياء هو خالقكم ﴿ فتبارك الله ﴾ أي : جل بأنه الثابت الدائم ، لم يزل ولا يزال ﴿ رب العالمين هو الحي ﴾ إنما تمدح به لأنه الحي لم يزل ولا يزال من غير حياة ، ولا فاعل ، ولا ما يتعدى به ، ولا بنية ﴿ لا إله إلا هو فادعوه ﴾ أي : اعبدوه ﴿ مخلصين له الديـــن ﴾ أي : تخلصون له العبادة ﴿ الحمد لله ﴾ أي : احمده على هذه النعم ، قال الفراء : هو خبر ، وفيه إضـــمار ، كأنه قيل : ادعوه واحمدوه ، وقولوا ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وعن مجاهد عن ابن عباس ﴿ من قـــال : لا إله إلا الله فليقل على أثره : الحمد لله رب العالمين فذلك قوله ﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾) .

الأحكام : تدل الآيات على أنه الخالق لهذه الأشياء ، و يقدر عليها غيره ، وتدل أنه خلقها لمنافع العباد بها دينا ودنيـــا ، أمـــا منافع الدنيا فظاهرة ، وأما منافع الدين فمتى تفكروا فيها علموا أن لها صانعا يستحق العبادة ، فيدعوهـــم ذلك إلى عبادته وشكر نعمته ، ويدل قوله ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ أنه منعم على الكفار خلاف قول أهل الجبر .

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي : سقفا وقبة ؛ لأن السماء في منظر العين كقبة مضروبة على الأرض ، وأبنية العرب : مضاربهم لقبابهم ، والقبة : بيت من أدم ، وهذه دلالة أخرى على تميزه بما يخصه ، وهو جعلهما كذلك .

ثم ذكر تعالى دلائل الأنفس وهي قوله : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ قيل : لم يخلق حيوانا أحسن صورة من الإنسان ، وقيل : أحسن صوركم حيث جعل ابن آدم قائما معتدلا فيأكل بيده ، ويتناول بيده ، وغيره منكوس ويأكل بفيه كالبهائم عن ابن عباس .

ثم قال : ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يريد : الثمار الطيبة من مستلذات الرزق ، وللبهائم الحشائش والأتبان .

ولما ذكر الله تعالى هذا الدلائل الخمسة ، اثنين من دلائل الآفاق ، وثلاثة من دلائل الأنفس ـ قال : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ لا رب لكم سواه ، أي : ذلكم المختص بهذا الأفعال ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي : تعالى وتعاظم عن أن يكون له شريك ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : مالكهم فكيف يكون له شريك ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الذي لا يموت ، ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال نبه على الصفة الثالثة ، وهي الوحدانية بقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ .

ولما وصفه بهذا الصفات أمر العباد بشيئين أحدهما : بالدعاء ، والثاني : بالإخلاص فيه ، فقال : ﴿فَادْعُوهُ﴾ أي : فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي : الطاعة من الشرك والرياء ، قائلين : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال الفراء : تقديره : (وقولوا : الحمد لله رب العالمين) قال ابن عباس : (من قال : لا إله إلا الله ، فليقل على إثرها : الحمد لله رب العالمين)[1] لأنه عطفه على الأمر ، وهو ﴿فادعوه﴾ و(الحمد لله)

---

(١) أخرجه الطبري ، والحاكم أيضا ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن مردويه من رواية الأعمش ، عن مجاهد عنه . الكشاف ٤/١٧٦.

على هذا النعم المتقدمة ، وهي نعمة الدين والدنيا ، أما نعمة الدنيا فما أشار إليه من الخلق وتحسينه ، والرزق من الطيبات ، وأما نعمة الدين فقوله :﴿ فادعوه مخلصين له الدين﴾ والله أعلم .

ولما بين صفات الجلال والعظمة قال :﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي : تعبدون من دون الله من الأوثان ﴿ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ أي : حين جاءني الدلائل على قبح عبادها ، كقوله :﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾[1] وقوله :﴿ البينات من ربي﴾ مؤكدة لأدلة العقل ، وإلا فكانت كافية ، ولأن تناصر الأدلة من العقل والسمع أقوى في إبطال مذهبهم ، فأورد على المشركين ألين قول ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، وبين أن وجه النهي في ذلك ما جاءه من البينات[2] .

قال السيد العلوي رحمه الله : قوله :(من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها الحمد لله) وذلك أن قوله :﴿ فادعوه مخلصين له الدين﴾ أمر بالإخلاص ، ثم عقبه بالتحميد مرتبا على التهليل ، أراد إذا تكلمت بكلمة التوحيد فاعمل مخلصا ؛ لأنه من مقتضاه ، ثم احمد الله على التوفيق ، كما قال : قل الله ثم استقم .

(١) الصافات : ٩٥ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

القراءة — قراءة العامة ﴿ السلاسل ﴾ بالرفع عطفا على الأغلال . و﴿ يسحبون ﴾ بضم الياء يعني أهل النار يسحبون ، وعن ابن عباس (السلاسل) بفتح اللام ، يسحبون بفتح الياء ، يعني هم يسحبون السلاسل ، فيكون أشد عليهم .

الأشد : حال استكمال القوة ، وهو جمع شدة ، يقال: شدة ، وأشد كنعمة وأنعم . والعلقة : القطعة من الدم ، والأجل : الوقت ، والأغلال : جمع غل ، وهو طوق يدخل في العنق للإذلال والتعذيب . والسلاسل : جمع سلسلة ، وهو حلق منتظمة في جهة الطول مستمرة ، والسحب : الجر ، سحب سحبا ، والسجر : إلقاء الحطب في معظم النار .

النزول : قيل : نزل قوله ﴿ قل إني نهيت ﴾ في مشركي مكة ، لما دعوه إلى موافقتهم ، فأما قوله ﴿ إن الذين يجادلون بالباطل﴾ عن ابن سيرين وجماعة ، ومجادلتهم بالباطل قولهم: الله الذي خلق الكفر في الكفار ، وخلق فيهم القدرة الموجبة ، وأراد منهم الكفر ، ولم يرد منهم الإيمان ، ولا خلقه ولا قدّره عليهم ، فمع هذا كيف يؤمن كذب الرسل ، لأنهم دعوا إلى الإيمان وأتوا بخلاف ما هم عليه .

ولما بين أنه نهى عن عبادة غير الله ، بين أنه أمر بعبادة الله ، فقال : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أي : أخلص عبادتي ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ومن دلائل الأنفس قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أي : أصلكم آدم ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أي المني ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أي : الدم يعود من النطفة ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ من بطون أمهاتكم ، أي :

المعنى : ثم نهى عن عبادة غيره ، فقال سبحانه ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إني نهيت ﴾ أي : نهاني الله ، وإنما جاء بلفظ المجهول تفخيما ﴿ أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ أي : تدعونه إلها ، وتعبدونه ، وهي الأوثان ﴿ لما جاءني البينات من ربي ﴾ يعني أعطاني الحجج ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ قيل : انقاد له ، وقيل : اخلص العبادة له ، وقيل : أسَلِّمُ أموري كلها إليه ، ثم دعا إلى ذكر الأدلة المتضمنة للنعم فقال سبحانه ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ﴾ يعني آدم ، وهو أبو الجميع خلقه من تراب ، فأحال التراب لحما ، ودما وعظما وعصبا ، فصور منه شخصا سويا ﴿ ثم من نطفة ﴾ أي : خلق أولاده من نطفة ، وهو ماء الرجل والمرأة ﴿ ثم من علقه ﴾ فتصير النطفة قطعة دم ﴿ ثم يخرجكم طفلا ﴾ أي : أطفالا ، والطفل : يراد به الواحد والجمع ، قال الله تعالى ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا ﴾ ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أي : حال القوة والكمال ﴿ ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أي : يموت قبل بلوغ الأشد ، وقيل : قبل بلوغ الشيخوخة ﴿ ولتبلغوا أجلا مسمى ﴾ أي : يبقيه ليبلغ وقتا محدودا لا يجاوزه ، وقيل : الأجل المسمى : هو ما سمي له من الوقت فيموت عنده ، وقيل : هو القرن الذين تقوم عليهم القيامة ، والأجل : القيامة ، عن الحسن ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ قيل : لتعقلوا ذلك ، وقيل : لتعلموا الآيات ، فتدلوا بها على توحيده ﴿ هو الذي يحي ويميت فإذا قضى أمرا ﴾ أي : خلق وقدر ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ قيل : يوجده من غير امتناع وتعذر ، والقول مَثَلٌ ، وقيل : يحدث هذا القول علامة للملائكة أنه يفصل أمرا .

﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله ﴾ أي : ينازعون في حججه بالباطل ، قيل : الآيات والتوحيد والعدل ، وقيل : المعجزات الدالة على نبوته ﴿ أنى يصرفون ﴾ أي : كيف ينصرفون عنها مع وضوحها ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴾ عاقبة أمرهم ، ووبال فعلهم ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ﴾ أي : يجرون ﴿ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ أي : توقد عليهم النار ، وقيل : يصيرون وقود النار عن مجاهد ، وقيل : يطرحون في النار كما يطرح الحطب على النار عن أبي علي .

الأحكام : تدل الآيات على وجوب إتباع الدلائل ، وتدل على قبح الجدال بالباطل ، ويدل قوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أنه أراد من الجميع أن يعلموه خلاف قول المجبرة . ويدل قوله ﴿ أنى يصرفون ﴾ أنه تعالى لم يصرفهم ، لأنه أخرج الكلام مخرج التعجب ، ولو كان هو صرفهم لما صح ذلك ، ولكان هذا التعجب مع خلقه الكفر فيهم ، وصرفهم عن الإيمان ــ أعجب ، ويدل قوله ﴿ إذ الأغلال ﴾ أن ما يعبدون من دون الله لا ينفعهم ، و لا يدفع عنهم ضرا ، وتدل على أن الجدال والتكذيب فعلهم ، فيصحح قولنا في المخلوق .

يخرج كل واحد فاكتفى بذكر الجنس ، وقوله : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف ، أي يبقيكم لتبلغوا أشدكم ، وهو أربعون سنة ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ أي : ثم يبقيكم إلى أن تبلغوا حد الشيخوخة ، ثم قال : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ الشيخوخة ، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا ، ثم قال : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ﴾ قبله محذوف ، أي يفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى ، أي معلوما ، أو سماه لملائكته وهو وقت الموت ، ثم قال : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : لكي تعقلوا ما في هذه الأحوال العجيبة من أنواع العبر والمصالح ، وأقسام الدلائل على قدرته من الخلق العجيب ، والتدريج البديع .

ثم اعلم أنه تعالى لما ذكر انتقال الأجسام من كونه ترابا ، إلى كونه نطفة ، ثم إلى كونه علقة ، ثم إلى كونه طفلا ، ثم إلى بلوغ الأشد ، ثم إلى الشيخوخة ، واستدل بهذا التغيرات على وجود الإله القادر ، قال بعده : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي : هو المختص بالقدرة على الإحياء والإماتة ، والمعنى : كما أن الانتقال من صفة إلى صفة أخرى في الصفات التي تقدم ذكرها يدل على الإله القادر ، فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت ، وبالعكس يدل على الإله القادر .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ أي : أراد تكوينه ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ إنه لا يتعب في ذلك التصرف ، ولا يحتاج إلى آلة وأداة ، فعبر عن نفاذ قدرته في الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع ـ بما إذا قال : ﴿ كن فيكون ﴾ ولا قول ثَمَّ ، وإنما هو مجاز وتمثيل ، بمعنى : أنه لا يمتنع أمر يريد حدوثه ، وهذا قول الشيخين .

وقول أبي الهذيل والأصم : هو حقيقة يفعله علامة للملائكة أنه قد أحدث أمرا ، وهذا القول فاسد ؛ لأنه إما أن يقول له : كن قبل حدوثه ، أو حال حدوثه ، فإن كان الأول كان ذلك خطابا مع المعدوم وهو عبث ، وإن كان الثاني فهو حال حدوثه ، فقد وجد بالقدرة والإرادة ، فأي تأثير لقوله : ﴿ كن فيكون ﴾ فيه ،

فوجب حمله على المجاز والتمثيل
ثم اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله فقال: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الهمزة للتعجب من جدالهم بالباطل ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ عما فيها من الحق الظاهر، أي: كيف يصرفون، ومعناه: استبعاد انصرافهم عن الاعتراف بأن القرآن من عند الله.
ثم بين أنهم [هم] ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي: القرآن، و﴿الذين﴾ بيان للمجادلين ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من الشرائع والكتب، وذلك أن الأنبياء يصدق بعضهم بعضا، وكتبه كذلك، فمن كفر ببعضها فقد كفر بجميعها، وقال: ﴿وبما أرسلنا به رسلنا﴾ من التوحيد؛ لأن الرسل كلهم جاءوا بتوحيد الله. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم.
ثم إنه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الغل: طوق في عنق المغلول به، و﴿إذ﴾ لما مضى، عبّر به عن المستقبل على عادة الله في إخباره، كأنه قد مضى لتيقن وقوعه[1] ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ في أعناقهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بها ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ وهو الماء المتناهي في الحرارة ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يوقدون ويحرقون، من سجر التنور إذا ملأه بالوقود، ومعناه: أنهم في النار وهي محيطة بهم، وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم.
﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ على وجه التوبيخ ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي: تعبدون من الأوثان ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ليشفعوا لكم على زعمكم، فيقولون كما أخبر تعالى عنهم: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا عن عيوننا فلا نراهم [ولا ننتفع بهم] ولعل الغيبة عند التوبيخ، وإلا فهم مقرونون بهم لقوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله

---

(١) هذا هو خلاصة ما ذكره الزمخشري في كشافه، قال: فإن قلت: وهل قوله: ﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم﴾ إلا مثل قولك: سوف أصوم أمس؟ قلت: المعنى على إذا، إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها ــ عبر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال.

حصب جهنم﴾(١) أو أن حضورهم كغيبتهم لعدم نفعهم ، ثم قالوا : ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ فيه قولان ، أحدهما : أن يريدوا تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئا ، كما تقول : حسبت أن فلانا شيئا ، فإذا هو ليس بشيء ، إذا خبرته ، والثاني : أنهم أنكروا الإشراك بالله ، كقوله : ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾(٢) .

---

(١) الأنبياء : ٩٨ .

(٢) الأنعام : ٢٣ .

قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

اللغة ــ الفرح والمرح والبطر والأشر نظائر ، والمرح : شدة الفرح ، وفرس مروح ، أي : نشيط ، وكذلك مراح ، وفرس مروح : يمرح من رآها عجبا .

المعنى : ثم بين تعالى ما يوبخ به أهل النار ، فقال سبحانه ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم﴾ أي : لهؤلاء الكفار إذا دخلوا النار ﴿أينما كنتم تشركون من دون الله﴾ يعني : الأصنام التي عبدوها ، وهذا سؤال توبيخ ، يعني : كنتم تزعمون أنها تنفع وتضر ، فأين هي اليوم ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي : ضاعوا وهلكوا فلا نراهم ، ولا نقدر عليهم ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئا﴾ قيل : معناه لم نكن ندعو شيئا ينفع ويضر ويسمع ويبصر ، وقيل : لم نكن ندعو شيئا يستحق العبادة ، أو ينتفع بعبادته عن أبي علي ، وقيل : لم ندع شيئا ينفعنا ، وهذا كما يقال لشيء لا يسمع : ليس هذا بشيء ، عن أبي مسلم لأن كل مالا يغني شيئا ، يقال : ليس بشيء ، فأما من يقول : إنهم أنكروا وجحدوا وجهلوا فليس بشيء ، لأن قولهم : ﴿ضلوا عنا﴾ اعتراف بعبادتهم ، ولأن الآخرة دار إلجاء ، ولا يمكنون من الكذب ، وقيل : معناه ضاعت عبادتنا لها ، فلم نكن نصنع شيئا إن عبدنا ، فقال كما يقول المتحسر : ما فعلت شيئا ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾ قيل : يضلهم عن طريق الجنة والثواب ، كما يضلهم عما عبدوه ، ويذموا بها عن أبي علي ، وقيل : يهلكم ويعذبهم عن أبي مسلم ، وقيل : كذلك يضلهم عما اتخذوه إلها بصرفهم عن الطمع في نيل نفع من جهته ، وقيل : كذلك يضل الله أعمالهم بإبطالها عن الحسن ﴿ذلكم﴾ يعني العذاب الذي أصابكم إنما هو ﴿بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق﴾ أي : بفرحهم بالباطل ﴿وبما كنتم تمرحون﴾ أي : تبطرون وتفجرون ، وقيل : ذلك بفرحهم بالأوثان ، ومرحهم بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ وهي سبعة أبواب ، فهم مقسمون على منازلهم ﴿خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ أي : مقام من تكبر عن قبول الحق في النار ، وقيل : المثوى المنزل ﴿فاصبر﴾ يا محمد على تبليغ الرسالة ، وإن نالك منهم الأذى ﴿إن وعد الله حق﴾ بالنصر لأنبيائه ، والانتقام من أعدائه ﴿حق﴾ أي : صدق لا خلف فيه ﴿فإما نرينك بعض الذي

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم ، حتى لو طلبوها وطلبتهم لم يتصادفوا ، ثم قال : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الإضلال ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وهو الشرك ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي : بسبب ما كنتم عليه من المرح ، وهو البطر والأشر ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ السبعة المقسومة لكم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الحق مقامهم في الجحيم ، والمراد منه ما قاله في الآية المتقدمة في صفة هؤلاء المجادلين ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ﴾ والله أعلم .

ثم اعلم أنه تعالى لما تكلم من أول السورة إلى هذا الموضع في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله ، أمر رسوله ﷺ بالصبر فقال سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى قومك ، وعلى دعائهم ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ بنصرك ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ .

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ ما زائدة لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك لحقت النون بالفعل ، ألا تراك لا تقول : إن تكرمني أكرمك ، ولكن إما تكرمني أكرمك . ونون

نعدهم ﴾ من العذاب في حياتك ، وإنما قال : ﴿ بعض ﴾ لأن المعجل في الدنيا بعض ما يستحقه الكفار ، لأن المستحق لا يتناهى ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل أن يحل بهم ذلك ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ فنجازيهم ، ثم زاد في تسليته ، فقال سبحانه ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ﴾ أخبارهم ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ ما جرى عليهم من أممهم مثل ما يجري عليك فصبروا حتى جاء وعد الله ، و لم يقدروا بأنفسهم على إتيان آية ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية ﴾ بمعجزة وحجة لا يقدر عليها إلا بإذن الله ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ قيل : لا يقدرون على استعجال العذاب ، ولكن الله تعالى يقدر عليها ، و﴿ أمر الله ﴾ قيل : الساعة ، وقيل : عذابه في الدنيا والآخرة ﴿ قضي بالحق ﴾ أي : حكم لكل أحد بما يستحقه ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ أي : ظهر خسرانهم بحرمان الثواب ، ونزول العقاب .

الأحكام : يدل قوله ﴿ كذلك يضل ﴾ أن الضلال بمعنى الهلاك ، لأن في الآخرة لا يكون ضلالا عن الدين . وتدل أن ذلك جزاء على أعمالهم ، وتدل على أن المرح مذموم ، وهو الفرح بالباطل بطرا ، ويدل قوله ﴿ قضي بالحق ﴾ أن أمور الآخرة تجري على العدل ، فتقدر تقدير الاستحقاق ، وتدل على قبح التكبر . وتدل على أن في الرسل من لم يبلغنا خبره ، وتدل على أن المرح فعلهم ، فيبطل قول المجبرة في المخلوق .

التأكيد لتأكيد معنى الشرط [١]، وجزاء الشرط محذوف تقديره ﴿ فإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ من العذاب، وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك يشفيك، أو فأنت تراه ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة، فننتقم منهم أشد الانتقام [٢].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا ﴾ كثيرا ﴿ مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ قصته لما فيها من العبر، والتأسي. والقصة: هي الخبر، أي: أخبرناك ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ حديثه، قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وذلك أن كفار قريش تعنتوا عليه بطلب آيات غير ما أتى بها عنادا منهم، والمعنى: أنه قال لمحمد: أنت كالرسل قبلك، وقد ذكرنا حال بعضهم لك، ولم نذكر حال الباقين، وليس فيهم أحد أعطاه الله تعالى آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه فيها، وكذبوه فيها، وجرى عليهم من أممهم ما يقارب ما يجري عليك، فصبروا وكانوا أبدا يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة، على سبيل العناد والتعنت، فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة.

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ يوم القيامة، وهو وعيد لهم على التعنت عقيب اقتراح الآيات ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ وهو عقابهم ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ الذين كذبوا بالآيات وطلبوا غيرها مكابرة.

---

(١) ﴿ فإما نرينك ﴾ أصله: فإن نرك، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولذلك ألحقت النون بالفعل، والمصحح للحاق النون المؤكدة دخول ما المؤكدة للشرط، ولولا ما لم يجز دخولها. وانظر الكشاف ١٧٩/٤

(٢) ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ يوم القيامة، فننتقم منهم أشد الانتقام، هذا جواب للشرط الثاني، وهو ﴿ أو نتوفينك ﴾ ولا يستقيم أن يكون جوابا للشرطين معا لفساد المعنى، ولكن جواب الشرط الأول محذوف تقديره: فذلك هو المطلوب، وقوله ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ جواب للشرط الثاني، ومثله قوله تعالى: ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون، أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾. وانظر الكشاف ١٨٠/٤.

واعلم أنه تعالى لما أطنب في تقرير الوعيد عاد إلى ذكر ما يدل على وجود الإله الحكيم ، وإلى ذكر ما يصلح أن يُعَدَّ إنعاما على العباد ، فقال سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ ﴾ هي هنا الإبل خاصة ، وإن كانت تطلق على الأزواج الثمانية ، وقيل : هي مرادة هنا أيضا ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من الوبر والمسنى ، والدَّر والنَّسل ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ وهو السفر إلى البلاد البعيدة ، كقوله : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾[1] وأدخل اللام في ﴿ لتركبوا ﴾ و﴿ لتبلغوا ﴾ ولم يقل : ولتأكلوا ؛ لأن في الركوب والغزو ، وفي بلوغ الحاجة والهجرة لإقامة دين ، أو طلب علم[2] أغراضا دينية ، يتعلق بها إرادة الحكيم دون الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباحات ، فلا جرم ما أدخل عليها حرف التعليل ، نظيره قوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ فأدخل حرف التعليل على الركوب ، ولم يدخله على الزينة[3] .

---

١) النحل : ٧ .

(٢) لفظ المصابيح (لأن في الركوب والغزو ، وفي بلوغ الحاجة والهجرة لإقامة دين أو طلب علم وهذه أغراض دينية) . ولا حاجة إلى قوله : وهذه ، ويجب نصب أغراضا لأنه اسم إن مؤخرا .

(٣) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

اللغة ـ الأنعام : البقر والإبل والغنم ، سميت بذلك لنعم مشيتها ، والبأس : العذاب ، والسنة : الطريقة . والخسران : ذهاب رأس المال .

الإعراب : في نصب سنة ثلاثة أوجه : قيل ـ بنزع الخافضة ، أي : كسنة الله ، وقيل : على المصدر ، تقول العرب : سن يسن سنا وسنة ، وقيل : الإغراء ، أي : احذروا سنة الله ، كقوله ﴿ ناقة الله وسقياها ﴾ .

ثم عاد إلى ذكر الأدلة ، وعد النعم فقال سبحانه ﴿ الله ﴾ الذي تحق له العبادة ﴿ الذي جعل لكم الأنعام ﴾ خلقها لمنافعكم ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ يعني : بعضها للركوب والأكل ، كالإبل والبقر ، وبعضها للأكل كالأغنام ، وقيل : الأنعام : الإبل وحدها ، وقيل : الأصناف الثمانية ، وهو الوجه ﴿ ولكم فيها منافع ﴾ في أصوافها وأوبارها ، وأشعارها وألبانها ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ أي : في الأسفار يحمل عليها الأثقال وتركب ، وتبلغ المقاصد ، وقيل : تبلغون ما تحتاجون إليه من الأمور التي فيها قربة الله تعالى ؛ لأن ما كان معصية يكرهها ولا يريدها ، وما كان مباحا يريده ولا يكرهه ، وما كان طاعة يريدها عن أبي علي ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ يعني على الأنعام في البر وعلى الفلك في البحر ﴿ ويريكم آياته

ثم قال : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ قرنها بالفلك وهي السفن ؛ لأنها أقوى ما يحمل في البر ، ولهذا تسمي الإبل سفاين البر ، وإنما لم يقل : وفي الفلك كما قال

فأي آيات الله تنكرون ﴾ لأن جميعها دالة على توحيده وعدله ، ثم وعظهم بذكر الأمم الماضية تسلية له ووعيدا لهم ، ودعاء إلى الإيمان ، فقال سبحانه ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم ﴾ عددا وأشد قوة في أنفسهم وأعوانهم ﴿ وآثارا في الأرض ﴾ بارتفاع للأبنية ، واتخاذ المنازل والقصور واستخراج الكنوز ، فينظروا إلى آثارهم ، ويعتبروا بذلك ، لأنهم تعاموا وتركوا جميع ذلك ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي : لم ينفعهم كسبهم لذلك ، وقيل : هو بمعنى الاستفهام ، يعني : أيُّ شيء أغنى عنهم ، كذلك هؤلاء ما يؤمنهم أن ينالهم مثل ما نال أولئك ، وقيل : أراد بالكسب المكسوب من الأموال والحشم .

ثم بين تعالى أنه كان أزاح علتهم ، وأنهم أتوا في تلك من جهتهم ، فقال تعالى ﴿ فلما جاءتهم ﴾ يعني الأمم ﴿ رسلهم بالبينات ﴾ بالحجج ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ قيل : قالوا : نحن أعلم منهم لا نبعث ولا نعذب عن الحسن ومجاهد ، يعني : كان عندهم أنه علم ، وهو جهل . وقيل : رضوا بالشرك الذي كانوا عليه عن الضحاك ، أي : اعجبوا به ، وظنوا أنه علم ، وهو جهل ، وكفر ، وقيل : اعجبوا بما عندهم ، والفرح شدة الإعجاب ، وقيل : فرحوا بما عندهم من المال والجاه ، والرياسة ، وبطروا ، وقيل : فرحوا الرسل عندهم من العلم بنجاتهم ، وهلاك أعدائهم ، والأول الوجه ، خرج مخرج الجزاء ، كأنه قيل : لما جاءتهم الرسل لم يقبلوا وفرحوا ، ولذلك عطف عليه ﴿ وحاق بهم ﴾ أي : حل ونزل ، وقيل : وجب ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ من العذاب ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ عذابنا ﴿ قالوا آمنا ﴾ أي : ذلوا وخضعوا ، وتركوا التبر ، وآمنوا بالله ﴿ وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ من الأصنام ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ أي : لم ينفعهم بعد رؤية العذاب لأنه يكون ملجأ إليه ﴿ سنة الله ﴾ أي : هذه طريقة الله ﴿ التي قد خلت في عباده ﴾ يقول في عذاب الكفار ، وقيل : في قبول التوبة أنه لا يقبلها إلا من المختار دون الملجأ الذي قد عاين العذاب ، وقيل : في إمهال الكفار مدة ثم أخذهم بغتة ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ أي : خسرتم بفوت الجنة ودخول النار .

الأحكام : يدل أول الآيات على توحيده ، لأن هذه الأشياء لا يقدر عليها غيره تعالى ، وتدل أنه خلقها لمنافع العباد ، وتدل أنه يفعل الفعل لغرض وحكمة خلاف ما يقوله بعض المجبرة ، وتدل على أن إنكار الآيات فعلهم ، لذلك توعدهم عليها ، وتدل على أن إيمان الملجأ لا يقبل ، ومتى قيل : لم سمي إيمانا ؟ فجوابنا معناه صورة للإيمان ، وإن لم يستحق عليها ثوابا ، ولأن التوبة تجب أن يكون لوجوها لا لرؤية العذاب ، ولأن توبة الملجأ لو قبلت لما دخل الكافر النار .

: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [١] لأن كلمة الاستعلاء ، والشيء الذي يوضع في الفلك كما يصح أن يقال : وضع فيه ، صح أن يقال : وضع عليه ، ولما صح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى تتم المزاوجة في قوله : ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ .

ولما ذكر تعالى هذا الدلائل الكثيرة قال : ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ البواهر ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ ولا موجب لإنكارها ولا لواحدة منها .

قال الرازي : واعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفا في آخر هذه السورة ، وذلك أنه ذكر فصلا في دلائل الإلهية ، وكمال القدرة والرحمة والحكمة ، ثم أردفه بفصل في التهديد والوعيد ، وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذا السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد فقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد قريشا ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كعاد وثمود ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عددا ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ في أجسامهم ﴿ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ هي قصورهم وحصونهم ، وقيل : مشيهم في الأرض بأرجلهم ، يعني : أنهم لو ساروا في أطراف الأرض ، لعرفوا أن طائفة المتمردين المتكبرين ما كانت عاقبتهم إلا البوار والهلاك مع أنهم كانوا أكثر عَدَداً وعُدَداً ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين [٢] .

وقوله : ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ ﴾ ما : نافية ، أو استفهامية أي : أيُّ شئ أغنى [٣] ﴿ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والثانية : موصولة أو مصدرية [٤] .

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : فحين بلغتهم نذرهم بالمعجزات المصدقة ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ

---

١) هود : ٤٠ .

(٢) نقله من الرازي بتصرف ، انظر تفسير الرازي ٢٧/٩٠ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٣) ومحلها النصب مفعولا لأغنى مقدما عليه .

(٤) ومحلها الرفع على الفاعلية ، أي ما أغنى عنهم كسبهم ، أو مكسوبهم .

يَسْتَهْزِئُون ﴾ أي : علم الدنيا ، واستيطاب مآكلها الدنية وحطامها ، وزهدوا في العلم الذي يدل على الله عز وجل ، وقيل : العلم الوارد على طريق التهكم في قوله :﴿ بل إدارك علمهم ﴾[1] وذلك أنهم كانوا يفرحون بذلك ، ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء ، كما قال :﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾[2] أي : بما عندهم من العلم الفاسد .

وقال الهادي عليه السلام : (إن الله سبحانه أخبر نبيه بخبر هؤلاء الذين جاءتهم رسلهم بالبينات ، فكذبوا بها ، وفرحوا بما عندهم من العلم ، والعلم الذي فرحوا به فهو ما كان عندهم من أخبار من كان قبلهم ممن عصى الله من آبائهم ممن تحل بهم نقمه ، وإخزاء الله لأعدائه ، فقالوا لرسلهم : قد جاء غيركم آباءنا بمثل ما قد جئتم به ، فلم يترل بهم إذ عصوهم ما تَعِدُوننا أنتم أنه يترل بنا إذا عصيناكم ، ففرحوا بما عندهم من علم سلامة من سلم من آبائهم ، ومن علم من وقع به العذاب من أوائلهم ، ففرحوا بسلامة السالمين فطمعوا بمثلها ، ولم يخافوا ما نزل بالمعذبين ، فيتوقعوا أكبر منها ، حتى حاق بهم ما كانوا به يستهزئون من هذا الوعيد ، الذي وعد ربهم من العذاب ، إذ لم يزالوا به مكذبين مستهزئين حتى حاق بهم ، ومعنى ﴿ حاق بهم ﴾ فهو وقع ونزل وأحاط وأحدق بهم جزاءُ استهزائهم . اهـ

ثم قال تعالى :﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** ﴾ أي : فحين رأوا شدة العذاب ﴿ **قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ** ﴾ من الأوثان ﴿ **مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** ﴾ أي : عذابنا ؛ لأنها حالة إلجاء ، والوقت الذي لا ينفع الإتيان بالإيمان فيه هو الوقت الذي يعاين فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب ؛ لأن في ذلك الوقت يصير المرء ملجأً إلى الإيمان ، فذلك الإيمان لا ينفع ؛ لأنه إنما ينفع مع القدرة على خلافه حتى يكون المرء مختارا ، أما إذا عاينوا علامات الآخرة فلا .

---

(١) النمل : ٦٦ .

(٢) المؤمنون : ٥٣ . الروم : ٣٢ .

ثم قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ ﴾ أي : حكمة الله وشريعته التي قد مضت ﴿ فِي عِبَادِهِ ﴾ أي : سن الله ذلك سنة في المشركين ، معناه أن عادته التي قد مضت في عباده المشركين هي نصرة الرسل عليهم ، وإنزال العذاب بهم ، أو معناه : أن عدم قبول الإيمان حال اليأس سنة الله مطردة مع كل الأمم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ وخسر هنالك ، أي : في ذلك الوقت ، وقت رؤية العذاب الكافرون ، وهنالك : مكان مستعار للزمان ، والله أعلم



سورة الزمر

خمس وسبعون آية في الكوفي ، وآيتان في البصري والحجازي ، وثلاث في الشامي (مكية ، إلا قوله تعالى :﴿ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى :﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾أي : القرآن ، و﴿ تنزيل ﴾ : مبتدأ ، و﴿ مِنْ اللَّهِ ﴾خبره ، وقال في البرهان : ﴿ تنزيل ﴾ رفع بإضمار هذا ، مثل ﴿ سورة أنزلناها ﴾ أي : هذا سورة ، ولو نصب لكان مثل ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أي : الزموا كتاب الله ، قال بعضهم : الوجه الأول أولى لوجوه ، الأول : أن الإضمار خلاف الأصل ، فلا يصار إليه إلا لضرورة ، ولا ضرورة هنا . الثاني : أنا إذا قلنا : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ ﴾ جملة تامة من المبتدأ والخبر ، أفاد فائدة شريفة ، وهي أن تنزيل الكتاب يكون من الله ، لامن غيره ، وهذا الحصر معنى معتبر، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذا الفائدة [1].

---

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿ يكور الليل على النهار ﴾ معناه : يدخله .

وقوله تعالى :﴿ خلقا من بعد خلق ﴾ معناه : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم لحم .

وقوله تعالى :﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ معناه ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة .

وقوله تعالى :﴿ إذا خوله نعمة منه ﴾ معناه أعطاه ، وقوله تعالى :﴿ وجعل لله أندادا ﴾ معناه : أشباه وأمثال .

وقوله تعالى :﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ﴾ فقانت ، معناه : مطيع ، والقانت : القائم أيضا ، وآناء الليل : ساعاته ، واحدها أنى ، ويحذر الآخرة : معناه عذاب الآخرة .

وقولـــه تعالى :﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ معناه : مياه واحدها ينبوع ﴿ ثم يهيج ﴾ معناه : فيصير يابسا ، والحطـــام : الـــرفات . وقوله تعالى :﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ﴾ معناه : يشبه بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، و﴿ مثاني ﴾ أي : قد ثني فيه الأنباء والأخبار .

وقولـــــه تعالى :﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ﴾ فالرجل الشكس : العسر السيئ الخلق ، والسلم : الصحيح . وقوله تعالى :﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن عـــلي عـــليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام : فالذي جاء بالصدق : هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والذي صدق به : أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه .

وقوله تعالى :﴿ اشمأزت ﴾ معناه : نفرت . وقوله تعالى :﴿ وحاق بهم ﴾ معناه : أحاط بهم .

وقولـــــه تعالى :﴿ في جنب الله ﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام : يوم القيامة ، وجنب الله : علي بن أبي طالب ، وموالاة أهل بيته عليهم السلام ، وقال : في أمر الله .

وقوله تعالى :﴿ بمفازتهم ﴾ معناه : منجاتهم .

وقوله تعالى :﴿ مقاليد السموات والأرض ﴾ معناه : المفاتيح ، واحدها مقليد ، ويقال لها: الأقاليد-واحدها إقليد.

وقوله تعالى :﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ معناه : مفنيات بقدرته .

وقوله تعالى :﴿ فصعق من في السموات ومن في الأرض ﴾ معناه : مات .

وقوله تعالى :﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾ معناه : جماعات في تفرقة ، بعضهم على إثر بعض .

وقوله تعالى :﴿ حافين من حول العرش ﴾ معناه : محيطون بجوانبه .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه : بسم الله الرحمن الرحيم

الخالص : هو الصافي الذي لا يشوبه غبار ولا كدر ، ومعنى قوله :﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم﴾ هـــذه في ضـــمير واختصـــار ، والمعنى فيه : الذين اتخذوا من دونه آلهة قالوا ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فاختصر وأضمر ، والزلفى : هي القربة ، ومعنى قوله :﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ هذا رد على المشركين في قولهم : إن الملائكة بنات الله – تعالى عن قولهم – يقول عز وجل : لو كان يريد ذلك على ما زعمتم لاصطفى واختار أرفع الأشياء قدرا ، وأجلها عندكم خطرا ، فأما البنات فهن عي وعورات ، والله يتعالى عن ذلك ، وملائكته المطهرون

ومعـــنى ﴿ يكـــور الـــليل على النهار ﴾ التكوير : هو الإسقاط . ومعنى قوله :﴿ ثمانية أزواج ﴾ أي : ثمانية أصـــناف ، والزوج : هو الصنف ، ومعنى قوله :﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ أولهن :ظلمة البطن ، والثانية : ظلمة الـــرحم ، والثالثة : ظلمة المشيمة ، وهي غشاوة تكون على الولد وتحتمل وجها آخر ، وهو أنه خلق العباد خلقا بعد خلق في ظلمات ثلاث ، أولهن : ظلمة الصلب ، والثانية : ظلمة البطن ، والثالثة : ظلمة القبر ؛ لأن الله عـــز وجل خلقهم في بطون أمهاتهم ، بعد أن خلقهم في أصلاب آبائهم ، ثم يخلقهم في القبور يوم بعثهم ، ومعـــنى ﴿ فأنى يصرفون ﴾ أي : فكيف تُصرَفُون عن الحق وتُعرِضُون ، ولا تُشكَرون ، والوزر : هو الحِمْلُ

والذَنــــبُ ، ومعنى ﴿منيبا إليه﴾ أي : راجعا إليه ، تائبا في وقت الضرورة ، ﴿ثم إذا خولناه نعمة﴾ منه مُـلّكه ، وإعطاؤه نِعَمَه ، والخَوَلُ في اللغة المماليك ، ومعنى ﴿قل تمتع بكفرك﴾ هذا تهدد ووعيد ، والعرب تقول : لا تبق إلا ما غلبك ، ولا تبق فينا غاية ، واجتهد في عداوتنا ، لا يريدون عداوته بذلك ، ولا يريدون شره ، ولا يرضون ضره لهم .

ومعـــنى ﴿أمن هو قانت آناء الليل﴾ يريد: هذا الكافر الذي ذكرناه وخولناه من نعمتنا ما خولناه ﴿أو من هـــو قانت آناء الليل﴾ ولكنه اختصر بالكلام، وأم عند العرب تقوم مقام أو، وفي ذلك يقول الإمام المرتضى لدين الله صلوات الله عليه :

حســبت أني مظهــر تذلـــلي أم خلـــتني أخضـــع للـــتطول

القـــتل في الله كمصـــافي العسل عـــندي وأحـــلى مـــن رحيق

يريد : حسبت أني أتذلل ، أو حسبتني أخضع ، فقامت أم مقام أو .

ومعـــنى ﴿قـــانت آنـــاء الليل﴾ أي : داع إلى الله في أوقات الليل واحدها إناً من الليل ، قال الله عز وجل :﴿غير ناظرين إناه﴾ أي : غير منتظرين وقته ، ومعنى ﴿أولوا الألباب﴾ ذووا العقول ، واللب : هو العقل ، ومعـــنى ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾ أي : يحذر عباده العذاب ، ليعلموا إن كانوا يعقلون أن الصادق لا يخوف إلا بحق ، ولا يحذر إلا بصدق ، ومعنى قوله :﴿لهم غرف﴾ أي : دور عالية فوق السقوف ، والواحد منها غرفة ، وبلغة أهل اليمن خلْوَات وخَلْوَة ، قال الشاعر :

مـــا المـــال إلا القفل والمفتاح وغـــرفة تصـــفقها الـــرياح

ومعـــنى ﴿لا يخلف الله الميعاد﴾ الإخلاف : هو الكذب ، وأخبر أنه عز وجل لا يكذب وعده ، ومعنى قولــه :﴿فســلكه﴾ أي : أدخله ينابيع في الأرض أي عيونا في الأرض ، ومعنى ﴿ثم يهيج﴾ يعني : ييبس الزرع ، قال الكميت بن زيد رحمة الله عليه :

وإن هاج نبت العلم في الناس لم تـــزل لهـــم روضـــه خضـــراء منه ومذنب

والهياج فقد يكون على وجوه أخر ﴿ثم يجعله حطاما﴾ كسرا متحطما ، قال الشاعر:

وحطمي لمال على أثر المال

ومعـــنى ﴿أفمـــن شرح الله صدره للإسلام﴾ يريد : فمن وسع الله صدره ﴿فهو على نور من ربه﴾ أي : عـــلى حـــق ، والألف من قوله :﴿أفمن﴾ ليس لها معنى والله أعلم ، وأحسب أنها صلة ، لأنها ليست بألف تفهيم ، وإنما هذا خبر لا يحتاج إلى الألف ، إلا سبيل ما ذكرنا .

ومعـــنى ﴿فويل للقاسية قلوبهم﴾ القسوة: هي اليبس والغلظ ؛ لأن قلوبهم لا تخشع ، ولا ترحم ضعيفا ، ولا تفعل خيرا .

ومعنى ﴿مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ أي : تقبض وتحرك ، وتعلوها القفة من خوف ما سمعوا من الوعيد ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي : تنبسط إلى ذكر الله ورحمته ، وتطمئن إلى ما وعد من مغفرته .

ومعنى ﴿يتقي بوجهه﴾ أي : تلقى بوجهه . ومعنى ﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون﴾ أي : متباغضون متعادون في عبدهم ، قالت الخنساء :

أمّـن يعـود بحلمه عند التنازع والتشاكس

﴿ورجلا سلما لرجل﴾ أي : سالما من الشركة مملوكا لرجل واحد ، وهذا مثل ضربه الله ، أي : يعبد أربابا إن أكرم أحدهم أهان ضده ، وإن أرضى أحدهم أسخط عدوه ، فهو في حيرة من أمره ، ولبسة في شأنه ، ومثل من يعبد ربا واحدا كمثل من يخدم سيدا واحدا ، فهو سالم من تضادد الأرباب ، متخلص من الاسخاط والإغضاب ، ومعنى ﴿تختصمون﴾ أي : أنت يا محمد وأعداؤك مخاصمون عند الله ، فويل من خاصمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ..... ، لقد دحضت وعظمت عند الله مصيبته ، فنعوذ بالله من ذلك ، ونتبرأ إليه من أن نكون كذلك . ومعنى ﴿ليكفر الله عنهم﴾ أي : ليغطي عنهم ذنوبهم ، ويستر قبائحهم ، والتكفير هو الستر والتغطية في اللغة ، قال الشاعر :

في ليلة كفر النجوم غمامها .

أي : ستر غمامها النجوم وغطاها ﴿قل حسبي الله﴾ أي : كفايتي الله عن كل معبود ومخلوق ، والعرب تقول : حسبك يا هذا لا ترد شيئا ، أي : معك الكفاية ، ولا تطلب أكثر مما معك ، قال الشاعر :

فأحسبه مالا رغيبا ولم أكن ظنينا بما تحوي يداي من الوفر

أي : أعطيته من المال ما يحسبه ويكفيه ، وقال آخر :

ويكفي وليد الحي إن كان جائعا ويحسبه إن كان ليس بجائع

أي : يعطيه الكفاية ، ومعنى ﴿على مكانتكم﴾ أي : على موضعكم ومكانكم من الكفر ، ومعنى ﴿إني عامل فسوف تعلمون﴾ هذا تهدد ووعيد لهم ، والعرب تقول : مكانك لا تبرح ، على سبيل الوعيد ، قال الشاعر :

إن كنت حرا فاستقم لا تبرح حتى ترى كيف اضطرام القرح

ومعنى ﴿عذاب يخزيه﴾ أي : يفضحه ويقميه ، قال الشاعر :

في عيشة لم تخز من غذاهما

أي : لم تفضح من غذاهما . ومعنى ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ يحفظ ما يضمرون من أمورهم ، وإنما عليك الإنذار والإعذار إليهم ، ومعنى ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ أي : يأخذها وافية في الأرواح عند موتها ، و عند منامها ، ومعنى ﴿إلى أجل مسمى﴾ أي : وقت معلوم مفهوم ، ومعنى ﴿من دون الله شفعاء﴾ أي : أربابا يتقربون بها إليه ، ويرجون شفاعتها عنده ولديه ، فرد الله عليهم ، فقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قل أو لو كانوا لا

يملكون شيئا ولا يعقلون﴾ ولا ينطقون ﴿قل لله الشفاعة جميعا﴾ أي : إلى الله السؤال والطلبة كلها لا إلى غيره ، فقامت اللام مقام إلى فافهم ذلك .

ومعنى ﴿اشمأزت قلوبهم﴾ أي : انحرفت عن توحيد الله وأعرضت ، قال الشاعر :

إذا عض الثقاف بها اشمأزت ... وولته عشورته ريونا

أي : انقلبت وانحرفت و لم تلن ، وقست . ومعنى ﴿إذا هم يستبشرون﴾ أي : يسرون ويفرحون بالشرك ويبشرون .

ومعنى ﴿لافتدوا به من سوء العذاب﴾ الفدية : هي العوض من الشيء بمنزلة الثمن في البيع ، قال العالم صلوات الله عليه يرثي أخاه عليهما السلام :

يا شخص من لو كان الأرض فديته ... ما ضاق مني به ذرع ولا خلق

بينا أرجيك تأميلا وأشفق أن ... يغبر منك جبين واضح يقق

أصبحت يحثى عليك الترب في جدث ... حتى عليك لما يحثى به طبق

ومعنى ﴿وبدا لهم من الله﴾ أي : ظهر لهم من أمر الله ﴿ما لم يكونوا يحتسبون﴾ ولا يدرون ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أي : أعطيت النعمة بعلم من الله أني مستحق لذلك ، فقامت على مقام الباء الزائدة ، فرد الله عز وجل عليه في قوله ، فقال :﴿بل هي فتنة﴾ أي : اختبار منا لك بالنعمة ، أتشكرنا عليها ، فتستحق ثوابنا ، أم تكفر فتستحق عقابنا ، ومعنى قوله :﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي : يعطيه قدر حياته من القوت ، ولا نبسط له كما نبسط لغيره ، والبسط هو التكثير والنشر ، ومعنى قوله :﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ أي : لا تيأسوا من مغفرة الله ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم﴾ يعني القرآن ، هو أحسن ما أنزل الله من الكتب ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾ يريد : لئلا تقول نفس يا حسرتي ، أي : تقول : يا حزناه ، ويا قطيعتاه ، والحسرة : هي الانقطاع والانحسار ، والعرب تقول : انحسر البعير إذا انقطع سيره وأعيا ولغب ، قال الشاعر :

إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه ... فأنضاؤهم في الحق حسرى ولغب

﴿على ما فرطت﴾ التفريط : هو التواني ، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام :

وإذا اتخذت يدا فلست مفرطا ... فيما فعلت به ولا بمقصر

﴿في جنب الله﴾ أي : في دين الله وطاعته . ومعنى ﴿لمن الساخرين﴾ أي : من المستهزئين المتلعبين .

ومعنى ﴿مثوى للمتكبرين﴾ أي : مقام للجائرين الصلفين المختالين التياهين ، المتعظمين ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي : يبعدهم من العذاب ، والعرب تسمي البلد البعيدة مفازة ، قال الشاعر :

وكائن تخطت ناقتي من مفازة ... إلى دار مي سهلها وحزونها

ومعنى قوله :﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي : مفاتيح قال الشاعر :

فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا ... ألقوا إليه مقالد الأمر

الثالث : أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير : هذا تنزيل الكتاب ، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر ؛ لأن (هذا) إشارة إلى السورة ، والسورة ليست نفس التنزيل ، بل السورة منزلة ، فحينئذ نحتاج إلى أن نقول : المراد من المصدر المفعول ، وهو مجاز تحملناه لا لضرورة[1] .

وقوله : ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ القادر على كل شئ ، ومن ذلك تنزيل الكتاب ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ المصيب وجه الحكمة في أفعاله التي منها تنزيل الكتاب لمصالح العباد .

وأما قوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ فقد ذكر أن الباء في ﴿ بالحق ﴾ تحتمل السببيه ، أي : أنزلناه بسبب إظهار الحق ، وتحتمل غير السببية ، أي : أنزلناه إنزالا ملتبسا بالحق والصدق والصواب ، يعني : أن كل ما أودعنا فيه من إثبات

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي : وما وقروه حق توقيره ، ولا عظموه حق تعظيمه ، والقدر : هي العظمة والفخر في اللغة ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

وإن كان في آبائك الشم أسوة لمثلك يابن الطاهرين ذوي القدر

﴿ فصعق من في السموات ومن في الأرض ﴾ أي : مات من في السموات والأرض .

وأما قوله ﴿ إلا من شاء الله ﴾ فهذا تب القدرة على من يشاء لا غير ذلك ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وقد روي أن النفختين جميعا في يوم واحد ، وهو يوم القيامة ، وفيه تقوم الساعة ، والله أعلم وأحكم .

﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ أي : أضاءت للمؤمنين بنور من الله يحدثه من غير شمس ولا قمر ، والله أعلم . وقيل : ربها وحكمته . [أي بنور ربها وحكمته].

﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي : الحساب ، ومعنى قوله : ﴿ إلى جهنم زمرا ﴾ أي : جمائع ، كل جماعة وحدهم ، الزمرة : هي الجمائع .

﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أي : ملكنا الأرض بعد ذهاب أهلها ﴿ يتبوأ من الجنة حيث يشاء ﴾ أي : يحل منها حيث يريد ويهوى ، قال الشاعر : (بوأته بيدي لحدا) أي : أحللته وأسكنته ، ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ أي : محيطين من حول موضع الحساب ، وهو الملك ، قال الهادي إلى الحق رضي الله عنه :

تحف به خيل يمانية لها على الهول أقدام ليوث طوالب

تحف به ، أي : تحيط به .

(١) ومثل هذا بلفظه في تفسير الرازي . (٢٦/٢٣٧، ٢٣٨) .

التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأنواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به ، والمصير إليه .

أو أنزلناه مع الحق ، بناء على دليل حق ، دل على أن هذا الكتاب نازل من عند الله ، وذلك الدليل هو أن فصحاء العرب عجزوا عن معارضته ، ولو لم يكن معجزا لما عجزوا عن معارضته .

ثم قال : ﴿ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : الطاعة من الشرك والرياء ، أي : وَحِّدْهُ ولا تعبد معه غيره ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ من الشرك ، والمراد أنه الذي أوجب أن تخلص له الطاعة من كل شائبة ، وما سواه ليس بدين الله الذي أمر به ، وقيل : المعنى لايستحق الدين الخالص إلا الله .

واعلم أنه تعالى لما بين رأس العبادات ورئيسها الإخلاص في التوحيد ـ أردفه بذم طريقة المشركين فقال عز وجل :﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ جمع ولي ، وهو الذي يتولى وليه بالنفع والنصرة ، والمعبود يتولى بالعبادة ، وأراد هنا معبودين ، وهم الملائكة ، وعيسى ، والأصنام .

قال في التجريد : يحتمل أن يريد بـ﴿ الذين اتخذوا ﴾ المشركين العابدين ، ويحتمل أن يريد المعبودين ، أي : والذين اتخذوهم أولياء ، فإن أريد الأول كان الخبر ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾(١) أو ما أضمر من القول قبل قوله :﴿ ما نعبدهم ﴾ أي : قالوا : مانعبدهم ، وإن أريد الثاني كان الخبر ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ ومعنى الحكم: أنه يدخل الكافرين العابدين النار ، ويدخل المعبودين الجنة إن كانوا هم الملائكة ، والمسيح وعزير ، وإن كانت الأصنام فقد جاء أيضا أنه يدخلها جهنم ، تكون وقودا على عابديها ، واختلافهم هو أن المعبودين موحدون ، والعابدين مشركون ، وقيل : الضمير يعود إلى المسلمين ، الذين كانوا يخالفون المشركين ، ويوحدون الله تعالى ،

---

(١) فإذا كان الخبر ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ كان موضع ﴿ ما نعبدهم ﴾ نصبا على الحال ، أي : قائلين ذلك ، ويجوز أن يكون بدلا من الصلة ، فلا محل له من الإعراب ، كما أن المبدل منه كذلك .

وكانوا إذا قالوا للمشركين : من خلقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، فإذا قالوا لهم : فما لكم تعبدون الأصنام والملائكة ؟ قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أي : قربى ، أي : درجة رفيعة بشفاعتهم ، و﴿ زلفى ﴾ واقع موقع المصدر المؤكد(١) ﴿ ليقربونا ﴾ كأنه قال : ليقربونا تقريبا . اهـ

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذهبهم أجاب عنه من وجوه ، الأول : أنه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : بين العبدة والمعبودين ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ لأن المعبودين موحدون ، وهم مشركون ، والعبدة يرجون شفاعة عيسى والملائكة ، وهم يلعنونهم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ والمراد بمنع الهداية منع اللطف ؛ لأن اللطف(٢) والتوفيق ، وتنوير القلوب مشروط بقبول الهدى ، وإنما جعلهم الله كذابين لقولهم في معبودهم : إنهم يقربوهم إلى الله بالشفاعة إليه تعالى ، وقول بعضهم في الملائكة : إنهم بنات الله .

قال الرازي : ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة ، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم [ونهاية التعظيم](٣) لاتليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام ، وذلك الإنعام إنما هو من الله سبحانه(٤) ، وهذه الأوثان لامدخل لها في هذا الإنعام ، فالإشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفر نعمة المنعم الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى ﴾ أي : اختار ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : لو أراد ذلك لامتنع لأنه محال ، ولم يزد على مافعل ، من اصطفاء من

---

(١) وفي نسخة أ : موقع المصدر ، مؤكد ﴿ ليقربونا ﴾ .

(٢) اللفظ في النسخة أ ، ب :(لأن اللطف والتوفيق) وفي نسخة : لأن اللطف لهم والتوفيق .

(٣) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب ، وفي تفسير الرازي ٢٤٢/٢٦.

(٤) عبارة الرازي : (وذلك المنعم هو الله سبحانه) .

يشاء من خلقه وهم الملائكة، لكنكم جهلتم فحسبتم اصطفاءه لهم اتخاذه لهم أولادا ، ثم تماديتم في السفه فجعلتموهم بنات .

ثم نـــزه تعالى ذاته فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي : تتريها له عما افتريتم من الولد ﴿ هُوَ الـــلَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ فلو كانت له صاحبة لم يكن واحدا ؛ لأنها تكون من جنسه ، فـــإذا لم يكن له صاحبة أي زوجة لم يتأت له ولد ، و﴿ القهار ﴾ الغلاب ، وهو تتريه عن الأولياء ، فهو غلاب لآلهتهم وغيرها ، والمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه متزها عن الولد .

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : يقول عز وجل : لوكان يريد ذلك على مازعمتم ، إذاً لاصطفى واختار أرفع الأشياء قدرا ، وأجلها عندكم خطرا ، فأما البنات فهن عي وعورات ، والله يتعالى عن ذلك ، والملائكة المطهرون[1] .

ثم دلـــنا بخـــلقه عـــلى كمال قدرته ، وعلى أنه واحد لاشريك له ، فقال تعالى : ﴿ خَـــلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : الغرض الصحيح ، وهو منافع عباده في الدنيا والدين ، لتكون مطارح أنظار وعبر ، ثم قال : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ الـــنَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ التكوير : اللف ، كوَّر العمامة على رأسه : لفَّها ، ولما كان كل واحـــد منهما يُغَيِّبُ الآخرَ إذا طرأ عليه ، شبه في تغييبه إياه بشئ ظاهر لُفَّ عليه ما غيبه عن الأبصار[2] .

ثم قال : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أي : صرَّفهما لمنافع العباد كتسخير العقلاء ، فهمـــا يجريان على نظام مستقيم ﴿ كُـــلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ معلوم ، قيل : وهو آخـــر الشـــهر في القمر ، وآخر السنة في الشمس ، قيل : سمي معلوما لله وحده ،

---

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام أوائل هذه السورة .

(٢) ذكـــر المصـــنف هـــنا فقال : شبه في تغييبه إياه .. الخ . قال السيد العلوي : هو استعارة ، وإنما قلت : استعارة ؛ لأن المستعار له غير مذكور ، والمصنف سماه تشبيها باعتبار أصله ؛ لأن الاستعارة فرع التشبيه .

والأصح أن المراد بالأجل المسمى هو يوم القيامة ، فلا يزالان يجريان إلى هذا اليوم ، فإذا كان يوم القيامة ذَهَبَا ، وعنده تطوى السماء كطي السجل للكتاب .

ولما ذكر الله تعالى [هذه] (١) الأنواع الثلاثة من الدلائل قال : ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ العزيز القادر على عقاب المصرين ، الغفار للتائبين ، والمعنى : ان خلق هذه الأجرام العظيمة ، وإن دل على كونه عزيزا ، أي كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة ، والفضل والإحسان ، فإنه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة ، فكونه غفارا كثير الرحمة يوجب الرجاء والرغبة .

ثم إنه تعالى أتبع هذا الدلائل بدلائل أُخَر ، فبدأ بذكر الإنسان فقال عز وجل : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال الهادي عليه السلام : النفس الواحدة : آدم صلى الله عليه ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فهو خَلْقُهُ من آدم حواء ، وقد قيل : إن حواء خلقت من بعض آدم ، وقد يكون خلقه لها قبل نفخه فيه الروح إذ صَوَّرَه من طين . اهـ

يعني : خلقت من طينة آدم قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقيل : خلق حواء من ضلع آدم ، فيقال : لم عطفه بثم المفيدة للتراخي ؟ وخلق حواء متقدم على خلق أولاد آدم بالتناسل بينهما ؟ وجوابه : أنهما آيتان كاملتان ، خلق هذا الخلق وتفريعهم من نفس واحدة ، وهي آدم ، وخلق حواء ، إلا أن أحدهما جعلها الله سبحانه عادة مستمرة ، والأخرى لم يجر بها العادة ، لم تخلق أنثى من ضلع رجل غير حواء ، فكانت أدخل في الإستغراب ، فعطفها بثم للدلالة على زيادة مزيتها عليه نحو ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ (٢) لا لتراخيها في الوجود ، وقيل : التراخي يرجع إلى لفظ ﴿واحدة﴾ أي : خلقكم من نفس توحدت ، ثم شفعها الله بزوج . [وقيل : أخرج ذرية آدم عليه السلام من ظهره كالذر ، ثم خلق حواء بعد ذلك] (٣).

---

(١) ما بين القوسين غير موجود في النسخة ب .

(٢) طه : ٨٢ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب .

ولما ذكر الإستدلال بخلقه الإنسان على وجود الصانع قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ وصفها بالنزول من السماء ؛ لأنه قسمها فيها ، وقضى فيها ، وقضاياه توصف بالنزول من السماء ، وقيل : لأن الأنعام لاتعيش إلا بالنبات ، وهو لايقوم إلا بالماء ، وقد أنزل الماء ، فكأنه أنزلها ، وقيل : خلقها في الجنة ، ثم أنزلها .

ومعنى قوله : ﴿ أزواج ﴾ أي : ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز . والزوج : اسم لكل واحد معه مثله ، فكل واحد منهما يسمى زوجا ، وهما زوجان ، فإذا انفرد فهو فرد ووتر ، قال تعالى : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾(١) .

واعلم أنه تعالى ذكر تخليق الناس من شخص واحد ، وهو آدم عليه‌السلام ، ثم أردفه بتخليق الأنعام ، وإنما خصها بالذكر ؛ لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان ، ثم ذكر عقيب ذكرها حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام ، وهي كونها مخلوقة في بطون أمهاتها ، إلا أنه تعالى جعل المخاطب بذلك الخطاب هو الإنسان ، فقال سبحانه : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي : حيوانا من بعد عظام مكسوة لحما ، من بعد عظام عارية، من بعد مُضَغ ، أي : لحم ، من بعد عَلَق ، أي : دم ، من نطف ، أي : مني ، وهذا أبلغ في الإقتدار ؛ لأنه خلق مرارا ، ولأن في التدريج بطلان العلل الموجبة والطبع .

وقوله : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ هي البطن ، والرَّحِمُ ، والمشيمة ، وهي غشاوة تكون على الولد ، وقيل : صلب الرجل ، والبطن ، والرحم ، وقيل : الثالثة ظلمة القبر ؛ لأن الله خلقهم في بطون أمهاتهم بعد أن خلقهم في أصلاب آبائهم ، ثم يخلقهم في القبور ، ثم يبعثهم .

واعلم أنه تعالى لما شرح هذا الدلائل ، ووصفها قال : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : ذلك الشئ الذي عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم .

---

(١) القيامة : ٣٩ .

قال الرازي : وهذه الآية دالة على كونه تعالى منزها عن الأجزاء والأعضاء ، وعلى كونه منزها عن الجسمية والمكانية ، وذلك لأنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة ، لم يذكر إلا كونه مخصوصا بهذه الأشياء ، ولو كان جسما مركبا من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفا للشئ بأجزاء حقيقته، وأما تعريفه بآثاره وأفعاله ، فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته(١) .

ثم قال تعالى :﴿له الملك﴾ وهذا يفيد الحصر (٢)، أي : له الملك لا لغيره ، ولما ثبت أن لا ملك إلا له وجب القول بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده لاشريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي : فكيف يُعْدَلُ بكم عن عبادته إلى عبادة غيره ، أو فكيف تُصرفون عن الحق ، وتُعرِضُون ولا تَشكرون .

ثم قال :﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ أي : عن إيمانكم ، وأنتم محتاجون إليه لانتفاعكم بالإيمان ، ثم قال :﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ رحمة لهم ؛ لأنه يوقعهم في الهلاك(٣) .

---

(١) انظر الرازي ٢٦/٢٤٥ ، وزاد الرازي : والتعريف الأول أكمل من الثاني ، ولو كان ذلك القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال ممتنع الوجود ، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعاليا عن الجسمية ، والأعضاء ، والأجزاء . اهـ وأنا أقول لهؤلاء الذين ما كفاهم في التجسيم إلا أن يجعلوا لله يدا ، ووجها ، بل تطاولوا إلى أبعد من ذلك ، ورووا أحاديث في صحاحهم ، بينها وبين الصحة مراحل ومفاوز ، أقول لهم : ألا تتفكرون في هذه الآيات وترعوون عن هذه الترهات التي يمجها كل ذوق سليم .

(٢) الحصر مستفاد من تقديم الخبر .

(٣) احتج الجبائي بهذه الآية من وجهين : الأول ـ أن المجبرة يقولون : إن الله تعالى خلق كفر العباد ، وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب ، قال : ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضي الكفر من الوجه الذي خلقه . وذلك ضد الآية .

الثاني : لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به ؛ لأن الرضاء بقضاء الله تعالى واجب ، وحيث أجمعت الأمة على أن الرضاء بالكفر كفر ، ثبت أن ليس بقضاء الله ، وليس أيضا برضاء الله تعالى .

[قــال في البرهان : فإن قال قائل : كيف قال :﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ وقد كفروا ؟ قلت : لأنه لايرضى أن يكفروا ، فمعنى الكفر أن يكفروا ليس معناه الكفر بعينه](١) اهــ

ولمــا بين أنه لايرضى الكفر ، بين أنه يرضى الشكر ، فقال :﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُــمْ﴾ أي : يرضــى الشكر ؛ لأنه سبب فوزكم ، قال الرازي : والشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل(٢) .

ثم قــال :﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي : لاتحمل نفس وازرة – أي :حاملة- ثقــلَ نفس أخرى ، والوزر : الحمل الثقيل ، والمعنى : أن كل نفس حاملة وزرا ، فإنهــا لاتحمل إلا وزر نفسها يوم القيامة ؛ لأن الله لايعاقب أحدا بذنب غيره ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي : إلى جزاء ربكم مصيرُكم في الآخرة .

قال الرازي : واعلم أنا ذكرنا كثيرا أن أهم المطالب للإنسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان ، وأن يعرف ما ينفعه ويضره في هذا الحياة الدنيوية ، وأن يعرف أحواله بعد الموت ، ففي هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى ، والعالم الأسفل على كمال قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ، ونهاه عن الكفر ، ثم بين أحوال ما بعد الموت (٣)بقوله :﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ .

ثم قال :﴿ فَيُنَبِّــئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي : يخبركم بأعمالكم ظاهرها وباطنها ، وهذا تهديد للعاصي ، وبشارة للمطيع ، ثم قال :﴿ إِنَّــهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي : بمضمراتها فلا يغيب عنه شئ من أعمالكم ، وهذا أيضا وعيد ، وهو كالعلة لما سبق

---

(١) وزاد في البــرهان (ومــثله مما يبينه لك : لست أحب الإساءة ، وإني لا أحب أن تسئ) وما بين قوسي الزيادة موجود في النسخة أ ، وقد ألغاه المصنف في النسخة ب ، وهي النسخة التي يقال : إنها نسخته .

(٢) تفسير الرازي ٢٤٧/٢٦ .

(٣) ولفظ الرازي (ثم بين أحواله بعد الموت) ٢٤٧/٢٦، ٢٤٨.

يعني : أنه إنما يمكنه أن يخبركم عن أعمالكم ؛ لأنه عالم بجميع المعلومات ، فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف .

ثم اعلم أن الله تعالى لما بين بطلان القول بالشرك ، وبين أن الله هو الذي يجب أن يعبد ، أخبر أن طريقة هؤلاء الذين يعبدون الأصنام متناقضة ، وذلك أنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى الله تعالى ، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ، فقال عز وجل : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ قال عطاء : يريد عتبة بن ربيعة (١) وقال مقاتل : يريد أبا حذيفة بن المغيرة (٢) و﴿ضر﴾ : بلاء ، وشدة ، وفقر ، ومرض ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾ يكشف ضره ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي : في صورة المنيب ، وهو التائب ، أي : راجعا إليه تائبا في وقت الضرورة ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أي : ملكه وأعطاه تفضلا لا لمجازاة ولا لعوض ، والخَوَلُ ـ في اللغة ـ : المماليك ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ بكشف ضره وإجابة دعائه ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : نسي ضره الذي كان دعا لكشفه ، وقيل : نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ، ومعنى قوله : ﴿نسي﴾ أي : ترك دعاءه ، كأنه لم يفزع إلى ربه ، ولو أراد به النسيان الحقيقي لما ذمه ، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسي أن لامفزع ، ولا إله سواه ، فعاد إلى اتخاذ الشركاء .

ثم قال تعالى : ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي : أمثالا في الإلهية ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: عن دينه ، واللام للتعليل ؛ لأن الضلال سبب اتخاذ الأنداد .

ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال : ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وهو من باب الخذلان والتخلية ، كأنه قيل : إذا أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان فمن حقك ألا تؤمر إلا بعكسه ، مبالغة في خذلانه وتخليته ،

---

(١) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من كفار قريش ، ساد بغير مال ، وأدرك الإسلام فطغى ، وقاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر فقتله أمير المؤمنين علي عليه السلام .

(٢) حذيفة بن المغيرة ...

إذ لامبالغة في خذلانه أشد من أن يبعث على ضد ما أمر به ، أي : قل لمن يفعل هذا : ﴿ تمتع بكفرك قليلا ﴾ وهو تهديد ووعيد ، والعرب تقول : لاتبق إلا ماغلبك ، ولا تبق فينا غاية ، واجتهد في عداوتنا ، يريدون عداوته بذلك ، ولا يريدون شره ، ولا يرضون ضره لهم .

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين الضالين في تمسكهم بغير الله ـ أردفه بشرح أحوال المحقين ، الذين لارجوع لهم إلا إلى الله ، ولا اعتماد لهم إلا على الله فقال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ وهي ساعاته ، واحدها : إنى ، وقوله : ﴿ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ إشارة إلى أصناف الأعمال ، والقانت : هو القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم :(أفضل الصلاة طول القنوت فيها) (١) ومنه : قنوت الوتر ؛ لأنه دعاء المصلي قائما ، وفي الكلام حذف ، أي : أمن هو قانت كغيره حذف لدلالة جُرِيِّ [ذكر] الكافر قبله ، والتقدير : أهذا الكافر الذي ذكرناه وخولناه ، أو من هو قانت آناء الليل ، ولكنه اختصر الكلام .

قال في التجريد : قرئ بتخفيف ﴿ أمن ﴾ على أنها همزة الإستفهام ، دخلت على من ، بمعنى الذي ، وقال الفراء : هي همزة النداء ، دخلت على من ، كأنه قيل : يا من هو قانت ، نحو قولك فلان لايصوم ، يا من هو صائم أبشر بخير ، وقرئ بالتشديد على أنها أم دخلت على من ، وتقدير المخففة على غير قول الفراء : أمن هو قانت آناء الليل كمن ليس بقانت ، أو : [بل أ]من هو قانت كمن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، وتقدير المثقلة : أهذا الذي ذكرنا خير أم من هو قانت(٢) .

---

(١) الحديث في الكشاف ٣/٣٤٠ ، قال ابن حجر في تخريجه : مسلم من طريق أبي الزبير ، عن جابر ، ورواه الطحاوي من هذا الوجه بلفظ (طول القيام) وكذا هو في حديث عبد الله بن جعفر ، بلفظ (سئل أي : الصلاة أفضل ؟ قال : طويلة القيام) .

(٢) ومحل من على قول غير من قال : بأن الهمزة للنداء ـ محلها الرفع على الابتداء ، والخبر محذوف . وقوله: وتقدير المثقلة .. الخ يعني أن الهمزة فيه هي المعادلة ، وأم فيه متصلة . وزيادة القوسين ليدل على أن الأولى متصلة ، والثانية منقطعة كما ذكره السيد العلوي في حاشيته .

نـــزلت في علي عليه السلام ، وقيل : في غيره ، والمراد منه كل من كان موصوفا بهذا الصفة ، فليست الآية مقصورة على سببها .

ثم قـــال في مقام الخوف ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾ أي : عذابها ، وقال في مقام الرجاء : ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أي : نعمته في الدارين ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَـــا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : بينهما بون ، وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة ، كـــأن مـــن لايعمـــل غير عالم ، فهم عند الله جهلة ، وفيه ازدراء عظيم ، أو أراد التشـــبيه، أي : كمـــا لايســـتوي العالمون والجاهلون ، كذلك لايستوي القانتون والعاصون(١) .

ثم قـــال تعالى :﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي : ذووا العقول النافعة ، يعني هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لايعرفه أيضا إلا أولوا الألباب .

قـــال الرازي : ثم اعلم أنه تعالى لما بين نفي المساواة بين من يعلم ومن لايعلم أتبعه بأن أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخاطب المومنين بأنواع من الكلام ، الأول : قوله تعالى: ﴿ قُـــلْ يَاعِـــبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي : احذروا عقابه ، والمراد أنه تعالى أمر المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى ، وهذا من أدل الدلائل على أن الإيمان لايبقى مـــع المعصية ، قال القاضي : أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم ؛ لأن عند الإتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب ، وبالإقدام عليها يحبط (٢) .

---

(١) قـــال السيد العلوي : قوله :(وأراد بالذين يعلمون العاملين) فيكون الذين يعلمون وصفا للمظهر موضع الضـــمير للإشعار بالغلبة ، ويفهم منه أن غير العاملين جاهلون ، وإليه أشار بقوله :(فهم عند الله جهلة) حيث جعـــل القانـــتين هم العلماء ، كأنه قيل : أمن هو غير قانت ، وهل يستويان ، أي بينهما بون بعيد ، فالجملة الثانية بيان للفرق ، ولهذا قال : وفيه ازدراء عظيم .. ويجوز أن يراد على سبيل التشبيه ، فهو عطف على قوله : وأراد بالذين يعلمون العاملين ، أي : دل على المحذوف جري ذكر الكافر قبله ، وجرى قوله ﴿ هل يستوي الذيـــن يعلمون ﴾ بعده ، وأراد بالذين يعلمون العاملين ، لأنه كالتقرير لقوله :﴿ أمن هو قانت آناء الليل ﴾ لأن العالم الحقيقي هو العامل ، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه فيكون القانت غير العالم .

(٢) تفسير الرازي ٢٦/٢٥٢ .

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالإتقاء بين لهم ما في هذا الإتقاء من الفائدة فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بأعمالهم ﴿فِي هذه الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ عظيمة ، يحتمل أن يكون في هذه صلة ﴿أحسنوا﴾ أي : للذين عملوا الحسنة في الدنيا حسنة في الآخرة ، وهي الجنة ، ويحتمل أن يكون ﴿في هذه الدنيا﴾ ظرفا لحسنة ، أي : لهم حسنة حاصلة في هذه الدنيا ، وهي الصحة والعافية ، والثناء الحسن ونحو ذلك ، والتنكير في قوله: ﴿حسنة﴾ للتعظيم ، يعني حسنة لايصل العقل إلى كنه كمالها .

ثم قال تعالى : ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمن تعذر عليه الإحسان في مكانه انتقل إلى آخر يتمكن فيه من الإحسان ، فلا عذر للمفرطين فيه ، وعليهم الإقتداء بالأنبياء والصالحين في المهاجرة ليزدادوا طاعة وإحسانا ، والمقصود منه الترغيب في الهجرة ، وفي الصبر على مفارقة الوطن ، ونظيره قوله تعالى :﴿قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾(١) وقيل : المراد أرض الجنة(٢) ، وصفها بالسعة ترغيبا فيها ، والأول هوالأصح ؛ لأن قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لايليق إلا بالأول ، والمراد الصابرون على دينهم ، أو على مفارقة أوطانهم في الله ، وغير ذلك من المشاق في الدين ، واختلف في قوله تعالى :﴿ بغير حساب﴾ قيل : لايحاسبون عليه ، وقيل : لايحاسبون على سيئاتهم ، وقيل : بغير مكيال ولا ميزان ، وهو عبارة عن الكثرة .

وعن ابن عباس : لايهتدي إليه حساب الحسّاب لكثرته .

---

(١) النساء : ٩٧ .

(٢) في حاشية في النسخة ب : أرض الحبشة ، وفي الرازي ، أرض الجنة ، وفي النسختين أ ، وب .

قال الرازي : والقول الثاني : قال أبو مسلم : لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة ، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله ، ثم بين أن من اتقى فله في الآخرة الحسنة ، وهي الخلود في الجنة ، ثم بين أن أرض الله أي : جنته واسعة ، لقوله تعالى :﴿نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ وقوله تعالى :﴿وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ والقول الأول عندي أولى . لأن قوله :﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ لا يليق بالأول . الرازي ٢٦/٢٥٣.

وما أحسن قول المرتضى عليه‌السلام في ذلك حيث قال في جواب من سأله : أراد عز وجل بـ ﴿أجرهم﴾ عطاءهم الذي أعده للصابرين ، من الثواب والنعيم والكرامة. ثم ذكر تبارك وتعالى أنه يعطيهم ذلك بغير حساب ، والعرب تقول لما كان كثيرا غزيرا : هذا بلا حساب ؛ لأن ماكان نزرا يسمى بحساب ، إذ هو يوقف عليه لقلته، فأخبر سبحانه أنه يعطيهم أجرهم ، وأجرهم : فهو ما جعل لهم من عطائه كثيرا غير قليل ولا منقطع ، فيلحق بحساب ، ويعرف له غاية ، فذكر عز وجل أنه كثير دائم، غير منقطع ولا فان ، في جميع ما رزقهم وأعطاهم ، وقلتم : مَنْ ﴿الصابرون﴾ ؟ فهم الذين صبّروا أنفسهم ومنعوها من اتباع أهوائهم ، والإرتكاب للذاهم ، الذين صبروا على الطاعة ، وتمسكوا بحبله ، وصبروا على مانزل بهم من المحن في أمره ، وجاهدوا أعداءه ، ونالهم في ذلك المكروه ، وبذلوا فيه مهجهم ، وسخوا فيه بأنفسهم ، فكانوا كما قال عز وجل : ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ (١) والصابرون : فهم ما ذكر الله سبحانه في كتابه إذ يقول : ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ فأوجب عليهم الخسران بما اجتلبوه من فعالهم ، وخسروه بتقصيرهم ، ثم استثنى عز وجل أهل طاعته فقال : ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق﴾ فذكر عز وجل تواصيهم بالحق ، وتمسكهم به ، ثم قال : ﴿وتواصوا بالصبر﴾ على مايتزل بهم من المحن والأذى في الحق ، فهؤلاء الذين صبروا في أمر الله ، وامتحنوا في طاعته فهم الصابرون على كل ما يقربهم إلى الله ، وإن اشتد ذلك عليهم ، وهم التاركون لكل ما لا يرضي الله وإن تسهّل وتحسّن ذلك في أعينهم . اهـ

الثاني من البيانات التي أمر الله رسوله أن يذكرها : قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك والرياء ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ أي : وأمرت

(١) البقرة : ١٧٧

بذلك لأجل أن أكون ﴿أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي : مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة، أو تجعل اللام زائدة ، كقوله :﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾(١) وأول من أسلم معناه : أول من أسلم في زماني ، وفي قومي ؛ لأنه ﷺ أول من خالف دين آبائه ، ولا شبهة في أن المراد أول من يتمسك بالعبادات التي أرسلت بها، أي : لست من الجبارين الذين يأمرون الناس بأشياء ، وهم لايفعلونها ، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعا فيه ، وإقداما عليه ، فقوله :﴿وأمرت أن أكون أول المسلمين﴾ في شرائع الله لايمكن أن يكون إلا رسول الله ﷺ ؛ لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ .

ولما أخبر الله تعالى أنه أمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال المخصوصة، أخبر سبحانه أن ذلك الأمر للوجوب فقال :﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص ، ومخالفة دليل العقل والوحي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أُمِرَ بذلك حين دعوه إلى دين آبائه ، قال مقاتل : قال له قومه : ماحملك على مفارقة دين آبائك ؟ فنزلت .

قال الرازي : وفيه فوائد ، الأولى : أن الله تعالى أمر محمدا ﷺ أن يجري هذا الكلام على نفسه ، والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي ؛ لأنه مع جلالة قدره ، وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفا حذرا من المعاصي فغيره بذلك أولى .

ثم قال : الفائدة الثالثة(٢) : دلت [هذه الآية]على أن ظاهر الأمر للوجوب ، وذلك لأنه قال في أول الآية ﴿إني أمرت أن أعبد الله﴾ ثم قال بعده ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذي تقدم ذكره ، وذلك يقتضي أن يكون تارك الأمر عاصيا ، والعاصي يترتب عليه الخوف من العقاب ، ولا معنى للوجوب إلا ذلك .

---

(١) يونس : ٧٢ . النمل : ٩١ .

(٢) في النسخة ب ، هي الفائدة الثالثة ، وفي النسخة أ ، هي الثانية ، وهي في الرازي الفائدة الثالثة ، وقد ترك المصنف الفائدة الثانية ؛ لأنها غير موافقة لقواعد أهل العدل والتوحيد .

النوع الثالث من الأشياء التي أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى : ﴿ قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ من الشوائب ، وقوله : ﴿ فاعبدوا ماشئتم من دونه ﴾ تأكيد لما تقدمه ، وفيه زيادة تهذيب بقوله : ﴿ فاعبدوا ماشئتم ﴾ وأمر مبالغة في الخذلان والتخلية ، وشدة غضب وبأس كما مر في ﴿ تمتع بكفرك ﴾(١) .

فإن قيل : ما معنى التكرير في قوله : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ وقوله : ﴿ قل الله أعبد مخلصا له ديني ﴾ ؟ أجاب الرازي : أن هذا ليس بتكرير(٢) ؛ لأن الأول للإخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، والثاني : بأنه أمر بأن لايعبد غير الله ، وذلك لأن قوله : ﴿ أمرت أن أعبد الله ﴾ لايفيد الحصر ، وقوله : ﴿ الله أعبد ﴾ يفيد الحصر ، بمعنى الله أعبد ، ولا أعبد أحدا سواه ، والدليل عليه أنه لما قال : ﴿ قل الله أعبد ﴾ قال بعده : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ ولا شبهة في أن قوله : ﴿ فاعبدوا ماشئتم ﴾ ليس أمرا ، بل المراد منه الزجر ، كأنه يقول : لما بلغ البيان في وجوب رعاية التوحيد إلى الغاية القصوى ، فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم ، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي : الكاملين في الخسران ، الجامعين لوجوهه(٣) ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بوقوعها في

---

(١) الزمر : ٣٩ .

(٢) قال السيد العلوي : قوله : (ليس بتكرير) وتلخيص الجواب أن الأول إخبار عن كونه مأمورا بإيجاد الإخلاص ، والثاني : إخبار عن امتثاله الأمر وإيجاده المأمور به ، ولذلك قدم المفعول على الفعل كأنهم قالوا اعبد ما نعبد ، ليفيد ما يفيد ، كما حكى عنهم في سورة الكافرون من قولهم : يا محمد هلم فاتبع ديننا ، ونتبع دينك ، فأجاب هنا بما أجاب به هناك ، فقال هنا : ﴿ قل الله أعبد مخلصا ... فاعبدوا ما شئتم ﴾ وقال هناك : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ والقصر هنا من القصر الإفرادي .

(٣) قوله :(الكاملين) هذا استفاده من تعريف الجنس ، نحو ﴿ ذلك الكتاب ﴾ وحاتم الجواد ، وقوله (الجامعين لوجوهه) بيان له ، قالوا في قولهم : هو الرجل ، أي : الكامل في الرجولية ، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال ، وذلك لأن اسم الجنس إنما يطلق على فرد من أفراده إذا اجتمع فيه الخصال المعتبرة في ذلك الجنس ، فكأنه ذلك الجنس كله ، وقوله : هم الذين خسروا . إشارة إلى ما يدل عليه التركيب من معنى الاختصاص في إعادة الذين خسروا بعد ذكر الخاسرين مبالغة أخرى . وانظر حاشية العلوي مخطوط ٢٢٣.

النار ﴿و﴾ خسروا ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ أيضا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم إن كانوا في النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا في الجنة فقد فارقوهم فرقة لا اجتماع بعدها ، وقيل : الذين كانوا لهم في الجنة لو دخلوها .

قال المرتضى عليه السلام : معناه خسروا أنفسهم ، بتفريطهم فيما ينجيهم ، وتركهم النظر لأنفسهم فيما يحييها ، ومن عذاب ربها ينجيها ، حتى خسروا أنفسهم ، وصاروا إلى جهنم ، وبئس المصير ، ومعنى ﴿وأهليهم﴾ هو ماجعل الله لهم على الطاعة من الحوريات ، والخلد والنعيم الذي جعله لجميع المخلوقين ثوابا على طاعتهم ، فلما أن عصوا الله عز وجل ، وآثروا دنياهم ، واختاروا حلاوة فسقهم ، خسروا أنفسهم وأهليهم .

ثم قال سبحانه : ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ تأكيدا في الخسران ، وتقريعا على التقصير ؛ لأنه خسران لايجتبر ، إذ كل خسران في الدنيا يستلحق ويدرك ويستعاض ، إلا من خسر بتقصير نفسه فأوردها جهنم ، وترك ما أعد الله عز وجل على طاعته ، بما ذكر سبحانه للمطيعين ، من الجنان والرضاء والرضوان ، والحور الحسان ، وذلك الفوز العظيم ، والمحل الكريم ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون ، وله فليقصد الطالبون .

قال عليه السلام: وقلت : ما من مؤمن ولا كافر إلا وله منزلة في الجنة .قال عليه السلام: أما الكافر فلا شئ له ولا كرامة ، ولا مرتبة عند الله سبحانه ولا سلامة ، والله سبحانه فإنما خلق الخلق جميعا ليعبدوه فقال جل ذكره : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فجعل الجنة للمطيعين ، والعقاب للعاصين ، ولو قبلوا ما تُعُبِّدُوا به كما قبله المؤمنون لكانوا من المثابين ، وعند الله عز وجل من المكرمين ، بل غلبت عليهم شقوتهم ، وتركوا أفضل المنازل لشرارتهم ، ورداءة أفهامهم ، وإنما هلكوا بنفوسهم ، ولم تأتهم الهلكة من ربهم بل أعذر إليهم وأنذر ، وأوضح وبين ، وكلف

فسهل ، وبذل المغفرة وأمهل ، ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾(١) . اهـ

ومعنى ﴿المبين﴾ أي : الظاهر البين الذي لاخسران إلا ما هو دونه ، وقد دلت هذا الألفاظ على غاية المبالغة من وجوه :

الأول : أنه تعالى لما وصفهم بالخسران أولا ، ثم أعاده ثانيا بقوله :﴿ألا ذلك هو الخسران﴾ كان التكرير لأجل التأكيد .

الثاني : أنه تعالى لما وصفهم ذكر في أول هذا الكلمة حرف ألا ، وهو للتنبيه ، وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم ، كأنه قيل : بلغ من العظمة إلى حيث لاتصل عقولكم إليها فتنبهوا لها .

الثالث : أن كلمة هو في قوله :﴿هو الخسران﴾ تفيد الحصر ، كأنه قيل : كل خسران فإنه في مقابلته يصير لاخسران .

الرابع : وصفه بكونه مبينا يدل على التهويل .

ولما شرح الله خسرانهم هذا ، ووصفه بغاية الفظاعة من أحوال حرمانهم عن الربح ــ أخبر سبحانه أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران ، بل ضموا إليه استحقاق العذاب العظيم ، والعقاب الشديد الأليم فقال عز وجل :﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ جمع ظلة ، وهي ما أظلك من فوق ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي : أطباق من النار هي ظلل ، لا أسفل منها(٢) تتلهب عليهم ، كقوله :﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾(٣) والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب ، ونظيره في الأحوال النفسانية إحاطة نار الجهل والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان .

فإن قيل : الظلة ما على الإنسان فكيف سمي ما تحته بالظلة ؟

---

(١) الأنفال : ٤٢ .

(٢) وفي ب (لا سفل منها) .

(٣) العنكبوت : ٥٥ .

أجاب الرازي عنه من وجهين ، الأول : أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر ، [كقوله :﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ .

الثاني : أن الذي تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته ، لأن النار دركات كما أن الجنة درجات .

الثالث : أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء أطلق اسم أحداهما على الأخرى] (١) لأجل المماثلة والمشابهة .

ثم قال تعالى :﴿ ذَلِكَ ﴾ العذاب الذي تقدم ذكره ﴿ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِي ﴾ أي : يحذر عباده العذاب ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ، وليعلموا إن كانوا يعقلون أن الصادق لايُخَوِّف إلا بحق ، ولا يحذِّر إلا بصدق ، فقوله :﴿ ذلك ﴾ مبتدأ ، وقوله :﴿ الذي يخوف الله به ﴾ خبر .

ثم قال تعالى :﴿ ياعباد فاتقون ﴾ أي : احذروا مقاربة أسباب غضبي .

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأوثان والأصنام وعد من اجتنب عبادتها ، واحترز عن الشرك؛ ليكون الوعد مقرونا بالوعيد فيحصل كمال الترغيب والترهيب، فقال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ الطاغوت : فَعَلُوت من الطغيان ، كالملكوت ، قدمت لامه على عينه ، والأصل طغيوت ، قدمت اللام التي هي الياء على الغين ، فصار طيغوت ، ثم قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها فصار طاغوت ، أي : الشياطين والأصنام ، كأن عين الشياطين طغيان ، فسموا بذلك مبالغة(٢) ، وقوله :﴿ أن يعبدوها ﴾ بدل اشتمال من الطاغوت ، أي: أن يطيعوها ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ رجعوا إليه .

---

(١) ــ ما بين القوسين محذوف في النسخة أ ، وهو موجود في النسخة ب ، وفي الرازي ٢٥٧/٢٦ .

(٢) والمبالغة : حصلت من التسمية بالمصدر ، كأن عين ذلك الشيء الطغيان ، وثانيها : أن البناء بناء المبالغة ، فإن الرحموت : الرحمة الواسعة ، والملكوت : الملك المبسوط . وزاد الرازي وجها ثالثا ، فقال : وثالثها : ما ذكرنا من تقديم اللام على العين ، ومثل هذا إنما يصار إليه عند المبالغة .

ثم وعد هؤلاء بأشياء فقال : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ أي : بشارتهم بالثواب على ألسنة الرسل في الدنيا ، ومن الملائكة عند الموت والحشر ، قال الرازي : تحصل هذه البشارة عند القرب من الموت ، وعند الوضع في القبر ، وعند الخروج من القبر ، وعند الوقوف في مواقف القيامة ، وعندما يصير فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، وعندما يدخل المؤمنون الجنة ، ففي كل موقف من هذا المواقف تحصل البشارة ، بنوع من الخير والروح والراحة والريحان ، فتقع هذا البشارة بزوال المكروهات ، وحصول المرادات[١] .

واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ لهم البشرى ﴾ أردفه بما يجري مجرى التفسير والشرح له فقال : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ﴾ أي : الذين اجتنبوا وأنابوا ، والقول عام في كل ما يقال من الطاغوت والمذاهب ، أو هو القرآن[٢] ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ كالقصاص والعفو والإنتصار والإغضاء ، والإخفاء في الصدقة والإبداء ، أو يأخذون بالمحكم ويتركون المتشابه ، أو بالناسخ ويتركون المنسوخ .

وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس إلى القوم فيسمع حديثهم ، وفيه محاسن ومساو، فيحدث بأحسن ما سمع ، ويكف عما سواه .

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال سبحانه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي : العقول الوافرة ، أراد الحراص على اختيار الأفضل على الفاضل ، كالواجب على المندوب ، والمندوب على المباح .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ هي ﴿ لأملأن جهنم ﴾[٣] الآية ، أصل الكلام : أمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، وهمزة الإستفهام للإنكار ،

---

(١) الرازي ٢٥٩/٢٦ ، وفيه تصرف يسير .

(٢) وفي النسخة ب (وقيل : هو القرآن) .

(٣) الأعراف : ١٨ . هود : ١١٩ . السجدة : ١٣ . ص : ٨٥ .

ومَـــن شرطية ، والفاء عاطفة على محذوف دل عليه الخطاب تقديره : أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه ؟ ودل على هذا قوله : ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَنْ فِـي الـنَّارِ﴾ أي : تخرجه منها يامحمد ، والإستفهام الثاني هو الأول كرر لتأكيد الإنكار ، ووضع ﴿في النار﴾ موضع الضمير ، نَزَّل استحقاقهم العذاب بتصميمهم على الكفر ، وهم في الدنيا منـــزلة دخولهم النار ، ونَزَّل دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكدحـــه في إيمـــانهم مترلـــة إنقاذهم من النار بعد أن قد صاروا فيها في الآخرة ، ولايقدر على ذلك إلا الله تعالى .

والـــثاني من الأشياء التي وعد الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأنابوا قوله تعالى : ﴿ لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ﴾ علالي في الجنة ﴿ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ أعلا منها ، بعضها فوق بعض ، والغرفة : أعلا منازل الدار ﴿ مَبْنِيَّةٌ﴾ كبناء المنازل التي على الأرض .

لمـــا ذكر أن الخاسرين لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل ، قابل بذلك ما للمتقين فذكر أن لهم غرفا هم فيها ، وهم فوقها غرف أعلى منها إذا شآؤا كانوا فيها .

ثم قال : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من غير تفاوت بين العلو والسفل ، لا كأنهار الدنيا ، فإنها لاتجري إلا تحت السفل .

ثم خـــتم الكلام وقال : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أي : وعدهم الله ذلك وعدا ، وهو مصدر تأكيد لقوله : ﴿ لهم غرف﴾ لأنه في معنى وعدهم الله ذلك .

ثم قـــال : ﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ الإخلاف : هو الكذب ، فأخبر أنه عز وجل لايكذب وعده .

ثم اعـــلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة فيها ، ووصف الدنيـــا بصـــفة توجب اشتداد النفرة عنها فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الهمزة لتقرير ما رأى ، يعني: ﴿ ألم تر﴾ أيها الإنسان ﴿ أن الله أنزل مـــن السماء ماء﴾ هو المطر ، وفيه دليل على أن ماء الأنهار من ماء المطر ، وقيل :

كل ما في الأرض فهو من السماء ، يترل منها إلى صخرة بيت المقدس ، ثم يقسمه الله عز وجل في الأرض والله أعلم .

﴿فَسَلَكَهُ﴾ أي : أدخله وأجراه ﴿يَنَابِيعَ﴾ عيونا ومجاري ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كالعروق في الأجساد ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ من خضرة وحمرة ، وصفرة وبياض ، وأصنافه من بر وشعير وسمسم وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي : يتم جفافه ، يعني ييبس الزرع فيثور عن منابته ، قال الكميت بن زيد :

وإن هاج نبت العلم في الناس لم تزل لهم روضة خضراء منه ومذنب

والهياج فقد يكون على وجوه أخر ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ ينقلب إلى الصفرة إذا هاج ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ فتاتا أسود لشدة يباسه وتحطمه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإيجاد والتنويع والتدريج ﴿لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي : تذكرا وتنبيها ودليلا على أن هذا فعل صانع حكيم ، قادر عليم عن تدبير ، لاعن إهمال ، ويجوز أن يكون مثلا للدنيا وسرعة زوالها ، كقوله :﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ يعني : أن من شاهد هذه الأحوال في النبات ، علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك، وإنه وإن طال عمره فلا بد من الإنتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء ، ثم تكون عاقبته الموت، فإذا كانت مشاهدة هذا الأحوال في النبات تذكره حصول مثال هذا الأحوال في نفسه وفي حياته، فحينئذ تعظم نفرته في الدنيا وطيباتها ، والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ، ذكر مايقوي الرغبة في الآخرة ، وذكر في هذا الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا ، فشَرْحُ صفات القيامة يقوِّي الرغبة في طاعة الله ، وشرحُ صفات الدنيا يقوِّي النفرة عن الدنيا .

واعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعته ، ووجوب الإعراض عن الدنيا - بين بعد ذلك أن الإنتفاع بهذا البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الصدر ونور القلب ، فقال سبحانه :﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ أي :

فسّحه بالألطاف لمن علم قبوله ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ فرَغِب فيه وقبِلَه ، والمعنى : فمن وسع الله صدره .

﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي : على حق . ونور الله : توفيقه ولطفه ، واليقين الحاصل للمكلف ، وقيل : نور الله القرآن ، أي : أفمن شرح الله صدره كمن لا لطف له ، فهو حرج الصدر ، قاسي القلب .

وعن ابن مسعود :(تلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الآية فقالوا : يارسول الله ما هذا الشرح ؟ قال : نور يقذفه الله في القلب فينفسخ القلب ، قيل : فما علامة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزوله) (١) .

والشرح يكون بما يجدد الله في القلب من الألطاف وقوة الأدلة ؛ لأن الله الذي نصبها ، وتصفية الخاطر ، وحل الشبه . وقسوة القلب : صلابته باعتقاد الجهالات ، وكتقليد الآباء ، وبحب الدنيا من المال والجاه ، واتباع الهوى ، وبترك التفكر في الآخرة . فقوله :﴿أفمن شرح الله صدره﴾ جوابه محذوف تقديره : أفمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد ، وإنما ترك هذا لأن الكلام المذكور دليل عليه ، وهو قوله تعالى :﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ .

قال الهادي عليه‌السلام : القاسية : هي الممتنعة من قبول حق الله تعالى ، الكارهة لما أنزل الله ، ومعنى ﴿من ذكر الله﴾ فهو عن ذكر الله ، غير أن مِنْ قامت مقام عن لأنهما من حروف الصفات ، وحروف الصفات يخلف بعضها بعضا ، ويقوم بعضها مقام بعض ، وفي ذلك ما يقول عز وجل :﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾(٢)

---

(١) قال ابن حجر في تخريجه على الكشاف : الثعلبي والحاكم والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود ، وفيه أبو فروة الرهاوي ، فيه كلام ، ورواه الترمذي الحكيم في النوادر ، في الأصل السادس والثمانين ، وفي إسناده إبراهيم بن ....[فرغ في الأصل] وهو ضعيف ، قلنا : الحديث لا يخالف كتاب الله تعالى ، وإن لم يوافق هذه القواعد المبتدعة .

(٢) طه : ٧١ .

وإنمـــا أراد على جذوع النخل ؛ لأن الصلب لايكون في الشئ ، وإنما يكون عليه ، قال الشاعر :

شـــربن بمـــاء الـــبحر ثم ترفعت لـــدى لجـــج خضـــر لهن نئيج

فقال : لدى ، وإنما أراد على. اهـ

قال الفراء والزجاج : من بمعنى عن ، كما تقول : أتخمت من طعام أكلته ، وعن طعام أكلته ، وقال غيرهما : معنى القساوة من ذكر الله أنه كلما تلي ازداد المكذبون المصممون قساوة ، فقست قلوبهم من أجل ذكر الله ، وبسببه ؛ [أي : إذا ذكر الله وآياتـــه ازدادت قـــلوبهم نفـــرة وقساوة](١) لأنهم جعلوه كذبا ، فأقسى قلوبهم ، والقســـوة : هـــي اليبس والغلظ ؛ لأن قلوبهم لاتخشع ولا ترحم ضعيفا ، ولا تفعل خيرا ، قال مقاتل : نزلت : ﴿أفمن شرح الله صدره﴾ الآية في النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي أبي جهل لعنه الله ، وقال عطاء : نزلت في علي وحمزة ، وفي أبي لهب وولده .

ثم قـــال سبحانه : ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي : في ذهاب عن الحق ﴿مبين﴾ أي : بين .

ولما بين الله تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهدايـــة وكمال الدرجة ، فقال : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يريد : القرآن نزله مُفَرَّقا ، وقوله : ﴿كِتَابًا﴾ بدل من (أحسن) ﴿مُتَشَابِهًا﴾ يشبه بعضه بعضا في باب الحكمـــة ، وجزالة ألفاظه ، وصحة معانيه ، والبناء على الحق ، ومنفعة الخلق ، وفي الفصاحة والإعجاز ، فوصف القرآن كله بالتشابه ، والمراد به ماذكر ، والله أعلم .

وقيل : يصدق بعضه بعضا ، فهو غير مختلف لاينقض بعضه بعضا .

ثم وصـــفه فقال : ﴿مَثَانِيَ﴾ جمع مثنى ، أي : مردد ومكرر قصصه ، وأحكامه ، ووعده ، ووعيده ، وفائدته الرسوخ في النفوس لأنها أنفر شئ عن الوعظ .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب .

ثم قال في صفته : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ ﴾ أي : تقبّض تقبّضا شديدا من تخويفه ﴿ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ معناه: حين يسمعون تلاوته تقشعر جلودهم وتقبّض ، وتحرك، وتعلوها القفة من خوف ماسمعوا من الوعيد .

يجوز أن يكون تمثيلا لإفراط خوفهم ، وأن يكون حقيقة ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ ﴾ يذهب تقبضها واقشعرارها ﴿ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وإنما عداه بإلى لأنه ضمنه معنى تسكن وتطمئن عند نزول آية الرحمة ، وأن يذكروا الله ورحمته ، وجوده وما وعد من مغفرته ، ويزول ما بها من القشعريرة ، روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم :(إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت ذنوبه كما تتحات عن الشجرة اليابسة ورقها) (١) .

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بهذا الصفات قال ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الكتاب ﴿ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من المتقين القابلين اللطف والهدى ، حتى يكونوا بتلك الصفة المتقدمة ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أي : يخذله لعلمه أنه لايقبل اللطف ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يؤثر فيه ؛ لأن لطف الله إذا لم يؤثر فيه ، فمن يقدر بعد ذلك على هدايته .

ثم قال تعالى :﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : يقي نفسه بوجهه ، الذي هو أعز أعضائه ، ويقيه في الدنيا سائر أعضائه وقاية ، يقال : إن الكافر ينطلق به الخزنة إلى النار ، ويداه مغلولتان إلى عنقه فيقذف به في النار فلا يتقيها وشدةَ العذاب إلا بوجهه .

وفي الكلام حذف ، تقديره : أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن يدخل الجنة

قيل : نزلت في أبي جهل .

---

(١) الحديث ذكره في موسوعة أطراف الحديث النبوي ، ٢٥٦/١ ، وعزاه إلى الترغيب والترهيب ٢٦٤/٤ ومجمع الزوائد ٣١٠/١ ، والبغوي ٧٣/٦ ، وكنز العمال برقم ٥٨٧٩ ، وتاريخ بغداد ٥٤/٤ ، وإتحاف السادة المتقين ٢٠٤/٦.

وما أحسن قول الهادي إلى الحق عليه السلام في معنى هذا الآية حيث يقول : معنى ﴿أحسن الحديث﴾ فهو أحكمه ، والحديث : فهو الخبر من توراة أو إنجيل [أو زبور ، أو فرقان] أوقرآن ، وأخبر أنه أحكم الكتب وأقومها ، وأفضلها لديه وعنده، وهو كتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومعنى قوله : ﴿متشابها﴾ فهو : متشابه التنزيل ، محكم التأويل ﴿مثاني﴾ فهو : مكرر الإعذار والإنذار ، والنهي والأمر ، لإثبات الحجة ، وتمام النعمة ، ﴿تقشعر منه﴾ يريد : تقف منه ـ هيبة ووجلا وإجلالا، وتصديقا، وتعزيزا عظيما ـ جلود الذين آمنوا ، واتقوا ربهم ، وخشيوا وعيده ، وطلبوا وعده ﴿ثم تلين﴾ من بعد الفزع والهيبة ، ومعنى ﴿تلين﴾ فهو تطمئن قلوبهم وتخفض ثقة بوعد الله .

ثم أخبر سبحانه بما يؤتى من كان كذلك من الهدى جزاء على ما اختار من التقوى فقال : ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾ ومعنى قوله : ﴿ومن يضلل الله﴾ فهو : من يخذل الله فما له من مرشد ، ولا هاد مسدد .

﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾ يقول : من عمل في الدنيا عملا يستوجب به العذاب يوم القيامة ، ويَصْلَى بوجهه له ، ثم أضمر هاهنا شيئا ، وهو فهو من الهالكين ، أو فهو من الخاسرين ، أو مثل ذلك .

ومعنى ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ فهو قول الملائكة خزنة جهنم وغيرها ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا ، وتجحدون البعث ، ولا توقنون بالحساب والعقاب ؛ الآن فذوقوا سوء العذاب(١) . اهـ

ولما بين الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ، بين أيضا كيفية وقوعهم في العذاب في الدنيا فقال : ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قريش ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي : من الجهة التي لم يخطر لهم ببال أنه يأتيهم منها ، يفاجؤن من

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٠ .

مأمنهم ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ ﴾ أي : الضر والذل والصغار ، كالخسف والمسخ والقتل والجلاء الذي أصابهم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ لأن كل بلاء دون النار عافية ، ثم قال : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه أكبر جهلهم ، لأنهم لايعلمون ، أو لأن علمهم كلا علم ، لعدم انتفاعهم به ، والمقصود من كل ذلك التخويفُ والترهيبُ .

ولما ذكر الله تعالى هذا بين سبحانه أنه بلغت هذا البيانات إلى حد الكمال والتمام، فقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا ﴾ أي : مثّلنا ﴿ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : من كل صفة غريبة عجيبة ، كأنها مثل في غرابتها وحسنها ، وقيل : من كل شَبَه يشبه حالهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لإرادتنا أن يتفكروا في أمثاله ، فيدعوهم ذلكَ إلى الإنتفاع به ، والفوز بسببه .

واعلم أن هذا الآية ونحوها قد أبطلت مذهب الجبرية وهدمت أصول الأشعرية ، وذلك أنها دلت على أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة ، ودلت الآية أيضا على أنه تعالى يريد الإيمان والمعرفة من الكل ؛ لأن قوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس ﴾ مشعر بالتعليل ، وقوله في آخر الآية : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ مشعر أيضا بالتعليل ، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذا الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم .

ولما كانت هذا البيانات النافعة ، والبينات الباهرة موجودة في القرآن ، لاجرم وصف القرآن بالمدح والثناء ، فقال تعالى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ حال مؤكدة ، قال الزجاج : ﴿ عربيا ﴾ منصوب على الحال ، والمعنى : ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه ، أو أمدح قرآنا عربيا(١) .

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قال الزجاج : ﴿ عربيا ﴾ منصوب على الحال ، أي ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه ، وذكر قرآنا توكيدا ، كما تقول : جاءني زيد رجلا صالحا ، فتذكر رجلا توكيدا ، وقال صاحب الفرائد : يمكن أن يقال : ﴿ قرآنا ﴾ حال و﴿ عربيا ﴾ صفة ؛ لأن القرآن مؤكد به .

ومعنى ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي : مستقيما بريا من التناقض والإختلاف وسائر العيوب ، والعوج بكسر العين في المعاني كالعوج في الأعيان ، وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل يدل على فساد مذاهبهم ، وقبيح طرائقهم ، فقال : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ بدل من (مثلا) ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي : متباغضون متعادون في عبدهم ، قالت الخنساء :

أمّن يعود بحلمه عند التنازع والتشاكس

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أي : سالما من الشركة مملوكا لرجل واحد ، وقرئ (سالما) في السبع ، وهي قراءة أبي عمرو ، وابن كثير ، أي : خالصا من الشركة ، وهذا مثل ضربه الله لمن يعبد أربابا إن أكرم أحدهم أهان ضده ، وإن أرضى أحدهم أسخط عدوه،فهو في حيرة من أمره ، ولبسة في شأنه ، ومثل من يعبد ربا واحدا ، كمثل من يخدم سيدا واحدا ، فهو سالم من تضادد الأرباب ، متخلص من الإسخاط والإغضاب.

قال الهادي عليه‌السلام : هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للذين يعبدون مع الله غيره ، ويشركون في أنفسهم من لم يخلقهم ، فمنهم من كان يزعم أنه يتقرب بذلك إلى الله، ومنهم من كان يفعله جهلا لله ، فضرب الله هذا المثل لهم ، يعلمهم فيه أن من أخلص العبادة لله ، ولم يجعل في نفسه شريكا لله ، خلاف من يجعل مع الله في نفسه شريكا ، وأن المخلص لله المفرد لعبادته ، الذي لم يجعل له في نفسه شريكا يعبده معه أفضل وأعظم ممن جعل نفسه لاثنين . .

ثم قال : قوله : مصدر . فيمكن أن يقع حالا ، أي : مقروأ عربيا ، وقال أبو البقاء : ﴿قرآنا﴾ هو حال من القرآن موطئة ، والحال في المعنى قوله : ﴿عربيا﴾ وقيل : ينتصب بـ ﴿يتذكرون﴾ .

ثم أخبر سبحانه أن مملوكا لرجل سلما له أفضل عنده من شرك في مملوك بين اثنين، فهذا ما أراد الله سبحانه بهذا المثل ، تبارك وتعالى(١) . اهـ

وهذا مَثَل(٢)في غاية الحسن في تقبيح الشرك ، وتحسين التوحيد .

ثم قال تعالى :﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ أي : هل يستوي حالاهما ، قال في البرهان : ولم يقل مثلين ؛ لأنهما جميعا ضربا مثلا واحدا ، فجرى المثل فيها بالتوحيد ، ومثله ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ (٣) ولم يقل : آيتين (٤) لأن شأنهما واحدة ، ولو قيل : مثلين ، وآيتين جاز ؛ لأنهما اثنان في اللفظ . اهـ

والمعنى : مثل لقومك يامحمد مثلا ، وقل لهم : ما تقولون في رجل مملوك ، اشترك فيه شركاء متشاكسون ، أي : مختلفون متنازعون ، كل يدعي أنه عبده ، يتجاذبونه في مهن شتى ، ويتواكلون في رزقه ، فهو متحير في أمره ، قد شعبت الهموم قلبه ، لايدري أيهم يُرضِي ، ولا أيهم يعتمد ، وفي آخر قد سلم لمالك واحد ، فهو مؤد خدمته ، معتمد عليه ، فَهَمُّهُ واحد ، وقلبه مجتمع ، أَيُّ هذين أحسن ؟ والمراد : تمثيل من يثبت آلهة شتى ، وما يلزمه على قياس مذهبه من نحو ما أشار إليه المثل ، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا ، فهو قائم بأمره ، عالم بما أرضاه وأسخطه ، متفضل عليه عاجلا ، مؤمل للثواب آجلا .

ثم قال :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذي لاشريك له ، فيجب أن يختص بالحمد على أنه لم يأمرهم بعبادة غيره ، فيصير حالهم كحال العبد المشترك ، والأولى أن معناه : الحمد لله على فلج الخصم ، وظهور الحجة ، أي : على أن بين ذلك وأوضحه ، بضرب

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ، وبقية العبارة : (أراد بذلك أن ينبههم على إفراد العبادة له ، وترك ما يعبدون من دونه ، ومعه) .

(٢) وفي النسخة ب (وهذا مثال في غاية الحسن) .

(٣) المؤمنون : ٥٠ .

(٤) في أ (اثنين) وفي ب (آيتين) ، وفي البرهان :(آيتين) وانظر البرهان مخطوط ٣٣٧ .

المـثل وغـيره ؛ لأنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الحق ـــ ثبت أن الحمد له لا لغيره .

ثم قـال بعـده : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الحمد لله لا لغيره ، وأن المستحق للعبادة هو الله لاغيره ، وقيل : المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة ، والبيانات الـباهرة ، قال : الحمد لله على حصول هذه البيانات ، وظهور هذه البينات ، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ، ولم يقفوا عليها .

ولمـا تمم الله تعالى هذا البيانات قال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ كانوا يتربصون برسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم موته ، فأخبر الله تعالى أن الموت يعمهم ، فلا معنى للتربص ، وشماتـة الباقي بالفاني ﴿ ثُـمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ أي : ثم إنكم وإيـاهم ، فغلب المخاطب على الغائب ﴿ تختصمون ﴾ تحتج أنت عليهم بأنك قد بـلغت فكذبوا ، ويحتجون بما ليس بحجة ، فيقول الأتباع : أطعنا سادتنا ، ويقول الســادات : أغوتنا الشياطين وآباؤنا ، وقد حمل على اختصام الجميع ، وأن الكفار يتخاصـمون ، ويخاصم المؤمنون الكافرين ، يبكتوهم بالحجج ، قيل : وأهل القبلة يكون بينهم الخصام ، والوجه هو الأول . ذكر معنى هذا في التجريد وغيره .

والأولى أن المراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذا الدلائل القاهرة ، بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا ، فلا تبال يامحمد بهذا ، فإنك ستموت وهم أيضـا يموتون ، ثم نحشرهم يوم القيامة ، وتختصمون عند الله ، والعادل الحق يحكم بينكم ، فيوصل إلى كل أحد ما هو حقه ، وحينئذ يتميز المحق من المبطل ، والصدِّيق من الزنديق ، فهذا هو المقصود من الآية ، والله أعلم .

ثم بـين تعالى نوعا آخر من قبائح أفعالهم فقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي : لا أحد أظلم ﴿ مِمَّـنْ كَـذَبَ عَـلَى الـلَّهِ ﴾ بإضافة الولد والشركاء إليه ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَـاءَهُ ﴾ هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومعنى ﴿ إذ جاءه ﴾ يريد حين جاءه فاجأه

بالتكذيب حين سمع به من غير نظر ، ولا تفكر في صحته ، فكذبوه بعد قيام الدلائل القاطعة ، على كونه صادقا في ادعاء النبوة .

ثم أردفه بالوعيد فقال : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ أي : مقام هؤلاء ، والمثوى : موضع الثواء ، وهو الإقامة ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(١) ، وهو القرآن جاء بالحق ، وأمر به ، كقوله : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ (٢) .

وقوله : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ جاء جمعا للتعظيم ، وقيل : المراد هو ومن تبعه ، وقيل : الذي جاء بالصدق وصدق به : جميع الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم جاؤا بالصدق ، وصدقوا به ، أي : آمنوا بما جآؤا به ، يدل عليه الإخبار عنهم بالجمع في ﴿أولئك هم المتقون﴾ ، وقيل : هما لاثنين غيرين (٣) ثم اختلف في ذلك .

والصحيح ما ذكره الحاكم في كتاب تنبيه الغافلين في فضائل الطالبيين : أنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ لما روي عن النبي صلى الله عليه وآله : الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل ياسين ، وحزقيل مؤمن آل فرعون ، وعلي بن أبي طالب مؤمن آل محمد .

وعن معاذة العدوية : سمعت عليا عليه السلام على منبر البصرة يقول : (أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم) (٤).

---

(١) في شواهد التنزيل ، بسنده عن مجاهد : الذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والذي صدق به علي بن أبي طالب ، أخرجه من عدة طرق عنه ، وعن ابن عباس وأبي الطفيل .(شواهد التنزيل ٢/١٢٢) .

(٢) البقرة : ٢٨٥ .

(٣) أي : لاثنين مختلفين ، وعبر عنهما بالجمع ، كما هو مذهب البعض بأن أقل الجمع اثنان .

(٤) حديث معاذة العدوية أخرجه ابن عساكر في تاريخه ، وهو رقم ٨٨، ٨٩ ، ٩٠، عن معاذة العدوية ، من عدة طرق . انظر ترجمة أمير المؤمنين من تاريخ ابن عساكر ، بتحقيق محمد باقر المحمودي ١/٦١ ، ٦٣ .
قال السيد المحمودي في تخريجه :

وروي عن علي عليه‌السلام (أنا عبد الله وأخو رسول الله ، وأنا الصديق الأكبر ، لايقولها بعدي إلا كاذب مفتر ، وقد صليت قبل الناس سبع سنين) (١). اهـ

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين ، والمكذبين للصادقين ، ذكر بعده وعد الصادقين للصادقين ؛ ليكون الوعد مقرونا بالوعيد ، ثم إنه تعالى أثبت للذي جاء بالصدق وصدق به أحكاما كثيرة .

الأول : أنه تعالى وصف المصدقين بكونهم متقين .

الحديث مع كونه مخالفا لشيعة آل أبي سفيان ، ومباينا لما اعتقدوه ، وكانوا يجتنبون الحديث مع كونه مخالفا لشيعة آل أبي سفيان ، ومباينا لما اعتقدوه ، وكانوا يجتنبون عن رواية أمثاله ، خوفا وطمعا ، وحقدا وحسدا ، ومع ذلك قد أجرى الله أقلام جماعة ، من أجلة المتقدمين بروايته ، وإيداعهم إياه في أسفارهم ، فإليك بعض ما عثرنا عليه مما رواه أكابر القوم .. ثم خرجه وعزاه إلى البلاذري في الحديث ١٤٦ ، من ترجمة أمير المؤمنين من أنساب الأشراف ، وابن قتيبة ، في عنوان (إسلام أبي بكر) من كتاب المعارف ، ص ١٦٩ ، والحديث * مما ورد في شأن علي عليه‌السلام في ختام ترجمته من سمط النجوم ٤٧٦/٢ ، وهو في شرح الخطبة القاصعة ١٨٣ من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٥٧/٣ ، طبعة قديمة (مصر) وعزاه إلى الأسكافي في رده على عثمانية الجاحظ ، والدولابي في الكنى والأسماء ٨١/٢ طبعة الهند ، والعقيلي في ضعفائه الورقة ٨١ ، وابن عدي في كتابه الكامل ٢/ الورقة ٤ ، وأحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل في كتاب الآحاد والمثاني ، الورقة ١٦ . اهـ باختصار ما قاله محمد باقر المحمودي .

(١) إلى هنا انتهى النقل من كتاب الحاكم ، والحاكم : الحاكم : هو الحاكم الجشمي المحسن بن سعيد بن كرامة ، وكتابه تنبيه الغافلين في فضائل الطالبيين ، بين فيه الآيات الواردة في أهل البيت عليهم‌السلام ، وهو الآن رهن التحقيق بإشراف السيد العلامة محمد حسين الحلالي حفظه الله .

وهذا الحديث أخرجه محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين برقم ١٧٢ ، عن عباد الأسدي ، عن علي ٢٦٠/١ ، قال المحمودي في تخريجه : رواه أبو بكر بن أبي شيبة في الحديث ٢١ من فضائل علي عليه‌السلام من كتاب الفضائل تحت الرقم ١٢١٣٣ من كتاب المصنف ٦٥/١٢ ، طبعة الهند ، ورواه محققه في تعليقه عن الحاكم في المستدرك ١١٢/٣ ، ثم قال : وأخرجه ابن ماجه في سننه ١٢/١ ، والهندي في كنز العمال ١٥/ ١٠٧ عن ابن أبي شيبة ، ورواه النسائي بسند آخر في الحديث ٦٧٦ في كتاب خصائص علي ، والحديث له شواهد كثيرة .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ واعلم أن قوله : ﴿ عند ربهم ﴾ لايفيد العندية ، بمعنى الجهة والمكان ، بل المعنى قرب المترلة ، والإخلاص والشأن ، كما في قوله : ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ (١).

والثالث : قوله تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ معناه : ليغطي عنهم ذنوبهم ، ويستر قبائحهم ، والتكفير هو الستر والتغطية في اللغة ، قال الشاعر :

في ليلة كفر النجوم غمامها

أي : ستر غمامُها النجومَ وغطّاها ، وقوله : ﴿ أسوأ الذي عملوا ﴾ يريد أقبحه ، أي : في أنفسهم لاستعظامهم للمعصية ، وإلا فهو الصغائر ؛ لأنها أسوأ أعمالهم ؛ لأنهم كانوا مطيعين متقين ، فيكفرها بالآلام والمصائب في الدنيا ، ذكر هذا في البلغة .

وفي التجريد : ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ﴾ يريد بالتوبة ، وإنما ذكر الأسوأ دون السيئ ؛ لأنه إذا كفر الأسوأ ، فبالأولى ما هو أقل سوءا ، وأما ذكر الأحسن في قوله عز وجل : ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فيحتمل أن يراد بالأحسن ما كان له صفة زائدة على حسنه ، وهو الواجب والمندوب دون المباح فإنه حسن ، وليس بأحسن ، وقيل : المراد بأحسن ، أي : الحسن الذي يعملونه عند الله الأحسن ؛ لحسن إخلاصهم فيه .

الرابع : أنه جرت العادة بأن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذا الشبهة بقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ أي : محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أدخلت الهمزة على كلمة النفي ، فأفيد إثبات الكفاية وتقريرها في النفوس .

ثم قال : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي : أوثانهم ، قالت قريش له صلى الله عليه وآله وسلم : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، أو تصيبك بسوء لعيبك إياها ، فترلت . وفي هذا تهكم بهم ؛ لأنهم خوفوه بما لايقدر على نفع ولا ضر ، يعني لما ثبت أن الله كاف عبده

---

(١) القمر : ٥٥ .

كان التخويف بغير الله عيبا وباطلا ، ويجوز أن يريد بالعبد : العبيد ، أي : الأنبياء على الإطلاق ؛ لأنه كافيهم في الشدائد ، ولذلك قرئ (عبادنا) أي : أليس الله بكاف أنبياءه ، فكذلك شر من قصدك .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي : يخذله ، لعدم قبوله اللطف ، إشارة إلى قريش ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي : فما له من مرشد ، ولا هاد مسدد ، يقدر على هدايته ، أو من يحكم عليه(١) ويسميه بالضلال لمّا ضَلّ ، أو من يضله في الآخرة عن طريق الجنة فلا هادي له ، والمعنى : أن تخويفهم بالأصنام ضلالة ليس بعدها شئ .

ثم قال : ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي : يحكم بهداه ، أو يسميه به إذ قبل هداه فاهتدى ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ يقدر على إضلاله .

ثم قال : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب منيع ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ من أعدائه ، وفيه تهديد ، ووعيد لقريش ، ووعد للمؤمنين بالنصرة عليهم [ولو كان الله جل وعلا هو الخالق للضلال والكفر فيهم كما زعمت المجبرة لكان الإنتقام والتهديد قبيحين عند كل عاقل .

ثم اعلم أنهم مع عبادتهم غير الله يقرون أن الله تعالى هو الخالق الرازق المنتقم ، فقال سبحانه : ﴿ولئن سألتهم﴾ يعني : قريشا ، أي : وأقسم لئن سألتهم يا محمد ﴿من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ لأنهم يقرون بذلك ، ولا يعملون بمقتضاه ، فلزمتهم الحجة](٢) .

واعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين ، وفي وعيد الموحدين عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام ، وبنى هذا التزييف على أصلين ، الأول : أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم ، وهو المراد من قوله : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ واعلم أن من الناس من قال: العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم علم متفق عليه بين جمهور الخلائق ، ولا

---

(١) هو وجه ثان ، ومعنى آخر لقوله تعالى : ﴿ومن يضلل الله﴾ والأول : هو قوله : يخذله .

(٢) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في النسخة ب ، وهو ثابت في النسخة أ .

مـــراء بيـــنهم فيـــه ، وكأن فطرة العلم شاهدة بصحة هذا العلم ، فإن من تأمل في عجـــائب أحـــوال الســـموات والأرضين ، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان ، وخاصـــة في عجـــائب بدن الأنسان ، وما فيه من أنواع الحكم الغريبة ، والمصالح العجيبة علم أنه لابد من الإعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم .

والأصل الثاني : أن هذه الأصنام لاقدرة لها على الخير والشر ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أي : أخبروني ﴿ مَا تَدْعُونَ ﴾ أي : ما تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ من مرض أو فقر أو غيرهما ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِــرَحْمَةٍ ﴾ مـــن صـــحة وغناء وغيرهما ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ عني حتى لا تصـــيبني، فَـــرَضَ المسألة في نفسه[١] ؛ لأنهم خوفوه ضرها ، وثبت أن هذا الأصنام لاقـــدرة لها على الخير والشر ؛ وإذا كان الأمر كذلك كان عبادة الله كافية ، وكان الإعتماد عليها كافيا ، وهو المراد من قوله سبحانه : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ كافيا لمعرة أوثـــانكم ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ومعناه : كفايتي الله عن كل معبود ومخلوق ، والعرب تقول : حسبك ياهذا لا تزد[٢] شيئا ، أي : معك الكفاية فلا تطلب أكثر مما معك ، قال الشاعر :

وأحســـبته مـــالا رغيبا ولم أكن ... ضـــنيناً بما تحوي يدي من الوفر

أي : أعطيـــته من المال يحسبه ويكفيه ، وفيه تهكم بهم ؛ لأنها غير مخوفة لعجزها وحقارتها ؛ لأنها جماد ، وزادها تضعيفا وتعجيزا بتأنيثها ؛ لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة ، كما أن التذكير من باب الشدة والصلابة[٣] .

---

(١) أي : أنه قال : أرادني ، ولم يقل : أرادكم ، أو أرادنا ؛ لأن هذا الكلام جاء بعد تقرير أن خالق العالم الله ، وأجاب بأن التقرير لم يكن بالأمر نفسه ؛ لأنهم خوفوه معرة الأوثان .

(٢) وفي النسخة أ : حسبك يا هذا أن لا ترد شيئا .

(٣) وفي النسخة ب : وكأن التذكير من باب الشدة والصلابة .

ولما أورد الله عليهم هذا الحجة التي لادافع لها قال بعده على وجه التهديد : ﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي : على موضعكم ومكانكم من الكفر ، وحالتكم التي أنتم عليها من العداوة ، التي تمكنتم منها ، والمكانة بمعنى المكان ، فاستعير عن العين للمعنى[1] ، كما يستعار (هنا) و(حيث) للزمان ، وهما للمكان ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي : على مكانتي في مجاهدتكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنه غالب ومنصور عليهم في الدنيا والآخرة ، فالمقصود منه التخويف والتهديد ، والعرب تقول: مكانك لاتبرح على سبيل الوعيد ، قال الشاعر:

إن كنت حرا فاستقم لا تبرح حتى ترى كيف اصطدام القرح

معنى ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي : يذله وهو يوم بدر ، وقيل : العذاب عند الموت ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي : يثبت عليه في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي : دائم ، وهو عذاب النار.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ﴾ ومعنى ﴿للناس﴾ أي : لأجلهم وحاجتهم ليبشروا وينذروا ، فتقوى دواعيهم إلى الطاعة لا لحاجة لي فإني غني .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال : ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾[2] وقال : ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾[3] فلما أطنب الله تعالى في هذا الآيات في إفساد مذاهب المشركين ، تارة بالدلائل والبينات ، وتارة بضرب الأمثال ، وتارة بذكر الوعد والوعيد ، أردفه بكلام يزيل ذلك الحزن العظيم عن قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال :إنا أنزلنا عليك هذا الكتاب الكامل الشريف ؛ لنفع الناس واهتدائهم به ، وجعلنا إنزاله

---

(١) قال السيد العلوي : قوله : فاستعيرت عن العين . أي : نقلت عنها ، ضُمِّن استعير معنى فعل ، فعدي تعديته .

(٢) الكهف : ٦ .

(٣) فاطر : ٨ .

مقرونا بالحق ، وهو المعجز ، الذي يدل على أنه من عند الله ﴿ فمن اهتدى ﴾ فنفعه يعود إليه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي : فما يضر إلا نفسه ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي : ماوكلت بإجبارهم على الإيمان ؛ لأن التكليف مبني على الإختيار دون الإجبار ، أو ما أنت عليهم بوكيل ، أي : تحفظ ما يضمرون من أمورهم ، وإنما عليك الإنذار والإعذار إليهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي يقبضها وقت أجلها ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ أي : يتوفى التي لم يحضر أجلها ، تشبيها للنائمين بالموتى ، لعدم تصرفهم وتمييزهم[1] ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى ﴾ وهي النائمة ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وهو الوقت الذي ضربه لموتها .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : التوفي للأنفس ميتة ونائمة ، والإمساك والإرسال إلى أجل ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دلائل على قدرة الله وعلمه ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك ويعتبرون .

قال في التجريد : أراد بالأنفس الجمل التي تكون حية ، وتَوَفِّيْهَا : إماتتها ، وهي أن تسلب ما هي حيَّة به ، حسَّاسة دراكة ، فإذا زالت حياتها فكأنها قد سلبت الأنفس ، قال : وهذا قولنا ــ إن النفس ليست بجسم ، ومن قال : إن النفس والروح جسم فالتوفي والقبض لهما على جهة الحقيقة على ظاهرهما .

قال بعض علمائنا عليهم السلام : إلا أنه لابد من تقدير مضاف ، أي : عند موت أجسادها ؛ لأن الموت والنوم لايعلق بالأنفس المنفصلة عن الأجساد ، وإنما الجملة هي التي تموت ، وهي التي تنام . اهـ

[الفرق بين النفس والروح]

ثم قال فيه : ومنهم من جعل النفس تطلق على شيئين ، وهما مما يصح انفصاله بالحقيقة ، أحدهما : مابه يقع العقل والتمييز ، والثاني : ما يعم هذا ، والمسمى

---

(١) قال السيد العلوي : إن قيل : يلزم على هذا استعمال اللفظ الواحد في معناه الحقيقي والمجازي ؟ قلنا : إنما يلزم لو لم يضمر يتوفى قبل قوله : ﴿ التي لم تمت في منامها ﴾ لكنه مضمر كما ذكره .

بالــروح ، فقولــه : ﴿الله يــتوفى الأنفس حين موتها﴾ أراد الأرواح عند موت أجســادها ، قال : وقال قوم وروي عن ابن عباس : أن في ابن آدم نفسا وروحا ، بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس : التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النَّفَس والــتحرك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ، ولم يقبض روحه ، ثم يردها إلى الجسد عند الإنتباه .

والحاصــل من هذا ثلاثة أقوال ، الأول : أن النفس والروح هما شيئآن ، وهما مما يصــح انفصــاله بالحقيقة ، وثانيها : أنهما شئ واحد ، وهما مما يصح انفصاله عن الجسد أيضا ، وثالثها : أن الروح هو الحياة ، وهي عرض لايصح انفصاله بالحقيقة ، وإنمــا يعدم لورود ضد عليه عند من يجعل الموت معنى . وقيل : الروح غير الحياة ؛ لأن الحيــاة عرض ، والروح جسم ، ولكنه من لوازمها ، قالوا : الروح من الريح ، وهو النفس الذي يردده الحي ، وهو جسم ، وهذا ذكره ابن متويه والحاكم . اهــ كلام التجريد .

قــلت : وأحسن من هذا ما حكاه السيد حميدان عليه السلام عن أيمة العترة عليهم السلام أن العقل والنفس من جملة الأعراض التي خلقها الله سبحانه ، وجعل محلها القلب ، وأن مــثل حــلول العقل فيه كمثل حلول البصر في العين ، ولذلك قال الله سبحانه : ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾[1] وقال : ﴿فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القــلوب التي في الصدور﴾[2] ومثل حلول النفس فيه كمثل حرارة النار في النار ، ولذلــك قيــل : إنها تقوى بالوسواس كما تقوى النار بالحطب ، ووجه الحكمة في خــلق العقــل هــو كونه نعمة من أتم النعم ، ووجه الحكمة في خلق النفس هو ما

---

١) الحج : ٤٦ .
٢) الحج : ٤٦ .

فطـــرت عليه من محبة صلاح ما لا بد منه من أمور الدنيا ، ووجه الحكمة في مقارنة النفس للعقل هو ما أراد الله سبحانه من الإختبار والإمتحان(١) .اهـــ

وأما الأنفس المرادة في الآية فهي الأرواح التي ركبها الله سبحانه في الأجسام.

قال الهادي إلى الحق عليه السلام : هذا إخبار من الله سبحانه لقدرته على قبض أرواح العالمين في كلتا الحالتين ، حالة الموت ، وحالة المنام ، فأخبر سبحانه أنه يتوفى نفس الميـــت عند انقضاء أجله ، وفناء عمره ، ويتوفى نفس النائم عند نومه ، ومعنى توفيه لنفس النائم : فهو بما ركب سبحانه وجعل وقدر من خروج نفس الإنسان عند نومه ، حـــتى يبقى بدنه ميتا لاروح فيه ، فأخبر عز وجل أن الروحين خارجان في هذين الوقـــتين ، وأنـــه يحبس روح البدن الذي قضى عليه الموت عن الرجوع إلى بدنه ، ويرســـل روح النائم الذي لم يقض عليه الموت ، فترجع إلى أجل مسمى ، كما قال جـــل وعلا :﴿ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ يقول : إلى وقت معلوم ، كما كان للآخر ، فإذا جاء الوقت لم يرجع الروح بعد خروجه من البدن .

ثم أخـــبر سبحانه فقال :﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ يقول : في ذلك عبر للمتفكرين ، ودلائل على الله للمستبصرين ، وأيُّ دلالة أو آية أدل على الله سبحانه من روحين يخرجان من بدنين ، فيمسك أحدهما فيذهب روحه عن بدنه ، ويصير إلى موته ، ويرجع الروح الأخر إلى مكانه ، إلى يوم مفهوم ، وقدر عند الله معلوم (٢) . اهـــ

واعـــلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا : نحن لانعبد هذا الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تنفع وتضر ، وإنما تعبد لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين ، فنحن نعبدها لأجل أن يصيروا أولئك شفعاء لهم عند الله ، فأجاب الله عنه بـــأن قال :﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ أم : هي أم المنقطعة ، بمعنى بل وهمزة

---

(١) مجموع السيد حميدان (مخطوط) .

(٢) مجمـــوع تفســـير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤١ ، وبقية العبارة : وهذا مالا يجهل دلائله من فعل الله إلا أعمى جائر عن الله ، أو مشرك جاحد لآيات الله .

الإنكار ، أي : بل أتخذ قريش من دون الله شفعاء ، أي : يشفعون من غير أن يأذن الله لهم بالشفاعة ، حين قالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾(١) .

قال في التجريد : والأولى أن يراد أم اتخذوا آلهة من دون الله ، أي : غير الله وهم شفعاء الأصنام .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا ﴾ أي : قل يامحمد : أيشفعون ولو كانوا ﴿ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾ من الشفاعة ، ولا يقدرون ؛ لأنهم جماد ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ والمعنى : أيشفعون وهذا صفتهم ، فقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ أي : إلى الله السؤال والطلبة كلها لا إلى غيره ، فلا يملك أحد الشفاعة إلا بتمليكه .

قال الرازي : وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام ، أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها ، والأول باطل ، لأن هذه الأصنام جمادات فلا تملك شيئا (٢)، ولا تعقل شيئا ، فكيف يُعْقَل صدورُ الشفاعة عنها ، والثاني باطل ؛ لأن يوم القيامة لايملك أحد شيئا ، ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله ، الذي يأذن في تلك الشفاعة ، فكان الإشتغال بعبادته أولى من الإشتغال بعبادة غيره ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا ﴾ ثم بين أنه لاملك لأحد غير الله بقوله سبحانه : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . اهـ

والشفاعة من جملة الملك ، فلا أحدا يشفع إلا بإذنه ومن ارتضى ، وهو تقرير لكونه ما لكهما ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة ، فله ملك الدنيا والآخرة .

ثم حكى سبحانه نوعا آخر من الأعمال القبيحة للمشركين فقال : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ دون آلهتهم ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾ أي : نفرت وانقبضت ﴿ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ .

---

(١) يونس : ١٨ .

(٢) عبارة الرازي : لأن هذه الجمادات وهي الأصنام . الرازي ٢٦/٢٨٥ .

[قال في التجريد] (١): وفي المراد بذكر الله وجهان ، أحدهما : أن يراد إذا وحد الله ونفيت آلهتهم ، وذلك بنحو لا إله إلا الله ، وثانيهما : إذا أُفْرِدَ الله بالذكر وإن لم تُنف آلهتهم ولا تُثبت(٢) .

وفي معنى الإشمئزاز قولان ، أحدهما : أنه التقبض ، والثاني : أنه النفور .

ثم قال تعالى :﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعني آلهتهم ذُكِرَ الله معها أو لم يُذْكَر ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي : يسرون ويفرحون بالشرك ، ويستبشرون .

قال جار الله : الإشمئزاز والإستبشار متقابلان ، فالإشمئزاز : أن يمتلئ القلب غيضا وغما ، حتى يظهر الإنقباض في أديم الوجه ، والإستبشار : أن يمتلئ القلب سرورا حتى تنبسط له بشرة الوجه ويتهلل (٣) .

وهذا كالجمع بين القولين الأولين ، وليس به ؛ لأن الظاهر أن التقبض في القلوب .

ولما حكى الله عنهم هذا الأمر العجيب الذي تشهد فطرة العقل بفساده ، أردفه بأمرين .

أحدهما : أنه ذكر الدعاء العظيم ، فوصفه أولا بالقدرة التامة ، وهو قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : مبتدعهما ، ثم بالعلم الكامل(٤) ، وهو قوله : ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ قيل : لما اشتد عليه صلى الله عليه وآله وسلم الأمر من مقاساة قومه ، قيل له: ادع الله بأسمائه العظمى ، التي منها عالم الغيب والشهادة : ماعلموه وشاهدوه .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود في النسخة ب .

(٢) والعبارة في النسخة ب (إذا أفرد الله وإن لم يَنف آلهتهم ولا يثبت)

(٣) ذكر المصنف عبارة الزمخشري بالمعنى ، وعبارة الكشاف : ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز ، إذ كل واحد منهما غاية في بابه ، لأن الاستبشار : أن يمتلئ قلبه سرورا ، حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل ، والاشمئزاز : أن يمتلئ غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه . (الكشاف ١٣٢/٤) .

(٤) هو القسم الثاني الذي ذكر أنه أردفه بأمرين ، الأول : أنه ذكر الدعاء العظيم ، والثاني : العلم الكامل .

ولما ذكر الله هذا الدعاء قال : ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الحق والباطل ، أي : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ، لاحيلة لغيرك فيهم ، وفيه وصف لهم بشدة الكفر ، وإعذار وتسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ، ووعيد لهم .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر في وعيدهم أشياء أولها قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الأموال والمماليك ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أنفسهم ، أي : لاستخلصوا بها ﴿مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي : شدته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا وعيد لهم ، ولكل ظالم ، والفدية : هي العوض من الشيء ، بمنزلة الثمن في البيع ، قال القاسم بن ابراهيم عليه السلام يرثي أخاه :

يا شخص من لو تكون الأرض فديته ... ما ضاق مني به ذرع ولا خلق

بينا أرجيك تأميلا وأشفق أن ... يغبر منك جبين واضح يقق

أصبحت تحثى عليك الترب في جدث ... حتى عليك لما يحثى به طبق

والثاني قوله : ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ هذا وعيد عظيم ، أي ظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن في حسبانهم ، ولا حدثوا به أنفسهم ، وقيل : عملوا أعمالا حسبوها حسنات فإذا هي سيئات ، والمراد أنها ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن في حسبانهم ، وكما أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال في صفة الثواب في الجنة : (فيها ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) فكذلك في العقاب حصل مثله .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي : سيئات أعمالهم التي كسبوها ، وروي أن محمد بن المنكدر جزع عند الموت ، وقال : أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب ، ثم قال : ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي : نزل وأحاط بهم من كل الجوانب

جزاء ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي : هزؤهم بالإسلام وأهله ، فنبه تعالى بهذا الوجوه على عظيم عقابهم(١) .

ثم حكى تعالى طريقة أخرى ، فبين قبح طريقة الإنسان فيما هو عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة ، فقال سبحانه : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ لكشفه قيل : يراد به الكافر ، وهو أبو حذيفة بن المغيرة ، قاله مقاتل ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا ﴾ أي : صحة وغنى ، والتخويل : الإعطاء لغير جزاء يرجى ، ولا تقدم صنيع ، فهو مختص بالتفضل ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ﴾ أي : هذا العطاء ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي : مني أني سأعطاه ، لما فيّ من فضل واستحقاق ، أو على علم من الله بي ، وباستحقاقي ، أو على علم مني بوجوه الكسب ، كما قال قارون : ﴿ على علم عندي ﴾(٢) فرد الله عز وجل عليه إنكارا لقوله ، فقال سبحانه : ﴿ بَلْ هِيَ ﴾ أي النعمة ﴿ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ كأنه قال : ما خولناك لما تقول ، بل هي فتنة ، أي : ابتلاء لك واختبار ، أتشكر عليها فتستحق ثوابنا ، أم تكفر فتستحق عقابنا ، وذكّر الضمير في ﴿ أوتيته ﴾ حملا على المعنى ، كأنه قال : رزقا ، وأنثه في قوله : ﴿ بل هي فتنة ﴾ حملا على اللفظ .

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ أي : الكلمة ، أو الجملة من القول ، وهي ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وهم قارون وقومه ، حيث قال ـــ وقومه راضون ـــ : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ فكأنهم قالوها ، ويجوز أن يكون في الأمم الماضين آخرون ، قالوا مثلهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا أَغْنَى ﴾ أي : مانفع ، ولا دفع عذاب الله ﴿ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ عنهم من متاع الدنيا ، من الأموال التي جمعوها ، وقيل : أراد ما يعملون

---

(١) وفي النسخة ب : على عظم عقابهم .

(٢) القصص : ٧٨ .

مـــن الكفـــر وعبادة الأصنام ، بل قال تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي : جزاء ما كسبوا من أنواع الكفر والمعاصي .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ الحاضرين الذين يقولون : إنما أوتينا هـــذه الخيرات على علم ، يعني مشركي مكة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي : مثل ما أصاب أولئك ، وهو قتل صناديدهم يوم بدر ، وحبس الرزق عنهم ، أي : المطر ، قحطوا سبع سنين .

ثم قـــال : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : سابقين الله ، ولابفائتين عليه ، ثم وعظهم فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ يريد : يوسعه ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي: يضيق على من يشاء على مقتضى الحكمة ، وليس ذلك لأجل الطبائع والأنجم ، قال الشاعر:

فـــلا الســـعد يقضي به المشتري ... ولا الـــنحس يقضـــي علينا زحل
ولكـــنه حـــكم رب السماء ... وقاضـــي القضـــاء تعالى وجل

وليـــس البسط يدل على كرامة المبسوط لهم ، ولا التضييق على هوانهم ، والمعنى : ألم تعـــلموا أنـــه لا قابض ولا باسط إلا الله ؛ لأنهم مُطِرُوا بعد القحط سبع سنين ، أي: فلِمَ تشركون بي ؟ .

ثم أخـــبر سبحانه فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ البسط والقبض ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : دلائل على وحدانيته ، وقدرته .

ولمـــا أطنب تعالى في الوعيد والترهيب أردفه بشرح عظيم رحمته وفضله وإحسانه عـــلى عبده ، وقبول توبته فقال سبحانه : ﴿ قُـــلْ يَاعِبَادِي ﴾ أي : أبلغهم هذا اللفظ محكيا يا عبادي ﴿ الَّذِيـــنَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : جنوا عليها بالإسراف ، أي : الـــزيادة في المعاصـــي والغلو فيها ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ لا تيأسوا من نعمته عليكم بالمغفرة إذا تبتم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ بشرط التوبة ؛ لأنها مشروطة

في غير موضع من القرآن ، وهو في حكم كلام واحد ، فلا بد من الشرط في جميعه، وإلا تناقض وهو محال .

[سبب النزول]

قال في التجريد : قيل نزلت في ناس من المشركين ، كانوا قَتَلُوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : إنما تدعونا إليه لحسن ، لو تخبرنا أنْ لِمَا عملنا توبة ؟ فنزلت ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

وقيل : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان ، وقتل النفس ـ لا يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد فعلنا ذلك ؟! فنزلت ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضا .

وقيل : نزلت في عياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد ونفر معهما ، كانوا قد أسلموا ثم عذبوا فافتتنوا ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولون : لا يقبل الله من هؤلاء صرفا ولا عدلا ، قوم تركوا دينهم لعذاب عُذِّبُوا به ، فنزلت ، فكتبها عمر إلى عياش والوليد وأولئك النفر فأسلموا ، وهاجروا ، قاله ابن عمر .

وعن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿ ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾(١) .

قال المرتضى عليه‌السلام : فبين الله تعالى أن التوبة مقبولة من جميع عباده ؛ لأن الآية منتظمة (٢)لجميع خلقه ، والمتعبدين من بريته ، ومثل ذلك في القرآن كثير موجود من بسط التوبة ، والحض منه تعالى لهم على الرجعة . اهـ

ثم قال :﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ ﴾ أي : العظيم الغفران ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الواسع المغفرة لمن تاب بدليل قوله :﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ أي : توبوا وارجعوا إليه ، ففيه دلالة على

---

(١) الحديث في الكشاف ٣٥٢/٣ ، قال ابن حجر في تخريجه : الطبري ، و الطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين من حديث ثوبان .. الخ .

(٢) في النسخة ب (لأن الآية متضمنة لجميع خلقه .

اشتراط التوبة [وقد بين الله حكمه فيهم في كتابه بقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ﴾ (١) فلم يوجب لهم المغفرة إلا شريطة التوبة .

ثم قال جل ذكره تأكيدا للبيان في وعيد أهل الصلاة من الذنب والآثام ، والمعتدين لحدود الله : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ﴾ (٢) فأخبر أن من حكمته أن لايعفو إلا من بعد توبة .

ثم قال سبحانه مؤكدا ومحذرا وزاجرا ومنبها وواعظا ، ومخوفا ، وراحما ، وناظرا : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا ﴾ (٣) الآية فأخبر تعالى أنه لايقبل التوبة عند الموت من الكافرين ، ولا من الفاسقين من أهل الصلاة ، فأزاح الشك في أمرهم ، أنه لايجوز أن يغفر لهم بعد الذنب بلا توبة تكون منهم ؛ لأنه لو كان ذلك مما يجوز في وصفه وحكمه لقبل منهم التوبة عند الموت ، التي بقبولها يكون الغفران ، فلما ردها عند المعاينة ، ولم يقبلها ، قطع الغفران عند عباده الفهمين عنه ، وحذرهم بعقابه تحذيره أن لايؤخروا التوبة إلى وقت لاينفعهم قبولها فيه ، كما لاينفع غيرهم من الكافرين ، ولولا ما أوجبه إعلامه مع قطع عذرهم ، والرحمة لهم ما قرنه برد توبة الكافر ، وإنما أراد بذلك تعالى إزاحة الشك عنهم ؛ لأنه لو جاز الشك في ذلك ، وقد قرنه برد توبة الكافر لجاز الشك في وعيد الكافرين ، وإن كان لم يقبل توبتهم عند الموت .

---

(١) آل عمران : ١٣٥ .
(٢) النساء : ١٧ .
(٣) النساء : ١٨ .

ثم أكـد ذلك بقوله تعالى : ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾(١) وأكد للقاتل الخلد في النـار ، ثم أكـد ذلك وبينه بقوله تعالى : ﴿والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتـلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ إلى قوله : ﴿إلا من تاب وآمن وعمـل عملا صالحا﴾(٢) فأخبر أنه لايغفر للكافرين ولا لغيرهم من الزناة والقاتلين إلا بالـتوبة والعمل الصالح ، فإذا كان لايجوز ذلك في حكمه ، فأنى لهم الغفران في القيامة ! تعالى الله عما يدعيه أهل النقص والجهل والعمى من إخلاف وعيده علوا .

ثم أكد ذلك بسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقال عليه السلام :(إن التوبة مبسوطة دون أن يتغرغر المرء بنفسه ودون المعاينة) .

ثم قـال سبحانه ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾أي : أخلصوا لـه العبادة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ﴾أي : عـذاب المعاصـي ، الـتي أمرتم بالتوبة عنها(٣) ، وقيل : عذاب الإستئصال ، وقيل : وقت النزع ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ بدفعه عنكم .

قـال جار الله : وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة ، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم ، لا تحصل بدونه (٤).

قـلت : ولا يلتفت إلى تشكيك الرازي في هذا القاعدة ، وطول احتجاجه بالشبه الفاسدة ؛ لأن الله سبحانه إذا أجمل الكلام في موضع ، وبينه في موضع آخر ، كقوله تعالى : ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ (٥) فإنه يجب أن يرد المجمل إلى المفسر ، وإلا تناقض وهو محال ، وإنما يجوز تأويل كلام الله بما لايؤدي إلى [وقـوع] (٦) التـناقض والركاكة فيه ، ألا تسمع إلى قول الله عز وجل : ﴿والذين

---

(١) النساء : ١٢٣ .

(٢) الفرقان : ٦٨ ـ ٧٠ .

(٣) في النسخة ب (التي أمرتم بالتوبة منها) .

(٤) الكشاف ١٣٦/٤.

(٥) طه : ٨٢ .

(٦) ما بين القوسين من النسخة ب .

عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾(١) فأَعْلَمَ سبحانه أن الذنوب وإن جلت وعظمت ، فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ، ولكن من حفظ الشريطة ، وهي التوبة والإنابة ، وما وراء ذلك طمعٌ فارغٌ ، وأشعبية باردة ، لايلتفت إليها حازم .

ولما أخبر الله بالمغفرة ، وأمر عباده بالإنابة ـــ أمرهم بمتابعة الأحسن فقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : الفرائض قاله زيد بن علي عليه السلام.

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام : يعني القرآن أحسن ما أنزل الله من الكتب .اهـ

وأراد المحكم دون المتشابه ، والناسخ دون المنسوخ ، وقيل : اختاروا الأفضل على المفضول ، كالعفو عن القصاص ، وإخفاء الصدقة على إبدائها ، والواجب على المندوب ، والمندوب على المباح ، وقيل : أراد جميع الطاعات فإنها أحسن من المعاصي ، كقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا ﴾(٢) وقوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾(٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ [أي](٤) : من قبل الموت ، أي : تموتون ﴿ بَغْتَةً ﴾ مفاجأة على غفلة ، فتقعون في العذاب ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ والمراد منه التهديد والتخويف ، والمعنى : أنه يفاجئكم العذاب ، وأنتم غافلون عنه .

واعلم أنه تعالى لما خوفهم بالعذاب بين تعالى أنه بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون ، فحكى عنهم ثلاثة أنواع [من الكلمات](٥) فالأول قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ

---

(١) الأعراف : ١٥٣ .

(٢) الفرقان : ٢٤ .

(٣) الروم : ٢٧

(٤) ما بين القوسين من النسخة ب .

(٥) ما بين القوسين ساقط في النسخة ب ، وثابت في النسخة أ .

نَفْسٌ﴾ هي نفس الكافر ، أو أراد تكثير الأنفس(١) ، أي : كراهة أن تقول نفس ، وقيل : تقديره بادروا أن تقول نفس ، أو احذروا أن تقول نفس ﴿يَاحَسْرَتَا﴾ هو نداء على الحسرة ، أي : احضري . قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : يريد لئلا تقول نفس : ياحسرتا ، أي : تقول : يا حزناه ويا قطيعتاه ، والحسرة : هي الإنقطاع والإنحسار ، والعرب تقول : انحسر البعير إذا انقطع سيره وأعيا ولغب قال الشاعر :

إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه فأنضاؤهم في الحق حسرى ولغب

﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ والتفريط هو التواني قال أمير المؤمنين عليه‌السلام

وإذا اتخذت يدا فلست مفرطا فيما فعلت به ولا بمقصر

ومعنى ﴿في جنب الله﴾ أي : في جهة الله ، والمراد الجهة التي أمر الله أن تؤتى ، وهي الطاعة ، يقال : أنا في جنب فلان ، وجانب فلان ، وفلان لين الجنب والجانب ، وفرط في جنبه وفي جانبه ، أي : في حقه ، فقوله :﴿في جنب الله﴾ أي : في دين الله وحقه وطاعته ، وهذا من باب الكناية ؛ لأن ما أثبت في جانب الرجل فقد أثبت في مكانه(٢) ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي : من المستهزئين المتلعبين ، لم

---

(١) اللفظ في أ : أو أراد الكثير من الأنفس . قال السيد العلوي رحمه الله : في تنكير نفس وجوها : أحدها ــ أن يكون التنكير للإفراد نوعا ، وثانيها : أن يكون له شخصا ، وثالثها : أن يكون للتكثير ، كما في قول الأعشى :

ورب بقيع لو هتفت بجوه أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

وقبله :

دعا قومه حولي فجاءوا لنصره ونـاديت قوما بالمسناة غيبا

المسناة : العرم ، والبقيع : موضع فيه إرم السحر من ضروب شتى ، ومنه بقيع الغرقد مقبرة المدينة ، والغرقد شجر كأنه لما تقاعد قومه عن نصرته وغابوا عنها قال ذلك . ومعنى (أتاني كريم) أي : كرام كثير لنصرتي ، وعلم ذلك من المقام ؛ لأنه مقام المدح بكثرة ناصريه ، ومعنى (ينفض الرأس) يحركه غضبا ، ورب في هذا الموضع للتكثير .

(٢) قال السيد العلوي : وهذا على الطريق البرهاني ، كما أن زياد الأعجم جعل السماحة والمرؤة والندى ، المعرفة بتعريف الجنس في مكان ابن الحشرج ، أي : في قبة مضروبة عليه ، في قوله :

يكفه تفريطه في طاعة الله حتى سخر من أهلها ، والمعنى أنه فرط في الطاعة حال السخرية ، فتحسر على ذلك ، و﴿ إن ﴾ هي المخففة من الثقيلة .

النوع الثاني من الكلمات التي حكاها الله عنهم قوله تعالى : ﴿ **أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ الدافعين العذاب عن أنفسهم ، بتقوى الله ، يقوله هذا الكافر يوم القيامة تحسرا وتعللا بما لايجدي ، وليس يدل على صحة أن الله تعالى لم يهده ؛ لأنه سبحانه قد هداه ، وإلى طريق الحق والرشد دعاه ، ولكنه لم يتبع هداه ، ونظيره ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾(١) وإنما قلنا ذلك ؛ لأن الهداية من الله لابد منها ، بمعنى الدلالة والبيان للهدى ، والتحذير من المهالك والردى ، وقد فعل ذلك لكل أحد جل وعلا ، وفي معنى هذا الآية رد صريح على المجبرة حيث قالوا : إن الله لم يهد العصاة ، وإنه لو هداهم لآمنوا فأخبر الله في هذا الآية أنه قد هداهم لئلا يقولوا ذلك ، فلم يقبلوا هداه ، وناداهم فلم يسمعوا نداه ، وإنما فعلوا الكفر بسوء اختيارهم ، واتباع شهواتهم .

واعلم أن الهدى كما قال المرتضى عليه‌السلام : هديان من الله ، فالأول : هو مادل عليه عز وجل وهدى إليه من الشريعة ، التي بعث بها محمدا خاتم النبيئين صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فهداهم سبحانه إلى سبب لم يكونوا ليعرفوه(٢) إلا بالله عز وجل ، مع ماركب فيهم من عقولهم ، وجعل فيهم من تمييزهم ، وجعل لهم به السبيل إلى ما به تعبدهم .

والهدى الثاني : فهو هدى توفيق وتسديد ، وذلك قوله سبحانه : ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾(٣) فقال : الذين اهتدوا واقتدوا بما أمروا به ﴿ زادهم هدى ﴾

إن المروءة والسماحة والندى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج

فأفاد اختصاصها به بأبلغ وجه ، يعني إذا رمتها لم تجد شيئاً منها خارجا عن مكانه ، أي : عنه .

(١) إبراهيم : ٢١ .

(٢) واللفظ في النسخة أ : لم يكونوا يعرفونه إلا بالله .

(٣) محمد : ١٧ .

يقـــول: اســـتحقوا التوفيق والتسديد والعون والتأييد . فالهدى الأول من الله تبارك وتعالى ابتداء ، وإقامة حجة على الخلق ونعما ، والهدى الثاني مكافأة على فعلهم لما كان من مسارعتهم في طاعة ربهم . اهـــ

والـــنوع الثالث : قوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُـــولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي : رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم رد الله تعالى قوله : لو أن الله هداني ، بقوـــله : ﴿بَـــلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ أي : بلى قد هديت وجاءتك مني دلائل الهدى ﴿فَكَذَّبْـــتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وإنما أخره هنا لئلا يفرق بين القرائن الثلاث ، وهي أقوال النفس ، فحكاها ، حتى إذا تمت أجاب عمـــا يقتضـــي الجواب ، وحاصل الكلام أن هذا المقصِّرَ أتى بثلاثة أشياء ، أولها : التحســـر عـــلى التفريط ، وثانيها : التعلل بفقد الهداية ، وثالثها : تمني الرجعة ، ثم أجاب الله عن كلامه بأن قال : التعلل بفقد الهداية باطل ؛ لأن الهداية كانت حاضرة ، والأعذار زائلة .

[دلالة الآية على هدم مذاهب المجبرة]

واعلم أن هذا الآيات دلت على صحة القول بالعدل ، وأبطلت قواعد المجبرة من وجوه

الأول : أنه لا يقال : فلان أسرف على نفسه ـــ على وجه الذم ـــ إلا بما يكون من قِبَله ، وذلك يدل على أن أفعال العباد تحصل من قبلهم لامن قِبَلِ الله ، تعالى عما يقولون.

وثانيها : أن طلب الغفران والرجاء في ذلك ، أو اليأس لا يحسن إلا إذا كان الفعل فعل العبد .

وثالثها : إضافة الإنابة والإسلام إليه من قبل أن يأتيه العذاب ، وذلك لايكون إلا مع تمكنه من أن يختارهما قبل نزول العذاب ، ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك .

ورابعهـــا : قوله تعالى : ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم﴾(١) وذلك لايتم إلا ممن هو مختار للإتباع .

وخامســـها : ذمه لهم على أنهم لايشعرون بما يوجب العذاب ، وذلك لايصح إلا مع التمكن من المعرفة .

وسادســـها : قولهم ﴿ياحسرتا﴾ ولا يتحسر المرء على أمر سبق منه إلا وكان يصح منه أن لايفعله .

وسابعها : قوله ﴿على ما فرطت﴾ ومن لايقدر على الإيمان ـــ كما تقوله هذا الفرقة ، ولا يكون الإيمان من فعله ـــ لايكون مفرطا .

وثامنها : ذمه لهم بأنهم من الساخرين ، وذلك لايتم إلا والسخرية فعلهم ، وكان يصح منهم أن لايفعلوه(٢) .

وتاسعها : قولهم ﴿لو أن الله هداني﴾ أي : مكنني ﴿لكنت من المتقين﴾ وعلى قولهم إذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه !

وعاشـــرها : قولهم ﴿لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ وعلى قولهم : لو رده الله [أبدا] كرة بعد كرة ، وليس فيه إلا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسنا .

والحـــادي عشـــر : قولـــه تعـــالى موبخا لهم : ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بهـــا [واستكبرت وكنت من الكافرين]﴾ فبين تعالى وأخبر أن الحجة عليهم لله ؛ لا أن الحجـــة لهم على الله تعالى ، ولو أن الأمر(٣) كما قالوا لكان لهم أن يقولوا : قد جاءتنا الآيات ، ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ، ولم نقدر على التصديق بها .

والثاني عشر : أنه تعالى وصفهم بالتكذيب ، والإستكبار ، والكفر على جهة الذم، ولو لم تكن هذا الأشياء أفعالا لهم لما صح هذا الذم .

---

(١) الزمر : ٥٥ .

(٢) اللفظ في الرازي ، وفي النسخة ب : أن لا يفعلوه . وفي النسخة ب : أن لا يفعلوها .

(٣) في الرازي : الأمر ، وفي المصابيح النسخة أ : المراد .

قــلت : ذكر هذه الوجوه المأخوذة من هذه الآيات المحكمات الرازي ، ولم يذكر لأصحابه جوابا عنها [١]سوى المعارضة بالآيات المتشابهة ، حيث قال ما هذا لفظه : هــذا الوجــوه معارضة بأن القرآن مملوء من أن الله هو الذي يضل ويمنع ، ويصد ، ومــنه اللين والقسوة والإستدراج [٢]. اهــ كلامه ــ فاعتمد على هذا ونحوه من المتشــابه ، وقــد أخبرك الله عز وجل بصفة من اتبع المتشابه ، حيث يقول : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾[٣] ومعنى ﴿في قلوبهم زيغ﴾ أي : ميل عن الحق [وأهله] [٤] ، ويريد بالفتنة : المجادلة للحق وأهله ، فذم الله تعالى من اتبع المتشابه واعتمد عليه ، ولم يرده إلى المحكم من كتابه .

ثم أخبر تعالى عن نوع آخر من أنواع الوعيد فقال : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بإضافة الولد والشريك ، وأفعال عباده إليه ، وقولهم :﴿لو شاء الرحمن ماعبدناهم﴾[٥] وقولهم : ﴿والله أمرنا بها﴾[٦] وقد روي عن الحسن أن هذا الآية نــزلت في المجــبرة ، وهــي قوله تعالى :﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ورواية الحسن عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال :(ما بال أقوام يصلون ، ويقرأون القرآن ، يزعمون أن الله كتب الذنوب على العباد ، وهم كذبة على الله ، والله مسود وجوههم).

---

(١) مــن قوله : قلت . إلى هنا من النسخة ب . ولفظ النسخة أ : ولم يذكر الرازي لهذا الوجوه المأخوذة من هذا الآيات المحكمة جوابا .

(٢) تفسير الرازي ٨/٢٧ .

(٣) آل عمران : ٧ .

(٤) ما بين القوسين ثابت في أ ، وساقط بل مخدوش في النسخة ب .

(٥) الزخرف : ٢٠ .

(٦) الأعراف :٢٨ .

واعلم أن سياق الآية من أولها نزلت فيهم ؛ لأنهم ينفون هداية الله عن العصاة ، ثم بين تعالى مصيرهم بقوله :﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾أي : مقام ومستقر ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان ، أي : يقال ذلك توبيخا .

ومن الناس من قال : إن هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى ، ومنهم من قال : إنه مختص بمشركي العرب .

قلت : والحق ماذكره القاضي عبد الجبار(١) : أنه يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة ، وكذلك كل من وصف الله بما لايليق به نفيا وإثباتا ، فأضاف إليه ما يجب تنزيهه عنه ، أو نزهه عما يجب أن يضاف إليه ، فالكل منهم داخلون تحت هذا الآية ، لأنهم كلهم كذبوا على الله ، فتخصيص الآية بالمجبرة أو المشبهة ، أو اليهود ، أو النصارى لايجوز .

ولما ذكر الله تعالى هذا الوعيد أردفه بالوعد فقال :﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وقرئ (بمفازاتهم) أي : ببعدهم من العذاب ، وقيل : بفضائلهم ، وقيل : بأعمالهم ، وقيل : بفوزهم من النار ، أي : بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة ، يقال : فاز بكذا إذا أفلح وظفر بمراده ، وتفسير المفازة قوله :﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا

---

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار [٣٢٥ ــ ٤١٥هـ] أحد أعلام الفكر الإسلامي ، عالم معتزلي ، فقيه ، مفسر ، متكلم ، مصنف في شتى الفنون ، مولده في ضواحي همدان بإقليم خراسان ، ورحل في طلب العلم إلى أقطار عديدة ، وعمر طويلا ، واتصل بالصاحب بن عباد ، وولي قضاء الري ، وقزوين وغيرها ، وأضحى قاضي القضاة ، وإمام المعتزلة في عصره ، وهو شيخ الإمامين الأخوين المؤيد بالله ، وأبي طالب ، وبايع الإمام المؤيد بالله ، وأخباره كثيرة ، ومؤلفاته كذلك ، ووفاته في ذي القعدة ، بمدينة الري ــ وهي من ضواحي طهران حاليا ــ ودفن بها بداره ، ومن مؤلفاته : الأمالي في الحديث ، تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ، تنزيه القرآن عن المطاعن ، المغني في أبواب التوحيد والعدل عشرين مجلدا طبع منه بمصر ثلاثة عشر مجلدا بإشراف الدكتور طه حسن ، متشابه القرآن ، المجموع من المحيط بالتكليف ط بمصر ، وعشرات غيرها . (انظر عنه أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم) .

﴿هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي : ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم ، أو بسبب منجاتهم ، وهوالعمل الصالح ، ولهذا فسرت المفازة بالأعمال الحسنة .

واعلم أن الله تبارك وتعالى لما أطال الكلام في شرح الوعد والوعيد عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد فقال سبحانه : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : هو المختص بإيجاد هذا بعد العدم .

قال الهادي عليه السلام : معنى ذلك : أن الله تبارك وتعالى خالق كل شئ من فعله لامن أفعال غيره ، فأفعاله بائنة من أفعال خلقه ، وأفعال خلقه بائنة من فعله ، وأفعال الله في خلقه ثابتة متلاحقة ، يلحق آخرها أولها ، ويثبت أولها آخرها ، وأفعال الخلق فغير متلاحقة ، بل هي أعراض متباينة متفاوتة ، ولا يلحق آخرها أولها ، ولا يدخل في ثان منها إلا بعد انفصال الأول ، فهذا الفرق بين أفعال الله وأفعال خلقه ، والله كما قال سبحانه : ﴿خالق كل شئ﴾ موجود متلاحق برئ من خلق ما لايتلاحق ، فما كان متلاحقا فهو فعل الله ، والله خَلَقَه ، وما كان غير متلاحق لايلحق أوله آخره فذلك فعل غيره لافعله ، تبارك وتعالى عن فعل أفعال المخلوقين ، وكيف يلحق أفعالهم أو يفعلها ، وفيها الغشم والظلم والجور ، والله برئ عن فعل ذلك ، متقدس عن أن يكون كذلك ، فلوجاز أن يكون خَلَقَ ما يفعلون كان فاعلا لكل ظلم فعلوه ، أو جور أحدثوه ، أو عظيمة جاؤا بها ، ولكان هو الفاعل له دونهم إذ كان الموجد له لاهم فافهم ذلك .

ومعنى ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مخلوقاته وغيرها ﴿وَكِيلٌ﴾ أي : مطلع فلا يخفى عليه شئ من أفعال العباد ، وما يستحقون من الجزاء عليها ، والوكيل : هو المحاسب الرقيب الحفيظ لأفعال من هو عليه وكيل . (١) اهـ

---

(١) قال الكعبي : إن الله تعالى مدح نفسه بقوله : ﴿الله خالق كل شئ﴾ وليس من المدح أن يخلق الكفر والقبائح فلا يصح أن يحتج المخالف به ، وأيضا فلم يكن في صدر هذا الأمة خلاف في أعمال العباد بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة في خلق الأمراض والسباع والهوام ، فأراد الله أن يبين أنها جمع من خلقه ،

ثم قـال تعالى :﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المقاليد : المفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها ، وقيل : واحدها إقليد ، ومقليد ، وأقاليد ، أي : هو مالك أمر السموات والأرض وحافظها ، وذكر المقاليد من باب الكناية ؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو مالك مقاليدها، ومنه قولهم : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك ، قال الشاعر :

فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا ألقوا إليه مقالد الأمر

وقيل : سأل عثمان النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن المقاليد فقال : ما سألني عنها أحد قبلك ، تفسيرها :(لاإله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيي ويميت ، وهو على كل شئ قدير) (١) والمعنى أن هذه الكلمات مفاتيح خير السموات والأرض ، من تكلم بها أصابه كل خير .

وأيضا لفظة ﴿كل﴾ لا توجب العموم لقوله تعالى :﴿وأوتيت من كل شئ﴾ ﴿تدمر كل شئ﴾ وأيضا لو كانت أعمال العباد من خلق الله لما أضافها إليهم بقوله :﴿كفارا حسدا من عند أنفسهم﴾ ولما صح قوله :﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ ولما صح قوله :﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا﴾ فهذا جملة ما ذكره الكعبي في تفسيره .

وقال الجبائي : ﴿الله خالق كل شئ﴾ سوى أفعال خلقه التي صح فيها الأمر والنهي ، واستحقوا بها الثواب والعقاب ، ولو كانت أفعالهم خلقا لله تعالى ما جاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله في ألوانهم وصورهم .

وقال أبو مسلم : الخلق : هو التقدير لا الإيجاد ، فإذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلاني فقد قدر ذلك الفعل ، فيصح أن يقال : إنه تعالى خلقه وإن لم يكن موجدا له . (تفسير الرازي ١١/٢٧) .

(١) الحديث في الكشاف٤/١٤٠، ١٤١ ، قال ابن حجر : أبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي ، والبيهقي في الأسماء ، والطبراني في الدعاء ، كلهم من رواية أغلب بني تميم ، حدثنا مخلد أبو الهذيل ، عن عبد الرحيم ، وعبد الرحمن بن عدي ، عن عبد الله بن عمر به ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ، من هذا الوجه ، وله وجه آخر عند ابن مردويه ، من طريق كلب بن وائل عن عمر ، ورواه ابن مردويه ، عن الطبراني بإسناد آخر إلى ابن عباس ، وفيه سلام بن وهب الجندي عن أبيه ، ولا أعرفهما .

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وكلماته وتوحيده وتمجيده ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال الرازي: أورد صاحب الكشاف سؤالا وهو أنه بم اتصل قوله: ﴿والذين كفروا﴾؟ وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي: ينجي الله المتقين بمفازتهم، والذين كفروا هم الخاسرون، واعترض بينهما أنه خالق الأشياء كلها، وأن له مقاليد السموات والأرض. (١)

قال: وهذا عندي ضعيف من وجهين الأول: أن وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد، والثاني: أن قوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ جملة فعلية، وقوله: ﴿والذين كفروا﴾ جملة اسمية، وعطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية لايجوز، بل الأقرب عندي أن يقال: إنه لما وصف الله تعالى نفسه بصفات الإلهية والجلالة، وهو كونه خالقا للأشياء كلها، وكونه مالكا لمقاليد السموات والأرض بأسرها، قال بعده: ﴿والذين كفروا﴾ بهذا الآيات الظاهرة الباهرة ﴿هم الخاسرون﴾ (٢).

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يامحمد ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ والإستفهام للإنكار عليهم وغيرهم، وقوله: ﴿أفغير الله﴾ منصوب بـ ﴿أعبد﴾

---

(١) انتهى كلام الزمخشري عند قوله: أنه خالق الأشياء كلها، وقوله: وأن له مقاليد السموات والأرض من كلام الرازي، وليس من كلام الزمخشري، وزاد الزمخشري: وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شئ من أعمال المكلفين فيها، وما يستحقون عليها من الجزاء. وقد جعل متصلا بما يليه، على أن كل شئ في السموات والأرض فالله خالقه، وفاتح بابه، والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون. انظر الكشاف ٤/١٤٠. وقوله قال وما بعده كلام الرازي. وقد صحح اللفظ من الكشاف، والرازي.

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله: قوله: اتصل بقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي: قوله: ﴿الذين كفروا﴾ متصل بقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ على سبيل التقابل للتضاد بين مفردات الجملتين من حيث المعنى، قال القاضي: وغير النظم بالإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين هو فضل الله، وفي هلاك الكافرين أن خسروا أنفسهم، والتصريح بالوعد، والتعريض بالوعيد قضية الكرم.

و﴿ تأمـــروني ﴾ اعـــتراض (١)، معناه أفغير الله أعبد بأمركم ، وذلك حين قال له المشركون : استلم بعض آلهتنا ، أي : قَبِّلْ ونؤمن بإلهك ، وفي الضياء (استلَمَ) أي : لَمَسَه ، إما بالقبلة ، أو باليد ، وإنما وصفهم بالجهل ؛ لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقا للأشياء ، وبكونه مالكا لمقاليد السموات والأرض ، وظاهر كون هذه الأصنام جمـــادات لا تضر ولا تنفع ، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة ، واشتغل بعبادة هذا الأجسام الخسيسة ــ فقد بلغ في الجهل مبلغا لامزيد عليه ، فلهذا السبب قال :﴿ أيها الجاهلون ﴾ .

ثم قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ من الأنبياء ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْـــبَطَنَّ عَمَـــلُكَ ﴾ ليحـــبطن عملك : أي : يبطل ، واللام الأولى موطئة للقسم المحذوف ، والثانية لام الجواب ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وقال :﴿ لئن أشركت ﴾ والموحـــى إليهم جماعة ؛ لأن المعنى أوحي إليك وإلى الذين من قبلك مثله ، وهذا عـــلى ســـبيل الفرض ، وإلا فهو ممتنع للعصمة ، والمحالات يصح فرضها لأغراض ، فكيف غيرها .

وقال في التجريد : في الكلام حذف ، أي : أوحي إليك لئن أشركت ، وأوحي إلى الذيـــن مـــن قبـــلك لئن أشركوا ليحبطن عملهم ، وفائدة هذا تعظيم الشرك ، كقوله:﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ﴾ (٢) .

---

(١) قال السيد العلوي : وحاصل الوجهين : أن غير الله منصوب بأعبد ، ويحجزه ظاهر تأمروني لما يستدعي مـــن تقدير أن ، فيلزم المحذور السابق ، فجعل ﴿ تأمروني ﴾ إما اعتراضا لئلا يقدر أن ، أو جعله بمعنى يقولون لي : اعـــبد ، لينتصب بأعبد ، لأن القول لا يستدعي أن ، كما يستدعيه الأمر ... ثم قال : وقال أبو البقاء : ويجـــوز أن يكون منصوبا بتأمروني ، وأعبد بدلا منه ، والتقدير ، قل أفتأمروني بعبادة غير الله ، وهو من بدل الاشتمال ، ومن باب : أمرتك الخير رواه صاحب الكشف ، عن أبي علي ، وقال : هو الصواب ، وقيل : إن غير ، منصوب بفعل محذوف ، أي : أفتلزموني غير الله ، وفسره ما بعده .

(٢) الأنبياء : ٢٩ .

ثم قال تعالى: ﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ ومعناه: أن الشرك الحاصل منه بتقدير حصـــوله منه يكون تأثيره في جلب غضب الله أقوى وأعظم، كما أن طاعة الأنبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم، فكذلك القبائح التي تصدر عنهم، فإنها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى: ﴿إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾(١).

ثم ذكر تعالى ماهو المقصود فقال: ﴿بَـلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ وهو رد لما أمروه به، أي: لاتعبد ما أمروك بعبادته، بل إن كنت عاقلا، فلا تعبد إلا الله، وذلك لأن قوله: ﴿بل الله فاعبد﴾ يفيد الحصر.

ثم قال: ﴿وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ﴾ لله على ماهداك، وعلى أن جعلك سيد ولد آدم.

واعــلم أنــه تعــالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعبادة الأصنام، ثم أنه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم، وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئا سواه ـــ بين أنهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذا الأشياء الخسيسة مشـــاركة له في العبودية، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عظموه حق تعظـــيمه، وأصـــله: ما عرفوه حق معرفته، وقدروه في أنفسهم حق تقديره، ثم استعير للعظيم؛ لأن من عرف العظيم عَظَّمه.

ثم نـــبههم عـــلى عظمـــته على طريق التخييل فقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فرفع القبضة باليوم، ولو نصب لجاز، قاله في البرهان (٢).

وأراد بالأرض: الأرضون، أي: هن على عظمتهن لاتبلغهن إلا قبضة واحدة من قبضاته، وهذا تصوير لعظمته، كأنه يقبضها قبضة واحدة.

ثم قـــال: ﴿وَالسَّـــمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ قال في التجريد: يريد تمثيل قدرة الله بشـــئ يتقدر في الذهن لا في الوجود، وهو من أن تكون الأرضون السبع في وسط احـــدى يديـــه، والسموات السبع مطويات ملفوفة في يده الأخرى، وهذا التمثيل

---

(١) الإسراء: ٧٥.

(٢) البرهان مخطوط ص ٣٣٨.

دون عظمة قدرة الله تعالى ، والتمثيل والإستعارة من أفصح كلام العرب ، والقرآن نزل على لغتهم .

قال ابن عباس : هذا الآية في الكفار ، فأما من آمن بأنه على كل شئ قدير ، فقد قدر الله حق قدره . وقال ابن عباس : الأرض والسموات كلها في يمينه .

وقال سعيد بن جبير : السموات قبضة والأرض قبضة ، وهذا تخييل وتمثيل يراد به المبالغة في المثل ، فلا فرق بين أن تكون قبضة واحدة ، أو قبضتان ، والله أعلم .

وقد جاء في الحديث الصحيح ما يوافق الآية من ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال :(يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض) (١) وأخرجا من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون) (٢) وهذا مثل الآية على التمثيل والتخييل ، وقد فسرت الآية بغير هذا فقيل : قبضته : ملكه بلا مدافع ولا منازع ، وبيمينه : بقدرته وقوته ، ونحوه ﴿ما ملكت أيمانكم﴾(٣) أي : قدرتكم ، ومعنى ذلك أنه قادر على أن يطوي السموات كما يطوى الثوب ونحوه ، والقبضة ـ بفتح القاف ـ مصدر للمرة من القبض ، وبالضم المقدار المقبوض بالكف ، وقد يراد بمفتوح القاف أيضا ـ الإسم وهو الشئ المقبوض ، وإذا أريد المصدر فمعناه :

---

(١) هو في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٣٢/١١ ، وعزاه إلى أحمد ٣٧٤/٢ ، والبغوي ٨٤/٦ ، ومشكاة المصابيح رقم ٥٥٢٢ ، وفتح القدير ٣٦٧/١٣ ، وزاد المسير ١٩٦/٧، وتفسير الطبري ١٩/٢٤ ، والقرطبي ١/ ١٤١ ، ٢٧٨/١٥ ، وبلفظ (ويطوي السموات) عزاه إلى البخاري ١٥٨/٦ ، ١٣٥/٨ ، ٢٤٢/٩، ١٥٠ ، ومسلم في صفات المنافقين ٢٣ ـ وابن ماجه ١٩٢ ، وفتح القدير ٥٥١/٨ ، وله مصادر أخر .

(٢) عزاه في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٣٤٩/١١ إلى مسلم صفات المنافقين ٢٤ ، وأبو داود رقم ٤٧٣٢ ، وإتحافات ٣١٧ ، وزاد المسير ١٩٦/٧ ، والبغوي ٨٤/٦ ، وغيرها .

(٣) النساء : ٣ .

ذوات قبضته ، أي : أنهن مع عظمهن لايبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، وعلى الضم لايحتاج إلى تقدير مضاف . اهـ

ومعنى ﴿مطويات﴾ هو من الطي الذي هو ضد النشر ، قال في الكشاف : والغرض من هذا الكلام ـ إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه ـ تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لاغير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة ، أو جهة مجاز ، وكذلك حكم مايروى أن جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا أبا القاسم إن الله سبحانه وتعالى يمسك السموات يوم القيامة على اصبع ، والأرضين على اصبع [والجبال على اصبع] والشجر على اصبع [والثرى على اصبع، وسائر الخلق على اصبع] ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعجبا مما قال ، ثم قرأ تصديقا لذلك ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية وإنما ضحك أفصح العرب صلى الله عليه وآله وتعجب ؛ لأنه لم يفهم منه إلا ما فهم علماء البيان من غير تصور إمساك ولا اصبع ، ولا هز ، ولا شئ من ذلك(١) .

واعلم أنه تعالى لما بين عظمة الله من الوجه الذي تقدم قال ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تتريها له ﴿وَتَعَالَى﴾ ارتفع شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان ، يعني أن هذا القادر القاهر العظيم ، الذي حارت العقول والألباب في وصف معرفته ، تتره وتقدس أن يجعل الأصنام شركاء له في العبودية .

واعلم أنه تعالى لما قرر عظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريق آخر يدل أيضا على كمال عظمته ، وذلك بشرح مقدمات يوم القيامة ؛ لأن نفخ الصور يكون قبل

---

(١) انظر الكشاف ٣/٣٥٥، ٣٥٦ ، وقد أضفنا ما بين أقواس الزيادة من الكشاف ، وليست في أصل المصابيح ، وهذا الحديث المضحك ، جعل لله ست أصابع ، والعجيب أنه حديث متفق عليه من حديث ابن مسعود ، كما جاء في تخريج الكشاف ، ص ١٤٤ ، وقد نبه أنه وقع عنده أن جبريل ، وهو تصحيف ، والذي في الصحيح جاء حبر من اليهود ، وفي رواية أن يهوديا ، وفي رواية أن رجلا من أهل الكتاب ، وهو كما ترى كيف يوردون مثل هذا الحديث الذي لا يتقبله عن جبريل ، ولا عن رسول الله عقل ، فضلا عن اليهود .

ذلك اليوم فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي: في صور الأحياء، وقيل: قرن ينفخ فيه اسرافيل يوم القيامة ﴿فَصَعِقَ﴾ أي: مات ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وقيل: بل غشي عليهم، ثم يموتون بعد الصعقة بغيرها ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من الملائكة فلا يموتون حتى يميته الله بعد ذلك، قيل: هم جبريل وعزرائيل ملك الموت، وقيل: الحور العين، وخزنة النار، وحملة العرش ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ يعني الخلائق ﴿قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب، وقيل: ينظرون ما فعل بهم، وقد روي أن النفختين جميعا في يوم واحد، وهو يوم القيامة، وفيه تقوم الساعة، والله أعلم.

وقال الحسن: روي عن النبي صلى الله عليه وآله أن بينهما اربعون) ولا أدري أربعون يوما أو سنة، أو أربعون الف سنة.

ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لأجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم.

ولما بين الله حال هاتين النفختين ذكر سبحانه من أهوال ذلك اليوم أشياء، أولها: قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل[1] والحساب،

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله: أراد أنه لا يجوز حمل النور هنا على حقيقته، لتعذره، وقد ورد في التنزيل بمعنى هذه الأشياء على المجاز، وهذا من ذلك، فعلى هذا قوله: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ مستعار لقولنا: وتزينت أرض القيامة بما يقام فيها من الحق والعدل، ويبسط فيها من القسط، ويدل على أنه مستعار إضافة النور إلى الرب؛ لأن الله هو الحق العدل، فناسب أن يراد بالنور الحقيقة والعدالة، فالحق والعدل صفة الله، وما أضيف إليه المراد به المصدر، لا الوصف ليتغايرا، شبه إقامة الحق والعدل في أرض القيامة، وتزيينها بإشراق النيرين وجه الأرض، وإظهار ما فيها، ثم حذف المشبه، وأقيم المشبه به مقامه، وجعلت القرينة الإضافتين، وفي الممثل به ثلاثة أشياء وجود النيرين وإشراقهما الأرض وإبانة الأشياء بنورهما، وفي المشبه تحقق وجود الحق والعدل، وبسطهما في أرض القيامة وإقامتهما بحسب اقتضاء صالح الأعمال، وسببها لا على أن كل واحد من هذه الأشياء مشبه ومشبه به، بل جعل الوجه منتزعا من المجموع، إما على سبيل التوهم، لتكون الاستعارة تمثيلية، أو على التحقيق، فتكون عقلية.

ومن عادتهم تسمية العدل نورا ، والظلم ظلاما ، وقيل : إن الله يخلق نورا يلبسه وجه الأرض يوم القيامة من غير شمس ولا قمر .

وثانيها : قوله :﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أي : الحساب ، وقيل : اللام للجنس ، أي : صحائف الأعمال ، وقيل : اللوح المحفوظ ، وثالثها : قوله :﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ في الشهداء وجهان ، أحدهما : هم الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، قاله الجمهور ، ثم فيهم أربعة أقوال ، أحدها : أنهم الأنبياء والمرسلون ، والثاني : أنهم أمة محمد يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة ، وتكذيب الأمم ، رويا عن ابن عباس ، والثالث : أنهم الحفظة ، قاله عطاء ، والرابع : أنهم النبيئون والملائكة والجوارح ، قاله ابن زيد .

الثاني من الوجهين : أن الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله ، قاله قتادة .

ولما بين الله تعالى أنه يحصل في محفل القيامة جميع ما يحتاج إليه في ذكر الحكومات — بين الله تعالى أنه يحصل إلى كل أحد حقه ، وعبر عن هذا المعنى بأربع عبارات اولها : قوله :﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ بالعدل ، وثانيها : قوله :﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي : لاينقصون شيئا من أعمالهم ، وثالثها : قوله :﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ جزاء ﴿ مَا عَمِلَتْ ﴾ من خير وشر ، ورابعها : قوله :﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ ﴾ من عباده ﴿ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فيجازيهم بحسب الإستحقاق ، ولا يحتاج إلى كتاب ولا شاهد ، يعني أنه تعالى لو كان غير عالم بكيفيات أحوالهم ، فلعله لايقضي بالحق لأجل عدم العلم ، أما إذا كان عالما بمقادير أفعالهم ، وكيفياتها امتنع دخول الخطأ في ذلك الحكم ، فثبت أنه تعالى عبر عن هذا المقصود بهذا العبارات المختلفة ، والمقصود المبالغة في تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إلى حقه .

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال ، وقال :﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب ، ثم كيفية أحوال أهل الثواب ، وختم السورة فقال عز وجل في شرح أحوال أهل العقاب :﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى

جَهَنَّمَ ﴾ أي : طردوا بعنف كما يفعل بالأسارى إلى الحبس ، وقوله : ﴿ زُمَرًا ﴾ أي : جماعات متفرقة ، بعضها إثر بعض ، والزمر : هي الجماعة قال الشاعر :

إن تسـألوا عـني فإن اسمي عمر أرمي إذا حشحش حافات الزمر

أي : الجماعة ، فبين الله تعالى أنهم يساقون إلى جهنم ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ السبعة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ ﴾ توبيخا ﴿ خَزَنَتُهَا ﴾ الموكلون بتعذيب أهلها : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أي : من جنسكم ، وناطقون بلسانكم ؛ لأنه ألزم للحجة ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أي : كتبه ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي : وقتكم ، يريد وقت دخولهم النار ، واستعارة اليوم في أوقات الشدة مستفيض ، فعند هذا ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أي : بلى أتونا وتلوا علينا ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ ﴾ أي : وجبت ﴿ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ وهي وعيده للعصاة بأليم العقاب .

وقوله : ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ معناه : علينا ، لسوء أعمالنا ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ هذه حكاية ما يجاب عليهم ، يعني أن الملائكة إذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم : ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ معنى ﴿ بئس ﴾ : الذم ، أي : فبئس مقام المتكبرين جهنم .

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب شرح أحوال أهل الثواب فقال : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ أي : جماعات وطبقات مختلفات ، الشهداء ، والزهاد ، والعلماء ، والقراء ، وغيرهم .

فإن قيل : كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ السَّوْق ؟ قيل له : هما مختلفان فسوق أهل النار طردهم إليها بالعنف ، وسوق أهل الجنة سوق مراكبهم ؛ لأنه لايذهب بهم إلا راكبين ،تعظيما لهم ، وإسراعا بهم إلى دار الرضوان ، كما يفعل بمن يكرم من الوافدين من أهل الشرف على الملوك .

ثم قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ الثمانية ، وإنما حذفت الواو في ﴿ فتحت ﴾ مع أهل النار ، وأثبتت مع أهل الجنة ؛ لأن الجزاء محذوف في قصة أهل

الجنة ، تقديره : كان ماكان من الفرح والإستبشار والتنعيم ، فلو لم تأت الواو لتوهم أن ﴿فتحت﴾ جواب إذا ، وتقديره بعد ﴿خالدين﴾ وقيل : ﴿وقالوا الحمد لله﴾ دل بحذفه على أنه شئ لايحيط به الوصف ، تقديره كان ماكان مما وقفوا فيه من النعيم ، ولذا أدخلت الواو ، فتعذر أن يكون جوابا .

وقال ابن الجوزي : في ذلك أقوال ، أحدها : أن الواو زائدة ، وهو قول الفراء وغيره ، والثاني : أنها واو الحال ، والمعنى : جاؤها وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم ، وفي وجه تفتيحها قبل مجيئهم وجوه ، أحدها : الدلالة على الإكرام ؛ لأن الوقوف على باب مغلق فيه نوع هوان ، الثاني : أن الكريم يفتح أبوابه التي يعطي منها ، ويغلق أبواب سخطه وانتقامه إلى وقت[1] الحاجة إلى ذلك ، والثالث : أن في تفتيح أبواب الجنة قبل وصولهم تعجيلا للمسرة ، وفي تفتيح أبواب النار عند إرادة دخولهم لاقبل ذلك زيادة في عذاب أهل النار ، لقوة حرها ،وعظيم لفحها ، كما يكون في التنور المختوم إذا فتح .

القول الثالث : إنها واو الثمانية، قال في التجريد : أراد بالثمانية أبواب الجنة ؛ لأن عادة العرب أن يذكروا العدد إلى سبعة بغير واو ، ثم يدخلون الواو في الثمانية ، ومنه قوله تعالى :﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾[2] وقوله تعالى :﴿وثامنهم كلبهم﴾[3] إلى غير ذلك .

ثم أخبر تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب أمورا ثلاثة ، أولها : قوله : ﴿**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ**﴾وهذا يدل على أنهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات ، وثانيها : قوله :﴿**طِبْتُمْ**﴾أي : طهرتم من دنس المعاصي ، وقيل : إذا صاروا إلى باب الجنة وجدوا عندها شجرة ينبع من أصلها عينان ، فيشربون من إحداهما فلا

---

(١) في النسخة ب : إلى حين الحاجة إلى ذلك .

(٢) الحاقة : ٧ .

(٣) الكهف : ٢٢ .

يبقى في بطونهم أذى ولا قذى إلا خرج ، ويغتسلون من الأخرى فلا تغير جلودهم ولا تشعث أشعارهم ، فهو معنى ﴿ طبتم ﴾ روي عن علي وابن عباس .

وقيل : كنتم طيبين في الدنيا ، قاله الزجاج ، وثالثها : قولهم : ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ الخلود هو البقاء الذي لاانقطاع له ، والفاء في قوله : ﴿ فادخلوها ﴾ تدل على كون ذلك الدخول معللا بالطيب والطهارة(١) ، وهذا يدل على أن أحدا لايدخلها إلا إذا كان طاهرا عن كل المعاصي .

ثم أخبر تعالى أن الملائكة إذا خاطبوا المتقين بهذا الكلمات قال المتقون عند ذلك كما حكى الله عنهم ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ وهو إكرام المتقين بالثواب .

قال الهادي عليه‌السلام : هذا إخبار من الله سبحانه [عن قول المؤمنين] في يوم الدين ، وعند مصيرهم إلى كرامة رب العالمين ، فأخبر أنهم يقولون عند ذلك : ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ يقول : الذي أنجز لنا ما وعدنا من ثوابه ، وأكمل لنا ما وعدنا من كرامته ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ يريد أرض الآخرة ، وأرض الجنة . اهـ

وهو عبارة عن مقرهم في الجنة ، أي : ملكنا كما يملك الوارث يتصرف كيف يشاء.

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه‌السلام : ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أي : ملكنا الأرض وتركنا فيها ، وأحللنا بعد ذهاب من مضى من أهلها ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أي : نتخذ من الجنة مباءة ، أي : مسكنا ، نحل منها حيث نريد ونهوى ، المراد أن لكل منهم أرضا واسعة يتبوأ منها حيث يشاء ، لا أن بعضهم يتبوأ مكان بعض .

وفي صحيح الترمذي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (إن أدنى أهل الجنة مترلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسير الف سنة).

---

(١) وذلك لأنه رتب الأمر بالدخول بالفاء على ﴿ طبتم ﴾ .

[ولما بين الله تعالى صفة أهل الجنة قال] (١) : ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [ومعناه : المدح] قال الهادي عليه السلام : يقول ـــ الجنة أفضل جزاء العاملين في الدنيا للطاعة لرب العالمين .

ثم قال تعالى : ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ أي : محدقين(٢) ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: من جوانبه .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه محيطين من حول موضع الحساب وهو الملك ، قال الهادي عليه السلام :

تحف بهم خيل ثمانية لها عـلى الهول إقدام ليوث طوالب

أي : تحيط بهم . اهـ

قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿حافين من حول العرش﴾ فهم محدقون بكل أهل المحشر في ذلك اليوم ، والعرش : فهو الملك ، وحفوفهم بالملك فهو قيامهم فيه وبه في ذلك اليوم(٣) .

قلت : ومثل هذا ذكره المرتضى في الإيضاح ، وقد مر في أول سورة المؤمن .

ثم قال تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقولون : سبحان الله ، والحمد لله متلذذين لامكلفين .

ثم قال : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي : حكم بين الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لاظلم فيه ، والحق الذي لاجور فيه بأن أدخلَ بعضاً النار ، وبعضاً الجنة(٤) ، وذلك لايكون إلا

---

(١) ما بين القوسين ثابت في النسخة ب ، وساقط من أ .

(٢) قال مكي : هو نصب على الحال ، لأن ﴿ترى﴾ من رؤية العين . وواحده : حاف ، وقال الفراء : لا واحد له .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٢٢ .

(٤) في النسخة ب : بأن أدخلَ بعضٌ النار ، وبعض الجنة .

حقـــا ، أو يعطى كل من الملائكة بقدر عمله ، فهم وإن كانوا معصومين فهم على مراتب مختلفة ، ودرجات متفاوتة .

﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على قضائه بيننا بالحق ، وإنزال كُلٌّ منزله ، قيل: القائل المقضي بينهم ، وقيل : هذا قول أهل الجنة شكرا لله .

وقال الهادي عليه السلام : القائل ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فهم الملائكة المسبحون المؤمنون الناجون المخصُّون بالكرامة المثابون . اهـــ



سورة (ص)

ثمـــان وثمـــانون آية في الكوفي ، وست في الحجازي والشامي والمكي ، وخمس في البصري (مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى :﴿ص﴾ أكثر القراءة على الوقف[1] على ﴿ص﴾ وقال في البرهان : جـــزمها الفراء ، والأعمش بخفض الدال ،بلا نون ؛ لاجتماع الساكنين ، و﴿يس﴾ و﴿ن﴾[2] . وقد مر بعض ما قيل في فواتح السور من قول أئمتنا عليهم السلام وغيرهم[3] .

---

(١) وذلك لأن الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر ، والسكون في الوقف مغتفر . ح ع .

(٢) البرهان مخطوط ص ٣٣٣ .

(٣) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخـــبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشـــهيد أبي الحســـين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى :﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ معناه : ذو الشرف . وقوله تعالى :﴿ولات حين مناص﴾ معناه : ليس بحين نزو ولا فرار .

وقوله تعالى :﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ معناه : في الفضل ، ويقال : ارتقى فلان في الأسباب إذا كان فاضلا .

وقوله تعالى :﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهي الغيضة الملتف شجرها . وقوله تعالى :﴿ما لها من فواق﴾ يقال : ما لها من مرة ، هي كلمح البصر ، أو هي أقرب ، والفواق في الناقة : ما بين الحلبتين .

وقوـــله تعالى :﴿عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ معناه : نصيبنا من الآخرة ، قبل يوم الحساب ، والقط : الكتاب ، والجمع : القطوط .

وقوله تعالى :﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ فذو الأيد : ذو القدرة ، والأواب : التواب .

وقوله تعالى :﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ معناه : الفهم والعلم بالقضاء ، وقال : الشهود والإيمان .

وقوله تعالى :﴿ولا تشطط﴾ معناه : لا تسرف . وقوله تعالى :﴿وعزني في الخطاب﴾ معناه : غلبني .

وقوله تعالى :﴿وإن كثيرا من الخلطاء﴾ معناه : من الشركاء . وقوله تعالى :﴿وظن داود﴾ معناه : أيقن .

وقوله تعالى :﴿وإن لـــه عندنا لزلفى﴾ معناه : قربى ومنزلة ، واحدها : زلفة ﴿وحسن مآب﴾ معناه : حسن مرجع.

وقوله تعالى :﴿ إذ عرض لـه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ والصافنات من الخيل : التي تجمع بين يديها ، وبين طرف سنبك إحدى رجليها ، والسنبك : مقدم الحافر . وقوله تعالى :﴿ إني أحببت حب الخير ﴾ فالخير : الخيل .

وقوله تعالى :﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ معناه : غابت بالحجاب ، يعني الشمس .

وقوله تعالى :﴿ وألقينا على كرسيه جسدا ﴾ معناه : شيطان .

وقوله تعالى :﴿ فطفق مسحا بالسوق ﴾ معناه : ما زال يضرب أسواق الخيل وأعناقها .

وقوله تعالى :﴿ لا ينبغي لأحد ﴾ معناه : لا يكون له .

وقوله تعالى :﴿ رخاء حيث أصاب ﴾ فالرخاء : الرخوة اللينة ، وأصاب : أراد ، وهي بلغة هجر ، وقال : طوع حيث أراد . وقوله تعالى :﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ معناه : في الأغلال ، واحدها : صفد .

وقوله تعالى :﴿ هذا عطاؤنا فامنن ﴾ أي : اعط .

وقوله تعالى :﴿ أني مسني الشيطان بنصب ﴾ معناه : ببلاء وشر في جسدي ﴿ وعذاب ﴾ في بدني .

وقوله تعالى :﴿ اركض برجلك ﴾ معناه : اضرب بها ، وقال : إنه ضرب بيده اليمنى فخرجت عين ، وضرب برجله اليسرى فخرجت عين أخرى ، فاغتسل من واحدة ، وشرب من أخرى ، فذلك قوله تعالى :﴿ مغتسل بارد وشراب ﴾

وقوله تعالى :﴿ وخذ بيدك ضغثا ﴾ معناه : أثل ، وقال : جماعة من شجر ، وقال : حزمة من رطبة .

وقوله تعالى :﴿ إنه أواب ﴾ بمعنى : تواب .

وقوله تعالى :﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ فالأيدي : القوة في العمل ، والأبصار : العقول .

وقوله تعالى :﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ معناه : مالهم هَمٌّ إلا هَمّ الآخرة .

وقوله تعالى :﴿ من شكله أزواج ﴾ معناه : ضربه ، والأزواج : عذاب من الزمهرير ، وقال : ألوان من العذاب .

وقوله تعالى :﴿ أتراب ﴾ معناه : أسنان وأمثال . وقوله تعالى :﴿ لا مرحبا بكم ﴾ معناه : لا سعة لهم .

وقوله تعالى :﴿ اتخذناهم سخريا ﴾ معناه : من السخرة ، ومن كسر جعله من الهزؤ .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ص ﴾ من الأقسام المضمرة ﴿ والقرآن ﴾ .

معنى قوله :﴿ في عزة وشقاق ﴾ العزة : هي التعزز والتكبر ، والمشاقة لله والمباينة ﴿ ولات حين مناص ﴾ وليس حين مهرب ، ولا حيلة ، ولا ملجأ ، قال الشاعر :

تذكرت ليلى حين لات تذكري   وقد بنت منها والمناص بعيد

وقال آخر :

طلبوا صلحنا ولات أوان   فأجبنا أن ليس حين بقاء

أي : ليس وقت الصلح ، والمناص : هو الاحتيال والمهرب ، قال الهادي إلى الحق عليه السلام :

ساشجي ظالميك بحد رمحي   ولا يجدون عمرك من مناص

ومعنى قوله :﴿ إن هذا لشيء عجيب ﴾ أي : عجب ، قال الإمام المرتضى لدين الله : وهذا اعجب العجب العجاب.

أي : العجب ﴿وانطلق الملأ منهم﴾ أي : سار الجمع منهم ، وقالوا : امشوا إلى آلهتكم ، واصبروا على التقديم والتأخير والقراءة على التنزيل ، ومعنى قوله ﴿على آلهتكم﴾ أي : إلى فقامت على مقام إلى ، ويمكن أيضا أن يكون المعنى : اصبروا على آلهتكم ولا تتركوها ، وكل ذلك جائز إن شاء الله .

ومعنى قوله : ﴿في الملة الآخرة﴾ أي : في مذهب المشركين وملتهم ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ يقولون : إن توحيد الله اختراع واختلاق من محمد ، وإن الله لا يرضى بترع الأرباب .

ومعنى قوله : ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ أي : يطلعوا إلى السماء في الحبال على وجه التقريع لهم ، ونكرهم على الله إنزال الوحي إلى محمد صلوات الله عليه من دونهم ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ أي : جند وجمع هنالك ﴿مهزوم﴾ أي : مطرود ﴿من الأحزاب﴾ أي : من الجموع ، و(ما) هي صلة للكلام ليس لها معنى ، وهي كلمة تصل بها العرب كلامها ، قال الشاعر :

أبلغ سلامة أن الصبر مغلوب … وأنما حبها شوق وتعذيب

والمعنى : أبلغ سلامة أن الصبر مغلوب ، وأن حبها شوق وتعذيب ، ولكنه وصل كلامه بما ، وزين شعره بها ، وما زينة وحلية للكلام ، فاعلم ذلك إن شاء الله ، والأحزاب : جموع المشركين الذين تحزبوا واجتمعوا في عداوة الله ورسوله ، قال الشاعر :

نعود بدينار ولا نشتري القنا … إذا أحزبتنا عن عدانا النذائر

أي : جمعتنا النذر و﴿أصحاب الأيكة﴾ روي أن الأيكة صنم ، وهو شجرة ، ويمكن أن تكون ليكة هي القرية ، والله أعلم روي ذلك عن الإمام أبي عبد الله صلوات الله عليه ، ومعنى قوله : ﴿فحق عقاب﴾ أي : وقع عذابي وعقوبتي على أعداء الله ، ومعنى قوله : ﴿ما لها من فواق﴾ أي : من إفاقة ، ولا راحة . ومعنى ﴿عجل لنا قطنا﴾ أي : حسابنا وكتابنا الذي فيه العطاء لنا ، والقط هو كتاب العطاء ، وهو الصكوك ، وجماعه [أي:جمعه] القطوط والصكوك ، قال الشاعر :

ولا الملك النعمان يوم لقيته … فأعطاني القط الرغيب بل بخل

أي : كتب العطايا .

ومعنى قوله : ﴿داود ذا الأيدي إنه أواب﴾ أي : الأيادي والنعم والفضائل ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه يذم بعض الفاسقين :

ولم يك ذا شكر لأيد تقدمت … إليه وأمر بين ما له خطر

﴿إنه أواب﴾ أي : راجع إلى الحق ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن﴾ أي : سهلنا ﴿والطير محشورة﴾ أي: مجموعة ، والحشر : هو الجمع ، ومعنى ﴿أواب﴾ أي : راجع إليه ، والإياب : هو الرجوع ، قال الشاعر:

أرى كل ركب آيبين ولا أرى … أخا الجود عمارا ترجى تآيبه

أي : راجعين ، وقال آخر :

وكـــل ذي غيـــبة يـــؤوب وغـــائب المـــوت لا يـــؤوب

أي : لا يرجع ﴿وشددنا ملكه﴾ أي : قربنا سلطانه وعزه .

و﴿الحكمة﴾ : هي العلم ، و﴿فصل الخطاب﴾ هو قطع الحكم ، وإنفاذ الخصومة ، وفصلها ﴿وهل أتاك نـبأ الخصم﴾ أي : أخبار الخصم ، والخصم : هم الخصوم المتخاصمون ، والمتخاصمون : هم المتحاجون إلى داود المتـناظرون ﴿إذ تسـوروا المحراب﴾ أي : طلعوا الجدار ليتحاجوا ويناظروا إلى داود ، ومعنى قولهم: ﴿خصـمان بغـى بعضـنا على بعض﴾ هذا مجاز وتعريض لداود ﴿ولا تشطط﴾ أي : لا تجر ، واعدل ﴿واهدنـا إلى سـواء الصـراط﴾ أي : وسـط الطريق ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة﴾ النعاج : مثل وتعريض ، وإنما أرادوا النساء اللواتي كن لداود عليه‌السلام فيما ذكر .

ومعـنى ﴿ولي نعجـة واحدة﴾ أي : مرة [أمرأة] واحدة ، ولكنهم عرضوا له تعريضا في امرأة أوريا حين عشـقها صلوات الله عليه ﴿فقال أكفلنيها﴾ أي : ولني كفاءتها وطلقها لي ، إن كنت قد قضيت منها وطرا لشدة ما كان بينهم من التواصل والتقرب إلى الله بقضاء حاجة المؤمن ، ولم يكن في ذلك عيب ولا مأثم ، ولو كان سيدنا داود في منزله أوريا لما عاتبه الله عز وجل في ذلك ، ولكن الحاكم على الناس المالك لهم لا ينبغي له أن يسـألهم لأنـه إذا سـألهم لم يمتنعوا عليه إعظاما له وهيبة لسلطانه ، وليس العوام كذلك ؛ لأن العوام لا يعطون ما يطلبون إلا بطيبة من نفس المعطي لما يسألون ، والسلطان يهاب ولا يرد ، ولعل ذلك يضرهم ويشق عليهم ، ويتعبهم ، فلم يرض الله لنبيه وحبيبه ووليه أن يطلب منهم ، وهو قاهر لهم لما في ذلك من المضرة لهم، ففطن صلى الله عليه [وهذا] تعريض من الملائكة . وتاب ، ورجع إلى الله وأناب .

ومعـنى قولـه : ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي : عز علي سؤاله ، وعظم عندي خطابه ومقاله ، والخلطاء : هم الإخـوان المتخالطون ، ومعنى قوله : ﴿وقليل ما هم﴾ أي : قليل هم ، و(ما) هاهنا صلة للكلام فاعلم ذلك ﴿فظـن داود أنمـا فتناه﴾ أي : أنا امتحناه واختبرناه بما ركبنا فيه من الهوى وجعلناه ﴿فاستغفر ربه وخر راكعا﴾ أي : سقط على وجهه ساجدا ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي : حسن مرجع وانقلاب من النعيم الكريم ، والثواب .

ومعنى قوله : ﴿خليفة في الأرض﴾ أي : خلفا وعوضا من أسلافه الطاهرين الماضين الأولين من الرسل الخالين.

ومعنى قوله : ﴿ليدبروا آياته﴾ أي : ليتدبروا فقام التشديد مقام التاء ، مثل قوله : ﴿يا أيها المدثر﴾ وإنما هو المتدثر ، ومثل قوله : ﴿يا أيها المزمل﴾ والمعنى فيه : يا أيها المتزمل ، فحذف التاء أبدل مكانها تشديدا ، وهو جائـز ، ومعـنى قوله : ﴿نعم العبد﴾ نعم كلمة مدح ، قال الشاعر : ونعم أخي الصعلوك أمس تركته بزبيه يسموا باليدين ويمدح،قال آخر :

ونعم الفتى إن كان توبة فاجرا ونعم الفتى إن كان ليس بفاجر

قـال في التجريد : وأما النظم ففيه وجهان ، أحدهما : أن يكون قد ذكر اسم هذا الحـرف مـن حروف المعجم على سبيل التحدي ، والتنبيه على الإعجاز ، ثم أتبعه القسـم محـذوف الجـواب [1]؛ لدلالة التحدي عليه ، كأنه قال : ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ إنه لكلام معجز .

والـثاني : أن يكون ﴿ص﴾ خبر مبتدأ محذوف ، على أنها اسم للسورة ، كأنه قـال : هـذه ﴿ص﴾ يعـني السورة التي أعجزت ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ إنها لكذلك ، كما تقول : هذا حاتم والله ، تريد هذا المشهور ، ومعنى ﴿ذي الذكر﴾ أي : ذي الشرف والشهرة ، والتذكير والموعظة ، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع ، وغيرها من أقاصيص الأنبياء ، والوعد والوعيد .

ثم قـال : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِـزَّةٍ﴾ عن الانقياد والإذعان للحق ، والاعتراف به ، والعزة : هي التعزز ، والتكبر ، والمشاقة لله ، والمباينة لرسوله ، وهو معنى قوله : ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي : عداوة لله ولرسوله .

ولمـا وصفهم بالعزة والشقاق خوّفهم ، ثم توعدهم بمن أهلك قبلهم فقال : ﴿كَمْ أَهْلَكْـنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي : كثير من الأمم أهلكنا قبلهم بسبب ما كانوا عليه من العزة والشقاق .

ومعـنى قولـه : ﴿فَنَادَوْا﴾ أي : دعوا بالاستغاثة ، وقيل : بالتوبة حين لا تقبل ، وعـن قـتادة : نادوا على غير حين النداء ، ثم قال : ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي : وليس الحين حين منجاة وفوت لمشارفة الهلاك ، قال الشاعر :

تذكـرت ليلى حين لات تذكر   وقـد بِـنت مـنها والمناص بعيد

والمناص : هو الاحتيال والمهرب ، ولات : هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء

---

(1) والفرق بين الحذف والإضمار أن المحذوف هو المتروك أصلا بحيث لا يبقى له تأثير ، والمضمر بخلافه .

التأنيث للتأكيد ، كما زيدت على رب ، وثم ، وتغير لذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ، ولم يبرز إلا أحد مقتضييها ، إما الاسم وإما الخبر ، وامتنع بروزهما [جميعا] وهذا مذهب الخليل وسيبويه ، وعند الأخفش : أنها لا النافية للجنس ، زيدت عليها التاء ، وخصت بنفي الأحيان ، قاله في الكشاف[1] .

و﴿حين مناص﴾ منصوب بها ، كأنك قلت : ولا حين مناص لهم ، ويرتفع بالابتداء ، أي : ولا حين مناص كائن لهم ، والمناص : المنجى والفوت ، يقال : ناصه ينوصه إذا فاته ، واستناص : طلب المناص .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة ، فقال : ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ يريد : عجب أهل مكة ، ولا تَعَجُّبَ منه ؛ لأن الرسل من جنس المرسل إليهم أولى من أن يكونوا ملائكة ؛ لأن الإنسان مع جنسه آنس ، وأفهم للغته .

ثم قال سبحانه : ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ولم يقل : وقالوا[2] ؛ إظهارا للغضب عليهم ، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا المتوغلون في الكفر ، والغرض التنبيه ، على كمال جهالتهم ، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد ، وتعظيم الملائكة ، والترغيب في الآخرة ، والتنفير عن الدنيا ، ثم إن هذا

---

(١) انظر الكشاف ٤/٧١ ، وما بين أقواس الزيادة منه .
هي لا المشبهة بليس ، وكما تدخل على حين ، تدخل على أوان ، وهنا ، وقال الفراء : تدخل على الآفات كلها ، وأنشد : (ولات ساعة مندم) والتاء في لات للتأنيث كما في ربت وثمت ، إما لتأنيث الكلمة ، وهي لا أو لمبالغة النفي ، كما في علامة ، فإذا وليها حين فنصبه أكثر من رفعه ، ويكون اسمها محذوفا ، وحين خبرها وأما قوله : و﴿حين مناص﴾ منصوب بها .. الخ فهو هنا على ما قاله الأخفش بأنها لا النافية للجنس ، وقال في الكشاف : وعنه أن ما ينتصب بعده بفعل مضمر ، أي : ولا أرى حين مناص ، وهذا على أحد قولي الأخفش بأن لات غير عاملة وكذلك قوله بعده : ويرتفع بالابتداء ، فهو هنا مبتدأ محذوف الخبر ، وتقديره ، ولا حين مناص كائن لهم .
(٢) أي : أن إقامة المظهر مقام المضمر لهذه الفائدة .

الرجل من أقاربهم [بعد][1] ، يعرفون أنه كان بعيدا عن الكذب والتهمة ، وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ، فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ، ومن الانقياد لتكاليفه ، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله ، وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة ، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد .

قال في التجريد : اجتمع من صناديد قريش خمسة وعشرون ، ومشوا إلى أبي طالب ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال : يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فلا تمل كل الميل ، قال : ما يسألونني ؟ قالوا : ارفضنا وارفض [ذكر] آلهتنا ، وندعك وإلهك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم ، أمعطيَّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ؟ قالوا : نعم ، فقال : قولوا : لا إله إلا الله ، فقاموا وقالوا :﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ بليغ في العجب ، ومعنى ﴿ جعل ﴾ : صير . اهـ

وروي أن عمر لما أسلم فرح بإسلامه المسلمون ، واغتم المشركون ، فاجتمع صناديدهم خمسة وعشرون إلى أبي طالب[2] فقالوا : أنت شيخنا ، قد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ـ يعنون الذين دخلوا في الإسلام ـ وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك ، أرادوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، فاستحضره كما مر آنفا . إلى آخره .

ثم قال تعالى :﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾أي : أشراف قريش ، انطلقوا عن مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلا بعضهم لبعض ﴿ أَنْ امْشُوا ﴾أي : سيروا ﴿ وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ أي : على عبادتها ، والتمسك

---

(١) ما بين القوسين غير ثابت في النسخة ب ، واللفظ أيضا مثله في الرازي ، وليس فيه لفظ (بعد) ١٧٧/٢٦

(٢) قال بن حجر : ذكره الثعلبي بغير سند ، وروى الترمذي والنسائي وابن حبان ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو يعلى ، والطبري ، وابن أبي حاتم ، وغيرهم من طريق يحي بن عمارة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : مرض أبو طالب فجاءته قريش ، وجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم .. الحديث نحوه ، وليس فيه أوله .الكشاف ٤/ ٧٢،٧٣ .

بها ، فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ، ويمكن أن يكون المعنى : أن امشوا إلى آلهتكم واصبروا على التقديم والتأخير ، والقراءة على التنزيل .

قال في الكشاف : ﴿أن﴾ بمعنى : أي ؛ لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لابد لهم من أن يتكلموا ، ويتفاوضوا فيما جرى لهم [في المجلس المتقدم] فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول[١] .

وعن ابن مسعود :(وانطلق الملأ منهم يمشون)[٢] .

والمعنى : أنه قال بعضهم لبعض : امشوا واصبروا ، فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ﴿إن هذا﴾ الأمر ﴿لشيء يراد﴾ أي : أمر محمد لشيء يريده الله ، ويحكم بإمضائه ، وما أراده فلا مرد له ، وما ينفع فيه إلا الصبر ، أو : أن هذا من نوائب الدهر يراد بنا ، فلا انفكاك لنا منه ؛ أو : أن دينكم لشيء يراد ، أي : يطلب ليؤخذ منكم .

ثم قالوا : ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي : التوحيد ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ ملة عيسى عليه‌السلام لأنها آخر الملل ؛ لأن النصارى يدعونها وهم ملته ، أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا ، والمعنى : لم نسمع من أهل الكتاب ولا الكهان أن يحدث في الملة الآخرة توحيد الله تعالى ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي : ما هذا التوحيد الذي جاء به محمد ﴿إِلَّا

---

(١) قال السيد العلوي في حاشيته : قوله :(لأن المنطلقين عن مجلس التقاول) يعني : الوجه أن تجعل أن مفسرة ؛ لأن ﴿وانطلق الملأ منهم﴾ متضمن لمعنى القول ، على العادة المعهودة ، وإنما قلنا : على العادة المعهودة ، ليعلم أن ليس بفعل في معنى القول ، كما في النداء ونحوه ، ولكنه لما لم ينفك منه من حيث العادة نزل منزلة ما هو في معناه ، ولا يجوز تقدير القول بعده ؛ لأن أن المفسرة لا تأتي بعد صريح القول مظهرا كان أو مضمرا . (أي : أنَّ أنْ المفسرة لا تأتي إلا بعد ما فيه معنى القول دون حروفه) .

وما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب ، وفي الكشاف ٧٣/٤ .

(٢) هذه قراءة عن ابن مسعود هنا ، وفي الكشاف ٧٣/٤ ، وذكر في البرهان أيضا: أنه قراءة لابن مسعود ، وفي الرازي جعله قولا ونسبه إلى ابن عباس ١٧٨/٢٦.

اخْتِلَاقٌ ﴾ افتعال ، وكذب اختلقه محمد ، وأن الله لا يرضى بترع الأرباب ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أي : القرآن ﴿ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم ، والاستفهام للإنكار .

ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه ، الأول : قوله ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أي : من القرآن ، أخبر تعالى بأهم شاكون في صحة القرآن في نفوسهم وإن أظهروا القطع بأنه مختلق مكذوب ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ فإذا ذاقوه زال عنهم الشك والحسد ، أي : لا يصدقون به إلا أن يمسهم عذابي مضطرين إلى تصديقه ، وهذا وعيد لهم .

الوجه الثاني : قوله تعالى ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أي : نعم ربك ، نبوة وغيرها حتى يخصوا ها من شآؤا ، ويصرفوها عمن شآؤا ، ومعنى ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ فهو القاهر لعباده ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ الكثير المواهب ، المصيب مواقعها على مقتضى الحكمة والعدل .

الوجه الثالث : قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية ، والتدابير الإلهية التي اختص ها رب العزة .

ثم تهكم هم فقال : إن كانوا كذلك ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أي : فليصعدوا في المعارج ، والأسباب : الطرق الموصلة إلى العرش حتى يستووا عليه ، ويدبروا أمر العالم ، ويترلوا الوحي على من يشآوا .

ثم قال تعالى : ﴿ جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ (ما) زائدة ، فيها معنى الاستعظام للجند على سبيل الاستهزاء هم ، حيث وضعوا أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، وهو دعواهم الشرف واستحقاق النبوة دون أنبيائهم ، وما : كلمة تصل ها العرب كلامها ، قال الشاعر :

أبلغ سلامة أن الصبر مغلوب   وأنما حبها شوق وتعذيب

أي : وأن حسبها شوق ، والمعنى : ما هم إلا جند من الكفار المتحزبين عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، و﴿ مهزوم ﴾ معناه : مكسور عن قريب ، فلا تبال يا محمد بما يقولون .

ومعنى ﴿ هنالك ﴾ أي : في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون هذه الكلمات الطاغية في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال قتادة وغيره : أخبر الله نبيئه وهو بمكة أنه ينهزم جند المشركين ، فجاء تأويلها يوم بدر .

ولما تم الجواب عن شبهة أولئك الكفار أخبر تعالى أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ، ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب عليهم ، فذكر تعالى ستة أصناف منهم ، فقال سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي : قبل قريش ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ولما كذبوا نوحا أهلكهم الله تعالى بالغرق بالطوفان ، ثم قال : ﴿ وَعَادٌ ﴾ قوم هود ، لما كذبوا أهلكهم الله بالريح ، وهذا تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم بنصرة الرسل على من كذبهم ، ووعظ لقريش بما جرى على المكذبين قبلهم .

ثم قال : ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ أراد الملك والعز القوي ، يقولون : ملك ثابت الأطناب ، وثابت الأوتاد ، وصف له بثبات العز والملك ، وأصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، وقيل : كان يشبح المعذب بين أربع سوار ، كل طرف من أطرافه مضروب فيه وتد من حديد ، ويتركه كذلك حتى يموت ، والمعنى : لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق .

ثم قال تعالى : ﴿ وَثَمُودُ ﴾ قوم صالح ، كذبوه فأهلكوا بالصيحة ، ثم قال : ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ كذبوه فأهلكوا بالخسف .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ قوم شعيب ، وكانوا أصحاب شجر ملتف ، أرسل إليهم وإلى مدين ، وهو أخو مدين ، كذبوه أيضا فأهلكوا بعذاب يوم الظلة، وروي أن ليكة صنم ، وهو شجر ، ويمكن أن يكون ليكة هي القرية ، والله أعلم وروي ذلك عن الإمام أبي عبد الله صلوات الله عليه .

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي: الأقوياء من المتحزبين، لا قريش، وقيل: الأحـــزاب المجتمعون على تكذيب رسلهم، والمعنى: أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم، فكذلك أفعل بقومك، وقصد بقوله: ﴿أولئك الأحزاب﴾ الإعلام بأنهم الأحزاب في قوله: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ أي: هم الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم، وهم الذين وجد منهم التكذيب.

ثم قـــال تعالى: ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ لأن من كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فوجب بذلك عقابي لهم حق عقابهم، والمقصود منه زجر السامعين.

ثم أخـــبر تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع، فقال: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ لا تثنى، يريد أهل مكة، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر، ثم إنه تعالى وصف هذه الصيحة فقال: ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ أي: مالها من إفاقة ولا راحة، أو من توقف قدر الفواق، وهو: ما بـــين حلبتي الحالب المتصلتين، ويحتمل أن يكون المراد عذابا يفاجئهم ويجيئهم دفعة واحدة، كما يقال: صاح الزمان بهم، إذا هلكوا، قال:

صاح الزمان بآل برمك صيحة   خروا لشدتها على الأذقان

قـــال في التجريد: قال ابن الجوزي: في الصيحة الواحدة قولان، أحدهما: أنها النفخة في الصور الأولى، قاله مقاتل، والثاني: أنها النفخة الثانية، قاله ابن السائب

﴿ما لها من فواق﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الفاء، وقرأ الباقون بفتحها، وهل بينهما فرق؟ قيل: لا، ثم اختلفوا ما معناهما؟.

فقـال الفراء وابن قتيبة ، والزجاج : المعنى : مالها من راحة ولا إفاقة ، وقال ابن قتيبة : الفُواق والفَواق واحد ، وهو أن تحلب الناقة وتترك ساعة حتى يترل شئ من اللبن ، ثم تحلب ، فما بين الحلبتين فواق ، فاستعير لوقت المكث .

وفي الصحاح : الناقة تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ، ثم تحلب ، فما بين الحلبتين فواق .

وقـال الزجاج : الفواق ما بين حلبتي الناقة ، وهو مشتق من الرجوع ؛ لأنه يعود اللبن إلى الضرع ما بين الحلبتين ، يقال : أفاق من مرضه ، أي : رجع إلى الصحة .

وقال قوم بينهما فرق فمن فتح أراد مالها من راحة ، ومن ضم أراد فواق الناقة .

قال أبو عبيدة : وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال ، أحدها : مالها من رجعة ثم فيه قولان ، أحدهما : مالها من ترداد ، قاله ابن عباس ، والمعنى أن تلك الصيحة لا تكرر

والثاني : ما لها من رجوع إلى الدنيا، قاله الحسن وقتادة ، أي : لا يعودون بعدها إلى الدنيا .

والثاني : مالهم منها إفاقة ، بل تهلكهم قاله ابن زيد ، والثالث : مالها من فتور، قاله ابن جرير، والرابع : مالها من راحة .

قـال الـرازي : واعـلم أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاث ، أولها : ما يتعلق بالإلهيات،وهو قوله : ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا﴾ والثانية : تتعلق بالنبوات ، وهو قولـه :﴿ ءأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ والثالثة : تتعلق بالمعاد ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَـالُوا رَبَّـنَا عَجِّـلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ وذلك لأن القوم كانوا في نهاية الإنكـار للقول بالحشر والنشر ، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته صلى الله عليه وآله وسلم .

والقـــط : الصحيفة[1] ، يقال لصحيفة الجائزة : قط ؛ لأنها قطعة من القرطاس ، والقط : القسط من الشيء ؛ لأنه قطعة منه ، والمراد هنا نصيبا من العذاب، كقوله : ﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ .

وفي تفســـير الحســـين بن القاسم عليه‌السلام وهو الذي في البرهان أيضا : إنما قالوا ﴿ عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ أي : يوم القيامة ، حين نزل قوله : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾[2] فاستهزأوا فقالوا : عجل لنا هذا الكتاب ، أي : حسابنا ، والقط : كتاب العطاء ، وهو الصك ، وجماعته : القطوط ، قال الشاعر:

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغيطته يعطي القطوط ويأفق

أي : كتب العطايا .

واعـــلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حيث قالوا : إنه ســـاحر كذاب ، وقالوا على سبيل الاستهزاء : ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ أمره الله بالصبر عـــلى سفاهتهم فقال : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ من التكذيب والاستهزاء ﴿ وَاذْكُرْ عَـــبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ أي : عظم معصية الله في أعينهم بذكر قصته ، وما وقع له على زلته مع نبوته ، وعظم منزلته وكرامته .

قال في التجريد : معناه اصبر على ما يقولون ، ولا تَزِلَّ فيما كلفت ، واذكر أخاك داود كيـــف زل زلة يسيرة فلقي من توبيخ الله ما نقص عليك ، أو اقتد بصبره على عبادة الله . اهـــ

ويحتمل أن معناه : اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود غير مقتصر على داود فقط ، بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء عليهم‌السلام ، فكأنه تعالى قال :

---

(١) القط : القطعة من الشيء ؛ لأنه قطع منه ، من قطه إذا قطعه ، ويقال لصحيفة الجائزة قط .

(٢) الحاقة : ١٩ ، الانشقاق : ٧ ،

اصبر على ما يقولون ، واعتبر بحال سائر الأنبياء ، لتعلم أن كل واحد منهم كان مشغولا بِهَمٍّ خاص ، وحزن خاص ، فتعلم حينئذ أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان ، فإن استحقاق الدرجات عند الله لا تحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا ، فذكر الله سبحانه بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء ، فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل ، وحال ستة على الإجمال .

فالقصة الأولى قصة داود عليه السلام

فوصفه سبحانه أولا بالصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا ، وهي عشر .

الأولى : قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم على جلالة قدره بأن يقتدي في الصبر على طاعة الله بداود ، وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود ، حيث أمر أفضل الخلق محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقتدي به ، ثم قال في حقه : ﴿عبدنا داود﴾ فوصفه بكونه عبدا له ، وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم ، وذلك غاية التشريف .

ثم قال تعالى : ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي : ذا القوة ، أي : القوة في الدين ، يقال : رجل أيد ، وذو أيد ، إذا كان قويا ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وهو أشد الصوم ، ويقوم نصف الليل مع مشقة أعباء النبوة ، فالأيد المذكور هاهنا ، كالقوة المذكورة في قوله تعالى : ﴿يا يحي خذ الكتاب بقوة﴾[1] وقوله : ﴿فكتبنا له في الألواح﴾[2] إلى قوله : ﴿فخذها بقوة﴾ أي : باجتهاد في أداء الأمانة ، وتشدد في القيام بالدعوة، وترك الإظهار للوهن والضعف ، فالأيد والقوة سواء .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي : داود ، وكان رجاعا في أموره كلها إلى طاعتي، والأواب : فعال من آب إذا رجع ، وفعال : بناء للمبالغة ، كما يقال : قتال وضراب .

---

(١) مريم : ١٢ .

(٢) الأعراف : ١٤٥ .

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه‌السلام : ﴿ذا الأيد﴾ أي : ذا الأيادي والنعم والفضائل . قال الهادي عليه‌السلام يذم بعض الفاسقين :

ولم يك ذا شكر لأيد تقدمت   إليه وأمر بيِّنٍ ما له خطر

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ كانت تجاوبه بالتسبيح ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ آخر النهار ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾ وقت شروق الشمس ، أي : يصفو شعاعها لا مجرد شروقها ، أي : طلوعها .

ثم قال : ﴿وَالطَّيْرَ﴾ أي : وسخرنا له الطير ﴿مَحْشُورَةً﴾ أي : مجموعة ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي : كل من الجبال والطير ﴿له﴾ أي : لأجل تسبيح داود ﴿أواب﴾ أي : مسبح مرجع ، وضع ﴿أواب﴾ موضع مسبح ؛ لأنها كانت ترجع التسبيح ، والمرجِّع راجع إلى فعله رجوعا بعد رجوع ، وقيل : الضمير في ﴿له﴾ لله ، أي : كل من داود والطير والجبال لله أواب ، أي : مسبح مرجع للتسبيح .

ابن عباس : كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير فسبحت، فذلك حشرها .

ثم قال تعالى : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قويناه ، قيل : كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم لابسين لامة الحرب يحرسونه ، وقيل : شد الله ملكه بهيبة ألقاها له في قلوب الناس عن ابن عباس .

ثم قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي : العلم ، وقيل : الزبور وعلم الشرائع ، وقال ابن عباس : النبوة والمعرفة بكل ما حكم ، وقال مقاتل : العلم والفهم ، وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة .

ولما بين الله تعالى كمال حال داود عليه‌السلام بقوله : ﴿وآتيناه الحكمة﴾ أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال : ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ .

قال الرازي : لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ، ويحضر في الحال بحيث لا يختلط شئ بشيء ، وبحيث ينفصل كل مقام عن [كل][1] مقام ، وهذا معنى عام . اهـ كلامه .

وقيل : هو قطع الحكم وإنفاذ الخصومة وفصلها ، وقيل : التمييز بين الشيئين .

وفي التجريد : هو الخطاب البين الذي يتبينه من يخاطب به ، ولا يلتبس عليه ، ومنه كلامه في القضايا والحكومات ، وتدبير الملك والمشورات .

وعن علي عليه‌السلام هو قوله : البينة على المدعي ، واليمين على المدعى عليه ، وبه قال شريح وقتادة وغيرهم .

قال الرازي : اعلم أنه تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة ـ أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة في هذه القصة لا يناقض شئ منها كونه عليه‌السلام مستحقا للثناء والمدح والتعظيم فقال تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ ظاهره الاستفهام ، ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة ، والتنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ليكون داعيا إلى الإصغاء لها ، والاعتبار بها[2] .

ومعنى ﴿نبأ الخصم﴾ أي : الخصماء[3] ، وهو يقع على الواحد والجمع ، كالضيف ؛ لأنه في أصله مصدر ، وإنما ثناه في قوله : ﴿خصمان﴾ لأنه أراد فريقين

---

(١) انظر الرازي ١٨٨/٢٦ ، وما أقواس الزيادة ثابت في المصابيح ، وغير ثابت في الرازي .

(٢) نقل المصنف لكلام الرازي هنا مع تصرف يسير . انظر تفسير الرازي ١٨٩/٢٦ .

(٣) في المصابيح : (أي : الخصمان) وقد أصلحناه من الكشاف ، ليتم قوله : وإنما ثناه في قوله ؛ لأنه جواب عن سؤال ، كأنه قيل : هذا جمع ، وقوله : ﴿خصمان﴾ تثنية فكيف استقام ذلك قال في الكشاف : الخصم الخصماء ، وهو يقع على الواحد والجمع ؛ كالضيف ، قال الله تعالى : ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ لأنه مصدر في أصله ، تقول : خصمه خصما ، كما تقول : ضافه ضيفا .

قال السيد العلوي رحمه الله : قال الزجاج : الخصم ـ مصدر تقول : خصمته أخصمه خصما ، وما كان من المصادر وقد وصفت به الأسماء فتذكيره وتأنيثه وتوحيده جائز .

قال في التجريد : فإن قلت : كيف يصح هذا وقد قال ﴿إن هذا أخي﴾ ففسره بواحد ، وجاء في الرواية أنه بُعِثَ إليه ملكان ؟ قلت : لا يمتنع التحاكم بين ملكين وكان يصحبهما آخرون .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿نبأ الخصم﴾ أي : خبر الخصم ، والخصم : هم الخصوم المتخاصمون ، والمتخاصمون : هم المتحاجون إلى داود المتناظرون . اهـ

ومعنى قوله : ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي : طلعوا الجدار ، وإذ بمعنى حين ، تقديره : وهل أتاك نبأ الخصم حين تسوروا ، والمحراب : هو مصلى داود ، أي : صعدوا على سوره ، أي : حائطه ونزلوا عليه عليه السلام .

ثم قال سبحانه : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ﴾ إذ بدل من الأولى ، وإنما قال تعالى : ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم جاؤه من فوق المحراب ، وفي يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل إليه في وقت عبادته ، وكان ذلك يومها ، وروي أن الله بعث إليه ملكين في صورة إنسانين ، فأرادا الدخول فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب ، فلم يشعر إلا وهما بين يديه ففزع ، ثم ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أي : نحن خصمان ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ أي : اعتدى وظلم وخرج عن الحد ، يقال : بغى الجرح ؛ إذا أفرط وجعه ، ويقال : بغت المرأة ؛ إذا زنت ؛ لأن الزنى كبيرة منكرة ، وهذا مجاز وتعريض لداود عليه السلام ، ثم قالوا : ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي : بالحكم الحق ، وهو الذي حكم الله به ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي : لاتَجُرْ وتبعد عن الحق ، ثم قالوا : ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي : وسط الطريق ، ضربه مثلا لعين الحق ، يعني أنه يجب أن يكون سعيك في إيجاد هذا الحق ، وفي الاحتراز عن هذا الباطل ، أن تردنا من طريق الباطل إلى الطريق الحق ، وهذا مبالغة تامة في تقرير المطلوب .

واعلم أنه لما أخبر عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل فقال :﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ أي : امرأة[١]

قال في الكشاف :﴿ أخي ﴾ بدل من هذا ، أو خبر ﴿ إن ﴾ والمراد أخوة الدين ، أو أخوة الصداقة والألفة ، أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى :وإن كثيرا من الخلطاء ﴾[٢] [وكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء][٣]

ثم قال تعالى :﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾أي : امرأة واحدة ، والنعجة أنثى الضأن ، وأنثى بقر الوحش ، والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة ، كما يكنى عما يسمج ذكره ، سترا هنا على داود وحفظا لحرمته ، ولأن التمثيل ـ دون التصريح ـ أبلغ في التوبيخ ، وأعظم أثرا في القلب .

ثم قال سبحانه حاكيا :﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ يقال : عزّه يعزّه ، يريد : جاءني بخطاب وحجاج لم أقدر أن أرده ، والخطاب : المخاطبة والجدال .

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه‌السلام : معنى ﴿ أكفلنيها ﴾ أي : ولني كفالتها ، وكان المسلمون في ذلك الزمان إذا أعجب أحدهم بزوجة صاحبه قال : أكفلنيها وطلقها لي إن كنت قضيت منها وطرا ؛ لشدة ما كان بينهم من التواصل ، والتقرب إلى الله بقضاء حاجة المؤمن ، ولم يكن في ذلك عيب ولا مأثم ، ولو كان داود عليه السلام في منزلة أوريا لما عاتبه الله عز وجل في ذلك ، ولكن الحاكم على الناس ، المالك لأمورهم لا ينبغي له أن يسألهم ؛ لأنه إذا سألهم لم يمتنعوا عليه إعظاما وهيبة لسلطانه ، وليس العوام كذلك ؛ لأن العوام لا يعطون ما يعطون[٤] إلا بطيبة نفس

---

(١) النعجة : هي الأنثى من بقر الوحش ، وبها تشبه المرأة . وقد جعل المصنف النعجة هنا كناية عن المرأة ، كما سيأتي له وهو قوله : والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة .

(٢) ص : ٢٤ .

(٣) في الكشاف : وكل واحدة من هذه الأخوات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم ٨٣/٤ .

(٤) في الأصل للمصابيح (ما يطلبون) وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه‌السلام ما يعطون .

المعطـــي لما يسألون ، والسلطان يُهَابُ ولا يُرَدُّ ، ولعل ذلك يضر بهم ويشق عليهم ويتعـــبهم ، فلم يرض الله لنبيئه وحبيبه ووليه أن يطلب منهم ، وهو قاهر لهم لما في ذلك من المضرة لهم . اهـــ

ومثل هذا ذكر الإمام أحمد بن سليمان عليه‌السلام .

قيل : وكانت عادتهم في هذا المعنى مألوفة معهودة .

وروي الرازي أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى ، والله أعلم .

[قصة دواد عليه‌السلام مع أوريا كما رواها الإمام الهادي عليه‌السلام]

وفي هـــذه الآية يقول الهادي إلى الحق عليه‌السلام [(١)] : هذا خبر من الله سبحانه عما كـــان نبه نبيئه داود صلى الله عليه على أمنيته التي كان تمنى من نكاح امرأة أوريا ، وذلك أنه لما أن تبع الطير أشرف به الطير على رأس جدار ، فأشرف داود ينظر أين توجه الطير فوقعت عينه على امرأة أوريا وهي حاسر ، فرأى من جمالها ما رغبه فيها فقـــال : لوددت أن هذه في نسائي ، ولم يكن منه غير هذا التمني ، وكل ما يروى عـــليه صلى الله عليه من سوى ذلك فهو باطل كذب ، فلما [أن تمناها] [(٢)] نبهه الله وعاتبه في السر ، وقد أعطاه أكثر من حاجته ، فبعث إليه ملكين ، فتمثلا في صورة آدميـــين ، فتســـوروا عليه المحراب وهو يصلي ، فدخلا عليه ففزع منهما ، وظن أنهما داهية قد دهمته ، وعدو قد هجم عليه في محرابه ، وفي وقت خلوته ، فقالا له : ﴿لا تخـــف خصـــمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى ســـواء الصراط﴾ معنى ﴿لا تشطط﴾ يقول : لا تمل حكمك مع أحدنا فتشطط عـــلى الآخر [ومعنى ﴿تشطط﴾ فهو تشدد على أحدنا في غير حق] ، و﴿سواء الصـــراط﴾ فهـــو: معتدله ومستقيمه ووسطه وقيِّمُه ، والصراط فهو : طريق الحق

---

(١) واللفظ في النسخة ب : وأما الهادي عليه‌السلام فقال : هذا خبر :

(٢) في أصل المصابيح (فلما تمنى) وما بين القوسين هو ما في المجموع ، واللفظ في النسخة ب (فلما أن تمنى) .

هاهنا وواضحه ، وكان لداود صلى الله عليه تسع وتسعون منكحا من الحرائر والإماء ، وكان لأوريا هذه المرأة وحدها ، فمثلا أنفسهما بداود وبأوريا ، فقال أحدهما ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها﴾ ومعنى ﴿أكفلنيها﴾ فهو : ابتعنيها وزدنيها إلى نعاجي ﴿وعزني في الخطاب﴾ يقول : شطّني في المطلب ، وألح في تمنيها وطلبها ، وذلك أنها لم تكن تسقط من نفس داود من يوم رآها ، يتذكرها ويتمناها ، فقال داود صلى الله عليه : ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ فلما قال هذا لهما تغيّبا من بين عينيه ، فإذا به لا يبصرهما ولا يراهما ، فعلم عند ذلك الأمر كيف هو ، وأنهما ملكان ، وأن الله بعثهما إليه لينبهاه من غفلته ، ويقطعا عنه بذلك ما في قلبه من كثرة تذكره امرأة صاحبه ، فأيقن صلى الله عليه أنها فتنة من الله ، والفتنة هاهنا : فهي المحنة .

ومعنى ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ فهو : أيقن بذلك أنه من الله ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ من ذلك التمني ، والذكر لهذه المرأة ، فلم يذكرها بعد ذلك اليوم حتى زوجه الله إياها ، حين أراد تبارك وتعالى من بعد أن اختار لأوريا الشهادة ، فاستشهد وصارت بعد ذلك إليه ، وزوج الله داود امرأة أوريا ، وبلغه أمله ، وأعطاه في ذلك أمنيته ، فجاءه ذلك وليس في قلبه لها ذكر ، ولا إرادة ولا تمنى ، ولم يكن لداود صلى الله عليه في أوريا ، ولا في قتله شئ مما يقول المبطلون من تقديمه أول الحرب ، ولا ما يذكرون من طلبه وتحيله في تلفه بوجه من الوجوه ، ولا معنى من المعاني ، كذب العادلون بالله ، وضل القائلون بالباطل في رسول الله صلى الله عليه[1] . اهـ

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣٦ ــ ٤٣٧ .

وروي أنه بقي ساجداً أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة ، وما لابد منه ، ولا يرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه ، ولم يأكل ولم يشرب ، وأكلت الأرض من جبينه ، ونقش خطيئته في كفه لئلا ينساها قاله في التجريد .

وما في قوله : ﴿وقليل ما هم﴾ زائدة للإبهام ، وفيه تعجب من قلتهم [1]

قال في البرهان : ﴿وظن داود﴾ علم ، وكل ظن أدخلته على خبر ، فجائز أن تجعله علما ؛ لأنه علم غير العيان[2] . اهـ

أي : علم وأيقن بذلك أنه من الله ، استعار الظن للعلم لما كان يدانيه .

ومعنا ﴿فتناه﴾ هو : أنا امتحناه واختبرناه بما ركبنا فيه من الهوى ، وجعلناه فيه، أو فتناه بتخاصم الخصمين .

ومعنى ﴿فاستغفر ربه﴾ سأله المغفرة ﴿وخر راكعا﴾ أي : سقط ساجدا اعترافا بالذنب ، عبر بالراكع عن الساجد [3]لأنه ينحني ويخضع كالساجد ، وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في أن الركوع في سجود التلاوة يقوم مقام السجود ، ولا حجة لهم لجواز أن يكون قد استغفر لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار ، فيكون المعنى : وخر للسجود مصليا ؛ لأن الركوع يجعل عبارة عن الصلاة .

---

(١) ـ وذلك لأنه بالغ في قلتهم من ثلاثة أوجه ، أحدها : لفظ قليل ، والثاني : التنكير فيه فإنه لتعظيم التقليل، والثالث : زيادة ما الابهامية ، والشيء إذا بولغ فيه كان مظنة لأن يتعجب منه . ح ع .

(٢) البرهان خ : ٣٣٤ .

(٣) ـ قوله : عبر بالراكع عن الساجد . أي : كنى عن الساجد بالراكع ؛ لما بين الركوع والسجود من الانحناء للخضوع ، ولما بينهما من المناسبة استشهد أبو حنيفة في سجدة التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود ، قال صاحب التقريب : وفيه نظر لأنه بعد تعبيره به عن الساجد لا يبقى الاستشهاد ، ولعله استشهد بإطلاق الآية . وفيما قاله نظر ؛ لأنه لا إطلاق ؛ لأن الركوع مقيد بالخرور الذي هو السقوط ، فلا يحمل على مجرد الركوع .

قال في التجريد : وقد اختلف العلماء هل هذا الموضع من مواضع السجود ، فقال الشافعي : ليس بموضع سجود ، وقال أبو حنيفة : هو موضع سجود ، والركوع في سجود التلاوة يقوم مقام السجود ، فجعل الركوع لظاهره في الآية .

ومعنى ﴿أناب﴾ رجع إليه وتاب ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ يجوز أن يكون مفعول غفرنا وأشير به إلى الذنب ، ويجوز أن يكون ﴿فغفرنا له﴾ محذوف المفعول ، وقوله ﴿ذلك﴾ ابتداء كلام ، أي : ذلك خبره ، أو خبره ذلك .

[قصة داود عليه السلام عند من لا ينزه الأنبياء عليهم السلام من المعاصي]

وأما ما يرويه القصاص في قصة داود عليه السلام أنه بعث أوريا ، وقدمه على التابوت، وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع أو يستشهد ، فقدمه ففتح الله على يديه وسلم ، فرده أخرى وثالثة حتى قتل ، فأتى خبره لمقتله فلم يحزن كما كان يحزن على سائر الشهداء ، وتزوج امرأته ـــ فباطل قطعا .

والدليل على بطلانه ما رواه سعيد بن المسيب ، والحارث الأعور أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : من حدثكم بحديث داود على ما رواه القصاص جلدته مائة وستين ، وهو حد الفرية على الأنبياء[1] .

ومما يدل أيضا على فساد ما حكوه ونسبوه إلى نبي الله في امرأة أوريا ، وتحيله في قتله وجوه

الأول : أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس ، وأشدهم فجورا لاستنكف منها ، والرجل الحشوي الخبيث ، الذي يقرر تلك القصة ، لو نُسِبَ إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه ، وربما لعن من نسبه إليها ، وإذا كان الأمر كذلك كيف يليق بالعاقل نسبة النبي المعصوم إليه! .

---

(١) وذكره أيضا الرازي في تفسيره ١٩٢/٢٦ .

الثاني : أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين : السعي في قتل رجل مسلم بغير حق ، وإلى الطمع في زوجته ، أما الأول فأمر منكر ، قال صلوات الله عليه وآله وسلم :(من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله) .

وأما الثاني فمنكر عظيم قال ﷺ :(المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه﴾ وإن أوريا لم يسلم من داود لا في نفسه ولا في منكوحه .

الثالث : أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات المذكورة، ووصفه أيضا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر ، والعمل القبيح ، ذكر هذه الوجوه بعض المحققين، قال : ولا بأس بإعادة هذه الصفات للمبالغة في البيان فنقول :

أما الصفة الأولى فهي أنه تعالى أمر محمدا ﷺ بأن يقتدي بداود عليه السلام في المصابرة على المكاره ، ولو قلنا : إن داود لم يصبر على مخالفة النفس ، بل سعى في إراقة دم مسلم لغرض شهوته ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدا أفضل الرسل بأن يقتدي بداود في الصبر على طاعة الله .

وأما الصفة الثانية وهو أنه وصفه بكونه عبدا له ، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا في موقف العبودية ، تاما في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات . ولو قلنا : إن داود اشتغل بتلك الأعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملا في عبوديته لله تعالى ، بل كان كاملا في طاعة الهوى والشهوة

وأما الصفة الثالثة فهو قوله :﴿ذا الأيد﴾ أي : ذا القوة ، ولا شك أن المراد منه القوة في الدين ؛ لأن القوة في غير الدين كانت موجودة في ملوك الكفار ، ولا معنى للقوة في الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات ، والاجتناب عن المحظورات ، فأي قوة لمن لا يملك نفسه عن القتل ، والرغبة في زوجة المسلم! .

الصفة الرابعة : كونه أوابا ، كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفا بالقتل والفجور .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿إنا سخرنا الجبال معه﴾ أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة إلى القتل والفجور ؟ .

والصفة السادسة : قوله ﴿والطير محشورة﴾ وقيل : إنه كان محرما عليه صيد شئ من الطير ، وكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ، ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه .

الصفة السابعة : قوله ﴿وشددنا ملكه﴾ ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شد ملكه بأسباب الدنيا ، بل المراد أنه شد ملكه بما يقوي الدين ، ويكمل أسباب سعادة الآخرة ، والمراد منه تشديد ملكه في الدين والدنيا ، ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور فكيف يليق به ذلك ؟.

الصفة الثامنة : قوله تعالى : ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ والحكمة: اسم جامع لكل ما ينبغي علما وعملا ، وكيف يجوز أن يقول الله تعالى : إنا ﴿آتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ مع إصراره على ما يستنكف عنه أخبث الشطار [1] عن مزاحمة أخلص أصحابه في الروح والمنكوح . فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة[دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب] [2]

[وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة]فهي عشر أولها: قوله تعالى : ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ .. تركنا عدد ما ذكره من الصفات الأخرى لطولها [3]

---

(١) اللفظ في الرازي : على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان .

(٢) ما بين قوسي الزيادة موجود في النسخة ب ، وفي الرازي ١٨٩/٢٦، ١٩٠. وكذلك ما بعده بين أقواس الزيادة .

(٣) قوله بعض المحققين . المراد به الرازي ، وقد ذكر المبحث في تفسيره ١٨٩/٢٦ــ ١٩٢، وقد أصلحنا اللفظ منه .

وانظر بقية كلامه في تتريه نبي الله داود ، والعجب من هؤلاء المفسرين والمحدثين من الحشوية وبعض أهل الحديث الذين هم كالببغآت يرددون ما ورد في الكتب المحرفة ، وينسبونه إلى رسل الله المترهين عن كل شين ، وليست شعري لو استخدموا تتريههم وتمحلاتهم في تتريه بعض الصحابة الطغاة أمثال معاوية ، وعمرو بن العاص، وسمرة بن جندب ، والمغيرة بن شعبة في تتريه الأنبياء لكان أولى بهم وأجدر ، ولكنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . حتى تجرأ بعضهم وروي للخلفاء الذين على شاكلة معاوية (أن الخليفة لا يجري عليه القلم ، ولا يكتب عليه معصية) وقد روي هذا الحديث لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فبالغ في نفيه كما ذكره الرازي في تفسيره .

وما تركه المصنف فنحن نثبته هنا من تفسير الرازي .

قال : وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشرة ، الأول : قوله ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله ، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله :﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ لائقا له .

الثاني : قوله تعالى :﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه ، **أحدها** : أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه : أيها العبد إني فوضت إليك خلافتي ونيابتي ، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر ، فأما جعله نائبا وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق .

وثانيها : أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف ، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ثم قال بعده :﴿إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة ، ومعلوم أن هذا فاسد ، أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب ، وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه ﴿إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ فثبت أن هذا الذي نختاره أولى .

والثالث : وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه‌السلام وتعظيمه ، ومؤخرها أيضا دالة على ذلك ، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال : فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله ، يقتل ويزني ويسرق ، وقد جعله الله خليفة في أرضه ، وصوب أحكامه ، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل ، فكذا هنا ، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب .

والرابع : وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية أن داود عليه‌السلام تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية ، مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار ، وحصل للذبيح من الذبح ، وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب ، فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه‌السلام الابتلاء ، فأوحى الله إليه أنك ستبتلى في يوم كذا فبالغ في الاحتراز ، ثم وقعت الواقعة ، فنقول : أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ،

ثم قـــال : فإن قال قائل : إن كثيرا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة فكيف الحال فيها ؟

ويكمل مراتب إخلاصه ، فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة ، ويثبت أن الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها .

الخامس : أن داود عليه‌السلام قال : ﴿وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا﴾ استثنى الذين آمنوا من البغي ، فلو قلنا : إنه كان موصوفا بالبغي لزم أن يقال : إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه ، وذلك باطل .

الســـادس : حضرت في بعض المجالس ، وحضر فيه بعض أكابر الملوك ، وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القـــول الفاســـد ، والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك ، فقلت له : لاشك أن داود عليه‌السلام كان من أكابر الأنــبياء والرسل ، ولقد قال الله تعالى : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظـــيم لم يجز لنا أن نبالغ في الطعن فيه ، وأيضا فبتقدير أنه ما كان نبيئا فلا شك أنه كان مسلما ، ولقد قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :(لا تذكروا موتاكم إلا بخير) ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شئ من هذه الدلائل إلا أنا نقول : إن مـــن المعـــلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقة صحيحة فإن روايتها وذكرها لا يوجـــب شيئا من الثواب ؛ لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب ، وأما بـــتقدير أن تكـــون هـــذه القصة باطلة فاسدة ، فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب ، والواقعة التي هذا شأنها وصـــفتها فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها ، فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه ، وأن شرح تلك القصة محرم محظور ، فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت ولم يذكر شيئا .

الســـابع : أن ذكر هذه القصة وذكر قصة يوسف عليه‌السلام يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرما لقوله تعالى لـ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا﴾ .

الثامن : لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله (من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله) وأيضا لو فعل ذلك لكان ظالما فكان يدخل تحت قوله : ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ .

التاسع : عن سعيد بن جبير [وهو الحديث المروي عن علي بن أبي طالب ـــ السابق]

العاشـــر : روي أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما في كتاب الله تعالى فقال : لا ينبغي أن يزاد عليها ، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت ، ثم إنه تعالى لم يذكرها [ألا] لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه‌السلام ، فلا يجوز للعاقل أن يسعى في هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر ، فقال عمر [هكذا في الأصل] سماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، فثبت بهذه الوجوه التي ذكرناها أن القصة التي ذكروها فاسدة باطلة .

والجـــواب الحقيقي أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة ، وبين خبر واحد من أخـــبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى [1] ... وأيضا كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول ، بل الأكثرون المحقون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بـــالكذب والفساد ، وإذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت ، وبقي الرجوع فيه إلى الدلائل التي ذكرناها .

ثم قـــال : أما الاحتمال الثاني وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصـــغيرة ، ولا يوجـــب حصول الكبيرة ، فنقول : في كيفية هذه القصة على هذا الـــتقدير وجوه ، الأول : أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ، ثم خطبها داود فآثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن ، مع كثرة نسائه .

ثم حكى الوجه الثاني ، وهو كقول الهادي عليه‌السلام الذي مر ذكره .

ثم حكى الثالث ، وهو الذي مر ذكره عن الحسين بن القاسم عليه‌السلام .

ومعنى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا﴾ أي : في ضماننا أو في دارنا ﴿لَزُلْفَى﴾ أي : درجـــة رفيعـــة وقـــربة ، ثم قال : ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي : حسن مرجع في الآخرة وانقلاب من النعيم الكريم والثواب .

واعلم أنه تعالى لما تمم الكلام في شرح تلك القصة أردفها ببيان أن الله تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض فقال سبحانه : ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور في تلك القصة ؛ لأن من البعيد جدا أن

---

(١) وزاد الرازي مكان الفراغ الذي تركناه في الأصل قوله : وأيضا فالأصل براءة الذمة ، وأيضا فلما تعارض دليـــل التحريم والتحليل كان التحريم أولى ، وأيضا : طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا ، وأيضا فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لِمَ لَمْ تسعوا في تشهير الواقعة ؟ وأما بتقدير كونها باطـــلة فإن علينا في ذكرها اعظم العقاب ، وأيضا فقد قال عليه‌السلام :(إذا علمت مثل هذه الشمس فاشهد) وههـــنا لم يحصل العلم ولا الظن في صحة هذه الحكاية ، بل الدلائل القاهرة التي ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها ، وأيضا كل المفسرين .. الخ . الرازي ١٩٢/٢٦ .

يوصف الرجل بكونه ساعيا في سفك دماء المسلمين ، راغبا في انتزاع أزواجهم منهم ، ثم يذكر عقيبه أن الله تعالى فوض أمر خلافة الأرض إليه .

ثم في معنى كونه خليفة قولان ،قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : معناه أنه جعله خلفا وعوضا من أسلافه الطاهرين ، الماضين الأولين من الرسل الخالين .

وقيل : معناه استخلفناك على الملك وملكناك فيها ، خليفة من الله تدبر أمر عباده ، وهو مجاز وتمثيل بمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض ويملكه عليها .

ثم قال تعالى :﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾أي : بالعدل ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾هوى نفسك في قضائك وغيره ، مما تصرف فيه من أسباب الدين والدنيا ﴿ فَيُضِلَّكَ ﴾الهوى ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : عن طريقه ؛ لأن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ؛ لأن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات ، والانهماك في الشهوات ، وذلك يمنع من الاشتغال بالطاعات التي هي الباقيات الصالحات ؛ لأنهما حالتان متضادتان ، فبقدر ما يزداد أحدهما ينتقص الآخر ، وسبيل الله دلائل العقل والشرع .

وهذا يدل على أن على المدعي للخلافة المتسمي بها أن يلتزم هذين الأمرين ، الحكم بين الناس بالحق ، ومخالفة هوى النفس .

ثم قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ أي : بسبب نسيانهم له ، أي : تركوا العمل له واطرحوه ، وقيل : التقدير : لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا ، أي : تركوا من القضاء بالحق ومخالفة هوى النفس .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الخلائق ﴿ بَاطِلًا ﴾ أي : خلقا باطلا لا لغرض وحكمة ، أي : ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ، بل لمنافع العباد كما ترى ، وليعتبر فيها ذو النظر بما يرى من العبر [١].

قال في التجريد : والمراد عدم الجزاء ، والثواب ، والعقاب ؛ إذ لو لم يكن جزاء لكان خلق المكلفين والحيوانات باطلا ؛ لأنها لم تصل إليها أعواضها ، ولا جزاؤها في الدنيا فيجب البعث ، وخلق الجماد لا يحسن إلا لنفع الحيوان ، والمراد أن إنكارهم البعث مؤد إلى أن خلقها باطل وعبث .

ثم قال :﴿ ذَلِكَ ﴾أي : خلقهما باطلا ﴿ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾أي : مظنونهم ، جعلوا كأنهم يظنون ذلك لتكذيبهم بالبعث الذي خلق له العالم ، فكأن خلقها هذا عبث وباطل .

ثم قال :﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ أي : هلاك لهم فيها .

ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك في حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل فقال سبحانه :﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ فهذا مقرر لذلك، وأم في ﴿ أم نجعل الذين آمنوا ﴾ و﴿ أم نجعل المتقين ﴾ بمعنى بل وهمزة الاستفهام [٢] وهو للإنكار ، أي : لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد ، واتقى وفجر ، ومن سوَّى بينهما كان سفيها ، ولم يكن حكيما تعالى الله عن ذلك .

---

(١) ذكر الرازي في تفسيره ٢٦/ ٢٠١ فقال : احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقا لأعمال العباد ، قال : لأنها مشتملة على الكفر والفسق ، وكلها أباطيل ، فلما بين تعالى أنه ﴿ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا﴾ دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد ، ومثله قوله تعالى :﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر ، والكفر باطل وقد خلق الباطل ، ثم أكد تعالى ذلك بأن قال :﴿ ذلك ظن الذين كفروا﴾ أي : كل من قال بهذا القول فهو كافر ، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر .

(٢) هي أم المنقطعة ، التي بمعنى بل والهمزة .

وقال مقاتل : قال كفار قريش للمؤمنين : إنا نعطى في الآخرة مثل ما تعطون فنزلت

ثم قال سبحانه :﴿ كِتَابٌ ﴾أي : هذا كتاب ، يريد القرآن ﴿ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ كثير المنافع في أمور الدين﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾أي : أنزلناه ليتدبروا آياته ، أي: ليتفكروا فيها ، والتدبر : النظر في أدبار الشيء وما يتعقبه ، فإذا تدبروها علموا صحتها ، وتصديق الرسول ، ثم قال :﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي : ليتعظ بما فيه أولوا العقول .

قال الرازي : في تقرير نظم هذه الآيات : فنقول لسائل أن يسأل فيقول : إن الله تعالى حكى في أول السورة عن المستهزئين من الكفار أنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة ، وقالوا :﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب ، بل قال :﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ﴾ ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود بمسألة أن القول بالقيامة حق ، ثم إنه تعالى أطنب في شرح قصة داود ، ثم أتبعه بقوله :﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا ﴾ ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود ، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله تعالى ، وفرَّعَ عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق ، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة ، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض ، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتابا شريفا فاضلا ؟ هذا تمام السؤال .

قال : والجواب ـ أن نقول : إن العقلاء قالوا : من ابتلي بخصم جاهل مُصِرٍّ متعصب ، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ؛ لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد ، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام في تلك المسألة ، وان يخوض في كلام آخر أجنبي من المسألة الأولى بالكلية ، ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي بحيث ينسي ذلك

المتعصب تلك المسألة الأولى ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى ، فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب ، فإن ذلك المتعصب يُسَلِّمُ هذه المقدمة ، فإذا سلمها فحينئذ يُتَمَسَّكُ بها في إثبات المطلوب الأول ، وحينئذ يصير ذلك الخصم المصر المتعصب منقطعا مفحما[1]

[وهو وعيد من الله ، وتسلية له صلى الله عليه وآله ، وقد قيل : معنى ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي : اعرض عن دعوتهم إلى الإيمان ﴿ وقل سلام ﴾ أي : تسلم منكم ومتاركة ، أي : ودعهم وقل سلام ، فإنهم لا يرتجى منهم الإيمان][2] .

إذا عرفت هذا فنقول : إن الكفار بلغوا في إنكار الحشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ فقال تعالى : يا محمد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة ، واشرع في كلام آخر أجنبي بالكلية عن هذه المسألة ، وهو قصة داود عليه‌السلام ، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر [ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة] ثم قال في آخر القصة : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾ وكل من سمع هذا ، قال : نِعْمَ ما فعل ؛ حيث[3] أمره بالحكم بالحق ، ثم كأنه تعالى قال : وأنا لا آمرك بالحق فقط ، بل أنا مع أني رب العالمين لا أفعل إلا الحق ، ولا أقضي بالباطل ، فهاهنا الخصم يقول : نِعْمَ ما فعل ، حيث لم يقض إلا بالحق ، فعند هذا يقال : لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر ؛ لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحا على المسلم في

---

(١) إلى هنا انتهى كلام الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه . (تفسير الرازي ٢٦/٢٠٢).

(٢) ما بين القوسين غير موجود في النسخة ب ، وهو موجود في النسخة أ ، وهو أيضا غير موجود في الرازي وقوله بعده : إذا عرفت هذا ... هو من كلام الرازي الذي نقله المصنف عنه . الرازي ٢٦/٢٠٢ .

(٣) هذا لفظ الرازي ، ولفظ المصابيح : (نَعَم ما فعل غير أمره بالحكم بالحق) . الرازي ٢٦/٢٠٢ . وكذلك ما بين أقواس الزيادة من الرازي . ولفظ المصابيح أيضا (قال : وأنا لا أمرك إلا بالحق فقط) وما ذكرناه ما في الرازي .

إيصـال الخـيرات إليه ، وذلك ضد الحكمة ، وعين الباطل ، فبهذا الطريق اللطيف أورد الله الإلزام القاطع على منكري الحشر والنشر إيرادا لا يمكنهم الخلاص منه ، فصار ذلك الخصم الذي بلغ في إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفحما ملزما بهذا الطريق .

ولما ذكـر الله تعالى هذه الطريقة [الدقيقة] في الإلزام في القرآن لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل ، فقال : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولـوا الألـباب﴾ فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ، ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف عـلى هـذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم ، حيث يراه في ظاهر الحال مقرونا بسوء الترتيب ، وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب . اهـ كلام الرازي [1] .

وهـو حق في طريق النظم إذ هو مسلك حسن في تقرير نظم هذه الآيات ونحوها والله أعلم .

[القصة الثانية : قصة النبي سليمان عليه السلام]

ثم ذكـر تعـالى القصة الثانية فقال : ﴿وَوَهَبْـنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي : سليمان ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي : رجاع إليه بالتوبة ، أو مسبحا مؤديا للتسبيح مرجعا له، قولـه : ﴿إنه أواب﴾ هذه الكلمة للتعليل ، فهذا يدل على أنه إنما كان نعم العبد ؛ لأنـه كان أوابا ، فيلزم أن من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى في أكثر الأوقات ، وفي أكبر المهمات كان موصوفا بأنه نعم ، وهذا هو الحق الذي لا شبهة فيه ؛ لأن كمـال الإنسـان أن يعـرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف ورئيسـها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شئ من الخـيرات إلا بإعانة الله تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله ، فكان

---

(١) ـ تفسير الرازي ٢٦/٢٠٢، ٢٠٣. وما بين أقواس الزيادة من الرازي .

أوابا فثبت أن كل من كان أوابا وجب أن يكون نعم العبد ، لأن نعم كلمة مدح ، قال الشاعر :

ونعم أخو الصعلوك أمس تركته بتربته يسمو باليدين ويرمح

وقال الآخر:

ونعم الفتى إن كان توبة فاجرا ونعم الفتى إن كان ليس بفاجر

ثم قال : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾[1] العشي : هو آخر النهار من بعد الزوال ، والصافنات : الخيل ، والصافن : الذي يقوم على ثلاث ، ويقيم الرابعة على طرف الحافر ، من يد أو رجل ، قال الشاعر:

---

(١) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني في تفسيره لهذه الآية وما بعدها :

ومعنى ﴿عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾ أي : عرض له ، وبين يديه ﴿بالعشي﴾ أي : في آخر النهار ، و﴿الصافنات﴾ هن الخيل الصوافن ، وقيل : إن الصافن هو الذي يرفع إحدى رجليه ، ويتكئ على طرف حافره ، ويعمد على ثلاث قوائم ، قال الشاعر:

ألف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيرا

أي : مكسورا ، وقال آخر :

تركت الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا

أي : قياما ، وقال آخر :

يملأ العين مسرجا وصفودا ومعرى وصافنا في الخلال

أي : واقفا ، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام :

إذا رأيت الصافنات تصهل قد ثار في أفواههن القسطل

أنا علي لست عنها أذهل

﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾ أي : حببت هوى الخيل ، فسمى الخيل خيرا لخيرها ، قال الشاعر :

والخيل خير وخير الخير في فرس يأتي بما يكسب العلياء والنفلا

وأصدق من قول الشاعر قول سيدنا خاتم النبيئين صلوات الله عليه ، وعلى أهل بيته الطاهرين :(الخيل معقود بنواصيها الخير﴾ وقوله :﴿أحببت حب الخير﴾ جائز في اللغة ، والقائل يقول : إني لأهوى الهوى ، أي : أحبه ، قال الشاعر :

عَلِقَ الصَّفون فيما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسير

أي : مكسور ، قيل : وهذا من صفة الخيل العراب ، وقيل : الصافنة القائمة سواء كانت على ثلاث أو أربع ، وهو قول الفراء وابن قتيبة ، قال ابن قتيبة : الصافن في كلام العرب : القائم من الخيل وغيرها ، قال الشاعر :

أحببت حب الغانيات فزادني ... كلفا وحب بحبه الخلان

ومعنى قوله : ﴿عن ذكر ربي﴾ أي : حتى شغلتني عن ذكر ربي ، ولأن هذا من الاختصار كما قد ذكرنا فيما مضى من الإضمار ، ومعنى قوله : ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ أي : حتى توارت الشمس ، فأضمر ذكر الشمس وأخفاه ، واختصر الكلام وأخره ، ومعنى قوله : ﴿ردوها علي﴾ يعني الخيل ﴿فطفق مسحا بالسوق والأعناق﴾ أي : فعلق وجعل يضرب أعناقها وسوقها بالسيف ويقتلها عقوبة لنفسه بذهاب أطيب لذته ، وأحسن زي مملكته زهدا منه صلى الله عليه في حطام الدنيا ولذاتها الفانية وزينتها وشهواتها ، إذ شغلته عن التسبيح الذي هو خير منها ، وأحصل يوم القيامة ، عن الشغل بها ، وقال آخرون : إنه لم يقتلها ، وإنما وسمها بالنار ، ليذكر شغله بها والقول الأول أعجب إلينا ؛ لأن قتله لها لم يكن عبثا ولا مثلا ، وإنما كان هربا إلى الله ، وعدلا ألا ترى أن الخيل لا بد من موتها ، فجعل ذلك عليه السلام ليتخلص منها ، ولا يشتغل عن ذكر الله بها ، وهذا قول السلف صلوات الله عليهم ، وقولنا ؛ إذ هم هدايتنا إلى الله وقدوتنا ، وأئمتنا ، ومعلمونا ، وسادتنا .

﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي : امتحناه ﴿وألقينا على كرسيه جسدا﴾ أي : على ملكه جسما ، وقيل : إنه لم ينه زوجته عن خطيئة من الخطايا تصاغرها ، وكانت غير كبيرة استقلها ، فعتب الله عليه تسهيله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فألقي على ملكه جسدا ، وأن الله نزع ملكه عنه نزعا ، قالت العوام : إن الخطيئة التي لم ينه عنها قتل زوجته لجرادة من الجراد قتلتها لغير ما حاجة كانت لها إلى قتلها ، والله أعلم .

وزعمت العوام بجهلها أن الله ألقى شيطانا على ملكه فتمثل في صورة سليمان وحليته ، ودخل إلى نساء سليمان على صفته وصورته ، وجامعهن وهن حيض فأنكرن فعله ، وهذا من ركاكة العوام ، وقلة ورعهم ، وافترائهم للكذب وجهلهم ، ولكنا نقول : إن الله لا يلقي الشيطان على ملك نبيئه ، ولا يقربهم ، وأن الله سبحانه لم يقدرهم على تصوير أنفسهم ، وأنه لم يجعل فيهم لذة الجماع كما جعلها في غيرهم ، ونقول : إن الله صادق في قوله ، وإنه ألقى جسدا على ملك رسوله ، وآذنه بذهاب ملكه وسلطانه ، وبغير ذلك مما مصالح نسائه ، وإن الله قدره ، وإليه أفضل مما كان فيه من السلطان ، ولم يحرمه ما هو أهله من اللطف والإحسان ، وإن الجسد الذي ألقي على ملكه جسم من الأجسام ، فيه مصلحة وحكمة لذي الجلال والإكرام ، وإن الله لم يعرفنا معرفة هذا الجسد فيما كلفنا ، ولم يخبرنا عن صفته فيما أخبرنا .

تـــركت الخيـــل عاكفـــة عليه مقـــلدة أعنـــتها صـــفونا

أي : قياما ، وأحسن من قول الشاعر قول أمير المؤمنين علي عليه‌السلام :

إذا رأيـــت الصـــافنات تصهل قـــد ثـــار في أفواههـــن القسطل

أنا عَلِيٌّ لست عنها أذهل

ومـــنه قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :(من أحب أن يقوم له الناس صفونا فليتبوأ مقعده من النار) أي : يمدون له القيام كما يفعله ملوك العجم .

وروي أن سليمان عليه‌السلام غزا أهل دمشق ونصيبين ، فأصاب ألف فرس ، وقيل : ورثهـــا من أبيه ، فقعد على كرسيه بعد صلاة الظهر واستعرضها فلم تزل تعرض عـــليه حـــتى غابت الشمس وغفل عن العصر ، فهابوه فلم يعلموه ، فاغتم لما فاته فعقـــرها تقربا ، ولا يمتنع أن يكون ذلك قربة في شريعته ، وبقي مائة فما بقي من العراب الجياد فمن نسلها ، وقيل : لما عقرها أبدله الله خيرا منها ، وهو الريح تجري بأمره .

قال محمد بن القاسم عليهم‌السلام : لأن قتله لها لم يكن منه عبثا ولا مثلا ، وإنما كان هـــربا إلى الله وعدلا ، فأراد أن يؤدب نفسه ، ويعاقبها بإتلاف ما أعجبها وشغلها عمـــا هو أعظم نفعا لها من تلك الخيل ؛ ليعلم الناس أنه فَضَّل تسبيح الله وذكره ، وآثَـــر طاعته وأمْرَه على ما يؤثرون من محبوب دنياهم ، وأن ذلك لا يساوي أكبر كـــبيره ، وأكبر ما يعظمون من عظمته شيئا من ذكر رهم ، وطاعة مولاهم ، وأراد تأديب نفسه إذا غفل ساعة واحدة بالخيل عن ذكر ربه[1] . اهـــ

قال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : وهذا قول السلف صلوات الله عليهم .

وقال آخرون : إنه لم يقتلها ، وإنما وسمها بالنار ليذكر شغله بها . اهـــ

(١) مجموع تفسير الأئمة ، ملحق تتمة ما فسره الإمام محمد بن القاسم ص ٦٤٤ .

وفي قوله تعالى :﴿ إذ عرض عليه ﴾ وجهان ، أحدهما : أن التقدير : نعم العبد وكان من أفعاله أنه فعل كذا ، الثاني : أنه ابتداء كلام ، والتقدير : واذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا .

وقوله ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ضمن أحببت معنى أَنَبْتُ ، فلذلك عداه بعن[1] ، والخير : المال الكثير ، لقوله :﴿ إن ترك خيرا ﴾ والمال الكثير: الخيل التي شغلته ، أو سمي الخيل خيرا لتعلق الخير بها ، قال الشاعر :

الخيل والخيرات في قرن

وأصدق من قول الشاعر قول سيدنا خاتم النبيئين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين :(الخيل معقود بنواصيها الخير)[2] .

﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ قالوا : يعني الشمس استترت بما يحجبها عن الأبصار ، مجاز في غروبها ، من توارى الملك بحجابه .

ولما شغله استعراض الخيل عن صلاته أو وِرْدَهُ اغتم لذلك غما شديدا فقال :﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ وفي ضمير الهاء قولان : أحدهما ــ وعليه الأكثر ــ : أنه للخيل ، أمر بردها وعقرها ، وهو قوله:﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ السوق : جمع ساق ، أي : يمسح السيف بسوقها وأعناقها ، أو يمسح سوقها وأعناقها بالسيف ،

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : معنى (أنبت) : جعلته نائبا ، وقال الزجاج : معنى ﴿أحببت حب الخير﴾ بمعنى آثرت ، وأن عن بمعنى على ، وجعلوا أحببت بمعنى استحببت ، وقد جاء بمعنى الإيثار في قوله تعالى :﴿ يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ أي : يؤثرونها عليها ؛ الإيثار من لوازم الأحباب ، فيجوز أن يضمن الإحباب معناه ، ويعدى تعديته ، ولكن عن بمعنى على فيه بعد ، وقال أبو البقاء : حب الخير : هو مفعول أحببت ؛ لأنه مصدر أحببت الإحباب ، ويجوز أن يكون مصدرا محذوف الزيادة ، وقال أصحاب الفرائد : أحببت حب الخير حبا ، أي : إحبابا ، ثم أضيف إلى المفعول .

(٢) ــ الحديث في الكشاف ٣٨٨/٣ قال في تخريجه ص ٤٢ / متفق عليه من حديث ابن عمر ، وتتمة الحديث (إلى يوم القيامة) .

يعني يقطعها ، تقول : مسح علاوته إذا ضرب عنقه ، وهذا قول السدي ومقاتل ، والفراء ، والزجاج وغيرهم .

وقال مجاهد : مسحها بيده حُباً لها ، واختاره ابن جرير .

القول الثاني : ضمير الهاء للشمس ، سأل الله تعالى أن يردها عليه فردها حتى صلى العصر ، ذكر هذا في التجريد ، والأول هو الوجه ، ولا بعد في أن يكون ذلك شريعةً لسليمان عليه‌السلام ، كالهدايا إلى مكة .

[الوجه الصحيح في قصة نبي الله داود عليه‌السلام واستعراض الخيل]

قلت : وقد أحسن الرازي في توجيه معنى هذه الآية في قصة سليمان عليه‌السلام حيث قال في [تفسير] قوله تعالى :﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ وجوه ، الأول: أن يضمن أحببت معنى فعل متعد بعن ، كأنه قيل : أنبت حب الخير عن ذكر ربي

والثاني : أن أحببت بمعنى ألزمت [والمعنى : أني ألزمت]حب الخيل عن ذكر ربي ، أي : عن كتاب ربي ، وهو التوراة ، لأن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح ، فكذلك في التوراة ممدوح .

والثالث : أن الإنسان قد يحب شيئا ، لكنه يحب أن لا يحبه ، كالمريض الذي يشتهي ما يريد في مرضه ، والأب الذي يحب ولده الرديء ، وأما من أحب شيئا وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة ، فقوله :﴿ أحببت حب الخير ﴾ يعني أحببت حبي لهذه الخيل ، ثم قال :﴿ عن ذكر ربي ﴾ يعني : أن هذه المحبة الشديدة إنما [حصلت]عن ذكر الله وأمره ، لا عن الشهوة والهوى ، وهذا الوجه أظهر الوجوه .

ثم قال تعالى :﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ أقول : الضمير في قوله :﴿ حتى توارت ﴾ وفي قوله :﴿ ردوها ﴾ يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدا إلى الشمس ، لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشي ، ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائد إلى الصافنات [ويحتمل أن يكون الأول متعلقا بالشمس والثاني

بالصافنات] ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك ، فهذه احتمالات أربعة لا مزيد عليها ، فالأول :[أن يعود الضميران معا إلى الصافنات ، كأنه قال : حتى توارت الصافنات بالحجاب ، ردوا الصافنات علي .

والاحتمال الثاني] : أن يكون الضميران معا عائدين إلى الشمس ، كأنه قيل : حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس .

روي أنه عليه‌السلام لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر فسأل الله أن يرد الشمس فقوله :﴿ ردوها علي ﴾ إشارة إلى طلب رد الشمس ، وهذا الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه الأول : أن الصافنات مذكورة بصريحها ، والشمس غير مذكورة ، وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر ، الثاني : أنه قال : ﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ﴾ وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه‌السلام كان يقول : ﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ وكان يعيد هذه الكلمة إلى أن توارت بالحجاب ، فلو قلنا : [المراد] حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه : أنه حين وقع بصره عليها حال جريها ، كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه ، وذلك مناسب ، ولو قلنا : المراد حتى توارت الشمس بالحجاب ، كان معناه : أنه كان يعيد تلك الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب ، وهذا في غاية البعد .

الثالث : أنا لو حكمنا بعود الضمير في قوله :﴿ حتى توارت ﴾ إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافيا لقوله :﴿ أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ فأن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ، ولما ترك ذكر الله .

الرابع : أن بتقدير أنه عليه‌السلام بقي مشتغلا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر ؟ فكان ذلك ذنبا عظيما ، وجرما قويا ، فاللائق بهذه الحالة التضرع والبكاء ، والمبالغة في إظهار التوبة ، فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لإله العالم ورب العالمين :﴿ ردوها علي ﴾ بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات

الأدب عقيب ذلك الجرم العظيم [فهذا]لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير ، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرم .

الخامس : أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى ، فكان يجب أن يقول : ردها علي ؛ لا أن يقول :﴿ ردوها ﴾ وإن قالوا : إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب ، فنقول : قوله ﴿ ردوها ﴾ لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة ، فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم .

السادس : أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لصار ذلك مشاهدا لكل أهل الدنيا، ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وإظهاره ، وحيث لم ينقل أحد ذلك علمنا فساده .

السابع : أنه تعالى قال :﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ ثم قال : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى من عوده إلى أبعدهما ، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد ، وأما العشي فأبعدهما ، فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى ، فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ على تواري الشمس ، وأن حمل قوله :﴿ ردوها علي ﴾ على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام في غاية البعد عن اللفظ .

ثم قال تعالى :﴿ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾ أي : فجعل سليمان يمسح سوقها وأعناقها ، قال الأكثرون : معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها ، أي : قطعها ، قالوا : إنه عليه‌السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقربا إلى الله تعالى .

وعندي أيضا أن هذا بعيد ، ويدل عليه وجوه ، الأول : أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق : قطعها ــ لكان معنى قوله :﴿ وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم ﴾

قطعها[1] ، وهذا مما لا يقول به عاقل ، بل لو قيل : مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق ، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح

الثاني : أن القائلين بهذا القول جمعوا على سليمان عليه‌السلام أنواعا من الأفعال المذمومة ، فأولها ترك الصلاة ، وثانيها : أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة ، وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم :(حب الدنيا رأس كل خطيئة) .

وثالثها : أن بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة البتة .

ورابعها : أنه خاطب رب العالمين بقوله :﴿ ردوها علي ﴾ وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس .

وخامسها : أنه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها ، وروي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم (أنه نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكلة) فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه‌السلام ، مع أن لفظ القرآن لم يدل على شئ منها .

وسادسها : أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله :﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ وأن الكفار لما بلغوا في السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : اصبر يا محمد على سفاهتهم ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾ ، وذكر قصة داود ، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان ، فكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد صلوات الله عليه وآله وسلم : اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام إنما يكون لائقا لو قلنا : إن سليمان عليه‌السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة ، والأخلاق الحميدة ، وصبر على طاعة الله ، وأعرض عن الشهوات واللذات ، فأما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه‌السلام في هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة ، والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقا بهذا الموضع، فثبت أن كتاب الله ينادي على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال ، بل

---

(١) المائدة : ٦

التفسـير المطابق الحق لألفاظ القرآن أن نقول : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينـهم ، كما أنه كذلك في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل ، وأمر بإجرائها ، وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا وحـب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه ، وهو المراد بقوله : ﴿عن ذكر ربي﴾ .

ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ أي : غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين بأن يردوا ذلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور

الأول : تشريفا لها ، وإبانة لعزتها ، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو .

والثاني : أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والمملكة بلغ إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه .

والثالث : أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ، ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقا موافقا ، ولا يلزمنا فيه شئ من تلك المنكرات والمحذورات .

وأقـول : أنا شديد العجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة ، مع أن العقل والنقل يردها ، وليس لهم في إثباتها شبهة ، فضلا عن حجة .

فإن قيل : فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ؟ فما قولك فيه ؟ فنقول : لنا هاهنا مقامـان [المقام] الأول : أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شئ من تلك الوجوه التي يذكرونها ، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرنا ظهورا لا يرتاب العاقل فيه

والمقام الثاني : أن يقال : هب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس فمـا قولك فيه ؟ وجوابنا : أن الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام

[وتــأول كلام الله عز وجل على أحسن الوجوه][1] ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ، ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية[2] .

انــتهى ما أردنا نقله من تفسير الرازي لما فيه من تقرير الحجة[3] في تنزيه الأنبياء صلوات الله عليهم .

ثم أخــبر تعــالى بشرح واقعة ثانية من وقائع سليمان عليه‌السلام فقال : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُــلَيْمَانَ﴾ أي : ابتليناه وامتحناه بسلب ملكه ، وقيل : بغير ذلك ، قيل : فتن بعد مــا ملك عشرين سنة ، وملك بعد الفتنة عشرين سنة ، ومعنى قوله : ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِــيِّهِ جَسَــدًا﴾ أي : [على][4] سرير ملكه ، الذي كان يقعد عليه ، قيل : إن الجسد الذي ألقي على ملكه جسم من الأجسام ، فيه مصلحة وحكمة لذي الجلال والإكرام ، وأن الله لم يعرفنا معرفة هذا الجسد فيما كلفنا ، ولم يخبرنا عن صفته فيما أخبرنا ، هذا تفسير الحسين بن القاسم عليه‌السلام .

وقيل : جسد لا روح فيه ، وهو شق الإنسان[5] .

قــال في التجريد : والجسد صخر الجني ، ولم يكن سُخِّرَ لسليمان ، وكان شيطانا ماردا عظيما ، لا يقوى عليه جميع الشياطين ، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه

---

(١) ما بين قوسي الزيادة ساقط من تفسير الرازي ، وهو ثابت في المصابيح .

(٢) وزاد الــرازي بعد هذا (فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ، ولا يلتفت إلى أقوالهم) والله أعلم (٢٦/ ٢٠٤ــ ٢٠٧) وقد أصلحنا اللفظ من الرازي فليتأمل .

(٣) وفي النسخة ب : لما فيه من تقرير حجة العقل والسمع في تنزيه الأنبياء صلوات الله عليهم ، وتأويل كلام الله عز وجل على أحسن الوجوه ، ومثل هذا ذهب الطوسي في تفسيره لهذه الآية .اهــ

قلنا : وقد روى الطوسي في التبيان ٨/٥٦١ ، قال : وقال ابن عباس : جعل يمسح الخيل وعراقيبها حبا لها ، وقــال أبو مسلم محمد بن بحر : غسل أعرافها وعراقيبها إكراما لها ، قال : لأن المسح يعبر به عن الغسل ، من قولهم : تمسحت للصلاة .

(٤) ما بين القوسين غير موجود في النسخة ب .

(٥) ولفظ النسخة ب : وفي تفسير العامة : جسد لا روح فيه ، وهو شق الإنسان .

وكـان ملكه في خاتمه ، فلما أراد دخول الكنيف وضع خاتمه عند أم ولد له تسمى أميـنة ، فجاء صخر في صورة سليمان فأخذ الخاتم منها ، وهي تظن أنه سليمان ، وقعد على سرير سليمان ، فهو الجسد الملقى على كرسيه .

[قصة النبي سليمان عليه‌السلام برواية الإمام الهادي إلى الحق عليه‌السلام]

قـلت : [وهذا ضعيف ولا دليل عليه] (١) وأحسن ما روي في قصة سليمان عليه السلام، وأصح وأقرب إلى الحق وأوضح ــ ما رواه الهادي إلى الحق عليه‌السلام في تفسيره لهذه الآية حيث يقول : معنى ﴿فتنا سليمان﴾ يقول : امتحنا ، وإنما كان ذلك من أجل ما سألت مليكة سبأ من طلبها حين طلبت منه قربانا تقربه على ما كانت تفعل وتعـرف مـن قديم فعلها ، فسألته صلى الله عليه أن يأذن لها في بقرة تقربها ، فلم يجبها، ثم سألته شاة فكره ذلك عليها ، ثم سألته طائرا ، فأعلمها أن ذلك لا يحل لها ، فوقعت في صدرها جرادة فقالت : فهذه الجرادة ائذن لي فيها ، فتوهم وظن أنها مما لا إثم عليها فيه ، إذ كانت مما لا يقع عليها ذكاة ، فسكت عنها ولم يمنعها عن ذلك فقطعت رأس الجرادة ، وأضمرت أنه قربان ، فلما خرج صلى الله عليه على جانب الـبحر نـزع خاتمـه من يده ، وكان لا يتطهر حتى ينزع الخاتم من يده ــ وهذا الواجـب عـلى كل متطهر إذا أراد أن يتطهر من جنابة أو غيرها لصلاته أن ينزع خاتمه ، أو يديره في إصبعه حتى يصل الماء إلى الشعر ، الذي يكون تحته ، وينقي من الدرن ما حوله ــ فلما نزع الخاتم من يده ، ومضى لطهوره خرج حوت من البحر فابتلع الخاتم ، وذهب في البحر ، فلما فرغ سليمان من طهوره نظر إلى الموضع الذي وضـع فيه خاتمه فلم يقدر عليه ، فعلم أن ذلك بسبب قد أحدثه ، وأن الله سبحانه أراد بذلـك فتنـته ، فدعا الريح فلم تجبه ، ثم دعا الطير فلم تجبه ، ثم دعا الجن فلم تجبه ؛ لَمَّا ذهب الخاتم ، وإنما كان سببا من الله قد جعله فيه ، وبه كان يطاع ، فعلم

---

(١) ما بين القوسين ثابت في ب ، وساقط من أ .

سـليمان أن العقوبـة قد وقعت به ، ووثب العفريت الملعون على سريره عند ذلك وهو ملكه ، فكان يتكلم على شبه كلام سليمان عليه‌السلام ، وهو من وراء حجاب لا يظهـر ولا يُرَى له شخص ، ودعا فلم يجبه إلا الإنس ، ومضى سليمان باكيا نادما عـلى ما فعله ، وجعل يتبع الصيادين على سواحل البحر ، يخدمهم ويعينهم وهم لا يعـرفونه ، ولا يعـلمون أنه سليمان ، فأقام على ذلك وقتا اختلف فيه الرواة فقال بعضهم : أربعين يوما ، وقال آخرون : بل مكث خمسين يوما ، وقال قوم : سبعين يومـا ، وهـو أكثر ما قيل فيه ، فجعل يتبعهم ويعمل معهم ، ويعطونه في كل يوم حوتـين ، فيبيع أحدهما فيشتري به خبزا ، ويشوي الآخر فيأكله ، فلما علم الله منه التوبة والرجوع ، والإنابة والخضوع ـ أراد أن يرد عليه نعمته فانصرف ذلك اليوم ومعه الحوتان اللذان عمل بهما في يومه ذلك ، فشق بطن أحدهما على ما كان يفعل ، فإذا الخاتم قد خرج من بطن الحوت ، فعرفه عند ذلك ، فأخذه وشكر الله وحمده على ما أولاه ، ثم دعا الريح فأجابته ، وكان قد أبْعَدَ عن بلده فأمر الريح فاحتملته من ساعته إلى موضعه ، وهرب اللعين العفريت لما رآه .

وقـال بعض الرواة إنه قد كان حبسه ، ورد الله على نبيئه ملكه ، ورجع إلى ما كـان الله قـد أعطاه ، فدعا الطير والجن والريح فأجابته ، ودامت نعمته ، قال عليه السلام: فإن قال قائل : فالجسد الذي ألقي على كرسيه هل كان جسما يظهر ويرى ؟ قيل له : لا إنما كان يظهر إليهم منه ما يسمعون من كلامه ، وكان مستترا عنهم ، فكانوا يظنون أنه سليمان ، وأنما احتجب عنهم لسبب أمر الله به ، أو فعلٌ فَعَلَهُ من نفسـه ، ولو ظهر لهم لبان أمره عندهم ، ولكن تمكّن منهم بالتمويه عليهم ، والمكر بهـم ، ومعاذ الله أن يكون من نال من الحُرَمِ منالا ، أو بلغ شيئا من ذلك ، أو فعله غير الذي شرحنا من كلامه[1] . اهـ

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم‌السلام ص ٤٠١ ، في أجابته على أسئلة أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل

وأما قوله : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ فاعلم أن الذين حملوا الكلام على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية ، وأنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك البتة من ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة ؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأنهم أبدا في مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما قال ﷺ :(والله إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة) فلا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى — والله أعلم — .

ثم أخبر سبحانه ما آتى نبيه سليمن صلى الله عليه من عظيم ملكه الذي لا ينبغي لأحد أن يملكه بعده فقال : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ولم يرد الحسد لغيره ، لكن كان في بيت الملك فطلب ملكا خارقا للعادة بالغا حد الإعجاز ، يدل على نبوته فيصدق وقيل : كان ملكا عظيما فخاف أن لا يحافظ عليه غيره فيه على حدود الله تعالى ، وقدم الاستغفار على الاستيهاب جريا على عادة الصالحين في تقديم أمر الدين على الدنيا .

ثم قال : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ أي : الكثير المواهب ، دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ؛ لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعده طلب المملكة أيضا ، وأيضا الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا ؛ لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم توسل به إلى طلب المملكة ، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضا ؛ لأنه تعالى يحكي عنه أنه قال :﴿ وقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال

وبنين﴾[1] وقال لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك﴾[2].

ثم ذكر سبحانه أنه آتاه الرياح غدوها شهر ورواحها شهر، وذكر ما آتاه من صفد الجن واستعمالهم فيما أحب من الأعمال لفضل قوتهم، ولما لهم من لطيف الاحتيال، فذكر في ذلك سبحانه ما ذكر من القصص والأخبار حين يقول: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾[3] لينة طيبة لا تزعزع، وقيل: مطيعة لا

---

(١) نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٢) طه: ١٣٢.

(٣) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني في بقية تفسيره لهذه السورة:

ومعنى قوله عز وجل: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ أي: حيث قصد وتوجه، وقيل: ﴿رخاء﴾ ريح طيبة، غير عاصفة، ومعنى قوله: ﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾ الغواص: هو الذي يغوص في البحر، قال:

أو درة أخرج الغواص صافية قد كان حاورها في اليم نعبوب

﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ أي: في الأغلال، قال الشاعر:

هلا عطفت على ابن أمك معبد والعامري يقوده بصفاد

وقال آخر:

وزيد الخيل قد شدت يداه إليه فما يرى غير الصفاد

﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ أي: اعط وتفضل، أو أمسك في الجنس من شئت بغير حساب منا لك علي ما تفعل من حكمك.

ومعنى ما ذكره الله من قصة أيوب صلى الله عليه حين يقول: ﴿مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ أي: بتعب وغم، وروي أن الشيطان خاطبه، ووشى إليه بزوجته أنها أهانت ضيفه، حتى حلف ليضربها، ثم نظر وتبين فندم، وحزن على خطيئته وعجلته، حتى طرحه الغم والحزن، ومرض وسقم وامتحن، ثم دعا ربه عز وجل فرحم دعاءه، وأجاب نداءه، وقال له: ﴿اركض برجلك﴾ يفحص الأرض برجله فخرج عليه ماء بارد، فاغتسل به، وشرب منه، وذهب عنه المرض، والوصب، وزال عنه بحمد الله الغم والنصب، ووهب له أهله، وزاده مثلهم معهم رحمة من سيدنا، وإحسانا، وتذكرة لأولي الألباب، وبيانا لهم، قال عز وجل: ﴿فخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث﴾ والضغث: هو جماعة القضبان المجتمعة المشتبكة من العيدان،

فضـرب زوجـته بتلك القضبان مجموعة ليبر قسمه ولا يحنث ولا يأثم في يمينه ، ومعنى قوله : ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ الأيدي : هن الأيادي والفضائل ، والأبصار : هي البصائر واليقين والمعرفة ، والمعرفة والعلم والدين .

﴿إنا أخلصناهم﴾ أي : طهرناهم وصفيناهم ﴿بخالصة ذكرى الدار﴾ أي : بالموعظة الخالصة ، وذكر دار الآخـرة ، وما فيها من النعيم والعذاب الأليم ، فلما ذكرناهم بذلك اعتبروا ، وأخلصوا من الذنب وطهروا ، فهذا أحسن ما أرى ، والله أعلم وأحكم .

﴿هـذا ذكر﴾ أي : مدح لهم وشرف وقدر ، ويحتمل وجها آخر ﴿هذا ذكر﴾ أي : هذا تذكير منا لكم بمـا قصصـنا من الأخبار عليكم ، ومعنى قوله : ﴿ما له من نفاد﴾ أي : من فراغ ولا زوال ، ومعنى قوله : ﴿وبـئس المهاد﴾ أي : بئس الفراش والمهاد : هو التمهيد ، وهو التوطئة للفراش والتمديد . قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه : (و لم أبت في مرقد ممهد) .

ومعنى قوله : ﴿حميم وغساق﴾ الغساق : هو الحر الشديد ، وقال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

طعـامهم الزقوم فيها وشربهم ... حـميم وغساق لا يسوغ من الحر

﴿وآخر من شكله أزواج﴾ أي: وعذاب آخر من شكل الحميم الغساق ، أي : من جنسه في شدة الحر والعذاب.
ومعنى قوله : ﴿أزواج﴾ أي : أصناف من الهوان ، وأنواع وألوان ﴿هذا فوج مقتحم﴾ أي : جماعة داخلة معكـم في النار ﴿لا مرحبا بهم﴾ أي : لا سعة لهم ولا خير ، والعرب تقول لمن يعاديها إذا رأوه مقبلا : لا مرحبا به ، ومعنى قوله : ﴿ضعفا في النار﴾ الضعف : هو الزيادة ، ومعنى قولهم : ﴿اتخذناهم سخريا﴾ أي : هـزأ ﴿قـل هـو نبأ عظيم﴾ أي : خبر عظيم ، يعني القرآن ، ومعنى قوله : ﴿بالملأ الأعلى﴾ أي : الخلق الأعلى ، يعني الملائكة صلوات الله عليهم أجمعين .

ومعـنى قوله : ﴿إذ يختصمون﴾ أي : يتناجون ، ومعنى قوله : ﴿ونفخت فيه من روحي ، أي : من أمري ، لمثل قوله : ﴿وادخلي جنتي﴾ لما كان الروح والجنة له ملكا مملوكا ، ومعنى قوله : ﴿لما خلقت بيدي﴾ أي : بقوتي ، قال الشاعر :

تحملت من أسماء ما ليس لي به ... ولا للجـبال الراسـيات يدان

لأن الجـبال ليـس لها أيدي ، ومعنى ﴿العالين﴾ أي : المرتفعين عن صفة المخلوقين ، هذا توقيف للعين عن تكبره عن الدين ، وكفره برب العالمين ﴿فإنك رجيم﴾ أي : مرجوم مبعد مذموم لعين ، واللعنة : السخط والإبعاد بالطرد ، قال الشاعر :

ذعـرت به القطا ونفيت عنه ... مقـام الذئب كالرجل اللعين

أي : الطريد ، ومعنى قوله : ﴿فإنك من المنظرين﴾ أي : من الجن الذين أنظرناهم إلى يوم الصيحة ، وهلاك الخلق أجمعين .

معنى قوله : ﴿المخلصين﴾ أي : الذين أخلصهم رب العالمين ، وطهرهم عن نجاسة الفاسقين ﴿لأملأن جهنم مـنك﴾ أي : مـن أصحابك وأشياعك ، ومعنى قوله : ﴿وممن تبعك منهم أجمعين﴾ أي : ممن تبع فعلك

تمتنع ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي : قصد وتوجه ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي : وسخرنا الشياطين ، أي : الجن ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدل من الشياطين [1] ، كانوا يبنون له ما يشاء من الأبـــنية ، ويغوصون في البحر فيستخرجون اللؤلؤ ، وهو أول من استخرج الدر ، والغواص : هو الذي يغوص [في] البحر ، قال الشاعر :

أو درة أخرج الغواص صافية   قد كان جاورها في اليم يعبوب

ثم قال : ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ ومعناه : أنه كان يقرن مردة الشياطين بعضهم إلى بعض للتأديب ، والأصفاد : القيود ، واحدها صفد ، والأصفاد : الأغلال ، قال الشاعر :

هلا عطفت على ابن عمك معبد   والعامري يقوده بصفاد

وقال آخر :

وزيد الخيل قد شدت يداه   إليه فما يرى غير الصفاد

وفي التجريد : الصفد : القيد ، وسمي به العطاء ؛ لأنه ارتباط للمنعم عليه ، وفرقوا بين الفعلين ، فقالوا : صفده : قيَّده ، وأصفده : أعطاه .

وكفر ابله وعصاه كمعصيتك ، وتكبر وتجبر مثل تكبرك ، ومعنى قوله :﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ أي : من أجرة ، ولا عطاء قال الشاعر : (قياما لديه يعملون بلا أجر ولا عطا).
﴿وما أنا من المتكلفين﴾ يعني الذين يتكلفون الكذب واختراعه ، ويعملون به وبقوله : ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ أي : خبره بعد زمان ، قال الشاعر :

ألا من لقلب يعرف الناس ما به   ولا يـــرتجى مـــنه السلو لحين

أي : الزمان

(١) فالشياطين : عطف على الريح ، و﴿كل بناء وغواص﴾ بدل من الشياطين ، ﴿وآخرين﴾ عطف على كـــل ، داخل في حكم البدل ، وهو بدل الكل من الكل ، وينبغي أن تكون الألف واللام للعهد إلى الشياطين المسخرين ، حتى يصح كونه بدل الكل ؛ لأن مطلق الشياطين وجنسهم غير منحصر في المذكورين . (حاشية العلوي ص ٢١٢) .

ثم قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ في المشار إليه قولان، أحدهما: أنه جميع ما أعطي من الملك والمال، ثم قال: ﴿فَامْنُنْ﴾ من المنة، وهي العطاء، أي: أعط من شئت ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ امنع من شئت، والمن: الإحسان إلى من لا يطلب ثوابه.

والثاني: أنه إشارة إلى الشياطين المسخرين، قال محمد بن القاسم عليهما السلام هذا في أسرى الجن المصفدين الذين ذكر الله أنهم في الأسار مقرنين، فأخبر تبارك وتعالى بأنه قد ملكه إياهم، فإن شاء مَنَّ عليهم وخلاهم، وإن شاء أمسكهم بغير حساب من الله يخافه فيهم .اهـ

والمعنى: فامنن على من شئت منهم بإطلاقه، أو أمسك من شئت منهم في القيود

وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قولان، أحدهما: أنه لا حساب عليه من الله تعالى، ولا إثم في المن والإمساك على حسب القولين، قال الحسن: لا تبعة عليك في العطية، إن أعطى أُجِرَ وإن لم يُعْطِ لم يكن عليه وزر، خصه الله بذلك.

والثاني: أن ﴿بغير حساب﴾ راجع إلى ﴿هذا عطاؤنا﴾ كأنه قال: هذا عطاؤنا بغير حساب فامنن أو أمسك، وله معنيان، أحدهما: الكثرة، والثاني: أنه لا ينقص من أجره شيء بسبب هذا العطاء.

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان في الدنيا أردفه بإنعامه عليه في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ قد مر تفسيره آنفا[1] ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مرجع، وهو الجنة

[القصة الثالثة قصة النبي أيوب عليه السلام]

ثم أخبر تعالى بشرح قصة أيوب عليه السلام وهي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى﴾ أي: حين نادى ﴿رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

---

(١) وذلك ما تقدم في أوائل قصة داود عليه السلام، وقد مر أن معنى زلفى: درجة رفيعة وقربة.

واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه[1] أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار ، كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك ، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره .

قال في الكشاف : ﴿أيوب﴾ عطف بيان ، و﴿إذ﴾ بدل اشتمال منه ﴿أني مسني﴾ بأني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال : بأنه مسه لأنه غائب[2].

وقرئ (بنصب) بضم النون وسكون الصاد ، وبفتحها والمعنى واحد وهو التعب والمشقة ، وقال أبو عبيدة : النصب بضم النون : الضر ، وبفتحها — الإعياء ، وأراد بالعذاب : المرض والألم الذي أصابه بسبب وسوسة الشيطان إليه ، وقيل : الضر في البدن ، والعذاب في ذهاب الأهل والمال ، وإنما نسب مرضه إلى الشيطان ؛ لأن الله فعله به بسبب طاعته للشيطان فيما وسوس إليه .

وذكر في سبب بلائه أن رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه .

وقيل : كانت مواشيه ترعى في ناحية ملك كافر ، فداهنه ولم يغزه ، وقيل : أعجب بكثرة ماله ، كذا في التجريد .

قلت : ولعل هذا لا يصح في نبيء الله ، ولا يجوز أن ينسب إلى أحد من رسل الله صلوات الله عليهم ، والصحيح ما نقله أئمتنا عليهم السلام في ذلك .

---

(١) في النسخة أ : (كانا ممن أفاض الله عليهما) . وما أثبتناه هو ما في النسخة ب . وهو الأولى للفظ (من) .

(٢) الكشاف ٩٧/٤ .

[خطيئة نبي الله داود عليه السلام عند أهل البيت عليهم السلام]

من ذلك قول[1] الحسين بن القاسم عليهما السلام : روي أن الشيطان خاطبه ، ووشى إليـــه بزوجته أنها أهانت ضيفه ، حتى حلف ليضربنها ، ثم نظر وتبين فندم ، وحزن علي خطيئته وعجلته ، حتى طرحه الغم والحزن ، ومرض وسقم وامتحن .

ثم دعا ربه عز وجل فرحم دعاءه ، وأجاب نداءه فقال له : ﴿ ارْكُـــضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَـــلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فاغتسل وشرب منه ، وذهب منه المرض والوصب ، وزال عنه بحمد الله الغم والنصب[2] . اهـــ

ومن ذلك ما رواه الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحي الهادي إلى الحق عليه السلام : أن الســـبب في ذلك : هو أن بعض المساكين وفد عند أهل أيوب ذات ليلة ، وكان أيـــوب غائبا فأمسى بغير عشاء ، فأصبح المسكين عازما ، فلقيه أيوب ، فأخبره أنه بات طاويا ، فحلف أيوب عليه السلام ليضربن امرأته بسبب تركها المسكين بغير عشاء ، وتدبر في نفسه أنه لم يكن لها جرم ولا ذنب ؛ لأنها لم تعلم بالمسكين ، فبقي محتارا في يمينه حتى أعتل علة شديدة طويلة بسبب ذلك ، وأنزل الله براءة يمينه بعد ذلك . اهـــ

ومـــن ذلـــك في معنى هذه الآية وسببها تفسيرا وتأكيدا لما مضى يقول الهادي إلى الحـــق عليه السلام : معـــنى ﴿ مسني الشيطان ﴾ فهو ما كان من كلامه ووسوسته ، وذلك أن أيوب صلى الله عليه كان قد جعل ضيافة أضيافه إلى امرأته ، فأتاه إبليس الـــلعين فقال : يا أيوب إن امرأتك قد فضحتك اليوم في أضيافك فأتاها فقال : ما حملك على أن تفضحيني في أضيافي ، أقسم لأضربنك مائة ضربة بالعصا ، فلما هم بالذي أقسم به من ضربها أتاه اللعين إبليس فقال : يا أيوب سبحان الله أيحل لك أن تضـــرب امرأة ضعيفة لم تجرم جرما ، ولم تأت قبيحا ؟ ولم تفعل أمرا يستحق منك

---

(١) في النسخة ب : (قال الحسين بن القاسم عليهما السلام ..)

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام أوائل هذه السورة .

ضربا ، وليس لها قوة على ضربة واحدة ، ولا تهلكها ، وتأثم بربك في أمرها ، فلما تــركها وكف عنها أتاه من موضع آخر فقال : يا أيوب سبحان الله كيف يحل لك أن تقعــد وقد حلفت لتضربنها ، ولا ترجع عن يمينك ، ولا تأثم بالله ربك ؟ فلما رجــع إليها ليضربها أتاه بالوسوسة على مثل الذي أتاه أولا ، فلم يزل يفعل ذلك حــتى دخلــه الغم ، وعظم عليه الأمر ، فانقلب على ظهره ، وجعل يفكر وينظر ، وخالطه من الوسوسة ما غلبه على أمره ، فلم يزل كذلك حتى تَقَرَّحَ ظهره ، ولزمه الأمــرُ العظيم ، وشدَّ به الأمر ، وتمادت به العلة ، وذهبت ماشيته ، وافترق ماله ، ومــات أولاده ، ومرضت المرأة من الغم والحزن ، فلما رأى ذلك من كان معه في المترل أخرجوه صلى الله عليه إلى ناحية منه على خط الطريق ، وليس يقدر أن يرفع يدا ولا رجلا ، واشتد به البلاء ، وهو مع ذلك صابر محتسب ، فلما كان يوم[1] من الأيام مضى به نفر ، فلما رأوه ونظروا إلى ما هو فيه من عظيم البلاء ، وشدة النتن ، قــالوا : والله لو كان هذا وليا لله لأجابه ولكشف ضره ، ولما أصابه شئ من هذا ، فلما سمع ذلك من قولهم ، نادى ربه ﴿أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ فجاز أن يقول : مسني الشيطان لما أن كان ذلك من وسوسته وكيده وسببه ، فاستجاب الله له ، فقال : ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ ولم يقدر أن يرفع يداً ولا رجلاً ، فضرب بعقبه فانبعثت عليه عين ففارت وارتفعت حتى كانت أكبر من جلســته ، فجعلت تنسكب عليه ، وهو يغتسل بمائها ، وهي تقلع عنه كل ميت ، وتنقي عنه كل ما كان من الأقذار ، وتميط عنه الأذى ، وجعل يشرب منها ويخرج مــا في جوفه ، حتى نقي بدنه ، ورجع إلى أفضل ما كان عليه أولا ، ورد الله عليه أهله وماله ، وأمره أن يأخذ ضغثا فيضرب به المرأة كفارة اليمين التي حلف ، فقال

---

(١) في النسخة : أ ، والنسخة ب :(فلما كان يوما من الأيام) والصواب : يوم ؛ لأنه لا يصح أن يكون أيوب اسم كان . وكان هنا تامة ، ويوم فاعل .

بعض الرواة : إنه أخذ من هذا الذي يكون فيه التمر ، فجمع منه مائة غصن فضربها به ضربة ، وقال بعضهم : ضربها ضربتين ، واختلف في ذلك ، غير أن الصحيح من ذلك أنه جمع ضغثا فضربها به .

فإن قال قائل : كيف كان إتيان إبليس إلى أيوب صلى الله عليه ؟ قيل له : لم يره عيانا ، وإنما سمع كلامه ، ولم يدرك شخصه ، وقد قال بعض الجهلة : إنه تصور له في صورة غير صورته ، وليس ذلك كما قالوا ، وكيف يقدر مخلوق أن يغير خلقته ، ويُحَوِّلَ نفسه صورا مختلفة ، وليس يقدر على ذلك إلا الله رب العالمين ، الذي خلق الصور والأجسام ، ونقلها من حال إلى حال فسبحان الله رب العزة عما يصفون ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. اهـ

وقوله :﴿ اركض برجلك ﴾ حكاية ما أجيب به ، أي : قيل له : اضرب برجلك الأرض ، فضرب فنبعت عين ، وهذا ببلد الشام ، فقيل :﴿ هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ أي : هذا ماء بارد تغتسل به ، وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهرك .

أما قوله تعالى :﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ فقد قيل فيه عين أهله ، وقيل : مثلهم ، والأوَّل أولى ؛ لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : معناه : أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء .

وقال بعضهم : بل حضروا بعد أن غابوا عنه ، واجتمعوا بعد أن تفرقوا .

وقال بعضهم : بل تمكن منهم وتمكنوا منه ، فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة .

وقال الحسن : المراد هبة الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا ، أي : أحيينا أولاده ؛ لأنه بُلِيَ بالمرض في بدنه وذهاب ماله ، وكان له سبعة بنين ، وسبع بنات .

ثم قال :﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ أي : نوافل ، وهو بنو البنين ، يريد تعالى : أنه متعه بصحته

وبماله ، وقواه حتى كثر نسله ، وصار أهله ضعف ما كان ، أو أضعاف ذلك .

ثم قال سبحانه : ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي : إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة لا على سبيل اللزوم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ الألباب : العقول ، أي : تذكرة وموعظة لهم ليرغبهم في الصبر ، وفي عاقبة الصابرين ، إذا سمعوا بصبر أيوب وعاقبته ، والمقصود التنبيه على ما وقع ابتداء الكلام به ، وهو قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ﴾ .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : الضغث : هو جماعة القصبان المجتمعة المشتبكة من العيدان فضرب زوجته بتلك القصبان مجموعة ليبر قسمه ، ولا يحنث في يمينه . اهـ

وقيل : الضغث : هو الحزمة الصغيرة من حشيش أو نحوه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ وشكواه إلى الله لا تسمى جزعا ، وكذا إلى الطبيب لا يخرجه عن حد الصبر ؛ لأن صبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية ، وقيل : إنما طلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة ، فيقولون : لو كان نبيا لما أصابه ما أصاب ؛ وليقوى على الطاعة فقد بلغ من أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان .

ثم قال تعالى : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : رجّاع إلى الله تعالى توّاب ، وهذا يدل على أن تشريف ﴿ نعم العبد ﴾ إنما حصل لكونه أوّابا .

ولما كان المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام هو التأسي بفعلهم ، والإقتداء بهم في صبرهم في الله عز وجل ـ ذكر تعالى بعد هؤلاء قصة إبراهيم عليه السلام وصبره، وسائر الأنبياء عليهم السلام كذلك ، فقال سبحانه : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبراهيم وَإِسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ وهو ابن إسحاق بن إبراهيم ، قرأ ابن كثير : (عبدنا) على الواحد ، وهو قراءة ابن عباس ، وقرأ الباقون : (عبادنا) قالوا : لأن غير إبراهيم من

الأنبياء قد أجري عليه هذا الوصف ، فجاء في عيسى :﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾ [(١)] وفي أيوب ﴿نعم العبد﴾ وفي نوح ﴿إنه كان عبدا شكورا﴾ [(٢)] فمن قرأ : (عبدنا) جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا ، وهو إسحاق ويعقوب ، ومن قرأ (عبادنا) جعل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عطف بيان لعبادنا ، والمعنى في الآية كأنه تعالى قال : فاصبر على ما يقولون ﴿واذكر عبدنا داود﴾ إلى أن قال :﴿واذكر عبادنا إبراهيم﴾ أي : واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقي في النار ، وصبر ولده للذبح ، وصبر يعقوب حين فقد ولده ، وذهب بصره .

ثم قال تعالى :﴿أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي : البصائر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات لا يقدرون على أعمال جوارحهم، ومسلوبي العقول لا استبصار لهم ، والمراد بالأيدي : أعمال الآخرة ، ولما كانت الأعمال تباشر بالأيدي غلبت ، فقيل في كل عمل : هذا ما عملت أيديهم ، وإن كان لا يباشر بالأيدي ، والمعنى : الذين انتفعوا بالأيدي والأبصار فيما يقربهم من الله، ويباعدهم من غضبه ، وكأن غيرهم ممن لم يعمل كعملهم لا أيدي لهم ولا أبصار .

وقال تعالى :﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ أي : جعلناهم لنا خالصين ، وقوله : ﴿بِخَالِصَةٍ﴾أي : بخصلة خالصة لا شوب فيها ، ثم فسرها بأنها ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي : تذكرهم الدار الآخرة دائبا لا ينسونها ، أو تذكيرهم لغيرهم إياها ، وترغيبهم فيها ، ومعنى الباء في ﴿بخالصة﴾ تحتمل السببية ، أي : أخلصناهم بسبب هذه الخصلة ، ويحتمل أن يريد : أخلصناهم بتوفيقهم لها ، واللطف بهم في اختيارها فلا تكون للسببية[(٣)] .

---

(١) الزخرف : ٥٩ .

(٢) الإسراء : ٣ .

(٣) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : وقال الزجاج ، وأبو البقاء : يجوز أن يكون ذكرى الدار بدل من خالصة ، وإضافة خالصة إلى ﴿ذكرى الدار﴾ على قراءة نافع للبيان ، كخاتم فضة ، ذكره أبو

وقرأ نافع بإضافة خالصة إلى ﴿ذكرى﴾ والمعنى : أخلصناهم بإخلاصهم ذكرى الدار بالخوف منها ، وقال ابن زيد : أخلصناهم بأفضل ما في الجنة . قاله في التجريد

وقال الهادي إلى الحق عليه‌السلام : معنى ﴿واذكر عبادنا﴾ هو اذكر فعلهم وصبرهم فينا ولنا ، فاقتد به ، ومعنى ﴿أولي﴾ فهو أهل ، و﴿الأيدي﴾ فهي الحسنات المقدمات التي أسدوها إلى أنفسهم بطاعة ربهم ، والعمل بمرضاة خالقهم ، فكانت أفعالهم الحسنة من طاعة الله والإخلاص له أياد قدموها لأنفسهم إلى الله عز وجل ، وعلى ذلك يخرج معنى قوله تعالى : ﴿بل يداه مبسوطتان﴾[1] يريد : أفعاله الحسنة ، وأياديه ـ إلى خلقه ـ الجميلة[2] ، ومعنى ﴿الأبصار﴾ فهو الاستبصار في أمر الله والمعرفة والعلم به ، وعلى ذلك يخرج معنى قوله عز وجل في نفسه ﴿سميعا بصيرا﴾ يريد عليما خبيرا ﴿إنا أخلصناهم﴾ يريد : أنا اختصصناهم بخاصة ، وجعلناها لهم وفيهم ، ومعنى ﴿ذكرى الدار﴾ فهو: بقاء ذكرهم في دار الدنيا بما ذكرهم به في كتابه ، فبقاء ذكرهم باق في ذريتهم وغير ذريتهم إلى يوم القيامة ،

السبقاء ، أو الخالصة مصدر بمعنى الإخلاص ، مضاف إلى المفعول ، أي : بإخلاصهم ذكرى الدار ، وقيل : بمعنى الخلوص ، فالإضافة إلى الفاعل ، أي : بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، وعن بعضهم : خالصة . اسم فاعل تقديره : بخالص ذكرى الدار ، أي : خالص أن يشاب بغيره ، وقرى بتنوين خالصة فيجوز أن يكون ذكرى في موضع نصب مفعول خالصة ، أو على إضمار أعني ، وأن يكون في موضع رفع فاعل على خالصة ، أو على تقدير : هي ذكرى .. ثم قال : قال أبو البقاء إضافة الذكرى إلى الدار إضافة في المعنى إلى الظرف ، أي : ذكراهم في الدار الدنيا ، وهو إما مفعول به على السعة ، نحو : يا سارق الليلة ، أو على حذف حرف الجر نحو : ذهبت الشام ، وقال الجوهري : الذكر والذكرى : نقيض النسيان ، وذكرته بقلبي ولساني ، والذكر : الصيت والثناء ، وقول المصنف ومعنى ﴿ذكرى الدار﴾ ذكراهم الآخرة دائبا منبئ على أن الذكرى نقيض النسيان ... وقوله : أو تذكيرهم .. على أنها من الذكر اللساني .. ثم قال : قوله : ويعضد الأول ، وهو أن الباء للسببية ، والمعنى : بسبب هذه الخصلة ، وبأنهم من أهلها ؛ لأن الظاهر من إضافتها إليهم هو أنها فعلهم ، وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل .

(١) المائدة : ٦٤ .

(٢) صفة لأياديه .

وذلـــك سؤال إبراهيم صلى الله عليه وآله لربه حين قال :﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾[١] يريد اجعل لي ذكرا بخير في الآخرين ، يقول : من بعدي من أهل هذه الدار إلى يوم الدين ، فأجابه الله ، وأخبر بما جعل له من الذكر الباقي في هذه الدار .

ثم أخـــبر أنهم عنده في دار الآخرة الباقية أعظم منهم ذكرا في الدار الفانية فقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا ﴾ يريد : في آخرتنا ودار ثوابنا ﴿ لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾[٢] . اهـــ

ثم قـــال :﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ ﴾ هو ابن إبراهيم ﴿ وَالْيَسَعَ ﴾ هو نبيئ ، كأن حرف الـــتعريف دخـــل على يسع ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ أي : ذا الحظ من الله ، قيل : كان له ضعف عمل الأنبياء ، قيل : هو إلياس ، وقيل : زكرياء ، وقيل : يوشع بن نون .

ثم قال :﴿ وَكُـــلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ فهؤلاء الأنبياء تحملوا الشدائد في دين الله ، وهاهنا آخر الكلام في قصص الأنبياء عليهم السلام في هذه السورة .

ثم قال تعالى :﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أي : هذا شرف ، وذكر جميل لهؤلاء الأنبياء يُذكَرُون به أبدا

قـــال الهادي عليه السلام : يقول : اذكرهم بأنهم ممن جعلنا لهم الذكر في دار الدنيا ، وفي الآخـــرة مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ألا ترى كيف قال :﴿ هذا ذكر ﴾ يقـــول : ذكـــرنا لهم في هذه السورة ذكر باق لهم ، كما سأل إبراهيم ربه إلى يوم الدين [٣]. اهـــ

وقيـــل [٤]: المعـــنى أن هذا نوع من الذكر الذي هو القرآن ، فيه أخبار الأنبياء ، ونذكر عقيبه نوعا آخر من الذكر والقرآن ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، كما يقول مَنْ صنَّفَ : هذا بابٌ ، ونشرع في باب آخر ، ونحو ذلك .

---

(١) الشعراء : ٨٤ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٣٨ .

(٣) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٣٨، ٤٣٩ .

(٤) في النسخة ب (قال بعضهم : المعنى ..) .

وعــن ابن عباس : هذا ذكر من مضى من الأنبياء ، أي : خبرهم وقصتهم ؛ لأنه تعالى إنما شرع في ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يُصَبِّرَ محمدا صلى الله عليه وآله وسلم على تحمــل سفاهة قومه ، فلما تم هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقا آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال لا جرم قال :﴿ هذا ذكر﴾ .

ثم شرع في تقرير الباب الثاني فقال :﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ والدليل عليه أنه لما تم ذكر أهل الجنة ، وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال :﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ ومعنى قوله تعالى :﴿ لحسن مآب ﴾ أي : لحسن مرجع ، ثم فسره بقوله : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ وهو بدل من قوله :﴿ لحسن مآب ﴾ قيل : عدن بمعنى إقامة ، وقيل : جنات عدن علم[1] لجنات مخصوصة بحسن زائد ، من عَدَنَ بالمكان أقام فيه .

ثم قــال :﴿ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة في هــذه الآية أشياء الأول : أحوال مساكنهم ، فقوله :﴿ جنات ﴾ تدل على أمرين ، أحدهمــا : كونهــا جنات وبساتين ، والثاني : كونها دائمة آمنة من الانقضاء ، وفي قوله: ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ وجوه ، الأول : أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنــان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها ، وحيوه بالسلام ، فيدخل كذلك محفوفا بالملائكة ، على أعز حال وأجمل هيئة ، قال تعالى :﴿ حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[2] .

والثاني : قال ابن جرير : فائدة ذكر تفتيح الأبواب ، أنه أراد أنها تفتح بغير أيدي سكانها ، ولكن بالأمر .

وعن الحسن : هي أبواب تكلم فتمتثل ، انفتحي انغلقي ، ثم قال :﴿ مُتَّكِئِينَ

---

(١) يعــني : أن (عدن) علم ، ولهذا احتيج إلى وصفه بالجملة في قوله تعالى :﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده ﴾ فلو لم تكن معرفة لما احتيج إلى ذلك ، وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مآب . ومفتحة : حال .

(٢) الزمر : ٧٣ .

فِيهَا ﴾ على الفرش التي بطائنها من إستبرق ، وظهائرها من سندس ، وقول : ﴿ متكئين فيها ﴾ حال قدمت على العامل فيها ، وهو قوله : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ والمعنى: يدعون في الجنات متكئين فيها ﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ وهي ما يتلذذ به من الثمار ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ عظيم لا يوصف[1] ، والسبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة ، فرغبهم الله فيه .

ولما أخبر الله تعالى بأمر المسكن ، وأمر المأكول والمشروب ، ذكر عقيبه أمر المنكوح ، فقال : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ هن حور قصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا يمددن طرفا إلى غيرهم ، مقصورات القلب على محبتهم ، ومعنى ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي : لدات بعضهن في سن بعض ؛ لأن المحبة بين الأقران أثبت ، وفائدة الوصف بذلك أنه أكمل في الأنس والمحبة أن يكون الإنسان مع من يساويه في السن آنس ، كما أن كونه مع من يجانسه ويماثله آنس ، وقيل : سمين أترابا لأن التراب مسهن في وقت واحد ، أي : تراب اللعب ، ويحتمل أن الجواري أتراب ، ويحتمل كونهن أترابا للأزواج ، قال القفال : والسبب في اعتبار هذه الصفة ــ أنهن لما تشابهن في الصفة والسن والحلية ، كان الميل إليهن على السوية ، وذلك يقتضي عدم الغيرة

ثم قال تعالى : ﴿ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني : أن الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ، ومعنى قوله : ﴿ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي : لأجل يوم تجزى كل نفس بما عملت ، وهذه حكاية ما يقال لهم .

ثم إنه تعالى أخبر عن دوام هذا الثواب فقال : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا ﴾ الذي أعددناه لكم ﴿ مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ بل دائم ، ما أكل في الجنة من ثمر خلف مكانه مثله ، وما أكل من حيوانها عاد مكانه حيا .

ولما أتم ذكر أهل الجنة ، وأراد تعقيبه بذكر أهل النار ليكون الوعيد مذكورا عقيب

---

(١) التعظيم مستفاد من التنكير .

الوعد ، والترهيب عقيب الترغيب ، قال : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآب ﴾ أي : هذا كما ذكر[1] ﴿ وإن للطاغين لشر مآب ﴾ وهذا في مقابلة قوله : ﴿ وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ .

قال المرتضى عليه‌السلام : والمآب فهو : المأوى والمرجع الذي يقدمون عليه في آخرتهم ، ويصيرون إليه عند حشرهم ، والعرب تقول : أُبْنَا موضع كذا وكذا ، أرادوا نزلنا فيه ورحناه ، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

تُأوّبي أهلك يا ركاب   سوالما ويهنك الإياب

يريد بقوله : تأوبي أي : صليهم وروحي إليهم ، ثم قال : يهنك الإياب ، أي : يهنك الوصول بالسلامة ، فأراد بقوله : يهنك أي : تستريحي وتسلمي ، فلما أن كان إياب هؤلاء الطاغين إلى الآخرة جهنم ، وما أعد الله فيها من العقاب والحميم الذي يتجرعونه ، والغسَّاق والعذاب الأليم ، والهوان الشديد ـ كان مآبهم شر مآب . اهـ

ثم فسره بقوله : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلون بينها ، ونارها من فوقهم وتحتهم كالشاة المصلية ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ يقول : بئس القرار ، وبئس الممهد والمضجع والمسكن ، والمهاد في الأصل : الفراش الوطئ الذي يمهد للنائم ، شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم ، ومعنى ﴿ بئس ﴾ الذم .

ثم قال عز وجل : ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ فيه وجهان ، الأول : أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير : هذا حميم وغساق فليذوقوه[2] . الثاني : أن يكون

---

(١) يعني : أن ﴿ هذا ﴾ مبتدأ ، خبره محذوف ، وتقديره : هذا كما ذكر . ويجوز أن يكون التقدير : الأمر هذا ، فيكون ﴿ هذا ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الأمر .

(٢) يحتمل أن يكون ﴿ هذا ﴾ مبتدأ ، و﴿ حميم وغساق ﴾ بدلا من هذا ، و﴿ فليذوقوه ﴾ خبر ، قال مكي : قيل : ﴿ فليذوقوه ﴾ خبر هذا ، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في هذا . ويحتمل أن يكون ﴿ هذا ﴾ مبتدأ ﴿ وحميم وغساق ﴾ خبر ، قال السيد العلوي : وقال صاحب الكشف : حوز أبو علي أن يكون ﴿ هذا ﴾

التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴿هذا فليذوقوه﴾ ثم يبتدئ فيقول ﴿حميم وغساق﴾ أي : منه حميم وغساق ، والحميم : الماء الحار يفور غليانا ، وأما الغساق : فقرئ مشدد السين ومخففها ، ومعناهما واحد ، وفيه أقوال ، أحدها : أنه ما يغسق ، أي : يسيل من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها ، قاله قتادة وغيره .

والثاني : أنه الزمهرير يحرق ببرده ، كما أن الحميم يحرق بحره ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه واد في جهنم تسيل إليه حمة كل ذي حمة من حية أو عقرب أو غيرها ، فتستنقع فيؤتى بالجهنمي فيغمس فيه غمسة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويَجُرُّ لحمَه كما يجر الرجل ثوبه ، قاله كعب .

والرابع : أنه ما يسيل من دموعهم ، قاله السدي .

وعن الحسن : أنه عذاب لا يعلمه إلا الله .

﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ﴾ قرئ (وأُخَرُ) على الجمع ، أي : ومذوقات أخر من مثل هذا في الشدة والفضاعة ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أي: أجناس مختلفة من الهوان أنواع وألوان .

وقرئ (وآخر) على الإفراد ، أي : وعذاب آخر ، أو مذوق آخر ، ثم فسر بأزواج الذي هو جمع ؛ لأن عذابا ومذوقا في تأويل الجمع ، كما قررنا [1] وأزواج صفة لآخر

مبتدأ ، والخبر ﴿حميم وغساق﴾ صفة لحميم ، وليس بنوع آخر ، فيكون قوله : ﴿فليذوقوه﴾ عنده اعتراضا ، كما تقول : زيد فافهم رجل صالح ، وقال أبو علي : هو مثل قوله الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم

حمله سيبويه على أن خولان جملة ، فكأنه قال : هؤلاء خولان ، فالمعنى على هذا : أنبه وأشير إلى الذي توعدوا به من قبل وعرفوه حق معرفته فليذوقوه . اهـ

وأما على الوجه الثاني : فيحتمل أنه منصوب بفعل مضمر على شريطة التفسير .

(١) قال السيد العلوي رحمه الله [وهذا على قراءة الجمع] : قال مكي : و﴿من شكله﴾ صفة لأخر ، وأزواج الخبر ، والهاء في شكله يعود على المعنى ، أي : وأواخر من شكل ما ذكرنا ، وقيل : يعود على الحميم

واعلم أنه لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم مع الذين كانوا أحبابا لهم في الدنيا ، فقال تعالى : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ ﴾ أي : جماعة ﴿ مُّقْتَحِمٌ ﴾ أي : داخل ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ النار في صحبتكم ، والاقتحام : ركوب الشدة ، والدخول فيها ، والقُحمة : الشدة ، أي : جمعٌ كثيف قد اقتحم معكم النار ، كما كانوا اقتحموا معكم في الجهل والضلال .

قال الكلبي : يضربون بالمقامع حتى يثبوا في النار خوفا من تلك المقامع ، فذلك سبب اقتحامهم .

وقال الواحدي : المقتحم الداخل في الشيء رميا بنفسه فيه .

وقوله : ﴿ هذا فوج ﴾ حكاية كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم .

وقيل : هو حكاية قول الطاغين بعضهم مع بعض ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ هو دعاء من الرؤساء على أتباعهم ، تقول لمن تدعو له : مرحبا ، أي : أتيت رحبا من البلاد لا ضيقا ، ثم تدخل عليه لا في دعاء السوء ﴿ قالوا لا مرحبا بهم ﴾ يقول الرؤساء للأتباع ، وقوله : ﴿ بهم ﴾ بيان للمدعو عليهم ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أي : داخلوها كما دخلناها ومقاسون حرها ، والمعنى : صالون فيها كما تصلى الشاة في النار ، وهو تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ، فأجابهم الأتباع بأن : ﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي : قدمتم العذاب لنا بإغوائكم لنا ، والمقدم عمل السوء من الأتباع ، لكن لما كان الرؤساء هم السبب فيه بالإغواء ، وكان العذاب جزاء العمل قيل : ﴿ أنتم قدمتموه ﴾ يريدون أن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء

ويجوز أن يكون الخبر محذوفا ، أي : ولهم أخر ، و﴿ من شكله ﴾ و﴿ أزواج ﴾ صفتان ، ومن قرأ بالتوحيد رفعه بالابتداء أيضا ، و﴿ أزواج ﴾ ابتداء ثان ، و﴿ من شكله ﴾ خبر الأزواج ، والجملة خبر آخر ، ويجوز أن يكون معطوفا على حميم ، و﴿ من شكله ﴾ نعت له ، و﴿ أزواج ﴾ يرتفع بالجار والمجرور ، ولا يحسن أن ﴿ أزواج ﴾ خبرا عن ﴿ أخر ﴾ لأن الجمع لا يكون خبرا عن الواحد .

أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم : ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ أي : العذاب أو صُلِيِّهم ، وقيل : الضمير كناية عن الطغيان الذي دل عليه قوله : ﴿ وإن للطاغين لشر مآب ﴾ [(١)] .

وقوله : ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أي : بئس المستقر والمسكن جهنم .

ثم قالت الأتباع ، أو جميع أهل النار ما حكى الله عنهم : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا ﴾ العذاب ، أي : سببه ﴿ فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ أي : مضاعفا ، وهو أن يزيد على عذاب مثله ، فيصير ضعفين .

وهاهنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحبابا لهم في الدنيا .

فأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا فهو قوله : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا ﴾ أي : قال الطاغون : ﴿ مالنا لا نرى رجالا ﴾ في النار ، [أي : قال الطاغون : ما لنا لا نرى] [(٢)] المؤمنين الذين كانوا عندنا من الأشرار ، وقيل : القائل صناديد قريش ، كأبي جهل ، يعنون عمارا ، وصهيبا ، وبلالا ، ونحوهم من فقراء المسلمين ، الذين لا يؤبه لهم ، أو ليسوا ذوي أنساب .

ومعنى : ﴿ كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ أي : من الأرذال الذين لا خير فيهم ؛ ولأنهم كانوا على خلاف دينهم ، فكانوا عندهم أشرارا .

ثم قالوا : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ أي : هزؤا ، قرئ بهمزة وصل على أنه خبر صفة لرجال ، قال أبو عبيد : وبالوصل يقرأ ؛ لأن الاستفهام متقدم في قوله : ﴿ مالنا لا نرى رجالا ﴾ ولأن المشركين لا يشكون في اتخاذ المؤمنين سخريا ؛ لأنه تعالى قد أخبر بذلك في قوله : ﴿ فاتخذتموهم سخريا ﴾ فكيف يحسن أن يستفهموا عن شئ

---

(١) ص : ٥٥ .

(٢) ما بين القوسين ساقط في أ ، وثابت في ب .

علموه !؟ أجاب الفراء عنه بأن قال : هذا من الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ ، ومثل هذا الاستفهام جائز على الشيء المعلوم . اهـ

ويقرأ بهمزة قطع على أنه إنكار على أنفسهم وتوبيخ لها في الاستسخار منهم ، أي: كنا نسخر بهم في الدنيا ، أم مفقودون هم ؟ ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ أي : مالت عنهم أبصارنا في الآخرة فلم ترهم في النار ، وهم في النار ، وهذا أيضا على طريق الإنكار والتوبيخ لأنفسهم ؛ لأنهم قد علموا في الآخرة أن أولئك المؤمنين في الجنة ، فعلى قراءة وصل الهمزة وحمل ﴿اتخذناهم﴾ على الخبر ، يكون ﴿أم زاغت﴾ وحده توبيخا وإنكارا ، وعلى قراءة قطعها هما استفهامان بمعنى الإنكار والتوبيخ لأنفسهم ، ويحتمل أن المراد ﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾ في الدنيا فكنا نصرفها عنهم استحقارا لهم ، والله أعلم

قال الحسن : كل ذلك فعلوا ، اتخذوهم سخريا ، وزاغت عنهم أبصارهم استحقارا لهم . [والله أعلم . قال الحسن : كل ذلك فعلوا ، اتخذوهم سخريا ، وزاغت عنهم أبصارهم استحقارا لهم] (١).

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرات قال : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لابد أن يتكلموا به ، ثم بين ما هو فقال : ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ شبه تقاولهم ، وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين ؛ لأن قول الرؤساء: ﴿لا مرحبا بهم﴾ وقول الأتباع : ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم﴾ من باب التخاصم .

ثم اعلم أنه تعالى لما حكى في أول السورة أن محمدا لما دعا الناس إلى أن الإله واحد، وإلى أن رسول الله حق من عند الله ، وإلى أن القول بالقيامة حق ، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة ، وقالوا : إنه ساحر كذاب (٢) ، واستهزءوا بقوله .

---

(١) ما بين أقواس الزيادة ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب .

(٢) في النسخة ب : وقالوا : إنه شاعر كذاب .

ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين ، الأول : ليصير ذلك حاملا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم على التأسي بالأنبياء عليهم السلام في الصبر على سفاهة القوم .

والثاني : ليصير ذلك رادعا للكفار عن الإصرار عن الكفر والسفاهة ، وداعيا لهم إلى قبول الإيمان .

ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر ، وهو شرح نِعَمِ أهل الثواب ، وشرح عقاب أهل العقاب ، فلما تمم الله هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة ، وهي تقرير التوحيد والنبوة والبعث ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ أي : ما أنا إلا منذر لكم من عذاب الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أي : أقول لكم : إن دين الحق هو توحيد الله ، وأن تعتقدوا أن لا إله إلا الله ﴿ الْوَاحِدُ ﴾ بلا ند ولا شريك ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ لكل شئ ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : وأقول لكم : إن الملك له في العالم ، وهو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغالب إذا عاقب العصاة ، وهو مع ذلك ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ لذنوب من التجأ إليه وأناب .

واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ هُوَ نَبَأٌ ﴾ أي : خبر ﴿ عَظِيمٌ ﴾ أي : هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولا منذرا ، وأن الله لا شريك له نبأ عظيم ، وقيل : النبأ العظيم هو القرآن عن ابن عباس ، وقيل : البعث عن الحسن .

ثم قال : ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ولا يعرض عنه إلا شديد الغفلة .

واعلم أن قوله : ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ ترغيب في النظر والاستدلال ، ومنع عن التقليد ؛ لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق ، فاز بأعظم أنواع السعادة ، فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ، ومطالب هائلة مهيبة ، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام ، وأن لا يكتفي بالمساهلة والمسامحة .

ثم احتج لصحة نبوته وخبره بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ أي : مكان السماء الدنيا ، وهم آدم والملائكة ، وإبليس أهل هذه القصة المستقبلة ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي : حين يتقاولون .

ولما أمر الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز، أمره أن يقول : ﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : أبين صحة الإنذار بالمعجزات ، يريد : أنما أخبرت به عن تقاولهم أمر ما كان لي به علم ، لأني ليس ممن يقرأ الكتب ، ويخالط العلماء ، وإنما علمته بالوحي ، أوحى الله إلي هذه القصة لأنذركم بها ، ولتصير هذه القصة حاملا لكم على الإخلاص في الطاعة ، والاحتراز عن الجهل والتقليد ، فكذلك ما أنذرتكم به .

قال في التجريد : وقاولهم الله تعالى بواسطة ملكه ، والمراد بالاختصام هو قول الله تعالى لهم على لسان ملك : ﴿ إني خالق بشرا من طين ﴾ وقول الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [1] وقوله : ﴿ إذ قال ربك ﴾ بدل من ﴿ إذ يختصمون ﴾ وسماه اختصاما مجازا وتوسعا ، وإن لم يكن فيه حقيقة المخاصمة ، وهي المنازعة ، وإنما كان من الملائكة سؤال استرشاد [2] ، وقوله : ﴿ إن يوحى إلي ﴾ اعتراض توسط بين الجملتين المتصلتين ، وهما ﴿ إذ يختصمون ﴾ و﴿ إذ قال ربك ﴾ وهذا قول الأكثرين .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) قيل : يلزم منه أن يكون الإسناد في ﴿ يختصمون ﴾ حقيقة ومجازا ، وهو ضعيف كما علم ، والأولى أن لا يجعل ﴿ إذ قال ربك ﴾ بدلا من ﴿ إذ يختصمون ﴾ بل يكون منصوبا بإضمار اذكر ، وتفسير المخاصمة بغير المقاولة المذكورة .

وأنا أقول : إذا حمل الاختصام على التقاول بين الملائكة ، وهم المرادون بالملأ الأعلى ، فإسناد التقاول إليهم حقيقة ، وإن كان بعضهم يقول عن نفسه ، والآخر عن الله ، وإنما يكون الإسناد مجازا لو أسند التقاول إلى الله والملائكة معا ، وكانت مقاولة الله بواسطة ، وليس كذلك . (أفاده السيد العلوي رحمه الله) ص ٢١٧ .

وقـال قوم الملأ الأعلى : الملائكة ، واختصامهم في الكفارات والدرجات ، فأما الكفـارات : فإسباغ الوضوء في السبرات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصـلاة بعـد الصلاة ، وأما الدرجات فإفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالـليل والناس نيام ، جاء هذا في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد أنهم اختصموا ، أي : تناظروا ، أيٌّ هذه أفضل . اهـ

قـلت : ويؤيد الأول قول الهادي عليه السلام ــ وما أحسن ما قال ــ حيث يقول : معنى ﴿قل هو نبأ﴾ يعني : أنما نبأهم من هذه الأخبار ، ومن أخبار الملائكة عليهم السلام ﴿نبأ عظيم﴾ يقول : علم غيب عظيم ﴿أنتم عنه معرضون﴾ يقول : أنتم عـن تفهمـه غافلون ، والملأ الأعلى : فهم الملائكة ، ومعنى ﴿يختصمون﴾ فهو يـتحاورون ويجيـبون ويجابون ، وذلك حين قال الله لهم : ﴿إني جاعل في الأرض خـليفة﴾ يريد عز وجل آدم ، فقالوا : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحـن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ فقال سبحانه : ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾[1] يقـول : إني أعـلم من بركته وبركة ما يخرج منه من المطيعين مالا تعرفونهم ، ولا تفهمونهـم ، مـنهم مَن لولا هو ما خلقته[2] ولا خلقت الدنيا محمد صلى الله عليه وآله، السراج المنير ، البشير النذير ، ألا ترى كيف قال : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ومعناه : فهو قعوا من أجل ما أظهرت فيه من عظيم صنعي ساجدين ، فلما أن كان السجود من سـبب آدم جاز أن يقول : ﴿قعوا له﴾ وإن كان الوقوع والسجود لله من دونه ، ولكن هذا على مجاز الكلام ، كما قال : ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ والقرية لا

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) الضـمير في (خلقـته) يعـود إلى أبينا آدم عليه السلام ، أو إلى الخليفة المذكور في الآية المتقدمة ، أو إلى ﴿بشرا﴾ في الآية الآتية . وقوله :(محمد) بدل من (مَن) .

تسأل وإنما يسأل أهلها ، فلما أن كانت القرية من سبب أهلها قال : ﴿ واسأل القرية ﴾ [١] . اهـ

ومعنى ﴿ فإذا سويته ﴾ أي : أتممت خلقه وعدلته ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ نفخ الروح عبارة عن الإحياء ، ومعنى ﴿ من روحي ﴾ أي : من أمري ، كمثل قوله : ﴿ وادخلي جنتي ﴾ [٢] لما كان الروح والجنة له ملكا مملوكا ، ومعنى ﴿ فقعوا ﴾ أي : خروا له ﴿ ساجدين ﴾ ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أي : فلما سواه ونفخ فيه من روحه سجد الملائكة ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ أفاد الإحاطة ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ أفاد الاجتماع ، وأفاد الجمع بينهما أنهم سجدوا له عن آخرهم ، وفي وقت واحد [٣] ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ ﴾ هو من الجن ، لكن لما أمر بالسجود معهم غلبوا عليه في ﴿ فسجد الملائكة ﴾ ثم استثني منهم استثناء متصلا ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أريد

---

(١) يوسف : ٨٢ .

(٢) الفجر : ٣٠ .

(٣) قال السيد العلوي رحمه الله : قال صاحب الفرائد : يشكل ما ذكر بقوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ وعن عبد القاهر : أنه قال : إن زعم من زعم أن أجمعين للاجتماع خطأ ؛ لأنه يقال : ناظرت علماء الشرق أجمعين ، ولم تكن المناظرة بالاجتماع في وقت واحد .

ويمكن أن يقال : إذا كان أجمعون بدون الكل أفاد التأكيد المجرد ، وهو أن لا يخرج أحد من الفعل ، فيفيد الاجتماع في الفعل في الفعل ، ولا يفيد الاجتماع في وقت واحد ، وإذا كان مع الكل ، فالكل للإحاطة ، وأجمعون للاجتماع في وقت واحد ، وبيانه : أن اللام في الملائكة للاستغراق ، دخلت على صيغة الجمع فيفيد الشمول ، ثم أكد بقوله : ﴿ كلهم ﴾ لدفع توهم غير الشمول والإحاطة ، وأردف ﴿ أجمعون ﴾ ولا بد له من فائدة زائدة ، وليست إلا ما ذكر لفقد غيره ، أو نقول : إن (أجمعون) يفيد الاجتماع في وقت واحد حيث يمكن ، ما لم تدل قرينة على خلافه .

قال السيد العلوي : روى الزجاج عن المبرد أن (كان) لقوتها على معنى المضي ، عبارة عن كل فعل ماض ، ثم قال الزجاج : كان هو على باب سائر الأفعال إلا فيه إخبارا عن الحال فيما مضى ، إذا قلت : كان زيد عالما فقد أنبأت أن حاله فيما مضى من الدهر هذا ، وإذا قلت يكون عالما فقد أنبأت أن حاله سيقع فيما يستقبل هذا ، فهما عبارتان عن الأفعال والأحوال .

وجـــود كفره ذلك الوقت لا قبله ، لكن (كان) مطلق[1] في جنس الأوقات الماضية صالح لأيها شئت ، أو في الماضية لكن في علم الله تعالى .

واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بسبب الحســد والكــبر ، فالله سبحانه ذكر هذه القصة هاهنا ليصير سماعها زاجرا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين .

والحاصــل أنــه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال ، ومنعهم عن الإصرار والتقليد ، وذكر أمورا ، أولها : أنه نبأ عظيم ، فيجب الاحتياط فيه .

والثاني : أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة ، لا الجهل والتكبر .

الثالث : أن إبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنها ، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات والله أعلم .

فإن قيل : هل أمر الجن بالسجود مع الملائكة ؟ أم خص إبليس من دونهم ؟

قــلت : قــال بعض ائمتنا عليهم السلام : إنه خص بالأمر من دونهم لما كان حاضرا للأمر بالسجود .

وقال المرتضى عليه السلام : إنما أمر الله سبحانه الملائكة والجن جميعا بالسجود فذكر عــز وجــل الأفضل ، وقدمه وهم الملائكة ، فاجتزى بذكرهم بالسجود عن ذكر غيرهم ، وذلك فموجود في اللغة ، يقول القائل للجماعة إذا كانت مجتمعة ، وكان فيها رئيس قد كاتبه وداعاه فامتنع عليه قال : عصوا وأدبروا ، وإنما حكم عليهم به، وكــان هــو المكــاتب والمراسل ، فحكم بفعله عليهم ، وإن كانوا لم يذكروا ولم

(١) أي : لكن لفظ (كان) مطلق في جنس الأوقات ، فكان : اسم لكن ، وقوله : مطلق . خبرها مرفوع .

يكاتبوا ، ومن ذلك قول الله عز وجل : ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾[1] وقد كانت معصيته ومعصية حواء واحدة ، لأن الله سبحانه يقول في كتابه : ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾ ثم قال : ﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾[2] ثم قال : ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ فصار المذكور بالمعصية آخراً آدم ، وهما أوّلاً مشتركان في المعصية ، فذكر الله سبحانه معصية آدم وأغفل حواء .

وقال سبحانه : ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾[3] أفتقول : إن الله لم يتب على حواء ؛ إذ لم يذكرها بالتوبة ؟ فإن قلنا : إنها لم تتب كنا في ذلك من الآثمين ، فاستغنى الله سبحانه بذكر آدم وتوبته عن ذكرها وتوبتها ؛ إذ كانت طريقتُها طريقتَه ، وتوبتُها كتوبته ، وهذا أيضا موجود في اللغة ، يقال : أطاعت العرب كلها إلا فلانا الديلمي ، فلم يكن قوله : إلا فلانا الديلمي يوجب أنه عربي ، ولكنه يوجب أن يكون من المأمورين بالطاعة ، فلم يوجب هذا الاستثناء له عربية ، ولكنه يوجب أنه كان من المأمورين ، فكذلك قول الله سبحانه : ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن﴾ يوجب أن في المأمورين بالسجود خلقا مع الملائكة سواهم ، فلذلك استثناه عز وجل ، وذكره أنه من الجن ، وقوله : ﴿كان من الجن﴾ يوجب أن الجن كانوا مأمورين كما يوجب قولي : أطاعت العرب كلها إلا فلانا الديلمي لأنه قد كان هو ومن كان معه في من أمر ، فاجتزيت بقولي : العرب ، عن ذكر العجم ؛ إذ جمعهم كلّهم الإسلامُ ، كما أن الملائكة والجن جمعتهم كلّهم المعرفةُ بالله سبحانه والإقرارُ به ، وكيف يقدر أحد من الآدميين أن ينسبه إلى الملائكة المقربين ، والله ينسبه إلى الجن ، فلا يشك في هذا إلا عَمِي القلب بعيد الذهن . اهـ

---

(١) طه : ١٢١ .

(٢) الأعراف : ٢٢ .

(٣) البقرة : ٣٧ ،

ثم قال الله تعالى : ﴿قَالَ يَاإبليس مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي : بقوتي ، قال الشاعر :

تحملت من أسماء ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان

أي : قـوة ؛ لأن الجبال ليس لها أيد ، وقد سبق أن أكثر الأعمال تباشر باليدين فغلب العمل بهما وإن بوشر بغيرهما ، حتى قيل في عمل القلب ، ومن لا يد له : هذا ما عملت يداك .

وقـال في التجريد : المراد التمثيل بحال من يفعل شيئا بيده من غير واسطة ، فكأنه أراد لما خلقت بغير واسطة .

﴿أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ يعني : استكبرت الآن أم كنت أبدا من المستكبرين العالين ، من علا وفاق ، أي : المرتفعين عن صفة المخلوقين ، هذا توقيف للّعِيْنِ على تكبره وكفره برب العالمين ، وإنكارٌ عليه وتوبيخٌ[1] ، وقيل : يريد أتركت ذلك لدعوى أنك كبير ولست بكبير ، أم أنت عال وفائق فأجاب بالثاني ، وهو أنه خَيْرٌ حيث ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ فأجاب بأنه من العالين ، وقوله : ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ يجري مجرى البيان ، وهذا على سبيل الأولى [2] ، أي : لو كان من نار مثلي لم أسجد له كيف لمن هو دوني من طين ، وأعتقد أن للنار فضلا على الطين ؛ لأنها تغلبه وتأكله ؛ ولأن النار تضيء ، وقد أخطأ من وجهين ، أحدهما: في دعواه أن النار خير من الطين ، بل الطين خير من النار ؛ لأنه ينبت

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : إنه ورد على سبيل المجاراة ، وإرخاء العنان مع الخصم ، أي : هب أنه كان مخلوقا من تراب ، فهلا نظرت إلى أمري فسجدت ، ولم تنظر إلى تلك العلة ، فلم تمتنع .

(٢) قوله : على سبيل الأولى . هذا إشارة إلى قوله :﴿أنا خير منه﴾ في قوله : فأجاب بأنه من العالين ، حيث قال :﴿أنا خير منه﴾ يعني هذا المذكور أولى من الجواب المطابق ، وهو قوله : من العالين ، لأنه جواب مع العلة ، ولهذا قال : لو كان مخلوقا من نار لما سجدت له ؛ لأنه مخلوق مثلي ، فكيف أسجد لمن هو دوني ، ولو أجاب على مقتضى الظاهر ، قال : أنا من العالين ، لم يفد هذه الفائدة . (حاشية العلوي خ ٢١٨) .

الثمار الحسنة ، والأشجار الطيبة ، ويحفظ ما أودع فيه بخلاف النار ، والثاني : أنه ليس له أن يخالف أمر الله وإن كان أفضل ، أو أصله ، فإن الملائكة أفضل من آدم ، وقد سجدوا له لأمر الله تعالى .

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي : من الجنة ، وقيل : من السموات ، وقيل : من الخلقة التي افتخرت بها ، فاسودَّ بعد ما كان أبيضَ ، وقَبُحَ بعد ما كان حسنا ، وأظلم بعد ما كان نورانيا[1] ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي : مطرود من رحمة الله ، والمعنى : مرجوم مُبْعَدٌ مذموم ؛ لأن من طُرِدَ رُمِيَ بالحجارة[2] ، أو مرجوم بالنجوم ، وقيل : مرجوم بالذم واللعن

ثم قال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ اللعنة : هي السخط والإبعاد ، قال الشاعر :

ذعرت به القطا وبقيت عنه　　　مقام الذئب كالرجل اللعين

أي : الطريد .

ومعنى ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي : الجزاء والحساب ، وهو يوم البعث .

فإن قيل : كلمة (إلى) لانتهاء الغاية ، فقوله : ﴿ إلى يوم الدين ﴾ يقتضي انقطاع تلك اللعنة عند مجيء يوم الدين ؟ وفي الجواب احتمالان ، أحدهما وهو الذي في الكشاف : أن يراد أن عليه اللعنة وحدها إلى يوم الدين ، فإن كان يوم الدين اقترن باللعنة أنواع من العذاب الشديد تصير اللعنة مع حضورها منسية[3] ، والثاني : أن يراد بيوم الدين الأبد الدائم ، نحو ﴿ خالدين فيها مادامت السموات والأرض ﴾[1]

---

(١) قيل : هذا يدل على أنه لم يكن كافرا قبل ذلك ، وأنه صار كافرا بعد استكباره .

(٢) قوله : لأن من طرد رمي بالحجارة . متعلق بقوله : معناه المطرود من رحمة الله ، فكأنه قال : عنى بالرجيم المطرود ؛ لأن من طرد . فيكون كناية ، وقوله : أو مرجوم بالنجوم . عطف عليه ، وعلى هذا يكون تصريحا .

(٣) يريد : أن له اللعنة في الدنيا ، وهي الطرد والتبعيد ، فقط ، فإذا كان يوم القيامة انقطع انفراد اللعنة ، وصارت مقيدة بالعذاب ، أو كأن اللعنة بالنسبة إلى العذاب إذ ذاك كلا شيء ، أي غير معتد بها ، كما اعتد بها في الدنيا ، فكأنها انقطعت .

واعلم أن إبليس لما صار ملعونا ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : أمهلني من الموت .

قــال الإمام القاسم بن علي العياني عليه‌السلام : إنما طلب النظرة من العذاب ؛ لأن الجن خلق معمرون لا يموتون إلا دفعة قرب يوم القيامة .

ومثله قول القاسم بن إبراهيم والهادي عليهما‌السلام .

ثم ﴿ قال ﴾ تعالى ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ أي : من الجن الذين أنظرناهم إلى يوم الصيحة وهلاك الخلق أجمعين ، ثم قال تعالى :﴿ إِلَـى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ وهو عند النفخة الأولى التي يموت عندها الخلائق .

وصحت الإضافة في ﴿ يوم الوقت ﴾ لأنه عام إلى خاص ؛ لأن الوقت بعض اليوم وجزء من أجزائه ، ولأن الوقت أعم من اليوم لصحته على الليل ، ونظيره خاتم فضة أو فضة خاتم .

ومعــنى وصفه بالمعلومية أنه معلوم عند الله تعالى وحده لا يعلمه غيره ، أو أراد أنه معلوم لا يتقدم ولا يتأخر .

ثم ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ أقسم بعزة الله وهي سلطانه ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعــني بــني آدم ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصهم لدينه رب العالمين ، وطهرهم بتوفيقه من نجاسة الفاسقين ؛ لأنه لا سلطان له عليهم .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوي عباد الله المخلصين ، قال تعالى في قصة يوسف :﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [٢] ويحصل من مجموع هاتين الآيتين أن

والوجه الثاني الذي ذكره المصنف هو الوجه .

(١) هود : ١٠٧ / ١٠٨ .

(٢) يوسف : ٢٤ .

إبليس ما أغوى يوسف ، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف من القبائح .

واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام ﴿قَالَ﴾ الله ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ قرأ عاصم وحمزة (فالحق) بالرفع (والحق﴾ بالنصب ، والباقون بالنصب فيهما ، أما الرفع فتقديره : الحق قسمي ، وأما النصب فعلى القسم ، أي : بالحق كقولك : الله لأفعلن .

وأما قوله :﴿والحق أقول﴾ انتصب ﴿والحق﴾ بقوله :﴿أقول﴾ .

وفي التجريد : قوله :﴿فالحق﴾ [بالنصب] مقسم به وجوابه ﴿لأملأن﴾ فحذف حرف القسم ، وعدي [إليه] [1] فعل القسم كالله في قوله :

إن عليك الله أن تبايعا تؤخذ كرها و تجيء طائعا

أقسم الله بالحق ، وقوله :﴿والحق أقول﴾ اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه ، ومعناه : ولا أقول إلا الحق ، والمراد بالحق الذي أقسم به إما اسمه تعالى في قوله : ﴿أن الله هو الحق المبين﴾ [2] أو الحق الذي هو نقيض الباطل ، عظمه الله بإقسامه به

وقد قرئ بنصبهما ورفعهما وجرهما ، ورفع الأول ونصب الثاني ، وبكسر الأول ونصب الثاني ، وبنصب الأول ورفع الثاني .

فنصب الأول على انه مقسم به فحذف حرف القسم ، وعدي إليه فعل القسم .

وجره على بقاء عمل حرف القسم بعد حذفه .

ورفعه على أنه مبتدأ خبره محذوف ، أي : فالحق قسمي .

ونصب الثاني على أنه مفعول ﴿أقول﴾ قدم ، ورفعه على أنه مبتدأ خبره أقول ،

---

(١) ــ ما بين أقواس زيادة ساقط من أ ، وهو ثابت في النسخة ب .

(٢) النور : ٢٥ . والآية في سورة النور ، بأن المفتوحة .

أي : أقوله ، وجره على حكاية الجر في ﴿ فالحق ﴾ المقسم به ، أو قسم ثان ، كما تقول : والله والله أقول ذلك لأقومن ، و﴿ أقول ﴾ اعتراض .

وقال الفراء : النصب في الأول على أنه مصدر مؤكد ، كقولك : حقا لآتينك ، ووجود اللام وطرحها سواء .

وقال مكي : انتصب الأول على الإغراء ، أي : اتبعوا الحق ، والزموا الحق .

وأما الحق الثاني فيجوز إذا نصب أن يكون بأقول كما تقدم ، وأن يكون توكيدا للأول حيث ينصبان معا .اهـ

ومعنى ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ﴾ أي : من جنسك ، وهم الشياطين ﴿ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ أي : من ذرية آدم ، وقوله : ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد للضمير في ﴿ منك ﴾ و﴿ تبعك ﴾ و﴿ منهم ﴾ ومعناه : لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين ، لا أترك منهم أحداً

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي : القرآن ، أو الوحي ، أو الإسلام ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ولا عطاء ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ المدعين ، حتى أدعي ما ليس لي من النبوة ، وأتقول : إن القرآن من نفسي ، أو لم أتكلف ذلك بنفسي ، وإنما كلفني الله به حيث أمرني .

قال بعض المحققين[1] : واعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة ، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقا كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين ، ثم قال عند الختم ، هذا الذي أدعو الناس إليه يجب أن ينظر في حال الداعي ، وفي حال الدعوة ؛ ليظهر أنه حق أو باطل ، أما الداعي وهو أنا ، فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجرا ولا مالا ، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال البتة، وكان من الظاهر أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان بعيدا عن الدنيا عديم الرغبة فيها ، وأما كيفية

(١) في نسخة : (قال الرازي) .

الدعـــوة فقـــال : ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ والمفسرون ذكروا فيه وجوها ، والذي يغـــلب عـــلى ظني[1] أن المراد أن هذا الدين الذي أدعوكم إليه ليس دينا يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة ، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته ، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله أولا ، ثم أدعوكم [ثانيا] إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به [يقوي ذلك]قوله : ﴿ليس كمثله شئ﴾[2] وأمثاله .

ثم أدعوكم ثالثا[3] إلى الإقرار بكونه موصوفا بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة

ثم أدعوكم رابعا إلى الإقرار بكونه منزها عن الشركاء والأضداد .

ثم أدعوكم خامسا إلى الامتناع من عبادة هذه الأوثان التي هي جمادات خسيسة لا منفعة في عبادتها ولا مضرة في الإعراض عنها .

ثم أدعوكم سادسا إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة وهم الملائكة والأنبياء .

ثم أدعوكـــم ســـابعا إلى الإقرار بالبعث والقيامة ﴿ليجزي الذين أساوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾[4] .

ثم أدعوكم ثامنا : إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة .

فهذه الأصول [الثمانية] هي الأصول القوية المعتبرة في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وبدائه العقول ، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول [الثمانية]، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها ، بل كل عقل سليم ، وطبع مستقيم فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وبعدها عن الباطل والفساد ، وهو المراد من قوله : ﴿إنْ

---

(١) في الرازي (والذي يغلب على الظن) .

(٢) الشورى : ١١ .

(٣) في المصـــابيح . ثم أدعوكم ثانيا . وفي الرازي ما أثبتناه . وما بين أقواس الزيادة من الرازي . وقد أصلحنا اللفظ منه ٢٦/٢٣٦ .

(٤) النجم : ٣١ .

﴿هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي : ما القرآن إلا موعظة وتنبيه ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي : الثقلين .

ولما بين هذه المقدمات قال تعالى : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي : ولتعلمن صحة خبر القرآن وإنه الحق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي : عند الموت ، أو يوم القيامة .

وقال الحسين بن القاسم عليه‌السلام : معنى ﴿بعد حين﴾ بعد زمان ، قال الشاعر :

ألا من لقلب يعرف الناس ما به ... ولا يرتجى منه السلو لحين

وفي البرهان ﴿بعد حين﴾ بعد الموت ، وقبله لما ظهر الأمر علموه ، والمعنى : أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد وأبيتم قبول هذه البيانات التي ذكرناها فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين في هذا الإعراض ، أو مخطئين ، وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب ــ

والله أعلم

في النسخة أ :

تم الكتاب بمن الله العزيز الوهاب ، الذي إليه المرجع والمآب ، وقت الظهر في اليوم الخامس والعشرين أو السادس والعشرين من شهر ربيع الأول ، من سنة خمس وسبعين وألف سنة ، وراقمه يطلب ممن اطلع عليه ، أو قرأ فيه أن يمده بما أقدر عليه من الدعاء ، وأجره على الله سبحانه ، كتب الفقير إلى الله الغني به عمن سواه أحمد بن محمد بن علي بن محمد الشرفي القاسمي نسبا ، والزيدي مذهبا ، والعدلي اعتقادا ، رزقه الله بفضله ورحمته ومنه وعفوه رضاه ، إنه جواد كريم ، رؤوف ، رحيم ، غني، حكيم ، عليم ، حليم ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين وسلم .

إلى هنا انتهى الجزء الثالث ، ويبدأ الجزء الرابع من سورة الصافات

الفهرس

